

دار الكتب الخديوية



الجـــزء السادس

طبـــع
بالمطبعة الأمـــيرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٣ هـ
١٩١٥ م

فهـــــرس

الجـــــزء السادس

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

المقالة الرابعة

(تم فهرس الجـــزء السادس من كتاب صبح الأعشىٰ) .



الجـــزء السادس



كتاب



تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجـــزء السادس

طبـع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٣ هـ
١٩١٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

المَهْيَع الثانى

فى ذكر الألقاب والنعوت المستعملة عند كُتّاب الزمان، وبيان معانيها، ومَنْ يقع عليه كل واحد منها من أرباب السُّيوف وغيرهم

(وهى نوعان)

النوع الأوّل

(الألقاب الإسلامية، وهى صنفان)

الصنف الأوّل

(المذكّرة، وهى ضربان)

الضرب الأوّل

(الالقاب المفردة المختصة فى اصطلاح الكُتّاب باسم الألقاب)

وهذه جملة منها مرتبة على حروف المعجم ليسهُلَ استخراجها .

حرف الألف

(الأَتَابِكِىّ) وهو من ألقاب أمير الجُيوش ومَنْ فى معناه، كالنائب الكافِل ونحوه، وهو بالأتابك أخَصُّ. وقد تقدّم معنى الأتابك فى الكلام على ألقاب أرباب الوظائف.

وأنّ أصلَه بالطاء فقُلِبت تاءً فى الاستعمال، وأن معناه «الأبُ الأمير» وحينئذ فتكون النســبةُ فيه للبالَغة . نعم إن نُسِب إليه غيرُه من أتباعه كانت النســبةُ إليه حقيقيّةً على بابهـا .

(الأتقىٰ) من ألقابِ ملوكِ المَغرِب التى يُكْتَب إليهم بها من الأبواب السلطانية، مضاهاةً لـما يُوجَد فى مكاتَباتهم من الألقاب . وهو أفعَلُ التفضيل من التَّقْوىٰ .

(الأثِير) بالثاء المثلّثة من ألقاب أرباب الأقلام : من القُضَاة والعلماء والكُتّاب ونحوهم، وربمـا استُعمِل فى ألقــاب الصُّلَحاء أيضا . وأصله فى اللغة المُخَالِص، وحينئذ فيصلح أن يكون لَقَبا لكلّ من نُسِب إلىٰ المُخالَصة من أرباب الســيوف والأقلام جميعًا، والأثِيرىّ نسبة إليه للبالغة .

(الأثِيل) بالمثلثــة أيضا من ألقاب أرباب الأقلام كالأثير، ومعناه فى اللغــة الأصِيل، ومنه قيل مَجْدٌ مُؤَثَّل وأثِيــل أى أصِيل . وحينئذ فيصلُحُ أن يكون لقبـا لكلِّ ذى أَصَالة من أرباب السيوف والأقلام، والأثِيلىُّ نسبةٌ إليه للبالغة .

(الأجَلُّ) يكون فى الاصطلاح من ألقاب السلطان كما يقال السلطانُ السيِّدُ الأجَلُّ ويكون من ألقاب السامِى بغــير ياء فما دونه فيقــال : « السامى الأميرُ الأجَلُّ » ونحو ذلك، وهو مما يُنْكَر علىٰ كُتَّاب الزمان : لاستعماله فى الأعلىٰ والأدنىٰ علىٰ ماسيأتى بيانه إن شاء الله تعــالىٰ . علىٰ أن هــذا اللقبَ فى الدولة الفاطميّــة كان هو أعلىٰ الألقاب وأرفعَها قَدْرا، حتّى قال ابن شِيث فى "مَعَالم الكِتَابة": إنه محظورٌ علىٰ غير الوزير . وقد كانت الوزارةُ فى زمانهم بمثابةِ السَّلْطنة فى زماننا، فتصرّف فيه الكُتَّاب حتّى استعملوه فى أدنىٰ الرُّتَب أيضا، والأجَلِّىُّ نسبةٌ إليه للبالغة .

(الأخَصّ) من ألقاب أربابِ السُّيوف، والكُتَّابُ يستعملونه فى أدنىٰ الألقاب ممـا تَسْقُط فيه ياءُ النسب : من السامِى بغير ياء فمـا دُونَه ، علىٰ أن معناه رَفِيع : لأَخْذه من الخُصُوصية : وهى الانفراد بالشىء، وكانَ الأحقُّ أن يكون مختصًّا بالألزام المقرَّبين دُونَ غيرهم؛ والأخَصِّىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الأَخَوِىّ) من الألقاب المختصـةِ فى الغالب بالمكاتَبات الإخْوانِيَّة ، وربمـا وقعت فى المكاتبـات المُلُوكية إذا كان قَدْرُ المَلِكين المتكاتبين متقارِبًا،وهو نسبةٌ إلىٰ الأخوة، وكأنه جعله أخاه حقيقةً .

(الأَرِيب) من ألقابِ أرباب الأقلام . وهو فى اللُّغة العاقلُ ، ومنه قيل للدَّهَاء إرْبٌ بكسر الهمزة و إسكان الراء لأنّ الدَّهاء من جملة العقل؛ والأَرِيبىّ نسـبةٌ إليه للمبـالغة .

(الأرْقىٰ) من ألقاب ملوك المَغْرِب . وهو مأخوذٌ من الرُّقِىّ : وهو الارتفاعُ والعُلُو فى الدَّرَج .

(الأَزْكىٰ) من ألقاب ملوكِ المَغْرِب أيضا . وهو مأخوذٌ من الزَّكاة : وهى الزيادةُ ، كأنه نَسَبه إلىٰ الزيادة فى الرِّفْعة ونحوها .

(الأَسْرىٰ) بالسين المهملة من ألقـاب ملوك المَغْرِب . وهو مأخوذٌ من السَّرْو وهو سَخاءٌ فى مُرُوءة ، ومنه قيـل لمن اشتمل علىٰ ذلك سَرِىّ ، وبه لُقِّب من لُقِّب «سَرِىّ الدِّين» .

(الأَسْفَهْسِلار) بسينين مهملتين بينهما فاء ثم هاء من ألقاب أرباب السيوف ؛ وكان فى الدولة الفاطمية لقبًا علىٰ صاحب وظيفةٍ تلِى صاحب البابِ ، علىٰ ما تقدّم

بيانه فى الكلام على ترتيب الدولة الفاطمية فى المقالة الثانية . ومعناه «مُقدَّم العَسْكر» وهو مُرَكَّب من لفظين : فارسىّ ، وتُرْكىّ ، فأسْفَهْ بالفارسية بمعنى المقدّم ، وسِلَار بالتركية بمعنى العسكر ، والعامة تقول لبعض من يقف بباب السلطان من الأعوان : (أسپاسلار) بالباء الموحدة ، وكأنهم راعَوْا فيه معنى المقدّم فى الجملة ، والباء تعاقب الفاء فى اللغة الفارسية كثيرا ؛ ولذلك قالوا : أَصْبَهَان وأصفَهَان بالباء والفاء جميعا ؛ والأَسْفَهْسِلارِىّ نسبةٌ إليه للبالغة . وقد ذكر المقرّ الشهابىّ بن فضل الله فى بعض دَسَاتِيرِه أن هذا اللقبَ يختصّ بأمراء الطَّبْلَخاناه ، على أنه قد تُرِك آستعمالُه فى زماننا ، وكأنهم كرهوا مشاركةَ بعض الأعوان فيه فأضربُوا عنه لذلك ، أو لم يَفْهَمُوا معناه فتركُوه .

(الأَسْنَى) من ألقاب ملوك المغرب . وهو مأخوذ من السَّناء بالمدّ : وهو الرفعة ؛ ويجوز أن يكون من السَّنَا بالقصر : وهو الضِّياء .

(الأَشْرَفُ) من ألقاب المَقَام والمَقَرّ فى مصطلَح كُتَّاب الزّمان على ما تقدّم ذكره ؛ وربما وقع أيضا فى ألقاب مُلوك المَغرِب . وهو أفعلُ التفضيلِ من الشَّرَف بمعنى العُلُوّ .

(الأصْعَد) من ألقاب ملوكِ المَغْرِب ، وهو أفعل التفضيل من الصُّعود ضِدّ الهُبُوط .

(الأصيل) من ألقاب أرباب الأقلام غالباً ، وربما وقع فى ألقاب أرباب السُّيوف إذا كان لصاحب اللقب عَرَاقةُ نَسَب ؛ وهو فَعِيل من الأَصْل بمعنى الحَسَب ؛ والأَصِيلىّ نسبةٌ إليه للبالغة ؛ قال فى "عرف التعريف" : ويختصّ بمن له ثلاثةٌ فى الرِّياسة ، آبنٌ عن أبٍ عن جَدٍّ .

(الأَضْخَم) من ألقابِ ملوك المغرب ، وهو مأخوذ من الضَّخَامة ؛ والمراد بها هنا العَظَمة ، وهى فى أصل اللغة الغِلَظ واستعملت فى العَظَمة تجوُّزا .

(الأعَزّ) من ألقاب ملوك المغرب ؛ وقد يستعمل فى ألقاب من لم يَثْبُت فيه ياء النسب من السامى بغير ياء فما دونه كالأخَصّ : فيقال « الأعَزُّ الأخَصُّ » ونحو ذلك؛ وهو أفعل التفضيل من العِزّ .

(الأعظَم) من ألقاب السلطان، يقال فيه « السلطانُ الأعظَمُ » ويقع فى ألقاب ملوك المغرب أيضا. وهو أفعلُ التفضيل من العَظَمة: وهى الكِبْرياء .

(الأعلى) من ألقاب ملوك المَغْرِب، وهو أفعل التفضيل من العُلُوّ: وهو الارتفاع .

(الأعلم) من ألقاب مُلوك المغرب . وهو أفعل التفضيل من العِلْم الذى هو خلاف الجَهْل .

(الأفخَم) من ألقاب ملوك المغرب . وهو أفعلُ التفضيل من الفَخَامة : وهى العَظَمة والقُوّة .

(الأفضل) من ألقاب السلطان ؛ ويستَعْمَل فى ألقاب ملوك المغرب أيضا وهو أفعلُ التفضيل [من الفضل] بمعنى الزيادة، والمراد الزيادة فى الفضيلة .

(الأكمل) من ألقاب السلطان أيضا ؛ ويستعمل فى ألقاب ملوك المَغْرِب وفى ألقاب من لم تَثْبُتْ فيه ياءُ النسب من السامى بغير ياء فما دُونَه ؛ والأكملىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الإمام) من ألقاب الخُلَفاء كما يقال فى المكاتبات عنهم « من عَبْدِ الله ووَلِيِّه الإمامِ الفلانىّ» وقد تقدّم أن أوّل من تلقّب به «إبراهيمُ بن محمد» أوّلُ من بُويِعَ له

بالخلافة من بنى العبّاس، ويقع أيضا فى ألقاب أكابر العلماء . وأصـل الإمام فى اللغـة الذى يُقتَدىٰ به ؛ ولذلك وقع علىٰ المجتَهِدين كالأئمـة الأربعة أصحاب المذاهب المشهورة : وهم الشافعىُّ، ومالكٌ، وأبو حنيفةَ ، وأحمـدُ . والإمامىّ نسبةٌ إليه للمبـالغة .

(الأمجدُ) من ألقاب ملوك المغرِب ؛ وربمـا كُتِب به للتُّجّار ونحوهم فى ألقاب الصّدْر الأجَلّ . وهو أفعلُ التفضيلِ من المجد : وهو الشَّرَف أو الأَصَالةُ .

(الأَميرىّ) من ألقـاب أرباب السـيوف . قال فى "عرف التعريف" : ويُكْتَب به لتجّار ... ...[1] وإن كانوا من أرباب الأقلام . وذكر فى دُسْـتورٍ له آخَرَ أنه يكتب به لنَقِيب الأشراف ولا يُكْتَب له القَضَائِىُّ أصـلا وإن كان من أرباب الأقلام ؛ وقد تقدّم لقب الأمير مجرّدًا عن ياء النسب وأصـلُه المأخوذُ منه فى الكلام علىٰ ألقـاب أرباب الوظائِف فأغنىٰ عن إعادته هُنَا . وٱعلم أنهـم لم يستعملُوا فيه النسـبةَ لنفس الإمرة فلم يقولوا فى النسـبة إليـه الإِمْرِىّ كما قالوا فى النسبة إلىٰ القضاء القَضَائىّ .

(الأمين) من ألقـاب التُّجّار الخَوَاجِكِيّة وألقـاب الخُدّام المعروفين فى زماننا بالطَّوَاشِيّة ، خُصُّوا بذلك لأئتمان التجّار علىٰ الجَوَارى والمـاليك فى حال جَلْبِهم إلىٰ الملوك، وأئتمان الخُدّام علىٰ الحَرِيم والمماليك بأبواب الملوك؛وهو مأخوذ من الأمانة ضِدّ الخِيَانة؛ والأَمِينىُّ نسبة إليه للمبالغة .

(الأوحد) يقع فى الألقاب السلطانية ، ويكون من ألقاب أرباب الأقلام لمن لا تثبت الياء فى ألقابه من السامى بغير ياء فـا دونه ، وفيه ما تقـدّم فى الكلام علىٰ

---

(١) بيـاض بالأصول ولعله لكبار الأمراء ، أو الوزراء .

الأجلّ من الاعتراض علىٰ الكُتّاب فى جمعهم الأعلىٰ والأدنىٰ فى لقبٍ واحد؛ والأوحَدىُّ نسبة إليه للبالغة .

حرف البـاء

(البـارِعُ) من ألقاب أرباب الأقلام، وهو فاعلٌ من البَرَاعة : وهى النّهْضة بالشىء والتقدُّم فيه ؛ والبارِعىُّ نسبة إليه للبالغة .

(البَلِيغ) من ألقاب أرباب الأقلام ، وأحسَنُ ما يقع فى ألقاب ذوى البَلَاغة من الكُتّاب ونحوهم، وهو فعيل من البَلَاغة : وهى تأديةُ كُنْه المراد بإيجازٍ لا يُخِلّ، وإطنابٍ لا يُمِلّ؛ والبَلِيغىُّ نسبةٌ إليه للبالغة .

حرف التـاء

(التّقِىُّ) من ألقاب ملوك المَغرِب يقال التقىُّ الزّكِىُّ ونحو ذلك ؛ وربما آستعمل بالديار المصرية فى ألقاب أرباب الأقلامِ وأهلِ الصلاح ؛ وهو مأخوذ من التقوىٰ كما تقدّم فى الأتقىٰ .

حرف الجـيم

(الجَلِيل) من ألقاب مَنْ يُكتَب له الحاجّ كمقدَّمِى الدولة ونحوهم، ويقال فيه : «الحاجُّ الجليلُ» ونحو ذلك؛ والجَلِيلُ فى أصل اللغة العظِيمُ، وكان مقتضىٰ الوضع أن يكون لأعلىٰ من هذه الرُّتْبة .

حرف الحـاء المهملة

(الحاجُّ) من ألقاب مقــدّمى الدّولة ومِهْتارِيّة البُيوت ومَنْ فى معناهم وإن لم يكن قد حَجَّ ، وإن كان موضوعُ الحاجّ فى العرف العامّ إنما هو لمن حَجّ البيتَ وإنما آصطُلِح لهم علىٰ ذلك حتّى صار كالعَلَم عليهم .

(الحافظُ) من ألقـاب المحدِّثين ؛ وأصله من الحفظ ضِدّ النِّسيان ، وٱختَصّ بالمحدّثين لأحتياجهم إلىٰ كَثْرة الحِفْظ لمتون الأحاديث وأسمـاءِ الرجال ونحو ذلك ؛ والحافِظِىّ نسبةٌ إليه للبالغة .

(الحافِلُ) من ألقاب ملوك المغرب ، ومعناه الكثير الجَمْع ، أخذا من قولهم وادٍ حافِلٌ إذا كَثُر سيله .

(الحاكم) من ألقاب القُضَاة . قال أبو جعفر النحاسُ فى "صناعة الكُتَّاب" : وأصله من الحَكَمة بفتح الكاف : وهى حديدةٌ مستديرةٌ فى اللِّجـام تمنعُ الدابّة من الجَرْى والشِّبَاب، سُمِّى بذلك لأنه يردّ النـاسَ عن الظُّلْم؛ وأكثر مايستعمله كُتَّاب الزمان فى عُنْوان المكاتَبَات فى تعريف المكتُوب إليهم ،وفى أثنائها فى وصف المكتوب بسببه؛ والحاكِمِىّ نسبةٌ إليه للبالغة .

(الحـائزُ) من ألقاب ملوك المغْرِب، وهو فاعل من الحِيَـازة : وهى الحِيَاطةُ، والمراد الحائز للمُلْك، أو الحائزُ للفضائل ونحو ذلك .

(الحَبْر) من ألقاب أكابر العلماء ـ وهو بفتح الحاء وكسرها لغتان،والذى ٱختاره ٱبن قُتَيبة فى " أدب الكاتب " الكَسْر ، وبه سُمِّى الحِـبْرُ الذى يُكْتَب به ، ولكن الجارى علىٰ ألسنة الناس الفتحُ؛ والحَبْرِىّ نسبةٌ إليه للبالغة .

(الحُجِّىُّ) بضم الحاء وكسر الجيم المشـدّدة وفى الآخرياء النسب من ألقـاب أكابر القُضَاة والعلماء، وهو منسوب إلىٰ الحُجّة بحذف تاء التأنيث منه علىٰ قاعدة النَّسَب ، كما تُحْذَف من طَلْحة ونحوه علىٰ ما هو مقرّر فى علم النحو . و بعضُ جَهلة الكُتَّاب يثبت فيه تاء التأنيث مع النسب فيقول الحُجّتِىّ وهو خطأ ؛ ثم النسبة فيـه

حقيقيةٌ لأن المنسوب إليـه وهو الجهـة غير مَنْ له اللقبُ، ويجوز أن تكون للبالغة بأن يجعل صاحبُ اللقب هو نَفْس الجهة تجوُّزا وهو أبلَغُ .

(الحَسِيب) من ألقاب الشُّرَفاء من ولد عليّ بن أبي طالب كَرَّم الله وجهـهُ من فاطمة رضى الله عنهـا ، أخذًا من الحَسَب : وهو مايَعُدّه الإنسانُ من مَفَاخر آبائه على ما ذكره جماعة من أهل اللغـة ولذلك آختص فى الاصطلاح بالشُّرَفاء، إذ كان آباؤهم أعظمَ الناس مَفَاخِرَ، لكن قد ذكر آبن السِّكِّيت فى "إصلاح المَنْطِق" أن الحَسَب يكون فى الرجُل وإن لم يكن له آباءٌ لهم شَرَف؛ وعلى هـذا فلا يختص هذا اللقب بذوى الأنسابِ التى فيها عَرَاقةٌ؛ والحَسِيبِيُّ نسبةٌ إليه للبالغة .

حرف الخـاء المعجمة

(الخاشِعُ) من ألقاب الصُّوفِيّة وأهلِ الصَّلاَح ، وربمـا آستُعْمِل فى العُلَماء ، بل ربمـا آستُعْمِل فى أرباب السُّيوف إذا كان المكتوبُ له متَّصِفًا بذلك ، بل ربمـا آستُعْمِل فى ألقاب بَطَارِكَةِ النصارى من البـاب وغيره ، على ما سيأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالى . والخاشعُ فى اللغة الخاضعُ والمتذَلِّل، والخاشعىُّ نسبةٌ إليه للبالغة .

(الخَوَاجَا) من ألقاب أكابر التُّجّار الأعاجِم من الفُرْس ونحوهم . وهو لفظٌ فارسيّ، ومعناه السيِّد؛ والخَواجَكِيُّ بزيادة كافٍ نسبةٌ إليـه للبالغة، وكأن الكاف فى لغتهم تدخل مع ياء النسب .

(الخَيِّر) بفتح الخـاء وتشديد اليـاء المثناة تحتُ، من ألقـاب أهلِ الدِّين والصَّـلاَح . وهو فى أصل اللغة خلافُ الشِّرِّير، ثم غلب آسـتعمالُه فيمن غَلَب عليـه الخَيْرُ؛ والخَيِّرِىُّ نسـبةٌ إليه للبالغة، وقلّ أن يستعملَه الكُتّاب إلا بإثبـات الياء فى آخره .

حرف الذال المعجمة

(الذُّخر) بضم الذال وإسكان الخاء من ألقاب أرباب السيوف ، وربمـا أُطلِق علىٰ غيرهم . وأصله فى اللغـة لمـا يُذْخَرُ من النفائس، وهو مصـدر ذَخَرتُ الشيءَ أَذْخَرُهُ، وكثيرا مايُغْلَط فيه فيجعل بالدال المهملة . وممّن وقع له الوَهْم فى ذلك الشيخُ جمالُ الدين الأسـنَوِىُّ فى "طَبَقات الفُقَهاء" فأورد صاحب "الذَّخائر" فى الدال المهملة؛ والذُّخرِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة، وأكثر مايستعمله الكُتّاب كذلك .

حرف الراء المهملة

(الرّبّانىّ) من ألقاب الصُّوفِيّــة وأهلِ الصَّلَاح، وربمـا لُقِّب به العالمُ فيقال «العـالم الرَّبَّانىّ» قال الجوهرىّ، وهو المُتَألِّهُ والعارفُ بالله تعالىٰ . قال تعالىٰ : ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ .

(الرُّحلَة) بضم الراء من ألقاب أكابر العلماء والمحَدِّثين، والرُّحلة فى اللغة مايُرْحَل إليه ، لُقِّب بذلك لأنه فى حَيِّز أنْ يُرْحَل إليه للأخذ عنه . أما الرِّحْلة بالكسر فالارتحالُ؛ والرُّحلِىّ بالضم أيضا نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الرَّئِيس) بالهمزة علىٰ وزن فَعِيل من ألقاب عِلْيَة الناس وأشرافِهِمْ ، ويقال : فيه رَيِّس علىٰ وزن قَيِّم قاله الجوهرىّ . وأصله من الرِّيَاسة وهى رِفْعةُ القدر وعُلُوّ الرُّتبـة، والرئيسِىُّ نسبة إليه للمبـالغة، وغالب مايستعمله الكُتّاب كذلك، وهو من ألقاب أرباب الأقلام من العلماء والكُتّاب .

حرف الزاى

(الزاهِدُ) من ألقاب الصُّوفِيّة وأهل الصَّلاح ، وهو فى اللغة خلافُ الراغب ، والمراد هنا مَنْ أعرض عن الدنيا فلم يلتَفِتْ إليها، والزاهِدِىّ نسبة إليه للمبالغة .

(الزّعيميّ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف، كنُوّاب السلطنة ومَنْ فى معناهم ؛ وهو نسبة إلىٰ الزّعيم بمعنىٰ السيد والكافِل وكأنّه بولايته علىٰ القوم سادهم أو كفَلَهم وتولّاهم ولم يستعملوا فيه الزعيم بغير ياء : لأنه إذا كان مختصا بكبار أرباب السيوف دون أدانيهم، وجب إثبات الياء للبالغة .

(الزّكىّ) من ألقاب المتدينين من أرباب الأقلام وغيرهم، يقال التقىّ الزكىّ ونحو ذلك . وهو فى أصل اللغة بمعنىٰ الزاكى وهو الزائد وقد تقدّم مثله فى الأزكىٰ فى حرف الألف .

حرف السين المهملة

(السالك) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح، وهو فاعل من السلوك، والمراد سلوكُ سبيل الرشاد الموصل إلىٰ الله تعالىٰ، والسالكىّ نسبة إليه للبالغة .

(السامى) من ألقاب المجلس، وقد تقدّمت الإشارة إليه فى الكلام علىٰ الألقاب الأصول وأنه ينقسم إلىٰ السامىّ بالياء والسامى بغير ياء فليراجع منه .

(السّفيرىّ) قال فى "عرف التعريف" : وهو من الألقاب الخاصة بالدّوَادار، على أنى قد رأيته فى بعض الدساتير الشامية قد كُتب به لبعض التجار الخواجكيّة لسِفَارتهم بين الملوك وتردّدهم فى الممالك لجَلْب المماليك والجوارِى ونحو ذلك وهو منسوب إلىٰ السفير : وهو الرسول والمصلح بين القوم نسبةَ مبالغة ولم يستعمله الكتّاب مجرّدا عن الياء : لأنه إذا كان خاصا بهذين ورتبتهما علية لا يَليق بها حذف الياء لم يناسب استعماله مجرّدا عنها .

(السلطانىّ) من ألقاب الملوك فيثبت فى ألقاب المقام الشريف ونحوه، فيقال المقام الشريف العالى السلطانىّ ونحو ذلك ؛ وهو منسوب إلى السلطان وقد تقدّم الكلام عليه فى الكلام علىٰ أرباب الوظائف .

(السيِّد) من الالقاب السلطانية يقال السلطان السيِّدُ الأجَلُّ ونحو ذلك ؛ ويَقع في اللغة على المالِك والزَّعيم ونحوهما ؛ والسيِّدى" نسبةٌ إليه للمبالغة ، وهو من الالقاب الخاصة بالجَنَاب الشريف فما فوقه . قال في "عرف التعريف" ولا يُكتَب به عن السلطان لأحد .

حرف الشين المعجمة

(الشّاهِنْشاه) من الألقاب المُلُوكية المختصة بالسلطانِ وأكابر المُلُوك . وهو لفظ فارسيٌّ معناه بالعربية «مَلِك الأَمْلَاك» وقد ورد النهيُ عن التسمِّى به ؛ وفى الحديث أنه صلَّى الله عليه وسلم قال : "إنَّ أخْنَعَ اسمٍ عِنْدَ اللهِ رجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاكِ ، لا مَلِكَ الأملاكِ إلا اللهُ" . قال سفيان بن عيينة : معناه شاهِنْشَاه ؛ ولذلك يحذفُه المتديِّنون من الكُتَّاب من الألقاب السلطانية ؛ وقد أشار إلى ذلك في "التثقيف" في مكاتبة صاحب المغرب .

واعلم أنه كان قد وقع في تلقيب الملوك بهـذا اللَّقَب نِزَاع بين العلماء في سَلْطَنة السلطان "جَلَالِ الدولة" السَّلْجُوقِىّ في سنة تسع وعشرين وأربعمائة كما حكاه ابن الاثير في تاريخه "الكامل" وذلك أن السلطانَ جلالَ الدولة كان قد سأل أميرَالمؤمنين (القائمَ بأمر الله) الخليفةَ يومئذٍ في أن يُخاطَب بمَلِك الملوك فامتنعَ ، فكتب فَتْوى للفقهاء في ذلك ؛ فكتب القاضي أبو الطيِّب الطبرىّ ، والقاضي أبو عبدالله الصَّيْمَرِىّ ، والقاضي ابن البيضاوىّ ، وأبو القاسم الكَرْخىّ بجَوَازِه ؛ ومنع منـه أقضى القُضاة أبو الحَسَن المـاوَرْدِىّ ، وجرى بينـه وبين من أفتى بجوازه مراجعاتٌ ؛ وخُطب لجلال الدولة بـ«مَلك المُلُوك» وكان المـاوَرْدِىّ من أخصِّ الناس بجَلَال الدولة ، وكان يتردَّدُ إلى دار المملكة كلَّ يوم فلما أفتى في ذلك بالمنع ، انقطع ولزم بيتَه خائفا ،

وأقام منقطعا من شهر رمضان إلىٰ يوم النحْر ؛ فاستدعاه جلالُ الدولة ، فحضر خائفًا فأدخله عليه وحْدَه ، وقال له : قد علم كلُّ أحدٍ أنك من أكثر الفُقَهاء مالًا وجاهًا وقُربًا منا وقد خالفتَهم فيما خالف هَوايَ ، ولم تفعل ذلك إلا لعَدَم المحاباة منك واتّباع الحقّ ، وقد بان لى موضِعُك من الدِّين ومكانُك من العِلْم ، وجعلتُ جزاءَ ذلك إكرامَك بأن أدخلتك إلىّ وَحْدَك ، وجعلتُ إذْنَ الحاضرين إليك ، ليتحقَّقُوا عَوْدِى إلىٰ ماتُحِب . فشكره ودعا له وأذن لكل مَنْ حضر للخدمة بالانصراف (١) .

(الشريف) من ألقاب المَقَرّ والجَناب ، من حيث إنه يقال المَقَرّ الشريف والجَناب الشريف ، وذكر فى "عُرْف التعريف" أنه مختصٌّ بالأشراف أبناءِ فاطمة من علىّ رضى الله عنهما ، وكأنه يريد فى الألقاب المطلقة التى لا تلى المقرّ والجناب وهو فعيل من الشرف وهو العلوّ والرفعةُ ، قال ابن السكيت : ولا يكون إلا لمن له آباءٌ يتقدّمونه فى الشرف بخلاف الحسيب ومن هنا جعله الكُتَّاب أعلىٰ رتبة من الكريم لاشتماله علىٰ قدر زائد لا يعتبر فى الكريم من عَرَاقة الأصل وشَرَف المحْتِد ، والشَّريفىّ نسبة إليه للمبالغة .

(الشهير) من ألقاب ملوك المغرب ، ومعناه المشهور الظاهر ، والمراد هنا من اشتهر علوّ قدره ورفعتُه .

(الشيخ) من ألقاب العلماء والصلحاء وأصله فى اللغة الطاعن فى السِّن ، ولُقِّب به أهلُ العلم والصَّلاح توقيرًا لهم كما يوقَّر الشيخ الكبير ، والشيخىّ نسبة إليه للمبالغة .

حرف الصاد المهملة

(الصاحب) من ألقاب الوزراء . قال فى "عرف التعريف" : وهو مختص بأربابِ الأقلام منهم دون أرباب السُّيوف . وهو فى أصل اللغة اسمٌ للصَّديق ،

(١) أورد ابن الأثير هذه العبارة فى كتابه الكامل (ج ٩ ص ١٧١) .

وأوّل مَنْ لُقّب به من الوزراء كافِى الكُفاة إسماعيلُ بنُ عبّاد، وذلك أنه كان يصحب الأستاذَ آبن العَميد، فكان يقال له بذلك «صاحبُ آبن العميد» ثم غلب عليه حتّى آستُعْمِل فيه بالألف واللام، ثم صار لَقَبا علىٰ كل مَنْ وَلِىَ الوزارة بعده . علىٰ أن كُتَّاب الإنشاء بالممالك الشامية يلقّبون العلماء من قضاة القُضاة ومَنْ فى معناهم بذلك، وهم علىٰ ذلك إلىٰ الآنَ ، بخلاف كُتّاب الديار المصرية ، فإنهم يَقْصُرونه علىٰ الوزراء دون غيرهم كما تقدّمت الإشارةُ إليه . والصاحِبِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة . وهو المستعمل عند كُتّاب الإنشاء، وبغير الياء فى العرف العامّ .

(الصالح) من ألقاب أهل الصَّلاح والصُّوفية يقال الشيخُ الصالحُ ونحو ذلك . وهو مأخوذ من الصّلاح ضِدّ الفساد، ولم يستعملوه باثبات ياء النسب فلم يقولوا الصالِحِىّ ، وكأنهم تركوا ذلك خوفاً من الآلتباس بالنسبة إلىٰ البلد المعروف أو غيره .

(الصّدْر) من ألقاب التُّجّار ونحوهم . والمراد مَنْ يكون صَدْرا فى المَجالس؛ وصدرُ كلِّ شيء فى اللغة أوّلُه ، وعُبِّر عن صَدْر المجلس بأوّله لأنه فى الحقيقة أوّلُ المجلس وكل جانب من جانبيه يَلُوله، والصّدْرِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

حرف الطاء

(الطاهر) من ألقاب ملوك المَغْرب، والمراد المتنَزّه عن الأدناس .

حرف الظاء

(الظَّهِيرِىّ) من ألقاب كِبَار أرباب السُّيوف كأعيان الأُمَراء من نُوّاب السلطنة وغيرهم؛ وهو نسبةٌ إلىٰ الظَّهير بمعنىٰ العَوْن للمبالغة، ومنه قوله تعالىٰ :

﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النسب لاختصاص المُظَاهرة بأكابر أربابِ السُّيوف، وهو بغير الياء لايقع إلا على الأدْوان منهم .

حرف العين

(العابِدُ) من ألقاب الصُّوفية وأهلِ الصَّلاح ، وهو فاعِلٌ من العبادة وهى الطاعة ، وربما ٱستُعْمِل فى أرباب السيوف والأقلام أيضا : لاتصافِ متصفٍ منهم بذلك أو وقوعِه أوّلا على متصفٍ به منهم ثم لزومه مَنْ بَعْدَه من أهل تلك المرتبة كما فى نائب الشام، حيثُ كُتِب لبَيْدَمُر الخوارزمى فى نيابته بذلك؛ ثم لَزِم مَنْ بعده من نوّاب الشام والنائبِ الكافِلِ على ما سيأتى ذكره فى المكاتبات إن شاء الله تعالى .

(العادل) من ألقابِ السُّلْطان، وهو خلاف الجائِرِ، وذلك أعلى ما وُصِف به الملكُ ونحوه من وُلاة الأُمورِ: لأن العدل به تقع عِمَارة الممالك؛ والعادلىّ نسبةٌ إليه للمبالغة؛ وهو من ألقاب أكابِرِ أرباب السيوف من النُّوّاب ونحوهم .

(العارف) من ألقاب أكابِرِ أهلِ الصَّلاح، وهو خلاف الجاهِلِ؛ ومنهم مَنْ يفَرِّق بينه وبين العالم بأن المعرفة قد يتقدّمها جَهْل والعلم لا يتقدّمُه جَهْل، ولذلك لم يُطْلَق ٱسمُ العارف على البارِئ سبحانه وتعالى بخلاف العالم فإنه يُطْلَق عليه؛ والعارفىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(العاضد) من ألقاب ملوك المَغْرِب؛ وهو فى أصل اللغة ٱسمٌ للمُعِين، يقال عَضَدْته أعضُدُه إذا أعنته .

(العالم) من ألقاب السُّلْطان، وهو خلاف الجاهل . ثم هو فى الحقيقة إنما هو من ألقاب العُلَماء إلا أنهم نعتُوا به الملوك تعظيما، إذ العلم كلُّ أحدٍ يزاحمُ على

الاتصاف به ؛ والعالِىُّ نسبة إليه للمبالغة . وهو من الألقاب المشتركة فى الاصطلاح بين أرباب السيوف والأقلام وإن كان المختصُّ بها فى الحقيقة العلماءَ .

(العالى) من الألقاب التى يشترك فيها أربابُ السيوف والأقلام ، ويُوصَف به المَقَام والمَقرّ والجَنَاب والمَجلس فى إحدىٰ حالتيه ؛ وهو من العَلَاء بالمدّ وهو الشرف . يقال عَلِىَ بكسر اللام يَعْلىٰ بفتحها إذا شَرُف ، ومنه قيل فى علىّ ونحوه «عَلَاء الدِّين» ويحتمل أن يكون من العُلُوّ فى المكان يقال فيه عَلَا بفتح اللام يَعْلُو عُلُوّا ؛ وسيأتى معنىٰ الفرق بينه وبين السامِى وإن كان بمعناه فى اللغة .

(العامل) من ألقاب أهل الصَّــلاح ، والمراد المجِدّ فى العمل المجتهدُ فى العِبَادة ؛ والعاملىُّ نسبةٌ إليه للمبالغة ، وهو من الألقاب المشتركة بين أرباب السيوف والأقلام كالعــالِىّ .

(العريق) من ألقاب ذَوِى الأَصَالة ، وأكثرُ مايقع علىٰ أرباب الأقلام ، والمرادُ مَنْ له عَرَاقة فى كَرَم الأصل ؛ والعَرِيقىُّ نسبة إليه للمبالغة .

(العَزِيز) من ألقاب ديوان الخِلافة ، يقال فيه « الدِّيوانُ العَزِيز» علىٰ ما سيأتى بيانه فى المكاتبة إلىٰ أبواب الخِلافة ، وربمــا استعملوه فى الوَلَد فقالوا الولدُ العزيزُ ، ولم يستعملوه مضافا إلىٰ ياء النَّسَب .

(العَضُد) من ألقاب أرباب السُّيوف ، وهو فى الأصل اسمٌ للساعِد : وهو مابين المِرْفَق والكَتِف ، واستُعْمِل فى المُعِين والمُساعِد لقيامه فى المُساعدة مَقَام العَضُد الحقيقىّ من الإنسان ؛ ثم الأفصحُ فيه فتحُ العينْ مع ضم الضاد ، ويجوز فيه كسرُ الضاد وإسكانُها مع الفتح أيضا وضمُّ العين مع إسكان الضاد ؛ والعَضُــدِىّ نســبةٌ إليه للمبــالغــة .

(العَوْنِىُّ) من الألقاب المختصة بأكابر أرباب السيوف، وهو نسبة إلىٰ العَوْن وهو الظَّهِيرُ علىٰ الأمر المعاونُ عليه . ولم يستعملوه مجرّدًا عن ياء النسب لوقوع العَوْن علىٰ الواحد من أعوانِ صاحب الشُّرْطة ونحوه .

(العَلَّامة) بالتشديد من ألقاب أكابر العلماء . قال الجوهرىّ : وهو العالِمُ للغاية ، وقلّ أن يُستعملُوه إلا فى ألقاب المكتوب بسببه ونحو ذلك، وحذفُ الهاء منه لغةٌ، وليست بمستعملة بين الكُتَّاب أصلا؛ والعَلَّامىّ نسبة إلىٰ العَلَّام أو العَلَّامة للمبالغة . قال فى "عرف التعريف" : ويختص بالمُفْتِى .

حرف الغين المعجمة

(الغازى) من ألقاب أربابِ السُّيوف، وهو من الأسماء المنقُوصة كالقاضى ونحوه، وقلّ أن يُستعمَل إلا فى ألقاب السامى بغير ياء فما دُونَه .

(الغَوْثُ) بالثاء المثلثة من ألقاب الصُّوفيّة، وهو عندهم لقبٌ علىٰ القُطْب الذى هو رأس الأولياء؛ وأصلُه فى اللغة من قول الرجل واغَوْثَاهْ، وقلّ أن تستعمله الكُتَّاب بل لم يستعمِلُوه مضافا إلىٰ ياء النسب أصلا .

(الغِيَاثِىُّ) من ألقاب أرباب السيوف ، وأكثرُ ما يُستعْمَل فى الملوك ، وهو فى اللغة الاسمُ من آستغاثَنِى فأغثْتُه ، وأصله الغِوَاثِىُّ بالواو فقُلِبتِ الواو ياء لانكسار ماقبلها .

حرف الفاء

(الفاتح) من ألقاب ملوك المغرب ، وهو فاعلٌ من الفتح بمعنىٰ النَّصْر ، والمراد فتحُ الأمصار وتملُّكها .

(الفاضل) من ألقاب أرباب الأقلام ، وأكثَرُ مايقع فى ألقاب العلماء ، وربما وقع فى ألقاب الكُتَّاب ، وهو خلاف الناقِص ، والمراد زائدُ الفَضْـل ، وبه لُقِّب القاضى الفاضِـلُ « عبدُ الرحيم البَيْسـانِىُّ » الكاتب المشهورُ ؛ والفاضِلىُّ نسـبة إليـــه للبالغة .

(الفائز) من ألقاب ملوك المغرِب، وهو فاعِلٌ من الفَوْز بمعنى النَّجَاةِ أو الظَّفَر، وقد يُتَسَامَحُ فى التلقيب به فإن الفوزَ يطلق علىٰ الهلاك أيضا علىٰ ماهو مقرَّر فى كتب اللغة، ومثل ذلك يجبُ ٱجتنابُه لمـا فيه من الأشتراك بين المحمودِ والمذمُوم، إلا أنه غلب ٱستعمالُه فى النَّجاة حتّى إنه لم يرد فى القُرْءان إلا بمعنـاها، ولذلك عوّل الكُتَّاب علىٰ ٱســتعماله .

(الفقيه) من ألقاب العُلَماء وهو ٱسم فاعِل من فَقُه بضم القاف إذا صار الفقهُ له سَجِيَّة، كَكَرُمَ إذا صار الكَرَم له سجيَّةً . قال المسيلىّ[1] فى "شرح مختَصر ابن الحاجب": وإنما يقع علىٰ المجتهد دون المقلِّد؛ أما إطلاقه علىٰ فقهاء المَكاتِب ونحوهم فعلىٰ سبيل المَجَاز . علىٰ أن الكُتَّاب بالديار المِصْرية لم يستعملوا هذا اللقبَ إلا فى القليل النادِر، بل كثير من جَهَلة الكُتَّاب وغيرهم يستصغِرُون التلقيبَ به ويَعُدّونه نقصًا ، وإنمـا يُعَظِّم به جِدَّ التعظيم أهلُ المغرِب ؛ والفَقِيهِىُّ نسبةٌ إليه للبـالغة ، وهو مســتعمل فى ألقاب العلمـاء .

(الفَريدِىّ) من ألقاب أكابر العلماء، وهو نسبةٌ إلىٰ الفَرِيد بمعنىٰ المنفَرِد للبالغة، والمراد المنفردُ بمـا لم يُشَارِكْه فيه غيرُه، ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النِّسَب .

---

(١) كذا بالاصول ولعله السبكى انظر شراح مختصر ٱبن الحاجب فى كشف الظنون .

حرف القـاف

(القاضَوِىّ) من ألقـاب أرباب الأقلام ، وهو نسـبةٌ إلىٰ القاضى للبـالغة ، ثم فى الحقيقة كان يجب أن يختص بالقُضَاة الذين هم حُكَّام الشريعة دون غيرهم ، إلا أنه تُوسِّع فيه حتّٰى آستُعمِلَ فى غيرهم من ألقاب أرباب الأقلام .

(القُدْوة) بكسر القاف وضمِّها لغـةٌ من ألقاب العلمـاء والصُّلَحاء ، وهو بمعنىٰ الأُسْوة . يقال : فلان قُدْوة يُقْتدىٰ به ؛ والقُدْوِىّ نسبةٌ إليه للبالغة ، وحذفت منه تاء التأنيث المبدلةُ من الهاء علىٰ قاعدة النسب عند النحاة ، وكثيرٌ من جَهَلة الكُتَّاب يُثْبتون فيه تاء التأنيث مع النسب فيقولون القُدْوتِىّ ، وهو خطأ كما تقدّم فى الكلام علىٰ الحُجّة فى حرف الحاء .

(القَضَامِيرِىّ) من الألقاب التى يستعملها بعضُ الكُتّاب فى ألقاب مَنِ آجتمع له رياسةُ السيف والقلم ؛ وهو نسبة إلىٰ القَضَاء والأمير تشبيها بمذهب مَنْ يرىٰ النسبةَ إلىٰ المضاف والمضاف إليـه جميعا فيقول فى النسـبة إلىٰ عَبْد شمس عَبْشَمِىّ ، وإلىٰ عبد الدَّارِ عَبْدَرِىّ ، ونحو ذلك ، وهو مذهب مرجوح علىٰ ماتقدّم بيانه فى المقالة الأولىٰ فى الكلام علىٰ النحو ، والأحسن فيه النسـبةُ إلىٰ كلٍّ منهما علىٰ آنفراده ، فيقـال القَضَائِىُّ الأَمِيرِىّ ، أو الأميرىُّ القضائِىُّ ؛ وعلىٰ العمل بهٖ فاللائق بعُلُوّ الرُّتبة أن يقال القاضَمِيرِىّ ليكون مركّبا من القاضَوِىّ والأميرىّ ، إذ كان القاضوِىّ فى المعنىٰ أبلَغَ من القَضَائِىّ لـما فى القاضَوِىّ من المبالغة علىٰ ماتقدّم بيانه .

(القَضَائِىّ) من ألقاب أرباب الأقلام ، وهو نسـبةٌ إلىٰ القَضَاء فلا مبالغةَ فيه .

(القُطْب) من ألقاب الصُّوفية وأهـلِ الصَّلَاح ، وهو عندهم عبارةٌ عن رأس الأوْليـاءِ الذى عليـه مَدَارُهم كما تقدّم فى الغَوْث ، وقَلَّ أن يستعمله الكُتَّاب ؛

ولم يستعملوه مضافاً إلىٰ ياء النسب فيما وقفتُ عليه أصلا . والقُطْب فى أصل اللغة كَوْكَبٌ بين الجَدْى والفَرْقَدَيْن يدور عليــه الفَلَك فيما قاله الجوهرىّ . والتحقيق أنه نقطةٌ متوهَّمة بالقرب من هــذا الكَوْكَب علىٰ ماهو مقرَّر فى علم الهيئة ، ولذلك قيل لســيِّد القوم الذى عليــه مَدَارُ أمرِهم قُطْبُ بنى فُلانٍ ، ومِنْ هُنَا عبَّروا عن مَدَار الأولياء بالقُطْب . وقلَّ أن يستعمله الكُتَّاب ، ولم يستعملوه مضافا إلىٰ ياء النسب فيما وقفتُ عليه .

(القَوَامِىّ) بفتح القاف من ألقاب أرباب السيوف . وهو نسبةٌ إلىٰ القَوَام وهو العدل . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوَامًا ﴾ ولم يســتعملوه مجرّدًا عن ياء النسب .

حرف الكاف

(الكافلُ) من الألقاب المختصّة بنائب السلطنة بالحَضْرة ، يقال فيه النائب الكافلُ ونحو ذلك ، والكافلُ فى اللغة الذى يَكْفُل الإنسانَ ويَعُولُه ، ومنــه قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ ولُقِّب بذلك لأنه يكفُل الرعيةَ ويَعُولُهم ؛ والكافلىُّ نسبة إليه للبالغة . قال فى "عرف التعريف" : وهو مختص بنائب سلطانٍ أو وزيرٍ كبير . وذكر فى دستور آخر أنه لايكتب به لغيرهما .

(الكَبِير) من الألقاب المشتركة بين أرباب السيوف والأقلام، وهو فى الأصل خلاف الصغير، والمراد هنا الرفيعُ الرُّتبة؛ والكَبِيرىُّ نسبة إليه للبالغة .

(الكريم) من ألقاب المَقَرّ والجَنَاب، ويشترك فيه أربابُ السيوف والأقلام، والكريمُ خلاف اللئيم فيما يقتضيه كلام الجوهرىّ حيث قال : الكَرَمُ نقيضُ اللُّؤْم، وحينئذ فيكون المراد بالكريم الخالصَ من اللُّؤْم ، ومن ثَمَّ جُعِل دون الشريف

فى الرُّتْبـة ، إذ فى الشَّرَف قَدْرٌ زائدٌ علىٰ ذلك ، وهو ٱعتبار ثُبوتِ رِفْعـة القَدْر ، بل ٱعتبارُ ذلك فى آبائه أيضا كما قاله ٱبن السـكيت علىٰ ما تقـدّم ذكْره فى الكلام علىٰ لقبِ الشريف ، ويُوضِّح ذلك أن الفُقَهاء قالوا يُسْتحَبُّ فى الزوجة أن تكون نسِيبةً فحمله بعضهم علىٰ الصحيحةِ النَّسَب ٱحترازا بذلك عن بنت الزِّنا ، وحمله آخرون علىٰ العَرَاقة فى النَّسب ، والأوّلُ فى معنىٰ الكَرَم الذى لم يُعتَبَرْ فيه سِوىٰ خُلُوصه من اللُّؤم ، والثـانى بمعنىٰ الشريف الذى ٱعتُبِر فيه قدرٌ زائدٌ ؛ ثم هو فَعِيل من كَرُم بضم الراء إذا صار الكَرَمُ له سجيةً كما تقدّم فى الفقيه .

(الكَفِيلِىّ) من ألقاب أكابر نُوّاب السلْطَنة ، وهو أعلىٰ من الكافِلِ ، لأن صيغة فَعِيلٍ أبلغُ من صِيغةِ فاعلٍ علىٰ ماهو مقرّر فى علم النحو والتصريف .

حرف اللام

(اللَّبِيب) من ألقاب أرباب الأقلام ، وهو فَعِيلٌ من اللُّبِّ وهو العقل ؛ واللَّبِيبىّ نسبة إليه للبالغة .

(اللَّوْذَعِىّ) بالذال المعجمة من ألقاب أرباب الأقلام ، وهو الذَّكِىُّ القَلْب .

حرف المـيم

(المـاجدُ) من ألقاب أرباب الأقلام غالبًا ، وربمـا أُطْلِق علىٰ غيرهم ، وهو مختص بذَوِى الأَصَالة فقد قال ٱبن السكيت إن المَجْدَ لايكُون إلّا بالآباء ؛ والماجدىّ نسبةٌ إليه للبالغة .

(المـالِكىّ) من الألقاب المختصّة بأكابر أربابِ السيوف والأقلامِ . قال فى "عُرْف التعريف" : ولايكتَبُ به عن السلطان لأحدٍ ، وهو نسبةٌ إلىٰ المـالك الذى هو خلافُ المملوكِ للبالغة ، ولم يستعملوه مجرّدًا عن ياء النسب .

(المُثاغِرُ) بالثـاء المثلثة من ألقاب السلطان، والمراد القائمُ بِسَدّ الثُّغور : وهى البلادُ التى فى نَحْرِ العدوّ، أخذًا من الثَّغْر وهو السِّنّ، لأنه كالبـاب على الحلق الذى يمتنع الوصول إليه إلا منه؛ والمُثاغِرِىّ نسبةٌ إليـه للمبالغة . وهو من ألقاب أكابِرِ أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم .

(المتصَرِّفىّ) من ألقاب الوُزَراء ومَن فى معناهم ، والمراد مَنْ ينفُـذ تصرُّفه فى الأمور، ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النسب .

(المجاهِدُ) من الألقاب السلطانية ، والمرادُ المجاهدُ فى سبيل الله تعالى، وربمـا آسـتُعْمِل فى ألقاب السامِى من غير ياء فمـا دونه كما تقدّم فى الغازى ؛ والمُجاهِـدِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة . وهو من ألقاب أكابر أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم .

(المُجْتَهِد) من ألقـاب العلمـاء ، والمرادُ به فى الأصـل مَنْ يَسْتَنْبِط الأحكامَ الشرعيةَ من الكتاب والسُّنَّة والإجمـاع والقياس ، وقَلَّ أن يستعمله الكُتَّاب ؛ والمجتهِدِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة . وأكثَرُ آستعماله كذلك .

(المُحْتَرَم) من ألقاب العامّة ممن يلقَّبُ بالصَّدْر الأجَلِّ . فيقال : «الصَّدْر الأجَلُّ الكبيرُ المحتَرَمُ» ونحو ذلك .

(المحقِّق) من ألقاب العلماء، وربمـا آستُعْمِل فى ألقاب الصُّوفية، والمراد أنه يأتى بالأشياء على حقائقها لِحِدّة ذِهْنه وصِحّة حَدْسه ؛ والمحقِّقِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(المختـارُ) من ألقاب أرباب السُّـيوف غالبا ، ويختصُّ بالسامى بغير ياء فمـا دُونَه ، وهو آسمُ مفعولٍ من الآختِيار ، بمعنى أن الملوكَ وأربابَ الأمورِ يختارونَه ، على أن آسم الفاعل منـه أيضا المختارُ كلفظ المفعول على السَّواء وإنمـا تُرْشِـد إليه القرائنُ .

(المَخْدُوم) من الألقاب المختصَّة بالمكاتبات، والمراد مَنْ هو فى رُتْبة أن يكون مَخْدُوما لعلوّ رتبته وسُمُوّ محلّه ؛ والمَخْدُومِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة . قال فى "عرف التعريف" : ولا يُكْتَب به عن السُّلطان لأحد .

(المُدَبِّرى) من ألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم ككُتّاب السرّ ونحوهم ، وهو نسبة إلى المُدَبِّر بكسر الباء الموحدة : وهو الذى ينظُر فى الأمر وما تَئُول إليه عاقبتُه ، ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النَّسَب .

(المُدَقِّق) من ألقاب العلماء ، وهو الذى يُنْعِم النظرَ فى المسائل ويدقّقه ؛ والمُدَقِّقِىّ نسبة إليه للمبالغة .

(المُرابِط) من الألقاب السُّلْطانية ، وهو مُفاعِل من الرِّباط : وهو ملازمةُ ثَغْر العدوّ ؛ والمُرَابِطِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة . وهو من ألقاب أكابر أربابِ السيوف ، كنُوّاب السلطنةِ ونحوهم .

(المُرَبِّى) من ألقاب الصوفية ، والمراد مَنْ يربِّى المريدين ويسلِّكهم ويعرِّفهم الطريق إلى الله تعالى .

(المرتضى) من ألقاب أرباب السُّيوف والأقلام ، ويختصّ بالسامى بغير ياء فما دونه ، والمراد مَنْ يرضاه وُلاةُ الأمور ويختارُونَه .

(المُرْشِد) من ألقاب ملوكِ المغْرب ، وربما استُعْمِل فى ألقاب الصوفيّة ، والمراد مَنْ يُرْشِدُ الناس إلى الحق ويهديهمُ السبيلَ ؛ والمرشِدىُّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(المُسَدَّدِىّ) من ألقاب أرباب السيوف وألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم ، وهو بفتح الدال المشدّدة نسبةٌ إلى المسدَّد ، وهو اسم مفعول من السَّداد بالفتح : وهو

الصَّواب والقَصْد من القول والعمل . ويجوز أن يكون بالكَسْر على أنه آسمُ فاعلٍ منه بمعنىٰ أنه يُسَدِّد غيره، ولم يستعملوه مجرّدًا عن ياء النسب .

(المَسلِّك) بتشـديد اللام المكسورة من ألقاب الصوفيّة ، وهو آسم فاعل من تسـليك الطريق وهو تعريفُها ، والمراد تعريفُ المريدين الطريقَ إلىٰ الله تعـالىٰ ؛ وأصل التسليك إدخالُ الشيء فى الشيء ، ومنه قيل لخيط سلك ، لقب بذلك لإدخاله المريدين فى الطريق ؛ والمَسلِّكىّ نسبة إليه للبالغة .

(المُشَيِّدىّ) بتشديد اليـاء المكسورة من ألقاب أكابر أرباب السيوف ، كنُوّاب السلطنة ونحوهم ، وهو نسبةٌ إلىٰ المُشَيِّد فاعل من التشييد وهو رَفْع البناء ، ومنه قوله تعـالىٰ : ﴿ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾ أى مرتفع ، والمراد أنه يُشَيِّد قواعدَ المملكة ويرفعها ؛ ولم يستعملوه مجرّدًا عن ياء النسب إذ لايليق بالأدْنَيْنَ .

(المُشيرىّ) من ألقـاب الوزراء وأكابر الأُمَراء ومَنْ ضاهاهم ممن يُؤخَذ رأيه فى الأمور . قال فى "عرف التعريف" : ولايُسْمَح به لأحدٍ من أرباب السيوف ما لم يكن مقدَّمَ ألفٍ ؛ وهو نسـبةٌ إلىٰ المُشير : وهو الذى يُؤخَذ رأيُهُ . وآختُلِف فى أصله المأخوذ منه فقيل : من شُرْتُ العسلَ إذا استخرجته من كوّارة النحْل ، لأنْ الرأىَ يُستخرَجُ من المُشير . وقيل من شُرْت الناقةَ إذا عرضْتَها على الحوض لأن المستشير يعرض ما عنده على المُشير ، ولم يستعملوه مجرّدًا عن ياء النسب لانحطاطه عن رتبة الأكابر .

(المُظَاهِر) من ألقاب ملوك المغرب ، ومعناه المُعاوِن أخذًا من المُظَاهَرة : وهى المُعَـاونة .

(المُظَفَّر) من الألقاب السلطانية ، أخذًا من الظَّفَر وهو النَّصر ؛ والمُظَفَّرِىّ نسبة إليه للبالغة ، وهو من ألقابِ أكابرِ أرباب السيوف .

(المُعْرِق) بضم الميم وإسكان العين وكسر الراء من ألقاب ملوك المغرب، والمراد به من أَعْرَقَ فى الكَرَم . على أن المُعْرِق قد يُطْلَق فى اللغة على المُعْرِق فى اللُّؤم أيضا فهو من الأضداد، ومثل ذلك يُجْتَنَب فى التلقيب .

(المُعَزَّز) بزاءين معجمتين الأولى منهما مشدّدة مفتوحة من ألقاب ملوك المغرب، وهو اسمُ مفعول من العِزّ خلاف الذُّلّ، ومنه قراءة من قرأ (ويُعَزِّزُوه ويُوَقِّروه) بزاءين معجمتين .

(المعظَّم) بفتح الظاء المشدّدة من ألقاب ملوك المغرب أيضا، وهو اسمُ مفعول من العَظَمة وهى الجَلَالة، وربما استُعْمِل فى ألقاب بعض ملوك الكُفْر على ما سيأتى ذكره فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

(المفخَّم) بفتح الخاء المعجمة المشدّدة من ألقاب ملوك المغرب، وهو مأخوذٌ من الفَخَامة وهى الضَّخَامة .

(المُفَوَّه) بفتح الواو المشدّدة من ألقاب البُلَغاء من الكُتَّاب وغيرهم . وهو البَلِيغ اللَّسِن؛ والمُفَوَّهِىّ نسبة إليه للمبالغة .

(المُفيد) من ألقاب العلماء، وهو اسم فاعِلٍ من الإفادة وهى إنالةُ الشخصِ ما لم يكن حاصلاً عنده؛ والمُفِيدِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(المُقَدَّمِىّ) بفتح الدال المشدّدة من ألقاب أرباب السيوف . ويختص بمقدّمى الألُوف من الأمراء ، والمراد أنه مُقَدَّم على مضاهيه من الأمراء والأجناد ، ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النَّسَب .

(المُقَرَّب) بفتح الراء المشـدّدة من ألقـاب الخُدّام والخَواجَكيَّة، والمراد أنه مقرّبٌ عند الملوك ومَنْ فى معناهم، وهو من القُرْب خلاف البُعْد؛ والمقرّبِىّ نسبة إليه للبالغة .

(المُكَرَّم) بفتح الراء المشـدّدة من ألقاب ملوك المغرب . وهو مُفَعَّــل من الكَرَامة .

(المَلَكِىّ) بفتح اللام من ألقاب المَلِك وألقابِ أتباعه المنسوبين إليه من الأمراء والوزراء ومَنْ فى معنـاهم؛ وهو نسـبةٌ إلى المَلِك بكسر اللام وإنمـا فُتِحت لامُه فى النسب جَرْيا على قاعدة النسب فى نَمِر فإنه ينسب إليه نَمَرِىّ بفتح الميم على ما هو مقرّر فى علم النحو . على أن كثيرا من كُتَّاب الزمان يَغْلَطون فيــه فيكسرون لامه فى النسب أيضا وهو خطأ . ثم النسبةُ إن كانت فى حق المَلِك نفسه كقولهم فى ألقاب المَلِك المَلَكِىّ، فالنسـبة فيه للبالغـة، وإن كانت فى حق أحدٍ من أتباعه كقولهم فى حق بعض الأمراء ونحوهم المَلَكِىُّ الفلانى فالنسبة فيه على حقيقة النسب .

(المُمَجَّد) بفتح الجيم المشـدّدة من ألقاب ملوك المغرب . وهو مُفَعَّل من المَجْد وهو الشرف . وقد تقدّم فى الكلام على المـاجد عن ابن السكيت أنه يكون المَجْدُ[(١)] للرجل وإن لم يتقدّمه شرفُ آباء .

(المُمَهِّدِىّ) بكسر الهاء المشدّدة من ألقاب أكابر أرباب السيوف، نسـبةٌ إلى المُمَهِّد: وهو الذى يمهِّد الممالكَ ويُدَوِّخها، والنسبة فيــه للبالغة، ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النسب .

---

(١) المنقول فى كتب اللغــة عن ابن السـكيت أن المجد والشرف لا يكونان إلا بالآباء، والحسب والكرم يكونان للرجل وإن لم يكن له آباء كرام وقد نقل المؤلف نفسه هذا المعنى فى غير هذا الموضع فتنبه .

(المنتَخَب) من ألقاب التُّجَّار الخَوَاجَكِيَّة : وهو المختار ؛ والمنتخَبيّ نسبةٌ إليه للبالغـــة .

(المنَفِّـذِيّ) بكسر الفاء المشـدّدة و بالذال المعجمة من ألقـاب الوزراء ومَنْ فى معناهم نســبة إلىٰ المنفِّذ : وهو الذى له معرفة بتنفيـذ الأمور ووَضْع الأشـياء فى مواضعها ، والنسبة فيه للبالغة ؛ ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النسب .

(المُنْصِفِيُّ) من ألقـاب الوزراء ووُلَاة الأمور نسبةٌ إلىٰ المُنْصِف : وهو الذى يُنْصِف المظلومَ من الظالم ، والنسبةُ فيه للبالغة ؛ ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النسب .

(المَنْصورُ) من الألقاب السلطانية ، يقال منه «المؤيَّد المنصورُ» ونحو ذلك ، ومعناه ظاهر ، والمنصُورِيّ نسـبة إليه للبالغة ؛ وهو من ألقـاب أكابر أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم .

(المؤتَمَنُ) من ألقاب الخُدّام والتُّجّار الخَوَاجَكِيَّة ، والمراد أن الخُدّامَ يُؤْتَمَنُون علىٰ الحريم والمَمَاليك فى الحَضَر ، والتُّجّار يُؤْتَمَنُون علىٰ المماليك والجَوارِى فى السَّفَر ، أو يؤتَمَنُون علىٰ أخبار المَمَالك وأحوالها ، فلا يُخْبِرون عن مملكة بمملكة أخرىٰ إلا بما فيه السَّـــدَاد .

(المَوْلىٰ) من ألقاب الكُتَّاب ، وأكثر مايجْرى ذلك فى تعيين كاتِب السرّ ونحوه . فيقــال : « المَوْلىٰ فلان الدِّين » والمراد هنا السيِّد ، والمَوْلَوِىّ نسبةٌ إليه للبالغة . وهو من ألقاب أكابرِ أرباب السيوف والأقلام . قال فى "عُرْف التعريف" : ولا يُكْتَب به عن الســلطان لأحدٍ . علىٰ أن المولىٰ لفظٌ مشتَرَك يَقَع فى اللغة علىٰ السيد كما تقــدّم ويعبَّر عنه بالمولىٰ من أعلىٰ ؛ ويقع علىٰ المملوك والعَتِيق ويعــبَّر عنه بالمولىٰ من أســفَلُ ؛ ويقع علىٰ المنضَمِّ إلىٰ القبيلة من غير أنفُسها ، كما يقال فى الإمام

البُخَارِىّ «الجُعْفِىّ مَوْلاهم» بمعنىٰ أنه ليس من صُلْب القبيـلة؛ ويُطْلَق علىٰ غير ذلك أيضا . وإذا كان مشـتركا بين المولىٰ من أعلىٰ والمولىٰ من أسـفل فكان الأحسنُ الإضرابَ عنه .

(المؤيَّد) بفتح الياء المشدّدة من الألقاب السلطانية، وبالكسر من ألقاب السامىّ بالياء فما دُونَه ، والمراد أنه يؤيِّد المَلِك وينصُره ، وكلاهما مأخوذٌ من الأَيْد وهو القُوّة، والمراد أن الله تعالىٰ يؤيِّده ويُقَوِّيه ، ومنه قولهم فى الدعاء: «أيَّده اللهُ تعالىٰ» أى قَوّاه ؛ والمُؤَيَّدِىّ بالفتح من الألقاب الملوكية نسـبةٌ إلىٰ المؤيَّد بالفتح للبالغة ؛ وبالكسر من ألقاب أكابر أرباب السيوف نسبةٌ إلىٰ المؤيِّد بالكسر للبالغة .

(المَلَاذِىّ) بالذال المعجمة من ألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم من وُلاة الأمور . وهومنسوب إلىٰ المَلَاذِ بمعنىٰ الملْجإ نسبةَ مبالغة؛ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النسب .

حرف النون

(الناسِكُ) من ألقاب الصُّوفية وأهل الصلاح، ومعناه العابدُ أخذًا من النُّسُـك وهو العبادة ؛ والناسِكىُّ نسبةٌ إليه للبالغة . وهو من ألقاب الصُّلَحاء أيضا ، وربمـا كُتِب به لأرباب السيوف والأقلام إذا كان فيهم مَنْ يُنْسَب إلىٰ الصَّلاح .

(النَّبَوِىّ) من ألقاب ديوان الخلافة وما فى معناه من متعلِّقاتهـا ، يقال فيه : «الدِّيوانُ العَزِيزُ النبَوِىّ» ونحو ذلك . ويقع أيضا فى ألقاب وُلَاة العهد بالخِلَافة ؛ وربمـا وقع فى ألقاب الأَشْراف . وهو نسبة إلىٰ النبوّة لانتسابِ الخلافة العَبَّاسيّة إلىٰ العَبّاس عمّ النبىّ صلّى الله عليه وسـلم ، وانتساب الأشراف إلىٰ ابنتـه فاطمةَ رضي الله عنها .

(النَّسِيب) من ألقاب الشُّرَفاء أبناءِ فاطمـةَ من علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما ، والمراد العَرِيق فى النَّسَب ؛ لُقِّبوا بذلك لأنهم أعرقُ الناس نسبًا ، لانتسابهم إلىٰ بنتِ رسول الله صلّى الله عليه وسلم . ومن خصائصه صلّى الله عليه وسلم جوازُ نسبة أولاد بَنَاتِهِ إليه بخلاف غيره ، علىٰ ما هو مقرّر فى كُتُب الفقه . وقد أوضحت ذلك فى كتابى المسمّى بـ«الغُيُوث الهوامع ، فى شرح جامع المختَصَرات ومختَصَر الجَوَامع» فى أوائل النكاح ؛ والنَّسِيبِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(النَّصِـير) من ألقاب أرباب السيوف للجلس السامىّ بالياء فمن دُونَه . وهو بمعنى الناصر إلا أنه أبلَغ منه ، لأن صيغة فَعِيل أبلَغُ من صيغةِ فاعِلٍ علىٰ ما تقـدّم ؛ والنَّصِيرِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة فى نَصْره .

(النِّظَامِىّ) من ألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم ، وهو نسبة إلىٰ النِّظَام وهو صورة الاجتماع والائتلام ، ومنه نَظْم اللُّؤلُؤ وغيره ، والمراد أنه يكون به انتظامُ الأمور والتئامُها ، وحينئذ فيكون النسَب فيه علىٰ حقيقته ، لأنه نسبة إلىٰ غير صاحب اللَّقَب ؛ ويجوز أن تكون النسبة فيه للمبالَغَة علىٰ معنى أن صاحب اللقب قد جعل[1] عن النظام تجوّزا ؛ ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النسب .

(النُّوَيْنُ) بضم النون وفتح الواو وسكون اليـاء المثناة تحت ونون فى الآخر من ألقاب كُفَّال الممالك بالممـالك القانِيَّة : كنائب السَّلْطنة ، وأُمَراء الأُلُوس ، والوزير ونحوهم فيما كان عليه مملكةُ إيران إلىٰ آخرِ مملكةِ أبى سـعيد ؛ والنُّوَيْنِىُّ نسـبةٌ إليه للمبالغة . قال فى "التثقيف" : وهو بمثابة الكافِلىّ فى ألقاب النُّوّاب . قال : وهو نعت يستعمل دائمـا لأهل تلك البلاد ولا يستعملون الكافلىّ أصلا .

---

(١) أى أطلق عليه النظام .

حرف الهـــاء

(الهُمَام) من ألقــاب أرباب السُّيوف ، والمراد الشُّجاعُ ، والهُمَامِىُّ نسبة إليه للمبالغة .

حرف الـــواو

(الوالِدِىّ) من ألقاب المُسنِّين من الأكابر ، وهو نسبة إلىٰ الوالد ، وكأنه جعله والدًا له فتكون النسبةُ إليه علىٰ حقيقة النسب ، لأن النسبة فيه ليست[1] إلىٰ صاحب اللقبِ نفســه ، وربمــا قُصِد بذلك الوالد حقيقة ، وأكثرُ ما يقع هــذا اللقب فى المكاتبَات .

(الوَرِع) من ألقاب الصُّوفيّة وأهل الصلاح ، وربمــا لُقِّب به أربابُ السيوف والاقلام أيضا إذا ٱتصفوا بذلك ، والمراد مَنْ يتنَزّه عن الوقوع فى الشُّبُهات . وهو فى اللغــة التقِىّ ، يقال منه وَرِع يَرِع بكسر الراء فيهما وَرَعا فهو وَرِع ، والوَرَعِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الوَزِيرِىّ) من الألقاب الخاصة بالوزراء من أرباب السيوف والأقلام . وهو نســبة إلىٰ الوزير ، وقد تقــدّم معناه وٱشــتقاقُه فى الكلام علىٰ ألقــاب أرباب الوظائف .

(الوَلَدِىّ) من ألقاب الأحداث من الرؤساء ، وهو نسبة إلىٰ الولد ، كأنه جعله وَلَدا له ، وربمــا وقع علىٰ الوَلَد حقيقــة ، وأكثر ما يقعُ فى المكاتبات كما تقــدّم فى الوالِدِىّ .

---

(١) فى الاصل تنسب وهو تصحيف ظاهر .

حرف اللام ألف

(الألمعىّ) من ألقاب الأذكياء . قال الجوهرىّ : ومعناه الذّكىّ المتوقّد .

حرف اليـاء

(اليَمينىّ) من ألقاب الدَّوَادَار وكاتبِ السرِّ والحاجبِ . قال فى "عرف التعريف" ولا يقال لغيرهم ، وهو نسبة إلى اليمين كأنه يمين السلطان الذى يتناولُ به الأشياءَ ، وإلا فيَجْلِس كاتب السرّ بدار العَدْل عن يسار السلطان ، والدَّوَادارُ والحاجبُ قائمان أمامَه .

الضـــرب الثـانى
(المركّبـة المعبّر عنها فى اصطلاح الكُتّاب بالنُّعوت)
(وهذه جملة منها مرتّبة على حروف المعجم أيضا)

حرف الألف

(أتابك العَسَاكر) من نُعُوت الأميرِ الأتابك ومَنْ فى معناه كالنائب الكافل ومَنْ فى رُتْبته . وذكر فى "عرف التعريف" أنه مما يختصّ بالنائب الكافل . وقد تقدّم ذكرُ معنَى الأتابك فى الكلام على الألقاب الأصول ؛ والعَسَاكر جمعُ عَسْكَر وهو الجَيْش .

(إسْكَنْدر الزّمان) من الألقاب السلطانية ، والمراد بالإسْكَنْدر هنا الإسكندر ٱبن فيلبس اليُونَانىّ ، وهو الذى يؤرّخ بظهوره على الفُرْس وغلبته إيّاهم على ما سيأتى فى الكلام على التاريخ فى أواخر هذه المقالة .

كانَ ملكا عظيما مَلَكَ الشأم، وبيتَ المَقْدِس، والعِرَاقَيْنِ، والسِّنْدَ، والهِنْدَ، وبلادَ الصِّين، والتُّبَّت، وخُرَاسانَ، وبلادَ التُّرْك؛ وذَلَّتْ له سائرُ الملوك؛ وهاداه أهلُ الغرب، والأندَلُس، والسُّودان؛ وهو الذى بنىٰ مدينةَ الإسْكَنْدرِيَّةِ ، ويقال : إنه ذُو القَرْنَيْن الذى ذكره الله تعالىٰ فى كتابه العزيز . قال المؤيَّد صاحب حماة فى تاريخه : والصحيح أن ذا القرنين مَلِكٌ عظيم كان قبل الإسكَنْدَر بزمن طويل .

(أَثِيرُ الإمَام) من ألقاب أرباب الأقلام غالبًا، وهو أَثِيرٌ بمعنىٰ مَأْثُور، والمراد أن الإمام يُؤْثِره علىٰ غيره فيقدِّمُه عليه .

(اعْتِضادُ صَنادِيدِ الزمان) من ألقاب أرباب السُّيوف؛ وقد يكتب به لبعض الملوك. والاعتضاد الاستعانةُ ، يقال : اعتضَدْتُ بفلانٍ إذا استعَنْت به، والصَّناديد جمع صِنْدِيد وهو الشُّجاع .

(أَكْرَمُ نُجَباءِ الأَبْناءِ فى العالَمِين) من ألقاب الرؤساء من أرباب الأقلام، وأَكْرَمُ أفعلُ التفضيلِ من الكَرَم خلافِ اللُّؤم، والنُّجَباء جمع نَجِيب وهو الكريم .

(أجـلُ البُلَغاء فى العالَمِين) من ألقاب أرباب البَلَاغة من الكُتَّاب وغيرهم، ومعناه ظاهرٌ .

(الذَّابُّ عن حَوْزة المؤمنين) من ألقـاب ملوك المغرب ، ويصلُحُ لكلِّ مَلِكٍ مسلم يقوم بفَرْض الجهاد . والذابُّ الدافعُ، والحَوْزةُ بفتح الحـاء المهملة والزاى المعجمة الناحيةُ .

(القائمُ فى مَصَالح المسلمين) من القاب ملوك المغرب . ذكر فى "التعريف" أنه يُكْتَب به إلىٰ صاحب تُونُس، ويصلُح لكلِّ متَّصف بذلك من ملوك الإسلام، ومعناه ظاهر .

(المُجاهِدُ عن الدِّين) من ألقاب ملوك المغرب، ومعناه ظاهر أيضا .

(المعَفِّي مُلُوكَ آلِ سَاسَان، وبَقَايَا فراسياب وخَاقَان) من ألقاب عُظَماء ملوك الأعاجم . وقد ذكره في "التعريف" في ألقاب صاحب الهِنْد . والمعَفِّي بتشديد الفاء المكسورة الماحِي للأَثَر، يقال عَفَّت الريحُ كذا بالتشديد إذا درَسَتْه ومحَتْ أَثَره، وشُدِّد للمبالغة .

وآل سَاسَانَ ملوك الأَكاسرة وهم الطبقةُ الرابعةُ من ملوك الفُرْس الساسانيَّة إلى أن غَلَبهم الإسلام وانتزع الملكَ من أيديهم ، يُنْسَبُون إلى جدّهم ساسانَ : وهو ساسانُ بن أردشير بَهْمَنْ بن كيبستاسف من ملوك الطبقة الثانية فيهم ، على ما سيأتي بيانُه في الكلام على مكاتبة ملوك إيران، في المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

وفرَاسياب بفاء في أوّله ثم سين مهملة بعدها ياء ثم ألف وباء موحدة ملِكٌ عظيم من ملوك الترك، ويقال إن أصله من أبناء ملوك الفُرْس، وهو فراسياب بن طُوج ابن أفريدون ، من الطبقة الأولى من ملوك الفُرْس ، وإن ابن عمه منوشهر غلب عليه بعد أن قتل أباه طُوجا ففرّ إلى بلاد الترك وتزوّج منهم ، وانتهتْ به الحال إلى أن ملكهم وعَظُم ملكه فيهم .

وخاقانُ بخاء معجمة وقاف ونون ملِكٌ من ملوك الترك أيضا كان في زمن كسرى أنُوشروان فيما يقتضيه كلام أبي هلال العسكري في كتابه "الأوائل" حيث ذكر أنه كان بينه وبينه حرب .

(المَوَاقِف المقدَّسة) من ألقاب الخُلَفاء في مخاطباتهم في المكاتبات ونحوها، والمراد الأماكنُ التي يقف فيها الخليفةُ ، كُنِيَ بها عن الخليفة تنويهاً عن التصريح بذكره؛ والمقدَّسة المطَهَّرة؛ والمراد طهارتها عن الأدناس المعنويّة .

(إمامُ الأئمةِ) من ألقاب العلماء ، وربما قيل «إمامُ الأئمة فى العالَمِين» .

(إمام البُلَغاء) من ألقاب أهل البلاغة من الكُتَّاب ومَنْ فى معناهم

(إمام المتكلّمين) من ألقاب العلماء، وهو بأهل المعقول أليَقُ لإطلاق علم الكلام علىٰ أصول الدِّين ، وإنما سمّى بذلك لأنه لما وقع القولُ بخَلْق القرءان فى صَـدْر الإسلام ممن وقَع كثُر الكلامُ والخوضُ فى ذلك فأُطْلِق علىٰ أصول الدين علم الكلام وبقِىَ عَلَما عليه .

(أوْحَدُ الأشراف) من ألقاب الشُّرَفاء، وربما قيل «أوْحدُ الأشراف فى العالَمِين» أو «أوحد الأشرافِ الطاهِرين» أو «أوحدُ الأشرافِ الماجِدين» ونحو ذلك .

(أوحدُ الأصحابِ) من ألقاب الوُزراء من أرباب الأقلام ومَنْ فى معناهم ككاتب السِّرّ ونحوه وإن كان الصاحبُ يختصُّ بالوزير فى عُرْف [كُتَّاب الديار المصرية](1) علىٰ ما تقدّم .

(أوْحَدُ الأكابِر) من ألقاب التُّجّار الخَواجَكِيّة ، وربما كُتِب به لغيرهم من الرؤساء ، وربما قيل «أوحدُ الأكابر فى العالَمِين» .

(أوحَدُ الأُمّة) من ألقاب العلماء، وربما أُطْلِق علىٰ غيرهم .

(أوحَدُ الأُمَناء فى العالمين) من ألقاب الكُتَّاب ، والأمناءُ جمعُ أمِينٍ وهو خلاف الخائن .

(أوحَدُ الأئمة العلماءِ فى العالَمِين) من ألقاب العلماء، وربما اقتُصِر علىٰ أوحد العلماء .

---

(١) بياض بالاصول والتصحيح من لقب الصاحب المتقدم فى الالقاب المفردة .

(أوحد البُلَغاء) من ألقاب أرباب الأقلام، وربما قيل «أوحدُ البلَغاء فى العالَمين» ونحو ذلك والبُلَغاء جمعُ بَليغ وقد تقدّم معناه .

(أوْحَدُ الرُّؤَساء) وربما قيل « أوحدُ الرُّؤَساء فى العالمين» أو «أوْحَدُ الرؤساء فى الأنام » ونحو ذلك، ومعناه ظاهر .

(أوحدُ الحُفَّاظ) من ألقاب المحَدِّثين، وربما قيل «أوحدُ الحُفَّاظ فى العالَمين» ونحو ذلك .

(أوحدُ الخُطَباء فى العالمين) من ألقاب الخُطَباء .

(أوحدُالعلماء الأعْلام) من ألقاب العلماء،وربما قيل «أوحدُ العلماء فى العالَمين» .

(أوحدُ الفُضَلاء) من ألقاب العلماء، وربما آستُعْمِل فى غيرهم من أرباب الأقلام، وربما قِيل «أوحدُ الفُضَلاء المُفيدين» أو «أوْحدُ الفضَلاءِ العارِفين» ونحو ذلك .

(أوحدُ الكُبَرَاء) من ألقاب التُّجّار الخَوَاجَكِيَّة، ويجوز أن يُستَعْمَل فى غيرهم .

(أوحدُ الكُتَّاب) من ألقاب الكُتَّاب سواء كُتَّاب الإنشاء وغيرهم .

(أوحد المتصرِّفين) من ألقاب الوُزَراء ومَنْ فى معناهم .

(أوحدُ المُجَاهِدين) من ألقاب أرباب السُّيوف .

(أوحدُ المحقِّقين) من ألقاب العلماء .

(أوحد المتكلِّمين) من ألقاب العلماء، وهو بعلماء المَعْقُول أنسَبُ .

(أوحدُ المُفيدين) من ألقاب العلماء .

(أوحد المُلُوكِ والسلاطين) من الألقاب السلطانية .

(أوحد الوُعَّاظ) من ألقاب أهل التذكير والوَعْظ .

(أوحدُ الوَقْت) من ألقــاب أرباب الأقلام . وربمــا قيــل «أوحدُ الوقْت والأَوَان» والوقت معروف، والأَوَان الحِينُ، ويجمع على آوِنَةٍ مثل زَمانٍ وأزْمِنَةٍ .

حرف البــاء

(برَكَةُ الأَنَام) من ألقاب الصُّلَحاء، وقد تُستَعْمَل للعلماء أيضا .

(بركَةُ الدَّوْلة) من ألقاب الصُّلَحاء أيضا، وقد يقال «بركة الدُّوَل» على الجمع، وربمــا كُتِب به لأرباب الأقلام من العلماء وغيرهم . والمرادُ بالدولة المملكةُ القائمةُ، وأصلها من الدَّوْلة فى الحرب وهى النَّصْر والغَلَبةُ .

(بركَةُ المسلمين) من ألقاب الصُّلَحاء، وقد تُستَعْمَل لأهل العلم أيضا .

(بقيَّة الأكابِر) من ألقــاب بَقايَا البيوتِ الرئيسةِ من أهــل الأقلام وغيرهم . وربمــا قيل «بقيَّة الأكابِرِ فى العالَمين» .

(بقيَّــة البيتِ النَّبوِىّ) من ألقــاب الأشراف ، وبه يُكْتَب إلى إمام الزيدية باليمن .

(بقيَّة السَّلَف) من ألقاب العلماء والصُّلَحاء، وربمــا قيل «بقية السَّلَف الصالح» أو « بقيَّة السَّلفِ الكِرَام » والمراد بالسَّلَف الآباء المتقدّمون، أخْذًا من قولهم سَلَف إذا مضى، وربمــا أُطْلِق على مَنْ تقدّم فى صَدْر الإسلام من الصَّحابة والتابعين .

(بقيَّة السُّلالةِ الطاهرةِ) من ألقــاب الأشراف، وقد يقال فيه بقيّــة السُّلالة الطاهرة الزَّكِيَّة، وربمــا أُطْلِق على غيرهم . وبذلك يُكْتَب لصاحب تُونُس لادّعائه أنه من نَسْل أمير المؤمنين عمرَ بن الخطَّاب رضى الله عنه . والسُّلالة فى الأصــل ما آسْتُلّ من الشىء، والمراد هنا النُّطْفةُ لأنها مستَلّة من الإنسان .

(بقيّةُ الملوكِ والسلاطينِ) من ألقاب مَنْ له سلَفٌ فى المُلْك، كصاحب حِصْنِ كَيْفَا من بقايا الملوك الأيوبيّة .

(بقيّة الأصحابِ) من ألقاب الوُزَراء أرباب الأقلام ومَنْ فى معناهم .

(بقيّة شجرةِ الفَخَار) من ألقاب ذوِى الأصالة العَرِيقين فى النَّسَب، وبه يُكْتَب لابن الأحمر صاحب الأندلُس .

(بَهَاء الأعيان) من ألقاب أرباب الأقلام، والبَهَاء الحُسْن، والأعيانُ جَمْع عين تجمَعُ على أعيُنٍ وعُيُونٍ وأعْيانٍ، والمراد هنا الخِيَارُ، إذ عينُ كلّ شىءٍ خِيارُه .

(بَهَاءُ الأنَام) من ألقاب أرباب السيوف غالبًا، وربما أُطْلِق على غيرهم ؛ والأنَامُ الخَلْق .

(بَهاءُ العِصابة العَلَويّة) من ألقاب الأشراف، وبه يُكْتَب لأميرَىْ مكّةَ والمدينة المُشَرَّفتين ، والعِصابة بالكسر الجماعةُ من الناس وتجمَعُ على عصائِبَ . والعَلَويّة نسبة إلى أمير المؤمنينَ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه

حرف التاء المثناة من فوق

(تاجُ العلماء والحُكّام) من ألقاب القُضاة ، والتاجُ مايُوضَع على الرأس وهو معروف .

(تاجُ الأُمَناء) من ألقاب التُّجّار الخَوَاجِكيّة ، ويصلُح لكُتّاب الأموال أيضا .

(تاج المتصَرِّفين) من ألقاب الوُزَراء ومَنْ فى معناهم .

(تاج الفُضَلاء) من ألقاب أرباب الأقلام . ورأيتُ فى بعض الدَّساتير الشاميّة « تاجُ الفُضَلاء المُنْشئِين » وهو مناسبٌ لمن هو فى أوّل نَشْأته وابتداءِ رِياسته، وحَداثة سِنّه .

(تاج المِـلَّة) من الألقاب التى يشتَرِك فيهـا أربابُ السيوف والأقلام جميعًا . والمِلَّة فى أصل اللغة الدينُ والشَّريعة ، والمراد هنا مِلَّةُ الإسلام، والألفُ واللامُ فيها للعهد الذِّهْنىّ .

حرف الثـاء المثلثة

(ثِقَة الدُّوَل) من ألقاب التُّجَّار الخَوَاجَكيَّة ، وربما قيل «ثِقَةُ الدولتَيْنِ» والثِّقةُ فى اللغة الأَمِينُ وخُصَّ ذلك بالتُّجَّار لتردّدهم فى المَمَالك ، ويحسُــنُ أن يلَقَّب به المتردِّدُون فى الرسائل بين المُلُوك .

حرف الجـــيم

(جامعُ كلمةِ الإيمـان) من الألقاب السلطانية .

(جامعُ طُرُق الواصفين) من ألقـاب الصُّوفيَّة وأهل الصَّـلَاح ، وربمـا قيل «جامع الطُّرُق» ويصلُحُ أن يكون من ألقاب العلماء أيضا .

(جمالُ الإسْلام) من ألقاب العلماء، وربمـا قيل جمال الأكابر من ألقاب التجّار الخَوَاجَكِيَّة، وقد يستعمَلُ لأرباب الأقلام، والجَمَـال فى اللغة الحُسْن .

(جَمَال الذُّرِّية) والمراد ذُرِّيَّة النبىّ صلى الله عليه وسلم لأن الذرِّيَّة تشمل أولاد البنات ، وقد عدّ اللهُ تعـالىٰ عيسىٰ عليه السلام [من ذُرِّيَّة إبراهيم عليه السـلام](1) وهو ابن بِنْته .

(جَمَالُ الصُّدُور) من ألقاب أربابِ الأقلام ، والصُّـدُور جمع صَدْر ، والمراد صُدُور المَجَالِس .

---

(١) الزيادة لتتميم الكلام وسقوطها سهو من الناسخ .

(جمالُ الأئمة) من ألقاب العلماء، وربما قيل «جَمالُ الأئمة العارِفين» .

(جَمَال البارِعين) من ألقاب أربابِ الأقلام، والبارِعين جمع بارع وهو الناهِضُ .

(جَمَال البُلَغاء) من ألقاب كُتَّاب الإنشاء ونحوهم .

(جَمَـالُ الطائفةِ الهاشِمِيَّـة) من ألقاب الشُّرَفاء، والطائفةُ فى أصـل اللغة آسمٌ للقِطْعة من الشيء . قال آبن عباس وتُطْلَق علىٰ الواحد فما فوقه ، والهاشِمِيّة نسبةٌ إلىٰ هاشم : وهو هاشِمُ بنُ عبدِ مَنَاف جدُّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم .

(جَمَال العِتْرةِ الطاهرة) من ألقاب الشُّرَفاء أيضا، ورُبَّما آقتُصِر علىٰ جمال العِتْرة فقط . وعِتْرة الرجل نَسْلُه وأهلُه الأَدْنَوْن، والمراد عِترةُ النبيّ صلّى الله عليه وسلم .

(جمالُ العَصَبة الفاطِمِيّة) من ألقاب الشُّرَفاء أيضا، والعَصَبة بفتح العين والصاد واحدة العَصَبات ، وهى فى أصل اللغة البُنُوَّة والقرابةُ للأب . قال الجوهريّ : سُمُّوا عَصَبةً لأنهم عَصَبوا بالشخص بمعنىٰ أنهم أحاطُوا به : فالأُمُّ طَرَف، والأَبُ طَرَف ، والعَمُّ جانب ، والأخُ جانبٌ . والمراد هنا أبنـاءُ فاطمةَ رضى الله عنها وهم أحدُ أفرادِ العَصَبة . ولا يجوز أن يقال العُصْبة بضم العين وإسـكان الصاد : لأنّ المراد بذلك الرجالُ ما بين العَشْرة والأربعين كما قاله الجوهريّ . وبَنُو فاطمة رضى الله عنها قد أَرْبَوْا عن العددِ فى الشَّرْق والغَرْب .

(جَمالُ العلمـاء) من ألقاب أهل العلم .

(جَمالُ الفُضَلاء) من ألقاب أرباب الأقلام من العلماء والكُتَّاب، وربما قيل «جمالُ الفُضَلاء المُفِيدين» ونحو ذلك ويختصّ حينئذ بالعلماء .

(جَمَالُ الكُتَّاب) من ألقاب كُتَّاب الإنشاء وغيرهم من الكُتَّاب .

(جمالُ المَمْـلَكة) من ألقاب الكُتَّاب .

(جَمَالُ الوَرِعِينَ) من ألقاب الصُّوفية وأهلِ الصَّلاَح .

(جمالُ أهل الإفْتاء) من ألقاب أكابر العُلَماء .

(جَلاَل الإســلام) من ألقاب أرباب الأقلام، ويصْلُح أن يكون لَقَباً لبعض الملوك، وبه يُكْتَب لإمام الزَّيدِيَّة باليمن، وربما قيل «جَلاَل الإسلام والمسلمين» .

(جَلاَلُ الأصْحاب) من ألقاب الُوزَراء ومَنْ في معناهم .

(جَلاَلُ الأكابر) من ألقاب أرباب الأقلام، وبه يُكْتَب لناظر الخاصّ .

(جَلاَلُ الحُكَّام) من ألقاب أكابر القُضاة ، والجَلاَل في اللغة العَظَمة .

(جَلاَل العِتْرة الطاهرة) من ألقاب الشرفاء، وبه يُكْتَب لأميرىْ مكةَ والمدينة المشرّفتين .

(جَلاَل العُلَماء في العالَمين) من ألقاب أهل العلم ، وربمــا قيل «جلال العُلَمــاء العاملين» ونحو ذلك .

(جلالُ الكُبَراء) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام .

(جلال الأسْرة الزاهرة) من ألقاب الأشراف . والأُسْرة بضم الهمزة الرَّهْطُ، والمراد رَهْط بنى هاشِم، والزاهرة المُضِيئة، وبه سُمِّى الكَوْكَب المعروف بالزُّهَرة .

(جَهْبَذ الحُذَّاق) من ألقاب الكُتَّاب، وربمـا قيل «جَهْبَذُ الحُذَّاق المتصرِّفين» والجَهْبَــذُ بفتح الجيم (١) وإسكان الهاء وفتح الموحدة النَّقَّاد للذَّهَب والفِضَّة، ولذلك يقال للصيرفيِّ جَهْبَذ، والمراد هنا أنه ينقُدُ الأمور فيستخرج جَيِّدها من رديئهـا كما يفعل الصــيرَفِى .

(١) ضبط في القاموس الفيروزباذى بالكسر ثم قال شارحه كزبرج .

حرف الحـاء المهملة

(حاكِمُ الحُكّام) من ألقاب قُضاة القُضاة .

(حاكِمُ أمور وُلاة الزمان) من ألقـاب أرباب السُّـيُوف ، وربمـا كُتِب به لبعض الملوك .

(حافِظُ الأسْرار) من ألقاب كاتِبِ السرِّ .

(حُجّة الأمة) من ألقاب قُضاة القُضاة وأكابر العلماء ، والحُجّة فى اللغـة البُرْهان ومنه قوله تعـالى : ﴿ وتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ والأُمّة فى أصل اللغة الجماعةُ ، والمرادُ هنا أُمّة النبىّ صلّى الله عليه وسلم ، والمعنىٰ أنه تَقُوم به الحجةُ لأهل الإسلام علىٰ غيرهم .

(حُجّة الأئمة) من ألقاب أكابر العلماء ، والأئمةُ جمع إمَام ، وقد تقدّم أنه الذى يُقْتدىٰ به .

(حُجّة البُلَغاء) من ألقاب أرباب الأقلام ، وهو بالكُتّاب أمَسّ .

(حُجّة العَرَب) من ألقاب النُّحاة واللُّغَويين ومَنْ فى معناهم ، كأنهم يحتَجُّون به لُغتِهـم .

(حُجّة المَذاهب) من ألقاب أكابر العلماء ، وربمـا قيل « حُجّة المَذْهَب » إذا أُريد مَذْهَبُه خاصّة ، وهو دون الأوّل .

(حُجّة المُفْتِين) من ألقاب أكابر العلماء ، والمرادُ بالمُفْتِين من هُمْ أهـلٌ للفَتوىٰ فى الأحكام الشرعيّة .

(حِرْز الإمام) من ألقاب الوُزَراء ومَنْ فى معناهم من حَفَظة الأموال . والحِرْز فى اللغة الموضعُ الحَصِين، والمراد بالإمَام السلطانُ ومَنْ فى معناه .

(حُسَامُ أمير المؤمنين) من ألقاب أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم . والحُسَام من أسماء السَّيْف ، سُمِّى بذلك أخذًا من الحَسْم وهو القَطْع .

(حَسَــنةُ الأيَّام) من ألقــاب أكابر أرباب الأقلام من الوُزَراء والقُضاة ومَنْ فى معناهم . والحَسَــنة خِلافُ السيئة ، والمراد أنَّ الأيامَ أحسنَتْ بالامتنان به . وقد ذكر القاضى «شهابُ الدين بنُ فضل الله» فى بعض دساتيره أنه يصلح لكل مَنْ له سَلَف فى الكِتَابة، وهو بعيد المَأْخَذ .

(حَكَم المُلُوكِ والسلاطين) من ألقاب قُضاة القُضاة، والحَكَم بمعنى الحاكِم .

حرف الخــاء المعجمة

(خادِمُ الحَرَمين الشريفَيْنِ) من الألقاب السلطانية، والمرادُ حَرَمُ مكةَ المشرَّفةِ، والمدينةِ النبويَّةِ الشريفةِ على ساكنهــا أفضل الصلاة والسلام والتحية والاكرام .

(خالِصَةُ الدولة) من ألقاب الوزراء، والخالِصةُ فى اللغة بمعنى الخاصَّة . يقال هذا لى خالِصَــة يعنى خاصَّةً . ومنه قوله تعالى : ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ﴾ وعليه [حمل] قوله تعالى : ﴿وَقَالَ المَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ .

(خالصـــةُ المُــلوك والسلاطين) مِــن ألقــاب أرباب الأقــلام . قال فى " عُرْف التعريف " : وهو فى حَقِّ مَنْ لم يكن حاكمًا فى مَقَــام حَكَم المــلوك والسلاطين لمن هو حاكِمٌ .

(خالِصةُ أمير المؤمنين) من ألقاب أرباب الأقلام .

(خالِصةُ الإمام) من ألقاب الصُّوفيَّة، وربما جعل من ألقاب العلماء أيضا، والمراد بالإمام الخليفةُ أو السلطانُ .

(خالِصةُ سَلَف الأنصار) من الألقاب التي يُكْتَب بها لابن الأحمرِ صاحب الأنْدَلُس : لأنه يَذْكُرُ أنه من ذرِّية «سَعْد بن عُبَادة» الأنصاريّ رضى الله عنه ، ويصْلُح لكل مَنْ وافقه فى ذلك ، وكان الأحسنُ أن يقال خُلاصة بدل خالِصة ، لما تقدّم من أن المراد بالخالِصة الخاصَّة . والمراد بالأنصارِ أنصارُ النبيّ صلّى الله عليه وسلم وهم الأَوْس والخَزْرَج الذين هاجَرَ إليهم النبيّ صلّى الله عليه وسلم بالمدينة .

(خَطِيب الخُطَباء) من ألقاب أكابر الخُطَباء، وربما كُتِب به لقُضاة القُضاة، إذا أُضيف له خَطَابة جليلة، كخَطَابة جامع القلعة بالديار المصرية ، وخَطَابة الجامع الأَمَوىّ بدِمَشْق .

(خَلَف الأولياء) من ألقاب أولاد الصالحين .

(خَليفة الأئمة) من ألقاب الشِّيعة، والمراد مَنْ يعتقدونه من الأئمة المَعْصُومين كالإمامية ونحوهم . وبه يُكْتَب لإمام الزيْديَّة باليَمَن .

(خَلِيلُ أمير المؤمنين) من ألقاب أولاد السلطان ، وربما كُتِب به لبعض الملوك، والخَلِيلُ بمعنىٰ الصَّدِيق .

(خُلَاصة الخلافة المعَظَّمة) من ألقاب بعض الملوك ، والخُلَاصة الذى خَلَص من الثُّفْل ونحوه . ويقال فيه خِلَاص أيضا بغير هاء .

(خُلَاصة سَلَف القوم) من ألقاب الصُّوفية وأهل الصَّلَاح ، والقوم يختَصُّ فى اللُّغة بالرجال دُونَ النساء قال تعالىٰ : ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ ثم قال ; ﴿ولا نِسَاءٌ منْ نِسَاءٍ﴾ .

(خِيرةُ الإسْلام) من ألقاب أهل الصَّلاح فيما ذكره في "عُرْف التعريف" : ويصْلُح لأهل العلم أيضا . والخِيرةُ الاسمُ من قولك اختار فلانٌ فلاناً، والمراد أنَّ الإسلامَ اختاره .

حرف الدال المهملة

(دليلُ المُريدين إلى أوضح الطَّرائق) من ألقاب مشايخ الصُّوفيَّة، والمراد بالمُريدين طُلَّابُ الطَّريق إلى الله تعالى .

(داعِي الدُّعاة بالبراهين الظاهرةِ إلى استِعْلام الحَقَائق) من ألقاب العلماء .

حرف الذال المعجمة

(ذُخْر الإسلامِ والمسلمين) من ألقاب المُلُوك، وبه يُكْتَب لصاحب تُونُس وملك التَّكْرور . والذُّخْر في اللغة مصدر ذَخَرت الشيءَ أذْخَرُه بفتح الخاء إذا جعلته ذخيرةً .

(ذُخْر الأُمَّة) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كنُوَّاب السلطنة ونحوهم .

(ذُخْر الدَّوْلة) من ألقاب أربابِ السيوف ، وقد يقع في ألقاب الصُّلَحاء والعلماء .

(ذُخْر الغُزاة والمجاهِدين) من ألقاب أرباب السيوف أيضا .

(ذُخْر الطالِبين) من ألقاب الصُّلَحاء والعلماء، والمراد طالبو الوصولِ إلى الحق أو نحو ذلك .

(ذُخْر المسلمين) من ألقاب الملوك ، وبه يُكْتَب لإمام الزيديَّة باليمن فيما ذكره في "التعريف" .

(ذُخر المِلَّة) من ألقاب أرباب السيوف، وقد تقدّم معنى المِلَّة .

(ذُخر المَمَالك) من ألقاب بعض الملوك . وربّما قيل ذُخر المملكة .

(ذُخر الموحِّدين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كالنائبِ الكافلِ ونحوه ، وجعله فى "عرف التعريف" خاصًّا بالكافل دُونَ غيره .

(ذُخر أمير المؤمنين) من ألقاب الملوك، وهو دُونَ خَليلِ أمير المؤمنين .

حرف الراء المهملة

(رأْس البلغاء) من ألقاب أكابر كُتَّاب الإنشاء ككاتب السِّرّ ومن يَجْرِى مَجْراه .

(رأْس الصُّدور) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام فى الجملة من أهل العلم والكُتَّاب ومَنْ يجرِى مَجْراهم . والمراد رأْسُ صدورِ المجالس .

(رأْسُ العَلْياء) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام من العلماء والوُزَراء ومَنْ فى معناهم، ويصلح لكلِّ علِيِّ القَدْر فى الجملة، وبه يُكْتَب إلى إمام الزَّيْدِيَّة باليمن .

(رُحْلة الحُفَّاظ) من ألقاب المُحَدِّثين، وقد تقدّم أن الرُّحْلة بضم الراء ما يُرحَلُ إليه ، والحُفَّاظ جمع حافِظ، والمراد حِفْظُ الحديث.

(رُحْلة القاصدينَ) من ألقاب كِبَار أرباب الأقلام ، وهو بأهل الكَرَم والجُود أخَصُّ، والمراد مَنْ يُقْصَد بالتَّرحال إليه .

(رُحْلة المُحَصِّلين) من ألقاب العلماء ، والمراد مَنْ يُرْحَل إليه لتحصيل العلم بالأخْذ عنه .

(رُحْلة الوقت) من ألقاب العلماء والمراد من انفرد فى الوقت بالرحيل اليه لأخذ العلم عنه .

(رَضِيّ الدولة) من ألقاب الكُتّاب، والمراد من يُرْضِيه أعيانُ الدولة بالتقريب . ثم الظاهر أنه بكسر الضاد بمعنى مَرْضيّ عند أعيان أهل الدولة . ويجوز أن يكون بفتح الضاد علىٰ جعله هو نفس الرِّضا تجوّزا .

(رَضِيّ أمير المؤمنين) من ألقاب أرباب الأقلام . والكلامُ فيه كالكلام فى الذى قبله .

(رُكْنُ الإسلام والمسلمين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف : وبه كان يُكْتَبُ للنائب الكافل علىٰ ماهو مذكور فى "التعريف" والرُّكْن واحد الأركان وهو معروف .

(ركن الأُمَّة) من ألقاب الملوك، وبه يُكْتَب لملك التُّكْرُور .

(ركن الملوك والسلاطين) من الألقاب المُلُوكِيَّة وما فى معنىٰ ذلك من أرباب السيوف . ونقل فى " التثقيف " أنه كُتِب به لبعض مشايخ التصوّف ثم أنكره وقال : الأولىٰ أن يكون بَدَله (بركةُ الملوك والسلاطين) وما ذكره واضح . علىٰ أنه فى " عرف التعريف " قد أورده فى ألقاب الصلحاء، وكأنهم راعَوْا فى ذلك أنه رُكْن لهم من حيث البركة والدعاء إلا أن الأوّل أظهرُ .

(رُكْن الأولياء) من ألقاب أهل الصلاح علىٰ أن المراد أولياء الله تعالىٰ ويجوز أن يكون من ألقاب أرباب السيوف وارباب الأقلام أيضا علىٰ معنىٰ أن المراد أولياء الدولة .

(رَئِيس الكُبَرَاء) من ألقاب الوُزَرَاء من أرباب الأقلام ومَنْ فى معناهم . وأهل الشأم يستعملونه فى أكابر أرباب الأقلام من[1] قُضاة القُضاة ونحوهم، وقد تقدّم المراد بالصاحب فى الكلام علىٰ الألقاب المفردة .

---

(١) أى فى حرف الصاد المهملة وهذه الجملة غير مناسبة لشرح هذا اللقب .

حرف الزاى المعجمة

(زَعيم الجُنُود) من ألقاب أكابر أرباب السُّيُوف كالنائب الكافل، والزَّعِيمُ الكَفِيل . والمراد هنا التَّكَفُّل بالجنود والقيامُ بأمرها . ويجوز أن يكون بمعنى السِّيد، يُقال لسيِّد القومِ زَعِيمُهم ، والأوّل أَليَق بالمقام ، والجُنُود جمع جُنْد وهم الأعوان علىٰ ما تقــدّم .

(زَعِيم الجُيُوش) من ألقاب أكابر أرباب السُّيُوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم، والجُيوش جمعُ جيش وهو العَسْكر .

(زَعِيم الموحِّدين) من ألقاب صاحب تُونُس علىٰ تخصيص المَوَحِّدين ، والمراد بالمَوَحِّدين فيه أتباعُ المَهْدِى بن تُومَرْت الذين من بقاياهم ملُوكُ تُونُس، كان المهدىُّ المذكور قد سمّاهم المَوَحِّدين تعريضا بذَمِّ من كان قبله ببلاد المَغْرِب ممن يدّعى التجسيم علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ مكاتبة صاحب تُونُس فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالىٰ . ويجوز أن يراد بالمَوَحِّدين هنا عامةُ أهل الإيمان ويكون المرادُ بالمَوَحِّدين جميعَ المؤمنين . ويصح وقوعُ هذا اللقب حينئذ علىٰ غير صاحب تُونُس من الملوك ونحوهم، ولذلك يُكْتَب به لملك التُّكرور علىٰ ماذكره فى "التعريف" .

(زَعِيم المؤمنين) من الألقاب التى يُكتَب بها لإمام الزيْديَّة باليمن . ويصحّ وُقُوعه علىٰ غيره من ملوك المسلمين أيضا كما فى « زعيم المَوَحِّدين » إذا جعل عامًّا فى حق كل موحِّد علىٰ ماتقدّم بيانُه .

(زَعِيمُ جُيوشِ الموحِّدين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف، ككافِل السلطنة بحَلَب، وبه يُكْتَب لصاحب حصْن كَيْفا فيا ذكره فى "التعريف" .

(زَيْن الإسلامِ والمسلمين) من ألقـاب أرباب الأقلام ، والزَّيْن في اللغة نَقِيضُ الشَّيْن .

(زَيْن الأعْيان) من ألقـاب أرباب الأقلام ، والأعيانُ جمعُ عَيْن ، وقد تقدّم الكلام عليه .

(زَيْنُ الأكابر) من ألقاب التُّجّار الخَواجَكِيَّة ومَنْ فى معناهم .

(زَيْنُ الأنامِ) من ألقاب صِغَار أرباب السيوف ، وربمـا كُتِب به لغيرهم .

(زَيْنُ الأئمة) من ألقاب العلماء ، وربمـا قيل «زين الأئمة العُلَماء» .

(زَيْنُ البُلَغاء) من ألقاب الكُتَّاب ونحوهم .

(زَيْنُ الحُكَّام) من ألقاب القضاة .

(زَيْنُ الذّوائب الهـاشِمِيَّة) من ألقاب الشرفاء ، والذَّوائب بالذال المعجمة جمعُ ذُؤَابة بالهمز : وهى ما يُرْخىٰ من الشَّعَر . قال الجوهرىّ : وكان الأصل ذآئب [لأن الألف التى فى ذؤابة][1] كالألف التى فى رسالة حقها أن تُبْدَل منها همزة فى الجمع ، ولكنهم آستثقلوا أن تقـع ألفُ الجمع بين الهمزتين فأبدلوا من الأولىٰ واوا . وإنمـا آختَصّ هـذا اللقب بالشُّرَفاء لأنهم من صميم عَرَب الحجـاز ، وعادة عرب الحجاز إرخاءُ الرجالِ الذَّوائِب .

(زَيْنُ الزُّهّاد) من ألقاب الصُّوفِيَّة وأهل الصلاح .

(زَيْنُ العُبَّاد) من ألقاب أهل الصَّلاَح أيضا .

(زَيْنُ العِتْرة الطاهرةِ) من ألقاب الشُّرفاء ، وبه يُكْتَب لأميرَىْ مكةَ والمدينةِ . وقد تقدّم معنىٰ العِتْرة .

---

(١) الزيادة عن الصحاح للجوهرى .

(زين الكُتّاب) من ألقاب كُتّاب الإنشاء وغيره .

(زَيْن المجاهِدين) من ألقاب أرباب السيوف ، وربما قيل «زَيْن الأمراء المجاهِدين» وربما كُتِب به لبعض صِغار الملوك ، كصاحب دُنْقُلَة ونحوه .

(زَيْن المُنْشئِين) رأيتُه فى بعض الدساتير الشاميّة فى ألقاب الكُتّاب ونحوهم ، وهو صالحٌ لكل حَدَثٍ مترَقٍّ فى العلُوّ .

حرف السين المهملة

(سِدَاد الثُّغُور) من ألقاب الوزراء ، وهو بكسر السين وتخفيف الدال بعدها ، بمعنى أنه الذى تُسَدّ به الثُّغور ، أخذًا من سِدَاد القارُورةِ وهو ما يُسَدّ به فَمُها ، ومنه قول الشاعر :

أَضَاعُونِى وأَىَّ فَتًى أَضَاعُوا * لِيَوْمِ كَرِيهَـةٍ وسِـدَادِ ثَغْرِ

ويُحكَى أنّ المأمون نَطَق بمثل ذلك بفتح السين بحَضْرة النضر بن شُمَيْل فردّه عليه فأمر له بثمانين ألفَ درهم ، فكان النضر يفتخر بذلك ويقول : أخذْتُ بإفادةِ حرفٍ واحد ثمانين ألفَ دِرْهم .

(سَفِير الأُمّة) من ألقاب الدَّوَادار وكاتب السرّ ، وقد تقدّم معنى السَّفِير .

(سَفِير الدولة) من ألقاب المذكورَيْن .

(سَفِير المَمَالك) من ألقاب من تقدّم ، وربما قيل «سَفِير المملكة» .

(سَفِير المُلوك والسلاطين) كذلك .

(سُلطانُ الإسلام والمسلمين) من الألقاب السلطانية .

(سُلْطانُ الأَوَان) من الألقاب السلطانية الجليلة .

(سُلْطان البَسيطة) من الألقاب السلطانية، والبَسيطة الأرض أخذًا من البَسْطة وهى السَّعَة ومنه قيل : تَبَسَّط فلانٌ فى البلاد إذا سار فيها طُولا وعَرْضا .

(سلطان العَرَب والعَجَم والتُّرْك) من الألقاب السلطانية أيضا . وهو غير محرّر الوضع لأن العَجَم فى اللغــة يقع علىٰ مَنْ عدا العربَ فى الجمــلة ولا يختص بالفُرْس علىٰ ماهو المعروف بين العامة وهو مقصودُهم هنا، فالتُّرْك من جملة العجم فكان يكْفِى أن يقال سلطان العَرَب والعَجَم، وإنمــا حملهم علىٰ ذلك زيادةُ الإطراء والمَدْح .

(سَلِيل الأطْهار) من ألقاب الشُّرَفاء، والسَّلِيل الوَلَدُ، والمراد بالأطهار المبرَّءُون عن الأدناس .

(سَلِيل الأكابِر) من ألقاب أولاد الأكابر والرؤساء .

(سَليلُ الطيِّبين) من ألقاب أرباب الأقلام من ذَوِى الأصالة .

(سَليلُ الملوك والسلاطين) من ألقاب أولاد الملوك ومَنْ مضىٰ له سَلَف فى المُلْك .

(سيدُ الأمراء المقدَّمين) من ألقاب الأمراء مقدَّمى الألوف، فى الرتبة المتوسطة .

(سيِّد الأمراء فى العالَمِين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم، وربمــا كُتِب به لبعض الملوك عن الأبواب السلطانية .

(سـيِّدُ الرؤساء فى العالَمِين) من ألقاب أكابر أصحـاب الأقلام ككاتب السرّ ونحوه .

(سيد العُلَماء والحُكّام فى العالمين) من ألقاب القُضَاة .

(سـيدُ الكُبَراء فى العالمين) من ألقــاب أكابر أرباب الأقـــلام كناظر الخاصّ ونحوه .

(سيد الوُزَراء فى العالمين) من الألقاب الخاصّة بالوزراء .

(سيّدُ أمراء العالمين) من ألقاب النُّوّاب المتوسطين .

(سَيْفُ الإسلام والمسلمين) من ألقاب أرباب السيوف ، وربما كُتِب به لبعض الملوك .

(سَيْفُ الحقّ) من ألقاب العلماء وأهل النَّظَر .

(سيفُ الخِلَافة) من الألقاب الملوكية ، وبه يُكْتب لملك التَّكْرور .

(سيفُ المناظِرين) من ألقاب العلماء ، والمراد بالمُنَاظِرين أهلُ البحث والجَدَل ، أخذًا من النَّظَر وهو الفِكْر المؤدّى إلىٰ الدَّلِيل .

(سيفُ النَّظَر) بمعناه أيضا .

(سيفُ أمير المؤمنين) من ألقاب أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ، وهو فى الرُّتْبة المتوسطة .

(سيفُ جماعة الشاكِرِين) من الألقاب الخاصّة بصاحب تُونُس ، وهذا اللَّقَب رأيته واردا فى "التثقيف" ولم أعْرِف له معنًى ؛ وسألتُ «قاضىَ القضاة ولىَّ الدين ابنَ خَلْدون» هل يَعْرِف لذلك معنًى؟ فقال : لا .

حرف الشين المعجمة

(شَرَفُ الأصفياء المقرَّبين) من ألقاب كِبار التُّجّار الخَوَاجَكيَّة .

(شَرَفُ الدُّوَل) من ألقاب بعض الملوك ، ويصلُح لغير الملوك أيضا .

(شَرَفُ الأمراءِ فى العالمين) من ألقاب أرباب السيوف ، وربما قيل شَرَفُ الأمراءِ الأشرافِ فى العالمين إذا كان شريفا ، أو شرفُ الأمراءِ العُرْبان فى العالمين

إذا كان غير أميرِ عرب[1]، وربمـا قيل «شَرَفُ الأمراء المقدَّمين» إذا كان مُقـدَّم ألف، وقد يُقتَصَر علىٰ شَرَف الأمراء فقط .

(شَرَفُ الرُّؤساء فى العالَمين) من ألقـاب أكابر أرباب الأقلام كوزير الشأم ونحوه، وربمـا ٱقتُصِر علىٰ «شَرَف الرؤساء» ويكون من ألقـاب التجّار الخواجَكيَّة ونحوهـــم .

(شَرَفُ الصُّلَحاء فى العالمين) من ألقاب أهل الصَّلاح .

(شرف العلماء العامِلين) من ألقـاب أكابر العلمـاء كقُضاة القُضاة ونحوهم، وربمـا قيل «شَرَفُ العلماء فى العالَمين» .

(شرفُ الكُتّاب فى العالَمين) من الألقاب الكِتَابية .

(شرف المُلُوك والسلاطين) من الألقاب المُلُوكية .

(شَمْس الأُفُق) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام، وهو بالعلماء ألْيَق، لأن بهم يحصُل النُّور كما يحصُـل بالشمس . وهو ما يُتَخَيَّل ٱنطباقُ السماء علىٰ الأرض بالنظر فى كل ناحيةٍ فيـه . وأصلُ الأُفُق الناحيـةُ ومنه قيل للنَّواحى آفاقٌ، وإنمـا خُصَّ الشمس هنا بالإضافة للأفق لأنها عنـد مَطْلَعها تكون فى النظر أعظَمَ صورةً .

(شَمْس الشَّريعة) من ألقاب أكابر العلماء، والمراد بالشريعة هنـا شريعةُ الإسلام، ٱستُعيرت الشمس لها لمشابهتها لها فى النُّور .

(شمسُ العَصْر) من ألقاب العلماء والصُّلَحاء ونحوهم .

(شَمْسُ المَذَاهب) من ألقاب العلمـاء الأكابر، والمَـذاهب جمع مَذْهَب وهو ما يَذْهَب إليه المجتهدُ، وأصله فى اللغة لموضع الذَّهاب .

(١) الظاهر أن لفظ غير زائد من الناسخ .

(شيخُ المَشَايخ) من ألقاب العلماء وأهل الصَّلَاح، وربما قيل « شيخ شُيوخ الإسلام » .

(شيخُ الملوك والسلاطين) من ألقاب المُسِنِّين من الملوك . وهذا اللقب رأيته فى كتاب وَقْف عن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيُّوب، بعث به نجمُ الدين أيوبُ والدُ السلطان صلاح الدين يُوسفَ .

(شيخ شُيُوخ العارفين) من ألقاب الصُّوفية وأهل الصلاح، ومرادُهم بالعارفين العارفُون بالله تعالىٰ .

حرف الصاد المهملة

(صالحُ الأولياء) من ألقاب إمام الزيديّة باليمن، ويصلُح لأهل الصلاح ايضا .

(صَدْر المدرِّسين) من ألقاب العلماء .

(صَدْر مِصْرَ والشام) من ألقاب أكابر العلماء كقُضاة القُضاة ونحوهم، وإنما خُصّ هذان القُطْران بالذكر لكثرة علمائهما، وربما قيل «صَدْر مصر والعِراقِ والشامِ» وربما اقتُصِر علىٰ صَدْر الشام فقط إذا كان برسم وظيفةٍ فى الشأم ونحو ذلك .

(صَفْوة الدَّوْلة) من ألقاب مَنْ فى معنىٰ الوزراء كناظر الخاصّ ونحوه .

(صَفْوةُ الصُّلَحاء) من ألقاب أهل الصَّلَاح .

(صَفْوةُ الأتْقياء) من ألقاب الصُّلَحاء أيضا .

(صفوةُ المُلوك والسلاطين) من ألقاب أرباب الأقلام (١) كناظر الشام ونحوه، وربما كتب به للتُّجار الخَوَاجكيّة .

(صَلَاح الإسلام) من ألقاب الصُّوفيّة والعلماء .

---

(١) لعله كناظر الخاص أو ناظر الجيش .

(صلاح الإسلام والمسلمين) من ألقـاب أكابر أرباب الأقـلام ، كالوُزَراء ومَنْ فى معناهم .

(صَـلَاحُ الدول) من ألقاب بعض المـلوك، وبه يُكْتَب لصاحب تُونُس . ويصلُح أيضا لأكابر أربابِ الأقلام من الوُزَراء وغيرهم .

(صلاحُ المِلَّة) من ألقاب العلماء والصلحاء .

حرف الضاد المعجمة

(ضياءُ الإسلام) من ألقاب العلماء والصُّلَحاء، وربما قيل «ضياءُ الإسلام والمسلمين» والضِّياء خلافُ الظَّلام . وهو مخصوص بما كان مُضيئا لِذَاتِه، بخلاف النور فإنه يقع علىٰ ماهو مكتَسِبُ النُّور، ولذلك قال تعالىٰ : ﴿جَعَلَ الشمسَ ضِياءً والقَمَرَ نُورًا﴾ فخصَّ الضياءَ بالشمس لأنَّ نُورها لِذَاتِهـا ، والنورَ بالقمر لأن نُوره مكتَسَب من الشمس، علىٰ ماهو مقرّر فى علم الهيئة .

(ضياءُ الأنامِ) من ألقاب مَنْ تقدّم ذكره .

حرف الطـاء المهملة

(طِرَازُ العِصَابة العَلَوِيَّة) من ألقاب الأشراف كأميرَىْ مكةَ والمدينةِ المشرَّفتين . والطِّرازُ فى أصـل اللغة عَلَمُ الثوب . قال الجوهرى : وهو فارسىٌّ معرَّب، كأن صاحب اللقب جُعِل عَلَما لتلك الطائفة كما جُعِل الطِّراز عَلَما للثوب .

حرف الظـاء المعجمة

(ظِلُّ اللهِ فى أرضه) من الألقاب السلطانية ، والظل ما يحصُل عن الشاخِص فى ضَوْء الشمس، والمراد أن الخَلْق يستَظِلُّون بالسلطان من حرّ الجَوْر كما يستظلُّ

المستظِلّ بظلّ الشجرة ونحوها من حَرّ الشمس . وقال ٱبن قتيبة فى "أدب الكاتب" أصل الظّلّ السِّتر ومنه قولهم : أنا فى ظِلّك أى فى سِتْرِك ، ثم ٱسمُ الظلّ مخصوصٌ بما قَبْل الزوال؛ أما بعد الزوال فإنه يسمّى فيئا لأنه يَرْجِعُ من جهة الغَرْب إلى جهَة الشرق أخذًا من قولهم فَاءَ إذا رجع .

(ظَهِيرُ الملوك والسلاطين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة .

(ظَهِيرُ أمير المؤمنين) من ألقاب أرباب السيوف أيضا، وربما كُتِب به لبعض الملوك كصاحب الأندلس ونحوه .

(ظَهير الإمامة) من ألقاب بعض الملوك، وبه يُكْتَب إلى صاحب التَّكْرور .

حرف العين المهملة

(عاقِدُ البُنُود) من ألقاب النائب الكافل ونحوه، والعاقد فاعل من العَقْد نقيض الحَلّ ، والبُنود جمع بَنْد ـ بفتح الباء وإسكان النون ـ وهو العَلَم الكبير قال الجوهرىّ وهو فارسىّ معرب .

(عِزُّ الإسلام) من ألقاب بعض المُلُوك ، وبه يُكْتَب إلى ملك التَّكْرور .

(عِزُّ الإسلام والمسلمين) من ألقاب الرُّتبة الوُسْطى من نُوّاب السلطنة ومَنْ فى معناهم، وربما كُتِب به لبعض الملوك .

(عُدّة الدنيا والدّين) من ألقاب الملوك، وبه يُكْتَب لصاحب تُونُس . والعُدّة بالضم فى اللغة ماأعددته لحوادث الدهر من المال والسِّلاح ونحو ذلك وهو المراد هنا ، وربما أُطْلِق على نَفْس الاستعداد .

(عُدّة الملوك والسلاطين) من ألقاب أصاغِرِ أرباب السُّيوف .

(عَضُد الملوكِ والسلاطينِ) من ألقاب متوسِّطى أرباب السيوف ، وقد تقدّم أن أصل العَضُد لمـا بينَ الساعد والكَتِف .

(عَضُـد أمير المؤمنين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف من نُوّاب السلطنة وغيرهم . وربمـا كُتِب به إلىٰ بعض الملوك كملك التَّكْرُور .

(عَلَم الدولة) من ألقاب الأمراء والوُزَراء ومَنْ فى معناهم . وقد تقـدّم معنىٰ العَلَم ومعنَى الدولة .

(عَلَم الزُّهّاد) من ألقاب الصُّوفِيّة وأهـل الصّلاح ، وقد تقدّم أن المراد بالعَلَم الرايةُ و بالزُّهْد الإقلاعُ عن الدنيا .

(عَلَمَ العلماء الأعلام) من ألقاب أكابر أهل العلم ، وربما قيل «عَلَم المفَسِّرين» أو «عَلَم النُّحاة» ونحو ذلك .

(عَلَم الهُدَاة) من ألقاب إمام الزيديّة باليمن ، ويَصْلُح لأكابر العلماء والصلحاء . والهُدَاة جمعُ هادٍ وهو المرشِد .

(عَلَم الأعْلَام) من ألقاب العلماء والصلحاء ، ويَصْلُح لأرباب السيوف أيضا .

(عِمادُ الحُكّام) من ألقاب أكابر القُضاة ، وربما قيل «عِمادُ الحُكّام البارِعين» أو «عِمَادُ الحُكّام فى العالَمِين» ونحو ذلك . وأصلُ العِمادِ فى اللغة الأبنيةُ الرفيعةُ واحدها عِمَادةٌ ، ومنه قيل فلانٌ طويلُ العِمَاد كأنّ بناءه بالارتفاع صار عَلَمـا لزائريه .

(عِمَادُ العَرَب) من ألقاب أكابر أُمَراء العُرْبان ، كأمير آلِ فَضْلٍ ونحوه .

(عِمَاد الدَّوْلة) من ألقاب الأمراء وأكابِر الوُزَراء ونحوهم .

(عِمَاد المِلَّة) كذلك .

(عِمَادُ المملكة) نحوه ، وهو دونه فى الرُّتْبة .

(عِمَـاد المُحَدِّثين) من ألقاب علماء الحديث النبوىّ على صاحبه أفضلُ الصلاة والسلام، و به يُكْتَب لقُضاة القُضاة ومَنْ فى معناهم .

(عُمْدة الملوك والسلاطين) من ألقاب صغار أرباب السيوف ، وهو دُونَ عُدّة الملوك والسلاطين والعمدةُ فى اللغة ما يُعتَمَد عليه .

(عَوْنُ العساكر) من ألقاب ناظر الجيش ونحوه، والعَوْن فى اللغة الظَّهير والمُعاوِنُ .

(عَوْنُ جيوش الموحِّدين) من ألقاب بعض الملوك، و به يُكْتَب لملك التَّكْرور، و يَصْلُح لكبار أرباب السيوف من أهل المملكة أيضا .

(علاء الإسلام والمسلمين) من ألقاب العلمـاء والصلحاء و يصلح لأرباب السيوف أيضا .

والعَلَاء بالفتح والمدّ مصدر عَلَا فى الشرف ونحوه يَعْلَى بفتح اللام[1] .

(عَيْن المملكة) من ألقاب أرباب الأقلام ونحوهم .

(عَيْنُ الأعْيان) نحوه .

حرف الغين المعجمة

(غُرَّةُ الزمان) من ألقاب أرباب الأقلام، والغُرّةُ فى أصل اللغة بياضٌ فى جَبْهة الفرس فوق الدِّرْهَم ، شُبِّه بالغرّة فى وجه الفَرَس لظهورها وتحسين الفَرَس بها .

(غَوْثُ الأنَام) من ألقـاب أكابر أرباب السيوف كالنائب الكافل ونحوه . وقد تقدّم معنى الغَوْث .

---

(١) قوله بفتح اللام أى فيهما وهى لغة فى علىٰ يعلىٰ من باب تعب أنظر المختار .

(غِيَاثُ الأَنام) من ألقاب أكابر الملوك كصاحب الهِنْـد ونحوه . وقد تقدّم معنىٰ الغِيَاث .

(غِيَاثُ الأُمّة) نحـــوه .

حرف الفــاء

(فاتحُ الأقطار) من الألقاب السلطانية ، والفاتحُ فاعِلٌ من الفتح وهو معروف ، والأقطارُ جمع قُطْر وهو الناحية والجانِبُ ، والمراد نواحِى المـالك .

(فارِسُ المسلِمين) من ألقاب أكابر أرباب السـيوف ، ذكره ابن شِيث من كُتّاب الدولة الأيُّوبية فى " معالم الكتابة " .

(فَخْر الأَنام) من ألقاب أرباب الأقلام ، ويجوز أن يكونَ من ألقاب أرباب السيوف أيضا .

(فَخْرُ الأُسْرة الزاهِرة) من ألقــاب الشرفاء كأميرَىْ مكة والمدينة المشَرّفتين ، وأُسْرة الرجل بضم الهمزة رَهْطه .

(فَخْر الأعْيان) من ألقاب التُّجّار الخَواجِكِيّة ، ويصلح لغيرهم من الرُّؤَساء أيضا .

(فَخْر الرُّؤَساء) من ألقاب التجّار الخَوَاجِكِيّة .

(فَخْر السُّلَالة الزاهِرَة) من ألقاب الأشراف ، كأميرَىْ مكةَ والمدينة المشَرّفتين ، والسُّلَالةُ الزاهِرةُ تقدّم الكلامُ علىٰ معناها .

(فَخْر الصُّدُور) من ألقاب أرباب الأقلام ، وربما كُتِب به للتُّجّار الخَواجِكِيّة .

(فَخْر الصُّلَحاء) من ألقاب الصُّوفيّة وأهل الصَّلَاح .

(فَخْر العُبَّاد) من ألقاب أهل الصَّلاح أيضا .

(فَخْر المجاهِدِين) من ألقاب أرباب السيوف .

(فَخْر المُحَدِّثِين) من ألقاب أصحاب الحديث .

(فَخْر المدَرِّسِين) من ألقاب العلماء، وبه يُكْتَب لقُضاة القُضاة ونحوهم .

(فَخْر المُفِيدِين) من ألقاب العلماء أيضا .

(فَخْر المُلُوك والسلاطين) من ألقاب بعض الملوك .

(فَخْر الشَّجَرة الزكِيَّة) من ألقاب الشرفاء، والمراد شَجرةُ نَسَبهم الشريف .

(فَخْر النَّسَب العَلَوِى) من ألقاب الشرفاء أيضا، وبه يكْتَب لإمام الزيدِيَّة باليمن .

(فَرْدُ السالِكِين) من ألقاب أهل الصلاح .

(فَرْدُ الزمان) من ألقاب العلماء والصلحاء .

(فَرْدُ الوُجُود) من ألقاب العلماء وأهل الصلاح .

(فَرْعُ الشَّجَرة الزَّكِيَّة) من ألقاب الشرفاء .

حرف القاف

(قامِعُ البِدْعة) من ألقاب أكابر العلماء، وربما قيل «قامِعُ البِدَع» وقد يقال «قامع البِدَع ومُخْفِى أهلِها» والقامع فاعلٌ من قَمَعه إذا ضَرَبه بالمِقْمَعة : وهى مِحْجَن من حديد يُضْرَب به على رأس الفِيل، والبِدْعة واحدة البِدَع : وهي خلاف السُّنَّة النبويَّة وماعليه الجماعةُ .

(قُدْوَةُ الأَوْلِياء) من ألقاب أهل الصلاح .

(قُدْوةُ البارِعين) من ألقاب أرباب الأقلام، وهو بالكُتَّاب أليق، والبارِعُ الماهر .

(قُدْوَةُ البُلَغـاء) من ألقـاب أرباب الأقلام . وهو بكُتَّاب الإنشاء ومَنْ في معناهم أخصُّ .

(قُدْوةُ الخَلَف) من ألقاب العلماء وأهل الصلاح، والخَلَف في اللغة الذي يَجِيء بعد غيره ويقوم مَقَامه؛ والمراد خَلَفُ مَنْ سلَف من علماء الأمة أو صالحيها .

(قُدْوة العُبَّاد) من ألقاب أهل الصلاح ، وربمـا قيل «قُدْوة العُبَّاد والزُّهَّاد» أو نحو ذلك .

(قُدْوةُ العلماء) من ألقاب أكابر أهل العلم، وربما قيل «قُدْوةُ العلماء العامِلِين» ونحو ذلك .

(قُدْوة الفِرَق) من ألقاب العلماء، والمراد فِرَقُ أهل الحقِّ من أرباب المذاهب والعقائدِ الصحيحةِ، والفِرَقُ جمع فِرْقة .

(قُدْوةُ الفُضَلاء) من ألقاب أكابر العلماء، والفُضَلاء جمع فاضل وهو خلافُ الناقِص .

(قُدْوة الكُتَّاب) من ألقـاب أكابر الكُتَّاب كالوُزَراء من أرباب الأقلام ومَنْ في معناهم من كاتب السرّ ونحوه .

(قُدْوةُ المجتَهِدِين) من ألقاب كِبار العلمـاء، وقد تقدّم في الألقاب أنَّ الاجتهادَ عبارةٌ عن استنباطِ الأحكام الشرعية من الكتاب والسُّنَّة والإجماع والقياس .

(قُدْوةُ المحقِّقين) من ألقاب أكابر العلماء، وقد تقدّم معنى التحقيق .

(قُدْوَةُ المُسَلِّكين) من ألقاب الصُّوفِيَّة وأهل الصَّلَاح، والمراد بالمسَلِّكين المعرّفون الطريقَ إلىٰ الله تعالىٰ كما تقدّم بيانُه .

(قُدوةُ المشتَغِلين) من ألقاب أهل العلم، والمرادُ الاشتغالُ بالعلم .

(قُدْوةُ المَوَحِّدين) من الألقـاب الخاصَّـة بصاحب تُونُس : لوقوع الموحِّدين فى اصطلاحهم علىٰ أَتْبـاع المهدِىِّ بن تُومَرْت؛ وصاحب تُونُس الآنَ من بقاياهم كما تقـدّم .

(قَسِيمُ أميرِ المؤمنين) من الألقـاب السلطانية ، وهو فَعِيلٌ بمعنى فاعِلٍ فيكون معناه يُقاسم أميرَ المؤمنين، والمراد مقاسمتُه الأمْرَ .

(قُطْب الزهّاد) من ألقاب أهل الصلاح ؛ والقُطْب تقدّم معناه .

(قُطْب الأوْلِيـاء) من ألقابهم أيضا ، والأولياءُ جمع وَلِيٍّ وهو خلاف العَدُوّ ، والمرادُ أولياءُ الله تعالىٰ .

(قوَام الأمة) من ألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم، والقوَام بالكسر نِظام الشىء وعِمادُه ومِلاكُه ، يقال فلانٌ قِوامُ أهل بيته ، ومنه قِوَام الأمر بمعنىٰ نظامه .

(قِوَام الجُمْهور) قال فى "عرف التعريف" : هو من ألقاب الوزراء؛ والجُمْهور من الناس جُلُّهم، أخذا من الجُمْهور وهى الرملة المجتمعةُ المشْرِفة علىٰ ماحَوْلَها .

(قِوَامُ الدَّوْلة) من ألقاب الكُتَّاب وهو بالكسر أيضا .

(قِوَام المَصَالِح) من ألقـاب أكابر الكُتَّاب من الوزراء ومَنْ فى معناهم ، وهو بالكسر أيضا، والمَصَالِح جمع مَصْلَحَة وهى خلاف المَفْسَدة .

(قِوَامُ الإسلام) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح، وهو بالكسر كالذى قبله .

حرف الكاف

(كافِلُ السَّلْطنة) من ألقـاب كِبَار النُّوَّاب كنائب دِمَشْقَ، وقد تقـدّم معنىٰ الكافل فى الكلام علىٰ ألقابِ أربابِ الوظائف .

(كافِلُ الممـالك الإسـلامِيَّة) من ألقاب النائبِ الكافل : وهو النائبُ بحضرة السـلطان .

(كَافِي الدَّوْلة) من ألقاب الوُزَراء ومَنْ فى معنـاهم، والكافِي آسمُ فاعلٍ من الكِفَاية .

(كَنْزُ التُّقىٰ) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح، والكَنْز فى أصل اللغة المـالُ المدْفُونُ، استعير لصاحب اللَّقب لأنه كالشيء المكنوز لذلك الباب .

(كَنْز الطالبين) من ألقاب العلماء .

(كَنْزُ العلمـاء) من ألقاب أهل العـلم وربمـا قيل «كَنْزُ المُفَسِّرِيـن» أو «كَنْزُ المتَفَقِّهِين» ونحو ذلك .

(كَنْزُ المُسَلِّكِين) من ألقاب الصوفيّة وأهلِ الصَّلاح .

(كَهْفُ الأُسْرة الزاهِرَة) من ألقاب الشرفاء، والكَهْفُ المَلْجَأ، ومنه قولهم : فُلانٌ كَهْفٌ . والأصـل فى الكهف البيتُ المَنْقُور فى الجبَل ويجمع علىٰ كُهُوف ؛ وقد تقدّم الكلام علىٰ الأُسْرة والزاهِرَة .

(كَهْفُ الكُتَّاب) من ألقاب أكابر الكُتَّاب كالوزير من أرباب الأقـلام وكاتب السرّ ومَنْ فى معناهم .

(كَهْف المِلّة) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم .

(كَوْكَبُ الأُسْرة الزاهِرَة) من ألقاب الأشراف كأميرَىْ مكةَ والمدينة المشرّفتين والكَوْكبُ واحد الكواكبِ وهو يقَعُ علىٰ النجُوم والشمسِ والقمرِ .

(كَوْكَبُ الذُّرِّيّة) من ألقاب الشرفاء أيضا ، والمراد الذُّرِّية العَلَويّة .

حرف اللام

(لِسانُ الحقيقةِ) من ألقاب الصوفية ، واللسانُ هنا جارحةُ الكلام ، والحقيقةُ خلافُ المجَازِ ، وهى فى الأصل عينُ الحق ، والمراد هنا معرفةُ الأمر علىٰ ما هو عليه .

(لِسانُ الحُفّاظ) من ألقاب المحدِّثين والوُعّاظ ، والمراد المتكلِّمُ عنهم ، يقال فلان لسانُ القوم إذا كان متكلِّما عنهم ؛ ويجوز أن يكون المرادُ اللسانَ الذى هو جارحة الكلام ويكون المعنىٰ آلتَهُم للكلام كما أن اللسان آلةُ الكلام للتكلِّم ؛ ويجوز أن يكون من اللسان بمعنىٰ اللُّغة ، كما فى قوله تعالىٰ : ﴿ومَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ ويكون المعنىٰ أنه المترجِمُ عنهم والمتكلِّم بلغاتهم المختلفةِ .

(لِسانُ الدّوْلة) من ألقـاب كاتب السرّ ومَنْ فى معناه ، واللسان فيـه يحتمل المعنيين .

(لِسَانُ السلطنة) من ألقاب كاتب السرّ .

(لِسانُ المتكلِّمين) من ألقاب العلماء ، والمتكلِّمون يجوز أن يراد بهم كلُّ متكلم فى الجمـلة تعميما للدح ؛ ويجوز أن يراد العلمـاءُ بعلم الكلام وهو أصول الدِّين ، لأن أصحابه هم أرباب النظر الدّقيق والبحثِ لدِقّة متعلَّقه ، وهو الظاهر .

(لسانُ المَمَالك) من ألقاب كُتّاب السرّ، والممالكُ جمع مَمْلكة وهو موضِع المُلْك، والمعنىٰ أنه يتكلم بلسان مُلوكِ المَمَالك .

(لسانُ ملوك الأمْصارِ) من ألقاب كاتب السرّ .

حرف المـــيم

(مالِكُ زِمامِ الأدَبِ) من ألقاب البُلَغاء من الكُتّاب ونحوهم، ويصلح لكاتب السرّ ومَنْ فى معناه .

(مانحُ المَمالكِ والأقاليم والأمصارِ) من الألقاب السلطانية، والمانحُ المُعْطِى، والممالكُ تقدّم بيانُه، والأقاليمُ جمع إقْلِيم، وله معنيان أحدهما واحدُ الأقاليم السبعة التى تُسمِّيها الحكماء، ممتدّة فى طول الأرض مابين المغْرِب والمشرق . والثانى الواحد من الأقاليم العُرْفِيّة : كمصر والشأم والعِراقِ وما أشبه ذلك وقد مرّ القولُ فيهما .

(متعمِّد المَصَالح) من ألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم، والمراد بالمتعمِّد المتقصِّد .

(مَجْد الإسلام) من ألقاب صغار أرباب السيوف .

(مجدُ الإسلام والمسلمين) من ألقاب متوسطيهم .

(مجدُ الأُمَراء) من ألقاب أصاغر أرباب السيوف كأمراء العِشْرين ونحوهم .

(مَجْد الرُّؤَساء) من ألقاب التُّجّار الخَواجَكيّة .

(مُجَلِّى الغَيَاهب) من ألقاب أكابر العلماء، والمُجَلِّى بالتشديد الكاشِفُ، يقال: جَلَا الأمْرَ إذا أوضحه وكَشَفه، ومنه جَلَوْت السيفَ ونحوه إذا كشَفْته من الصدَإ، والغَيَاهِبُ جمع غَيْهَب وهو الظُّلْمة الشديدة، يقال : فرسٌ أدْهَمُ غَيْهَبٌ إذا اشتدّ سَــوَاده .

(مَجْد الصُّدُور) من ألقاب التُّجّار الخَوَاجِكيّة .

(مُجَمِّل الأمصار) من ألقاب أكابر أربابِ الأقلام ، والمجَمِّل فاعلُ الجَمَال، والأمصارُ جمعُ مصرٍ وهو الإقليم .

(مُجْهِدُ نَفْسَه فى رِضا مولاه) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح [والمرادُ به] المُعْمِل نفسَهُ للغايةِ . يقال : أجْهَدْ جَهْدَك فى هذا الأمرِ أى أبلغ غايتَك، والمراد بالمَوْلىٰ هنا الخالقُ سبحانه وتعالىٰ .

(مُحْيِى السُّنّة) من ألقاب العلماء والصلحاء .

(مُحْيِى العَدْل فى العالَمين) من الألقاب السلطانية .

(مُدَبِّر الجُيُوش) من ألقاب ناظرِ الجيش .

(مُدَبِّر المَمَالك) من ألقاب الوزراء، وربما قيل «مُدَبِّر الدولة»، والمدَبِّر فاعلُ التدبيرِ، وقد تقدّم معناه فى الكلام علىٰ المُدَبِّرِىّ فى جملة الألقاب المفردة .

(مُدَبِّر أُمُور السلطنة) من ألقاب الوزراء وكُتّاب السِّرّ وغيرهم .

(مُذَكِّر القُلُوب) من ألقاب الخُطَباء والوُعّاظ، والمُذَكِّر فاعل التذكير وهو الأَخْذ بالذكرىٰ ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرىٰ تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ﴾ .

(مُذِلُّ البِدْعة) من ألقاب علماء السنة ، والمُذِلُّ نقيض المُعِزِّ .

(مُذِلُّ حِزْب الشيطان) من ألقاب العلماء والصلحاء ، والحِزْب الطائفةُ، وحِزْبُ الرجل أصحابُه .

(مُرَبِّى المُرِيدين) من ألقاب الصلحاء .

(مُرَتِّب الجُيُوش) من ألقاب ناظر الجيش .

(مُرْتَضَى الدولة) من ألقاب الكُتَّاب، والمُرْتَضَى بمعنى المَرْضِيّ المقبول .

(مُرْتَضَى الملوك والسلاطين) من ألقاب ارباب السيوف والأقلام جميعا .

(مُسْتَخْدِمُ أربابِ الطَّبْل والعَلَم) من ألقاب النائب الكافل ونحوه .

(مُشَيِّد الممالك) من ألقـاب الوزراء ومَنْ فى معناهم، والمُشَيِّد فاعلُ التشييد وهو رَفْع البناء .

(مُشِير الدَّوْلة) من ألقاب الوزراء ومَنْ فى معنـاهم، والمُشِير الذى يُشِير علىٰ غيره بالرأى .

(مُشِير السلطنة) مثله .

(مُشِير الملوك والسلاطين) مثله .

(مُظْهِر أنْباء الشريعةِ) من ألقاب العلماء، وهو بضم الميم وإسكان الظاء علىٰ أنه فاعِلٌ من الظُّهور[1]، والأنبـاء جمعُ نَبَإ وهو الخبَرُ، والمراد أنه يُظْهِرُ أخبـارَ الشريعة ويُذِيعها؛ ويجوز أن يكون بفتح الميم علىٰ أنه هو نفس المَظْهر وهو أبلَغُ .

(مُعِزُّ الإسلام والمسلمين) من ألقاب النائب الكافِلِ ومَنْ فى معناه .

(مُعِزُّ السُّنَّة) من ألقاب العلماء، والسنةُ خلاف البِدْعة .

(مُعِين الحقِّ وناصِرُه) من ألقاب الحُكَّام من أرباب السيوف وغيرهم .

(مُفْتِى المسلمين) من ألقاب العلمــاء .

(مُفِيدُ البُلَغاء) من ألقاب أهل البلاغة من الكُتَّاب وغيرهم .

---

(١) الاولىٰ من الإظهار .

(مُفِيد الطالِبِين) من ألقاب العلمــاء .

(مُفِيــد المَنَاجِح) من ألقاب الوُزَراء ، والمَنَاجِح جمع مَنْجَح أخذا من النَّجَاح وهو الظَّفَر بالحوائج .

(مُفِيد أهل مِصْرَ والعِراق والشام) من ألقاب العلمــاء .

(مُفِيدُ كلِّ غادٍ ورَائح) من ألقابهم أيضا .

(مُقَرِّبُ الحَضْرتين) من ألقاب التُّجَّار الخَوَاجَكِيَّة إذا كان متردِّدا بين مملكتَيْن .

(مُقَرِّب الدُّوَل) من ألقاب التُّجَّار الخَوَاجَكِيَّة ، وهو أعمُّ من الأوّل .

(مَلْجَأ الفُقَراء والمَسَاكين) من ألقاب النائب الكافِل ونائب الشأم على ما آستقرّ عليه الحالُ آخرا .

(مَلْجأ المُريدين) من ألقاب الصوفيَّة وأهل الصلاح .

(مَلِكُ البَحْرَيْن) من الألقاب السلطانية ، والمرادُ بحرُ الرُّوم وبحرُ القُلْزُم : لأنهما يتقاربان بينَ مصرَ والشام على القُرْب من العَرِيش .

(مَلِكُ البُلَغاء) من ألقاب أهل البلاغة من الكُتَّاب وغيرهم .

(مُمَلِّك الممــالك والتُّخُوت والتِّيجان) من الألقاب الســلطانية أيضا ، والمرادُ بالتُّخُوت هنا تُخوتُ المُلْك ، يريد أنه مملِّك الملوكِ مِنْ تحتِ يده .

(مُمَهِّد الدُّوَل) من ألقــاب أكابر أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم ، وربمــا كُتِب به لبعض الملوك أيضا ، وقد تقــدّم الكلام على التمهيد عند الكلام على المُمَهِّدِيّ في جملة الألقاب المفردة .

(مُنَبّه الخَوَاطِر) من ألقاب الخطباء والوُعّاظ ، والمُنَبّـه المُوقِظُ ، والخَوَاطِر جمع خاطِر .

(مُنْجِد الملوك والسلاطينِ) من ألقاب النـائبِ الكافِل، وبه يُكْتَب لإمام الزيديّة باليمن . والمُنْجِد المُعين أخذًا من قولهم آستنجَدنِى فلانٌ فأنجدْتُه أى آستَعانَ بى فأعنْتُه .

(مُنْشِى العلماء والمُفْتِين) من ألقاب أكابر العلماء .

(مُنْصِف المظلومين من الظالمين) من الألقاب السلطانية .

(مَوْرِد الجُود) من ألقاب الكرماء .

(مُوَصِّل السالكين) من ألقاب الصوفية والصُّلَحاء .

(مُوَضِّح الطَّرِيقة) من ألقـاب الصوفيّـة والصلحاء أيضا ، وربما قيـل «مُوَضِّح الطَّرائق» وقد تقدّم أن المراد الطريقُ إلى الله تعالى .

(مُولِى الإحسانِ) من الألقاب السلطانية، والمراد بالمُولِى المُنِيل .

(مُؤَمِّن الأرض المحيطةِ) من الألقاب السلطانية أيضا، وكأنهم يريدون الأرضَ المُحِيطـةَ لاتّساعها، ويكون المرادُ أرضَ المملكة، وإلا فالأرضُ محوطةٌ من حيثُ استدارةُ المـاء عليها لامُحِيطةٌ بغيرها .

(مَلاَذُ الطالِبِين) من ألقاب العلماء والصلحاء، والمراد المَلْجأ .

(مَلاَذُ العُبّاد) من ألقاب الصلحاء . وفيه نظر لأن العُبّاد لايلوذون إلا بالله تعالى ولا يَلْجَئُون إلا إليه .

(مَلاَذُ الكُتّاب) من ألقاب أكابر الكُتّاب، ككاتب السرّ ونحوه .

(مُؤَيِّد الحقّ) من ألقاب أرباب السيوف وغيرهم ، والمؤيَّد المُقوّى أخذا من الأَيْد وهو القُوّة .

(مُؤَيِّد المِلّة) من ألقاب العلماء .

(مُؤَيِّد أمورِ الدِّين) كذلك . وبه يُكْتَب لإمام الزيديّة باليمن .

حرف النون

(ناصِحُ الملوك والسلاطين) من ألقاب التُّجّار الخَوَاجكيّة .

(ناصِرُ السُّنّة) من ألقاب العلماء .

(ناصِرُ الغُزاة والمجاهدين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كالنائب الكافل ونحوه، وربما كُتِب به لبعض الملوك كملك التُّكْرور ونحوه .

(ناصِرُ الشَّريعة) من ألقاب العلماء، والشريعةُ ما شَرعه اللهُ تعالىٰ من الدِّين . يقال شَرَع لهم شَرْعا، وأصله من الشَّريعة التى هى مَوْرِد الماء .

(ناشِرُ لِوَاء العَدْل والإحسان) من الألقاب السلطانية .

(نَجْل السلطنة) من ألقاب أولاد الملوك ، والمراد أنه وُلِد فى السلطنة .

(نجل الأكابر) من القاب ذَوِى الأصالة ، والنجل النسل . يقال نَجَله أبوه إذا ولده .

(نَسيبُ الإمام) من ألقاب الشرفاء كأميرَىْ مكّةَ والمدينة المشرّفتين ، والنَّسيب القريب . يقال فلان نسيبُ فلان أى قريبُه ، وذلك أن مَرْجِع بنى العبّاس والعَلَوِيِّين إلىٰ بَنِى هاشم .

(نَسيب أمير المؤمنين) مثله .

(نَصْر الغُزَاة والمجاهِدِين) من ألقـاب أكابر أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم ، وهو عندهم [فَوْقَ] ناصِر الغُزَاة .

(نَصِير الغُزاة والمجاهِدِين) كذلك ، وهو عندهم دُونَ الأوّل وفوقَ الثانى ، وفيه كلامٌ يأتى ذِكْرُه .

(نِظَامُ الدولة) من ألقاب أكابر أرباب السيوف والكُتَّاب ، وقد تقدّم الكلامُ علىٰ النِّظام فى الألقاب المفردة .

(نِظَام الممالك) من ألقاب الوُزَراء وكُتَّاب السرّ ونحوهم .

(نِظَامُ المَنَاجِح) من ألقابهم أيضا .

(نُورُ الزُّهَّاد) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح .

حرف الهـــاء

(هُمَـام الدولة) من ألقاب أرباب السيوف وقد تقدّم فى الكلام علىٰ الألقاب المفردة أن الهُمَام بمعنىٰ الشجاع .

حرف الـــواو

(وارِثُ المُلْك) من الألقاب السلطانية .

(وَلِيّ أمـير المؤمنين) مـن الألقـاب التى يَشْترِك فيهـا أربابُ السـيوف والأقلام : كالوزراء وقُضاة القُضاة وكاتب السرّ ومَنْ فى معناهم ، والوَلِىُّ فى اللغة خلافُ العَدُوّ .

حرف اللام ألف

(لابِسُ ثَوْبِ الفَخَار) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام .

(لافِتُ الغُواة إلىٰ طريق الرَّشَاد) من ألقاب الصلحاء والوُعَّاظ، واللافِتُ الصارِفُ، يقال لَفَتَ وجْهَه عنى إذا صرفه ، وأصل اللَّفْت اللَّىّ ، والغُوَاة جمع غاوٍ وهو الضالُّ ، يقال غَوىٰ يَغْوِى غَيًّا إذا ضَلَّ فهو غاوٍ .

حرف اليـــاء

(يَمِينُ الملوك والسلاطين) قال فى " عرف التعريف " : يختَصُّ بالدَّوَادار وكاتب السِّرّ، وقد تقدّم الكلامُ علىٰ معنىٰ ذلك فى الكلام علىٰ اليَمِينِىّ فى الألقـاب المفردة، وأن المراد يمينُ السلطان التى يتناوَلُ بها ،وإلا فجْلِس كاتب السرّ عن يسار السلطان والدَّوادَارُ واقفٌ أمامه .

(يَمين المملكة) مثله .

(يمينُ الدولة) كذلك .

الضرب الثـانى

(من الألقاب المفردةِ المؤنّثةُ ، ولتأنيثها سببان)

السـبب الأوّل

(الجمـع)

بأن يجمَع شىءٌ من الألقاب المذكّرة المفردة أو المرَكّبـة ، فتنتقِلَ من التذكير إلىٰ التأنيث ، فإنّ الجموعَ كلّها مؤنثةٌ علىٰ ماهو مقرّر فى علم النحو . ويتأتّى ذلك

فى المُطْلَقات، مثلُ أنْ يجمع فى صدر المُطْلَق بين المَقَرّ الكريم والجَنَاب الكريم والجَنَاب العالى والمَجْلِس العالى؛ ثم يُتْبِعُها بالألقاب التى تليق بها مما يأتى ذكره، فيأتى بتلك الألقاب مجموعةً بلفظ التأنيث مفردةً ومركّبة . مثل أن يكتب إلى المقرّ والجَنَاب الكريمين، والجنابات العالية، والمجلس العالى الأميريّةِ، الكَبِيريّة، العالِميّة العادِليّة، المؤيِّديّة، الزّعيميّة، العَوْنِيّة، الغِيَاثية، المُثَاغِرية، المُرَابطية، الممهِّدية، المشَيِّدية، الظّهيريّة، الكافليّة، الفلانية، إعزازِ الإسلام والمسلمين، سادات الأمراء فى العالمين، أنصارِ الغُزاة والمجاهدين، زُعَماءِ الجيوش، مقدَّمى العساكر، ممهِّدى الدول، مشَيِّدى الممالك، عماداتِ الملّة، أعوانِ الأمّة، ظَهِيرِى الملوك والسلاطين، سُيوف أمير المؤمنين، ونحو ذلك .

وآعلم أن هذه الألقابَ كلَّها من جملة الألقاب المفردة والمركبة المتقدّم ذكرها، فيستغنىٰ عن بيان مُشْكلها وتعريف أحوالها هنا آكتفاءً بما تقدّم، إلا أن من الألقاب المجموعة ما يقوم لفظُ الإفراد مَقامَه بأن يكون اللقبُ آسمَ جنس، مثل عَضُد ومَجْد ونحو ذلك مما لا يجوز جمعه لأنه يُقْصَد به الجنس . فيجوز للكاتب حينئذ أن يأتى بذلك بلفظ الجمع ولفظ الإفراد الذى معناه الجمع . وقد أشار إلىٰ ذلك القاضى شِهابُ الدين بنُ فضل الله فى "التعريف" فى الكلام علىٰ المطلقات . فقال عند ذكره آعتضاد الملوك والسلاطين : ويجوز فيه أعضادُ الملوك وعَضُد الملوك، إطلاقا للافراد علىٰ الجمع .

السـبب الثـانى

(تأنيثُ اللقبِ الأصلِ الذى تتفرّع عليه الألقابُ الفروعُ . وله حالتان)

الحـالة الأولىٰ — أن يكون اللقبُ الأصـلُ لمؤنّث غير حقيقىٍّ كالحَضْرة واليَدِ والباسِطَة . فتأتى الألقابُ المفترعةُ عليها مؤنثةً بناء علىٰ أن الصـفةَ تتبع الموصوفَ فى تَذكيره وتأنيثه ، علىٰ ما هو مقرّر فى علم النحو . أما نعوتُ الحضرة فمثل أن يقال : «الحَضرةُ الشريفةُ، العليّةُ، السنيّة، العالميّة، العامليّة، العادليّة، الأوحديّة، المؤيّديّة، المُجاهديّة، المرابطيّة، المُثاغريّة، المظفّريّة، المنْصوريّة، وما أشبه ذلك» وأما نعوت الباسطة فمثل أن يقال : «الباسطةُ الشريفةُ ، العاليـةُ، المَوْلويّة، الأميريّةُ ، الكبيريّة ، العالمية، العادليّة، المؤيّديّةُ، المحسنيّة، السيّديّة، المالكيّة، الفلانية » وفى معناها نعوت اليد . وألقاب هـذه الحالة كلُّها فى معنىٰ ما تقدّم من الألقاب المذكّرة لا تختلف الحال فيها إلا فى التذكير والتأنيث، وأنه ليس فيها ألقاب مركّبة، فيستغنىٰ بمـا تقدّم عن ذكر معانيها وأحوالها أيضا .

الحـالة الثانية — أن يكون اللقب الأصـلُ لمؤنّث حقيقىّ ، كالدّار والسِّتارة والجِهَة إذا كُنِى بها عن المـرأة فى الكتابة إليها مثـل أن يقال : « الدارُ الكريمةُ » و « الستارةُ الرفيعةُ » و « الجِهةُ المَصُونة » ونحو ذلك، فتَتْبَعُها الألقـابُ المفترعةُ عليها أيضا فى التأنيث إلا أنّ لها معانىَ تخصها . وهى علىٰ ضربين : مفردةٍ ومركّبةٍ كما تقـدّم فى المذكّرة ، وإن لم تبلغ شأْوَها فى الكَثْرة . فأما المفردةِ فكالشريفة ، والكُبْرىٰ ، والعالية ، والمعظّمة ، والمكرّمة ، والمحجّبة ، والمَصُونة ، والخاتُونيّة ، والخوند . وربما قيل الوالديّة إذا كانت والدة حقيقةً أو فى مَقَامها ، والوَلَدِية إذا كانت بنتا حقيقةً أو قائمةً مقامَها ، والحاجِّيّة إذا كانت حاجّة ونحو ذلك .

ثم الألقابُ المفردةُ تارةً تكون مجرّدةً عن ياء النسب، كالألقاب المتقدّم ذكرها؛ وقد تلحَقُها ياء النسب للبالغة فى التعظيم فيما تدخل فيه ياء النسب فى المذكَّر، مثل أن يقال : المعظَّمية والمكرَّمية، والمُحَجَّبية، وما أشبه ذلك . وهذه الألقاب أكثرها منقول عن المذكَّر، فيستغنى عن ذكر معانيها وأحوالها؛ وفيها ألقاب لم يتقدّم ذكر مثلها فى المذكر كالمحجَّبية، وهو مأخوذ من الحِجاب كأنها محجوبةٌ عن أن يراها الناس؛ ومنها المَصونة وهو مأخوذٌ من الصِّيانة ، وهى جعْل الشىءِ فى الصِّوان وقايةً له عن مثل النظَر والمَسِّ ونحو ذلك؛ ومنها الخاتُون، وهو لفظ تُرْكىّ معناه السيدةُ؛ ومنها الخونْد، وهى لفظة عجمية بمعنى السيادة أيضا .

وأما المركَّبة فمثل جَلَال النساء، وسيدةِ الخوَاتين فى العالَمين ، وشَرف الخوَاتين، وجَميلة المحجَّبات ، وجليلة المَصُونات ، وقَرِينة الملوك والسلاطين، وسَليلة الملوك والسلاطين، اذا كانت بِنْتاً لسلطانٍ أو فى معنـاها ، وكريمة الملوك والســلاطين إذا كانت أختَ سلطان . ومعانِى هذه الألقابِ ظاهرةٌ معلومة .

الصــــنف الثـانى [1]

(من الألقاب المفرّعة على الأصول ألقــابُ مَنْ يُكْتَب إليـــه من أهل الكُفْر، ممــا اصطُلح عليها لمكاتَباتهم)

واعلم أنه لم يكن مَلِكٌ من ملوك الكفر ممن يُكْتَب له عن الأبواب الســلطانية غير النصارى : لأنّه لم يكـن لغيرهم من أهــل المِلَل بالقُرْب من هــذه المملكة مملكةٌ تامّــة ؛ بل اليهودُ ليس لهم مملكةٌ قائمــة فى قُطْر من الأقطار بعد غَلَبــة الإســلام ، إنمــا يُؤدُّون الجِزْيةَ حيث حلُّوا ، إذ يقولُ تعــالى فى حقهــم : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ .

(١) لعل الصواب "النوع الثانى" وبالجملة فالتراجم كثيرا ما يقع فيها السهو اما من الناسخ أوالمؤلف فتنبه .

ثم مَنْ يلقّب من أهـل الكفر فى المكاتبات إن كان من متديِّنتهم كالپـاپ والبَطْرَك، ناسـبه من الألقاب مافيـه معنى التنسُّك والتعبُّد؛ وإن كان من الملوك ناسـبه ما فيه معنى الشَّجاعة والرِّياسـة والقيام بأمر دينِـه وتحمُّله أعبـاءَ رعيَّته وما فى معنى ذلك . فقد ثبت فى الصحيحين أن النبي صلّى الله عليه وسلم كتب إلى هِرَقْل : "مِنْ محمّدٍ رَسُولِ الله إلى هِرَقْلَ عَظِيم الرُّوم" وفى كتب السيرة أنه صلّى الله عليه وسلم كتب إلى كِسْرى : "مِنْ رَسُولِ اللهِ إلى كِسْرى عَظِيم فارِسَ" وأنه كتب إلى المُقَوْقِس : "من محمدٍ رسولِ الله إلى المُقَوْقِس عَظِيم القِبْط" فعبّر عن كلٍّ من الملوك الثلاثةِ بعظيم قومه لمناسَبة ذلك لهم .

وبالجملة فالألقاب التى تُكْتَب إليهم على ضربين :

الضرب الأوّل

(الألقـابُ المذكّرة ، وهى نَمَطان)

النمـــط الأوّل

(المفـــرَدَة)

وأكثر ما تُبْنى على صفات الشَّجاعة وما فى معناها . وهذه جملة منها مرتبة على حروف المعجم أيضا ، مقفَّاةٌ عليها .

حرف الألف

(الأَسَدُ) من الألقاب التى آصطُلِح عليها بمعنى الشجاعة، وهو فى الأصل للحيوان المفتَرِس، ثم آستُعْمِل فى الرجُل الشجاع مَجازاً لعلاقة ما بينهما من الشَّجاعة ...

(الأَصِيل) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم أيضا، وقد تقدّم فى الكلام علىٰ الألقاب الإسلامية نقلا عن "عرف التعريف" أنه يختَصّ بكلّ مَنْ له ثلاثةُ آباءٍ فى الرياسةِ، وحينئذ فيكون هنا مختصًّا بمن له ثلاثةُ آباءٍ فى المُلْك، علىٰ أنهم الآنَ لايَقِفُون مع ذلك بل يُراعُون مَنْ له أدْنىٰ نَسَب .

(الأَنْجالُوس) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم ، وهى لفظة يُونانيّة معناها المَلَك واحد الملائكة ، وإنما كُتِب إليهم بذلك مضاهاةً للكُتُب الواردة عنهم، ولعلّ الكاتب لم يَعْلَم معنىٰ ذلك، وكذلك غيرها من الألفاظ التى فى معناها .

حرف البـاء

(البالَاْلُوغِس) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم ، وهى لفظة يُونانيّة أصلها البالى لوغس، ومعناها «الكلمةُ القديمةُ» .

حرف الجـــيم

(الجَلِيل) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم، ومعنىٰ الجليل فى اللغة العظيمُ، لكن قد ٱستُعْمِل فى ألقابهم فى المكاتَبَات لملوكهم . فيقال «الملِك الجليلُ» والمرادُ الجليلُ بالنسبة إلىٰ ملوك الكُفْر، وإلا فالكافر لايُوصَف بالعَظَمة . وكان الأحسَنُ أن لايُكتَب به إليهم، لاسيَّما وهو ٱسم من أسمائه تعالىٰ .

حرف الخاء المعجمة

(الخاشِعُ) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لمتديِّنَتِهم : كالباپ والبَطْرك . وقد تقدّم فى الألقاب الإسلامية أنه يكون من ألقاب الصُّلَحاء والصوفية، وأن معنىٰ الخاشع المتذَلِّل .

(الخَطِير) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم ، والخَطِير فى اللغـة الكَبِير الجليلُ القدرِ، ومنه قولهم : أمْرٌ له خَطَر أى مِقْدار كبيرٌ .

حرف الدال المهملة

(الدُّوقِس) بضم الدال وكسر القاف من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم . وقد يقـال (الضُّوقِس) بالضاد بدل الدال، وهى لفظة يُونانِيَّـة أصلها دقستين، ومعناها المشكور .

حرف الراء المهملة

(الرُّوحَانِىّ) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها للتديِّنين منهم، وهو بضم الراء نسبة إلىٰ الرُّوح التى بها مَنَاط الحياة للمخلوقِين ، ومنه نُسِب إلىٰ الملائكة والجِنّ رُوحانِىّ؛ و بالفتح نسبةٌ إلىٰ الرَّوْح بمعنى الرائحة، والمعنىٰ الأوّلُ أقربُ إلىٰ مراد الكُتَّاب .

حرف السين

(السَّمَيْدَع) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم . قال الجوهرى : وهو بضم الســين وقال فى "كفاية المتحفِّظ" بفتحها ، ومعنــاه الســيِّد، وكأن المراد سيدُ قومه وزعيمُهم .

حرف الضاد المعجمة

(الضِّرْغام) من الألقاب التى ٱصطلح عليهـا لملوكهم، وهو من أسماء الأَسَد، لُقِّب به ملوكُهم لمـا فيه من معنىٰ الشجاعة .

حرف الغين المعجمة

(الغَضَنْفَر) بفتح الغين والضاد المعجمتين وسكون النون وفتح الفاء من أسماء الأســد، اصطلَح الكُتَّاب علىٰ تلقيبهم بذلك لما فيه من معنىٰ الشجاعة كالأسَد والضِّرْغام . علىٰ أنه قد يُطْلَق فى اللغة علىٰ الرجل الغليظ كما حكاه الجوهرىّ . ولا بأس باستعمال الألفاظ التى لها كامل مارله (١) فى المكاتبات إلىٰ الكُفَّار .

حرف القاف

(القِدِّيس) بكسر القاف من الألقاب التى آصطُلح عليها لمتديِّنتهم من البـاب والبَطْرِيَرْك ونحوهما، وأصله من التقديس وهو التنزيه .

حرف الكاف

(الكَرَّار) بتشديد الراء من الألقاب التى آصطُلح عليها لملوكهم، والكَرّارُ صيغةُ مبالغة من الكَرّ خلافِ الفَرّ . والمراد أنه يَرْجِع فى المحاربة علىٰ قِرْنه المرّةَ بعد المرّة ولا ينهزِمُ عنه .

(الكمينيوس) من الألقاب التى آصطلح عليها لملوكهم، وهو لفظ رومىّ معناه (٢) ... ...

حرف الميم

(المتَبَتِّل) من الالقاب التى آصطُلِح عليها لمتديِّنتهم، ومعناه المنْقَطِع عن الدنيا .

(المتَخَّت) بفتح الخاء المعجمة المشدّدة من الألقاب التى اصطلح عليها لملوكهم، والمراد أنه ممن يجلِس مثلُه على تخت الملك لاستحقاقه له .

(المتَوَّج) بفتح الواو المشدّدة من الألقاب التى آصطلح عليها لمُلُوكهم والمراد أنه ممن يلبَس التاجَ لأستحقاقه له .

---

(١) كذا فى الاصول بالاهمال مع اشارة التوقف والمراد الألفاظ التى تحتمل التعظيم وغيره .

(٢) بيض له فى الأصول وأورده فى الضوء ولم يفسره .

(المُحْتَشِم) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لتُجَّار الروم والفَرَنج ، والمراد بالمحتَشِم هنا الرئيسُ الذى له حَشَم وهم خَوَلُه وخَدَمه . وأصل الحِشْمة فى اللغة الغَضَب ، وسمى خَوَلُ الرجل وخَدَمه حَشَما لأنهم يَغْضَبون له ؛ وبعضُهم يُطْلق المحتَشِم علىٰ المستَحْيِي وعليه عُرْفُ العامة وهو المراد هُنا ، وأنكره آبنُ قتيبة وغيرُه حتّى قال النحاس إنه لا يُعْرَف آحْتَشَم إلا بمعنىٰ غَضِب وإن كان الجوهرِىُّ قد حكاه .

(المُعَزَّز) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لملوكهم [وهو آسم مفعول من العز خلاف الذل .

(الممجد) من الألقاب التى آصطلح عليها لملوكهم][1] وهو مُفَعَّل من المجد . وقد تقدّم الكلام عليه فى الألقاب الإسلامية .

حرف الهاء

(الهُمَام) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لملوكهم ، وقد تقدّم فى الألقاب الإسلامية أن معناه الشجاعُ .

النمط الثانى

(من الألقاب التى يُكْتَب بها لملوك الكفر الألقاب المركَّبة)

وهذه جملة منها مرتَّبةٌ علىٰ حروف المعجم أيضا .

حرف الألف

(آخر ملوك اليُونان) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لملوكهم ، وهى تصلُح لكل ملك ينتسب إلىٰ اليُونان أو قام مقامهم فى المُلْك . واليُونَان أُمَّةٌ معروفة مشهورة ، وكانت مملَكَتُهم أوّلا فى الجانب الشرقىّ من الخليج القُسْطَنْطِينىّ المعروف الآنَ ببلاد

(١) الزيادة يقتضيها الكلام كما لايخفى على المتأمل .

الرُّوم ثم ملكوا بعدها العِرَاق، والتُّرْك، والهنـد، وبلادَ أرْمينِيَةَ، والشامَ، ومصرَ، والإسكندريةَ . ومنهم أكثر الحكماء والفلاسفةِ . وكانت دولتُهم من أعظم الدُّوَل؛ وآختُلِف فى نَسَبهم : فنقل ابن سـعيد عن البيهقىّ وغيره من المحقِّقين أنهم من وَلَد أفريقش بن يُونان، بن عَلْجان ، بن يافِث، بن نُوح عليه السـلام . والمنقول عن التوراة أن يُونانَ هو آبن يافِث لصلبه،وآسمه فيها يَاقَان بقاء تقرب فى اللفظ من الواو فعرّبت يُونانَ . وخالف كثير من المؤرِّخين فنسبوا يُونان إلىٰ عابَر بن فالَغ ، بجعـله أخا لقَحْطانَ جدِّ العرب العاربةِ ، وأنه خرج من اليمن مُغاضِبا لأخيه قَحْطانَ فنزل ما بين الأفْرَنْجة والروم وآختلط نسـبُه بنسبهم . وقيل : بل اليُونان من جملة الرُّوم من ولد صُوفر بن العيص، بن إسحاق، بن إبراهيم عليه السلام .

(أسْوة الملوك والسـلاطين) من الألقاب التى آصطلح عليها لملوكهم،والإسوة بكسر الهمزة وضمها بمعنىٰ القُدْوة ومنه قولهم : لى فى فلانٍ إسوةٌ يعنى قُدوةً، وكأنهم جعلوه إسوَةً لملوك الكفر يقتـدُون به وإلا فلا يجوز إطلاق ذلك علىٰ الملوك من حيث هم لدخُول ملوك الإسلام فيهم .

(العـادِلُ فى مِلّته) من الألقاب التى آصطُلح عليهـا لملوكهم ، وقد تقدّم معنىٰ العادل والمِلّة فى الكلام علىٰ الألقاب الإسلامية .

(العادلُ فى مَمْلَكته) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لملوكهم،وقد تقدّم معنىٰ العادل، والمملكةُ فى الأصل موضعُ الملك ثم أطلقت علىٰ الرعيّة مجازا .

(الرِّيد أرغون) من الألقاب التى آصطلح عليها لبعض ملوكهم ممن يملك البلاد المعروفة بأرْغُون، وقد ذكر فى "الروض المعطار" بلاد أرْغُون، وقال: هو آسم بلاد غرسيه بن شانجة ، تشتمل علىٰ بلاد ومنازل وأعمـال، ولم يذكر فى أيّ حيِّز هى

ولا فى أىّ قُطْر . وقد رأيت هـذا اللقب فى "التعريف" : للقر الشّهابىّ بن فضـل الله فى ألقاب صاحب القُسْطنطينية وفى "التثقيف" لابن ناظر الجيش ، فى ألقاب الأدْفُونش صاحب طُلَيْطـلةَ من الأندلس ، ويحتاج إلىٰ تحقيق من يملك هذه الطائفةَ منهما فيكْتَب به إليه . والرِّيد فى لغتهم بمعنى الملك كما تقدّم فى الكلام علىٰ رِيد أفرنس فى ألقاب الملوك .

(المُنْصِف لرعِيَّته) من الألقاب التى ٱصطلح عليها لملوكهم، والرعيَّة من يَسُوسُه الملِكُ ، سُمُّوا بذلك تشبيها لهم بالغَنَم وله بالراعى .

(أوحَدُ المُلوك العِيسَوِيَّة) من الألقاب التى ٱصطلح عليها لملوكهم ، ويصلح للمَلِكانيَّة واليَعْقُوبية جميعا : لأنه لم يقيد بمذهب من مذاهب النصارىٰ .

(أوحد ملوك اليعقُوبِيَّة) من الألقاب التى ٱصطُلح عليها لملوك الحَبَشة : لأن مَلِكها من طائفة اليعقُوبِيَّة .

حرف البـاء

(بَطَلُ النَّصْرانيَّـة) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم ، وهو صالح لكل واحد منهم؛ ومعنىٰ البَطَل فى اللغة الشجاعُ ، سمِّى بذلك لأنه يُبْطِل حركة قِرْنه .

(بقِيَّة أبناء التُّخُوت والتِّيجان) من الألقاب التى ٱصطلح عليها لملوكهم ، وهي تصْلُح لكلٍّ منهم أيضا من المَلِكانية واليَعاقِبَة جميعا .

(بقِيَّةُ الملوك الأغْرِيقِيَّة) من الألقاب التى ٱصطلح عليها لبعض الملوك من بقايا طائفة الأغريقية من اليُونان، وهم طائفةٌ من اليُونان تنسب إلىٰ أغريقش بن يُونان المقـدّم ذكره ، وهم اليُونانُ الأول . وقد ذكره فى "التعريف" فى ألقاب مَلِك الكُرْج ، ولعله ٱطّلع علىٰ أنه مَن بقايا هذه الطائفة ، وهو ممـا يَحْتاج إلىٰ تحرير .

(بقيــة سَلَف قَيْصَر) من الألقاب التى اصطُلِح عليها لبعض ملوكهم ممن انتسب إلى القَيَاصِرة ملوكِ الروم أو قام مَقَامهم . وقَيْصَرُ اسمٌ قديم لكل مَنْ ملك الروم، وأصل هذه اللفظة فى اللغة الرومية جاشَر بجيم وشين معجمة فعُرِّبت قَيْصَر؛ ولها عنـدهم معنيان : أحدهما الشيء المشقوقُ عنــه، والثانى الشَّــعَر . واختلف فى أوّل مَنْ لُقِّب بذلك منهـم فقيـل : أغانيوش قَيْصَر، أوّلُ الطبقة الثانيـة من ملوكِ الروم : ماتت أمّه وهو حَمْل فشُقَّ بطنُها وأخرج فسمِّيَ بذلك لما فيه من الشق عليــه ، وقيل يوليوش قَيْصَر، وهو الذى ملك بعد أغانيوش المقــدَّم ذكره ، وقيل أغشطش قَيْصَر وهو الذى وُلِد المسيحُ عليه الســلام فى زمانه ، فقد قيل إنه الذى ماتت أمّه وهو حَمْل فشُقَّ جوفُها وأُخْرِج فسمِّى بذلك، وقيل لأنه وُلد وله شَعَرٌ تامٌّ فسمى قَيْصَر لوجود الشعر فيه حينئذ .

حرف الجـــيم

(جامِعُ البلادِ الساحليّة) من الألقابِ التى تصْلُح لكل ملك [مملكة] متسعة على ساحل البحر كصاحب القُسْطنطينيّة ونحوه .

حرف الحـاء المهملة

(حافِظُ البلاد الجَنُوبيّة) من الألقاب التى اصطُلِح عليها لملك الحَبَشــة من النصــارى . على أنه يصلُح لغيره من ملوك السُّــودان أيضا ممن أَخَذَ فى الجنوب من المسلمين وغيرهم .

(حامِلُ رايةِ المَسِيحيّة) من الألقاب التى اصطُلِح عليها لملوكهم، وهى تصلح لكل ملكٍ كبيرٍ من ملوك النصارى ، والمــراد بالمَسِيحيّة المِلّةُ المَســيحيّةُ ، فحذف

الموصوف وأُقيمت الصفةُ مُقامه ، يريدون مِلّةَ المَسِيح وهو عيسىٰ عليه السلام .
وٱختُلِف فى[سبب]تسميته بالمَسِيح : فقيل لأنه كان ممسوحَ القدمَيْنِ بمعنى أنه لاأَخْمَص له . وقيل لأنه مَسَحَ الأرضَ بالسِّيَاحة ، وقيل غيرذلك . أماتسمية الدَّجَّال بالمَسِيح فلأنه ممسوحُ العين لأنه أعور . وقيل لأنه يَمْسَح الأرضَ بالسير فيها .

(حامِى البِحَار والخُلْجَان) من الألقاب التى تصلح لكل مَنْ مملكتُه منهم علىٰ البحر ، والبِحارُ جمع بَحْر ، وأصله فى اللغة الشَّقُّ ، ومنه سمِّيت البَحِيرةُ المذكورة فى القرءان : وهى الناقة التى تُشَقُّ أذنُها فتُرْسَل فلا تُعارَض ؛ والخُلْجان جمع خَلِيج وهو الجَدول الصغيرُ ، والمراد ما يتشعَّب من البحر كخليج القُسْطنطينية وجَوْن البَنَادقة ونحوهما .

(حامِى حُمَاةِ بَنِى الأصفر) من الألقاب التى تصلُح لملوك الرُّوم والفَرَنْج بالممالك العِظام : كصاحب القُسْطنطينيّة وغيره ، والمراد ببَنِى الأصفر الرومُ فإنهم من ولد صوفر بن العيص ، بن إسحاق ، بن إبراهيم عليه السلام ، والمؤرِّخون يعبِّرون عن صوفر بالأصفر . وإنما خَصَّه بحماية الحُمَاة تفخيما له فإنه إذا حمىٰ الحُماةَ كان بحماية غيرهم أجدَرَ .

حرف الخاء المعجمة

(خالِصةُ الأصْدِقاء) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم ، والمراد بالخالصة هنا مَنْ ليس فى صداقته شائبةٌ .

(خُلاصة ملوك السُّرْيَان) من الألقاب التى تصلُح لكل من يُنْسَب إلىٰ بَقايَا السُّرْيانيِّين من الملوك . والسُّرْيان أقدمُ الأمم فى الخليقة ، وكانوا يَدِينون بدين الصابِئة ، وينتسبون إلىٰ صابئ بن إدريس عليه السلام . قال ٱبن حَزْم : ودينُهم

أقدمُ الأديانِ علىٰ وَجه الأرض، ومَدَارُ مذاهبهم علىٰ تعظيم الرُّوحانِيَّات والكواكِبِ، وكانتْ منازِلُهم أرض بابِلَ من العراق . قال المسعودىّ : وهم أوّلُ ملوكِ الأرض بعد الطُّوفان .

حرف الذال المعجمة

(ذُخْر ملوكِ البِحار والخُلُج) من الألقاب التى تصلُح لكل مَلِك منهم علىٰ ساحل البحر، وقد تقدّم معنىٰ الذُّخْر والبِحَار، والخُلُجُ هى الخُلْجان؛ وقد تقدّم معناها .

(ذُخْر الأمة النصرانيّة) من الألقاب التى تصلح لجميع ملوك النصرانية من المَلِكانِيّـة واليَعَاقِبـة ، وقد تقـدّم معنىٰ الذُّخْر والأُمّةِ فى الكلام علىٰ الألقـاب الإســـلامية .

حرف الراء المهملة

(رَضِىّ البـاب بَابَا رُومِيَة) يجوز أن يكون بفتح الراء وكسر الضاد بمعنىٰ مَرْضِىّ الباب ، ويجوز أن يكون بكسر الراء وفتح الضاد بمعنىٰ أنه يُجْعَلُ نفسَ رِضا الباب وهو أبلغ . وهو من الألقاب التى اصطُلِح عليهـا لملوكهم؛ وقد تقدّم فى الألقـاب الأصول معنىٰ البَابَا، ورُومِيَة اسم لرومِيَةَ التى بها البابُ مقيم ، إضافة إليها لإقامته بها ، وقد مرّ القولُ عليها فى الكلام علىٰ المَسالك والمَمـالك فى المقالة الثانية ، وتأتى الإشارة إليها فى الكلام علىٰ مكاتبة البابِ فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالىٰ .

(رُكْنُ الأمّة العِيسَوِيّة) من الألقـاب التى اصطلح عليهـا لكِبَار ملوكهم كملك الحَبَشة ونحوه، ويصلح للمَلِكانِيّة واليَعَاقبة جميعا .

حرف الشين المعجمة

(شَبِيهُ مَرْيُحَنَّا المَعْمَدانِ) من الألقاب التى تصلُح لكبار ملوكهم، ومَرْيُحَنَّا بفتح الميم وسكون الراء المهملة وضم الياء المثناة تحتُ و بعدها حاء مهملة ونون . ومعنى مَرْ السيد ، ويُحَنَّا بلغتهم يحيىٰ ، والمراد شَبيه السيد يحيىٰ ، والمَعْمَدانُ بميمين مفتوحتين بينهما عين مهملة صفة عندهم ليحيىٰ فهم يزعُمون أن مريم عليها السلام خرجَتْ بعيسىٰ عليه السلام من الشأم إلىٰ مصر وعادت به إلىٰ الشأم وهو ٱبن ٱثنَتَىْ عشرةَ سنةً ، فتلقَّاه يحيىٰ عليه السلام وهو ٱبنُ خالته ، فغَمَسه فى نَهَر الأُرْدُنِّ، وهو عندهم أصلُ ماء المَعْمُودِيَّة الذى لا يصح عندهم تنصُّرُ نصرانىّ إلا به فأطلَقُوا علىٰ يحيىٰ عليه السلام المَعْمَدان لمعنىٰ ذلك،وكأنه شَبَّهه به من حيث إنه أصلُ المَعْمُوديَّة بزَعْمِهم .

حرف الصاد المهملة

(صَديق الملوك والسلاطين) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم، والمراد أن فيه صداقةً ووُدًّا لملوك الإسلامِ وسلاطينِهم .

حرف الضاد المعجمة

(ضابِطُ الممالك الرُّومِيَّة) من الألقاب التى ٱصطلح عليها لصاحب القُسْطنطينِيَّة، وهو نظير حافِظ البلادِ الجَنُوبية لمَلِك الحَبَشة .

حرف الظاء المعجمة

(ظَهِير البابِ بَابَا رُومِيَةَ) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم ،وقد تقدّم معنىٰ الباب والبابا .

حرف العين المهملة

(عِزّ المِلّة النّصْرانية) من الألقاب التى آصطُلح عليها لأكابر مُلُوكهم .

(عَمادُ بَنِي المَعْمُودِيّة) من الألقاب التى آصطُلح عليها لكِبَار ملوكهم، والعِمَاد فى اللغة الأبنيَةُ الرفيعة، يذكَّر ويُؤنَّث . وقد مَرّ بيانُ معنَى المعمودية فى حرف الشين .

حرف الفـاء

(فارِسُ البَرِّ والبَحْر) يصلح لمن يكون مجاوِرا للبر والبحر من الملوك كأصحـاب الجزائر، وقد يصلُحُ لغيرهم أيضا .

(فَخْر المِلّة المَسيحيّة) من الألقاب التى آصطُلح عليها لملوكهم، وتصلح للمَلِكانيّة واليَعَاقِبَة منهم .

حرف المـيم

(مُتَّبِع الحَوَارِيِّينَ والأحْبارِ الرَّبّانِيِّين والبَطَارِكَة القِدِّيسِين) من ألقـاب عظماء ملوكهم ، والمراد بالحَوَارِيِّين أصحابُ عيسى عليـه السلام الذين بعثهـم إلى أقطار الأرض للبِشَـارة به وللدِّعايَةِ إلى الله تعـالى ، وعنهـم أخبر تعـالى بقـوله : ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصارُ اللهِ ﴾ وهم آثنا عشَرَ نفسا أسماؤهم يُونانِيّة .

أحدُهـم — بُطْرس ، ويقـال له شَمْعُون الصَّـفا ، وهو الذى بَشَّر بالقُـدْس وأنطاكِيَةَ وما حولهـا .

والثـانى — أندراوس . وهو الذى بَشَّر ببلاد الحَبَشة والسُّودان .

والثـالث — يَعْقُوبُ بن زِبِدِى . وهو الذى بشر بمدينة ... ...(١)

(١) بياض فى الأصول .

والرابـــع — يُوحَنَّا الإنْجِيلِىّ . وهو الذى بَشَّر ببلاد أَفْسُس وما معها .

والخامس — فِيلِبس . ولم أقف على موضع بشارته .

والسادس — برتلُوما . وهو الذى بشرفى الواحات والبَرْبر .

والسابع — تُوما و يعرف بِتُوما الرسول . وهو الذى بَشَّر فى السِّند والهند .

والثـامن — مَـتَّى . وهو الذى بَشَّر بأرض فِلَسْطِينَ ، وصُور ، وصَـيْدَا ، ومصر، وقَرْطَاجَنَّةَ من بلاد المغرب .

والتـاسع — يَعْقُوب بن حلفا . وهو ممن بَشَّر ببلاد الهند أيضا .

والعـاشر — سِمْعان و يقال شَمْعون الصَّـفَا . وهو الذى بشر بِشِمْشاط وحَلَب ومَنْبِج و بَزَنْطِيَة : وهى القُسْطنطينِيّة .

والحادى عشر — بُولس و يقـال له تداوس،وهو الذى بَشَّر بِدِمَشْق و بالقدس أيضا و بلاد الروم والجزائر و رُومِيَةَ .

والثانى عشر — يَهُوذا الأسْخَرْيوطِىّ : وهو الذى خرج عن طاعة المَسِيح ودلَّ عليه اليهودَ ليقتُلُوه فألقى الله تعالى شَبَه المسـيح عليه فأمسكه اليهود وقتـلُوه وصلبُوه ورفع الله تعالى المسيحَ إليه، وليس هذا من المراد بالحوارِيِّين هُنا : لأنه قد خرج عن دائرتهم . فلفظ الحوارِيِّين مأخوذ من الحَوَر وهو شدّة البياض، سُمُّوا بذلك لصفائهم وتفانيهم فى اتِّباع المسيح عن الدَّخَل، وقيل لأنهم كانوا فى الأوّل قصّارين يبيِّضون الثياب .

والأحبار جمع حَبْر — بفتح الحاء وكسرها وهو العالم .

والرَّبَّانيُّون جمع ربَّانىّ وقد تقدّم معناه فى الألقاب الإسلامية .

والبَطَاركَةُ جمع بَطْرك وقد تقدّم الكلام عليه فى الألقاب الأصول وأن أصـله بَطْرِيَرْك ،وأنه يقال فيه فَطْرك بالفاء بدل الباء،وكان لهم خمسةُ كراسىّ : كرسىّ برومِيَةَ ،

وهو الذى قعد فيه الباب، وكرسىّ بالإسكندرية: وهو الذى استقرّ لبَطْرك اليعقوبية الآن، وكرسىّ بِبَزَنْطِيَــةَ وهى القسطنطينية، وكرسىّ بأنطاكِيَةَ وكان فيه بَطْرك النسطوريّة، وكرسىّ بالقُدْس وهو أصغرها عندهم .

(مُحيِي طُرُق الفلاسـفة والحكماء) من الألقاب التى آصـطُلح عليهـا لصاحب القسطنطينية لأن مملكته منبَع حكماء اليونان وفلاسفتهم . والفلاسفة جمع فِيلسُوف بكسر الفاء وهى لفظ يونانىّ مركّب من مضاف ومضاف إليه، معناه مُحِبُّ الحكمة، فلفظ فِيل بمعنى محبّ، وسُوف بمعنى الحكمة، وهم يطلِقون الفلسفة على من يحيط بالعلوم الرياضية . وهى : الهيئة والهندسة والحساب واللحون وغيرها . والحُكَماء جمع حكيم، وهو من يُحْسِن دقائق الصناعات ويُتْقنها أو من يتعاطى الحِكْمة، وهى معرفةُ أفضَلِ الأشـياء وأفضلِ العلوم، وأوّل ماصارت الحكمةُ فيهم فى زمن بُخْتُنَصَّر، ثم آشتهرتْ فيهم بعد ذلك، ولذلك عُبِّر بالفلاسفة القُدَماء إشارة إلى أوّل زمن الحكماء .

(مُخَوِّل التُّخُوت والتِّيجان) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لصاحب القُسْطنطينيّة لعِظَم مَمْلكته فى القديم والحديث، والمُخَوِّل المُمَلِّك، والتُّخوت جمع تَخْت وهو كُرسىّ المُلْك الذى يجلس عليه المَلِكُ فى مجلسه العـامّ؛ والتيجانُ جمع تاج وهو الذى يُوضَع على رأس الملك إذا جلس على تَخْته، والمعنى أنه يُعْطِى المُلوكَ الممـالكَ من تحت يده لسَـعَة مملكته وعَظَمتِها، وقد كانت القُسْطنطِينِيّة قبـل غَلَبة الفَرَنج وقُوّةِ شوكتهم مُلْكا عظيما .

(مَسِيح الأبطال المَسِيحيّة) من الألقـاب التى آصطُلح عليها لأكابر مُلُوكهم كصاحب القسطنطينية . أضافَ المَسِيحَ إلى الأبطال ثم وصفها به جمعًا له بين رتبتَي الشجاعة والتديُّن بدينه .

(مُصافِي المسلمين) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لُملوكهم، والمُصافى مفاعِل من الصَّفاء ، والمراد أنه صافى النيةِ للسلمين والمسلمون صافو النيةِ له .

(مُعِزّ النَّصرانية) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لأكابر ملوكهم ، والمراد بالنصرانيــة ملة النصرانية، حذف الموصوفَ وأقام الصفةَ مُقَـامه ، والنصرانيــةُ فى الأصل منسوبة إلىٰ الناصرة وهى القريةُ التى نزلهـا المسيح وأمه عليهما السلامُ من بلاد القُدُس عند عوْدهما إلىٰ مصر، وقيــل مأخوذة من قوله تعالى حكايةً عن عيسىٰ عليه السلام ﴿ مَنْ أَنْصَارِى إلىٰ اللهِ قالَ الحَوَارِيُّون نَحْنُ أنْصارُ الله ﴾ .

(معظِّم البيت المقدَّس) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم، وربَّمـا زِيدَ فيها فقيل «معظِّم البيت المقدّس بعَقْد النيــة» لموافقة الروىّ فى السَّجْعة التى تقارنهـا؛ ويصــلُح لكل ملك من ملوكهم لأن جميعَهم يعتقــدون تعظيم البيت المقــدّس، والبيتُ المقدّس معروف، والتقديس التنزيه والتطهير .

(معظِّم كَنِيسة صِهْيَوْن) من الألقاب المختصة بملِك الحبشة لأنه يعقوبىّ، وكنيسة صِهْيونَ بالإسكندرية : وهى كنيسة بَطْرك اليعاقبة الآنَ ، ومعتقَدُهم أنه لايصح ولايةُ ملك منهم الا باتصال من هــذا البَطْرك، على أنه فى ابتداء البَطْركية فى زمن الحوارِيِّين لم يكن بكرسىّ الإسكندريّة أحدٌ من الحواريين، انمـا كان بها مرقصُ الإنجيلى تلميذ بطرس الحوارىّ صاحب كرسىّ رومية، والنصارى يومئذ علىٰ طريقةٍ واحدة قبــل ظهور المَلَكية واليعقوبية ، فلمـا افترق دينُ النصرانية إلىٰ الملكانية واليعاقبة وغيرهم، كانت بطركية الإسكندرية يتداولها المَلَكية واليعقوبية تارةً وتارةً بحسَب انتحال الملوك والميل إلىٰ كلٍّ من المذهبين، ثم ٱستقرّت آخرا فى بطرك اليَعَاقبة إلىٰ زماننا، وتبعه ملوكُ الحبشة لانتحالهم مذهبَ اليعاقبة، كما تبع الرومُ والفَرَنْجةُ الباب

بروميه : لانتحالهم مذهب المَلِكانية، وسيأتى الكلام علىٰ طَرَف من ذلك فى الكلام على مكاتبة ملك الحبشة إن شاء الله تعالى .

(مَلِكُ مُلُوك السُّرْيان) من الألقاب التى اصطُلِح عليها لصاحب القسطنطينية لعَظَمته عندهم، وقد تقدّم ذكر السُّرْيان فيما قَبْلُ .

(مُوادُّ المسلمين) من الألقاب التى اصطُلِح عليها لملوكهم ، وهو بتشديد الدال أخذا من المَوَدّة .

(مؤيِّد المَسِيحيَّة) من الألقاب التى اصطُلِح عليها لملوكهم ، والمُؤيِّد المقوِّى ، والمراد بالمَسِيحية الملةُ المسيحيَّة كما تقدّم بيانُه، وربما قيل «مُؤَيِّد العِيسَويَّة» : والأمر فيهما كذلك .

حرف النون

(ناصِرُ المِلَّة المَسِيحيَّة) من الألقاب التى اصطُلِح عليها لأكابِر ملوكهم ، وقد تقدّم معنىٰ هذه الألقاب فى مواضعها .

حرف الواو

(وارِثُ التِّيجانِ) من الألقاب التى اصطُلِح عليها لملوكهم. وقد تقدّم معنىٰ التِّيجان، والمراد أنه انتقل إليه الملكُ وِراثةً من آبائه .

(وارثُ آبائه فى الأسِرَّة والتِّيجان) من الألقاب التى اصطُلِح عليها لمن يكون عريقا فى المُلْك، وهو قريب من اللَّقَب الذى قبله .

(وارِثُ القَياصِرة العُظَماء) من الألقاب التى اصطُلِح عليها لصاحب القسطنطينية التي هي قاعدة القَياصِرَة، وقد تقدّم أوّلُ مَنْ سُمِّىَ قيصر فيما سَلَف من الالقاب .

الضــــرب الثـانى

(من ألقاب أهل الكفر الألقابُ المؤنّثةُ: بأن يكون اللقبُ الأصلُ مؤنّثا فتتبعه الألقابُ الفروعُ فى التأنيث، ولها حالتان)

الحـالة الأولىٰ — أن يكون اللقبُ الأصلُ لمؤنّثٍ غير حقيقيٍّ كالحَضْرة مَثَلا، فتَرِدُ ألقابه مؤنّثـة، وفى الغالب إنمـا يقع التأنيثُ فى اللّقَب الأوّلِ ثم يَنْتَقِلُ إلىٰ الألقاب المذكَّرة، مثل أن يقال: «الحَضْرة العاليةُ أو الساميةُ أو العلية، حضرة الملك الجليل» ويؤتىٰ بمـا يناسبه من الألقاب بعد ذلك، وربما أُتِى للحَضْرة بلقَبين فأكثَرَ طلبا للتفخيم، ثم يُعْدَل إلىٰ الألقاب المذكَّرة، مثل «الحضرةِ العاليةِ المكَّرمة» ثم يقال «حضرةُ الملِك الجليل» وما أشبه ذلك.

الحالة الثانية — أن يكون اللقب الأصل لمؤنّث حقيقيّ بأن يكون لامرأة كما إذا كانتْ مِلكةً فى بعض ممالكهم، على قاعدة الأعاجم فى إسناد المُلْك إلىٰ بنات المُلوك، فيؤتىٰ بألقابها المفردةِ والمرَكّبَة مؤنثةً، فيُكْتَب مثلا «المَلِكة الجليلةُ المكرَّمة المبَجَّلةُ الموَقَّرة المفخَّمة المعزَّزة فلانةُ العادلةُ فى مملكتها، كبيرةُ دينِ النّصرانية، نُصرةُ الأمّة العِيسوية، حامِيةُ الثُّغور، صديقةُ الملوك والسلاطين» وماأشبه ذلك، ومعانى هذه الألقاب معلومةٌ ممـا تقدّم.

قلت: قد أتيتُ من ألقاب أهـل الإسـلام وألقابِ أهل الكفر: المفردةِ والمركّبة علىٰ ماتضمنه "التعريفُ بالمصطلَح الشريف" للمقرّ الشهابىّ بن فضل الله، و"عُرْف التعريف" فى الإخوانيّات له، و"تثْقيف التعريف" للقاضى تقىّ الدين آبن ناظر الجيش إلاماشَرَد عنه القلم، مع ماضممتُه إلىٰ ذلك مما وجدتُه فى غيرها من

الدساتير المجموعة فى السلطانيات والإخوانيات المصرية والشامية جاريًا على عُرْفهم مما آستعمله أهلُ الزمان ومَن قاربه ؛ والكاتب الماهر إذا فَهم أصلَها وعَرَف طُرُقها، آخترع ماشاءَ من الألقاب والنُّعوت؛ والضابط فى وضع الألقاب أن يراعى فيها أحوالَ المكتوب له ، فيؤتى منها بما يناسب حاله فى الوظيفة والرِّياسة وسائر أوصاف المَـدْح اللائقة به ؛ فيؤتى لصاحب السيف بالألقاب المقتضية للشّجاعة والبَسَالة : مثل المُجاهدىّ والمُثاغِرىّ والمرابِطىّ وما أشبه ذلك . وربما أُضيفَ له بعضُ الألقاب المقتضيةِ للعلم والصَّلاح، كالعالِمىّ والعامِلىّ ونحو ذلك، لآشتراك الناس فى المَـدْح بمثل ذلك . ويؤتى للعالِم والقاضى ونحوهما بالألقاب المقتضية للعِلْم كالعالمىّ والمحقِّقىّ والمدقِّقىّ ونحو ذلك . وربما أُضيف إليها الألقابُ المقتضيةُ للصَّلاح لتمدّح العلماء به . ويؤتى للصوفية وأهل الصَّلاح بالألقاب المقتضيةِ للصلاح والتعبُّد كالعابدىّ والزاهدىّ ونحوهما . ويؤتى لكُتّاب الإنشاء بالألقاب المقتضية للبلاغة كالبَليغ والمُفَوَّهىّ ونحوهما . ويؤتى للنساء بالألقاب المقتضية للصِّيانة والعِفّة كالمَصُونة والمحجَّبة وما أشبههما . ويؤتى لأهل الكُفْر من الملوك ونحوهم بما لاحرجَ فيه على الكاتب : كالشجاعة وما فى معناها، والتقدُّم على ملوك طائفته وأهـلِ ملّته وما فى معنى ذلك . فإن اجتمع فى شخصٍ واحدٍ أوصافٌ متعدّدةٌ من المَـادح جُمِعتْ له . على أن أكثر مايستعملهُ الكُتّاب من الألقاب غيرُ موجودة فى صاحبها، وإنما هى ألقابٌ حَفِظُوها لرتَبٍ معيّنة لايسعُهم الإخلالُ بشىء منها وإن كانتْ كذبا محضا و﴿ إنّا لله وإنّا إليه راجعُونَ ﴾ . وقد كان فى القديم قاعدةٌ مستقرّةٌ : وهو أنه لا يلَقّب أحد بلقب ولا يُكْنىٰ بكنية إلا أن يكون الخليفةُ هو الذى يلَقّب بذلك أو يكنى .

الجمـــــلة السابعة

(فى تفاوُتِ الألقابِ فى المَراتِب ، وهى قسمان)

القســـــم الأوّل

(مايقع التفاوتُ فيه بالصُّعود والهُبُوط ، وهو نوعانـــ)

النـــوع الأوّل

(ما يقع التفاوتُ فيــه بحسب القِــلّة والكَثْرة ، وله حالتان)

الحـالة الأولىٰ — أن يكون المكتوبُ إليه من أتباع المكتوبِ عنه ، كنُوّاب السلطنة فيما يُكْتَب عن الأبواب السلطانية من مكاتبَات وولَايات ، فزيادةُ الألقابِ وكثرتُها فى هذه الحـالة عُلُوٌ وشرَفٌ فى حقِّ المكتوب إليه ، لأنهـا من باب المَدْح والإطراء ، ولا شكّ أن كثرة المَدْح من المتبوعِ للتـابعِ أعلىٰ من قِلّته ، ولذلك تقع الإطالةُ فى ألقاب كِبَار النُّوّاب والآختصارُ فى صــغارهم ، وتأتى فى غاية الآختصار فى نحو وُلَاة النَّواحى ومَنْ فى معناهم .

الحالة الثانية — أنـ يكون المكتوبُ له أجنبيًّا عن المكتوب عنه ، كالملوك الذين تُكْتَب إليهم المكاتباتُ عن السلطان ، فقِلّة الألقاب فى حَقِّه أرفعُ لأن الإكثارَ من ذلك يُرىٰ أنه من باب المَلَق المذمومِ بين الأكابرِ فى المكاتَبات فوجب تجنُّبــه كما يجب تجنُّب المدحِ وكثرةِ الدعاء ، ولذلك يقع الآختصارُ فى الألقاب فيما يُكْتَب لهم عن السلطان إجلالا لقَدْرهم عن رُتْبة رعاياه الذين يُكْثِر من ألقابهم .

النـــوع الثـانى

(مايقَعَ فيه التفاوتُ فى العُلوِّ والهُبوط بحَسَب مايقتضيه جَوْهرُ اللفظ أو ما وقع الاصطلاحُ عليه . وهو صنفان)

الصـــنف الأوّل

(الألقـابُ المفــرَدة . وهى علىٰ أربعة أنمـاط)

النَّمَـــط الأوّل

(التـــوابع)

وهى التى تَلِى الألقابَ الأصولَ كالتى تلى المقامَ والمقرَّ والجنابَ والمجلسَ ؛ فيـلى المَقامَ لفظُ الأشرف ولفظُ الشريف ولفظُ العـالى، فالمقام يقال فيــه « المَقَـام الأشرفُ العالِى » و « المقامُ الشريفُ العالى » و « المقامُ العـالى » . ويلِى المَقَرَّ لفظُ الأشْرَف ولفظُ الشريف ولفظ الكرِيم ولفظ العالِى ، فيقال « المَقَرُّ الأشرفُ العالى » و « المقرُّ الشريفُ العالى» و « المَقَرّ الكريمُ العالى» و « المَقَرّ العالى » . ويلِى الجنـابَ لفظُ الكريم ولفظُ العـالى ؛ فيقال « الجنـابُ الـكريم العـالى » و «الجَنابُ العالى» . ويلى المجلس لفظ العالِى والسامِى، فيقال « المجلِسُ العالى » و « المجلِس السـامى » . والألفـاظ التى تتبع وهى الأشرف والشريف والكريم والعالى والسامى بعضُها أرفعُ من بعض علىٰ الترتيب . فالأشرفُ أرفع من الشريف، لأن أشرفَ أفعــلُ تفضــيل يقتضى الترجيحَ علىٰ غيره كما هو مقرّر فى علم النحو ؛ والشريف أرفعُ رتبةً من الكريم لمـا تقدّم عن آبن السِّكِّيت أن الكرم يكون فى الرجل وإن لم يكن له آباءٌ شرفاءُ ، والشَّرفَ لايكون إلا لمن له آباءٌ شرفاءُ . ومقتضىٰ ذلك ترجيحُ الشريف علىٰ الكريم لاقتضائه الفضل فى نفس الشخص وفى آبائه ، بخلاف

الكَرَم ؛ ولذلك آختير الشرفُ لأبنـاء فاطمةَ رضى الله عنهـا دُونَ الكَرَم . والكريمُ أرفعُ رتبـةً من العالى، لأن الكريمَ يحتمل أن يكون من الكَرَم الذى هو خلاف اللُّؤم ويحتمل أن يكون من الكَرَم الذى هو خِلافُ البُخْل وكلاهمـا مقطوعٌ بأنه صفةُ مَدْح ، وإن الأقرب إلىٰ مُراد الكُتّاب المعنىٰ الأوّل . والعـالى يحتمل أن يكون مِن عَلِىَ بكسر اللام يعلىٰ بفتحها عَلاءً بفتح العـين والمدّ إذا شَرُف ؛ ويحتمل أن يكون من عَلَا يعلُو عُلُوًّا إذا آرتفع فى المَكَان ، وليس العُلوّ فى المكان ممـا يدلّ علىٰ صـفة المَدْح إلا أن يُسْـتَعارَ للآرتفاع فى الشرَف فيكون صـفةَ مَدْح حينئذٍ علىٰ سبيل المَجَـاز وإن كان مراد الكُتّاب هو المعنى الأوّل؛ وما كان مقطوعا فيه بالمدح من الجانبيْنِ أعلىٰ ممـا يكون مقطوعًا فيه بالمَدْح من جانبٍ دُونَ جانب . وقد آصطلَحُوا علىٰ أن جعلوا العالِىَ أرفعَ رتبةً من السامى ، وهو ممـا أُنْكِر علىٰ واضعه ، إذ لافرق بينهما من حيثُ المعنىٰ ، لأن السمُوّ بمعنىٰ العُلوّ . والذى يظهر أن الواضعَ لم يَجْهَلْ ذلك ولعله إنمـا جعل العالِىَ أرفعَ رتبـةً من السامِى وإن كان بمعناه لأن العـالِىَ لفظٌ واضحُ المعنىٰ يفهمُه الخـاصُّ والعامُّ ، فيكون المدحُ به أَعَمَّ باعتبار مَنْ يفهَمُه ، بخلاف السامِى فإنه لا يَفْهَم معنىٰ العلوّ منه إلا الخاصةُ ، فيكون المدحُ به أخصَّ لآقتصار الخاصّة علىٰ معرفته دُونَ العامّة .

النمـــط الثانى

(مايقع التفاوتُ فيه بحسَب لُحُوق ياءِ النسب وتَجرُّده منها)

قد تقدّم أن الألقابَ المفردةَ منها ما تُلْحق به ياءُ النسب ومنها ما يَتَجرّد عنهـا ، وأن الذى تَلحقُه ياء النسب منها منــه ماهو منسوبٌ إلىٰ شىءٍ خارجٍ عن صاحب اللقب كالقضائىّ فإنه منسوبٌ إلىٰ القضاء الذى هو نفسُ الوظيفة، فيكون النسبُ

فيه على بابه ؛ ومنه ماهو منسوبٌ إلى صاحب اللّقب نفسـه كالاميرىّ فإنه نسبةٌ إلى الأمير وهو عينُ صاحبِ اللقب فدخلتْ فيـه ياءُ النسب للمبالغـة ، كما فى قولهم لشديد الحُمْرة أحمرىّ على ماتقدّم بيانهُ .

وبالجملة فقد اصطلَحُوا على أن يكون مالحِقَتْ به ياءُ النسبِ ارفعَ رتبةً ممـا تجرّد عنها ، سواء كان منسوبًا إلى نفس صاحب اللقبِ أو غيره ، فيجعلون الأميرىَّ أعلى رتبةً من الأمير ، والقَضَائىّ أرفَعَ رتبـةً من القاضى ؛ ثم يجعلون المنسوبَ إلى نفس صاحب اللقبِ أرفعَ رتبـةً من المنسوب إلى شىءٍ خارجٍ عنـه ؛ ومن أجل ذلك جعلوا القاضَوِىّ أرفعَ رتبةً من القَضَائىّ . أمّا كون مالحِقتْ به ياءُ النسب[1] أرفعَ رتبةً من المجرّد عنهـا فظاهرٌ : لأن المبالغة تقتضى الرفعةَ ضرورةً ؛ وأما كونُ المنسوب إلى شىءٍ آخَرَ غيرِ المنسوب إليـه يقتضى الرفعةَ وإن لم يكن فيه مبالغةٌ ، فللالحاق بمـا فيه المبالغةُ استطرادًا ، لئلا يلتَبِس الحالُ فى النِّسبتَيْن على الضعيف الفَهْـم فلا يفرِّقُ بين ما هو منسوبٌ إلى هـذا وبين ماهو منسوب إلى ذاك . على أنهم لم يَقِفُوا مع الحـكم فى كون ما دخلتْ عليـه ياءُ النسب أرفعَ ممـا لم تدخُل عليـه فقد استعملوا الأجلّ ونحوَه فى الألقاب السـلطانية التى هى أعلى الألقـابِ ، فقالوا «السلطانُ الأجلُّ العالمُ العادِلُ» إلى آخر ألقابه المفْرَدة من غير إلحاقِ ياء النسب بها ؛ ثم استعملوا مثل ذلك فى ألقاب السامِى بغير ياء فما دُونَه مما هو أدنى الألقاب رتبةً . وكأنهم اكتفَوْا بمكانة السلطانِ من الرِّفعة عن المبالغة فى ألقابه بإلحاق ياءِ النسب ، من حيث إن المعرَّف لا يحتاج إلى تعريف .

---

(١) أى التى للبالغة كما يفيده التعليل بعدُ .

النمـــط الثـالث

(ما يقع التفاوتُ فيه بصيغةِ مبالغةٍ غير ياءِ النسب)

فيكون أرفعَ رتبةً لمعنى المبالغة كما فى الكَفيليّ فإنه أرفعُ رتبةً من الكافلىّ ، لأن صيغةَ فَعِيلٍ أبلغُ فى المعنىٰ من صيغةِ فاعلٍ من حيثُ إن فَعيلا لا يصاغ إلا من فَعُل بضم العـين إذا صار ذلك الفعلُ له سجيـةً ، كما يقال كَرُمَ فهو كَرِيم وعَظُم فهو عظيم وحَلُمَ فهو حَلِيم ، بخلاف فاعلٍ ؛ ومن أجْل ذلك كان لفظُ فَقيه أبلَغَ من لفظ فاقِهٍ لأن فاقِه يُصاغُ من فَقِهَ بكسر القاف إذا فهِم ، ومن فَقَه بفتحها إذا سبق غيْرَه إلىٰ الفهم . وفَقِيه إنما يُصاغ من فَقُه بضمها إذا صار الفقهُ له سجيَّـة كما مرّ القول عليه فى الكلام علىٰ الفَقيه والفَقِيهى فى الألقاب الإسلامية المفردة .

النمـــط الرابع

(مايقع فيه التفاوتُ بحسب ما فى ذلك اللّقب من اقتضاء التشريف لعلوّ متعلَّقه ورفْعته)

كالمَهِّدىّ والمُشَيِّدىّ ، فإن المراد ممهِّد الدول ومشَيِّد الممالك علىٰ مامرّ فى الألقاب المركَّبة ؛ فإن من ينتهى فى الرُّتبـة إلىٰ تمهيد الدُّوَل وتشييد الممـالك فلا نزاعَ فى أنه من عُلُوّ الرتبة بالمكـان الأرفَع ، وكذلك ما يَجْرِى هذا المجرىٰ كالمدَبّرىّ بالنسبة إلىٰ الوزراء ومَنْ فى معنـاهم ، والمحقِّقىّ بالنسبة إلىٰ العلمـاء ، والأَصِيلىّ بالنسبة إلىٰ العَرِيق فى كَرَم الأصل ونحو ذلك .

الصنف الثـانى
(الألقابُ المركَّبة، وهى علىٰ ضربين)

الضـــــرب الأوّل
(ما يترتّب بعضُه علىٰ بعض لَقَباً بعد لَقَب، وله آعتباران)

الآعتبـار الأوّل
(أن يشترك فى رعاية الترتيب أربابُ السيوف والأقلامِ وغيرُهم، وهـــو علىٰ ثـــلاثة أنمـاط)

النمـــــط الأوّل
(ما يُضاف إلىٰ الإسلام، وله ثلاثةُ أحوال)

الحـال الأوّل — أن يكون ذلك فى ألقـابِ أرباب السُّيوف . وقد آصطَلَح المقَرُّ الشِّهابِىّ بنُ فضل الله علىٰ أن جعل أعلاها رُكْنَ الإسلام والمسلمين فذكر ذلك فى المكاتبة إلىٰ النائب الكافِل، ومكاتبتُه يومئذ بالجَنَاب الكريم؛ ثم أبدل الكُتَّاب ذلك بعـده بِعِزّ الإسلام والمسلميـــن، وجعلوه مع المكاتبة إليه بالمَقَر الكريم علىٰ ما آستقرّ عليه الحـالُ آخِرا فى المكاتَبة إلىٰ النـائب الكافِلِ ونائبِ الشام ؛ وجعلُوا دُونَ ذلك عِزّ الإسلام والمسلمين فأوردُوه مع الجَنَاب الكريم والجَنَاب العالى علىٰ ما آستقرّ عليـه مصطلَحُهم فى السلطانيـات . وجعل فى "عرف التعريف" فى الإخوانِيّات عزّ الإسـلام والمسلميـــن أعلىٰ الألقاب فأورده فى ألقاب المَقَرّ الشريف، ثم طَرَده فيما بعد ذلك من المَقَرّ الكريم والمقرّ العالى ولم يَعْدُه إلىٰ ما بعدُ؛

ثم جعل دُونَه مجد الإسلام والمسلمين ، فأورده مع المجلس العالى مُطْلقا مع الدعاء وصَدَرَتْ ؛ ثم جعل دُونَ ذلك مجدَ الإسلام فقَطْ من غير عطف المسلمين عليه، فأورده فى المجلس السامىّ بالياء والسامى بغير ياء، ولم يَعْـدُه إلىٰ مجلس الأمير بل أضافه بمجد الأمراء علىٰ ما سيأتى ذكره، وتابعه علىٰ ذلك فى التثقيف .

الحال الثانى — أن يكون ذلك فى ألقاب الوزراء من أرباب الأقلام ومَنْ فى معناهم ككاتب السِّر، وناظر الجَيْش، وناظر الخاصّ فمن دُونَهم من الكُتَّاب .

وقد ذكر المقرّ الشِّهابىّ بنُ فضل الله فى بعض دساتيره السامية أن أعلاها لهم رُكْنُ الإسلام والمسلمين، وجعل فى "عرف التعريف" أعلاها للوزراء صَلَاح الإسلام والمسلمين، ولمن فى معنىٰ الوزراء عِزّ الإسلام والمسلمين، اوجلال الإسلام والمسلمين وأورد ذلك مع المَقَرّ الشريف ومابعده : من المَقَرّ الكريم، والمقرّ العالى، والجناب الشريف، والجناب الكريم، وجعل دُونَ ذلك مَجْدَ الإسلام مجرّدا عن عطف المسلمين عليه، وأورده مع المجلس العالى، والمجلس السامى .

أما تخصيص صلاح الإسلام والمسلمين بالوزراء، وعز الإسلام والمسلمين وجلال الإسلام والمسلمين بمن فى معناهم فلأن الصلاح فيه معنى السَّداد والقصد، والعز والجَلَال فيهما معنى العَظَمة والهيبة ؛ ولاشك أن وظيفة الوزارة التى مَنَاطُها تدبير المُلْك بالصلاح أجدر ؛ علىٰ أنه اذا حصل الصلاحُ تبعتْه العظمة والهيبة ضرورةً . وأما كون جَلَال الإسلام والمسلمين أعلىٰ من مجد الإسلام ، فلأمرين أحدهما أن الجلالَ بمعنى العظمة والمجد بمعنى الشرف والعظمة أبلغُ من الشرف لما فى العظمة من نَفَاذ الكلمة . والثانى أن الإضافة فى جلال الإسلام والمسلمين فى المعنى إلىٰ شيئين وفى مجد الإسلام إلى أحدهما .

الحـال الثالث — أن يكون فى ألقـاب القُضاة والعلمـاء ، وقد جعل فى "عُرف التعريف" أعلاها حُجّةَ الإسلام أوضياءَ الإسلام، فأوردهما مع الجَنَاب الشريف الذى هو عنده أعلىٰ الرُّتَب لهذه الطائفة ، وجعل دُونَ ذلك بَهاءَ الإسلام فأورده مع الجَنَاب الكريم ، وجعـل دُونَه مَجْد الإسلام فأورده مع المجلس العالى والسامىّ بالياء وبغير ياء .

أما كون حجة الإسلام وضـياء الإسلام أعلىٰ رتبة من مجد الإسلام فلأن الحجـة فى اللغـة بمعنى البُرْهان وهو الدليـل القاطع، وبه تتقرر قواعد الإسـلام ومبانيه؛ والضياء فى أصل اللغة خلاف الظلمة؛ ثم استعير للهداية وما فى معناها، ولاشكّ أن الوصف بهذين الأمرين أبلغ من الوصف بالمجد الذى هو بمعنىٰ الشرف .

الحال الرابعُ — أن يكون فى ألقاب الصلحاء، وقد جعل فى "عُرْف التعريف" أعلاها صَلَاحَ الإسـلام وأورده مع الحَضْرة، ومع الجَنَـاب الشّريف، والجَنَاب الكريم،وجعل دُونَه جَلَال الإسلام وأورده مع الجناب العالى،ودونه ضياءالإسلام وأورده مع المجلس العالى، وجعل دونه جلال الإسلام فأورده مع المَجلِس السامىّ بالياء فمـا دُونَه .

أمّا كونُ صَلَاح الإسلام والمسلِمين أعلىٰ من جَلَال الإسلام والمسلمين فقد تقدّم بيانُه . وأمّا كونُ جلالِ الإسلام والمسلمين أعْلىٰ من ضياء الإسلام والمسلمين فلأنّ الجَلَال معناه العَظَمة وهى أعْلىٰ من الضياء على ما فيه من التعسُّف .

النمـــط الثـانى

(من الألقاب المركّبة ما يضاف إلى الأمراء والوزراء ونحوهم ، من أرباب المراتب السَّنِيَّة ، وهو على الأحوال الأربعة المتقدّمة الذكر فيما يُضاف إلى الإسلام)

الحال الأول — أن يكون فى ألقاب أرباب السيوف . قد جعل فى "عَرْف التعريف" أعلاها سَيِّدَ الأُمَراء فى العالمين ، وأورده مع المَقَرّ الشريف ، والمَقَرّ الكريم ، والمَقَرّ العالى . وجعل دُونَه سَيِّد الأمراء المقدّمين ، وأورده مع الجَنَاب الشريف ، والجَنَاب الكريم ، والجَنَاب العالى . ودُونَه شَرَفُ الأمراء المقدّمين ، وأورده مع المَجْلس العالى والدُّعاء . ودونُه شَرَفُ الأمراء فى الأنام ، وأورده مع السامىّ بالياء . ودُونَه زَيْن الأمراء المجاهدين ، وأورده مع السامى بغير ياء . ودُونَه مَجْد الأمراء ، وأورده مع مجلس الأمير .

والذى فى "التثقيف" بعد سَيِّد الأمراء فى العالمين سيّد أمراء العالمين ، وأورده مع الجناب العالى ، ودونه شرف الأمراء فى العالمين ، وأورده مع المجلس العالى والدعاء . ودونه شرف الأمراء المقدّمين ، وأورده مع صدرَتْ والعالى . ودونه شرف الأمراء فقط ، وأورده مع السامىّ بالياء . ودونه فخر الأمراء ، وأورده مع السامى بغير ياء . ودونه مجد الأمراء ، وأورده مع مجلس الأمير . ولا يخفى ما بينهما من الاختلاف . ولا مشاحّة فى الاصطلاح بعد فهم المعنى ، ولا نزاع فى أن الترتيب الذى فى التثقيف أحسن . وإذا تأملت ذلك وعرضته على ما تقدّم من التوجيه فى النمط الأوّل ظهر لك حقيقة ذلك .

الحال الثانى — أن يكون فى ألقاب الوُزَراء ومن فى معناهم . فقد ذكر فى "عرف التعريف" أن أعلاها للوزراء سيدُ الوزراء فى العالمين ، ولمن فى معناهم

من كاتب السرّ ونحوِه سيِّد الكبراء فى العالمين ، وأورد ذلك مع المَقَرّ الشريف ، والمَقَرّ الكريم ، والمَقرّ العالى ، والجَنَاب الشّريف ، والجناب الكريم ، والجناب العالى ، وجعل دونه لمن دونَ هؤلاء من الكُتَّاب فخر الأنام ، وأورده فى المجلس العالى والدعاء مع ما بعده .

الحال الثالث — أن يكون من ألقاب القضاة والعلماء .

وقد جعل فى "عرف التعريف" : أعلاها شرف الأنام . وأورده مع الجناب الشريف الذى جعله أعلى المكاتبات لهم ، ومع الجناب الكريم والجناب العالى وجعل دونه فخر الأنام ، فأورده مع المجلس العالى بالدعاء . ودونه بهاء الأنام ، وأورده مع صَدرتْ والعالى ، ومع السامى بالياء والسامى بغير ياء .

الحال الرابع — أن يكون من ألقاب الصلحاء وقد جعل فى "عُرْف التعريف" أعلاها خالِصةَ الأنامِ ، وأورده مع الحَضْرة الشريفة التى جعلها أكبرَ رُتَبِهم ، ومع الجَنَاب الشريف ، والجَنَاب الكريم ، والجَنَاب العالى ، وجعل دُونَهَ شرفَ الأنام واورده مع المجلس العالِى . ودُونَه زَيْن الأنام ، وأورده مع السامىّ بالياء وبغير ياء .

النَّمَـــط الثـالث

(من الألقاب المركَّبة مايُضاف إلى المُلوك والسّلاطين ، وهو على الأحوال الأربعة المتقدّمة الذكر)

الحال الأول — أن يكون من ألقاب أربابِ السُّيوف . وقد ذكر فى "عُرف التعريف" أن أعلاها ظَهِيرُ المُلوك والسلاطين ، وأورده مع المَقرّ الشريف والمَقَرّ الكريم ، والمَقَرّ العالى ، والجَنَاب الشريف ، والجَنَاب الكَرِيم ، والجَنَاب العالى ؛

وجعل دُونَه عَضُدَ الملوك والسلاطين ، وأورده مع المَجْلس العالى والمَجْلس السامىّ بالياء. ودُونَه عُمْدَةَ الملوك والسلاطين، وجعله مع مَجْلس الأمير. والذى فى "التثقيف" إيراد ظَهِير الملوك والسلاطين مع المَقَرّ الكريم ومابعده إلىٰ آخرِ المجلس العالى؛ وجعل عَضُد الملوك والسلاطين مع السامىّ بالياء، وعُمْدَةَ الملوك والسلاطين مع السامِى بغير ياء، وعُدّةَ الملوك والسلاطين مع مجلس الأمير .

والحاصل أنه فى " التثقيف " زاد رُتْبتَيْنِ فى ظَهِير الملوك والسلاطين ، بجعله فى المجلس السامِى مع الدعاء ومع صدرَتْ ، علىٰ أن التحقيق أن عَضُد الملوك والسلاطين أعلىٰ فى الحقيقة من ظَهِير الملوك والسلاطين؛ لأن العَضُد عُضْو من أعضاء الإنسان: وهو مابين المِرْفَق والكَتِف ، والظَّهِير خارجٌ عنه ، وما كان من نَفْس الإنسان كيف يُجْعَل ماهو خارجٌ عنه أرفعَ منه بالنسبة إلىٰ ذلك الشخص ؟ .

الحال الثانى — أن يكونَ من ألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم . وقد جعل فى " عُرْف التعريف " أعلاها ظَهِيرَ المُلُوك والسلاطين أيضا ، وأورده مع المَقَرّ الشريف ، والمَقَرّ الكريم ، والمَقَرّ العالى ؛ والجنابِ الشريف ، والجنابِ الكريم ، والجناب العالى ؛ وجعل دُونَه صَفْوةَ الملوك والسلاطين ، وأورده مع المجلس العالى فما دُونَه .

الحال الثالث — أن يكونَ من ألقاب القُضَاة والعُلَماء . وقد جعل فى " عرف التعريف " أعلاها للقُضَاة حَكَمَ المُلُوك والسلاطين ، ولغيرهم من العُلَماء خالِصَةَ الملوك والسلاطين ، وهو عنده للجَناب الشريف فما فَوْقَه . ودُونَه بَرَكَةُ الملوك والسلاطين ، وأورده مع الجناب الكَرِيم ، والجناب العالِى ، والمجلس العالِى ، مع الدُّعاء . وجعل دُونَه صَفْوةَ الملوك والسلاطين ، وأورده فى صدرَتْ والعالِى فما دُونَ ذلك .

الحـال الرابع — أن يكون فى ألقاب الصُّلَحاء . ولم يزد فى "عرف التعريف" علىٰ أنه يُكْتَب لهم بَرَكةُ الملوك والسلاطين ، وحينئذ فيُقْتَصر عليها لجميعهم ممن يستحقُّ ذلك بحسب ما يقتضيه حالُ المكتوبِ بسببه .

النمـــط الرابع

(من الألقاب المركَّبة ما يضاف لأمير المؤمنين ، وهو على الأحوال الأربعةِ المتقــدِّم ذكرها (١))

الحـال الأوّل — أن يكون من ألقـاب أرباب السيوف ، وأعلاها قَسِيمُ أمير المؤمنين ، وهو من الألقاب الخاصّة بالسلطان كما تقدّم ذكره فى موضعه . ودونه خَلِيل أمير المؤمنين ، وهو من ألقاب أولاد المُلُوك وألقاب بعض الملوك الأجانب المكتوبِ إليهـم عن الأبواب السلطانية . ودُونَه عَضُــد أمير المؤمنين ، وهو أعلىٰ ما يُكْتَب لنُوّاب السلطنة عن الأبواب السلطانية ؛ وجعله فى "عرف التعريف" مع المَقرّ الشريف خاصّةً . ودُونَه سـيفُ أمير المؤمنين ، وأورده مع المَقرّ الكريم والمَقرّ العالى ؛ ودُونَه حُسَامُ أمير المؤمنين ، وجعله فى "عُرْف التعريف" مع الجَنَاب الشريف والجَنَـاب الكريم والجنابِ العالى ؛ ولم يُورِد بعــد ذلك لَقَبا بالإضافة إلىٰ أمير المؤمنين بل ٱقتَصر علىٰ ما يضاف إلىٰ الملوك والسَّلاطِين . وأما فى التثقيف فجعله مع المَقرّ الكريم والمَقرّ العالى . ودُونَه حُسَام أمير المؤمنين ، وأورده مع المجلس العالى والدُّعاء ، ولم يُورِد فيما بعد ذلك لقباً بالإضافة إلىٰ أمير المؤمنين .

والحاصــل أنه فى "عُرْفِ التعريف" زاد رتبةً فيما يُضاف إلىٰ أمير المؤمنين ، وهى حُسَام أمير المؤمنين .

---

(١) كذا فى الاصول ولم يذكر الحال الرابع وهو ألقاب الصلحاء فتأمل .

الحال الثانى — أن يكونَ من ألقاب الوُزَراء ومَنْ فى معناهم . ولم يَزِد فى "عُرْف التعريف" علىٰ وَلِىّ أمير المؤمنين، وأورده مع المَقرّ الشريف، والمَقرّ الكريم، والمَقرّ العالى والجناب الشريف ؛ ويَحْسُن أن يجيء مع الجناب الكريم خالِصةُ أمير المؤمنين، ومع الجنَاب العالى صَفِىُّ أمير المؤمنين أو صَفْوة أمير المؤمنين، ولا يُضَاف إلىٰ أمير المؤمنين مع المجلس العالى فما دُونه شىءٌ من الألقاب اكتفاءً بما يُضاف إلىٰ الملوك والسلاطين كما تقدّم فى أرباب السيوف .

الحال الثالث — أن يكون من ألقاب القُضَاة والعُلَماء . فقد جعل فى "عُرْف التعريف" أعلاها وَلِىّ أمير المؤمنين، وجعله مع الجنَاب الشريف فما فوقه، ويَحْسُن أن يجيءَ مع الجنَاب الكريم خالِصَةُ أمير المؤمنين، ومع الجناب العالى صَفِىّ أمير المؤمنين أو صَفْوة أمير المؤمنين، كما تقدّم فى الوزراء ومَنْ فى معناهم ومَنْ دُونَهم من الكُتّاب .

الاعتبار الثانى

(فى الألقاب المركّبة أن يختصّ الترتيبُ فى الألقاب بنَوْع من المكتوب لهم، وهو أربعة أنماط)

النمط الأوّل

(ما يختصّ بأرباب السيوف، وله حالان)

الحال الأوّل — أن تَقع الإضافةُ فيه إلىٰ الغُزَاة والمُجاهِدين . وقد جعل المَقرُّ الشِّهابِىّ بن فضل الله فى "التعريف" ناصِرَ الغُزَاة والمجاهِدين أعلاها، فأورده فى المكاتبة إلىٰ نائب الشام، والمُكاتبةُ إليه يومئذ دُونَ المكاتبة إلىٰ النائب الكافل ؛

وهو خلافُ مقتضىٰ تركيب لغة العَرَب لما تقدّم من أن صِيغةَ فَعِيل أعلىٰ من صيغةِ فاعل ، ولذلك جعلوا الكَفِيل أعلىٰ من الكافل علىٰ ماتقدّم بيـانُه . وحينئذ فيكون نَصِير الغُزَاة والمجاهدين أعلىٰ من ناصِر الغُزَاة والمجاهدين علىٰ خلاف ماذكره .

أما فى "عُرْف التعريف" فإنه أعرضَ عن ذكر الألقاب المضافَة إلىٰ الغُزَاة والمجاهدين مع المَقَرّ الشريف الذى هو أعلىٰ الألقاب لأرباب السيوف من النُّوّاب ومَنْ فى معناهم ، وأتىٰ بعده مع المَقَرّ الكريم بنَصِير الغُزَاة والمجاهدين ، ثم أتىٰ بعده مع الجَنَاب الشريف إلىٰ آخر المجلس العـالى بنُصْرة الغُزاة والمجاهدين ، فجعل نَصِيرَ الغُزاةِ أبلَغَ من نُصْرة الغزاة : لـما فى نَصِـير من لفظ التـذكير وفى نُصْرة من لفظ التأنيث ، والتذكير أعلىٰ رتبـةً من التأنيث ؛ ثم أتىٰ مع السامىّ باليـاء بذُخْر الغُزاة والمجاهدين ، ثم مع السامِى بغير ياء بزَيْن الأُمَراء المجاهدين علىٰ وَصْف الأمراءِ بالمجاهِدين دُونَ عطفِ المجاهدين علىٰ الأمراء ، ثم مع مَجْلِس الأمير بزَيْن المجاهدين .

وجعل فى "التثقيف" أعلاها ناصِرَ الغُزاة والمجاهدين تبعًا "للتعريف" وأورده مع المَقَرّ الكريم ، ودُونَه نُصْرة الغُزاة والمجاهدين ، وأورده مع الجَنَاب الكريم وما بعده إلىٰ آخِر المجلس العالِى ، ثم أتىٰ مع السامِىّ بالياء بأوْحَد المجاهِدين ، ومع السامِى بغير ياء ومجلس الأمير بزَيْن المجاهدين ، والحالُ فى ذلكَ قريبٌ .

الحال الثانى — أن يكون اللقب مضافًا إلىٰ الجُيوش . وقد جعل فى "التعريف" أعلاها أتَابِك الجُيوش ، وأورده فى ألقاب النائب الكافل ، وجعل دُونَه زَعِيم الجُيوش وأورده فى ألقـاب نائب الشام ، وهو يومئذ دُون النـائبِ الكافِل ، ثم جعل دُونَه زَعِيمَ جُيوش الموحِّدين ، وأورده فى ألقاب نائب حَلَبَ . وعلىٰ نحوٍ من ذلك جرىٰ فى "عرف التعريف" فجعـل أعلاها زَعِيم الجُيُوش وأورده مع المَقَر الشريف ،

والمَقَرّ الكريم والمَقَرّ العالى ؛ ودُونَه زَعِيمَ جُيوش الموحِّدين، وأورده مع الجناب الشريف والجَنَاب الكريم والجَنَاب العالى ؛ ولم يُورِدْ شيئا فى هذا المعنىٰ فيما بعد ذلك، وعلىٰ نحو ذلك جرىٰ فى التثقيف .

النمــــط الثـانى

(ما يختص بالوُزَراء ومَنْ فى معناهم : من كاتِب السرّ ونحوه فمَنْ دُونَهــم من الكُتَّاب)

وقد ذكر فى "عرف التعريف" أن أعلاها للوُزَراء سيِّدُ الوُزَراء فى العالمين، ولمن فى معناهم سيِّدُ الكُبَراء فى العالمين ، وأورد ذلك مع المَقَرّ الشريف والمَقَرّ الكريم والمقرّ العالى والجَنَاب الشريف والجَنَاب الكريم والجَنَاب العالى؛ وجعل دُونَه لمَنْ دُونَهم من الكُتَّاب شَرَف الرؤساء،وأورده مع المجلس العالى؛ ولا شَكَّ أنه يَجِىء بعده أوْحَدُ الكُتَّاب أو شَرَفُ الكُتَّاب مع المجلس السامىّ بالياء ، ثم جَمَال الكُتَّاب للسامى بغير الياء فما دُونَه .

النمــــط الثـالث

(ما يختصّ بالقُضاة والعلمـاء)

وقد جعل فى "عرف التعريف" أعلاها سَيِّد العلماءِ والحُكَّام، ولغيرهم أوْحَدَ العلمـاء الأعلام، وجعله للجناب الشريف فما فوْقَه، ثم للجناب الكريم ، والجَنَاب العالى؛ وجعل دُونَه تاجَ العُلمـاء والحُكَّام ، أو شَرَف العلمـاء والحُكَّام ، وأورده مع المجلس العالى ؛ ودُونَه جَمَال العلماء أوْحَد الفُضَلاء ، وأورده مع السامىّ بالياء؛ ودُونَه جَمَال الأعيان مع السامِى بغير ياء فما دُونَه .

النمـــط الرابع
(مايختص بالصـــلحاء)

وقد جعل فى "عرف التعريف" أعلاها لهم شَيْخ شُيُوخ العــارفين، وأورده مع الحَضْرةِ الطاهِرةِ ، وجعل دُونَ ذلك أوْحَدَ المحقِّقين ، فأورده مع الجَنَاب الكريم؛ ودُونَه أوْحَد النّاسِكين، فأورده مع الجَنَاب العالى .

قلت : وليس وَضْعُ هذه الالقاب علىٰ الترتيب فى العُلُوّ والهُبُوط راجعًا إلىٰ مجرّد التَّشهِّى من غير تَقَصٍّ لعُلُوّ أو هُبُوط يدلُّ عليه جوهَرُ اللفظ ، بل لا بدّ أن يكون لتقدُّم كلِّ لقبٍ منها علىٰ الآخر ورِفْعتِه عليه فى الرُّتْبة سببٌ يقتضيه اللفظُ وتوجِبُــهُ دلالَتُهُ الظاهِرةُ أو الخفِيّةُ . وما وقع فيها مما يخالف ذلك فلعدم تأمُّل الواضع لذلك، أو وُقُوعه من بعض المُدَّعين الظانِّينَ أن القلَمَ فى ذلك مطلَقُ العِنَان، يتصرَّفُ فى وضعه كيف شاء من غير نظرٍ إلىٰ ما يُوجِب تقديمًــا ولا تأخيرًا . وممــا يُوضِّح ذلك ويُبيِّنه أنك إذا اعتبرتَ الألقــابَ المضافةَ إلىٰ الإسلام المتقدّمةَ الذكر فى أرباب السيوف مثلًا، رأيت أعلاها رُكْنَ الإسلام والمسلمين، علىٰ ماهو مذكورٌ فى "التعريف" وغيره من سائر دَسَاتِير المَقَرِّ الشِّهابىِّ بنــ فضل الله؛ وأعلاها علىٰ ماذكره فى "التثقيف" مُعِزّ الإسلام والمسلمين، ودُونَ ذلك فى الرتبــة عِزّ الإسلام والمسلمين، ودونَه مَجْد الإسلام والمسلمين، ودونه مجد الاسلام فقط من غير عَطْف، علىٰ ما تقدّم ذكره.

أمّا كونُ رُكْنِ الإســلام والمسلمين أعلىٰ من عِزِ الإسلام والمسلِمين، فلأنَّ رُكْنَ الشىء فى اللغــة جانِبُــه الأَقْوىٰ ، وقد قال الأُصُولِيُّون : إن الرُّكْن ما كان داخِلَ المــاهِيّة ، وحينئذ فيكون رُكنُ الشىء بعضًا منه بخلاف العِزِّ فانه معنًى من المعــانى خارِجٌ عنه، وما كان بعضًا للشىء كان أخَصَّ به ممــا هو خارجٌ عنه .

وأما وَجْه إبدالهم رُكْن الإسلام والمسلمين بعِزّ الإسلام والمسلمين فلأن في الرُّكْن معنى العِزّ والقُوَّة ، وقد فسر قوله تعالى حكايةً عن لُوط عليه السلام : ﴿ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ بالعِزّ والمَنَعة ، فجُعل المعِزّ لهذا الاعتبار في الألقاب قائما مَقَامَ الركن .

وأمّا كَونُ عِزّ الإسلام والمسلمين أعلى من مَجْد الإسلام والمسلمين ، فلأن العِزّ أجدى في النَّفْع من المَجْد ، فقد تقدّم أن ابن السِّكّيت قال : إن المَجْد لايكون إلا بشَرَف الآباء ؛ ولا نِزاعَ في أن العِزّ في تعارُف الملوك أكثرُ جَدْوى وأوفرُ نفعًا في تحصيل المَقَاصد . وقد ذكر أبو جعفر النحاسُ في "صناعة الكُتَّاب" أن الكُتَّاب في الزمن القديم كانوا يجعلون الدُّعاءَ بالعِزّ عَقِبَ الدعاء بطُول البَقَاء ، فإنه يكون بالعزّ مَصُونا عاليا آمِنًا غَنِيًّا .

وأمّا كونُ مَجْدِ الإسلام والمسلمين أعلى من مَجْد الإسلام ، فلأنّ الشيء كلّما تعدّى فعلُه إلى غيره كان أرفعَ رتبةً ، ومجدُ الإسلام والمسلمين يتعدّى إلى شيئين : وهما الإسلام والمسلمين ، ومَجْد الإسلام لا يتعدّى إلا إلى شيء واحد : وهو الإسلامُ .

فلذلك إذا اعتبرتَ[1] الألقاب المضافة إلى أمير المؤمنين ، رأيتَ أعلاها في أرباب السيوف قَسِيمَ أمير المؤمنين ، ودُونَه خَلِيل أمير المؤمنين ، ودُونَه عَضُد أمير المؤمنين ودُونَه سَيْف أمير المؤمنين ، ودُونَه حُسَام أمير المؤمنين .

أمّا كونُ قَسِيم أمير المؤمنين أعلى من خَلِيل أمير المؤمنين ، فلأنّ القَسِيم بمعنى المُقَاسِم ، والمراد أنه قاسَمَ أمير المؤمنين المُلْكَ وساهمه في الأمر فصارا فيه مشترِكَيْنِ ، وخَلِيلُ أمير المؤمنين مأخوذ من الخُلَّة بضم الخاء وهي الصَّدَاقة ، وفَرْقٌ بين مَنْ يُقَاسِم

(١) كذا في الاصول والاظهر وكذلك إذا اعتبرت الخ عطفا على أنك إذا اعتبرت الخ المتقدم في الصفحة قبل .

الخليفةَ فيصير عَديلَه فى الأمر، وبَينَ مَنْ يكون خَليله وصاحِبَه . علىٰ أنه قد تقدّم أن الملوكَ قد أربت[١] بأنفُسِها عن هذا اللقب لاستبدادهم بالملكِ واستيلائهم عليه .

وأمّا كونُ خليلِ أمير المؤمنين أعلىٰ من عَضُد أمير المؤمنين ، فلأن العَضُد ليس المرادُ منه العُضوَ الحقيقىَّ الذى هو بين الكَتِف والمِرْفَق، وإنما استُعير للناصر وكأنه يَنْصُره بنَفْسه كما ينصُره عَضُده، ومثل هذا الوصف لا يكون إلا للأتْباع، بخلاف الخَليل والصِّديق فإنه لاتكاد رتبتُه عند الشخص تنحطُّ عن رُتْبة نفسه .

وأمّا كونُ عضُدِ أمير المؤمنين أعلىٰ من سَيْف أمير المؤمنين، فلأن العَضُد وإن قُصِد به الناصرُ فإنه منقول عن العُضْو للناصِر كما تقدّم وعُضْو الإنسان عنده فى العِزّة وقُوّة النّصر فوق سيفه فى ذلك .

وأمّا كونُ سيفِ أمير المؤمنين أعلىٰ من حُسَام أمير المؤمنين - وإن كان الحُسَام متضمّنا لوَصْف القَطْع الذى هو المقصودُ الأعظمُ من السيف من حيث إنه مأخوذ من الحَسْم : وهو القطع - فلأن السيفَ مأخوذٌ من سافَ إذا هَلَكَ كما صرح به الشيخُ "جمالُ الدين بنُ هشام" فى شرح قصيدةِ كعبِ بن زُهَيْر، ولا شكَّ أن معنىٰ الإهلاك أبلغُ من معنَى القطع : لأن القطع قد يقَع فى بعض البَدَن مما لا يتضمّن الإهلاكَ، وهذا مما يجب التنبُّه له فإنه ربما تُوُهِّم أن الحُسام أبلغُ من السيف لتضَمُّن وصف القَطْع كما تقدّم .

وبالجملة فلا سبيلَ إلىٰ استيعابِ جميع مايَرِد من هذا الباب بالتوجيه : لأن ذلك يُؤدّى إلىٰ الإسهاب والمَلَل . والقولُ الجامع فى ذلك أنه يُنْظر إلىٰ الألفاظ الواقعة فى الألقاب وما تقتضيه من أصناف المَدْح ، وما تنتهى إليه رتبتُها فيه من أعلىٰ

(١) لعله ربأت بأنفسها أى ترفعت أو زمت بأنفها أى شمخت .

الدرجات أو أوسطها أو أدناها فيرتبها على هذا الترتيب، ويوجّهها بما يظهر له من التوجيه على نحو ماتقدّم . كما إذا اعتبرتَ رتبةَ الجَلال والجَمال فإنك تجِدُ الجَلال أعلى رتبةً: لأن معنى الجَلال العظمةُ، ومعنى الجَمال الحُسْن، ولا نزاعَ فى أن العظمة أبلغُ وأعلى مَوْقِعا من الحُسْن . وكما إذا اعتبرْتَ الضِّياء والبَهاءَ، فإن الضِّياء يكون أبلغَ لأن الضياء معناه النُّور الذاتىُّ وهو متعدِّى النفع عامُّ الفَضيلة ، والبَهاء معناه الحُسْن وهو قاصرٌ على صاحبه . وفيما ذُكِر إرشادٌ إلى مالم يذكر .

القسم الثانى

(مما تتفاوت فيه مراتبُ الألقاب ما يقعُ التفاوتُ فيه بالتقديم والتأخير، وهو نوعان)

النوع الأول

(الألقابُ المفردةُ، وهى على ستة انماط)

النَّمط الأوّل

(الألقابُ التى تلى الألقابَ الأصُولَ)

وهى التى تلي المَقام والمَقرّ والجَناب والمَجلس: كالأشرف والشريف والكريم والعالى والسامى : فالأشرفُ يلى المقامَ والمقرَّ، فيقال : المقامُ الأشرفُ ، والمقرُّ الأشرفُ ، والشريفُ يلى المقامَ والمقرَّ والجنابَ ، فيقال : المقامُ الشريفُ ، والمقرُّ الشريفُ، والجنابُ الشريفُ . والكريمُ يلى المَقرَّ والجنابَ ، فيقال : المَقرّ الكريمُ، والجنابُ الكريم . والعالى يلى المَقامَ والمَقرّ والجَناب والمَجْلس ،فيقال : المَقام العالى، والمَقرّ

العالى ، والجَنَـاب العالى ، والمَجْلِس العالى . والسامى يلى المجلسَ خاصّةً ، فيقال : المجلس السّامِى . والعالِى يلى الأشرفَ والشريف والكريمَ ، فيقال : الأشرفُ العالى ، والشريفُ العالِى ، والكريمُ العالِى .

النمـــط الثـانى

(ما يلى العالِى أو السامى من الألقاب)

وهو اللقب الذى يميِّزُ نوعَ المكتوب له ، كالأميرِى لارباب السيوف ، والصاحبِىّ للوُزَراء من أرباب الأقلام ، والقَضَائىّ والقَاضَوِىّ لسائر أرباب الأقلام ، والشَّيْخىّ للصوفيَّة وأهــل الصَّلاح ، والصَّدْرِىّ للتُّجّار ومَنْ فى معناهم . مثل أن يقال : المَقَرّ الكريم العالى [الأميرىّ][1] والجناب العالى الصاحبِىّ ، أو الجناب العالى القاضَوِىّ ، أو المجلس العـالى ، أو المجلس السامى الشَّـيْخِىّ ، أو المجلس السـامى الصَّدْرىّ ، وما أشبه ذلك . والمعنىٰ فى وضع هذه الألقاب فى هذا الموضع أن يدُلّ أوّلُ لقبٍ يُذْكر بعــد اللقب الأصل وتابِعِه علىٰ الوَظيفــة كما تَدُلُّ براعةُ الاستهلال علىٰ صورة الحـال فى المكاتبة أو الوِلاية أو غيرهما ، وربمـا كان المحلُّ ممـا يقتضى التلقيب بالمَوْلَوِىّ فيقدَّم لقبُ المولوىّ علىٰ لقب الوظيفة . مثل أن يقال : المَقَرّ الشريفُ العـالى المَوْلَوِىّ الأَمِيرِىّ ، فإن كان اللقبُ الأصلُ مضافاً لمجلِس الأمير أو مجلِس القـاضِى أو مجلس الشيخ أو مجلس الصَّدْر ، قام المضافُ إليه مَقَامَ لقب الوظيفة ؛ فيقوم الأمير من مجلس الأمير مقام الأمِيرِىّ ، والقاضى من مجلس القاضى

---

(١) الزيادة متعينة وقد أخذناها من الضوء المؤلف .

مقـام القَضَائىّ، والشـيخ من مجلس الشيخ مقـام الشَّيْخىّ، والصَّدْر من مجلس الصدر مَقـام الصَّدْرىّ . ثم لا يُنْعت بعد ذلك فى هذه الحالة إلا بالأجَلّ، ويُؤْتَى بعده بمـا يناسبه من الألقاب .

النمـــــط الثالث

(ما يلِى لقَبَ الوظيفـــة)

وهو الكَبِير أو الكَبِيرىّ، فيؤتَى به تِلْوَ اللقبِ الدالّ على الوظيفة مثل أن يقال : المَقَرّ العـالى الأميرِىّ الكَبِيرىّ، أو الجناب العالى القَضَائى الكَبِيرىّ، أو المجلس السامِىّ الكبِيرىّ إذا كان بالياء ، أو الكبير إذا كان بغير الياء .

النمـــــط الرابع

(مايقع قبْل لَقَب التعرِيف الذى هو الفُلَانىّ أو فلانُ الدِّين)

وهو اللقبُ الدالُّ على الوظيفـة دلالةً خاصّــةً ، كالكافِلِىّ والكَفِيلِىّ للنوّاب، والوَزِيرِىّ للوزراء ، والحاكِمِىّ للقُضاة . فإن كان المكتوبُ له نائبَ سلطنة كُتب له قَبْلَ الفُلَانى الكافِلِىّ أو الكَفِيلِىّ بحسَب ما يقتضيه الحالُ، وإن كان حاكما كُتِب الحاكِمِىّ . قال فى "التثقيف" : وإن كان وزيرًا كُتِب فى آخر ألقابه الوَزِيرىّ . والذى ذكره فى "عُرْف التعريف" أن الوَزِيرِىّ يلى لقبَ الوظيفـة ، فإذا كان الوَزير من أرباب السـيوف كُتِب الأَميرِىّ الوَزيرىّ ؛ وإن كان من أرباب الأقلام كُتِب الصاحِبىّ الوزِيرىّ . وما ذكره فى "التثقيف" متَّجه فيما إذا كان الوزير صاحبَ قَلَم ، فإن التعريف فى الوظيفـة يُعْرَف أوّلا من قوله الصاحبىّ .

وما ذكره فى "التعريف" ظاهرٌ فيما إذا كان الوزيرُ من أرباب السيوف، فإنه يتعين تقديمُ الوَزيرىّ فيـذكر بعـد الأميرىّ ليدل من الابتـداءِ علىٰ الوظيفة، إذ مطلق الإمرة لايَدُلُّ علىٰ وِزَارة ولاعدمها، فلو أُخِّر إلىٰ آخر الألقاب لَمَا عُرِف أنها ألقابُ وزيرٍ إلىٰ حين ذكر هذا اللقَبِ، وإنمـا رُتِّب هذا الترتيب ليدُلَّ باللقب الذى هو أوّل الألقاب بعد العالى أو السامى علىٰ حال صاحبِ تلك الألقاب هل هو من أرباب السـيوف أو الأقلام أو غير ذلك، وباللقب الذى هو آخر الألقاب المفردة علىٰ وظيفته الخاصّة به .

النمـــط الخامس

(ما يقع فَصْلا بين الألقاب المفردة والمركَّبة)

وهو لقب التعريف كالفُلَانىِّ وفُلَان الدين ، فقد جعلوه فاصلًا بينهما .

النمـــط السادس

(ماليس له موضعٌ مخصوصٌ من الألقاب المفردة)

وهو مابين اللقَب الذى يقَع به التميـيزُ بين الأميرىّ ونحوه، وبين اللقب الذى قبل لقب التعريِف كالعالمىّ والعادلىّ ونحوهما، فالقلم فى ذلك مطلق العِنَان بالتقديم والتأخير علىٰ ما يقتضيه الحالُ بحسب ما يراه الكاتبُ .

النـــوع الثـانى

(ممـا تتفاوَتُ فيه مراتبُ الألقاب بالتقديم والتأخير الألقابُ المركّبة المعبَّر عنها بالنُّعوت، وهى علىٰ ثلاثة أنمـاط)

النمـــط الأوّل

(ما يلى لَقَبَ التعريفِ الذى هو الفُلانِىُّ أو فلانُ الدين)

وهو ما يضاف إلىٰ الإسلام مثل رُكْن الإسـلام والمسلمين وعِزُّ الإسلام والمسـلمين وما أشـبه ذلك، فقـد اصطلَحُوا علىٰ أن يكونَ ذلك أوّلَ الألقاب المركّبة، وتوجيهه ظاهر لأن المضافَ يشْرُف بشرف المضاف إليـه، ولا أشْرَفَ عند أهل الإسلام من الإسلام فوجب تقديم ما يُضاف إليه علىٰ غيره.

النمـــط الثـانى

(ما يقـــع فى آخر الألقـابِ المركّبـــة)

ويختلف الحال فيه باختلاف حالِ المكتوبِ له، فإن كان ممن يُكْتَب له المجلس السامى بغير ياء فمـا دُونَه جُعِل آخرُ الألقاب فيه مايضاف إلىٰ المُلوكِ والسلاطين، مثل أن يقال: صَفْوَةُ الملوك والسلاطين، أو آختيارُ الملوكِ والسلاطين وما أشـبه ذلك. وإن كانـ ممن يُكْتَب له السامىّ بالياء فمـا فوقه جُعِل آخرُ الألقاب فيه مايضاف إلىٰ أمير المؤمنين؛ مثل عَضُد أمير المؤمنين، ووَلِىّ أمير المؤمنين، وخالصة أمير المؤمنين، وما أشـبه ذلك علىٰ ما تقتضيه رُتْبَـة المكتوب له. والمعنىٰ فيه أن حُسْن الآختتام بالإضـافةِ إلىٰ الملوك والسلاطين الذين هم ثانى رُتْبة الخلافة.

النمـــــط الثـالث

(مابين أوّل الألقاب المركّبة وبين آخرها)

فقد اصطلحوا على أن يكون المقدّمُ منها ممـا يقتضى تقديمَ المكتوبِ له على أبناء جنسه . مثل : سـيّدُ الأمراء فى العالمين ، وسيّدُ العلمـاء والحُكّام فى العـالمين ، وما أشبه ذلك؛ ثم فى حقّ كل أحد من أرباب الأقلام والسيوف بحسب مايقتضيه حالُه على نحو ما تقدّم فى الكلام على ماتتفاوت رتبُه بالعُلوّ والهُبوط .

الجمـــــلة الثامنة

(فى بيـان محل اللّقَب المضافِ إلى الملِك ولقبِ التعـريف الخاصّ به الواقع تِلْوَ اللقب الملوكىّ ، مثـل المَلَكِىّ الناصرىّ الزّيْنىّ وما أشبه ذلك ؛ وله ثلاثة أحوال)

الحـالة الاولى — أن يكونَ ذلك فى ألقاب السلطان نفسِه ، كما يقع فى التقاليد والمَنَاشير ونحوهما . فموضعُه بعدَ رُسِم بالأمر الشريف، أو خَرجَ الأمرُ الشريف ، مثـل أن يُكتَبَ رُسِم بالأمر الشريفِ العـالِى المَوْلَوِىّ السلطانىّ المَلَكِىّ الناصرىّ الزّيْنِىّ ، أو ـ فلانلك رُسِم بالأمر الشريفِ الفلانِىّ الفلانىّ ، أو خرج الأمرُ الشريفُ العالى المَوْلوِىُّ السلطانىّ المَلَكِىّ الفُلانىّ الفُلَانىّ ، وما أشبه ذلك .

الحـالة الثانية — أن يكون اللقب المضاف إلى الملك فى ألقاب المكتوبِ له ، كما لو كُتِب فى تقليد أو نحوه . ومحـلُّه بعد ذكر اسم المكتوبِ له بعـد الألقاب ، مثل ان يقال بعد آنتهاءِ الألقـابِ : فُلَان الظاهِرىّ أو الناصِرىّ ونحو ذلك ، ولا يقال له المَلَكىّ حينئذٍ .

الحالة الثالثة — أن يكون فى ألقاب المكتوب عنه كما يُكْتَب فى أوّل المُكاتبات المَلَكِيّ الفلانىّ، وقد آصطلَحوا علىٰ أن يُكْتَب ذلك تحت جَرّة البسملة علىٰ ماسيأتى بيانه إن شاء الله تعالىٰ .

الجملة التاسعة

(فى ترتيب جملة الألقابِ الفُروع علىٰ الألقاب الأُصُول علىٰ قَدْر طَبَقاتها، وهى قسمان)

القسم الأوّل

(الألقابُ الإسلاميّةُ)

واعلم أن ترتيبَ الألقاب تارةً يكون فى السُّلْطانيّات ، وتارةً يكون فى الإخوانيّات وما يُكْتَب عن النُّوّاب . وقد كانوا فى الأيّام الناصِريّة « محمد بن قلاوون » يستعملون فى الإخْوانيّات وما يُكْتَب عن النُّوّاب النُّعوتَ المركّبة كما فى السُّلْطانيات، لا يَفْرِق بينهما إلا مافى الإخوانيات وما فى معناها من الألقاب التى لا تصْلُح للسلطانيات، كالمَوْلَوِىّ والسيّدىّ والمَخْدُومىّ ونحوها . أما الآنَ فقد وقع الاقتصارُ فيها علىٰ المُفْرَدات دُونَ المركّبات، وصارت المركّبات مختصةً بالسلطانيّات .

ثم الألقابُ الإسلاميةُ الفروعُ المرتَّبةُ علىٰ الألقاب الأصولِ علىٰ سبعة أضْرُب :

الضرب الأوّل

(الألقاب المتعلّقة بالخلافة وما يلتحق بها، ومبْناها على الآختصار ؛
وهى ثلاثةُ أنواع)

النــــــوع الأوّل

(ألقــابُ الخلفاء ، وهى صـــنفان)

الصنفُ الأوّل — أن تكون لنَفْس الخليفة . فكان يقال فيها فى الزمن القديم « عبدُ اللهِ فلانٌ أميرُ المؤمنين » [فإن كان آسمُ الخليفةِ عبدَ الله كالمأمون كُرِّر الآسمُ مرتين : مرةً للإسم العَـلَم ومرةً للقَبِ الخلافة ، فيقال : « عَبْد الله عبدُ الله أمير المؤمنين »] (1) ثم زِيد فيهـا الكنيةُ بعد ذلك، فقيــل « عبدُ الله فلانٌ أبو فلان أمير المؤمنين » ثم زِيدَ لفظُ الإمام فقيــل « عبد الله فلانٌ أبو فلان [الإمام] (1) الفلانِىُّ ـ بلقب الخلافة مثل المتوكل علىٰ الله ونحوه ـ أمير المؤمنين» ثم زيد ووليُّه بعد عبدِ الله، فقيل : «عبدُالله ووليُّه فلانٌ أبو فلانٍ الإمام الفلانىّ أميرالمؤمنين» وهو ما آستقرّ عليه الحال آخِرا .

الصنف الثـانى — أن تكون الألقـاب للدِّيوان فى مكاتبةٍ أو غيرها . والذى آصطُلح عليه أن يقال « الدِّيوانُ العزيزُ المَوْلَوِىُّ السيِّدىّ النبَّوىّ الإمامىّ الفلانىّ» بلقب الخلافة .

---

(1) الزيادة عن ضوء الصبح للؤلف ج ١ ص ٣٦٩ لتمام الفائدة .

النـــوع الثـانى

(ألقابُ وُلَاة العـــهد بالخلافـــة)

وهى « الجـانِبُ الشريفُ ، المَوْلَوِىّ ، السيِّدىُّ ، النَّبوىّ ، الفُلانىّ » بلقبه المنسوب إلىٰ الخلافة . وربمـا قيل فيـه الجَنَاب بدل الجانب ، وبقيَّةُ الألقاب علىٰ ماتقدّم .

النـــوع الثـالث

(ألقـابُ إمام الزيدية باليَمَـن)

وهى «الجَنَاب الكريم، العـالى ، السيِّدىّ، الإمامىّ، الشَّريفىّ ، النَّسِيبىّ ، الحَسِيبىّ ، الفلانىّ» بلقب التعريف «سَـلِيل الأطهار ، جَلَال الإسـلام، سَيْف الإمام، بقِيَّة البيت النبوىّ، فَخْر الحَسَب العلوىّ، مُؤيِّد أمورِ الدين، خليفة الأئمة، رَأْس العَلْياء ، صالح الأولياء ، عَلَم الهُدَاة ، زَعِيم المؤمنين ، ذُخْر المسلمين ، مُنْجِد الملوك والسلاطين» .

الضرب الثـانى

(الألقابُ المُلُوكيـــة ، وهى نوعان)

النـــوع الأوّل

(الألقابُ التى اصطُلِح عليها للسلطان بالدِّيار المصرية علىٰ ما الحالُ مستقِرّ عليه، وقد ذكر فيها فى التعريف مذهبين)

المذهبُ الأوّل — أن يقال « السُّـلطان السيِّدُ الأجَلُّ الملكُ الفلانىّ العالم العادلُ المجاهـــدُ المرابطُ المثاغِرُ المؤيَّد المظفَّر المنصورُ الشاهِنْشاه فلانُ الدنيا

والدِّين، سلطـانُ الإسلام والمسلمين ، مُحْيِي العَدْل فى العالَمين، وارثُ المُلْك، مَلِك العَرَب والعجَم والتُّرْك ، ظلّ الله فى أرضه ، القائمُ بسُنّته وفَرْضه ، إسكندرُ الزمان، مُمَلِّك اصحـابِ المَنابِر والأسِرَّة والتِّيجان ، واهبُ الأقاليم والامصارِ، مُبِيـد الطُّغاة والبُغـاة والكُفّار، حامى الحرمين الشريفين والقبلتين ، جامعُ كلمةِ الإيمـان، ناشرُ لِواء العدلِ والإحسان ، سـيِّدُ ملوك الزمان ، أبو فلان فلان، ابن السلطان الشهيد الملك الفلانى، والد الملوك والسلاطين، أبى فلان فلان » .

أما فى " التثقيف " فإنه ذكـر ذلك بزيادةٍ وتغيير، وتقديم وتأخير. فقال : « السلطان الأعظمُ، المـالك الملك الأشرف السيدُ الأجلُّ العالم العادل المؤيَّد المجاهدُ المرابطُ المثاغرُ المظفَّر الشاهِنْشاه ناصرُ الدُّنيـا والدين، سلطانُ الإسلام والمسلمين، محيي العدل فى العالمين، مُنْصِف المظلومين من الظالمين، وارث الملك، سلطان العَرَب والعَجَم والترك، فاتح الأقطار، مانحُ الممالك والأمصار، إسكَنْدَرُ الزمان، مُولِى الإحسان، جامع كلمة الإيمـان ، مُمَلِّك أصحاب المَنابِر والتُّخُوت والتِّيجان ، مَلِك البحرين، مسَلِّك سُبُل القبلتين، خادمُ الحرمين الشريفين، ظلُّ الله فى أرضه، القـائمُ بسنّته وفرضه ، سلطانُ البسيطه ، مؤمِّن الأرض المُحِيطه ، سـيد الملوك والسلاطين ، وَلِيّ أمير المؤمنين، أبو فلان فلان بن فلان » . وذكر أن الغالب أن تُحذَف الشاهنشاه، لأن معناها مَلِك الأملاك، وقد تقدّم النهىُ عن التسمّى بذلك.

ثم قال : والواجب أن يكون بدل وَلِيّ أمير المؤمنين، قَسيم أمير المؤمنين .

المذهب الثانى — أن يُكْتَب المقامُ الشريف أو الكريمُ أو العالى مجرَّدا عنهما ، ويُقْتَصر على المفرَدَة دون المركَّبة . مثل أن يُكْتَب « المقـامُ الشريفُ العـالى ،

المَوْلوِىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ، ابو فلانٍ فلان» . قال فى "التعريف" : وإلىٰ هذا ذهب المتأخرون من الكُتّاب ؛ ثم قال : وأنا علىٰ الأوّل أعمَلُ .

النـــوع الثـانى

(الالقـاب التى يُكتَب بهـا عن السـلطان لغيره من الملوك، وهى علىٰ ثلاثة اصـناف)

الصنف الأوّل

(ألقـابُ وُلاة العهـد بالسّـلطنة)

« وهى المَقَام العالى ، العالِىّ ، العادلىّ ، المَلَكىّ ، الفُلانىّ ، الفُلانىّ ـ بلقبِ الملك واللقبِ المتعارف » . قال فى " التثقيف " : فإن كان أخًا للسلطان زِيد فيه الأَخَوِىّ ، أو ولدا زيد فيه الوَلَدِىّ .

الصّـنف الثـانى

(ألقابُ الملوك المستقِلّين بِصغَار البُلدان)

كما كان صاحبُ حماةَ فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وكان يُكتَب له : «المَقَامُ الشريف العالى السُّلطانى المَلَكِىّ الفُلانى، بلقب المَلِك» . ورُبما كُتِب له قبل لقب الملك «الأَصِيلىّ» لعَرَاقته فى المُلْك .

الصـــــنف الثـالث

(ألقابُ المكتوب إليهم من الملوك عن الأبواب السلطانية، وهى نمطان)

النمـــــط الأوّل

(مايُصَدَّر بالألقاب المذكَّرة، وهى علىٰ أربع طَبقَات)

الطبقة الأولىٰ — مايُصَدَّر بالمَقَام، وأعلاها «المَقَام الأشرف» كألقاب صاحب الهِند، وهى : «المَقَام الأشرفُ العالِى المَوْلَوِىّ السلطانىّ الأعْظَمِىّ الشاهِنْشاهِىّ العالِمِىّ العادلىّ المجاهِدِىّ المُثَاغِرِىّ المظفَّرىّ المؤيَّدِىّ المَنْصُورِىّ إسكَنْدَر الزمان، سُلطانُ الأوان، مَنْبعُ الكَرَم والإحسان، المُعَفِّى آل ساسانَ، و بَقَايَا فراسياب وخاقان؛ ملكُ البَسيطة، سلطان الإسلام، غِيَاث الأنام، أوحد الملوك والسلاطين» .

ودونه «المَقَام الشريف» كألقاب الشيخ حسن الكَبِير صاحب بغـدادَ كان، وهى : «المَقَام الشريفُ العالى الكَبِيرِىّ السلطانىّ العـالمىّ العادلىّ المجاهدىّ المؤيَّدىّ المُرَابِطىّ المنصُورِىّ المَلَكِىّ الفُلَانىّ الفُلَانىّ – بلقَبَى المُلْك والتعارف .

ودونه «المَقَام العـالى» كألقاب القان ببلاد أُزْبَك فيما ذكره فى "التثقيف" وهى : «المقامُ العـالى السلطانىّ الكَبِيرِىّ المَلَكِىّ الأَكْرَمِىّ الفلانىّ – بلقب التعريف – فلان الدُّنيا والدين مؤيِّد الغُزاة والمجـاهدين قاتلُ الكَفَرة والمُشْركين، وَلِىُّ أمير المؤمنين» . وكألقـاب صاحب المغرب فيما ذكره فى "التعريف" وهى : «المَقَام العالى السلطانىّ السيدُ الأجلُّ العالم العـادل المجاهد المُرابِط المُثَـاغِر المؤيَّد المظَفَّر المنصور علىٰ أعداء الله أمير المسلمين، قائد الموحِّدين، مجهِّز الغُزاة والمجاهدين، مجَنِّد الجنود، عاقد البُنُود؛ مالئ صُدُور البَرَارِى والبِحار،

مُزَعْزِع أَسِرّة الكُفَّار ، مؤيِّد السنّه ، مُعِزّ الملّه ، شرفُ الملوك والسلاطين ، بقيّة السلفِ الكريمِ ، والنَّسَب الصَّميم ، ربيب المُلْك القديم ، أبو فلانٍ فلان » .

الطبقة الثانيــة — ما يُصدَّر بالمَقرّ ، وأعلاها فيما رأيت «المَقرّ الكريم » كألقاب صاحب هَراةَ فيما ذكره فى " التعريف " وهى : « المَقرّ الكريم ، العالى العالِمىّ العادِلىّ المجاهدىّ المؤيّدىّ المُرَابِطىّ المثاغرىّ الأوْحَدىّ الفلانىّ ، شرف الملوك والســلاطين ، خليــل أمير المؤمنين » . وكألقاب صاحب كَرْمِينانــ [من بلاد الروم](١) فيما ذكره فى " التثقيف " وهى : «المَقرّ الكريم العالى المَلَكِىّ الأجلِّىّ العالمىّ [العادلىّ](١) المجاهدى المؤيّدىّ المرابِطىّ المثاغرىّ المظفَّرىّ المنصورىّ الفلانىّ ، عِزّ الإسلام والمسلمين ، فخر الملوك والسلاطين ، نَصِير الغُزَاة والمجاهدين ، زَعِيم الجيوش مقدّم العساكر ظَهِير أمير المؤمنين » .

ودونه «المَقر العــالى » كألقاب صاحب مالّى من بلاد التُّكْرور فيما ذكره فى " التعريف " وهى : «المَقرّ العالى السلطانىّ الجليل الكبير العالم العادلُ المجاهـــد المؤيِّد الأوحدُ ، عِزّ الإســلام ، شرفُ ملوك الأنام ، ناصر الغُزاة والمجاهدين ، زعيمُ جيوش الموحِّدين ، جمال الملوك والسلاطين ، سيفُ الخِلافة ، ظَهِير الإمامة ، عَضُد أمير المؤمنين » .

الطبقة الثالثــة — ما يُصَدّر بالجناب . وأعلاها «الجَنَاب الكريم» كألقاب ملك التُّكرور فيما ذكره فى "التثقيف" أنه آستقرّ عليه الحال ، وهى : «الجَنَاب الكريم ، العالى المَلِك الجليل العالم العادل المجاهد المؤيَّد المُثَاغِر المُرَابِط العابِد الخاشِعُ الناسِكُ الأوْحَد فلان ، ذُخْر الإســلام» . وكألقاب مَلِكَى البَرْنُو والكانم فيما ذكره

(١) الزيادة عن الضوء .

فى "التعريف" وهى : «الجَنَاب الكريم العالى الملك الجَلِيلُ الكَبِير العالم العادِل الغازى المجاهِد الهُمَام الأوْحَد المظفَّر المنصُور عِزُّ الإسلام» . ثم بقِيَّة الألقاب من نسبة ألقاب ملك التَّكْرور .

الطبقة الرابعة — ألقابُ المَجْلِس . وأعلاها « المَجْلِس العالى » كألقاب صاحب حصْن كَيْفَا فيما ذكره فى "التعريف" وهو : «المَجْلِس العالى المَلَكِىّ الفلانى الأجَلِّىّ العالِمِىّ العـادِلِىّ المجاهِدِىّ المؤيَّدِىّ المرابِطِىّ المُثاغِرِىّ الأوْحَدِى الأصِيلِىّ الفُلَانى — بلقب التعريف — عِزُّ الإسلام والمسلمين ، بَقِيَّة الملوك والسلاطين ، نَصِير الغُزاة والمجاهِدِين ، زَعِيم جُيوش الموَحِّدين ، شَرَفُ الدول ، ذُخْر الممالك ، خليلُ أمير المؤمنين أو عَضُد أمير المؤمنين» على مخالَفة فيه فيما أورده فى "التثقيف" تا... فى المكاتبة إليه .

ودونه المَجْلِس السامِىّ بالياء — كألقاب صاحب أَرْزَنَ ، وهى «المَجْلِس السامىُّ المَلَكِىُّ الفلانى — بلقب المُلْك — الأصِيلِىّ الكَبِيرِىّ العالِمىّ المجاهِدِىّ المؤيَّدِىّ المرابِطِىّ الأوْحَدِىّ الفلانى — بلقب التعريف — عِزُّ الإســلام ، شرف الملوك فى الأنام ، بقِيَّة السلاطين ، نُصْرَةُ الغُزاة والمجاهدين ، ولىُّ أمير المؤمنين» .

ودونه المجلِس بغـير ياء فى ألقابه كألقاب صاحب دُنْقُـلة إذا كان مسلما ، فيما ذكره فى "التعريف" وهى : «المجلس الكَبِير الغازِى المجاهِد المؤيَّد الأوْحَد العَضُد ، مَجْـدُ الإسلام ، زينُ الأنام ، فخرُ المجـاهدين ، عُمْدة الملوك والسلاطين» ولم يذكر فيــه السامى ولا لقبًـا مضافا إلى المَلِك ، وهو المَلَكِىّ إلا أنهم أوردوه فى عِدّة الملوك .

قلت وأكثرُ هـذه الألقاب يؤتىٰ فيها بالألقاب المختصّة بالمَلِك : إما فى المفْرَدة كالملَكِىّ الفلانىّ ، وإما فى المركّبة مثـل « بقيّة الملوك والسلاطين » ونحو ذلك ، لتدُلّ علىٰ أن المكتوب له مَلِك فيمتاز عن غيره . وربما أُتِىَ فيها بالألقاب الإماريّة دون الملوكية لوقوع آصطلاح أهـل تلك المملكة علىٰ ذلك . كما يُكْتَب فى ألقاب صـاحب تُونُس « أمير المؤمنين » لآدّعائه الخلافةَ ، وفى ألقـاب صاحب فاس « أمير المُسْلمين » آتبـاعا لِيُوسُف بن تاشفين صاحبها فى القـديم ، إذ كان أوّلَ من تلقب بذلك خُضوعًا عن أن يتلقّب بأمير المؤمنين ، لآختصاصه بالخِلافة كما سيأتى الكلام عليه فى المكاتبة إليه إن شاء الله تعالىٰ .

النمـــــط الثـانى

(ما يصدَّر بالالقاب المؤنّثة ، وهى الحَضْرة)

ويختلف الحال فيها باختلاف الممـالك . فألقاب القانِ بمَمْلكة إيران علىٰ ما كان عليه الحـال فى أيام السلطان أبى سعيد وما قبله « الحَضْرة ، الشريفةُ ، العاليةُ ، السلطَانيّة ، الأعظَمِيّة ، الشاهِنْشاهِيّة ، الأوحدية ، القـانيّة ، الفُلانيـة » . قال فى "التعريف" ولا يخلط فيهـا المَلَكية لهوانها لديهم وإن كان صاحب "التثقيف" قد أثبت فيها المَلَكية أيضا علىٰ ما سيأتى فى الكلام علىٰ المكاتبة إليه فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ . وألقابُ صاحب تُونُس فيما ذكره فى "التثقيف" « الحَضْرة ، العلية ، السَّنيّة ، السَّريّة ، المظفَّرية ، الميمُونَة ، المنصُورة ، المَصُونة ، حضرة الأمير العالم » إلىٰ آخر الألقاب المذكورة .

الضربُ الثـالثُ

(من الألقاب الإسلامية الألقابُ العامّةُ لسائر الطوائف ممـا يُكْتَب به عن الأبواب [السلطانية][1] ، وهى ثمـانية أنواع)

النـــوع الأوّل

(ألقابُ أربابِ السيوف من أهل المملكة وغيرهم : من الأُمَراء والعُرْبان والأكراد والتُّرْكُمان. وهى على خمس درجات)

الدرجـــة الأولىٰ

(درجة المَقَرّ ، وفيها ثلاثُ مراتبَ)

المرتبـــة الأولىٰ — مرتبة المَقَرّ الشريف . وهو مختَصّ فى عُرْف الزمان بمـا يُكتب عن نُوّاب السلطنة .

وصورتُهـا علىٰ ما أورده فى "عُرْف التعريف" : «المَقَرّ الشريفُ، العـالى، المَوْلَوِىّ، الأميرِىّ، الكَبِيرِىّ، العالِمِىّ، العادلِىّ، المُهِّدِىّ، المشيِّدِىّ، الزَّعِيمِىّ، المقَدَّمِىّ، الغَوْثِىّ، الغِيَاثِىّ، المرابِطِىّ، المُثَاغِرِىّ، الظَّهِيرِىّ، المالِكِىّ، المخدُومِىّ، الفلانى ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين ، سيِّد الأمراء فى العالمين ، زعيمُ الجيوش، مُقَدَّم العساكر ، عَوْنُ الأمة، غِيَـاث المِلَّة ، ممهِّد الدُّوَل، مشَيِّد المَمـالك، ظَهِيرُ الملوك والسلاطين، عَضُدُ أمير المؤمنين» .

المرتبة الثانية — مَرْتَبَة المَقَرّ الكريم . وهى مستعملة فى السُّلْطانيات ومايُكْتَب عن النُّوّاب .

---

(١) الزيادة من الضوء ص ٣٧٢ .

فأما فى السُّلْطانيات فصورتها على ما أورده فى "التثقيف" فى الألقاب المستقرة للنائب الكافل ونائب الشام : «المَقَرُّ الكريم ، العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالِمىّ ، العادلىّ ، المؤيِّدىّ ، الزَّعيمىّ ، الغَوْثىّ ، الغِيَاثىّ ، المُثاغِرىّ ، المُرَابِطىّ ، المُمَهِّدىّ ، المُشَيِّدىّ ، الظَّهيرىّ ، العابِدىّ ، الناسِكىّ ، الأتابَكىّ ، الكَفيلىّ ، الفُلانىّ ؛ مُعِزُّ الإسلام والمسلمين ، سيِّد أُمَراء العالمين ، ناصرُ الغُزاة والمجاهدين ، زَعيم جُيوش الموحِّدين ، ممهِّد الدُّوَل ، مشيِّد الممالك ، عِمادُ المِلّة ، عَوْنُ الأمة ، ظَهير الملوك والسلاطين ، عَضُد أمير المؤمنين » .



وأما فيما يكتب عن النُّوّاب فقد ذكر فى " التعريف " أن ألقابها من نسبة ما تقدّم فى ألقاب المقرّ الشريف .

وصورتها على ما أورده شِهاب الدين الفارقى فى دُسْتوره عن نائب الشام : «المَقَرّ الكريم ، العالى ، المَوْلَوِىّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالِمىّ ، العادلىّ ، المؤيِّدىّ ، المُمَهِّدىّ ، الغَوْثىّ ، المقدَّمىّ ، الذُّخرىّ ، الغِيَاثىّ ، الفلانى ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الأمراء فى العالمين ، زعيم جُيوش الموحِّدين ، مقدَّم العساكر المجاهدين ، ذُخْر الدولة بَهَاء المِلّة ، ممهِّد المملكة ، ظَهير الملوك والسلاطين ، عَضُد أمير المؤمنين » .

وصورتها على ما أورده الصَّلاح الصَّفَدىّ فى دُسْتوره عن نائب الشام ايضا : «المَقَرّ الكريم ، العالى ، المَوْلَوِىّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالِمىّ ، العادلىّ ، المؤيِّدىّ ، المجاهدىّ ، الذُّخرىّ ، العَضُدىّ ، النَّصيرىّ ، المقدَّمىّ ، الغَوْثىّ ، الغِيَاثىّ ، الفلانىّ ؛ رُكْنُ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الأمراء فى العالمين ، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين ، غِيَاث المِلّة ، كَهْف الأمة ، ذُخْر الملوك والسلاطين » .

ثم قال : وإن كان المكتوبُ إليه نائبَ سلطنةٍ زيد فى ألقابه « المَهِّدىّ ، المشَيِّدىّ ، الزَّعيمىّ ، المدَبِّرىّ ، الكافِلىّ ، الفلانىّ » .

وصورتُها علىٰ ما أورده غيره : «المَقرّ الكريم، العالِى، المَوْلَوِىّ، الأَميرِىّ، الكَبِيرِىّ، العالِمِىّ، العادلىّ، الغَوْثِىّ، الغِيَاثىّ، الذُّخْرِىّ، الزَّعيمىّ، الفُلانىّ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين، سيِّدُ الأمراء فى العالمين، جَمَالُ الدولة، ذُخْر الملة، زَيْن المملكة، عَيْن السلطنة، سَفِير الأمة، ظَهِير الملوك والسلاطين، عَضُد أمير المؤمنين» .

وصورتها علىٰ ما رأيتُه فى بعض الدَّساتير عن نائب حَلَبَ : «المَقَرّ الكريمُ، العالِى، المَوْلَوِىّ، الأميرِىّ، الكَبِيرِىّ، العالمىّ، العادِلىّ، المؤيِّدىّ، الذُّخْرِىّ، المُشَيِّدىّ، الزَّعيمىّ، الظَّهِيرىّ، الفلانىّ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين، سيدُ الأمراء فى العالمين، ناصِرُ الغُزَاة والمجاهدين، زَعِيمُ الجيوش، مقدَّمُ العساكر، عَوْن الأمة، ظَهِير الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثالثة — مَرْتبةُ المَقرّ العالى . وقد ذكر فى "عرف التعريف" أن ألقابها من نسبة ما تقدّم فى المَقَرّ الشريف . وذكر الصَّلاح الصَّفَدىّ فى دُسْتوره عن نائب الشام فى ألقابه ما تقدّم له فى ألقاب المَقَرّ الكريم ثم قال : إلا أنه لا يقال فيه الذُّخْرِىّ .

وصورتها علىٰ ما رأيته فى توقيع نَقِيب الأشراف بحَلَب عن النائب بها : «المَقَرّ العالى، الأميرِىّ، الكَبِيرِىّ، النَّقِيبىّ، الشَّرِيفىّ، الحَسِيبِىّ، النَّسِيبىّ، العَرِيقىّ، الأَصِيلىّ، الفاضِلىّ، العَلَّامىّ، الحُجِّىّ، القُدْوِىّ، الناسِكىّ، الزاهِدىّ، العابِدىّ، الفلانىّ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين، جلالُ العلماء العاملين، جَمَالُ الفُضَلاء البارعين، حُجَّة الأمراء الحاكمين، زَيْنُ العِتْرة الطاهرة، شرفُ الأُسْرة الزاهرة، حُجَّة العِصَابة

الهاشمية، قُدوة الطائفة العَلَوِيّة، نُخْبةُ الفِرْقة الناجية الحُسَيْنية، شرفُ أولِى المراتب، نقيب أُولى المَنَاقب، مَلاذُ الطُّلّاب الراغبين، بَرَكةُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الثانيـــــة

(درجة الجَنَاب، وفيها ثلاث مراتب)

المرتبة الأولىٰ — مَرْتبةُ الجَنَاب الشريف . وليست مستعملةً فى السلطانيات، وهى مستعملة فيما يُكْتَب عن النُّوّاب .

وصورتها علىٰ ما أورده فى " عرف التعريف " : « الجَنَاب الشريف العالِى، المَوْلَوِىّ ، المجاهِـدِىّ ، المؤيَّدِىّ ، المَمَهَّدِىّ، الذُّخْرِىّ ، الأَوْحَدِىّ، العَوْنِىّ، الظَّهِيرِىّ، الفلانى؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين، سيدُ الأمراء المقدَّمين، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين ، عِمادُ الملة ، عونُ الأمة ، ذخر المِلَّة ، ظَهِير الملوك والسلاطين، سيفُ أمير المؤمنين» .

المرتبة الثانيةُ — مرتبـــة الجَنَاب الكريم . وهى مستعملةٌ فى السُّـلْطانيات وما يُكْتَب عن النُّوّاب .

فأما فى السلطانيات فصورتهـا علىٰ ما أورده فى " التعريف " فى ألقاب النائب الكافل فى الزَّمن المتقدّم : «الجَنَاب الكريم العالى، الأَميرىّ ، الأجلِّىّ، الكَبِيرىّ ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيَّدِىّ، المَمَهَّدِىّ، المشيِّدِىّ، الزَّعِيمىّ، الذُّخْرِىّ، المقدَّمىّ، العَوْنِىّ، الغِيَاثِىّ، المرابِطىّ، المُثَـاغِرِىّ، المظَفَّرى ، المنصورىّ، الأَتَابَكِىّ؛ رُكْن الإسلام والمسلمين ، سيد الأمراء فى العالمين ، أتابك الجُيُوش، مقدَّم العساكر، زعيم الجُنود، عاقد البُنود، ذُخر الموحِّدين، ناصرُ الغُزاة والمجاهدين، غِياثُ الأمَّة،

عون الملة ، مشَـيِّد الدُّوَل ، كافلُ الممـالك ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، عَضُد أمير المؤمنين » .

وصورتُها على ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب النائب الكافل ايضا على ما كان الحال عليه أوّلا : «الجَنَاب الكريم العالى،الأَميرىّ، الكبيرى ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيّدىّ، الزَّعيمىّ، العَوْنىّ، الغيـاثىّ ، المُثَاغرىّ ، المُرَابِطىّ، المَمَهّـدىّ، المشَيَّدىّ، الظَّهيرىّ، الكافِلىّ، الفلانىّ؛ مؤيِّد الإسلام والمسلمين ، سـيدُ أمراءِ العالمين، ناصر الغُزَاة والمجاهدين ، زعيمُ جُيوش الموحِّدين ، مقدِّم العساكر، ممهِّـد الدول ، مشَـيِّد الممالك، عِمـادُ الملة ، عون الأَمَّة، كافل السـلطنة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين، عَضُد أمير المؤمنين » .

وصورتها على ماأورده فى "التعريف" فى ألقاب نائب الشام على ما كان الحال عليه أوّلا : «الجَنَاب الكريم العـالى، الأميرىّ، الأجلّىّ، الكَبيرىّ،العالمىّ،العادِلىّ، المؤيِّدىّ،المَمَهّدىّ، المشَيِّدىّ، العَوْنىّ، الغِيَاثىّ، الذُّخرىّ، الزَّعيمىّ، المقدَّمىّ، الظَّهيرىّ، الكافِلىّ، الفلانىّ؛ عِزّ الإسلام والمسلمين، سـيد الأمراء فى العالمين، نُصرةُ الغُزَاة والمجاهدين ، زعيمُ الجُيُوش، مقدِّم العساكر، عونُ الأمة،غياثُ المِلّة، ممهِّد الدول، مشيِّد الممالك، ظهيرُ الملوك والسلاطين، عضُدُ أمير المؤمنين» .

وصورتها على ما أورده فى "التثقيف" فى المكاتبـة لنائب الشام على ما كان عليه الحال أيضا : « الجَنَاب الكريم العالى، الأميرِىّ،الكَبيرىّ ، العالمىّ، العـادلىّ، المؤيِّدىّ ، الزَّعيمىّ ، العَوْنىّ ، الغياثىّ ، المُثَاغِرىّ ، المرابطىّ ، الممهِّـدىّ ، المُشَيَّدىّ، الظَّهيرىّ، الكافِلىّ، الفلانىّ؛ عزّ الاسـلام والمسلمين،سيد الأمراء فى العالمين، نُصْرة الغُزَاة والمجـاهدين ، زعيمُ جيوش المَوَحِّدين ، مقـدِّم العَسَاكر،

[ممهِّد الدول ، مشيِّد الممالك ، عمادُ الملة ، عَونُ الأمة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، سَيْفُ أمير المؤمنين» .

وصورتها على ما اورده فى "التثقيف" فى المكاتبة إلى أحد الأمراء الألُوس بمملكة إيران فى دولة السلطان أبى سَعيد : «الجَناب الكَريم العالى، الأميرىّ، الكَبيرىّ، العالمِىّ، العادلىّ، المؤيِّدى، الزَّعيمىّ ، العَوْنىّ، الغِيَاثىّ، المُثَاغِرىّ ، المُرَابِطىّ ، المُمَهِّدىّ ، المُشَيِّدىّ، النُّوَيْنِىّ، الفُلانىّ؛ عَوْنُ الإسلام والمسلمين، سيدُ الأمراء فى العالمين، ناصرُ الغُزاة والمجاهدين، زعيمُ جيوش الموحِّدين، ممهِّد الدُّوَل، عمادُ المِلَّة، عونُ الأمة، كافِى الدولة القانيَّة، كافل المَمْلكة الشرقية، أميرالتَّوامين، أمير الألُوس، ظهيرُ الملوك والسلاطين، عَضُد أمير المؤمنين » .

وصورتُها على ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب آبن المظَفَّر اليزدى : «الجَنَاب الكريمُ العالى ، الأميرىّ ، الكَبيرىّ ، العالمِىّ ، العادلىّ ، المؤيِّدىّ، العَوْنىّ ، الزَّعِيمىّ، المُمَهِّدىّ ، المشَيِّدىّ، الظَّهيرىّ، الغِيَاثىّ، المُثَاغِرىّ، المرابِطىّ ، النُّوَيْنىّ، الفلانىّ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الأمراء فى العالمين، ناصرُ الغُزاة والمجاهدين، زعيمُ جيوش الموحِّدين، مقدَّم العساكر، ممهِّد الدول، مشيِّد الممالك، عمادُ المِلَّة ، عونُ الأمّة، حاكمُ أمور وُلاةِ الزمان، موَضِّح قوانينِ العَدْل والإحسان، اعتضادُ صَناديدِ الأَوَان، مستَنِيب ملوكِ العَجَم، مستخْدِم أرباب الطَّبْل والعَلَم ، ظهيرُ الملوك والسلاطين، سيفُ أمير المؤمنين» .

✦✦✦

وأمّا فيما يُكْتَب عن النوّاب وما كان يكتب به فى الإخْوانيات فى الزمن المتقدّم، فقد ذكر فى "عرف التعريف" أن ألقابه من نِسْبة ما تقدّم فى ألقاب الجناب الشريف .

وصورتها على ما أورده القاضي شهابُ الدين الفارقيّ في دُسْتوره عن نائب الشام : « الجَنابُ الكريم العالي ، المَوْلويّ ، الأميريّ ، الكبيريّ ، العـالميّ ، العادليّ ، العَضُديّ ، النّصيريّ ، المؤيِّديّ ، المقدّميّ ، الذُّخْريّ ، الفلانيّ ؛ مَجْدُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء في العالمين ، نُصرةُ الغُزَاة والمجاهدين ، ظهيرُ الملوك والسلاطين » .

وصورتها على ما أورده الصّلاح الصفديّ في دُسْتوره عن نائب الشام : « الجَنابُ الكريم العـالي ، المَوْلَويّ ، الأمـيريّ ، العالميّ ، العـادليّ ، العَوْنيّ ، الغِيـاثيّ ، الظّهيريّ ، المُقَدّميّ ، الفلانيّ ؛ عزُّ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء في العالمين ، ناصِرُ الغُزاة والمجاهِدين ، ظهيرُ الملوك والسلاطين » .

المرتبة الثالثة — مرتبة الجَناب العالي ، وهي مستعملة في السلطانيات وما يكتب عن النوّاب وما كان في الإخوانيّات قديما .

فأمّا في السلطانيات فلها رتبتان :

الرتبة الأولى — مع الدعاء بمضاعَفة النعمة .

وصورتها على ما أورده في " التعريف " في ألقاب نائبِ حلبَ على ما كان الحال عليـه أوّلا : « الجَنابُ العالي ، الأميريّ ، الأجَلّيّ ، الكبيريّ ، العالميّ ، العادليّ ، المهّديّ ، المشَيّديّ ، العَوْنيّ ، الذُّخْريّ ، الزّعيميّ ، المقدّميّ ، الظّهيريّ ، المُرابِطيّ ، المُثاغِريّ ، الفلانيّ ؛ عزُّ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الأمراء في العالمين ، نَصِير الغُزاة والمجاهدين ، زعيمُ جيوش الموحّدين ، عمـادُ الأمة ، ذُخْر الدولة ، ظهـيرُ الملوك والسلاطين ، سيفُ أمير المؤمنين » .

وصورتهـا على ما أورده في " التثقيف " في ألقاب نائب طَرَابُلُس ومَنْ في رُتْبته : « الجناب العـالي ، الأميريّ ، الكبيريّ ، العالميّ ، العادليّ ، المؤيّديّ ، العَوْنيّ ،

الزَّعيمىّ، المَهِّدى ، المشَيِّدىّ ، الظَّهيرىّ، الكافِلىّ ، الفُلانىّ؛ عِزّ الإسلام والمسلمين، سيدُ أمراء العالمين، نُصرةُ الغُزاة والمجاهدين ، زعيمُ جيوش المُوَحِّدين مقدِّم العساكر، ممهِّد الدُّوَل، مشَيِّد الممالك، عمادُ المِلّة، عونُ الأمة، ظهيرُ الملوك والسلاطين، سيفُ أمير المؤمنين» .

وصورتها علىٰ ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب قطلوبغا إيناق أحد أمراء الألُوس بلاد أزْبك : «الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيِّدىّ، العَوْنىّ، الزعيمىّ، المهِّدىّ، المشَيِّدىّ، الظهيرىّ، النُّوَيْنِىّ، الفلانىّ؛ عزّ الإسلام والمسلمين، سيد الأمراء فى العالمين، نُصرةُ الغُزَاة والمجاهدين، زعيمُ الجيوش، مقدِّم العساكر، كَهْفُ المِلّة، ذُخْر الدَّوْلة، ظهيرُ الملوك والسلاطين، سيفُ أمير المؤمنين» .

الرتبة الثانية — مع الدعاء بدوام النعمة .

وصورتها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب مقدِّم العسكر بغَزَّة ومَنْ فى رتبته : «الجنابُ العالى، الأميرىّ، الكَبِيرىّ ، العالِمىّ، العادلىّ، المؤيِّدى ، الأوْحَدىّ ، النِّصيرىّ ، العَوْنىّ، الهُمَامىّ ، المقَدَّمىّ ، الظَّهيرىّ ، الفلانىّ ؛ عِزّ الإسلام والمسلمين، سيدُ الأمراء فى العالمين ، نُصرةُ الغُزاة والمجاهدين ، مقدَّم العساكر ، كهفُ المِلّة ، ذُخْر الدَّوْلة، عمادُ المملكة، ظهيرُ الملوك والسلاطين، حُسامُ أمير المؤمنين » .

وصورتها علىٰ ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب مماى : أحد الحُكّام ببلاد أزبك كان : «الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، المُجَاهدىّ، المؤيِّدىّ، الذُّخْرىّ، النِّصيرىّ، الهُمَامىّ، المقدَّمىّ ، النُّوَيْنىّ، الفلانىّ؛ عِزّ الإسلام والمسلمين ، سيد الأمراء فى العالمين، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين، مقدَّم العساكر ، ذُخْر الدولة ، عَضُد الملوك والسلاطين، حُسَام أمير المؤمنين» .

*
* *

وأمّا ما يكتب عن النوّاب وما كان يكتب فى الإخوانيات قديمـا، فقـد ذكر فى "عرف التعريف" أن ألقابه من نِسْبة ماتقدّم فى ألقاب الجَنَاب الشريف .

وصورتها علىٰ ما أورده الصَّــلاح الصفَدِىُّ فى دُسْتوره عن نائب الشام فى الرتبة الأولىٰ منها: «الجنابُ العالى، الأميرىّ، الأجلىّ، الكبيرىّ، المؤيِّدىّ، المجاهِدىّ، العَوْنىّ، المقدَّمىّ، الاسفَهْسَلَارىّ، الظَّهِيرىّ، الفلانىّ؛ مَجْد الإسلام والمسلمين، شرفُ الأمراء المقدَّمين، نُصرة الغُزاة والمجاهدين، عَضُد الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ماأورده فى "التذْكِرة الآمِديَّة" عن نائب الشام أيضا فى الرتبة الثانية من هذه المرتبة : «الجنابُ العالى ، الأميرىّ، الكبيرىّ، العَضُدىّ، الذُّخْرىّ، النَّصِيرىّ ، المؤيِّدىّ ، المقَدَّمىّ ، الظَّهِيرىّ، الفُلانِىّ ؛ مجد الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء فى العالمين ، نُصرةُ الغُزاة والمجاهدين ، ظهيرُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الثالثـــة

(درجة المجلس وفيهـا ثلاث مراتب)

المرتبـــة الأولىٰ

(مرتبـــة المجلس العـالى)

وهى مستعملة فى الســلطانيات وما يكتب عن النوّاب وما كان يكتب فى الإخوانيات قديمـا .

فأما فى السلطانيات فلها رتبتان :

الرتبة الأولىٰ — مع الدعاء للمجلس .

وصورتُها علىٰ ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب نائب الكَرَك : «المجلسُ العالى، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، المجاهدىّ ، المؤيِّدىّ، المقدّمىّ ، الأوحدىّ ، النّصيرى ، الهُمَامىّ ، الظّهيرىّ ، الفلانىّ ؛ عِزّ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء فى العالمين، نُصرةُ الغُزاة والمجاهدين ، مقدَّمُ العساكر ، كَهْفُ المِلّة ، ذُخْر الدولة، ظهيرُ الملوك والسلاطين، حُسامُ أمير المؤمنين » .

وصورتُها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" أيضا فى ألقاب وزير القانِ ببلاد أُزْبك : «المجلس العالى الأميرىّ، الكبيرىّ، الذُّخرِىّ، الأَوْحَدىّ ، الاكْمَلىّ، المتصَرِّفىّ ، العَوْنىّ ، الوَزيرىّ، الفُلانى، مجدُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء والوزراء فى العالمين ، جَمَالُ المتصرِّفين ، أوحدُ الأولياء المقرَّبين ، ذُخْرالدولة ، مُشيرالملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ما أورده فى " التثقيف " أيضا فى ألقاب حافظ أخى على باشاه : « المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، المجاهدىّ، المؤيِّدىّ، الأوحدىّ، النّصيرى ، العَوْنىّ، الهُمَامىّ،المقدَّمىّ، الظَّهيرىّ، النُّوِيْنِيّ، الفلانى؛ عِزّالإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء فى العالمين ، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين، زعيمُ الجُيُوش، مقدَّم العساكر، كهفُ المِلّة ، عِمادُ الأُمّة، ظَهِير المُلُوك والسلاطين ، حُسام أمير المؤمنين » .

وصورتها علىٰ ما أورده فى " التثقيف " فى ألقاب أمير مكة المشرفة : « المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ ، الشَّريفىّ، الحَسِيبىّ، النَّسِيبىّ، العالمىّ ، المجاهِدىّ،

المُقَدَّمى ، الأوحَدِىّ ، النَّصِيرِىّ ، العَوْنِىّ ، الهُمَامِىّ ، الظَّهِيرِىّ ، الأَصِـيلِىّ ، العَرِيقِىّ، الشَّهَابِىّ؛ عِزّ الإسلام والمسلمين ، شَرَفُ الأمراء الأشراف فى العالمين ، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين، كهفُ المِلّة ، عَوْنُ الأُمّة ، فخرُ السُّلالة الزاهره ، زينُ العِتْرة الطاهره ، بَهَاء العِصَابة العَلَوِيّه ، جَمَالُ الطائفة الهـاشميه ، ظهِير الملوك والسلاطين ، نَسِيبُ أمير المؤمنين» .

وصورتهـا علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب أمير آل فَضْل من عرب الشام : « المجلس العـالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، المجاهدىّ ، المؤيِّدىّ ، الأوحدىّ ، النَّصيرىّ ، العَوْنِىّ ، الهُمَامىّ ، المقدَّمىّ ، الظهيرىّ ، الأَصِيلىّ ، الفلانى ؛ عِزّ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء العُرْبان فى العالمين ، نُصرة الغزاة والمجاهدين ، مقدَّم العساكر ، كهفُ المِلّة ، ذُخْر الدولة ، عمادُ العَرب ، ظهير الملوك والسلاطين ، حُسَام أمير المؤمنين» .

الرتبة الثانية — المجلس العالى مع صدَرَتْ .

وصورتها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب نائب الرَّحْبـة ومَنْ فى رُتْبته : «المجلس العالى ، الأميرىّ ، الكَبِيرىّ ، العَضُدىّ ، الذُّخْرىّ ، النَّصِيرىّ ، الأوحدىّ ، المؤيِّدىّ ، العَوْنِىّ ، الهُمامىّ ، المُقَدَّمىّ ، الظَّهِيرىّ ، الفلانى ؛ مجدُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء المقدَّمين ، نُصرة الغُزاة والمجاهـدين ، مقدَّمُ العساكر ، ذُخْر الدولة ، كَهف المِلّة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين» .

* * *

وأما فيما يكتب عن النُّوّاب وما كان يُكْتَب فى الإخوانيّات أوّلا ، فصورتُها علىٰ ما أورده فى "عَرْف التعريف" : «المجلسُ العالى ، الأميرىّ ، الاسفَهْسلارى ،

الأجلِّ ، الكبيرى ، المجاهدى ، المؤيِّدى ، النِّصيرى ، الظَّهيرى ، الفلانى ؛ مجدُ الإسلام والمسلمين ، زينُ الأمراء المقدَّمين ، نُصرة الغزاة والمجاهدين ، عَضُد الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ما أورده الصلاحُ الصَّفَدى فى دُسْتُوره عن نائب الشام "المجلس العالى، الأميرى ، الأجلِّ ، الكبيرى، المؤيِّدى، المجاهدى ، الاسفَهْسلارى ، العَوْنى ، الظَّهيرى ، الفلانى ، مجدُ الإسلام والمسلمين، شرفُ الأمراء المقدَّمين نُصْرة الغُزاة والمجاهدين، عَضُد الملوك والسلاطين .

وصورتها علىٰ ماأورده فى "التذكرة الآمديَّة" عن نائب الشام : «المجلس العالى، الأميرى ، الكَبيرى، العضُدى ، النِّصيرى، المؤيِّدى ، المجاهدى ، الذُّخْرى ؛ مجدُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء المقدَّمين ، ذُخْر الغُزاة والمجاهدين ، عَضُد الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثانية
(مرتبة المجلس السامى بالياء)

وهو مستعمل فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات ، فصورتُها علىٰ ماذكره المقَرُّ الشِّهابى بن فضل الله فى بعض دساتيره فى توقيع نَقيب الأشراف : « المجلس السامى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالِمى ، المجاهدى ، المؤيِّدى، الشريفى، الحَسيبى ، النَّسيبى ، الذُّخْرى ، النَّصيرى ، الأوْحدى ، الأَصيلى ؛ عزُّ الإسلام، زينُ الأنام ، نَسيب الإمام ، شرفُ الأمراء، نقيبُ النُّقَباء، جمَالُ العِترة الطاهره، جلالُ الأُسْرة الزاهره، ذُخْر الغُزاة والمجاهدين، ظهيرُ الملوك والسلاطين، ولىّ أمير المؤمنين» .

وصورتهـا علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقـاب الكُشّاف بالوجهين القبلى والبحرى بالديار المصرية : «المجلس السامىّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، الذُّخرىّ ، النّصيرىّ ، الأوحدىّ ، المؤيّدىّ ، الفلانى ؛ مجدُ الإسلام ، بهَـاء الأنام ، شرفُ الأمراء ، أوحدُ المجاهدين ، عضُد الملوك والسلاطين» .

وصورتهـا علىٰ ما رأيته فى بعض المراسيم لأمير آل مرا من عَرَب الشام : « المجلس السامىّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، المجاهـدىّ ، المؤيّدىّ ، العَضُـدىّ ، الذُّخرىّ ، النّصـيرىّ ، الأوحدىّ ، الأَصيلىّ ، العَريقىّ ؛ مجد الإسلام ، بهَـاء الأنام ، شرفُ الأمراء ، زينُ القبائل ، فخر العَشَائر ، مَلَاذُ العرب ، عَضُـد الملوك والسلاطين » .

وصورتهـا علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب وزير الشيخ أويس ببغداد : « المجلس السـامِىّ ، الأجَلّىّ ، الكبيرىّ ، الأوحـدىّ ، المقـدّمى ، المنتخَبِىّ ، الفلانى ؛ مجدُ الإسلام ، بَهاءُ الأنام ، شرفُ الرؤساء ، أوحد الأعيان ، صَفْوة الملوك والسلاطين » .

وصورتها فى ألقـاب أمراء العرب : «المجلس السامىّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، الذُّخرىّ ، المؤيّدىّ ، الفـلانىّ ؛ مجدُ الإسـلام ، بهَـاء الأنام ، زينُ القبـائل ، فَخْر العشائر ، عِمادُ الملوك والسلاطين » .

*
* *

وأما فيما يُكتَب عن النُّوّاب ونحوهم ، فصورتها علىٰ ماأورده فى "عُرْف التعريف" : «المجلس السامِىّ ، الأميرىّ ، الأجَلّىّ ، الكبيرىّ ، المؤيّدىّ ، العَضُدىّ ، النّصيرىّ ،

الأوحدىّ، الهُمَامىّ ، الفلانىّ؛ مَجْد الإسلام ، زينُ الامراء فى الانام، ذُخر الغُزاة والمجاهدين، عَضُد الملوك والسلاطين» .

وصورتُها علىٰ ما أورده شِهابُ الدين الفارقىّ فى دُسْتُوره عن نائب الشام :
«المجلس السامىّ، الأميرىّ، الأجلّىّ، الكبيرىّ، العَضُدىّ، النّصيرىّ، المؤيِّدىّ، الفلانى؛ مجدُ الإسلام ، جَمالُ الأمراء، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين ، عَضُد الملوك والسلاطين » .

وصورتها علىٰ ماأورده الصَّلاحُ الصَّفَدىّ فى دُسْتوره عن نائب الشام أيضا :
«المجلس السامىّ، الأميرىّ، الأجلّىّ، الكبيرىّ، المؤيّدىّ، المجاهدىّ، العَضُدىّ، النّصيرىّ ، الهُمَامىّ ، الفلانى ؛ مجدُ الإسلام ، شرفُ الأمراء ، نُصْرة الغُزَاة، عمدةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثالثة

(مرتبةُ المجلس السامِى بغير ياء)

وهى مستعْمَلة فى السلطانِيّات وغيرها .

فأما فى السُّلْطانيات ، فصورتها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب الوُلَاة الطَّبْلخاناه بالوجهين القِبْلىّ والبحرىّ : المجلسُ السامِى ، الأميرُ، الاجلُّ ، الكبيرُ، الغازى ، المجاهدُ ، المؤيّدُ، الأوحدُ، المرتَضَى ؛ فلان الدين ، مجدُ الإسلامْ، بهاءُ الأنام ، فخرُ الأمراء، زينُ المجاهدين، عمدةُ الملوك والسلاطين » .

وصورتها علىٰ ما رأيته فى بعض نُسخ التّواقيع : ترتيب الشيخ شِهَاب الدين محمود الحلبى : « المجلسُ السامِى، الأميرُ، الأجلّ، الكبيرُ، الحَسِيب، النَّسِيب،

الطاهرُ ، الكاملُ، العالم، العامل ، الفاضـلُ، الزاهـدُ ، الوَرِع، الزَّكِيّ، التقِيّ؛ فلان الدين ، جلالُ الإسـلام ، شرفُ السادةِ الأشراف ، فخرُ العِـتْرة الطاهره، زينُ السُّلالة الزاهره، نقيبُ نُقَباءِ الشُّرفاء، مجدُ العَصَبة العَلَوِيَّة، جَمَال العَصَبة الفاطميَّة؛ صدرُ الأئمة العلماء، مجتَبَىٰ الدولة، بهاء المِلَّة، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

وصورتُهـا علىٰ مافى ألقاب النائب بالينْبُع : «المجلسُ السامى، الأميرُ، الأجلُّ، المجاهد ، المؤيِّد، الشريفُ، الحَسِيبُ ، النَّسِيب؛ مجدُ الإسـلام ، بَهَـاء الأَنَام ، زينُ العِتْره، فخرُ الأُسْره، جمال الذُّرِّيه، فخر الشجرة الزَّكِيَّه، عمدةُ الملوك والسلاطين» .

وصورتهـا علىٰ ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب أكابر عُرْبان آل فَضْـل من عرب الشام: «المجلسُ السامى، الأميرُ، الأجلُّ، الكبيرُ، الغازى، المجاهدُ، المؤيِّد، الأوحدُ ، الأَصِيل؛ فلان الديـن ، مجدُ الإسلام ، بَهَـاء الأنام، فَخْر القبائل ، زَيْن العشائر، عمادُ الملوك والسلاطين» .

✣

وأما فيما يكتب عن النُّـوّاب ومَنْ فى معنـاهم ، فصورتهـا علىٰ ما أورده فى "عرف التعريف" : «المجلس السامى، الأميرُ، الأجلُّ ، الكبـيرُ، الغازى، المجاهدُ، المؤيِّد؛ فلان الدين، مجدُ الإسلام، زينُ الأمراء، فخرُ الأنام، ذُخْر الغُزاة والمجاهدين، عَضُد الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ماأورده فى "التذكرة الآمِدِيَّة" عن نائب الشام: «المجلسُ السامى، الأميرُ، الأجلُّ، الكبير، المؤيِّد، المجاهد، العَضُد، النَّصِير؛ فلان الدين، مجدُ الأمراء، شرفُ الخواصّ؛ زين الغُزَاة، عُدّة الملوك والسلاطين» .

الدرجة الرابعـــة
(درجـــةُ مَجْلِس الأمـــير)

وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها علىٰ مَرْتَبة واحدة .

فأما فى الســلطانيات ، فصورتُها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقــاب الوُلَاة العشرات بالوجهين القبلىّ والبحرىّ : « مجلس الأميرِ ، الأجلّ ، الكبيرِ ، الغازى ، المجاهد ، المؤيّد ، الأوحد ، المُرْتضىٰ ؛ فلان الدين ، مجدِ الأمراء ، زين المجاهدين ، عُدّة الملوك والسلاطين » .



وأما فيما يُكْتَبُ عن النُّـــوّاب ومَنْ فى معنــاهم ، فصــورتُها علىٰ ما أورده فى "عرف التعريف" : « مجلسُ الأميرِ ، الأجلّ ، الكبيرِ ، الغازى ، المجاهد ، المرتضىٰ ؛ فلان الدين ، فَخْر الأمراء ، زين المجاهدين ، عُمْدة الملوك والسلاطين » .

وصورتها علىٰ ما أورده الفارقىّ فى دُسْتوره عن نائب الشام : « مجلسُ الأمير ، الأجلّ ، الكبير ، الأخصّ ، الأكمل ، الغازى ، المجاهد ، المُرْتضىٰ ، المختار ؛ فلان الدين ، مجدِ الأمراء ، زين الغُزاة ، عُدّة الملوك والسلاطين » .

وصورتها علىٰ ماأورده فى "التذكرة الآمِدِيّة" : « مجلس الاميرِ ، الأجلّ ، الكبيرِ ، المؤيّد ، المجاهد ، الأعزّ ، الأخصّ ، الأكمل ، المجتبىٰ ، المختار ؛ فلان الدين ، مجد الأمراء ، زين الغزاة ، عُدّة الملوك والسلاطين » .

الدرجة الخامســـة

(درجة الأمـــير مجرّدا عن مضاف إليـــه)

وأكثر ما يأتى ذلك فى الولايات أو فيمن يُكْتَب بسببه كتابٌ وما أشبه ذلك .

وصورتها فى الســلطانيات : « الأميرُ الأجلُّ » وربمـا زِيد علىٰ ذلك فقيل : « الكبيرُ الغازى » .

وصورتها فى غير السُّلْطانيات علىٰ ما أورده فى "التذكرة الآمِدِيّة" : « الأميرُ، الأجلُّ، الأخصُّ، الأكملُ» .

النـــوع الثـانى

(من الألقاب الإسلامية الألقابُ الدِّيوانية . وهى أيضا علىٰ خمس درجات)

الدرجـــــــةُ الأولىٰ

(درجـــة المَقَرّ)

وليست مستعملةً فى السلطانيات جمـلةً لأنه لايُكْتَب لأحدٍ من هــذا النوع عن السلطان بالمَقَرّ، وهى مســتعملةٌ فيما يكتب عن النُّوّاب ومَنْ فى معناهم، ولهـا ثلاث مراتب :

المرتبـــة الأولىٰ — مَرْتَبَـــة المَقَرّ الشريف . وصــورتهـا علىٰ ما أورده فى "عرف التعريف" فى ألقاب الوُزَراء من أرباب الأقلام، : «المَقَرّ الشريف، العالى، المَوْلَوِىّ، الصاحِبىّ، الوَزيرىّ، المنفِّذىّ، العالِمىّ، المهدِّىّ، المشيِّدىّ،

العَوْنِىّ، الغِيَاثِىّ، المَالِكِىّ، المخْدُومِىّ، الفلانى ؛ صَلاحُ الإسلام والمسلمين، سيِّدُ الوزراء فى العالَمِين، رئِيسُ الأصحاب، قِوَامُ الأئمة، نِظامُ المِلَّة، مدبِّرُ الدولة، ذُخْرُ الممالك، ظَهِيرُ الملوك والسلاطين، وَلِىّ أمير المؤمنين» .

وصورتها على ما أورده فى "عرف التعريف" أيضا فى ألقاب غير الوزراء من الكُتَّاب : «المَقَرّ الشريف، العالى، المَوْلَوِىّ، القَضَائِىّ، السَّيِّدِىّ، العالِمِىّ، العادلِىّ، المهِّدِىّ، المشيِّدِىّ، العَوْنِىّ، الغِيَاثِىّ، المالِكِىّ، المخْدُومِىّ، الفلانى ؛ صلاحُ الإسلام والمسلمين، سيدُ الرؤساء فى العالمين، رئِيسُ الأصحاب، قِوَام الأُمَّة، نِظَام المِلَّة، زينُ الدولة، ذُخْر الممالك، ظَهِير الملوك والسلاطين، ولِىّ أمير المؤمنين » .

وصورتها على ما رأيته فى بعض الدساتير عن نائب الشام فى ألقاب بعض كُتَّاب السِّرّ العلماء : «المَقَرّ الشريف، العالى، المَوْلَوِىّ، القاضَوِىّ، الكَبِيرِىّ، العالِمِىّ، العامِلِىّ، العَلَّامِىّ، الأكْمَلِىّ، الأفضَلِىّ، المُفِيدِىّ، الفَرِيدِىّ، القُدْوِىّ، المحقِّقِىّ، المُسَلِّكِىّ، الأَصِيلِىّ، العَرِيقِىّ، المدَبِّرِىّ، المُشِيرِى، اليَمِينِىّ، السَّفِيرِىّ، المالِكِىّ، المخْدُومِىّ، الشَّيْخِىّ، العَلَّامِىّ ؛ ضِياءُ الإسلام والمسلمين، سيدُ العلماء والرؤساء والمشايخ فى العالَمِين، رئِيسُ الأصحاب، فخر الكُتَّاب، حسنَةُ الأيَّام، بقيةُ السَّلَف الكرام، صَدْرُ مِصْرَ والشام، لسانُ السلطنة، سَفِير المملكة، شيخُ شُيوخ العارفين، جامع طُرُق الواصِفِين، صَدْر المُدَرِّسِين، مشيرُ الملوك والسلاطين، وَلِىّ أمير المؤمنين » .

المرتبة الثانية — مَرْتَبة المَقَرّ الكريم . قال فى "عرف التعريف" : والألقابُ فيها من نِسْبة ماتقدّم فى ألقاب المَقَرّ الشريف .

وصورتُها على ما أورده الصَّـلاحُ الصَّفَدىّ فى دُسْتوره عن نائب الشام : «المَقَرّ الكريم، العالى، المَوْلوِىّ، القَضَائى، العالِمِىّ، القَوَامىّ، النِّظامىّ، المُدَبِّرىّ، المُشيرىّ، المَلاذِىّ، الفلانىّ؛ جلالُ الإسلام والمسلمين، سيِّدُ الأكابر فى العالمين، عونُ الأمّة، ذُخْر المِــلّة، مدبِّر الدُّوَل، جَمَـال الممالك، حسنَةُ الوجود، خالِصــةُ الملوكِ والسلاطين» .

المرتبة الثالثة — مَرْتبةُ المَقَرّ العالى . وقد جعلها فى "عرف التعريف" من نسبة ماتقدّم من ألقاب المقرّ الشريف أيضا .

وصورتهــا على ما رأيته فى بعض الدَّساتير عن نائب الشام فيما كُتِب به للقاضى شرف الدين عبــد الوَهَّاب بن أبى الطيب كاتب السرّ بالشام : «المَقَرّ العــالى، المَوْلوِى، القَضَائِىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضِلىّ، الكامِلىّ، البارِعىّ، الأوحدىّ، المــاجدِىّ، القَوَامِىّ، النِّظامِىّ، المُفَوَّهِىّ، الرئِيسِىّ، الأَثِيرىّ، الأثِيلىّ، الأصِيلىّ، العَرِيقىّ، الفلانى؛ عِزُّ الإسـلام والمسـلمين، شرفُ الرؤساء فى العالَمين، أوحدُ الفضلاءِ الماجدين، حُجَّة المُنْتشئِين، صدرُ الرؤساء، رأسُ الصدور، عينُ الأعيان، خالِصةُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الثانيـــــة

(درجة الجَناب، وفيها ثلاثُ مراتبَ)

المرتبة الأولى — مرتبةُ الجَنَاب الشريف . وهى مستعملةٌ[1] فى غير السلطان دون السُّـلْطانيات . قال فى "عرف التعريف" : وهى من نسبة الألقاب المتقـدّمة فى المَقَرّ الشريف .

---

(١) عبارة الضوء ج ١ ص ١٨٠ «وهى مختصة بما يكتب عن النوّاب دون السلطانيات» وهى أوضح .

المرتبة الثانية — مرتبةُ الجناب الكريم . وجعلها فى "عرف التعريف" من نسبة ماتقدّم فى المقرّ الشريف .

وصورتها علىٰ ماأورده الصّلاحُ الصّفَدِىّ فى دُستوره عن نائب الشام: «الجَنَاب الكريمُ العالى ،المَولوىّ ، القَضائِىّ ، العالِمِىّ ، الأوحدىّ ، الرئيسىّ ، الأجلّىّ ، الأثيرىّ ، البارعىّ ، الماجدىّ ، الفلانى ؛ مجدُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الرؤساء فى العالمين ، جمالُ الأكابر ، فخرُ الأعيان ، أوحَدُ الكُتّاب ، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

وصورتُها علىٰ مارأيتهُ فى بعض الدّساتير عن نائب الشام فى توقيع باسم شِهابِ الدين آبن أبى الطيب بِكتَابة الدَّست بالشام : « الجَنَاب الكريم ، العالى ، المولوىّ ، القَضَائىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العاملىّ ، البارعىّ ، الكاملِىّ ، الماجدىّ ، القَوَامىّ ، النِّظامِىّ ، الرّئيسىّ ، الأصيلىّ ، العرِيقِىّ ، الأوحدىّ ، الفلانى ؛ جلالُ الإسلام والمسلمين ، أوحدُ الرؤساء فى العالمين ، تاجُ الفضلاء المُنْتشئين ، جِهْبِذ الحُذّاق المتصرِّفين ، سُلالةُ الأتقياء العارفين ، خالصةُ الملوك والسلاطين » .

المرتبة الثالثة — مرتبة الجناب العالى ، وهى مستعملةٌ فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات ، فصورتُها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب الوزارة بالديار المصرية : « الجنابُ العالى ، الصاحِبِىّ ، الكبيرىّ ، العالِمِىّ ، العادلىّ ، الأوحدى ، الأكملىّ ، القَوَامىّ ، النِّظامىّ ، الأثيرىّ ، البليغىّ ، المنفِّذىّ ، المسَدَّدىّ ، المتصرِّفى ، الممهِّدىّ ، العَوْنِىّ ، المدبِّرىّ ، المُشيرىّ ، الوزيرىّ ، الفلانى ؛ صلاحُ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ الوزراء فى العالمين ، رئيسُ الكُبَراء ، كبير الرؤساء ، أوحَدُ الأصحاب ، مَلاذُ الكُتّاب ، قِوَام الدُّوَل ، نِظَامُ المُلْك ، مُفِيد

المَنَاجح، معتَمَدُ المَصَالح، مرتِّب الجُيوش، عِمادُ الملة، عونُ الأمة، مُشير الملوك والسلاطين ، وَلِىّ أمير المؤمنين » .

* * *

وأما فى غير السلطانيات، فصورتها علىٰ مارأيته فى بعض الدساتير عن نائب الشام فى ألقاب كاتبِ دَسْت بالشام : « الجنابُ العالى، القَضَائىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الأكملىّ، البارعىّ، الأوحدىّ، القَوَامىّ، النظامِىّ، المُفَوّهِىّ، الرئيسىّ ، المـاجِدِىّ ، الفلانى ؛ مجدُ الإسـلام والمسلميـن ، شرفُ الرؤساء فى العالمين ، أوحدُ الفضلاء المـاجِدين، قُدوةُ البلغاء ، جمال الكُتّاب، زين المنتشئين، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الثالثـــة

(درجة المجلس ، وفيها ثلاث مراتب)

المرتبة الأولىٰ — مرتبةُ المجلس العالى، وهى مستعملةٌ فى السلطانيات وغيرها .

فأمّا فى السلطانيات، فصورتُها علىٰ ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب كاتبِ السرّ بالأبواب السلطانية : « المجلسُ العالى ، القاضَوِىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، العلّامىّ، الأفضلِىّ، الأكمِلِىّ، البليغِىّ، المسدّدىّ، المنفِّذىّ، المشيِّدىّ، العونِىّ، المُشـيرِىّ، اليمينِىّ، السّفِيرِىّ، الأصِـيلىّ، العَرِيقِىّ، الفلانى؛ صـلاحُ الإسلام والمسلمين ، سـيدُ الرؤساء فى العالمين، قُدوةُ العلمـاء العامليـن ، جمـالُ البُلَغاء،

أوحد الفضلاء ، جلالُ الأصحاب ، كَهْفُ الكُتّاب ، يمينُ المملكة ، لسانُ السَّلْطنة ، سفيرُ الأمة ، سليلُ الأكابر ، مشيرُ الملوك والسلاطين ، وَلىّ أمير المؤمنين » .

وصورتها على ماأورده فى " التثقيف " فى ألقاب ناظر الخَوَاصّ الشريفة : « المجلسُ العالى ، القاضَوِىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، الفاضلىّ ، الأوحدىّ ، الأكملىّ ، الرئيسىّ ، البليغىّ ، البارعىّ ، القوَامىّ ، النِّظامىّ ، الماجدىّ ، الأميرىّ ، المنفِّذىّ ، المسدِّدىّ ، المتصرِّفىّ ، الفلانى ؛ جَمَالُ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الرؤساء فى العالمين ، قِوَام المَصَالح ، نِظامُ المَنَاجح ، جَلَالُ الأكابر ، قُدوة الكُتّاب ، رئيسُ الأصحاب ، عماد المِلّة ، صفوةُ الدولة ، خالصةُ الملوك والسلاطين ، ولىّ أمير المؤمنين » .

وصورتها على ما أورده فى ألقاب وزير دمشق إذا صُرِّح له بالوِزارة : « المجلسُ العالى ، الصاحبىّ ، الوزيرىّ ، الأَصِيلىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيِّدىّ ، الأوحدىّ ، القَوَامىّ ، النظامىّ ، الماجدىّ ، الأثيرىّ ، المُشيرىّ ، الفلانى ؛ صلاحُ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الوزراء فى العالمين ، رئيسُ الكُبَراء ، كَبير الرُّؤساء ، بقيّة الأصحاب ، مَلَاذ الكُتّاب ، عمادُ الملة ، خالصةُ الدولة ، مُشِير الملوك والسلاطين ، خالِصةُ أمير المؤمنين » .

وصورتها على ما أورده فى ألقابه إذا لم يُصَرَّح له بالوزارة ، بل كان ناظر النُّظّار بالمملكة الشامية : « المجلسُ العالى ، القَضَائِىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العامِلىّ ، الأوحدىّ ، الرئيسىّ ، الأثيرىّ ، القَوَامىّ ، النِّظامىّ ، المنفِّذىّ ، المتصرِّفىّ ، الفلانىّ ؛ مجدُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء فى العالمين ، أوحدُ الفضلاء ، جلالُ الكُبَراء ، حُجّة الكُتّاب ، صفوةُ الملوك والسلاطين ، خالصةُ أمير المؤمنين » .

⁂

وأما فى غير السلطانيات، فصورتها على ماأورده فى "التذكرة الآمديّة" فى بعض التواقيع من ترتيب المَقَرّ الشِّهابىّ بن فضــل الله بكتّابة الدَّسْت بالشام : « المجلس العالى ، القضائىّ ، الأجلّ ، الكبيرىّ ، الرئيسىّ ، العالمىّ ، العاملىّ ، البارعىّ ، الأوحدىّ ، المــاجدىّ ، الأثيرىّ ، الأثيلىّ ، الأفضلىّ ، الأصــيلىّ ، الفلانى ؛ مجدُ الإسلام ، بَهاءُ الأنام ، شرفُ الرؤساء ، أوحدُ الكبراء ، صــدرُ الأعيان ، جمالُ الكُتّاب، جلالُ الحُسّاب، صفوةُ الدولة، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثانية ــ مرتبةُ المجلس السامىّ بالياء ، وهى مســتعملة فى السلطانيات وغــيرها .

فأما فى السلطانيات فلم يذكر صورتَها فى "التثقيف" .

وصورتها على مارأيتُه فى بعض الدساتير : «المجلس السامىّ، القضائىّ، الأجلّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الكافلىّ، الرئيسىّ، الأوحدىّ، الأصيلىّ، الأثيرىّ، البليغىّ ، الفلانى ؛ مجدُ الإســلام، شرفُ الرؤساء، فخرُ الأنام، زينُ البلَغاء، جمالُ الفُضَلاء، أوحد الكُتّاب، فخر الحُسّاب، صفوةُ الملوك والسلاطين» .

⁂

وأما فى غير السلطانيات، فصورتهــا على مارأيته فى "التذكرة الآمديّة" فى توقيع بكتابة الدَّرْج عن نائب الشام : «المجلس السامىُّ، القضَائىّ، الأجلّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الكاملىّ، البليغىّ، الأصيلىّ، الرئيسىّ، الفلانىّ؛ مجد الإسلام، شرفُ الرؤساء، أوحدُ الكُتّاب، جمالُ البلغاء، مرتضى الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثــالثة ــ مرتبة المجلس السامى بغير ياء، وهى مستعملة فى السلطانيات وغــيرها .

فأما فى السلطانيات، فلم يذكر لهـا صورة فى "التثقيف" أيضا .

وصورتهـا علىٰ ما رأيته فى "التذكرة الآمِديّة" فى توقيع شريف بكتابة الدَّرْج : المجلسُ السامِى، القاضى، الأجلُّ، الكبيرُ، الصدرُ، الرئيس، الأوحَدُ، البـارعُ، الكاملُ، الأصيلُ، الفاضـلُ؛ فلان الدين، جمـالُ الإسلام، بهـاءُ الأنام، شرفُ الأكابر، زينُ الرؤساء، أوحدُ الفُضَـلاء، زَيْنُ الكُتّاب، صَـفْوة الملوك والسلاطين » .

وأما فى غير السلطانيات، فصورتها علىٰ مارأيته فى "التذكرة الآمِديّة" فى توقيع كريم عن نائب الشام بكتابة الدَّرْج بالشام، ترتيب مؤلِّف "التذْكِرة" المذكورة : «المجلس السامِى، القاضِى، الأجلّ، الكبيرُ الفاضلُ، البارعُ، الكاملُ، الأوحدُ، الرئيسُ، الأثيرُ؛ فلان الدين، مجدُ الإسـلام؛ شرفُ الصُّـدُور، أوحدُ الفضلاء، زينُ الكُتّاب، جمالُ الحُسّاب، صفوةُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الرابعـــة

(درجةُ مجلس القاضِى، وهى مستعملةٌ فى السلطانيّات وغيرها)

فأما فى السلطانيات، فلم يُورِد لها فى "التثقيف" أيضا صورةً .

وصورتها علىٰ ما يقتضيه عُرْف الدِّيوان : « مجلس القاضى ، الأجلّ ، الكبيرِ، الفاضِل، الأوحدِ، الأثيرِ، الرئيسِ ، البليغ، العَرِيق، الأصيلِ؛ فلان الدين، مَجْدِ الإسلام، بهاءِ الأنام، شرفِ الرؤساء » .

وأما فى غير السلطانيات ، فعلىٰ نحو ذلك .

الدرجة الخامســـــــــة

(درجةُ القاضى، وهى مستعملة فى السلطانيات [وغيرها][1])

وصورتها فيهما : « القـاضى الأجل » وربمـا زيد فى تعظيمه فقيل « الكبيرُ الصدرُ الرئيسُ » ونحو ذلك .

النـــــوع الثـالث

(من الألقاب الإسلامية ألقابُ أرباب الوظائف الدِّينية،
وهى علىٰ خمس درجات أيضا)

الدرجـــــة الأُولىٰ

(درجة المَقَــرّ)

وهى مختصّــة بغير السلطانيات، لأنه لا يُكْتَب لأحدٍ من أهل هـذا النوع عن السلطان بالمَقَرّ أيضا، بل قال فى "عرف التعريف" : إنه لا يُكتَب به لأحدٍ من هـذا النوع فى غير السلطانيات أيضا ولكنّى رأيتــه مستعملا فيما يكتب عن النُّوّاب بالممـالك . وهى علىٰ ثلاث مراتبَ :

المرتبة الأُولىٰ — مرتبة المَقَرّ الشريف .

وصورتها علىٰ ما رأيتــه فى بعض الدَّسَاتير فى توقيع عن نائب الشأم للقاضى جمالِ الدين إبراهيم بن العَدِيم ببعض الأنظار والتداريس بالشام : «المَقَرّ الشريف، العالى، المَوْلَوِىّ، القاضَوىّ، الكبيرِىّ، العالمىّ، العـادلىّ، الأَصيلىّ، العَرِيقىّ، القَوَامِىّ، النِّظامىّ، الإمامىّ، العَلَّامىّ، القُدْوىّ، المُفيدىّ، الشيْخىّ، الصاحبِىّ،

---

(١) من الضوء .

الحاكمى ، المُحْسِنى ، الفلانى ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الفضلاء العامِلِين ، قُدْوة العلماء فى العالَمِين ، لسانُ المتكلِّمين ، بُرْهان المناظِرين ، صَدْر المدرِّسين ، جَلَالُ الطالبين ، بقيَّة السلف الكرام الدَّارجين ، بركةُ الملوك والسلاطين ، خالصةُ أمير المؤمنين » .

المرتبة الثانية — مرتبة المَقَرّ الكَرِيم .

وصورتها على ما رأيته فى بعض الدَّساتير عن نائب الشام فى توقيع ببعض الوظائف الدِّينيَّة بدِمَشْق : « المَقَرّ الكريمُ العالى ، المولَوِى ، القضائى ، الصاحبى ، الإمامى ، العالِمى ، العامِلى ، العَلَّامى ، المُفيدى ، الفريدى ، البليغى ، الأوْحَدى ، المحقِّقى ، القَوَامى ، النِّظامى ، العَريقى ، الحاكمى ، المُحْسِنى ، الفلانى ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين ، جَلالُ العلماء العاملين ، أوحدُ المتكلِّمين ، أكمَلُ البلغاء فى العالَمِين ، قُدْوة المحقِّقين ، بركةُ الملوك والسلاطين » .

المرتبة الثالثة — مرتبةُ المَقَرّ العالى .

وصورتها على ما رأيته فى بعض الدساتير عن نائب حلَب بتدريس بها : « المَقَرّ العالى ، المولوى ، الشيخى ، الكبيرى ، الإمامى ، العالمى ، العلَّامى ، المفيدى ، القُدوى ، الفَريدى ، المحقِّقى ، القَوَامى ، النِّظامى ، الحاكمى ، الفلانى ؛ علاءُ الإسلام والمسلمين ، أوحدُ الفضلاء العارفين ، رُحلةُ الطالبين ، نُخْبة المحقِّقين ، جمالُ العلماء فى العالَمِين ، خالصةُ الملوك والسلاطين » .

الدرجة الثـانيـــة

(درجة الجَنَاب)

وقد جعلهـا في "عرف التعريف" أعلىٰ ما يُكْتَب لهـذا النـوع ، وهى علىٰ ثلاث مراتب :

المرتبة الأولىٰ — مرتبةُ الجَنَاب الشريف . وهى مختصة بغير السلطانيات .

وصورتها علىٰ ما أورده فى "عرف التعريف": « الجنـابُ الشريفُ العـالى، المولوىّ، القضائىّ، السيدىّ، الإمامىّ، العالمىّ، العاملىّ، العَلّامىّ ، الكاملىّ ، الأَصِيلىّ، الأوحدىّ، المفيدىّ، القُدْوىّ، الفريدىّ، الحُجِّىّ، المجتهدىّ، الفلانى؛ حُجّةُ الإسلام (أوضياء الإسلام) شرفُ الأنام، أثيرُ الإمام، صدرُ الشام، سيدُ العلماء والحُكّام ، أو أوْحدُ العلمـاء الأعلام، بقيّةُ السلف الكِرام ؛ شيخُ المذاهب، مُجَلِّى الغَيَاهب ، قُدْوة الفِرَق، رئيسُ الأصحاب، مفتِي السُّنّة، مؤيِّد الملة، شمسُ الشريعة، سيفُ النَّظَر، مفيدُ الطالبين، لسان المتكلِّمين، ولىُّ أمير المؤمنين » .

فإن كان حاكما قيل قبل الفلانى « الحـاكمى » وقبل ولىّ أمير المؤمنين « حَكَم الملوك والسلاطين » .

المرتبة الثانية — مرتبة الجَنَاب الكريم . وهى مختصّةٌ بغير السلطانيات أيضا .

وصورتهـا علىٰ ما رأيته فى بعض الدّساتير الشامية فى توقيع القاضى جمـال الدين ابن أبى جرادة الحنفىّ ببعض الوظائف الدينية : «الجَنَاب الكريم العالى، المولوىّ، القضائىّ، الكبيرىّ، الصاحبىّ، الإمامىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الكاملىّ، الأَرِيبىّ، اللَّبِيبىّ، الأصيلىّ، العَرِيقىّ، القَوَامىّ، النظامىّ، الفلانى؛ جمالُ الإسلام والمسلمين، أوحدُ الفضلاء فى العالَمين، أكملُ نُجَباء الأبناء العالِمين، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثالثة — مرتبة الجَنَاب العالى . وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات، فصورتها على ما ٱستقرّ عليه الحال فى ألقاب قاضى القُضاة الشافعىّ بالديار المصرية : « الجَنَاب العالى، القاضَوِىّ، الشيخِىّ ، الكبيرىّ ، العالِمىّ، العاملىّ، الأفضلىّ، الأكملىّ، الأوحدىّ، البليغىّ، الفريدىّ، المفيدىّ، التّجيدىّ ، القُدْوىّ ، الحُجّىّ، المحقِّقىّ، الوَرَعىّ، الخاشعِىّ، الناسِكىّ ، الإمامىّ، العَلّامىّ ، الأصيلىّ ، العَرِيقىّ ، الحاكمىّ ، الفلانى ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ العلماء العاملين، أوحدُ الفضلاء المُفيدين، قُدوةُ البلغاء، حُجّة الأمة، عمدةُ المحقّقين ، فخرُ المدرّسين ، مفتِى المسلمين ، جلالُ الحُكّام، بركةُ الدولة صَدْر مصر والشام، مُعِز السنة، مؤيِّد الملة، شمسُ الشريعة، رئيسُ الأصحاب، لسانُ المتكلمين، حَكَم الملوك والسلاطين، وَلِىّ أمير المؤمنين» .

⁂

وأما فى غير السلطانيات، فصورتها على مارأيته فى بعض الدساتير فى توقيع عن نائب الشام ببعض الوظائف الدينية لبعض العلماء : «الجَنابُ العالى، الشيخىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الكاملىّ، الأوحدىّ، الماجدىّ ، القَوَامىّ، النِّظامىّ، الفلانىّ؛ ضياءُ الإسلام والمسلمين ، أوحدُ الفضلاء العارفين ، جلالُ الأئمة فى العالمين، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الثالثـــــة

(درجة المجلس وفيهـا ثلاث مراتب)

المرتبة الأولىٰ — مرتبةُ المجلس العالى، وهى مستعملةٌ فى السُّلْطانيات وغيرها .

فأمّا فى السلطانيات ، فصورتهـا علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب القُضاة الثلاثة بالديار المصرية غيْرَ الشافعى : «المجلس العـالى، القـاضَوِىّ ، الكبيرىّ ، العالِمِى، العاملىّ ، الأفضلىّ ، الأكملىّ ، الأوحدِىّ ، البليغىّ ، الفريدىّ ، المفيدِىّ ، النَّجِيدىّ ، القُدْوِىّ ، الحُجِّىّ ، المحقِّقىّ ، الإمامىّ ، الأصيلىّ ، العريقىّ ، الحاكمىّ ، الفلانىّ ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين، سيدُ العلماء العاملين، أوحدُ الفضلاء المُفيدين، قُدْوة البلغاء، حُجّة الأمة، عُمْدةُ المحدّثين ، فخرُ المدرّسـين ، مفتِى المسلمين ، جلالُ الحُكّام، حَكَمُ الملوك والسلاطين» .



وأما فى غير السلطانيات، فصورتها علىٰ ما أورده فى "عرف التعريف" : «المجلس العـالى، القَضَائىّ ، الأجَلِّىّ ، الإمامىّ ، الصَّدْرِىّ ، الرَّئيسىّ ، الفَقِيهىّ ، العالمىّ ، العَلامىّ ، الكاملىّ ، الفاضلىّ ، الأوحدِىّ ، الفلانىّ ؛ مجدُ الإسـلام، فخرُ الأنام ، تاجُ العلماء والحُكّام (أو شرف العلماء والحُكّام) جمالُ الأئمة، أوحدُ الأئمة، صدرُ المدرِّسين، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثـانية — مرتبة المجلس السامىّ بالياء ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغـــيرها .

فأمّا فى السلطانيات، فلم يذكر لها فى "التثقيف" صورةً .

وصورتها على ما رأيته فى بعض التواقيع : «المجلس السامىّ، القضائىّ، الكبيرىّ، العالىّ، الفاضلىّ، الأوحدى، الرئيسىّ، المُفيدىّ، البليغىّ، القُدوىّ، الأثيرىّ؛ مجدُ الإسلام والمسلمين، جمالُ العلماء العاملين، أوحدُ الفضلاء، صدرُ المدرّسين، عمدةُ المفتين، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

وصورتها على مارأيته فى بعض تواقيع بعض الخُطَباء «المجلس السامىّ، القضائىّ، الشَّيْخىّ، الإمامىّ، العالىّ، العاملىّ، العابدىّ، الزاهدىّ، الخاشعىّ، الناسكىّ، الخَطِيبىّ، الفلانى؛ ضياءُ الإسلام والمسلمين، أوحدُ الخُطَباء فى العالمين، جمالُ الأئمة الفُصَحاء البارعين، لسانُ البيان، تَرْجُمان الزمان، بركةُ الملوك والسلاطين» .



وأمّا فى غير السلطانيات، فصورتها على ما أورده فى "عُرْف التعريف" : «المجلس السامىّ، القضائىّ، الأجلّ، الإمامىّ، الصَّدْرىّ، الفَقِيهىّ، العالىّ، الكاملىّ، الفاضلىّ، الفلانىّ؛ مجدُ الإسلام، بهاءُ الأنام، جمالُ العلماء، أوحد الفُضَلاء، شَرَفُ النُّبَلاء، صفوةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثالثة — مرتبة المجلس السامى بغير ياء، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

فأمّا فى السلطانيات فلم يذكر لها صورةً فى "التثقيف" .

وصورتها على مارأيته فى بعض التواقيع : «المجلسُ السامى، القاضى، الأجلُّ، الكبيرُ، الصدْرُ، الرئيسُ، العالم، الفاضلُ، الكاملُ؛ فلان الدين، مجدُ الصدور، زينُ الأعيان، مُرْتضى الملوك والسلاطين» .

*
* *

وأمّا فى غير السـلطانيات ، فصورتهـا علىٰ ما ذكره فى "عرف التعريف" : «المجلس السامى ، القاضى ، الأجلُّ ، الكبير ، العالمُ ، الفاضلُ ، الكاملُ ، الأوحدُ ، الأثيرُ ، البارعُ ، فلان الديـن ، مجدُ الإسـلام ، بَهَـاءُ الأنام ، فخرُ الصـدور ، جمالُ الأعيان ، مرتَضىٰ الدولة ، صَفْوةُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الرابعـــة

(درجةُ مجلِس القاضى ، وهى مستعملةٌ فى السلطانيات وغيرها)

فأمّا فى السلطانيات فلم يذكر لها صورة فى "التثقيف" .

وصورتها علىٰ ما رأيته فى بعض التواقيع : «مجلس القـاضى ، الأجلِّ ، الكبيرِ ، العالمِ ، الفاضلِ ، الأوحدِ ، الكاملِ ، الصدرِ ، الرئيسِ ، مجدِ الإسلام ، بهاءِ الأنام ، زينِ الأعيان ، فخرِ الصدور ، مرتضىٰ الملوك والسلاطين» .

*
* *

وأمّا فى غير السلطانيات فعلى نحو من ذلك .

الدرجة الخامســـة

(درجة القاضى ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها)

وصورتها فيهما : «القاضى ، الأجلّ» وربما زيد فى التعظيم نحو «الكبيرُ الصدرُ الرئيسُ» ونحو ذلك .

النـــــوع الرابع

(من الألقاب الإسلاميّة ألقابُ مشايخ الصوفيّة وأهل الصّلَاح ، وهى على خمس درجات)

الدرجة الأولى

(درجة المَقَرّ، وليس لها ٱستعمالٌ فى السلطانيّات؛ وفى غير السلطانيات لهـا ثلاثُ مراتِبَ)

المرتبة الأولى ــ مرتبة المَقَرّ الشّريف .

وصورتها : «المَقَرّ الشريفُ، العالِى، المَوْلوِىّ، الشَّيْخِىّ، السَّيِّدىّ، الإمامِىّ، العالمىّ، العامِلىّ، الكافِلىّ، الفاضِلىّ، الوَرَعىّ، الزاهِدِىّ، العابِدىّ، الناسِكىّ، السالِكِىّ، الخاشِعِىّ، المُسَــلِّكىّ، المحقِّقىّ، المدقِّقىّ، الفلانىّ؛ صــلاحُ الإسلام والمسلمين، جمالُ الأصفِياء العاملين، خالصةُ الأنام، صفوةُ الأتقياء، قُطْب العُبّاد، المِلاذُ على الحقيقــه، والمــالك لأزِمّة الطريقه، بقِيّة السَّلَف، قُدْوة الخَلَف، مفيدُ الطالبين، أوحدُ المحقِّقين، رُكْن الملوك والسلاطين، وَلِىُّ أمير المؤمنين» .

وقد تقدّم أنّ الأحسن فى اللقب المضافِ إلى السلاطين هنا «بركةُ الملوك والسّلاطين» .

المرتبة الثانية ــ مرتبةُ المَقَرّ الكريم، وألقابُها من نسبة الألقاب المتقدّمة .

المرتبة الثالثة ــ مرتبة المَقَرّ العــالى، وألقابُها نحوُ ذلك .

الدرجة الثانيـــــة

(دَرَجة الجَنَاب ، وفيها ثلاثُ مراتِبَ)

المرتبة الأولى ــ مرتبةُ الجناب الشريف . وهى مختصّة بغير السلطانيات .

وصورتُها : «الجنابُ الشريفُ، العالى، المولَوِى"، الشيخى"، الإمامى"، العالِمى"، العامِلى"، الكافِلى"، الفاضلى"، الزاهِدى"، العابِدى"، الخاشعى"، الناسكى"، الوَرِعى"، جلالُ الإسلام ، سيفُ الإمام ، قُطبُ الزُّهّاد ، عَلَمُ العُبَّاد ، أوحد الناسكين ، فَرْدُ السالكين، بركةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثانية ــ مرتبة الجناب الكريم . وهى مختصّة بغير السلطانيات أيضا .

وصورتها على ما رأيتُه فى بعض التواقيع عن نائبِ الشام : «الجنابُ الكريم، العالى، الشيخى"، العالمى"، العامِلى"، العَلّامى"، الأوحَدى"، القُدْوى"، العابِدى"، الناسكى"، الخاشعى"، المسَلِّكى"، المربِّى، الربانى"، الأَصيلى"، الفلانى، مجدُالإسلام، حسنةُ الأيام ، قُدْوة الزُّهّاد ، مَلَاذ العُبَّاد ، جمال الوَرِعِين ، مربِّى المريدين، أوحدُ المسلِّكين، خَلَفُ الأولياء، بركةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبةُ الثالثة ــ مرتبة الجناب العالى . وهى مختصّة بغير السلطانيات .

وصورتها على ما رأيته فى بعض التواقيع عن نائب الشام : «الجنابُ العالى، الشيخى"، العالمى"، العاملى"، الأوحَدى"، العابِدى"، الناسكى"، الوَرِعى"، الزاهِدى"، الخاشعى"، المسَلِّكى"، الأَصيلى"، الفلانى"، مجدُ الإسلام، بهاءُ الأنام، قُدْوة العُبَّاد، جَمَال الزُّهّاد، أوحدُ المسلِّكين، بركةُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الثالثـــــة

(درجة المجلس، وفيها ثلاثُ مراتب)

المرتبة الأولى — مرتبة المجلس العالى، وهى مستعملةٌ فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات، فصورتهـا على ما أورده فى " التثقيف " فى ألقاب شَيْخ الشُّيوخ بخانقاه سِرْياقُوس : « المجلسُ العـالى ، الشيخى"، الكَبِيرى"، العالِمى"، العاملى"، السالِكى"، الأوحدى"، الزاهِدى"، العابِدى"، الخاشِـعِى"، النـاسِكى"، المُفيدى"، القُدْوِى"، الإمَامى"، النِّظامى"، المَلاَذِى"؛ جَلاَل الإســلام والمسلمين ، شرفُ الصلحاء فى العالَميـــن ، شيخُ شيوخِ الإســلام ، أوحدُ العلماءِ فى الأنَام ، قُدْوة السالكين، بركةُ الملوك والسلاطين» .

* * *

وأما فى غير السلطانيات ، فصورتها على ماأورده فى "عرف التعريف" : «المجلس العـالى، الشيخى"، الأجَلّى" ، الإمامِى"، العـالِمى"، العامِلى"، الزاهِدى"، العابِدى"، الوَرَعِى"، الخاشِعِى"، الناسكى"، القُدْوِى"، الفلانى"؛ خِيرةُ الإسلام ، شرفُ الأنام، زين العُبّـاد ، نور الزُّهّاد، ذُخْر الطالبين ، كنز التُّقى ، ملجأ المريدين ، بركةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثانية — مرتبة المجلس السامى" بالياء، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

أما فى السلطانيات ، فصورتها على ماأورده فى " التثقيف " فى ألقاب الشـيخ شمس الدين الطُّوطى مِمَّن كان يُكْتَب إليه قديمـا : «المجلس السامى" ، الشيخى" ، الأجَلّى"، العالمى"، العـامِلى"، الكامِلى"، الفاضِـلى"، الزاهدى"، الوَرَعِى"، العابِدى"، الخاشِعِى"، الناسِكى"، القُدْوِى"، الأوحدى ، الفلانى"؛ مجدُ الإسلام، ضياءُ الأنام،

بقيّةُ السَلَف الكِرام ، فخر الصُّلَحاء ، أوحدُ الكُبَراء ، زين الزُّهّاد ، عِمَــادُ العُبّاد ، قُدوة المتورّعين ، ذُخْر الدُّوَل ، ركنُ الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ مارأيته فى بعض التواقيع الشريفة : «المجلس السامىّ ، الشيخىّ ، الكبيرىّ ، الأوحدىّ ، الأكملىّ ، العابدىّ ، الخاشعىّ ، الناسكىّ ؛ جمالُ الإسلام ، زينُ الأنام ، صَفْوةُ الصلحاء ، فخر العُبَّاد ، بركةُ الملوك والسلاطين» .

✤

وأما فى غير السلطانيات ، فصورتها علىٰ ما ذكره المَقرّ الشِّهابىّ بنُ فضل الله فى بعض التواقيع عن نائب الشام : «المجلسُ السامىّ ، الإمامىّ ، العالمىّ ، العامِلىّ ، الخاشعىّ ، الوَرَعىّ ، الناسِكىّ ، السالِكىّ ، العارِفىّ ، القُدْوىّ ، البَلِيغىّ ، الأصيلىّ ، الشيخىّ ، الفلانىّ ؛ مجدُ الإسلام ، شرفُ العلمــاء ، قُدْوة الفُضَلاء ، فخر الصُّلَحاء ، جمــالُ النُّسّاك ، قدوة السُّلّاك ، أوحدُ العارفين ، بركةُ الملوك والسلاطين » .

المرتبة الثــالثة — مرتبةُ المجلس السامى بغير ياء ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغـــيرها .

فأما فى السلطانيات فلم يُورد لهــا صورةً فى "التثقيف" .

وصورتها علىٰ مارأيته فى بعض التواقيع الشريفــة : « المجلس السامى ، الشيخُ ، الصالحُ ، الزاهدُ ، العابد ، الوَرِع ، الخاشــعُ ، الناسِكُ ، السالكُ ؛ فلان الديـن ، مجدُ الصلحاء ، زينُ المشايخ ، قُدوةُ السالكين ، بركةُ الملوك والسلاطين » .

✤

وأمّا فى غير السلطانيات ، فصورتها علىٰ نحوٍ من ذلك .

الدرجة الرابعـــــة

(درجة مجلس الشيخ)

وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

ولم يورد لها صورةً فى "التثقيف" . وصورتُها على ما فى بعض الدَّسَاتير: «مجلس الشيخ، الصالح، الزاهِدِ، العـابِد، الناسِك، السالِك، فلان الدين، مجد الصُّلَحاء، زينِ المشايخ، بركةِ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الخامســـــة

(درجة الشيخ)

وهى «الشيخُ، الصالحُ، الورِع، الزاهدُ» ونحو ذلك .

النـــوع الخامس

(ألقاب التُّجَّار الخَوَاجَكِيَّة، والمستعملُ فيه أربع درجات)

الدرجة الأولىٰ

(درجـــةُ الجَنَـاب)

ولم أر فيها غير مرتبة الجَنَاب العالى فيما عدا السلطانيَّات .

وصورتها علىٰ مارايته فى بعض الدَّسَاتير الشامية فيما كُتِب به لبعض الخَوَاجَكِيَّة : «الجنابُ العالى، الصَّدْرىّ، الكبيرىّ، المحترَمىّ، المؤتَمَنِىّ، الأوحَدِىّ، الأكملىّ، الرئيسىّ، العارفىّ، المُقَرَّبىّ، الخَوَاجَكىّ، الفلانىّ؛ مجدُ الإسـلام والمسـلمين ،

شرفُ الأكابر في العالَمين، أوحدُ الأمناء المقرّبين، صدرُ الرؤساء، رأسُ الصُّدُور، عينُ الأعيان، كبيرُ الخَوَاجِكِيَّة، ثِقَةُ الدولة، مؤتَمَنُ الملوك والسلاطين» . فإن آتفق أن يُكْتَب لاحد من الخَوَاجِكِيَّة بأعلىٰ من الجناب العالى، كُتِب له من نظير هــذه الألقاب وأعلىٰ منها .

الدرجة الثانيـــــــــة

(درجة المجلس، وفيها ثلاثُ مراتبَ)

المرتبة الأولىٰ — مرتبة المجلس العالى، وهى مختصة بغير السلطانيات .

وصورتها علىٰ مارأيته فى بعض الدساتير الشاميّة : « المجلسُ العالى، الصدْرِىّ، الرئيسىّ، الكبيرِىّ، المحترَمىّ، المؤتَمَنىّ، الأوحَدىّ، الأكملىّ، المقرّبىّ، الخَوَاجكىّ، الفلانىّ؛ مجدُ الإسلام، شرفُ الأكابر، أوحدُ الأمناء، صدرُ الرؤساء، زَيْنُ الأعيان، ثِقَةُ الدولة، مؤتَمَنُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثـانية — مرتبةُ المجلس السامِىّ باليــاء، وهى مستعملة فى السلطانيات وغـــيرها .

فأمّا فى السلطانيات، فصورتُهــا علىٰ ماذكره فى "التثقيف" فى ألقــاب خَوَاجَا عَسّافِ بنِ مُسافِر، ونظامِ الدِّين الإسْعِرْدِىّ : «المجلسُ السامىّ، الصّدْرِىّ، الكَبِيرىّ، الكاملىّ، الماجِدىّ، الأوحدِىّ، المقرِّبِىّ، المنتخَبِىّ، الأَمِينىّ، الأَثِيرِىّ، الخَوَاجِكِىّ، الفلانىّ؛ مجدُ الإسلام، زينُ الأنام، شرفُ الرؤساء، أوحدُ الكُبَرَاء، تاجُ الأُمَنــاء، فخرُ الأعيانِ، مُقَرَّب الحضرتين، موتَمَنُ الدُّوَل، صفوةُ الملوك والسلاطين» .

وإمّا فى غير السلطانيات، فصورتها علىٰ نحوٍ من ذلك .

المرتبة الثـالثة — مرتبة المجلس السامِى بغير ياء، وهى مستعملة فى السلطانيات وغـــيرها .

فأمّا فى السلطانيات ، فصورتها علىٰ ما أورده فى " التثقيف " فى ألقـاب بعض الخَواجَكيّة : «المجلس السامى، الصدرُ، الأجلُّ، الكبيرُ، الكاملُ، الماجدُ، الأوحدُ، المقرّبُ، المنتخَبُ، الأمينُ، الأثيرُ، الخَواجا، فلان الدين، مجدُ الرؤساء، زينُ الأكابر، مجد الصُّدُور، جمالُ الأعيان، مقرّبُ الدولة، صفوةُ الملوك والسلاطين» .



وأمّا فى غير السلطانيات فعلىٰ نحوٍ من ذلك .

الدرجة الثالثـــــة

(درجة مجلس الصَّدْر، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها)

فأما فى السلطانيات، فصورتها علىٰ ماذكره فى " التثقيف " : «مجلسُ الصدر، الأجلّ، الكبير، المحتَرَم، المقرّبِ، الأوحدِ، فلان الدين» .



وأمّا فى غير السلطانيات، فلا تخرج عن ذلك .

الدرجة الرابعـــة

(درجة الصَّدْر ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها)

فأمّا فى السلطانيات فصورتُهـا على ماأشار إليـه فى "التثقيف" : « الصَّدْرُ ، الأجلُّ ، الكبيرُ، المحترَم، المقرّبُ، الأوحدُ، فلان الدين» .

* * *

وأمّا فى غير السلطانيات، فلا تبعُدُ من ذلك .

النـــــوع السادس

(من الألقاب الإسلاميـــة ألقــابُ أرباب الصناعات الرئيســيّة ،
كرياسة الطب ، ورياسة الكحّالين ، ورياسة الجرائحية ،
ونحو ذلك، والمستعمل فيه درجتان)

الدرجة الأولىٰ

(درجة المجلس، وفيها ثلاثُ مراتبَ)

المرتبة الاولىٰ — مرتبة المجلس العالى ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

فأمّا فى السلطانيات، فكألقاب رئيس الأطبّاء، وهى«المجلسُ العالى . [القَضائِىّ(1) ، العالمىّ، الفاضِلِىّ، الكامِلىّ، الأوحدِىّ، الفلانىّ؛ جمالُ الإسـلام والمسلمين، سيدُ الرؤساء فى العالَمين، أوحدُ الفضلاء المقرّبين، خاصّةُ الملوك والسلاطين»(1)] .

---

(١) بيض لهذه العبارة فى الاصول ، فنقلناها من ضوء الصبح للؤلف .

✤

وأمّا فى غير السلطانيات فعلىٰ نحوٍ من ذلك .

المرتبة الثانية — مرتبة المجلس الساميّ ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات ، فصورتها : « المجلس الساميّ ، الصدْريّ ، الأجَلّيّ ، الكبيريّ ، الرئيسيّ ، الفلانيّ » .

✤

واما فى غير السلطانيات فعلىٰ نحوٍ منه .

المرتبة الثالثة — مرتبة المجلس السامِى بغير ياء ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات ، فصورتها : « المجلس السامِى ، الصدرُ ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، الرئيسُ ، المحترمُ » .

✤

وأما فى غير السلطانيات ، فعلىٰ نحو ذلك .

الدرجة الثانية

(درجة الصَّدْر ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها)

وصورتها فيهما : « الصدرُ الأجلُّ » فإن زيدَ فى تعظيمه ، قيل : « الكبيرُ المحتَرَم » .

النـــــوع السابع

(من الألقاب الإسلاميَّة ألقابُ الحاشية السلطانية ، كمِهْتاريَّة البيوت ، ومُهنْدِس العمائر، ورئيس الحَرّاقة ونحوهم، وفيه درجتان)

الدرجـــــة الأولىٰ

(درجة مجلس الصَّدْر، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها)

فأما فى السلطانيات ، فصورتها علىٰ ماذكره فى "التثقيف" فى ألقاب المهنْدِس والرئيس : «مجلس الصَّــدْر ، الأجلّ ، الكبير، المحترَم ، المؤتَمَن، فلان الدين» . وفى ألقاب مِهْتارِيَّة البيوت : من مِهْتار الشَّرابْ خاناه، والطَّشْت خاناه، والفرَاش خاناه، وإخْوان سَلَار ونحوهم : «مجلس الصَّدْر، الأجلّ ، الكبير، المحترَم، المؤتَمَن ، الحاج فلان» .



وأما فى غير السلطانيات، فكذلك أو أزْيد .

الدرجة الثــانيـــــة

(درجة الصَّدْر ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها)

وصورتُهــا فيهما : «الصــدْرُ الأجلُّ» فإنــ زِيدَ فى رِعايَته قيل بعد ذلك : «الكبير المحترَم» .

النــــوع الثـــامن

(من الألقاب الإسلامية ألقاب النساء ، وفيه درجتان)

الدرجـــة الأولى

(درجة الجهَة، وفيها مرتبتان)

المرتبة الأولى — مرتبة الجهَة الشريفة ، وصورتها على ما ذكره فى "التثقيف" فى ألقــاب إلى بنت[1] الملك الناصر محمد بن قلاوون عن والدتها : «الجهةُ الشريفةُ، العاليةُ المحجّبَة، المصُونةُ، الولَدِيَّة، العِصْمِيّة، عِصْمة الدين، جلالُ النساء، شرفُ الخوَاتين، سليلةُ الملوك والسلاطين» .

وصورتهــا على ماذكــره فى " التثقيف " أيضــا فى المكاتبة إلى أم آنوك : زوجة السلطان الملك الناصر عنه : «الجهةُ الشريفةُ، العاليةُ، المعظّمة، المحجّبة، المصونةُ ، الكُبْرىٰ ، خُوند خاتونُ ، جلالُ النســاء فى العالمين ، قرينــةُ الملوك والسلاطين » .

وصورتها على ما ذكره فى المكاتبة إلى أُخْت السلطان الملك الناصر حَسَن عنه : « الجهةُ الشريفةُ ، العاليةُ ، المكرّمة ، المحجّبة ، المصونةُ ، الكبرىٰ ، الخاتُون ، جلالُ النساء فى العالمين ، جَمِيــلةُ المحجّبات ، جليــلةُ المصُونات ، كريمــةُ الملوك والسلاطين » .

---

(١) سقط لفظ إلى من الضوء وهى أوضح .

وصورتهـا على ما ذكره فى ألقـاب الستّ حَدَق : «الجهة الشريفة، العـاليةُ، الكبيريّةُ، المحجّبيّة، المَصُونيّة، الحاجّية، الوالديّة، جلالُ النساء فى العالمين، بركةُ الدولة، والدةُ الملوك والسلاطين» .

وصورتهـا على ما رأيته فى بعض الدّساتير فى ألقاب والدة الأشرف شعبانَ آبن حسـين : «الجِهةُ الشريفةُ، العالية، الكُبْرىٰ، المعظّمة، المحجّبة، العِصْمىّ، الخـاتُونىّ؛ جلالُ النساء فى العالمين، سيّدةُ الخواتين، جميلةُ المحجّبات، جليلةُ المَصُونات، والدةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثـانية — مرتبة الجِهَـة الكريمة .

وصورتها على ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب دلشاه : زوج الشيخ حسن الكبير، ببغداد : الجِهةُ الكريمة، المحجّبة، المصونة، العِصْمِيّة، الخاتُونِيّة، المعظّمة، سيدةُ الخَوَاتين، زينةُ النِّساء فى العالَمين، جميلةُ المحجّبات، جليلةُ المصونات، قرينةُ نُوَيْن الملوك والسلاطين .

الدرجة الثـانيـــة

(درجةُ الدار. وهى على نحو المرتبتين المتقدّمتين فى الألقاب السابقة)

الدرجة الثـالثــة

(درجة السِّتارة وهى لاتكادُ تخرُجَ عما تقدّم من المرتبتين المتقدّمتين)

القســـم الثـانى
(من الألقاب المرتّبة ألقابُ أهل الكُفْر ، وهى علىٰ ثلاثة أضرب)

الضرب الأوّل
(ألقابُ متدينيّهم ، وهى نوعان)

النـــوع الأوّل
(ألقـاب بَطَاركة النصارىٰ)

وصورتهـا علىٰ ما أورده فى " التثقيف " فى ألقاب الباب برُومِيَة : « البـابُ ، الجليلُ ، القِدّيس ، الرُّوحانِىّ ، الخاشعُ ، العامل ، بَابَا رُومِيَة ، عظيم المِلّة المَسيحيّة ، قُدْوة الطوائف العِيسويّة ، مُملّك ملوك النصرانيــة ، حافظ البِحَار والخُلْجان ، مَلاَذُ البطاركة والأساقِفَــة والقُسُوس والرُّهْبان ، تالِى الإنجيــل ، معرِّف طائفته التحريمَ والتحليل ، صَدِيقُ الملوك والسلاطين » .

وصورتهـا علىٰ ماذكره فى " التثقيف " فى ألقاب البَطْرِيَرْك بالديار المِصْرية : «البَطْرِيَرْك الجليل ، القِدّيس ، الخاشع ، قُدْوة النصرانية » . ثم قال : ومن نسبة ذلك .

وصورتها علىٰ مارأيته فى بعض التواقيع له : «الحضرةُ الساميَة ، الشيخ ، الرَّئيس ، المبجَّل ، المكَرَّم ، الكافِى ، المعزَّز ، المُفَخَّر ، القِــدِّيس ، شمسُ الرياسة ، عمَــاد بنى المعمودية ، كنزُ الطائفة الصَّلِيبيّة ، آختيار الملوك والسلاطين » .

وصورتها علىٰ ما رايته فى بعض الدساتير الشاميّة عن نائب الشام للبَطْرِيَرْك بها : «البَطْرِيَرْك ، المحتَشم ، المبجَّل ، العارف ، الحَبْر ، فلان ، العالمُ بأموز دينه ، المعلِّم لأهل ملته ، ذُخْر المِلّة المَســيحية ، كنزُ الطائفة العِيسوية ، المشــكورُ بعَقْله عند الملوك والسلاطين » .

النـــوع الثـانى

(ألقـاب رؤسـاء اليهـــود)

وصورتها على ما رأيته فى بعض التواقيع لرئيس اليهود بالشام من إنشاء القـاضى محيى الدين بن الزكى فى سنة ست وعشرين وستمائة : «الرئيسُ، الأوحدُ، الأعزُّ، الأخصُّ، الكبير، شرفُ الطائفة الإسرائيلية فلان» .

الضرب الثـانى

(ألقاب ملوكهم وتختص بالنصارى ، وهو نمطان)

النمـــط الأوّل

(الألقاب المذكّرة، وهى على ثلاثة أنواع)

النـــوع الأوّل

(ما يُصَـــدَّر بالألف واللام ، وهى على خمس مراتِبَ)

المرتبة الأولى — مرتَبةُ الحضرة العالية .

وصورتها على ما أورده فى "التعريف" فى ألقاب مَلِك الحَبَشــة : « الحضرةُ العالِيَــة، حضرةُ الملِك الجليل ، الهُمَام، الضِّرْغام ، الأسـد، الغَضَنْفَر، الخطير، الباسل، السَّمَيْدَع ، العالم فى مِلّته، العادل فى مملكته، المُنْصِف لرعيّته، المتّبِـع لما يجب فى أقضيته، عزّالأمة النصرانية، ناصر الملة المَسِيحية، رُكْن الأُمّة العِيسويّة، عِماد بنى المعمودية، حافظ البلاد الجَنُوبية، مُتَّبِـع الحواريّين، والأحبار السُّرْيانِيِّين،

والبَطارِكة القِدّيسين، معَظِّم كنيسة صِهْيَوْن، أوحد ملوك اليَعْقوبية، صديق الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما أورده فى "التعريف" أيضا فى ألقاب صاحب القُسْطنطينيّة :
« الحضرة العاليةُ ، المكرّمة ، حضرة الملك الجليلِ ، الخطيرِ، الهُمَامِ ، الأسد، الغَضَنْفَر، الباسل، الضِّرْغامَ، المُعْرِق، الأصيل ، الممجّد، الأثيل، البلالاوس، الرِّيدأرغون، ضابطُ الممالك الرُّوميّة، جامع البلاد الساحلية، وارثُ القَياصرة القُدَماء، مُحْيِي طُرُق الفلاسفةِ والحُكَماء، العالِم بأمور دينه، العادلِ فى ممالكه، مُعِزّ النّصْرانية، مؤيِّد المسيحية، أوحد ملوك العِيسَوية ، مُخَوِّل التُّخُوت والتِّيجان، حامى البِحار والخُلْجان، مَلِك ملوك السُّرْيان، عماد بَنِي المعموديّة، رَضِىّ الباب بابا رُومية ، ثِقة الأصدقاء، صديق المسلمين، أسوة الملوك والسلاطين فلان » .

المرتبة الثانية — مرتبة الحضرة العليّة .

وصورتها على ما أورده فى "التعريف" فى ألقاب مَلِك الكُرْج: «الحضرةُ العليّة، حضرةُ الملك الجليلِ، الهُمَامِ ، الباسل، الضِّرْغام، السَّمَيْدَع، الكَرّار، الغضنْفَر، المتَخّت ، المتوَّج، العالم فى مِلّته، العادل فى رعيّته، بقيّة الملوك الاغْرِيقيّة، سلطان الكُرْج، ذُخْر ملوك البِحار والخُلُج، حامى حِمَى الفُرْسان ، وارثِ آبائه فى الأسرة والتِّيجان ، سِياج بلاد الرُّوم وإيران ، سليلِ اليُونان ، خلاصة ملوك السُّرْيان ، بقية أبناء التُّخُوت والتِّيجان، مُعِزّ النصرانية، مؤيِّد العِيسويّة، مَسِيح الأبطال المَسيحيّة، معظِّم البيت المقَدّس بعَقْد النية، عماد بَنِى المعموديّة، ظهير الباب بابا رُومية ، مُوادّ المسلمين، خالصة الأصدقاء المقرّبين، صديقِ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثالثة — مرتبة الحضرة السامية .

وصورتهـا علىٰ ما أورده فى "التعريف" فى ألقاب الأدفُونش صاحب طُلَيْطلة وإشبيلِيَة من الأندَلُس : «الحضرةُ الساميةُ ، الملكُ الجليـلُ ، الهُمَام ، الأسـدُ ، الباسـلُ ، الضِّرْغام ، الغضَنْفَر ، بقيّـة سلف قَيْصَر ، حامِى حُمَـاة بنى الأصْـفَر ، الممنّع السـلوك ، وارث لَذَرِيق وذرارِىّ الملوك ، فارس البَرّ والبحر ، ملِك طُلَيْطلة وما يليها من البـلاد الأندَلُسية ، بطلُ النصرانية ، عمـادُ بنى المعمودِيّة ، حامل راية المَسِـيحيّة ، وارثُ التِّيجان ، شبيه مَرْيُحنّا المَعْمَدان ، محبُّ المسلمين ، صـديقُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الرابعة — مرتبة الحضرة المكرّمة .

وصورتهـا علىٰ ما رأيته فى بعض الدَّسَاتير الشامية فى ألقـاب صاحب قُبْرُس : « الحضرة المكرّمة ، حضرة الملك الجليـل ، البطَل ، الباسـل ، الهُمام ، السَمَيْدَع الضِّرْغام ، الغضَنْفَر ، القَمْقام ، مؤيِّد الملة المَسِيحية ، عِماد بَنِى المعموديّة ، ذُخْر الملة النّصْرانيـة ، حامى الجَزائر القُبْرُسية ، مُوادّ المسلمين ، صديق الملوك والسلاطين ، الملك فلان» .

المرتبة الخامسة — مرتبة الحضرة الموَقّرة .

وصورتهـا علىٰ ما ذكره فى "التثقيف" فى ألقاب الأدفونش المقـدّم ذكره : «الحضرة الموَقّرة ، الملك الجليـلُ ، المكرّم ، المبجّل ، الخطير ، البطَلُ ، الباسـل ، الهمام ، الضِّرْغام ، الرِّيدأرْغُون ، نَصْر النصرانيـة ، فخر الأُمّة العِيسَوِية ، ذُخْر الملة المسيحية ، حامى الثُّغور ، متملِّك السواحل والبُحُور ، عمادُ بنى المَعْمُودية ، ظهير بابا رومية ، مَلاَذُ الفُرْسان ، جمالُ التُّخُوت والتِّيجان ، صديقُ الملوك والسلاطين» .

النـــــوع الثـــانى
(ما يُصَدَّر بحضرة مع الإضافة)

وصورتهـا علىٰ ما ذكره فى " التثقيف " فى ألقـاب صاحب القُسْطنطينيّة : «حضرةُ الملِك، الجليل، المكَرَّم، المبجَّل، الأسدِ، الخَطِير، البطَلِ، الباسل، الهُمَام، الضِّرْغام، فلان؛ العالم فى مِلّته، العادل فى أهل مملكتِه، عِزّ الأمّة المَسيحية، كنزِ الطائفة الصَّليبيّة، جَمَـالِ بنى المَعْمودية، صَمْصَامِ الملوك اليُونانِيّـة، حُسَامِ المملكة المـالُوصية، صاحبِ أمصار الرُّوس والعَلّان، مُعِزّ اعتقاد الكُرْج والسُّرْيان، وارثِ الأسِرَّة والتِّيجان، الحـاكم علىٰ الثُّغُور والبحور والخُلْجانـ، الدُّوقس الانجالوس الكميليوس البَالَالوغس، صديق الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ما ذكره فى " التثقيف " فى ألقاب ملك الكُرْج : «حضرةُ الملك الجليل، المكَرَّم، الخطيرِ، الباسلِ، القَمْقام، القِدِّيس، الرُّوحَانىّ، فلان؛ عِزّ الأمة المسيحية، كنز الطائفة الصليبية، فَخْر دين النَّصرانية، ملك الجبال والكُرْج والجُرْجان، صديق الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ما رأيته فى بعض الدساتير فى ألقاب ملك الكُرْج أيضا : «حضرة الملكِ الجليـل، العالم فى ملته، العادل فى مملكته، المتوّج من الله فلان؛ سيد ملوك النَّصْرانية، أكبرِ زُعَماء الملة المَسيحية، ضابط المـالك الكُرْجية، ... ...[1] خَليل الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ما ذكره فى " التعريف " فى ألقاب متَمَلِّك سِيسَ قبـل فَتْحها : «حضرة الملكِ الجليـلِ، البطلِ، الباسـل، الهُمَام، السَّمَيْدَع الضِّرغام، الغضَنْفر

(١) بياض بالاصول بقدر كلمة .

فلان ؛ فَخْر الملة المَسِيحية، ذُخْر الأمة النصرانية، عماد بنى المعمودية، صديقُ الملوك والسلاطين» .

وصورتُها على ما ذكره فى "التثقيف" فى ألقاب متَملِّك سِيس المذكور أيضا : «حضرةُ الملك الجليـل، المكَرَّم، المبجَّل، المعزَّز، الهمام، الباسل، فلان؛ عِزّ دين النصرانية، كبير الطائفة الصَّليبية، عمادِ بنى المعمُودية، صديق الملوك والسلاطين» .

وصورتهـا على ما ذكره فى "التثقيف" أيضـا فى ألقاب صاحب البُنْدُقِيَّـة : «حضرة الدُّوك الجليـــل ، المكَرَّم، الخطير ، الباســل ، الموَقَّر، المفخَّم ، فلان؛ فخر المِلَّة المسيحية ، جمـال الطائفة الصليبيَّة ، دُوك البندُقِيَّة والمانسية ، فلان؛ زين بَنِى المعمودية، صديق الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب ملك السِّرْب والبُلْغار : «حضرة الملك الجليل، المكَرَّم، المبجَّل، الهُمَام، الضِّرغام، الباسل، الدُّوقس، الأنجالُوس، الكمينيوس ، فلان؛ عِمادِ النصرانية، مالكِ السِّرْب والبُلْغار ، فخر الأُمَّة العِيسَوِيَّة، ذُخْرِ الملة المَسِيحية، فارِس البُحُور، حامى الحُصُون والثُّغور» .

وصورتها على ماأورده فى ألقاب ملك مونفراد : «حضرة المِلك الجليل، المكَرَّم، البطلِ، الهمام، الأسدِ، الضِّرغام، فلان ؛ مجدِ النصرانية، فخر العِيسَوية ، عمادِ بنى المعموديَّة، جمـالِ الطائفتين الرُّومية والفَرَنْجِيَّة، ملك منفراد ، وارثُ التـاج، مُعِزّ البـاب» .

وصورتُها على ماأورده فى ألقابِ لِدُوك البندُقِيَّة غير ما تقدّم : «حضرة المحتَشم، الجليل ، المبجَّل، الموقَّر، المكرَّم ، المَفخَّم، الباســل ، الضِّرغام ، فلان؛ عِزِّ الملة المسيحية، جمال الطائفة العِيسويَّة ، ذُخْرِ الملة الصَّليبيَّة ، صديقِ الملوك والسلاطين» .

النـــوع الثـالثُ

(مايُصَدَّر بالمَلِك وما فى معناه)

وصورتُه علىٰ ماذكره فى "التثقيف" فى ألقـاب مَلِك الحَبَشة : «الملكُ الجليلُ، المكَرَّم، الخَطِير، الأسدُ، الضِّرْغام، الباسل، فلان، العالمُ فى ملته، العادلُ فى مملكته، حَطِّى مَلِك أمْحَرا، أكبر ملوك الحُبْشَان، نَجَاشِىّ عَصْره، سَـنَد الملة المَسِـيحيّة، عَضُد دِين النصرانية، عِمَـادُ بنى المعمُودية، صديقُ الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ماذكر فى "التثقيف" فى ألقاب دُوك البُنْدُقِية غير ماتقدّم : «الدُّوك الجليـل، المكَرَّم، المبجَّل، الموقَّر، البطَلُ، الهمام، الضِّرْغام، الغضَنْفر، الخَطِير، مجدُ المِلَّة النصرانيَّة، فخرُ العِيسويَّة، عمَـادُ بنى المعمُودية، معزُّ بابا رُومِية، صديقُ الملوك والسلاطين فلان» .

النمــــط الثـانى

(من ألقاب ملوك الكُفْر [الألقابُ المؤنَّثة])

وصورتها علىٰ ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب صاحبة بابِل : «الملِكةُ الجليلة، المكَرَّمة، المبجَّلة، المُوَقَّرة، المفخَّمة، المعزَّزة، فلانةُ، العـالمةُ فى مِلَّتها، العـادِلةُ فى مملكتهـا، كبيرةُ دِينِ النَّصْرانية، نصيرةُ المِلَّة العِيسَوِيَّة، حامِيَة الثغور، صديقةُ الملوك والسلاطين» .

الضرب الثـالث

(ألقابُ نوّاب ملوكهم وكَتّاصِلَتهم ومَنْ فى معنىٰ ذلك . وهو علىٰ نوعين)

النوع الأوّل

(ألقـاب النُّـــوّاب)

وصورتها علىٰ ماذكره فى "التثقيف" فى ألقاب النائب بالأبواب : «النائبُ الجليلُ، المبجَّل، الموقَّر، القِدِّيس، الرُّوحانىّ» والنُّعوت من نِسْبة ألقاب متملِّك سِيس .

وصورتها علىٰ ماذكره فى "التثقيف" فى ألقاب صاحب دُنْقُلة : «النائبُ الجليل، المبجَّل، الموقَّر، الأسـدُ، البـاسلُ، فلان؛ مجدُ الملة المَسيحية، كبير الطائفة الصَّليبيَّة، غَرْسُ الملوك والسلاطين» .

النوع الثـانى

(ألقـاب الكَتّاصِـلة)

وصورتها علىٰ ماذكره فى "التثقيف" فى ألقاب الكُنْصُل بانكفا[1] كألقاب متملِّك سِيس المنقولة عن التثقيف فيما تقدّم .

وصورتها علىٰ ماأشار إليه فى "التثقيف" فى ألقاب المُطْران نائب الباب بالاىمة[1] : وهى قُبْرُس نحو ما تقـدّم فى ألقـاب البَطْرك بالديار المصرية . قال : ويُزاد عليه «المُطْران فلان» ويقـال فى نُعوته «ناصح المُلُوك والسَّلاطين» .

وصورتُها علىٰ مارأيته فى بعض الدَّساتير الشامية فى ألقاب إبراهيم كِرِى : أحد كُتَّاب الفَرَنْج عن نائب دمشق : «المُحْتَشِم، الكَبير، المُخَوَّل، الأسدُ، الهُمَام، الغَضَنْفَر،

---

(١) كذا فى الأصول بدون نقط .

مُوَادُّ المسلمين، متّبِـع الحَوَاريّين، جَمَالُ العيسويّة، أوحدُ بنى المعمودية، صاحِبُ الملوك والسلاطين» .

قلت : قد تبيّن بمـا تقدّم من الألقاب والنّعوت الإسلاميّة وألقاب أهل الكُفر ونُعوتهم أنها ليستْ واقفةً عند حدّ، بل هى راجعةٌ إلىٰ اصطلاح الكُتّاب واختيارهم فى زيادة الألقاب ونَقْصها ، والإتيانِ بلقبٍ دون لَقَب ، مع رعاية المُناسبة لكلّ مَقَام وما يحتمِلهُ من الألقاب، إلا أن لذلك (أصولًا يُرجَع إليها) وقوانينَ يُوقَف عندها، إذا اعتمدها الكاتبُ ومشىٰ علىٰ نَهْجها ونَسَج علىٰ مِنْوالها، أصاب سَـوَاء الثُّغرة من الصِّناعة، وطَبّق المَفْصِلَ بالمَفْصِل فى الإتيان بالمَقْصد، ومتىٰ أهملها وفرّط فى مراعاتها ضلّ سواءَ السبيل، وخرج عن جادّةِ الصواب : ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فمالَهُ مِنْ هادٍ﴾ .

الأصل الأوّل — أن يقِفَ علىٰ ما رتّبه البلغاء من أرباب الصَّنْعة من الألقـاب والنُّعوت لكلِّ صِنْف من ذَوِى الألقاب والنعوت : لأهلِ الأسلام وأهلِ الكفر . ويُجْرِى ذلك منه مُجْرىٰ الحفظ والاستحضار، ليسهُل عليه إيرادهُ فى موضعه، ولا يشِذّ عنه شىءٌ منها عند الاحتياج إليه . وقد تقدّم من ذلك جملةٌ مستكْثَرَة يُهتدىٰ بنَجْمها، ويستضاء فى ظلمة اللَّبْس بضَوْئها .

الأصل الثانى — أن يعرِفَ ماهو من الألقاب والنُّعوت حَقِيقىٌّ لصاحب اللَّقب الذى يستعمله فيه : كالعالِمىّ لأهل العلم، والعابِدىّ لأهل الصَّلَاح، والعادِلىّ للحُكَّام من أرباب السيوف وغيرهم ؛ وماهو منها مَجَازِىّ : كالعالمىّ لأرباب السُّيوف والكُتّاب حيث لا اتصافَ لصاحب اللّقَب بالعلم ، والأصِيلىّ لمن ليس له آباءٌ فى الرِّياسة ولا عَرَاقةٌ فى النَّسب، ونحو ذلك ممـا يجْرى هذا المَجرىٰ .

الأصل الثالث — أن يَعْرِف الألقابَ الخاصّةَ ببعضٍ دون بعض، كالشَّريفىّ، والحَسِيبىّ، والنَّسِيبىّ، للأشراف أولاد فاطمةَ رضىَ الله عنهـا ، والكافِلىّ لنـائب

السلطنة أو وَزِيرٍ كبير، والنُّوَيْنِيّ لأمير التَّوَامِين بالشرق، والمدبِّرِيّ للوزير ونحوه من ناظر الخاص ومَنْ فى معناه، والمُشِيرِيّ لمن يُؤْخَذ رأيه من أكابر أرباب السـيوف والأقلام ، والسَّفِيرِيّ للحاجب والدَّوادَار وكاتِبِ السرّ ، واليَمِينِيّ للدَّوادار وكاتب السرّ، والعَرِيقِيّ لذِى العَرَاقة فى النسب، والأَصِيلِيّ لمن له ثلاثةُ آباءٍ فى الرياسة .

وكذلك النعوت كوالِدِ المُلوك والسلاطين لمن يكون له أولاد من الملوك ، ووَلَد الملوك والسلاطين لأولاد الملوك، وعَضُد الملوك والسلاطين للأمراء ونحوهم، وكافِل الممالك للنائب الكافل ، وسَفِير الدولة ولسان المملكة للدَّوادار وكاتب السرّ ، ويَمِين الملوك والسلاطين لهما أيضا، ووالدةِ الملوك والسلاطين لمن يكون من أولادها مَلِك ، وكَرِيمة الملوك والسلاطين لمن يكون من إخْوتها سـلطان ، وقَرِينة الملوك والسلاطين لمن تكون زوجةَ ملك ، وصَدِيقِ الملوك والسلاطين ، أو مُوادّ الملوك والسلاطين لملوك الكُفْر، وقَرِين الملوك والسلاطين لنُوَّابهم،ونحو ذلك ممـا يَجْرِى هـذا المَجْرَىٰ : فيُوقِع كلَّ لقبٍ او نعتٍ منها فى موضـعه ولا يُجاوِزه إلىٰ غيره . وأنت إذا تأملتَ ما سَلَف من ترتيب الألقاب والنُّعوت علىٰ الأصول المتقـدّمة ، ظهر لك منها ما تستعين به علىٰ ترتيبها وإيقاعها مَواقِعَها .

الأصل الرابع — أن يَعْرِف الألقابَ والنُّعوتَ الرفيعةَ المِقْدار، فيُلْحِقَها بمايناسبها من الألقاب الأصول؛ كإلحاق العالىّ والعادِلىّ وممهِّد الدُّوَل ومُشيِّد الممالك وماشا كل ذلك بالمَقَرّ والجَنَاب الكريم ونحو ذلك . ويَعْرِفَ الألقابَ النـازِلةَ ، فيُخْرِج منها مايُجرِّده عن الياء ويلحقُه بالسامى بغير الياء فما دُونَه كالعَضُد والذُّخْر وما أشبه ذلك.

الأصـل الخامس — أن يَعْرِف مراتبَ الألقاب فى التقديم والتأخير، مثل أن يعلم أن الشريفَ والكريمَ يَلِيانِ المَقَرّ والجنابَ، والعالِيَ يليهما ؛ ثم العالى يلى المَقَرّ

والجناب والمجلس ، والسامي يلي المجلس حيث لايليه العالي . وأن النعتَ المضاف إلىٰ أمير المؤمنين مثــل عَضُد أمير المؤمنين ، وسيف أمير المؤمنـين ، وحُسَام أمير المؤمنـين ، يكون آخِرَ النُّعوت . وأن المضـاف إلىٰ الملوك والسلاطين مثــل عَضُد الملوك و السلاطين ، وظَهِير الملوك والسلاطين ، يكونُ قبله المضاف إلىٰ أمير المؤمنين إن كان فى رتبةٍ يثبت فيهـا ما يُضَـاف إلىٰ أمير المؤمنين، وإلا يكون المضاف إلىٰ الملوك والسـلاطين هو آخِر الألقاب . وأن يعلم أن لقب التَّعريف: وهو الفُلانِىُّ أو فُلانُ الدين يكون واسـطةً بين الألقاب والنعوت، فاصلًا بينهما . وأن لقبَ الوظيفة كالكافِلِىّ والحاكِمِىّ وماأشبههما يكون قبل لقَبِ التعريف غالبا علىٰ ماتقــدّم بيانُه، فيضع هذه الألقابَ فى مواضِـعها ولا يخرجُها عنها، بخـلاف مايجوز فيه التقديم والتأخيرُ من الألقاب والنُّعوت .

الجمـــــلة العـاشرة

(فى ذكر ألقابٍ تَقَع علىٰ أشياءَ متفرِّقةٍ قد جرتْ فى عُرْف الكُتَّاب . وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(فيما يجرِى من ذلك مَجْرىٰ التفاؤل، ويختلف باختلاف الأحوال والوقائع، ويَتَنوَّع إلىٰ أنواع)

النـــــوع الأوّل

(مايوصف بالنّصر، كالجُيُوش والعساكر والقِلاع والبَرِيد ونحوذلك)

فيقال فى الجيوش والعساكر : «الجُيُوش المنصورة، والعساكر المنصُورة» ويقال فى القِلاع المنصورة «وقلعــة دمَشْق المنصورة وقلعة حلب المنصورة» ونحو ذلك،

وكذلك يقال « القِلاع المنصورةُ » على الجمع تفاؤُلا بحصول النّصر لها ؛ ويقال في البَريد : «البَريد المنصورُ» على ما اصطَلَح عليه كُتّاب الزمان. على أن في وصف البريد بالمنصور نظرا : لأنه إنما وُضع ليوصِّل الأخبارَ ونحو ذلك ، وكان الأحسنُ أن يوصف بالسّعيد ونحوه اللهم إلا أن يُراد أنه ربما وصل به خبرُ النصر على العَدُوّ، وهو من أهم المهمّات ،وكأنه وُصِف بأشرف متعلّقاته .

النـــوع الثانى

(مايُوصف بالحِرَاسة ، كالمُدُن والثُّغور)

فيقال فى المُدُن «مِصْر المحروسةُ» و«القاهِرةُ المحروسةُ» و«دِمَشْقُ المحروسةُ» و«حَلَبُ المحروسة» ونحو ذلك . ويقال فى الثغور «الثّغرالمحُروس» و«ثغرالإسْكَنْدَرِيّة المحروس» و«ثغر رَشِيدَ المحروس» و«ثغر دِمْياطَ المحروس» و«ثغر أُسْوانَ المحروس» ونحو ذلك تفاؤُلا بوقوع الحِرَاسة لها . على أنه لو وُصِفَت القِلاع أيضا بالحراسة فقيل « القلعةُ المحروسة » و « القِلَاع المحروسة » ونحو ذلك لكان له وَجْهٌ ظاهر .
وبكل حال فكلُّ ما كان محلّ خوف مما ينبغي حِراستُه والاحتفاظ به، حَسُن وصفه بالحِراسة . وقد رأيت مَنْ يذكر ضابطا لذلك فى البلاد: وهو أن كل مدينة مُسوَّرة يُقال فيها محروسة وإلا فلا ، وهو بعيد، والظاهر ما قدّمنا ذكْره .

النـــــوع الثـالث

(مايُوصف بالعِمارة، كالدواوين)

وهى المواضع التى يجلِسُ فيها الكُتَّاب علىٰ ما تقدّم بيانُه فى مقدِّمة الكِتَاب وغير ذلك . فيقال : «الدِّيوان المعمور» و«الدّواوينُ المعمورةُ» تفاؤُلا بأنها لاتزال معمورةً بالكُتَّاب، أو بدَوَامِ عِزِّ صاحبها وبقاء دولته .

النـــــوع الرابع

(مايوصف بالسّعادة، كالدواوين أيضا)

فيقال : «الدِّيوان السـعيدُ» و«الدّواوين السعيدةُ» تفاؤُلا بدوام سَعَادتها بدوام سعادةِ صاحبها .

النـــــوع الخامس

(مايُوصَـــف بالقَبُـــول)

كالضَّحايا المقْبُولة تفاؤلا بأن الله تعـالىٰ يتقَبَّلُها، وهو فى الحقيقة بمعنى الدعاء، كأنه يقال تقبَّلها الله تعالىٰ .

النـــــوع السادس

(مايُوصف بالبِرِّ، كالصَّدَقة والأَحْباس)

فيقال فى الأحباس : «الأَحْباسُ المبرورة» وفى الصَّـدَقة «الصدقة المَبْرُورة» تفاؤلا بأنها تكون جاريةً مَجْرىٰ البِرِّ الذى يلحقُ به الثوابُ . وكُتَّاب الجيش ونحوُهم يستعملون ذلك فى وصف الرِّزْقة أيضا : وهى القطْعة من الأرض تُرْصَـد لمصالح المسجد أو الرِّباط أو الشخص المعيَّن . فيقولون : «الرِّزْقة المبرورةُ» لجَرَيانها مَجْرىٰ الصدقة .

النـــــوع السابع

(مايوصف بالخِذْلان ، كالعَدُوّ ونحوه)

فيُقال : « العَــدُوّ المخذول » علىٰ الإجمــال و « فلانٌ المخذُول » بالتصريح باسمه «وأهــل الكُفْر المَخْذُولون» ونحو ذلك تفاؤُلا بأنّ الله تعــالىٰ يُوقع بالعدوّ الخِذْلان ويَرْمِيـــه به .

الضرب الثــانى

(مايجــرِى من ذلك مَجْــرىٰ التشريف ، ويختلف أيضا باختلاف الأحوال، ويتنوّع أنواعا)

النـــــوع الأوّل

(ما يُوصَف بالعِزّ ، كالكِتَاب بمعنى القرءان)

فيقال فيه : « الكِتَاب العزيز» ومن ثَمّ يقولون فى قارئ القُرءان : « من حَمَلة كِتَاب الله العزيز» وربمــا وُصِف بذلك الدِّيوان أيضا ، كما يقال فى دِيوان الخلافة : « الدِّيوانُ العزيزُ» علىٰ ماتقدّم ذكره فى الكلام علىٰ الألقاب .

النـــــوع الثــانى

(ما يُوصَف بالشريف ، كالمُصْحَف والعِلم)

فيقال فى المُصْحَف : «المصحفُ الشريف » وفى العلم « العِلْمُ الشريفُ» ولذلك يقولون « فلانٌ من طَلَبــة العلم الشريف» ونحو ذلك، وكذا فى الأماكِن الرفيعة،

كـكّة والمدينـة النبويّة والقُدْس . فيقال : «مكّة المشرَّفة» و «المدينةُ الشريفةُ» و «القُدْس الشريفُ» والحَرَم الشريفُ تارةً لحرم مكة وتارةً لحرم المدينـة . فإذا جمعا قيـل : «الحَرَمانِ الشَّريفان» وربمـا أُطْلِق فى عُرْف الكُتَّاب الحَرَمان علىٰ القُدْس الشريف ومَقَامِ الخليل عليه السلام، وهو مراد المَقَرّ الشهابىّ بن فضل الله فى كتابه "التعريف" فى قسم الوَصَايا بناظر الحرمين الشريفين دُونَ حرم مكة والمدينة المشرّفتين . وقد آصطلح كُتَّاب الزمان علىٰ أن وصَفُوا أكثر ما يُضاف إلىٰ السلطان بالشريف ، فيقولون فيما يصدُر عن السلطان من عَهْد وتقليد وتَوْقيع ومَرْسوم ومثال وتَذْكرة : «عَهْد شريف» و«تقليدٌ شريف» و«توقيعٌ شريف» و «مرسومٌ شريف» و «مثالٌ شريف» و «تَذْكرة شريفة» ونحو ذلك .

النـــوع الثـالث

(ما يُوصفَ بالكريم ، كالقرءان)

فيقال : «القُرءانُ الكريم» والأصل فيه قوله تعـالىٰ : ﴿ إنَّه لَقُرْءانٌ كَرِيمٌ ﴾ وقد آصطلَح كُتَّاب الزمان علىٰ أن جعلُوه دونَ الشريف فى الوصف ، فوصَـفُوا به ما يصـدُر عمَّن دونَ السـلطان من أكابر الدولة من النُّوّاب والامراء والوُزَراء : من تَوقيع ومرسوم ومثـالٍ وتَذْكرة ونحو ذلك . فيقولون : «توقيعٌ كريم» و«مَرْسومٌ كريم» و«مِثَالٌ كريم» و«تَذْكرة كريمة» . وقد تُوصف به المكاتَبة أيضا فيقـال : «إنَّ مكاتبته الكريمة وردَتْ» ونحو ذلك ، وقد ورد فى التنزيل : ﴿ إنّى أُلْقِىَ إلىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ علىٰ أنه قد تقدّم أنه كان ينبغى أن يكون أرفعَ رتبـة من الشريف لورود التنزيل بوَصْف القرءان به .

النـــــوع الرابع

(ما يُوصَف بالعُلُوّ، وهو فى معنىٰ الكَرَم فى آصطلاحهم)

فيقــال : « توقيعٌ عالٍ » و«مرسومٌ عالٍ» ونحو ذلك، وقد يُوصف به الرأىُ . فيقال : «الرأىُ العالى» وقد يُوصَف به أمرُ السلطان أيضا من ذى الرُّتبة الرفيعة، مثل كِتابةِ الوزيرعلىٰ المَرَاسيم الشريفة ونحوها «أمتثِلُ الأمْرَ العالى» .

النـــــوع الخامس

(ما يُوصَـــف بالســـعادة)

كـ « الرأى السَّعِيد » و « الآراءِ السعيدةِ » وربمـا وصف بذلك الدِّيوان فقيل « الدِّيوانُ السعيد » ونحو ذلك .

النـــــوع السادس

(ما يُوصَف بالبركة ، كالكَعْب)

فيقال : « كَعْبٌ مبارَك » وقد يُوصَف به المَنْزِل فيقــال : « مَنْزِلٌ مُبارَك » وقد يوصف به الأمرُ لمن دُونَ العــالى، فيقال : « يتقدّم أمْرُه المبارَك » وكذلك المكاتبة ، فيقال : « إن مُكاتَبته المباركة وردَتْ » ونحو ذلك .

الباب الثانى
من المقالة الثالثة

(فى مقادير قَطْع الورق، وما يناسب كلَّ مِقْدار منها من الأقلام، ومَقَادِير البياض فى أوّل الدَّرْج وحاشيته، وبُعْدِ ما بين السطور فى الكتابات، وفيه فصلان)

الفصل الأوّل

(فى مقادير قَطْع الوَرَق، وفيه طَرَفان)

الطَرَف الأوّل

(فى مقادير قطع الورق فى الزّمن القديم)

قد ذكر محمد بن عمر المدائنى فى كتاب "القلَم والدواة" أن الخُلَفاء لم تزلْ تستعمل القَرَاطيسَ آمتيازا لها على غيرها من عَهْد مُعاويةَ بنِ أبى سُفْيان . وذاك أنه يكتب للخُلَفاء فى قِرْطاس من ثُلُثَىْ طُومارٍ، وإلى الأمراء من نِصْف طُومار، وإلى العُمّال والكُتّاب من ثُلُثٍ ، وإلى التُجّار وأشباههم من رُبُع، وإلى الحُسّاب والمُسّاح من سُدُس . فهذه مقاديرُ لقطع الورق فى القديم : وهى الثُلُثانِ والنصف والثلثُ والربعُ والسُّدُس، ومنها آستُخْرِجت المقاديرُ الآتى ذكرها . ثم المراد بالطُّومار الورقةُ الكاملةُ ، وهى المعبَّر عنها فى زماننا بالفَرْخة؛ والظاهرُ أنه أراد القَطْع البَغْدادِىَّ لأنه الذى يحتمل هذه المقاديرَ، بخلاف الشامىِّ، لاسيما وبغدادُ إذ ذاك دارُ الخلافة ، فلا يحسُن أن يقدّر بغير ورقها مع آشتماله على كمال المحاسن . وقد تقدّم فى الكلام على آلات الكِتابة فى المَقَالة الأولى بيانُ الخلاف فى أوّل من صَنَع الوَرَق .

الطـــــرف الثـانى

(فى بيان مقادير قَطْع الورق المستعمل فى زماننا، وفيه ثلاث جمل)

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى مقادير الورق المستعمل بديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية، وهى تسعة مقادير)

المقدار الأول — قَطْع البَغْدادىّ الكامل . وعَرضُ دَرْجه عرضُ البَغْدادىّ بكماله : وهو ذراعٌ واحد بذراع القُمَاش المِصْرىّ،وطولُ كلّ وصل من الدَّرْج المذكور ذراعٌ ونصفٌ بالذراع المذكور. وفيه كان تُكْتب عهودُ الخلفاء وبَيْعاتُهم. وفيــه تُكتَب الآن عُهودُ أكابر الملوك ، والمكاتباتُ إلىٰ الطبقة العُلْيا من الملوك ، كأكابر القانات من ملوك الشَّرْق .

المقدار الثـانى — قَطْع البَغْدادىّ النـاقص . وعَرْض دَرْجه دون عَرْض البغدادىّ الكامل بأربعة أصابعَ مطبوقةً . وفيه يُكْتب للطبقة الثانية من الملوك ، وربمـا كُتِب فيه [للطبقة العليا](١) لإعْواز البَغْدادىّ الكامل .

المقدار الثـالث — قَطْع الثلثين من الورق المِصْرىّ . والمراد به ثُلُثا الطُّومار من كامل المنصورىّ ، وعَرْض دَرْجه ثُلُثَا ذراع بذراع القُماش المِصْرىّ أيضـا . وفيه تُكْتَب مَناشيرُ الأمراء المقَدّمين، وتقاليدُ النُّوّاب الكِبَار والوزراءِ وأكابرِ القُضاة ومَنْ فى معناهم . ولم تجر العادةُ بكتابة مكاتَبةٍ عن الأبواب السلطانية فيه .

---

(١) الزيادة من الضوء بالمعنى ليتم الكلام .

المقدار الرابع — قَطْع النصف . والمراد به قَطْع النّصف من الطُّومار المنصوري ؛ وعَرْضُ دَرْجه نصفُ ذراع بالذراع المذكور . وفيـه تُكْتَب مناشـيرُ الامراءِ الطَّبْلَخاناه ، ومراسـيمُ الطبقة الثانيـة من النُّوّاب ، والمكاتباتُ إلى الطبقة الثانيـة من الملوك .

المقدار الخامس — قطع الثلث . والمراد به ثلثُ القَطْع المنصوري ؛ وعرضُ دَرْجه ثُلُثُ ذراعٍ بالذراع المذكور . وفيه تُكتَب مناشير أمراءِ العشرات ، ومراسيمُ صغار النُّوّاب ، والمكاتباتُ إلى الطبقة الرابعة من الملوك .

المقدار السادس — القَطْع المعروف بالمنصوري . وعَرْضه تقـديرُ رُبُع ذراع بالذراع المذكور . وفيه تكتَب مناشيرُ الممـالك السلطانية ومقدّمِي الحَلْقة ، ومناشيرُ عشرات التُّرْكُمان ببعض الممـاليك الشامية ، وبعضُ التواقيع وما في معنىٰ ذلك .

المقدار السابع — القَطْع الصغير ، ويقال فيه قَطْع العادة . وعَرْض دَرْجه تقدير سُدُس ذراع بالذراع المذكور . وفيه تُكْتَب عامةُ المكاتبات لأهل المملكة وحُكّامها ، وبعضُ التواقيع والمراسِيم الصِّغار ، والمكاتباتُ إلىٰ حُكّام البلاد بالممـالك ، وما يَجْرِي هذا المَجْرىٰ . وقد كان هذا القطعُ والذى قبله فى أوّل الدَّوْلة التركية طُولُ كلِّ وصل منه شبران وأربعةُ أصابع مطبوقةً فمـا حَوْلَ ذلك .

المقدار الثامن — قطعُ الشـاميّ الكاملُ . وعرضُ دَرْجه عرضُ الطُّومار الشاميّ فى طُوله ؛ وهو قليـلُ الاستعمال بالدِّيوان ، إلا أنه ربمـا كُتِب فيـه بعضُ المكاتبات ، كما كتب فيـه عن الأشرف شعبانَ بن حُسَين لوالدته حين سافرتْ إلىٰ الحجاز الشريف .

المقدار التاسعُ — القَطْع الصغير . وهو فى عَرْض ثلاثةِ أصابع مطبوقةً من الورق المعروفِ بورق الطَّيْر، وهو صِنْف من الورق الشامىّ رقيقٌ للغـاية . وفيـه تُكتَبُ ملطَّفات الكُتُب وبطائق الحمامِ .

الجمـــــلة الثـانية

(فى مقادير الورق المســتعملةِ بدَوَاوين الإنشاء بالممـالك الشاميـــة :
دِمشقَ، وحَلَبَ، وطَرابُلُسَ، وحَمـاةَ، وصَــفَدَ، والكَرَك .
فى المُكاتَبَات والوِلَايات الصادرة عن النوّاب بالممـالك،
وهى لاتخرُج عن أربعة مقادير)

المقــدار الأوّل — قطعُ الشامىّ الكاملُ : وهو الذى يكون عَرْضــه عَرْض الطُّومار الشامىّ الكاملِ فى طوله علىٰ ما تقدّم فيه . وفيه يُكْتَب عن النوّاب لأعلىٰ الطبقات من أرباب التَّواقيع والمَرَاسيم ليس إلّا .

المقدار الثانى — قَطْع نصف الحَمَوِىّ . وعرْض دَرْجه عرْضُ نِصف الطُّومار الحَمَوِىّ ، وطوله بطول الطُّومار . وفيه يُكْتب للطبقة الثانيــة من أرباب التواقيع والمَرَاسيم الصادرةِ عن النوّاب .

المقدار الثالث — قطع العـادةِ من الشامىّ . وعَرْض دَرْجه ســدُسُ ذراع بذراع القُماش المِصْرىّ فى طول الطُّومار أو دُونَه . وفيــه يُكْتب للطبقة الثالثـة من أرباب التواقيع والمراســيم الصادرة عن النُّوّاب وعامّة المكاتبات الصادرةِ

عن النُّوَّاب إلىٰ السلطان فمَنْ دُونَه من اهل المملكة وغيرهم ، إلا أن نائب الشام ونائب الكَرَك قد جرَتْ عادتُهما بصدُور المكاتبات عنهما فى الورق الأحمر دُونَ غيرهما من النوّاب .

المقدار الرابع — قَطْع ورق الطير المقدَّم ذكره فى آخر المقادير المستعملة بالأبواب السلطانية بالديار المصرية . وفيه تُكتب المُلَطَّفاتُ والبطائقُ علىٰ ماتقدّم .

قلت : هذه مقادير قَطْع الورق بالديار المصرية والبلاد الشاميَّة . أما غير مملكة الديار المصرية من الممالك ، فالحالُ فيها يختلِفُ فى مقادير الورق المستعمل بدواوينها . فأمّا بلادُ المَشْرِق فعلىٰ نحو المقادير المتقدِّمة . وأما بلاد المَغْرِب والسُّودان وبلادُ الفَرَنْج ، فعادةُ كُتّابهم فى طُومارٍ واحد ، يزيدُ طولُه علىٰ عَرْضه قليلا ، مابين صغير وكبير بحَسَبِ ما يَقْتَضيه حال المكتوب .

الجملة الثالثة

(فى مقادير قَطْع الورق الذى تَجرى فيه مكاتباتُ أعيان الدَّوْلة من الأُمَراء والوزراء وغيرهم بالديار المصرية والبلاد الشامية)

وهو قَطْع العادة من البَلَدِىّ بالديار المصرية ، ومن الشامى بالبلاد الشامية .

الفصـــــل الثـانى

من الباب الثانى من المقالة الثالثة

(فى بيان ما يُناسِبُ كلَّ مِقْدار من مقادير قَطْع الورق المتقدّمة الذّكر من الأقلام ، ومَقاديرِ البَياض الواقع فى أعلى الدَّرْج وحاشِيته ، وبُعْدِ ما بين السُّطور فى الكتابة . وفيه طَرَفان)

الطـــــرف الأوّل

(فيما يناسِبُ كلَّ مقدار منها من قَطْع الورق من الأقلام)

قد ذكر المقرُّ الشِّهابىُّ بنُ فضل الله فى كتابه "التعريف" فى آخر القسم الثانى ما يناسبُ كلَّ مقدار من مقادير الورق المستعملةِ بديوان الإنشاء بالديار المصرية من أقلام الخَطِّ المنسوب فقال : إن لِقطع البَغْدادىِّ قَلَم مختصر الطُّومار ، ولقَطْع الثلثين قَلَمَ الثلث الثقيل ، ولقَطْع النِّصف قلَمَ الثلث الخَفِيف ، ولِقَطْع الثلُث قلَمَ التوقيعات ، ولقَطْع العادة قَلَم الرِّقاع . ومن ذلك يُعْلَم ما يناسب كلَّ قَطْع من مقادير القطع المستعملة بدواوين الإنشاء بالممالك الشامية . فيناسبُ الشامىَّ الكاملَ قلَمُ التوقيعات : لأنه فى مِقْدار قطع الثُّلُث البَلَدِىّ أو قريبٌ منه ؛ ويناسبُ نصفَ الحموىّ والعادةَ من الشامىّ قلَمُ الرِّقاع ، لأنهما فى معنى القَطْع المنصورىّ والعادةِ بالديار المِصْرية . أما قلم الجَنَاح[1] لكتابة بَطائق الحمام به . وأما ما كان يَكْتُب به الخلفاءُ

(١) عبارة الضوء للمؤلف ج ١ ص ٤١٥ ، ٤١٦ "ويناسب قطع الحموى والعادة من الشامى قلم الرقاع لانهما فى معنى العادة ، ويناسب ورق الطير الذى تكتب فيه البطائق والمطلقات قلم الغبار ولذلك يسميه بعض الكتاب قلم الجناح الخ" وهى واضحة .

أسماءهم فى الزمن القديم وبه يكتُب الملوكُ أسماءَهم الآنَ ، فقلم الطُّومار : وهو القلمُ الجليلُ الذى لاَقَلَم فوقه . وقد تقدّم الكلام علىٰ هذه الأقلام فى بيان ما يحتاج إليه الكاتب فى أواخر المقالة الأولىٰ .

الطـــرف الثانى

(فى مقادير البياض الواقع فى أوّل الدَّرْج ، وحاشيته وبُعْد مابين السُّطور فى الكتابة)

أما مقدار البياض قبل البسملة ، فيختلف فى السلطانيات باختلاف قَطْع الورق ، فكُلّما عظُم قطعُ الورق ، كان البياضُ فيه أكثَرَ : فقَطْع البَغْدادىّ يُتْرك فيه ستةُ أوصالٍ بياضا ، وتُكتَب البسملة فى أوّل السابع ؛ وقطعُ الثلثين يُترك فيه خمسةُ أوصال ؛ وقطعُ النصف يُتْرك فيه أربعةُ أوصال ؛ وقطعُ الثلث يُتْرك فيه ثلاثةُ أوصال ؛ وقطعُ المنصورىّ والعادة تارةً يترك فيه ثلاثةُ أوصال ، وتارةً يُتْرَكُ فيه وصلان ، بحسب ماتقتضيه الحالُ . وقَطْع الشامىّ الكامل فى معنىٰ قطع الثلث ؛ وقَطْع نِصف الحموىّ والعادة من الشامىّ فى معنىٰ القطع المنصورىّ والعادة فى البلدىّ . وربما اجتهدَ الكاتبُ فى زيادة بعض الأوصال ونُقْصانها بحسَبِ ماتقتضيه الحال . وفى المكاتبات الصادرة عن سائر أرباب الدولة مصرًا وشاما يُتْرك فى جميعها قبل البسملة وصلٌ واحدٌ فقط . وفى كتابة الأدْنىٰ إلىٰ الأعلىٰ يُتْرَكُ بعضُ وَصْل .

***

وأما حاشيةُ الكتاب ، فبحَسَب اجتهاد الكاتب فيه فى السَّعة والضِّيق . وقد رأيت بعض الكُتّاب المعتبَرِين يقدّر حاشيةَ الكتاب بالرُّبُع من عَرْض الدَّرْج ، وهو اعتبارٌ حسنٌ لا يكاد يخرُجُ عن القانون .

*
* *

وأما بُعْدُ ما بين السطور ، فيختلف باختلاف حال المكتوب واختلاف قطع الورق : ففى السلطانيات كلّها على اختلاف قَطْع الورق فيها تُكتَبُ البسملة فى أوّل الفصل بعدَ ما يُترَك من أوصال البياض فى أعلى الدَّرْج بحسَبِ ما تقتضيه الحالُ ؛ ثم يُكتَب تحت البسملة سطرٌ ملاصقٌ لها بحسَب ما يقتضيه وضعُ القَلَم المكتوب به فى القُرْب والبُعْد ، بحسب الدِّقَّة والغلَظ ؛ ثم يُكتَب السطر الثانى فى آخر الوَصْل الذى كُتِبت البسملةُ فى أوّله ، بحيث يبقى من الوصل ثلاثةُ أصابعَ مطبوقةً أو نحوُها فى القطع الكبير ، وقدرُ إصبعين فى القَطْع الصغير ، وما بينهما بحسَبه .

وقد قدّر صاحبُ «موادّ البيان» البياضَ الباقىَ بين السطر (١) الأول والثانى أيضا . وهذا إنما يُقارِب فى القطع الكبير . وقد ذكر ابن شيث فى "مَعالِم الكتابة" . ـ وكان فى آخر الدولة الأيوبية فيما أظُنُّ ـ أن مقدار ما بين كلّ سطرين يكون ثلاثةَ أصابع أو أربعةَ أصابع . والذى جرتْ به عادةُ الكُتّاب فى زماننا أنه يكون فى قَطْع العادة والمنصوريّ فى كلّ وصل من أوصال (٢) الزمان ثلاثة أسطر ، وفيما عداه سطران . وربما وقع التفاوتُ فى القَطْع الصغير بحسب الحال حتى يكون فى التواقيع التى على ظُهُور القِصَص ونحوها بين كلّ سطرين بَعْدَ بيتِ العلامة قَدْرَ إصبعين ؛ وربما تواصلت الأسطرُ كما فى الملطفات ونحوها .

أمّا ما يُكتَب عن النوّاب من الولايات والمكاتَبات من سائر أعيان الدولة ، فدُونَ السلطانيات فى مقدار خُلُوّ موضع العلامة ، وهو ما بين قدر خمس أصابع مطبوقةً ونحوها ؛ وقدرُ [بُعْد] السطور فيما بَعْدَ بيت العلامة من قدرِ إصبعين إلى مادونهما .

---

(١) عبارة الضوء نقلا عن مواد البيان " بين السطر الأول والثانى بقدر شبر "

(٢) لعله من أوصاله أى العادة أو المنصورى . انظر الضوء ص ٤١٧ .

الباب الثالث

من المقالة الثالثة

(فى بيان المستَنَدات، وكتابة الملخَّصات، وكيفيّة التعيين . وفيه فصلان)

الفصل الأوّل

(فى بيان المستَنَدات : وهى التوقيع على القِصَص ومايجرى مَجْراه، وما يُحْتاج فيه إلى كتابة المستَنَدات ، وهو على ضربين)

الضرب الأوّل

(السُّلْطانيات ، وهى صنفان)

الصنف الأوّل

(ما يصدُر عن متولّى ديوان الإنشاء : كولايات النُّوّاب والقُضاة وغيرهما من أرباب الوظائف، والتواقيع التى تُكْتَب فى المُسامَحات والإطلاقات، ومكاتَبات البريدِ الخاصّةِ بالأشغال السلطانية، وأوراق الطريق وما يجْرِى مَجْرى ذلك)

وجميعها مَعْذُوقةٌ بنظَر صاحبِ ديوان الإنشاء . فما كان منها جليلَ الخَطَر كولايات النُّوّاب والقُضاة وأكابر أرباب الوظائف والمكاتَباتِ المتعلِّقة بمهمّات السلطنة ، فلا بُدَّ من مخاطبة صاحبِ ديوان الإنشاء فيها وآعتمادِ مايبْرُز به أمْرُه . وما كان منها حقيرًا بالنسبة إلى مخاطبة السلطان فيه آستقلَّ فيه بما يَقْتضيه رأيُه .

ثم من ذلك ما يَكْتُب به صاحبُ الديوان رقاعًا لطيفةً بخطه ويُعَيِّنها على الكاتب الذى يكتبها وتُدْفَع إليه لتُخَلَّد عنده شاهدًا له ، كالولايات والمُسامَحات والإطلاقات

والمُكاتَبات المتعلّقة بأمور المملكة ونحو ذلك . ومن ذلك ما يَبْرُز به أمرُ صاحبِ الديوان مشافَهةً فيكتبه من غير شاهد عنده ، وذلك فى الأمور التى لادَرَكَ فيها على الكاتب ، كتقاليد النُّوّاب وبعض المكاتَبات ، إذ لا تُهَمَة تلحقُ كاتبَ الإنشاء فى مثل ولاية نائبٍ كبيرٍ أو قاضٍ حَفِيل : لأن مثل ذلك لايخفى على السلطان ، فأشبه خِطابُ صاحبِ الديوان فيها الكاتبَ خطابَ السلطان صاحبَ الديوان حيثُ لا شاهدَ عليه إلا اللهُ تعالىٰ ، بخلاف الأمور التى يلحَق كاتبَها الدَّرَكُ ، فإنه لابُدّ فى كتابتها من تخليدِ شاهدٍ . وكان الواجب أن لا يُكتبَ حقيرٌ ولا جليلٌ إلا بشاهدٍ من صاحب الديوان ، فإن الأمورَ تتراكم وتكثُر ، والإنسانُ معرَّضٌ للنسيان ، وربما عرَضَ إنكارٌ بسببِ ما يكتُبه الكاتبُ ونَسِيَهُ صاحبُ الديوان فيكون الكاتبُ قد عرَّضَ نفْسَه لأمرٍ عظيم . ولا يُقاسُ الكاتبُ على صاحب الديوان فى عدمِ أخذه شاهدًا بخطّ السلطان ، فإن صاحبَ الديوان هو المتصرّف حقيقةً ، والسلطانُ وكلُّ جميع أمور المملكة إليه ، فلا يُتَّهَم فى شىء منها ، بخلاف الكاتب .

وقد ذكر أبو الفضل الصُّورىّ فى "تذكرته" أن المكتوبَ من الديوان إن كان مكاتبةً فالواجب أن يكون عُنْوانُها بخط متولّى الديوان ، وإن كان منشورًا فالواجب أن يكون التاريخُ بخَطّه ليدُلَّ على أنه وقَفَ على المكتوب وأمضىٰ حُكْمَه ورَضِيَه ، ويكون ذلك قد قام مَقَام كتابةِ آسمه فيه . ثم قال : وقد كان الرسمُ بالعِراق — وفيه الكُتّاب الأفاضلُ — أن يَكْتُبَ الكُتّابُ ما يكتُبون ثم يقولون فى آخره : « وكتب فلانُ بن فلان» بآسم متولّى ديوان الرسائل . وماذكره عن أهل العراق قد ذكر نحوه أبو جعفر النَّحاسُ فى "صناعة الكُتّاب" إلا أنه قد جعل بدل آسم متولّى الديوان آسمَ الوزير [فقال] ويُكْتَب فى آخر الكتاب «وكتب فلانُ بنُ فلان» باسم الوزير وآسم أبيه . وقد رأيت نُسَخًا عدّةً من سِجِلّات الخلفاء الفاطميين بالديار المِصْرية

مستشهَدا فيها باسم الوزير على النَّهج المذكور . على أنه كان الواجب أن يكون الاستشهادُ فى آخر كل كتاب بٱسم كاتبه الذى يكتُبه ليُعلَم مَنْ كتبه ، فإن الخطوط كثيرةُ التشابُه ، لاسيما وقد كثُر كُتَّاب الإنشاء فى زماننا وخرجوا عن الحدّ ، حتّى إنه لم يَعْرِف بعضُهم بعضا فضلا عن أن يَعْرِف خَطَّه . وقد كان كُتَّاب النبيّ صلّى الله عليه وسلم إذا سَجَّلُوا عنه سِجِلًّا أو نحوه كتب الكاتب فى آخره «وكتب فلان ٱبن فلان» . وهذه الرُّقْعة التى كتبها النبيّ صلّى الله عليه وسلم لتميم الدارِيّ بإقطاع قُرًى من قُرَى الشام موجودةٌ بأيدى التميميِّين إلى الآنَ مستشْهَدا فيها بخَطّ أميرالمؤمنين علىّ بنِ أبى طالب كَرَّم الله وجهه . وإنما عَدَلُوا عن ٱسم الكاتب نفسِه إلى ٱسم متولِّى الديوان أو الوزير ٱستصغارًا للكاتب أن يُستَشْهَد للكتّاب باسمه فيما يُكتَب به عن الخليفة . قال أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" : وقد قالوا إن أوّل مَنْ كتب فى آخر الكتاب «وكتب فلانُ بنُ فلان» أُبَىُّ بنُ كعبٍ رضى الله عنه .

الصِّنف الثانى

(ما يصدُر عن غير صاحبِ ديوان الإنشاء : كالأمور التى يُكتَب بها من الدواوين السلطانية غيرِ ديوان الإنشاء وتُلْتَمَس الكُتُب من ديوان الإنشاء على مقتضاها ، كالمكاتبات الخاصّة بتعلُّقات شىء من الدواوين المذكورة ، وبعضِ التواقيع التى أصلُها من ديوان الوزارة)

ويَنحصِر ذلك فى أربعة دواوين :

الديوان الأوّل — ديوانُ الوزارة : وهو أعظمُها خَطَرا ، وأجلُّها قَدْرا .

وقد جرت العادةُ أنه إذا دعت الضرورةُ إلىٰ كتابة كتابٍ من ديوان الإنشاء يتعلّقُ بديوان الوزارة أن تكتبَ به قائمةٌ من ديوان الوزارة فى ورقةٍ ديوانيّةٍ بمـا مثاله : « رُسِم بالأمر الشريف ـ شرفه الله تعـالىٰ وعظمه ـ أن يُكْتَب مثـالٌ شريف إلىٰ فُلانٍ الفلانى بكذا وكذا » . وكيفية وضع هذه القـائمةِ أن يكون السطرُ الأوّلُ فى رأس الورقة من الوجه الأوّل منها، وآخره «شرفه الله تعالىٰ وعظّمه» وبينه وبين السطر الثـانى قدرُ إصبعين معترِضين بياضا، وباقى السطور مسترسلةٌ متقارِبةٌ بقلم الرِّقاع؛ ويكتُبُ الوزير فى البياض الذى بين السطر الأوّل والثـانى بقلم الثلث مامثاله : «يُكْتَب» . ويوجَّه بالقائمة إلىٰ ديوان الإنشاء صحبةَ مديرٍ من ديوان الوزارة أوغيره، فيَكْتُب علىٰ حاشيتها يُكْتَب بذلك، ويُعيِّنها علىٰ بعض كُتّاب الإنشاء فيكتب مثالا بمـا فيها، ويخلِّد القائمةَ عنده شاهدًا له؛ وربما خُلِّدت بديوان الإنشاء فى جملة مايخَلَّد فى الأضابيرِ شاهدًا لديوان الإنشاء، والأوّل هو الأليقُ .

وإن كان الذى يُكْتَب من ديوان الوزارة توقيعًا باطلاقٍ أو نحوه ممـا أصـلُهُ من ديوان الوزارة، كتب الوزيرُ علىٰ حاشيةِ قصةِ صاحبه ما مثاله «يكتب بذلك، أو يُوقَّع بذلك » وتُبْعَث إلىٰ ديوان الإنشاء فيكتُب عليهـا صاحبُ ديوان الإنشاء بالتعيين . ثم إن كان التوقيع مُلْصَقا بقصةٍ فذاك ، وإلا خلَّد الكاتبُ القصةَ شاهدًا عنـده علىٰ ذلك ؛ وربمـا كُتِب بالإطلاقات من ديوان الوزارة مُرَبّعـاتٌ بخطِّ مُســتوفِى الصُّحْبة .

الديوان الثـانى ـ ديوانُ الخاصّ :

وهو فى كتابة الأمثلةِ الشريفةِ علىٰ مامرّ من كتابة القائمة ليخرجَ المثالُ علىٰ نظيرها، علىٰ ماتقدّم فى ديوان الوزارة . فتكتبُ القـائمةُ علىٰ الحُكْم المتقـدّم من غير فرق،

ويكتب ناظرُ الخاص عليها نظير كتابة الوزير السابقة ، ويوجّه بها إلىٰ ديوان الإنشاء فيكتب عليها بالتعيين كما تقدّم، ويخلّد الكاتبُ القائمةَ عنده شاهدًا له، أو تُخلّد بديوان الإنشاء علىٰ ماتقدّم فى ديوان الوزارة . ولا يُكْتَب من ديوان الخاصّ تواقيعُ بإطلاقات ونحوها بل تُكْتَبُ بها مراسيمُ مربّعة فى ورقٍ شامىّ بخط مباشِرى ديوان الخاصّ .

الديوان الثالث — ديوانُ الإستَدّاريّة :

وحكمُه فى ذلك حكمُ ديوان الخاصّ من غير فَرْق ، ويَكْتُب الإستَدّار عليها كما يكتُب الوزير وناظرُ الخاص، ويبعث بها إلىٰ ديوان الإنشاء ، فيجرى الحكمُ فيها علىٰ ماتقدّم فى الديوانين المذكورين .

الديوان الرابع — ديوان الجَيْش :

والذى يرد إلىٰ ديوان الإنشاء منه آبتداءً هى المربّعات التى تُكْتَب بالإقطاعات لتخرُج المناشيرُ علىٰ نظيرها .

وصورتها أن يُكْتَب فى نصف فرخةٍ مكسورة فى القَطْع البلدىّ بعد البسملة الشريفة مامثاله «المرسوم بالأمر العالى، المَوْلوىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ، الفلانىّ، أعلاه الله تعالىٰ وشرّفه، وأنفذه وصرّفه، أو أعلاه اللهُ تعالىٰ وأسماه، وشرّفه وأمضاه ، أن يُقْطَع باسم فلانٍ الفلانى — أحدِ الأمراء المقدّمين ، أوالطبلخانات ، أوالعشرات، أوالخمسات — بالمكان الفلانى، أوأحدِ المماليك السلطانية، أومقدّمى الحَلْقة، أو أجنادِ الحَلْقة، بالمكان الفلانىّ المرسوم آستقرارُه فى أمراء العشرات ، أو الطَّبْلخانات، أوالمقدّمين، أونحو ذلك — ماأُرسم له به الآنَ من الإقطاع» . فإن كان أميرا قيل بعد ذلك : «لخاصّته ولمن يستخدِمه من الأجناد الجِياد للخِدْمة الشريفة ، والبَرْك التام ، والعُدّة الكاملة ، بمقتضى المثال الشريف ، أو الخَطّ

العالى الكافلى"؛ أو بمقتضى الإشهاد المشمول بالخطّ الشريف ، أوالخط الكافلى" علىٰ نظير ما تقدّم » أو « بمقتضى المربّعة المكتتبة من المملكة الفلانية المشمولة بالخط الشريف» إن كان أصله مربّعةً من بعض الممالك وما أشبه ذلك . فإن كان أميرا ذُكرت عِدّته علىٰ ما سيأتى فى الكلام علىٰ المناشير فى المقالة الخامسة . ثم يقال : « حَسَب الأمر الشريف » ويكمل التاريخ « والحمد لله ، والصلاة علىٰ النبى صلّى الله عليه وسلم » ويُبْعث بها إلىٰ ديوان الإنشاء فيكتب عليها صاحب الديوان بالتعيين علىٰ بعض كُتّاب الإنشاء ، فيكتبها ويخلّد المربعةَ شاهدا عنده .

الضرب الثانى

(ما يتعلق بالكُتُب فى المظالم ، والنظرُ فيه من وجهين)

الوجه الأوّل

(فيما يتعلّق بالقِصَص)

وهى تُرفع إلىٰ وُلَاة الأمور بحكايةِ صورةِ الحال المتعلّق بتلك الحاجة ، وسُمّيت قصصا علىٰ سبيل المجاز، من حيث إن القِصّة آسم للمحكىِّ فى الورقة لا لنفس الورقة . وربما سُمّيت فى الزمن القديم رِقاعًا لِصغَر حَجْمها ، أخذا من الرُّقعة فى الثوب .

ثم الذى يجب فى هذه القِصَص الإيجازُ والآختصارُ مع تبليغ الغَرَض المطلوب والقُرْب من فَهْم المخاطَب ، فإنها متىٰ كانتْ خارجةً عن الحدّ فى الطول ، أدّت إلىٰ الإضجار والسّآمة المتفرِّين للرؤساء . وربما كان فى ذلك حرمانُ الطالب ودَفْعه عن حاجته : إما للإعراض عنها آستثقالا، وإما لعدم فَهْم المقصود منها لطُولها وآختلاطِ بعض مقاصِدِها ببعض. وأما كونُها مبلِّغةً للغرض المطلوب وفَهْم المخاطب ،

فلانها إذا كانت بصَددِ الاختصار المُجحِف والتعقيد، نَبَا عنها فهم الرئيس ومَجّها سمعُه : فإما أن يُعرِض عنهــا فيفُوتَ علىٰ صاحبها المطلوبُ، وإما أن يسأل غيره عن معناها فيكون سبباً لتنزّله عن عِزّ الرياسة إلىٰ ذُلّ السؤال، وكلاهما غير مستحْسَن .

وقد جرتِ العادةُ فى مثل ذلك أن يخلّى من أوّل الورقة قليلا ، ويجعل لها هامش بحسَبِ عَرْضها ، ويبتــدأ فيها بالبسملة ثم يُكْتَب تحت أول البسملة : «المملوكُ فلان يقبّل الأرضَ، ويُنْهِى كذا وكذا » إلىٰ آخر إنهائه : ثم يقال : « وسؤالُه كذا وكذا » فإن كان السؤال للسلطان قال : «وسؤالُه من الصَّدَقات الشريفة كذا وكذا» وإن كان السؤال لغير السلطان قال : « وسؤاله من الصدقات العميمة كذا وكذا » . ثم إن كان المسئــول كتابا : فإن كان عن السلطان قال : وسؤاله مثالٌ شريفٌ بكذا وكذا، وإن كان عن غير السلطان قال : « مثالٌ كريمٌ بكذا وكذا » ثم يقول إن شاء الله تعالىٰ، ويحمَدُ الله تعالىٰ ويصلّى علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم ويُحَسْبِلُ . وربما كتب « المملوك فلان » بحاشية القِصّة، خارجا عن سَمْت البسملة . وربمــا أُبْدِل لفظُ المملوك بلفظ الفَقير إلىٰ الله تعــالىٰ . ويقال حينئــذ بدل « يقبّل الأرضَ » « يبتَهِــل إلىٰ الله تعالىٰ بالأدْعية الصــالحة » أو « يواصــل بالأدْعيَة الصالحــة » ونحو ذلك .

وقد جرتِ العادة فى كتابة القِصَص أن صاحبها إن كان أميراً ونحوَه كَتَب تحت البسملة « المَلَكىّ الفلانىّ » بلقب سلطانه ، مخلّياً بياضا من جانبيها . علىٰ أنه قد تصــدّى لكتابة القصص من لايفرّق بين حسَنَهــا وقَبِيحها ، ولا ينظُر فى دلالتها ، ولا يُراعِى مدلولها . وذلك كسُنّة الزمان فى أكثر أحواله .

قلت : وقد جرتْ عادةُ أكثر الناس فى القِصَص أنه إذا فرغ الكاتبُ من كتابة القِصَّــة يقطع قليلا من زاويتها اليمنىٰ من الجهة السُّــفْلىٰ، مستنِدينَ فى ذلك إلىٰ كراهة التَّربيع .

ومن غريب ما يُحْكىٰ فى ذلك أن بعض الوزراء قال يوما بمجلس (١) ... ... وأنا وُلِّيتُ الوزارةَ رابعَ ربيع الأوّل ســنةَ أربع وأربعين وأربعمائة ــ فقال له بعض جلسائه : إن تفاءلتَ أنتَ به فقد تطيَّرنا نحنُ به . ولا شكَّ أن مستندَهم فى ذلك التشاؤم بالتربيع فى القِرَان النُّجومىّ ، ولا يُعَوَّل عليه . وقد ورد أنَّ حوضَ النبىّ صلّى الله عليه وسلم فى القيامة زَواياه علىٰ التربيع ، ولولا أن التربيعَ أحسنُ الأشكال لمــا وُضِع عليه حوضُ النبىّ صلّى الله عليه وسلم .

الوجـــه الثــانى

(فيما يتعلق بالنَّظَر فى المَظَالم ، وما يكتَبُ علىٰ القصص ، وما يَنْشأ عنها من المُساءلات وغيرها)

وهو أمرٌ مُهِمٌّ ، به يقَعُ إنصافُ المظلومِ من الظالم ، وخَلاصُ المُحِقّ من المُبْطِل ، ونُصرةُ الضعيف علىٰ القوىّ ، وإقامةُ قوانينِ العدل فى المملكة . وقد نَبَّه أبو الفضل الصُّورى فى "تذْكِرته" علىٰ جَلَالة هــذا القدر وخَطَره ، ثم قال : ومن المعلوم أن أكثر المتظلِّمين يَصِــلُون من أطراف المملكة ونواحيها ، وفيهــم الحُرَم والمنقَطِعات

(١) بياض فى الأصول بقدر كلمتين .

والأيتام والصّعاليك ، وكلُّ من يَفِد منهم معتقدٌ أنه يصير إلىٰ مَنْ ينصره ويَكْشِف ظُلامته ويُعْدِيه علىٰ خَصْمه . فيجب أن يُتَلَقّىٰ كلٌّ منهم بالتَّرحاب واللُّطف، ويُنْدَبَ لهم من يحفَظ رِقَاعَهم ويَتَنَجَّز التوقيعَ فيها من غير آلتماس رَشْوة ولا فائدةٍ منهم ، وأن تكون التوقيعاتُ لهم شافيةً فى معانيها ، مستوعِبةً لكَشْف ظُلَاماتهم ، مُؤْذِنةً بإنجاح طَلِباتِهم .

قال أبو هلال العسكرىّ : فى كتابه " الأوائل " : كان المهدىُّ يجلِس للظالم وتُدْخَل القِصصُ إليه ، فأرتشىٰ بعضُ أصحابه بتقديم بعضها ، فاتخذ بيتا له شُبَّاكٌ حديدٌ علىٰ الطريق تُطْرَح فيه القِصَص ، وكان يدْخُله وحده فيأخُذ ما يقع بيده من القِصَص أوّلا فأوّلا فينظر فيه لئلّا يُقَدَّم بعضها علىٰ بعض .

قال : وقدم عليه رجل فتظَلَّمَ فأنصفه فاستخفّه الفَرَح حتّىٰ غُشِيَ عليه ، فلمّا أفاق قال : ما حَسِبت أنى أعيشُ حتّىٰ أرىٰ هذا العدلَ فلما رأيته داخلَنِي من السرور مازال معه عَقْلِي ـ فقال له المهدىّ : كان الواجبُ أن نُنْصِفَك فى بلدك ، وكان قد صَرَف فى نفقة طريقه عشرين دينارا فأمر له بخمسين دينارا وتحلّل منه .

قال أبو الفضل الصُّورىّ : ومهما كان من الرِّقاع يحتاجُ إلىٰ العَرْض علىٰ السلطان ، عَرضه عليه ، وأحسنَ السِّفارةَ والتلطُّف فيه ، ووقَّع بما يؤْمَرُ به ، فقد تحدُث فى هذه الرقاع الأمورُ المهمَّةُ التى تنتفِعُ بها الدولة ، وتستضِرُّ بتأخير النظر فيها ، ويفهم من طيّ هذه الرقاع من جَوْر بعض الوُلَاة والمستخْدَمين ما توجِب السياسةُ صَرْفهم عمّا وُلُّوه منها . ومهما كان منها مما يَشُكُّ السلطان فى صحته ، نَدَب مَنْ يَثِق به للكَشْف مع رافعه ، فإن صح قوله أُنْصِف من خَصْمه ، وإن بان تمحُّله قُوبِل بما

يَرْدَعُ أمثـاله عن الكَذب والتمرُّد، ويعلم الوُلاةُ والمشارِفُون وسائرُ المستخْدَمين أنّ السـلطان متفرِّغ للنظر فى قِصَص النـاس وشَكاوِيهم ، وقد نصب لذلك من يتفرّغ له ويطالعه بالمُهِمّ منه فيكُفّ أيديهم عن الظلم ، ويحذَرُون سُـوءَ عاقبة فعلهم ، ويقِلُّ المتظلِّمون قولا واحدا ، وتحسُن سُمْعـةُ الدولة بذلك فيكونُ لهـا به الجمـالُ الكبير .

قلت : والذى يُرفَع من القِصَص فى معنىٰ ذلك فى زماننا علىٰ ستة أنواع .

النـــوع الأوّل

منهـــا

(ما يرفع إلىٰ السلطان فى آحاد الأيّام)

وقد جرت العـادةُ فيه أن يُقْرأ علىٰ السلطان : فمـا أمضاه منه كُتِب علىٰ ظهر القِصّة ما مثاله «يكتَب» ثم تحمل إلىٰ كاتب السر فيعيّنها علىٰ بعض كُتّاب الإنشاء، فيكتُب بمقتضاها ويخلّدها عنده شاهدًا له .

النـــوع الثـانى

(ما يُرفَع لصاحب ديوان الإنشاء)

وقد جرتِ العادةُ فى ذلك أنّ رافع القِصّة والمحتاجَ إلىٰ الأمثلة الشريفة السلطانية فى مُهِمّاته ومتعلّقاته إن كان من الأعيـان والمعتبَرِين كأحدٍ من الأمراء أو الممـاليك السلطانية وأكابرِ أرباب الأقلام ، بعَث بقصّتِه لديوان الإنشاء ، فيقف عليها صاحبُ ديوان الإنشاء ويتأمّلهـا وينظر ما تضمّنته ، فإن كان ممـا يُحتاج فيه إلىٰ مخاطَبة السـلطان ومؤامَرته ، أخذها ليقرأها عليه عند حُضُوره بين يديه ، ويمتثل

ما يأمُر به فيها، فيكتب بمقتضاه، سواء طابقَ سُؤالَ السائل أم لا، ويعيِّنها علىٰ كاتب من كُتَّاب الإنشاء، فيكتب بمقتضاها ويخلِّد القصةَ شاهدا عنده . وهذه المثالات ورقُها من ديوان الإنشاء من المرتَّب السلطانى . وإن كان رافعُ القصة من غير المعتَبَرين كآحادِ الناس، دفعَ القصة إلىٰ مُدير من مُدَراء ديوانِ الإنشاء فيجعل عليها علامةً له، ويجمع كلُّ مديرٍ مامعه من القِصَص، وتُرْفَع إلىٰ صاحب ديوان الإنشاء، فما كان منها غيرَ سائغ للكتَابة عليه قَطَعه أو ردّه؛ وما كان منها سائغًا كتب عليه وعَيَّنه . وربما آستَشْكل بعضَها فأخَّره ليقرأه علىٰ السلطان وينظُرَ ما يأمُر به فيه فيَعْتَمِدُه . وإذا عيَّنها علىٰ كاتب من كُتَّاب الإنشاء كتب بمقتضاها وخلَّدَ القِصَّة عنده شاهدا .

النوع الثالث

(ما يُرْفَع من القِصَص بدار العَدْل عند جلوس السلطان للحُكم فى المواكب)

وقد جرتِ العادةُ فى ذلك أنه إذا ترتَّب مجلسُ السلطان علىٰ ماتقدّم فى ترتيب المملكة أن القِصَص تُفَرَّق علىٰ كاتب السرّ ومَنْ حضر من كُتَّاب الدَّسْت، فيقرأ كاتبُ السرّ منها ما عَنَّ له قراءتُه؛ ثم يقرأ الذى يليه من كُتَّاب الدَّسْت، ثم الذى يليه إلىٰ آخرهم؛ ويشيرُ السلطان برأسه أو يده بإمضاء ماشاء منها؛ فيكتُب كاتب السرّ أو كاتبُ الدَّسْت علىٰ تلك القِصَّة بما فيه خلاصُ قلَمه، ثم تُحمَلُ إلىٰ ديوان الإنشاء فيعينها علىٰ من يشاء من كُتَّاب الإنشاء فيكْتُبها، ويخلِّد تلك القِصَص عنده شاهدا .

النـــوع الرابع

(مايُرفَع منها للنائب الكافل، إذا كان ثَمَّ نائبٌ)

وقد جرتِ العادةُ أن النائب يكونُ عنده كاتبٌ من كُتَّاب الدَّسْت يجلس بين يديه لقراءة القِصَص عليه ، وتنفيذ ما يُكْتَبُ عنـه . فاذا رُفِعت القصـةُ إلىٰ النـائب الكافل قرأها عليه كاتبُ الدَّسْت وآمتثـل أمْرَه فيها ، وأصلح فى القِصَّـة مايجبُ إصلاحُه، وضرب علىٰ ما يجب الضربُ عليه، وزاد بين سطورِه ماتقتضيه الزيادةُ؛ ثم تُدفع القصةُ إلىٰ النائبِ الكافل ، فيكْتُب علىٰ حاشيتها فى الوسَطِ آخذًا من جهة أسفلِها إلىٰ جهةِ أعلاها بقَـلَم مختصرِ الطُّومار مامثاله «يُكْتَب» ثم تحمَـلُ بعدَ ذلك إلىٰ كاتب السر فيعيِّنها علىٰ بعض كُتَّاب الإنشاء فيكْتُبها .

النـــوع الخامس

(ما يُرفَع من القِصَص إلىٰ الأتابك، إذا كان فى الدولة أتابك عَسْكر : وهو الأمير الكَبِير)

وغالب ما يكون ذلك إذا كان السلطان طِفْلا أونحوَ ذلك . وقد جرتِ العادةُ أن يكون عند الأتابك كاتبٌ من كُتَّاب الدَّسْت أيضا، فاذا رُفِعت القصةُ إلىٰ الأتابك : فإن كان الأمرُ فيها واضحًا كخلاص حقٍّ أونحوه ، كتب كاتبُ الدَّسْت علىٰ حاشيتها ماتقتضيه الحالُ فى ذلك من غير قراءتها علىٰ الأتابك . وإن كان الأمرُ فيها غيرَ واضح كما إذا كان الأمرُ راجعا إلىٰ مُنازَعةِ خَصْمين ونحو ذلك، قرأها علىٰ الأتابك وآمتثل أمْرَه فيها، وكتب عليها ما يَرْتَسِمُ بِهِ مرسُومُه . وفى كِلتا الحالتين جَرَت العادةُ فى زمننا [أنه يَعْمد] إلىٰ أشهر حرفٍ فى آسم الأتابك فيرقُمُه فى آخر ما يكتُبه أو تحته، كما كان يُكْتَب عن برقوق قبل السلطنة (ق) وعن ايتمش (ش) وعن نوروز (ن) ونحو ذلك .

النـــــوع السادس

(ما يُرْفَع منها للدَّوادار لتُعَلَّق عنه الرسالةُ عن السلطان به)

وآعلم أن العـادة كانتْ جاريةً فى الزمن المتقدّم أن السلطانَ إذا أمر بكتابة شىء على لسان أحدٍ من الدَّوَادارِيَّة ، حَمل بَرِيدىٌّ من البريديَّة الرسـالةَ لذلك عن ذلك الدَّوادار إلىٰ كاتبِ السرّ فيسـمَعُ كلامَ البَرِيدىّ ويكتبُ علىٰ القِصَّة إن كانت أو ورقةٍ مفردة مامثاله : «حضرت رسالةٌ علىٰ لسان فلان البَرِيدىّ بكذا وكذا» ويعيِّنه علىٰ مَن يكتُبه من كُتَّاب الإنشاء . ولم يزل الأمرُ علىٰ ذلك إلىٰ الدولة النـاصرية «محمد بن قلاوون» فأفرد المَقَرُّ الشِّهابىُّ بنُ فضل الله صاحبُ ديوان الإنشاء كاتبـا من كُتَّاب الإنشاء لتَعْليق الرسالة ؛ فصار يكتب ما كان كاتبُ السرّ يكتُبه من ذلك علىٰ القِصَص أو الورقـة المفردة ثم تُرْفَـع إلىٰ كاتب السرّ فيكتُب عليهـا بالأمر بكتابتها ، ويعيِّنها علىٰ مَنْ يكتب بمقتضاها ، وتُخَلَّد القصةُ أو الورقة التى عُلِّقت فيها الرسالةُ عنده شاهدًا له . وآستمرّ ذلك إلىٰ مُباشرة القاضى فتح الدين بن شاس أحد كُتَّاب الدست عند الدَّوادار ، والدَّوادارُ يومئذ الأميرُ يونس النَّوْرُوزى ، فأذن له كاتبُ السرّ فى تعليق الرسالة عن الامير يُونُس الدَّوادار علىٰ ظُهور القِصَص وغيرها ففعل . وكان يكتُبُ علىٰ حواشى القِصَص فى وَسَـط القِصَّة آخذًا من جهة اليمين إلىٰ جِهَة اليسار بمَيْلة إلىٰ الأعلىٰ بقلم دقيقٍ متلاصقِ الأسْطُر ما مثاله : «رُسِم برسالة الجناب العالى الأميرىّ الكبيرىّ الشَّرَفىّ يونُس الدَّوادار الظاهرىّ ـ ضاعفَ الله تعالىٰ نعمته ـ أن يُكْتَب مثالٌ شريف بكذا أو توقيع شريفٌ بكذا» وما أشبه ذلك ، ويؤرِّخه بيوم الكتابة ، ثم تحمل إلىٰ كاتب السرّ فيكتب عليها بالأمر بالكتابة ، ويعيِّنها

علىٰ كاتبٍ من كُتَّاب الإنشاء، فيكتُب بمقتضاها ويخلِّدها شاهداً عنده . وجرىٰ الأمر علىٰ ذلك بعده إلىٰ آخر وقتٍ .

قلت : وقد كان في الدولة الفاطميّة كاتبٌ مفرَد لتعليق الرسالة عن الخليفة، يسمّى صاحبَ القلم الدقيق ، يعلّق ما تَبْرُز به أوامر الخليفة في الرِّقاع وحَوَاشي القِصَص ، وتُحمَل إلىٰ ديوان الوزارة ، فيعتَمِدُها الوزير، ويُبْرِز أمْرَه إلىٰ ديوان الإنشاء باعتمادها وكتابةِ ما فيها ، علىٰ ماتقدّم ذكره في ترتيب الخلافة الفاطمية بالديار المصرية في المقالة الثانية .

الفصـــــل الثــاني

(في التعيين وكيفية كتابة صاحب ديوان الإنشاء علىٰ الرِّقاع والقِصَص، وتعيينها علىٰ كُتَّاب الإنشاء)

ويختلف الحال في ذلك باختلاف حالِ الكاتب المعيَّن عليه وحالِ الرُّقْعة المعيَّنة . فأما آختلافه باختلاف حال مَنْ يعيَّن عليه. فإنه إن كان المعيَّنُ عليه كاتبا من كُتَّاب الدَّسْت ، كتب له كاتبُ السرّ في التعيين : « المولىٰ ، القاضي، فلان الدين ، اعزّه الله تعالىٰ » وربما رَفَع قدرَه علىٰ ذلك فيكتب له : « المولىٰ ، الأخُ ، القاضي ، فلان الدين ، أعزّه الله تعالىٰ » . وإن كان من كُتَّاب الدَّرْج : فإن كان كبيرا كتب له : « المولىٰ فلان الدين » . وإن كان صغيرا ، كتب له : «الوَلَدُ فلان الدين » وربّما وقع التمييز لبعض كُتَّاب الدَّسْت أو كُتَّاب الدَّرْج للتقدّم بالفضـل فكتب له : « المولىٰ ، الشيخ فلان الدين » أو « الشيخ فلان الدين » تارةً مع الدعاء وتارة دُونَه .

*

وإما اختلافه باختلاف حال المكتوب الذى يعيّن، فإنه إن كان قصّةً بظاهرها خط السلطان «يُكْتَب» فموضع كتابة التعيين تحت خط السلطان بظاهر القِصّة، ولا كتابة له عليها غير ذلك .

وإن كان رُقْعةً جميعها بخط كاتب السرّ، فإنه يكتب فيها «يكتب بكذا وكذا» ثم يكتب التعيين بأوّل ذيلها .

وإن كان قصةً رفعت إلىٰ كاتب السرّ، فإنه يكتب علىٰ حاشيتها فى اعاليها آخذا من جهة اسفلِ القِصة إلىٰ أعلاها ما مثاله : «يُكْتَب بذلك» أو «يكتب بكذا وكذا» ثم يَكْتُب التعيين بحاشيتها أسفلَ ذلك فى عَرْض الحاشية مُميلا للكتابة إلىٰ جهة الأعلىٰ قليلا .

وإن كان قصةً عليها خطُّ النائب الكافل، فإنه يكتب عليها بالتعيين ليس إلا، وموضع التعيين فيها بحاشية القِصّة أسفلَ خط النائب .

وإن كان قصةً قد كتب بهامشها مرسومُ الأتابك أو عُلِّق بحاشيتها رسالةُ الدّوادار، كُتِب فى جهة أعلىٰ القصة : «يكتب بذلك» وعلىٰ القُرْب منه التعيين. وإنما يُكْتَب هنا فى جهة أعلىٰ القصة وفيما عليه خَطُّ النائب الكافل فى جهة أسفلها لأن التعليق الذى علىٰ الهامش فيما عُلِّق عن مرسوم الأتابك أو رسالة الدّوادار بخط كاتب الدَّسْت الذى فى خدمته، بخلاف ما عليه خَطُّ النائب بنفسه .

وإن كان الذى يقع فيه التعيين قائمةً من ديوان الوزارة، أو ديوان الخاصّ أو ديوان الإستَدّار، كتب بهامش القائمة من أعلاها مقابِلَ كتابة المتحدّث علىٰ ذلك الديوان ما مثاله : «يُكْتَب بذلك» ثم يكتب التعيين تحته علىٰ القُرْب منه .

وإن كان الذى يقع فيه التعيين مَربَّعةَ إقطاعٍ من ديوان الجيش، كَتَب بالتعيين فى آخرها مقابِلَ التاريخ من الجهة اليمنىٰ، ولا كتابةَ له عليها غير ذلك .

قلت : وقـد جرتْ عادةُ كُتّاب السرّ فى زمانـا أنه يُكْتَب علىٰ القِصَص ونحوها، "يُكْتَب بذلك" أو "يُكْتَب بكذا وكذا" علىٰ ما تقـدّم بيانه بغير لام فى أوّله . وكذلك الوزير وناظر الخاصّ والإستدّار يكتبون بغـير لام فى الأوّل . أما القُضَاة فى الإذن بكتابة المَحـاضر ونحو ذلك فإنهـم يكتبون "لِيُكْتَبْ" باثبات اللام فى أوّله ، وهـذه اللام تسمّى لامَ الأمر وقد صرّح الإمام أبو جعفر النحاسُ فى "صناعة الكُتّاب" أنه لا يجوز حَذْفها . وعلىٰ ذلك ورد لفظ القرءان الكريم كما فى قوله تعالىٰ : ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ . وقوله : ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ ونحو ذلك . وحكىٰ جمالُ الدين آبنُ هشام فى المغنى [(1) جوازَ حذفها فى الشِّعر كقوله :

فَلَا تَسْتَطِلْ مِنِّى بَقَائِى ومُدَّتِى * ولٰكِنْ يكُنْ لِلْخَيْرِ مِنْكَ نَصِيبُ!

وقـــوله :

مُحَمَّدُ تَفْدِ نَفْسَـكَ كُلُّ نَفْسٍ * إذا ما خِفْتَ مِنْ شَىْءٍ تَبَالَا! (2)] .

الطَّرَف الثـانى (2)

(فى كتابة المُلَخَّصات والإجابةِ عنها من الدواوين السلطانية)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ ما يَنْظُر فيه صاحبُ الديوان أنه لمـا كان صاحبُ ديوان الإنشاء يَضيق زمنُه عن آستيعاب حال الكُتُب الواردةِ من المملكة لوُفُورها وآتّساع

(1) بيض فى الأصول لهذه الجملة، وقد نقلناها من المغنى (ج ١ ص ٢٢٣) والشاعر يخاطب ابنه لما تمنىٰ موته .

(2) لم يتقدّم له تقسيم بالأطراف فى هذا الباب ولم يذكر الاول حتىٰ يكون هذا ثانيا له نعم قال فى عنوان الباب انه يتكلم فيه علىٰ كتابة الملخصات فهو مما وعد به وجل من لا يسهو .

الدولة وكثرةِ المكاتبين ، ناسب أن يتّخذَ كاتبًا يتصفّح الكُتُبَ الواردةَ ويتأملها ، ويلخِّص مقاصِــدَها؛ قال أبو الفضــل الصُّورى فى "تذْكِرته" : والرسم فى ذلك أن الكاتب الذى يُقيمه صــاحبُ الديوان يتَســلّم الكتبَ الواردةَ ويُخرجُ معانيَها علىٰ ظهورها ، ملخِّصا الألفاظَ الكثيرةَ فى اللفظ القليلِ ، غير مخلٍّ بشىء من المعنىٰ ولا محرِّفٍ له ، مُسْقِطا فضولَ القول وحَشْوَه ، كالدعاء والتصدير والألفاظ المتردِّدة .

قال : ويُخْرِج أيضا مايختصُّ بديوان الخَرَاج ، من الأمور التى تردُ ضِمْنَ الكتب فى معنىٰ الخراج فى أوراق يُعيِّن فيهــا الكتبَ التى وصلَتْ فيها وتاريخَها والجهةَ التى وردت منها ، ويَنُصُّها علىٰ هيئتها ، ويوجِّهها إلىٰ ديوان الخَراج ، فيجاب عنها منه ، ويستدْعِى من متولِّى ديوان الخراج الجوابَ عنها ؛ ثم يُعْرَض جميع ذلك علىٰ الملك ، ويســتخْرِج أمره بإمضاء المكاتَبةِ به أو بغــيره . فإن كان بخطٍّ مخالفٍ للعربىّ : كالرُّومىّ والفَرَنْجِىّ والأرمَنِىّ وغيرها ، أحضر مَنْ يعرف ذلك الخــطَّ ممن يُوثَق به ليتَرْجمه فى ظَهْره ، فإن كان ذلك المترجِمُ يُحْسِن الخطَّ العربىّ ، كتب بخطه فى ظهر الكتاب ما مثاله « يقول فلان : إنى حضرْتُ إلىٰ ديوان الإنشاء وتســلمْتُ الرُّقعةَ أو الكتابَ الذى هذا الخط بظاهره ، وسُئِلتُ عن تفسيره فذكرتُ أنه كذا وكذا» ويَسْرُدُه إلىٰ آخره «وبذلك أشهدْتُ علىٰ نفسى» ويشهدُ عليه شاهدانِ: «هذا الذى ذكره بلا زيادةٍ ولا نقص » .

وإن كان الكتابُ مشحونًا بالكلام بطنًــا وظهرًا ، نقله بخطه بالقــلم الذى هو مكتوبٌ به ، وترجمه علىٰ ظاهره بخطِّه بالعربىّ . وإن لم يحسن الكتابةَ بالعربىّ ، كتب عنــه الكاتبُ بمحضر من الشاهدين ،وأشهد عليــه ليَهَابَ أو يُحْجِمَ فيما يقول ، أو يغيِّرَه أو ينَقِّصَــه لأن أكثر من يترجم علىٰ مذهب صاحب الخط ، فربمــا كتم عنه أوداجىٰ فيه . فإذا خُوِّف بالإشهاد عليه وخَشِىَ أنَّ غيره قد يقرَؤُه علىٰ غير الوجه

الذى أَشْهد به علىٰ نفسه ربمـا أَدَّى الأمانةَ فيه . فإذا لُخِّصتِ المكاتبةُ بظاهرِها ، سُـلِّمت إلىٰ متولِّى الديوان ليقابل ظاهِرَها بباطنها : فإن وجده أَخَلَّ فيها بشىء ، أضافه بخطه وأنكر عليه إهمـالَه ليتنبَّه فى المستقْبل . فإن لم يكن فيها خلل عرضـه علىٰ الملِكِ واعتمد أمْره فيه ، وكتب تحتَ كلِّ فصل منها ما يجب أن يكون جوابا عنه علىٰ أحسن الوجوه وأفضلها؛ ثم يسلِّمها إلىٰ مَنْ يكتب الجوابَ عنها ممن يعرف آضْطِلاعه بذلك ؛ ثم يقابل الجوابَ بالتخريج وما وُقِّع به تحته : فإن وَجَد فيها خللا سدّه، أو مُهْمَلا ذكَرَه، أو سَهْوا أصلحه . وإن رآها قد كُتِبت علىٰ أفضل الوُجُوه وأسدِّها، لم يفوِّت فيها معنًى ولم يَزِدْ إلا لفظا يُنَمِّق به كتابه ويُؤَكِّد به قوله، عرضها(١) علىٰ المَلِك حينئذ ليُعَلِّم ؛ ثم اسـتدعىٰ مَنْ يتولَّى الإلصاق فألصقها بحضرته، وجعل علىٰ كلٍّ منهـا بِطاقةً يُشِـير فيها إلىٰ مضمونها ؛ لئلا يُسْأل عن ذلك بعـد إلصاقها فلا يَعْلَم ماهو؛ ثم يسلِّمها إلىٰ مَنْ يتولَّى تنفيذها إلىٰ حيث أُهِّلت له ؛ وتَسَلَّمُ النسخ الملخَّصة إلىٰ من يُؤَهِّله لحفظها وترتيبها .

قلت : قد تبيَّنَ بمـا تقدّم من كلام أبى الفضل الصُّورىّ [ما كان عليه الحالُ فى زمنه] والذى عليـه حالُ الديوان فى زماننا فيما يتعلق بذلك أن الكُتُبَ الواردةَ إلىٰ الأبواب السلطانية من أهل المملـكة وغيرها من سائر الممـالك يتلقَّاها أكبرُ الدّواداريّة : وهومقدَّمُ ألِف علىٰ ماتقدّم ذكره فى الكلام علىٰ ترتيب الدِّيار المصرية؛ ويحضُر القاصدالمُحْضِر للكتاب من بَرِيدىّ أوغيره، ثم يناولُه للسلطان فيفُضُّ خِتامَه، وكاتبُ السرّ جالسٌ بين يديه ، فيدفَعُه السلطانُ إليه ، فيقْرَؤُه عليه ويستصْحِبُه معه إلىٰ الديوان : فإن كان الكتابُ عربيًّا دفعـه كاتبُ السرّ إلىٰ نائبه أو من يُخُصُّـه بذلك ليلَخِّص معناه : فيُنْعِم النظرَ فيـه ، ويستوفى فُصولَه ، ويلَخِّص مَقاصدها ،

(١) فى الاصول ثم عرضها ولكن زيادة ثم فى الكلام تنقصه والظاهر أنها زيادة من قلم الناسخ. تأمل .

ويكتب لكلّ ديوان من الدواوين التى يرفع إليها متعلّق ذلك الكتاب ملخّصا بالفصول المتعلّقة به فى ورقة مفردة،ليجاوبَ عليها متولّى ذلك الديوان بما رُسم له من الجواب عنها .

وآعلم أن الذى تُكتَب له الملَخّصاتُ فى زماننا من الدواوين السلطانية خمسةُ دواوينَ . وهى : ديوانُ الإنشاء ، وديوانُ الوزارة ، وديوانُ الجيش ، وديوانُ الخاصّ، وديوانُ الإستَدّاريّة : وهو الديوان المفرَد .

والطريق إلىٰ كتابة الملَخّصات أن يَحْذِف ما فى صدْر الكُتب من الحَشْو علىٰ ماتقدّم فى كلام أبى الفضل الصُّورِىّ، ثم يَعْمِدَ إلىٰ مقاصد الكتاب فيستوفِى فُصولَه ويتصوّرُها بذهنه، ثم ينظرُ فى متعلّقات تلك الفصول ، ويكتُب لكل ديوان من الدواوين المتقدّمة ملَخّصا بما يتعلق به من الفصول فى فصل واحد أو أكثر، بحسَبِ ماتقتضيه قِلّةُ الكلام وكثرتُه .

وكيفية كتابته أن يترُك من رأس الوَصْل قدرَ ثلاثة أصابع بياضاً، ثم قدرَ إصبعين بياضا عن يمينه ، وقدرَ إصبعين بياضًا عن يساره ، ويكتب فى صدره ما مثاله : « ذكر فلانٌ فى مكاتبته الواردة علىٰ يد فلان المؤرّخة بكذا وكذا » يمدّ لفظ «ذكر» بين جانبى الوصل، ويكتب باقى الكلام تحتها من أوّل الوصل إلىٰ آخره فى العَرْض من غير خُلُوّ بياض « أنه آتفقَ من الأمر ماهو كذا وكذا » أو « أنه سألَ فى كذا وكذا» . ثم يخلّى بياضا قدر أربعة أصابعَ مثلا ويكتب فى وَسَط الدَّرْج بخلوّ بياض من الجانبين ، « وذكر » علىٰ نحو ماتقدّم، ثم يكتب باقى الكلام من أوّل الوصل إلىٰ آخره ، ويفعل ذلك بكل فصل فى الكتاب يتعلّق بذلك الديوان المختص بذلك الملَخّص، ويكتب فى آخر كل فصل «وقد عُرِض علىٰ المَسامع الشريفة» و«مهما برَزَتْ به المَرَاسيمُ الشريفةُ كان العمل بمقتضاه» ونحو ذلك .

ثم إن كان المَلخص لديوان الإنشاء، كَتَب بأعلىٰ الوصل من ظاهره من الجانب الأيسر منه مامثاله «ديوان الإنشاء» . وإن كان لديوان الجَيش كتب هناك مامثاله «ديوان الجيش» . وكذا ديوان الخاصّ وسائر الدواوين المتقدّمة الذكر . فإذا كملت المَلخَّصات، وقف عليها كاتب السرّ : فما كان منها متعلّقا بديوان الإنشاء عرضه علىٰ السلطان وآستمطر جوابه عنه ، فيكتب مقابله فى الملخص « يُكْتَب بذلك » أو « يكتب بكذا وكذا » أو « رُسِم بذلك » أو « رُسِم بكذا وكذا» . وما كان منها متعلّقا بديوان الوزارة بَعَث به إلىٰ الوزير؛ وما كان منها متعلقا بديوان الجيش بعث به إلىٰ ناظر الجيش ؛ وما كان منها متعلقا بديوان الخاص بعث به إلىٰ ناظر الخاصّ : ليقرأ كلٌّ منهم ملخَّصه علىٰ السلطان ويَنْظُر ما يأمُرُ به فيه ، فما كان كَتَب به بجانب الفصل الذى كُتِب به فى الملخَّص « أُمْضِىَ ذلك » أو « لم يمض» أو « رسم بكذا وكذا » ونحو ذلك : وسائر الدواوين علىٰ هذا النمط .

وإن كان الكتَابُ غيرَ عربىّ : فإن كان بالتركية المُغْلِيّة ونحوها كالكُتُب الواردة عن بعض القانات من ملوك الشَّرق ، فإنه يتولّىٰ ترجمتَها من يُوثَق به من أخصّاء الدولة : من الأمراء أو الخاصكيّة ونحوهم ، ممن يَعْرِف ذلك اللسان؛ ثم يقرأ ترجمته علىٰ السلطان ، ويعتَمد مايأمر به فى جوابه ليكْتُب به . وإن كان بالرومية أوالفرَنْجية ونحوهما من اللغات المختلفة ، تُرْجِم علىٰ نحو ما تقدّم ، وكُتِب ملخَّصُه وقُرِئَ علىٰ السلطان وآلتُمِس جوابُه ؛ وكتب كاتبُ السرّ علىٰ الملخَّص بما رُسِم فيه .

الباب الرابع

من المقالة الثالثة

(فى الفواتح والخواتم واللواحق ، وفيه فصلان)

الفصل الأوّل

(فى الفواتح ، وفيه ستة أطراف)

الطَّرَف الأوّلُ

(فى البسملة ، وفيه ثلاث جُمَل)

الجملة الأولى

(فى أصل الافتتاح بها)

كانتْ قريشٌ قبل البِعْثة تكتُبُ فى أوّل كُتُبها «بِاسْمِكَ اللّهُمّ» والسببُ فى كتابتهم ذلك ما ذكره المسعوديّ فى "مُرُوج الذهب" عن جماعةٍ من أهل المعْرفة بأيّام النّاس وأخبارِ مَنْ سَلَف : كابن دأْب ، والهَيْثَم بن عَدِيّ ، وأبى مِخْنَف لُوط بن يحيى ، ومحمد بن السائب الكَلْبيّ : أن أُمَيّةَ بنَ أبى الصَّلْت الثّقفيّ خرج إلى الشأم فى نَفَر من ثَقِيف وقُرَيْش فى عِيرٍ[1] لهم ، فلما قَفَلُوا راجعين [نزلُوا مَنْزِلا واجتمعوا لِعَشَائهم ، إذ][2] أقبلَتْ حيّةٌ صغيرةٌ حتّى دنَتْ منهم فحصبها بعضُهم بحجَر فى وجْهها فرجعتْ ، فشَدُّوا سُفَرَتهم ، ثم قاموا فشَدُّوا على إبلِهم وارتحلُوا من مَنْزِلهم ؛ فلما بَرَزُوا من المنْزِل ، أشرفَتْ

(١) فى الاصول وغيرهم ، وهو تصحيف والتصحيح عن المسعوديّ فى مروج الذهب ج ١ ص ٣٣ .

(٢) الزيادة عن مروج الذهب ج ١ ص ٣٣ ليتضح الكلام .

عليهم عجوزٌ من كَثِيبِ رملٍ متوكّئةٌ علىٰ عصًا، فقالت : مامنعكم أن تُطعِموا رَحِيبةَ[1] اليتيمة الصغيرةَ التي باتَتْ لطعامكم عَلِيلةً؟ قالوا: وما أنتِ؟ قالتْ أمُّ العوام، أرملتُ منذُ أعوام ؛ أما وربِّ العبـاد ، لتُفرّقُنَّ في البِـلاد ! ثم ضربَتْ بعصاها الأرضَ وأثارتْ بها الرملَ، وقالت : أَطيلي إيابَهم، وفرّقي رِكابَهم! فوثبت الإبلُ كأنَّ علىٰ ذِرْوةِ كلٍّ منهـا شيطانا ، ما يَمْلِكون منها شيئا حتّى ٱفترقَتْ في الوادي ، فجمعُوها من آخر النهـار إلىٰ غُدْوة ، فلمـا أناخُوا الرّواحلَ طلعَتْ عليهـم العجوزُ وفعلَتْ كما فعلَتْ أوّلا وعادتْ لمَقالِـها الأوّل ، فخرجتِ الإبلُ كما خرجتْ في اليوم الأوّل، فجمعوها من غَدٍ . فلما أناخُوها ليَرْحَلُوها ، فعلتِ العجوزُ مثلَ فعْلها في اليوم الأوّل والثاني فنفَرت الإبلُ ؛ وأمسَوْا في ليلة مُقْمِرة ويَئِسُوا من ظُهورِهم ؛ فقالوا لأُميّـةَ ابن أبي الصَّلْت : أينَ ما كُنتَ تُخْبِرنا به عن نَفْسِك وعِلْمِك ؟ [فقال : ٱذهبُوا أنتم في طلب الإبل ودَعُوني][2] . فتوجّه إلىٰ الكَثِيب الذي كانتْ تأتي منه العجوزُ حتّى هبَط من ثَنِيَّتِه الأُخرىٰ، ثم صَعِدَ كَثِيبًا آخَرَ حتّى هبط منه ؛ ثم رُفِعتْ له كنيسةٌ فيها قناديلُ ورجُلٌ معترِض مضْطَجِع علىٰ بابهـا ، وإذا رجلٌ جالسٌ أبيضُ الرأسِ واللحيـةِ ؛ قال أميةُ : فلمّـا وقَفْتُ قال لي : [إنك لمَتْبوع ، قلتُ أجَلْ ، قال فمِنْ أينَ يأتيك صاحبُك؟ قلت : من أُذُني اليُسرىٰ . قال : فبأيِّ الثّياب يأمُرُك ؟ قلت : بالسّواد . قال : هـذا خطيبُ الجنِّ ، كِدْتَ والله أن تكُونه ولم تفعَلْ . إن صاحبَ النبوّة يأتيه صاحبُه من قِبَل أُذُنه اليُمْنىٰ ، فيأمُره بلِبَاس البَيَاض ، فما][3] حاجتُك؟ فحدّثتُه حديثَ العَجُوز . فقال : هي آمرأة يَهودِيّة هلك زوجُها منذُ أعوام ، وإنها لن تزالَ

---

(١) في المسعوديّ ج ١ ص ٣٣ "رحيبة الجارية اليتيمة" وفي الاغاني "زجيمة" بالجيم .

(٢) الزيادة عن الأغاني .

(٣) الزيادة عن المسعودي ج ١ ص ٣٤ ، وهو علىٰ هذا النحو في الاغاني .

تفعل بكم ذلك حتى تُهلككم إن استطاعت ـ قال أمية : قلتُ فما الحيلة ؟ ـ قال : اجمعوا ظهركم فإذا جاءتكم وفعلت ما كانت تفعل، فقولوا سبعا من فوق وسبعا من أسفل " باسمك اللهم " فإنها لن تضركم . فرجع أمية إلى أصحابه فأخبرهم بما قيل له وجاءتهم العجوز ففعلت كما كانت تفعل فقالوا سبعا من فوق وسبعا من أسفل باسمك اللهم فلم تضرهم . فلما رأت الإبل لا تتحرك، قالت : قد علمكم صاحبكم، ليبيضن الله أعلاه وليسودن أسفله . وساروا فلما أدركهم الصبح، نظروا إلى أمية قد برص في غرته[1] ورقبته وصدره واسود أسفله . فلما قدموا مكة ذكروا هذا الحديث، فكتبت قريش في أول كتبها " باسمك اللهم " فكان أول ما كتبها أهل مكة وجاء الإسلام والأمر على ذلك .

قال إبراهيم بن محمد الشيباني : ولم تزل الكتب تفتتح باسمك اللهم حتى نزل قوله تعالى : ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فاستفتح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصارت سنة بعده . وروى محمد بن سعد في طبقاته، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكتب كما تكتب قريش " باسمك اللهم " حتى نزل عليه ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها ﴾ . فكتب باسم الله، حتى نزل ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ . فكتب «بسم الله الرحمن» حتى نزل ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» . وذكر في " مواد البيان " نحوه .

وعن سفيان الثوري أنه كان يكره للرجل أن يكتب شيئا حتى يكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» . وعن هشام بن عروة عن أبيه أنه كان يكره أن يكتب

---

(١) في مروج الذهب ج ١ ص ٣٤ " عذاريه " وكذلك في الأغاني .

كَتَابا أو غيره حتّى يبـدأ بـ«بسم الله الرحمن الرحيم» . وعن سعيد بن جُبَيْر أنه كان يقول : لايصْلُح كِتابٌ إلا أن يكونَ أوّلُه « بسم الله الرحمن الرحيم » .

وهذه الأحاديثُ والآثارُ كلُّها ظاهرةٌ فى آستحباب الآبتداءِ بالبسملة فيما يُكْتَب به من أصناف المكاتبَـات والوِلايات وغيرِها ؛ وعلىٰ ذلك مصطَلَح كُتَّاب الإنشاء فى القديم والحديث، إلا أنهم قد آصطَلَحُوا علىٰ حذفها من أوائل التَّواقيع والمَرَاسِيم الصِّغار، كالتى علىٰ ظُهور القِصَص ونحوها ؛ وكأنهم أخذُوا ذلك من مفهوم ما رواه أبو داودَ وآبن ماجه فى سُنَنِهما وأبو عَوَانة الأَسْفَرَايِينِيّ فى مُسْنَده عن أبى هُرَيرةَ رضى الله عنه أن النبيّ صلّى الله عليه وسلم قال : "كُلُّ أمْرٍ ذِى بَالٍ لا يُبْدَأُ فيه بِبِسْمِ الله الرحمٰن الرحيم فهو أقْطَعُ" يعنى ناقصَ البركة ، وما يُكْتَب فى التواقيع والمَرَاسيم الصِّغار ليس من الأُمُور المُهِمَّة فناسب تركُ البسملة فى أوّلها . لكن قد ذكر محمدُ بن عمرَ المَدَائنى فى كتاب "القَلَم والدواة" أنَّ أهلَ العلم كَرِهوا حذفَ البسملة من التواقيع والسِّراحات وذَمُّوه . وقد كان القاضى علاءُ الدِّين الكَرَكِيّ كاتبُ السرّ فى الدولة الظاهرية "برقوق" فى أوّل سلطنته الثانية أمر بأن يُكْتَب فى أوّلها بسملةٌ بقلمٍ دقيق ، ثم بطل ذلك بعدَ مَوْته وبقى الأمرُ علىٰ ما كان عليه أوّلا . ثم قد آختُلِفَ فى كتابتها أمامَ الشِّعر : فذهب سعيدُ بن المسيَّب والزُّهْرِىُّ إلىٰ مَنْع ذلك ، وذهب سعيدُ بن جُبَيْر وإبراهيمُ النَّخَعِيّ إلىٰ جَوَازه . ويروىٰ مثلُه عن آبن عباس رضى الله عنه . قال أبو جعفر النحاسُ فى "صناعة الكُتَّاب" : ورأيتُ علىَّ بنَ سليمانَ يميل إليه . قال محمدُ بنُ عمر المدائنيّ : ولا بأسَ إن يكُنْ[1] بينَ الشِّعر وبينها كلامٌ ، مثل أنشدَنِى فلانٌ الفلانيّ وشِبْهُ ذلك ، فأما أن يصلَه بها فلا يجوز .

(١) فى الاصول أن يكون ولكن يأباه المعنىٰ وبقية الكلام تأمل .

الجملة الثانية

(فى الحثّ على تحسينها فى الكتابة وما يجب من ترتيبها فى الوضع)

أما الحثُّ على تحسينها فى الكتابة، فينبغى للكاتب أن يُبالِغَ فى تحسينها فى الكتابة ما آستطاعَ تعظيمًا لله تعالى . فقد رُوِى أن رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم قال : « مَنْ كَتَبَ بسم الله الرحمنِ الرحيم فحسَّنه أحْسَنَ اللهُ إليْه» . وعن واصلٍ مولى أبى عُيَيْنَةَ قال : سمعتُ حمَّادا يقول : كانوا يُحِبُّون أن تُحَسَّن بسم الله الرحمن الرحيم .

***

وأما ما يجبُ من ترتيبها ، فأوّل ما يجبُ من ذلك إطالةُ الباء لتدُلَّ على الألف المحذوفة منها لكثرةِ الآستعمال ، ثم إثبات السين بأسنانها الثلاث ، غيرَ مُرْسِلٍ لها إرسالا كما يفعله بعضُ الكُتَّاب فقد كَرِه ذلك أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه وزيدُ بنُ ثابت والحسنُ وآبنُ سيرينَ ، حتّى يُرْوَى أن عمرَ رضى الله عنه ضَرَبَ كاتبًا على حَذْف السين منها ــ فقيل له : فيمَ ضَرَبك عمرُ ؟ ــ فقال : فى سين ، فجرى مثلا . ويُروى أن غلامًا لعمرَ بن عبد العزيز كتب إليه من مِصْرَ كتابا ولم يجعل لبسم الله الرحمن الرحيم سينا ، فكتب إليه عمرُ يأمره بالقُدُوم عليه ، فلما قدم قال : آجعل لبسم الله الرحمن الرحيم سينا وآنصَرف إلى مصر . وكذلك لا يَمُدّ الباءَ قبل السين ثم يكتب السين بعد المدّة ، كما يفعله بعضُ كُتَّاب المَغاربة فقد روى محمد آبنُ عمر المَدائنيّ من حديث شُعَيْب بنِ [أبى] الأشعَث أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كَتَب أحدُكُمْ بسم الله الرحمن الرحيم فلا يمُدَّها قبل السين . يعنى الباءَ " وعن ليثٍ عن مجاهد يرفَعه إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلم نحوَه . ويروى مثلُه عن ابن عمر ، وابن سِيرينَ . وعن عبد العزيز بن عبد الله وعبدِ الله بن دينار وغيرهما .

أن العلمـاء كانوا يكرهون ذلك وينهون عنه أشـدّ النهي حتّى رُوِى عن الضحّاك ابن مزاحم أنه قال : وددت أنّى لو رأيتُ الأيدى تُقطَع فيه . نعم يستحبُّ المدّ بين السين والميم كما هو عادةُ كُتَّاب المِصْريين وأهل المَشْرِق . وكذلك آستحسنُوا مدّ الحاء من الرحمن قبل الميم وقالوا : إنه من حُسْن البيان، حتّى يروى أن عمرَ بن عبدالعزيز كتب إلى عُمَّاله إذا كتب أحدكم بسم الله الرحمن الرحيم فليمدّ الرحمن . وهذا ممـا يتعاطاه كُتَّاب المغرب دون كُتَّاب مصر وأهلِ المشرق . أما غير ذلك من وجوه التحسين فيأتى الكلامُ(١) عليه فى الكلام على الخط إن شاء الله تعالى .

الجمـــلة الثالثة

(فى بيان مَوْضِعها من المكتوب، ويتعلّق به أمران)

الأمر الأوّل

(تقـدُّمها فى الكتابة)

فيجب تقديمها فى أوّل الكلام المقصود : من مكاتبةٍ أو ولايةٍ أو منشورِ إقطاع أو غير ذلك، تبرّكا بالابتداء بها وتيمُّنا بذكرها، عملا بالأخبار والآثار المتقدّمة فى الجملة الأولى . على أنه قد آختُلِف فى معنى قوله تعـالى حكايةً عن بِلْقِيس حين أُلْقِيَ إليها كتابُ سليمان عليه السلام : ﴿إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ : فذهب بعضُ المفسرين إلى أن قوله ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ﴾ من كلام بِلْقِيس، وإنها حكتِ الكتابَ بقولها : وإنّه بسم الله

---

(١) قد مضى الكلام على الخط فى أوائل الجزء الثالث من هذا الكتاب وبين هناك أوضاع البسملة وكيفية كتابتها أوضح بيان فلعل ماهنا سهو عما فات .

الرحمن الرحيم إلى آخر الآية، فيكون ابتداء الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم، ويكون ذلك احتجاجاً على وجوب تقديمها . وذهب آخرون إلى أن قوله ﴿إنّه من سليمانَ﴾ بدايةُ كتاب سليمان ، فيكونُ سليمانُ عليه السلام قد بدأ فى كتابه باسمه . فإن قيل كيف ساغ على ذلك تقديمُ اسمه على اسم الله تعالى فى الذّكر مع أن الأنبياءَ عليهم السلامُ أشدُّ الناس أدبًا مع الله تعالى؟ فالجواب ماقيل : إنه كان عادةُ ملوك الكُفْر أنه إذا ورد عليهم كتابٌ بما يكرهون ربما مزّقوا أعلاه أو تفلوا فيه، فجعل سليمانُ عليه السلام اسمه تقيّةً لاسم الله تعالى فذكره أوّلا . ومن هنا اصطلح الكُتّاب فى الكُتُب الصادرة عن ملوك الإسلام إلى ملوك الكُفْر بكتابة ألقابِ الملك المكتوبِ عنه فى وصل فوقَ البسملة، تأسّيًا بسليمان عليه السلام .

أما مايُكتَب فى طُرّة الولايات من العُهُود والتقاليد وغيرها ، فإنه فى الحقيقة جُزْء من المكتوب، فلا يُوصَف بأنه شىءٌ مقدّمٌ على البسملة . وأما الطغراة التى كانت تُوضَع فى مناشير الإقطاعات فى وَصْلٍ بين وصل الطُّرّة والبسملة فيها ألقابُ السلطان على ما سيأتى فى الكلام على كتابة المَنَاشير فى موضعه إن شاء الله تعالى، فإنها كتابةٌ أجنبيةٌ مكتوبةٌ بخطّ غير الكاتب فلم تُنْسَب فى الحقيقة إلى التقديم . على أن ذلك قد بطل فى زماننا . وهاتان المسئلتان المتعلّقتان بالطُّغراة المكتوبة فى المناشير ومكاتبات أهل الكفر مما سأل عنه الشيخُ جمالُ الدين بنُ نباتةَ فى رسالته التى كتبها إلى كُتّاب ديوان الإنشاء بالشام، فى مباشَرة الشيخ شِهابِ الدين محمودٍ الحلبىّ، حينَ بلغه أن بعضهم وَقَع فيه .

الأمر الثـانى

(إفـــرادهـا فى الكتابة)

قال محمد بنُ عمرَ المدائنىّ فى كتاب " القَلَم والدواة " : ينبغى للكاتب أن يُفرد البسملة فى سطر وحدها، تبجيلًا لٱسم الله تعالىٰ و إعظامًا وتوقيرًا له ؛ ثم ساق بسنده إلىٰ أبى هُرَيرةَ رضى الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليــه وسلم " نَهىٰ أن يُكتَبَ فى سَـطْرِ بسم الله الرحمن الرحيم غَيْرُها " . وعلىٰ هٰذه الطريقة جرىٰ كُتّاب الإنشاء فى مكاتبتهم وسائر ما يصْدُر عنهم . أما النُّسّاخ وكُتّاب الوثائق فربمـا كتَبُوا بعـدها فى سطرها «الحمد لله» أو «الصّلاة علىٰ رسول الله صلّى الله عليه وسلم» ونحو ذلك . وكذلك يكْتُبُ القضاةُ « الحمد لله » فى علامات الثُّبوت فى المكاتيب الشرعيّة .

الطـــــــرف الثـانى

(فى الحَمْـــدَلةِ)

لـمـا كان الحمدُ مطلوبًا فى أوائل الأمور طلبًا للتيمُّن والتبرُّك ، عملًا بمـا رواه الراوُون لحديثِ البسملة المتقدّمِ من روايةِ أبى هريرةَ رضى الله عنه أنه صلّى الله عليه وسلم قال : «كلُّ أمْرٍ ذِى بالٍ لايُبْدأُ فيه بحمدِ اللهِ فهو أجذَمُ» ٱصطلح الكُتّاب علىٰ الأبتـداء به فى الكثير ممـا يكْتُبونه من المكاتَبَات والولايات وغيرهما ممـا له شأنٌ وبالٌ : كمكاتَبَات أكثر الملوك من قانات الشَّرْق ، وكلّ ما تضمَّن نعمةً من المكاتبات ونحو ذلك ، وكالبَيْعات والعهودِ والتقاليدِ علىٰ رأْيِ من يرىٰ ٱفتتاحها بالخُطَب ، وغير ذلك ممـا يأتى ذكرُه فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ . بل ربمـا كرَّروا الحمدَ المرّاتِ المتعدّدةَ إلىٰ السَّبْع فى الخُطْبة الواحدة ، علىٰ ما سيأتى ذكره فى موضعه

إن شاء الله تعالىٰ . وأتَوا بالحمد لله بعد البسملة تأسِّيا بكتاب الله تعالىٰ ، من حيثُ إن البسملة آيةٌ من الفاتحة كما هو مذهبُ الشافعىّ رضى الله عنه ، أو فاتحةٌ لها - وإن لم تكن منها - كما هو مذهبُ غيره . أما سائر المكاتَبات والولايات المفتَتَحة بغير الحمد، فإنما حذف منها الحمد آستصغارا لشأنها ، إذ كان الآبتداء بالحمد إنما يكون فى أمرٍ له بالٌ كما دل عليه الحديثُ المتقدّمُ ، وسيأتى الكلامُ علىٰ كل شىء من ذلك فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ . قال فى "الصناعتين" : وإنما آفتُتِح الكلامُ بالحمد لأن النفوس تَتَشَوّف للثناء علىٰ الله تعالىٰ، والآفتتاح بما تَتَشوّف النفوس إليه مطلوبٌ . وربما أتىٰ الكُتّاب بالحمد بعد البَعْدِيَّة : « فكتبوا » أما بعْدَ حمدِ الله، أو «أما بعدُ فالحمدُ لله » فأما الصيغة الأولىٰ فالحمد مقدّم فيها معنىً وإن لم يُذْكَر لفظا لأن قوله أما بعدَ حمدِ الله يقتضى تقدُّم حمد الله ، وأما الصيغةُ الثانية فإنها تقتضى تقدُّم شىء علىٰ الحمد، ولا شك أنّ المقدّمَ هنا هو البسملة علىٰ ماسيأتى فى الكلام علىٰ أما بعدُ فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

ثم قد يُستعمَل الحمدُ بصيغة الفعل كقولهم فى المكاتَبات : فإنى أحمدُ إليكَ اللهَ . وقد آختُلف فى أىّ الصيغتين أبلغُ : صيغةِ الحمدُ لله ، أو صيغةِ أحمَدُ الله : فذهب المحقّقون إلىٰ أن صيغةَ الحمدُ لله أبلغ : لما فيها من معنىٰ الآستغراق والثبوت والآستمرار علىٰ ماهو مقرّر فى علم المعانى . وذهب ذاهبُون إلىٰ أن صيغةَ أحمدُ اللهَ أبلغ : لأن القائل الحمد لله حاكٍ لكون الحمد لله، بخلاف القائل أحمدُ الله فإنه حامدٌ بنفسه ، ولذلك يُؤْتىٰ بالتحميد ثانيا فى الخُطَب بصيغة الفعل .

وله فى الآستعمال ثلاثُ صيغ :

الصيغة الأولى — « يَحْمَدُه أمير المؤمنين » فيما إذا كان ذلك صادرًا عن الخليفة في مكاتبةٍ أو غيرها .

الصيغة الثانية — «نَحْمَدهُ» إما بنون الجمع الحقيقية كما إذا كان ذلك صادرا عن ... ...(1) مثل أن يؤتى بذلك في بيعةِ خليفة أو نحوها، أو بنون الجمع للتعظيم كما إذا كان ذلك صادرًا عن السلطان نحو ما يَقع في خُطَب التقاليد والتواقيع في زماننا .

الصيغة الثالثة — « أحمَدُه » بلفظ الإفراد ، كما إذا كان ذلك صادرا عن واحد فقط حيثُ لا تعظيمَ له .

الطـــــرف الثـالث

(في التشهد في الخطب)

قد جرتْ عادة المتأخِّرين بالإتيـان بالتشهُّد بعد التحميد في الخطب ويكون تابعًا لصيغة التحميد : فإن كان قد قيل يحمَدُه أمير المؤمنين، قيل بعـده : ويَشْهَد، وإن كان قد قيل نحمَدُه ، قيل بعده : ونَشْهَد ؛ وإن كان بعْدَ أما بعدَ حمدِ الله ، قيـل والشهادةِ له بالجر عطفًا على حَمْـد . على أن الخُطَب الموجودةَ في مكاتبات المتقـدّمين لا تَشَهُّدَ فيها . ومستَنَد المتأخِّرين في ذلك ما رواه أبو داود والترمذيّ وصَحَّحه البيهقي أنـ النبيَّ صلَّى الله عليه وسـلم قال : "كُلُّ خُطْبةٍ ليس فيها تَشَهُّدٌ فهي كاليَدِ الجَذْماء" .

---

(1) بياض في الاصول ولعله "عن متعددين" .

الطـــــــرف الرابع

(فى الصلاة والسلام على النبيّ صلّى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه فى أوائل الكُتُب)

لا نِزاعَ فى أن الصلاةَ على النبيّ صلّى الله عليه وسلم مطلوبةٌ فى الجملة ، وناهيك فى ذلك قولُه تعالى فى مُحكَم التنزيل : ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ والأحاديثُ الواردةُ فى الحثّ على ذلك أكثرُ من أن تُحْصَر ، فناسب أن تكون فى أوائل الكُتُب ، تيمُّنا وتبرُّكا . وقد جاء فى تفسير قوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أن المعنى ماذُكِرْتُ إلا وذُكِرْتَ معى . فإذا أُتِىَ بالحمد فى أوّل كتاب ، ناسب أن يُؤْتى بالصلاة على النبيّ صلّى الله عليه وسلم فى أوّله ، إتيانًا بذكره بعد ذكرِ الله تعالى . وقد رُوِى من حديثِ ابن عبّاس رضى الله عنهما أن النبيّ صلّى الله عليه وسلم قال : "مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فى كتابٍ لم تَزَلِ الصلاةُ جاريةً له مادام اسْمِى فى ذلك الكتاب" . قال الشيخ عمادُ الدين فى تفسيره : إلا أنه ضعيفٌ ، ضعّفه المحدّثون . قال محمد بنُ عمر المدائنيّ فى "كتاب القَلَم والدواة" : وقد رأينا بعضَ الكُتَّاب لايرى الصلاةَ على النبيّ صلّى الله عليه وسلم فى الكُتُب ، فباءُوا بأعظم الوِزر مع مافاتهم من الثواب .

وأما السلامُ عليه صلّى الله عليه وسلم بعـد التصلية ، فقد قال الشيخ محيى الدين النوويّ فى كتابه "الأذكار" : فإذا صلّى على النبيّ صلّى الله عليه وسلم فليجمع بين الصلاة والتسليم ولا يقتصرْ على أحدهما فلا يقال صلّى الله عليه فقط ، ولا عليه

السلامُ فقط . قال الشيخ عمادُ الدين بنُ كثير : وهذا منتزع من قوله تعالىٰ : ﴿ إنَّ اللهَ وملائكتَهُ يصَلُّون علىٰ النبيّ ﴾ الآية .

وأما الصلاة علىٰ الآلِ والصحبِ بعد الصلاة علىٰ النبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلم، فقد نقل الشيخُ عمادُ الدين بنُ كثير في تفسيره الإجماعَ علىٰ جواز الصلاة علىٰ غير الأنبياء عليهم السلام بطريق التبَعِيَّة ، مثل أن يقال : اللهمَّ صلِّ علىٰ سيدنا محمدٍ وعلىٰ آله وصحبه وأزواجِه وذُرِّيته ونحوذلك . ثم قال : وعلىٰ هذا يُخَرَّج مايكتُبونه من قولهم : وصلواتُه علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه فلا نِزاعَ فيه ، وإنما الخلاف في جواز إفراد غير الأنبياء عليهم السلام بالصلاة : فأجازه قوم محتجِّين بنحو قوله تعالىٰ : ﴿ وصَلِّ عليْهِمْ ﴾ وقوله صلَّى الله عليه وسلم : "اللَّهُمَّ صلِّ علىٰ آل أبِي أوْفىٰ". ومنعه آخرون احتجاجًا بأن الصلاةَ صارتْ شِعارا للأنبياء عليهم السلام فلا يُلْحَق بهم غيرُهم ، فلا يقال : أبو بكر صلَّى الله عليه وسلم وإن كان المعنىٰ صحيحا ، كما لايقال : محمد عَزَّ وجلَّ ، وإن كان عزيزًا جليلاً .

ثم الصحيح من مذهب الشافعيّ رضى الله عنه أن ذلك لايجوز في غير التبعية . وحكىٰ النوويّ في "الأذكار" فيه قولا بأنه كراهةُ تحريم ، وقولا بأنه كراهةُ تنزيه ، وقولا بأنه خلافُ الأولىٰ ، ورجَّح كونَه كراهةَ تنزيه ، لأنه شِعارُ أهل البِدَع .

وأما السلام علىٰ غير الأنبياء ، فحكىٰ النوويُّ عن أبي محمدٍ الجُوَيْنيِّ منْعَه في الغائب من حَيٍّ وميِّت وأنه لا يفرد به غير الأنبياء ، فلا يقال : علىٌّ عليه السلام ، بخلاف الحاضر فإنه يُخاطَب به .

إذا علمت ذلك فالصلاةُ وتوابعُها في أوائل الكُتُبِ قد تكون بعدَ التحميد في الخُطْبة كما في الولايات [والمكاتبات] المفتتحة بالخُطَب من البيعات والعهود والتقاليد والتفاويض

والتَّواقِيع والمَرَاسِيم وغيرها، وكما فى الكُتُب المفتَتَحة بالخُطَب. وقد تكون فى صُدُور المكاتبات المفتَتَحة بغير الخطب، كما كان يُكتَب فى القديم فى صدور المكاتبات «وأسأله أن يصلِّى على محمد عبده ورسوله» وهو مما أحدثه الرشيد فى المكاتبات. قال فى "ذخيرة الكُتَّاب": وكان ذلك من أجلّ مناقبه. وكان الخلفاءُ الفاطميون بمصر يقولون عن لسان الخليفة: ويسألُه أن يُصلِّى على جدّه محمد، ويخصون الصلاةَ بعده بأمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه على طريقة الشِّيعة.

الطرف الخامس
(فى السلام فى أوّل الكُتُب)

إنما جُعِل السلام فى ابتداء الكُتُب وصُدُورِها لأنه تحيةُ الإسلام المطلوبةُ لتأليف القلوب، فكما أنه يُفتَتح به الكلام طلبًا للتأليف كذلك تُفتَتح به المكاتبات وتصدّر طلبا للتأليف، إذ يقول صلّى الله عليه وسلم: «ألا أُنبِّئُكم بشىء إذا فعلتُموه تحاببتُم! أفشُوا السَّلامَ بينَكم». قال فى "الصناعتين": وتقول فى أوّل كتابك: «سلامٌ عليك» وفى آخره «والسلامُ عليك» والمعنى فيه أن الأوّل نكرةٌ إذ لم يتقدّم له ذِكر والثانى معرفةٌ يشارُ به إلى السلام الأوّل على حدّ قوله تعالى: ﴿كما أرسلنا إلى فرعونَ رسولاً فعصى فرعونُ الرسولَ﴾ فأتى فى الأوّل بتنكير الرسول وفى الثانى بتعريفه. وكذلك قال تعالى فى سورة مريم فى قصة يحيى عليه السلام: ﴿وسلامٌ عليه يومَ وُلِد ويومَ يموتُ ويومَ يُبعَثُ حيًّا﴾ لعدم تقدّم ذكر السلام؛ ثم قال بعد ذلك فى قصّة عيسى عليه السلام: ﴿والسَّلامُ علَىَّ يومَ وُلِدتُ ويومَ أموتُ ويومَ أُبعَثُ حيًّا﴾ وإلى ذلك يشير أحمد بن يوسف بقوله: اكتُبْ فى أوّل كتابك

سـلام عليك واْجعلْهُ تحيةً ، وفى آخره « والسلامُ عليك » واْجعلْها وَدَاعا ، وذلك أن سَلام التحية يكون ٱبتداءً فيكون نكرةً ، وسلامَ الوَدَاع يكون ٱنتهاءً فيكونُ معرفةً لرجوعه إلىٰ الأوّل . وقد كره بعضُ العلماء أن يقال فى الاْبتداء : عليك السـلامُ ، ٱحتجاجا بمـا رُوِى عن أبى مُكْعِتٍ الأسدِىّ أنه قال « أتيتُ رسولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم فأنشدته :

يَقُول أبو مُكْعِتٍ صادِقًا: * عَلَيْكَ السلامُ أبَا القَاسِمِ!

فقال : يا أبا مُكْعِتٍ عليك السلامُ تحيَّةُ المَوْتىٰ» . وجعل ابن حاجبِ النُّعمان من ذلك قول عَبْدَةَ بن الطَّبِيب :

عَلَيْكَ سلامُ اللهِ قيسَ بنَ عاصِمٍ * ورَحْمتُه ماشاءَ أن يَتَرَحَّما

قال ابن حاجب النعمان : ويكتبُ السلامُ باسقاط الألف فى صَدْرِ الكتاب وعَجُزِه .
قال أبو جعفر النحاس : وقولهم فى أوّل الكتاب سـلامٌ عليك ، بالرفع ويجوز فيـه النصبُ والاْختيارُ الرفع وإنْ كان النُّحاة قد قالوا : إنَّ ماكان مشـتقًّا من فعل فالاْختيـار فيه النصبُ نحو قولك سَـقْيًا لك : لأن معنىٰ السـلام فى الرفع أعَمُّ ، إذ ليس يريد أفعلُ فعلا ، فيكون المعنىٰ تحيةٌ عليك بنصب تحية . وقيل : سـلامٌ عليك بمعنى سلامٌ لك . وسيأتى الكلامُ علىٰ إتباع السلام الرحمةَ فى الكلام علىٰ الخواتم فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

الطَّــــرَف السادس

(فى أما بعــد)

اعلم أن « أما بعدُ » تُستعمَل فى صُدُور المكاتبات والوِلَايات وربما آستُعْملت فى آبتدائها . وهى مركَّبة من لفظين أحدهما أما والثانى بعد . فأما « أما » فحرف شرط و« بعــدُ » ظرفُ زمان إذا أُفرِد بنِى على الضم، قال تعالىٰ : ﴿ لِلّٰهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ﴾ وأجاز الفرّاء أما بعدًا بالنصب والتنوين، وأما بعدٌ بالرفع والتنوين. وأجاز هشام أما بعدَ بفتح الدال.ومنعه النحاسُ وقال : إنه غير معروف .

ثم أمَّا تقَع فى كلام العرب لتوكيد الخبر، والفاء لازمةٌ لها : لتصل ما بعدها بالحرف الملاصق لما قبلها، فتقول أما بعدُ أطالَ اللهُ بقاءَك ! فإنى قد نظرتُ فى الأمر الذى ذكرْتَه . ويجوز أمَّا بعدُ فأطال الله بقاءَكَ إنى نظرتُ فى ذلك ، فتثبت الفاء فى أطال وإن كان معترضا لقُرْبه من أما ، ويجوز أما بعد فأطال اللهُ بقاءك فإنّى نظرت ، ويجوز أما بعد ثُمَّ أطال الله بقاءك فإنى نظرت حكىٰ ذلك كلَّه النحاسُ ، ثم قال : وأجودُها الأوّلُ وهو آختيار النحويين . قال : وأجودُ منه أما بعدُ فإنى نظرت أطال الله بقاءك . فان أضيفتْ بعــدُ إلىٰ ما بعدها فُتحتْ فتقول أما بعــدَ حمــد الله ونحو ذلك . قال فى "ذخيرة الكتّاب" وإذا كانت بعــد البسملة فمعناه أما بعــد قولنا «بسم الله الرحمن الرحيم» فقد كان كذا وكذا .

وقد آختُلِف فى أوّل مَنْ قال أما بعدُ : فقيل داودُ عليه السلام، وبه فُسِّر فصلُ الخطاب فى قوله تعالىٰ : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ ﴾ علىٰ أحد الأقوال ، وقيل أوّلُ مَنْ قالها كعبُ بنُ لؤىّ جدُّ النبى صلّى الله عليه وسلم، وقيل أوّلُ مَنْ قالها قُسُّ بنُ ساعدةَ الإياديّ . قال سيبويه : ومعناها مهما يَكُنْ من شىء .

الفصـــــــل الثانى

(فى الخَوَاتِم واللَّواحِق، وفيه سبعةُ أطراف)

الطـــرف الأوّل

(فى الاستثناء بالمشيئة : بأن يَكْتُب إن شاء الله تعالىٰ، وفيه جملتان)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى الحَثّ علىٰ كتابة إن شاء الله تعالىٰ)

اعلم أنه يُسْتحبُّ للكاتب عنـد انتهاء ما يكتُبُه : من مكاتَبةٍ أو وِلاية أو غيرهمـا أن يكتب "إن شاء الله تعالى" تبرُّكا ورغبةً فى نجاح مَقْصد الكتاب ، فقد ورَد الحَثّ علىٰ التعليق بمشيئة الله تعالىٰ والنَّدْبُ إليـه ؛ قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ . وذمّ قوما [علىٰ تَرْك الاستثناء](1) فقـال : ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَـابَ الْجَنَّـةِ إِذْ أَقْسَـمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ إلىٰ آخر القصّـة . قال أصحاب السِّيَر : كان باليمن رجلٌ له جَنَّةٌ يأخُذُ منها قُوتَ سنته ويتصدّقُ بالباقى، وكان يترُكُ للمساكين ما أخطأ المِنْجَلُ من الزَّرْع أو القِطَافُ من العِنَب والنَّخْل وما بَقِىَ علىٰ البِساط الذى يُبْسَط تحت النَّخْلة ، فلمّـا مات شَحّ بَنُوه علىٰ المساكين بمـا كان يَتْرُكه أبُوهم وحلَفُوا علىٰ قَطْعها فى الغَلَس كَيْلا يُدْرِكَهم الفُقَراء، فأصابتهـا نارٌ فى الليل فاحترقَتْ وأصبحتْ كالصَّرِيم يعنى الليلَ المُظْلِمَ . قال المفسرون : والمراد بقوله : ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ أنهـم لم يقولوا إن شاء اللهُ تعـالىٰ . قال الزمخشرىّ :

---

(١) الزيادة عن الضوء .

وسُمِّى آستثناءً وإن كان بمعنَى الشرط لأنه يؤدِّى مؤدَّى الآستثناء من حيثُ إن معنىٰ قولك لأخرُجَنَّ إن شاء الله ولا أخرُج إلا أن يشاءَ الله واحدٌ .

وآعلَمْ أن الآستثناء لا يدخُلُ علىٰ ماضٍ فلا يقال ما فعلت ذلك إنْ شاء الله ؛ وإنما يدخُل علىٰ مستقبل فتقول لا أفعَلُ ذلك إن شاء الله، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ : (لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ) . وكذلك كُلُّ ما فيه معنىٰ الآستقبال، كما قال تعالىٰ حكايةً عن يُوسُفَ عليه السلام : (وقال آدْخُلُوا مِصْرَ إنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ) ونحو ذلك .

أما ما ورد من ذلك بلفظ المُضِيّ مثل قول القائل لزوجته أنتِ طالقٌ إن شاء الله فإنه وإن لم يكُنْ مستقبَلا لفظا، فإنه مستقبَلٌ معنًى، إذ معناه الإنشاء وإلا لما وقع به الطلاقُ . إذا علمت ذلك، فلفظ "إن شاء الله تعالىٰ" فى آخر المكاتبة أو الولاية ونحوهما يكون معلَّقا بآخر المكتوب مما يناسبُ ذلك ، كتعلُّقها بالتأييد من قوله واللهُ تعالىٰ يؤيِّده بمنّه وكرمه إن شاء الله تعالىٰ ؛ ونحو ذلك .

الجملة الثانية

(فى محل كتابتها وصورةِ وَضْعها فى الدَّرْج)

لانزاعَ فى أنها أوّلُ خاتمة تُكتَبُ من خواتم المكتوب، فمحلها من الدَّرْج أسفلُ المكتوب، فى وَسَط الوصل، مكتَنَفة ببياض عن يمينها وشمالها، وبينها وبين السَّطْر الآخِر من المكتوب كما بين سَطرين أو دُونَه .

وقد جرتْ عادةُ الكُتّاب فى كتابتها بأنها إن كانتْ بقلم الرِّقاع كما فى القطع الصغير، كُتبت ومعلّقة مُتَسلْسلة على هذه الصورة [illegible] أوما قاربها، وإن كانتْ بقلم

جليل كالثلث ونحوه، كُتِبَتْ واضحة مبيَّنة، والغالب فيها أن تكون على هــذه الصورة ان شاء الله تعالى قال جمالُ الدِّين بن شيث فى "معالم الكتابة" : ولا يُضيف الكاتبُ إليها شيئًا فى سطرها، بل تكون مفردَةً فى سطرٍ واحدٍ .

الطَّــــرَف الثــانى

(فى التــاريخ ، وفيه ثمــانُ جمـــل)

الجمْـــلة الأولىٰ

(فى معنـــاه)

وقد آختُلِف فى أصــل لفظه : فذهب قومٌ إلىٰ أنه عربىّ ، وأن معناه نهــايةُ الشىء وآخرُه ، يقــال فلانٌ تاريخُ قومه إذا آنتهىٰ إليه شرفُهم ، وعليــه يدلُّ كلامُ صاحب " موادِّ البيان " وآبنِ حاجب النعمان فى " ذخيرة الكُتَّاب " ونقل الشـيخ علاءُ الدين بن الشاطر فى " زِيجِه " عن بعض أهل اللُّغــة أن معناه التأخير فيكون مقلوبا منه . وذهب آخَرون إلىٰ أنه فارسىّ ، وأن أصلَه «ماه‌زور» فعرّب مورخ، ثم جعل آسمُه التاريخ، وإليه يرجع كلام السلطان عماد الدين صاحب حماة رحمه الله فى تاريخه ، ويقــال منه أرَّخت ووَرَّخت بالهمزة والواو لغتان ، ولذلك قالوا فى مصدَره تأريخ وتَوْريخ ، كما يقال تأكِيد وتَوْكِيد . قال فى " ذخيرة الكُتَّاب " : أرَّخت لغةُ قيس، وورَّخت لغةُ تميم . قال أبو هلال العسكرىّ فى كتاب "الأوائل" : ولا تكاد وَرَّخت تستعمَل اليومَ ، وكأنَّ الكُتَّاب كانوا قد رفَضُوا هــذه اللغة فى زمانه وإلا فهى لغــةٌ مستعملةٌ إلىٰ الآنَ ، إلا أنها لمــا غلبَتْ فى ألسِــنة العوَامِّ

ابتُذِلتْ . قال الشيخ « أثير الدين أبو حيان » فى شرح التسهيل : والتاريخُ هو عدد الليالى والأيام بالنظر إلىٰ ما مضى من السنة أو الشهر وإلىٰ ما تَبَقّى منهما ، قال فى "موادّ البيان" : وهو محقِّق للخبر ، دالٌّ علىٰ قُرْب عَهْد الكِتَاب وبُعْدِه .

الجملة الثانية

(فى وجه الاحتياج إليه)

قال محمد بن عمر المدائنى فى كتاب " القلم والدواة " : أجمعتِ العلماءُ والحكماءُ والأُدَباء والكُتّاب والحُسّاب علىٰ كتابة التاريخ فى جميع المكتَتَبات . قال صاحب "نهاية الأرب" : ولا غُنْيَة عنه ، لأن التاريخ يُستَدَلُّ به علىٰ بُعْد مسافة الكِتاب وقُرْبها ، وتحقيقِ الأخبار علىٰ ما هى عليه . وقد قال بعض أئمة الحديث : لما استعمَلُوا الكذبَ استعمَلْنا لهم التاريخَ . وقد اصطلح الكُتّاب علىٰ أنهم يؤرِّخُون المكاتبات والولاياتِ ونحوَها مما يصدُر عن الملوك والنُّوّاب والأمراء والوزراء وقضاة القضاة ومن ضاهاهم ، بخلاف المكاتبات الصادرة عن آحاد الناس ، فإنه لم تجْرِ العادةُ فيها بكتابة تاريخ .

الجملة الثالثة

(فى بيان أصول التواريخ)

قال القُضَاعىّ فى "عيون المَعَارف فى تاريخ الخلائف" : كانت الأُمَمُ السالفةُ تُؤرِّخ بالحوادث العِظَام وبمِلْك الملوك : فكان التاريخُ بهبوط آدمَ عليه السلام ، ثم بمَبْعَث نوح ، ثم بالطُّوفان ، ثم بنارِ إبراهيمَ عليه السلام ؛

ثم تفرق بَنُو إبراهيم : فأرّخ بَنُو إسحـاق بنار إبراهيم إلىٰ يُوسفَ ؛ ومن يوسفَ إلىٰ مَبْعَثِ موسىٰ عليه السـلام؛ ومن مُوسىٰ إلىٰ مَلْك سليمان عليه السلام . ثم بمـا كان من الكوائن . ومنهم من أرّخ بوفاة يعقوبَ عليه السـلام ، ثم بخُرُوجِ موسىٰ من مصْرَ ببنى إسرائيل، ثم بخَرَاب بيت المَقْدِس .

وأما بنو إسماعيل، فأرّخُوا ببناء الكَعْبة ، ولم يزالوا يؤرّخُون بذلك حتّى تفرّقت بَنُو مَعَدّ ، وكان كُلّما خرج قومٌ من تِهامَة أرّخوا بخُرُوجهم . ثم أرّخوا بيوم الفِجار ، ثم بعام الفِيل .

وكان بَنُو مَعَدّ بن عَدْنانَ يؤرّخون بغلبة جُرْهُمَ العماليقَ وإخراجِهِم إيّاهم من الحَرَم. ثم أرّخوا بأيّام الحُرُوب : كحَرْب بَنِى وائِلٍ ، وحَرْب البَسُوسِ، وحَرْبِ دَاحِسٍ .

وكانت حِمْيرُ وَكَهْلانُ يؤرّخُون بملوكهم التَّبَابِعةِ ، وبنار ضِرَارٍ : وهى نارٌ ظهرتْ ببعض خَرَاب اليَمَن؛ وبسَيْل العَرِم؛ ثم أرّخُوا بظهور الحَبَشة علىٰ اليمن .

وأما اليُونانُ والرُّوم، فكانوا يؤرّخُون بمِلْك بُخْتَنَصَّرَ؛ ثم أرّخُوا بمِلْك دقلطيانوس القِبْطىّ .

وأما الفُرْس فكانوا يؤرّخُون بآدمَ عليـه السلام؛ ثم أرّخُوا بقَتْـل دَارَا وظُهورِ الإسْكَنْدَر عليه، ثم بمِلْك يَزْدَجِرْد . والذى ذكره السلطان عمـاد الدين صاحب حماة فى تاريخه فى دائرة اتصـال التواريخ القديمـة بالهجرة عشرون تاريخًا، ذكر ما بينها وبين الهجرة من السنين، إلا أنه لم يراعِ الترتيبَ فى بعضها، وأهمل منها تاريخَ يَزْدَجِرْدَ لوقوعه بعد الهجرة .

وبالجملة فالتواريخ علىٰ قسمين :

القســـم الأوّل

(ما قبل الهِجْرة ، وقد أوردتُ منه تسعةَ عشرَ تاريخا)

الأوّل — من هُبُوط آدمَ عليه السلام . وقد ٱختُلِف فيما بينه وبين الهجرة ٱختلافا فاحشا : فمقتضىٰ ما فى التوراة اليُونانِيّة علىٰ ٱختيار المؤرّخين أنّ بينهما ستةَ آلافِ سنة ومائتين وستَّ عشْرةَ سنة ، وعلىٰ ٱختيار المنجّمين أنّ بينهما خمسةَ آلافٍ وسبعمائة(١) وتسعا وستين سنة .

ومقتضىٰ ما فى التوراة السامِرِيّة علىٰ ٱختيار المؤرّخين خمسةُ آلاف ومائةٌ وسبعٌ وثلاثون سنة ، وعلىٰ ٱختيار المنجّمين ينقص عن ذلك .

ومقتضىٰ ما فى التوراة العِبْرانيّة ، علىٰ ٱختيار المؤرّخين أن بينهما أربعةَ آلاف وسبعمائةٍ وإحدىٰ وأربعين سنةً ، وعلىٰ ٱختيار المنجّمين ينقُص مائتين وتسعًا وأربعين سنةً .

الثـانى — من الطُّوفان . وبينه وبين الهجرة ثلاثةُ آلافٍ وتسعُمائةٍ وأربعٌ وتسعون سنة علىٰ ٱختيار المؤرّخين ، وعلىٰ ٱختيار المنجّمين ثلاثةُ آلافٍ وسبعُمائةٍ وخمسٌ وعشرون سنةً وثلثمائةٍ وستةُ أيّام .

الثـالث — من تَبَلْبُل الألسنِ . وبينه وبين الهجرة علىٰ ٱختيار المؤرّخين ثلاثةُ آلافٍ وثلثمائةٍ وأربعٌ(٢) وستون سنة ، وعلىٰ ٱختيار المنجّمين ينقُص عن ذلك مائتين وتسعا وأربعين سنةً .

---

(١) فى تاريخ أبى الفداء المطبوع وتسعمائة .

(٢) فى تاريخ أبى الفداء المطبوع وأربع سنين .

الرابع — من مولد إبراهيم عليه السلام . وبينه وبين الهجرة على اختيار المؤرخين ألفانِ وثمانمائةٍ وثلاثٌ وتسعون سنة ، وعلى اختيار المنجّمين ينقص عن ذلك مائتين وتسعا وأربعين سنةً .

الخامس — من بناء إبراهيم الكعبة . وبينه وبين الهجرة ألفانِ وسبعمائةٍ وثلاثٌ وسبعون سنة (١) .

السادس — من وفاة موسى عليه السلام . وبينه وبين الهجرة على اختيار المؤرخين ألفان وثلثمائةٍ وثمانٌ وأربعون سنة .

السابع — من عمارة سليمان عليه السلام بيتَ المقدس . وبينه وبين الهجرة ألفٌ وثمانمائة وستّون سنة (٢) .

الثامن — من ابتداء ملك بُخْتَنَصَّر . وبينه وبين الهجرة ألفٌ وثلثمائة وتسعٌ وستون سنة . قال صاحب حماة : بلا خلاف .

التاسع — من تخريب بُخْتَنَصَّر بيتَ المَقْدِس . وبينه وبين الهجرة ألف وثلثمائة وخمسون سنةً .

العاشر — من مَلْك فيلبس أبي الإسكندر . وبينه وبين الهجرة تسعمائة وخمس وأربعون سنةً ومائةٌ وسبعةَ عشرَ يومًا .

الحادى عشر — من غَلَبة الإسكندر على مُلْك فارس وقتل دارا ملك الفرس . وبينه وبين الهجرة تسعمائةٍ واثنتان وثلاثون سنة ومائتان وتسعون يوما (٣) .

(١) فى المختصر وتسعون .

(٢) فى المختصر وقريب سنتين والظاهر أنه تصحيف .

(٣) فى المختصر وأربع وثلاثون .

الثانى عَشَرَ — من مولد المسيح عليه السلام . و بينه وبين الهجرة ستمائة وإحدى وثلاثون سنةً .

الثالث عشر — من مَلْك أردبالونص[1] . وبينه وبين الهجرة خمسمائة وتسعٌ وستون سنةً .

الرابع عشر — من مَلْك أرْدشيرَ أوّلِ ملوك الأكاسرة من الفُرْس . وبينه وبين الهجرة أربعمائةٍ وآثنتان وعشرون سنةً .

الخامس عشر — من خَراب بيت المَقْدِس المرّةَ الثانيةَ . وبينه وبين الهجرة ثلثمائة[2] وستٌّ وأربعون سنةً .

السادس عشَرَ — من مَلْك دِقْلطيانوس : آخرِ عَبَدة الأصنام من ملوك الروم على القِبْط . وبينه وبين الهجرة ثلثمائة وسبعٌ وثلاثون سنة وأحدٌ وعشرون يوما .

السابع عشر — من غَلَبة أغشطش ملك الروم على قلوبطرا ملكة اليُونان ومصر . وبينه وبين الهجرة مائتان[3] وخمسون سنةً ومائتان وستة وأربعون يوما .

الثامن عشر — من عام الفيل، وهو العامُ الذى وُلِد فيه النبي صلى الله عليه وسلم . وبينه وبين الهجرة ثلاثٌ وخمسون سنةً وشهرانِ وثمانيةُ أيام .

---

(١) فى المختصر أدريانس وبالجملة فنى المختصر المطبوع لابى الفداء ج ١ ص ١٢٥ مخالفة لما فى أصولنا المخطوطة فتنبه .

(٢) فى مختصر أبى الفداء ج ١ ص ١٢٥ خمسمائة وثمانية وخمسون وكان لمضىّ أربعين سنة من رفع المسيح .

(٣) فى المختصر ستمائة واثنان وخمسون سنة وهو أشبه بالصواب لأن غلبة أغشطش على قلوبطرا قبل مولد المسيح باحدى وعشرين سنة .

التـاسع عشر — من مَبْعثِ النبيّ صلّى الله عليه وسلم . و بينه وبين الهجرة ثلاثَ عشرةَ[1] سنةً وشهران وثمـانيةُ أيام .

القســــم الثـانى

(مابعد الهجرة)

وفيه تاريخٌ واحد، وهو من هلاك يَزْدَجِرْد آخرِ ملوك الفُرْس . وكان بعد الهجرة بعشر سنين وثمـانية وسبعين يوما .

الجمـــلة الرابعـــة

(فى أصل وَضْع التاريخ الإسلامىّ وبنـائه على الهجرة دُونَ غيرها)

وقد آختُلِف فى أصل ذلك : فحكى أبو جعفر النحاس فى "صـناعة الكُتَّاب" عن محمد بن جرير : أنه روى بسنده إلى ٱبن شِهاب أن النبيّ صلّى الله عليه وسـلم لمـا قَدِم المدينة — وقدمها فى شهر ربيع الأوّل — أمَرَ بالتاريخ . وعلى هـذا فيكون آبتداءُ التاريخ فى عامِ الهجرة . قال النحاس : والمعروف عند العلَماء أن آبتداء التاريخ بالهجرة كان فى خلافةِ عُمَر بن الخطاب رضى الله عنه .

ثم آختلف فى السبب المُوجِب لذلك : فذكر النحاس أن السببَ فيه أن عاملَ عمر بنِ الخطاب رضى الله عنه باليمن قَدِم عليه فقال : أما تُوَرِّخُون كُتُبَكم؟ فاتخذُوا التاريخ . ووافقــه على ذلك صاحب "موادّ البيان" . وذكر أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" أن السبب فيه أن أبا موسى الأشعرىّ كَتَب إلى عمرَ بنِ الخطاب

---

(١) فى الأصل ثلاث وعشرون سنة وشهر وثمانية أيام وهو تحريف والتصحيح من مختصر أبى الفداء .

رضى الله عنه: إنه يأتينا من قِبَل أمير المؤمنين كُتُبٌ لاندرى على أيِّها نعمل قد قرأنا [كتابا منها] محِلُّه[1] شعبانُ، فما نَدرِى فى أىّ الشَّعْبانَيْنِ الماضى أو الآتى ، فأحدَثَ عمرُ التاريخَ . وتبعه على ذلك ابنُ حاجب النعمان فى "ذخيرة الكُتَّاب" . وذكر صاحبُ حماةَ فى تاريخه : أنه رُفِع إلى عمرَ رضى الله عنه صَكٌّ مَحِلُّه شعبانُ فقال : أىُّ شعبان، لاندْرِى ألذِى نحنُ فيه أم الذى هو آتٍ، ثم جمع وجوه الصحابة وقال : إنَّ الأموالَ قد كَثُرتْ، وما قَسَمناه منها غيرُ مؤقَّتٍ فكيف التوصُّل إلى مايُضْبَطُ به ذلك ؟ ـ فقالوا : يجب أن تَعْرِف ذلك من أمور الفُرْس، فاستحْضَر الهُرْمُزان وسأله ـ فقال : إن لنا حساباً نُسَمِّيه (مَاهْ رُوز) ومعناه حساب الشُّهور والأيام فعَمِل عمرُ التاريخَ .

الجملة الخامسة

(فى بيان صورة ابتدائهم وضعَ التاريخ من الهجرة)

قال فى "ذخيرة الكُتَّاب" : لما أراد عمرُ التأريخَ، جمع الناسَ للمَشُورة، فقال بعضهم : نُؤَرِّخ بمَبْعَث النبىّ صلّى الله عليه وسلم ـ وقال بعضُهم : بل بوَفاته ـ وقال بعضهم : بل بهجْرته من مكةَ إلى المدينة : لأنها أوّلُ ظهورِ الإسلام وقُوّته . فصوّبه عمر واجتمع رأْيُه عليه ؛ وكان النبىّ صلّى الله عليه وسلم قد وُلِد فى عام الفِيل المقدَّم ذكره فى التواريخ القديمة . قال فى "ذخيرة الكُتَّاب" : وكان وقوعُ ذلك فى اليوم الثانِى عشَرَ من شُبَاط سنةَ ثمانمائةٍ واثنتين وثمانين لذى القَرْنَيْنِ . وبُعث النبىّ صلّى الله عليه وسلم على رأس أربعين سنةً من وِلَادته ، وأقام بمكة بعْدَ النبوّة عَشْر[2] سنينَ ؛

---

(١) بياض بالاصول والتصحيح من الضوء للؤلف .

(٢) ينظر ذلك مع ما تقدم من أن بين المبعث والهجرة ثلاث عشرة سنة .

ثم هاجر إلىٰ المدينة فى شهر ربيع الأول بعد عشرٍ(1) من النبوة، وقدِم المدينةَ لاثنتىْ عشرةَ ليلةً منـــه .

ثم بعـد اتفاقهم علىٰ التأريخ من الهجرة اختلفوا فى الشهر الذى تقع البُدَاءة به : فأشار بعضُهم بالبُداءة برمضانَ لشرَفه وعِظَمه ـ فقال عمر بل بالمحرَّم : لأنه مُنْصَرَفُ الناس من حَجِّهـم، فرجعوا القَهْقَرىٰ ثمـانيةً وستين يوماً، وهى القدر الذى مضىٰ من أول المُحرّم [إلىٰ ذلك الوقت](2) واستقر تاريخُ الإسلام من الهجرة .

قال القضاعى فى "عيون المعارف" : وكان ذلك فى سنة تسْعَ عشرةَ أو ثمـانِى عشرة من الهجرة .

قلت : واستقرّتْ تواريخُ الأمم علىٰ أربعـةِ تواريخَ ، ابتداءُ بعضها مقــدّمٌ علىٰ ابتداء بعضٍ .

أولهـا ـــ غَلَبَةُ الإسكَنْدَر علىٰ الفُرْس . وعليه تاريخ السُّرْيان والرُّوم إلىٰ زماننا .

والثـانى ـــ مُلْك دِقْلِطْيـانُوس ملك الروم علىٰ القِبْط . وعليـه تاريخُ القِبْط إلىٰ زماننـا .

والثالث ـــ الهجرةُ النبوية علىٰ صاحبهـا أفضلُ الصلاة والسلام . وعليهـا مَدَارُ التاريخ الإسلامىّ .

والرابـع ـــ هَلاك يَزْدَجِرْد آخر ملوك الفرس . وبه تؤرِّخُ الفُرْسُ إلىٰ زمانـنـا ، وقد تقدّم بيانُ بُعْد ما بين تاريخ كلٍّ من غَلَبة الإســكندر ومُلْك دقلطيانُوس وبين الهجرة فى القَبْلِية، وبُعْـد ما بين تاريخ يَزْدَجِرْد وبين الهجرة فى البَعْـدية فى الكلام

(1) ينظر ذلك مع ما تقدم من أن بين المبعث والهجرة ثلاث عشرة سنة .

(2) الزيادة من الضوء .

علىٰ أصول التواريخ، مع ما سبق فى المقالة الأولىٰ فى بيان مايحتاجُ إليه الكاتبُ من ذكر مقدار سنة كلٍّ منها وعدَدِها من الأيام ، وسيأتى الكلامُ علىٰ آستخراج بعضها من بعضٍ فيما بَعْدُ إن شاء الله تعالىٰ .

الجملة السادســـة

(فى كيفيّةِ تقييد التاريخ فى الكِتابة بزَمنٍ معيّنٍ، وهو ضربان)

الضـــــــرب الأوّل

(التاريخُ العربىّ)

ومَدَارُه الليالِى دُونَ الأيام: لأنّ سِنِى العرب قمريّةٌ، والقمر أوّلُ مايَظْهر للأبصار هِلالًا فى الليــل ، فتكون الليالِى بهذا الأعتبارِ سابقةً للأيّام ، إذ اليومُ عندهم عبارةٌ عن النهار، وهو إما من طُلُوع الفجر علىٰ ماورد به الشرع فى الصوم ونحوِه، وإما من طُلُوع الشمس علىٰ رأى المنجّمين . قال أبو إسحاقَ الزجاجىُّ فى كتابه "الجُمَــل" : وإنما حُمِل علىٰ الليالى دُونَ الأيام لأن أوّلَ الشهر ليلُهُ ، فلو حُمِل علىٰ الأيام سقطتْ منه ليلةٌ . قال الشيخ أثيرُ الدين أبو حَيّان فى "شرح التسهيل" : وآستُغْنِى بالليالى عن الأيام للعلم أن مع كلّ ليلة يوماً، فإذا مضىٰ عددٌ من الليالى مضى مثلُه من الأيام، فيجوز أن يُستغنىٰ بذكر أحدهمــا عن الآخر. وقد ذكر جمــالُ الدين عبــدُ الرحيم آبن شيث فى كتابه "معالم الكتابة" : أن كُتبَ السلطان والأعيانِ تؤرّخ بالليالى، والكُتُب من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ تؤرّخ بالأيام . ولم أعلم مِن أين أخَــذَ ذلك ولا ماْمستَنَدُه فيه .

إذا عُلِم ذلك فلكتابة التاريخ ثلاثةُ آعتبارات :

الاعتبـار الأوّل

(أنْ يؤرّخ ببعض ليالى الشهر، وله ستُّ حالات)

الحـالة الأولىٰ

(أن تَقَع الكتابةُ فى الليلة الأُولىٰ من الشهر، أو فى اليوم الأوّل منه)

فإن كانت الكتابةُ فى الليــلة الأولىٰ منـه فقد ذكـر أبو جعفر النحاسُ فى "صناعة الكتاب" أنه يُكْتَب «كُتِب غُرّةَ شهر كذا، أو [أوّل] [1] ليلةٍ من كذا، أو مُسْتَهَلّ شهر كذا ، أو مُهَلّ شهرِ كذا » . وحكىٰ الشيخُ أثير الدين أبو حَيّان مثلَ ذلك عن بعضهم، وزاد أنه يُكْتَب أيضا «كُتِب أوّلَ شهرِ كذا» .

قال النحاس : ولا يجوز حينئذ لليلةٍ خلَتْ ولا مضَتْ لأنهم فى الليلة بعدُ . قال فى "ذخيرة الكُتّاب" : وربما كتب بعضُ الكُتّاب ليلَةَ الأستهلال «لليلةٍ [تخلو]» [2] .

وإن كانت الكتابةُ فى اليوم الأوّل وهو النهار الذى يلى الليلةَ الأُولىٰ من الشهر، كُتِبَ « لليـلةٍ خلَتْ أو مضتْ من شهر كذا » . قال النحاس : ويجوز كُتِب «لغُرّة الشهر أو لأوّل يوم من الشهر» ومنع ان يقال حينئذ : اوّلَ ليلة من شهر كذا، أو مُسْتَهَلّ شهر كذا ، أو مُهَلّ شهر كذا ، مُوَجِّها لذلك بأن الأستهلالَ إنمـا يَقَع فى الليـل . وتبعــه علىٰ ذلك ٱبنُ حاجبِ النعمان فى " ذخيرة الكُتّاب " وصاحبُ "موادِّ البيان" وبه جزم الشيخُ جمالُ الدين بنُ هشام فى وَرَقاته فى الوراقة . وكلامُ ٱبن مالك فى التسهيل يُوهِم جوازَ ذلك فإنه قد قال : فيقال أوّلَ الشهر، كُتِب لأوّل

---

(١) الزيادة من الضوء .

(٢) بياض بالاصول، والتصحيح عن الضوء للؤلف .

ليلة منه، أو لغرّته أو مُهَلّه أو مُسْتَهَلّه . وأوّل الشهر أعمُّ من اليوم والليلة بل هو إلى الليلة أقربُ، لأن الليلة سابقةٌ بالأوّلية .

قال الشيخ أثير الدين : ومفتَتَحُ الشهر أوّلُ يوم منه . ومقتضى كلامه أنه يؤرّخ بالمفتتَح فى اليوم الأوّل من الشهر دُونَ الليلة وفيه نظر، بل الظاهر جوازُ آستعماله فيهما، بل الليلة بالمُفْتَتَح أولى لسبقها اليومَ كما تقدّم، أللهم إلا أن يُراعى فيه موافقةُ المُفْتَتَح لليوم فى التذكير دُونَ الليلة لتأنيثها . قال فى "موادّ البيان" : والعرب تُسمّى أوّل ليلة من الشهر النحيرةَ، ولكن لا تستعمله الكُتّاب فى التواريخ .

الحالة الثانية

(أن تقع الكتابةُ فيما بعدَ مُضِىِّ اليوم الأوّل من الشهر إلى آخر العَشْر)

فإن كان قد مضى منه ليلتان ، كُتِب « لليلتينِ خَلَتَا من شهر كذا، أو لليلتين مَضَتَا منه » قال فى "ذخيرة الكتّاب" : ولا يُكْتَب ليوم خَلَا ولا ليومين خَلَوَا : لأن ذكر الليالى فى باب التأريخ أغلب، كما تقول ليلة السبت وليلة الأحد، فتُضيف الليلةَ إلى اليوم لأنها أسبقُ، ولا تضيف اليومَ إلى الليلة .

وحكى الشيخ أثيرُ الدين أبوحَيّانَ أنه إذا مضى من الشهر يومٌ كُتِب «ليوم مضى» وإذا مضى يومان «كُتب ليومين مَضَيَا» . والتحقيق فى ذلك أنه يختلفُ الحالُ فيه باختلاف الكتابة فى الليل والنهار : فإن كَتَبَ فى الليلة الثانية، ناسبَ أن يَكْتُبَ «ليوم خَلَا من شهر كذا» لأنه إن كَتَب لليلتين خَلَتَا فهو فى الليلة الثانية بعدُ، وإن كَتَب لليلةٍ خلَتْ لم يظْهَر الفرقُ بينه وبين الكتابة فى اليوم الأوّل من الشهر . وإن كتب فى اليوم الثانى من الشهر، ناسبَ أن يَكْتُبَ لليلتين خَلَتَا أو مَضَتَا . وإن كان

قد مضىٰ من الشهر ثلاثُ ليـال، كَتَبَ لثلاثٍ خلَوْنَ أو مضَيْنَ من شهر كذا، أو لثلاثِ ليالٍ خَلَوْنَ أو مَضَيْنَ . ويجوز فيه لثلاثٍ خلَتْ أو لثلاث ليال خَلَتْ علىٰ قِلّة . وكذا فى الباقى إلىٰ العشر فتقول : لعشرٍ خلَوْنَ أو مضَيْنَ، أو لعشر ليال خَلَوْنَ أو مَضَيْن ، أو لعشرٍ ، أو لعشر ليالٍ خلَتْ أو مضَتْ علىٰ اللغة القليلة .

الحـالة الثالثـــة

(أن تقع الكتابة فيما بعدَ العشر إلىٰ النصف)

فيَكْتُب لإحدىٰ عشرةَ خلتْ أو مضتْ من شهر كذا . أو لإحدىٰ عشرةَ ليلةً خلَتْ أو مضت ، ويجوز فيه لإحدىٰ عَشْرَة خلون أو لإحدىٰ عشرةَ ليلةً خلَوْنَ علىٰ قلة . وكذا فى الباقى إلىٰ النصف من الشهر . قال الشيخ أثيرُ الدين أبو حيان : فإن صَرّح بالمميِّز وكان مُذَكّرا ، أُعِيـد الضميرُ عليه فيقـال : لاحدَ عَشَر يوما خَلاَ أو مضىٰ ونحو ذلك .

الحـالة الرابعـــة

(أن تَقَع الكتابةُ فى الخامسَ عشَرَ من الشهر)

فيكتُب «كُتِب لنِصفِ شهر كذا» . قال النحاس : وأجازوا لخمسَ عَشْرةَ ليلةً خلَتْ أو مضَتْ . وكلامُ ابن مالك فى "التسهيل" يُشير إلىٰ جواز لخمسَ عَشْرةَ ليلةً خلَتْ أو مضَتْ [أو بقِيتْ][1] علىٰ رأى من يُجَوِّز التاريخَ بالباقى . ولو حَذَفَ ذِكْرَ الليلة فقال : لخمسَ عشْرةَ خلَتْ أو مضَتْ أو بقيت صَحَّ . قال فى "التسهيل" والتاريخ بالنصف أجود .

---

(١) الزيادة لازمة ليصح الكلام .

الحـالةُ الخامســـةُ

(أن تقع الكتابةُ فيما بعدَ النِّصْف من الشهر إلى الليلةِ الأخيرةِ منه)

وفيه لاهل الصِّناعة مذهبان :

المذهبُ الأوّل — أن يؤرِّخ بالماضى من الشهر كما فى قبْل النصف، فيقـال : لستٍّ عشرةَ خلَتْ أو مضَتْ، أو لستٍّ عشْرةَ ليـــلةً خلَتْ أو مضَتْ . وكذا إلى العشرين فيقال : لعشرينَ خلَتْ أو مضَتْ ، أو لعشرين ليــلةً خلَتْ أو مضت، وكذا فى البواقى إلى آخر التاسـع والعشرين ، فيكون التاريخ فى جميع الشهر من أوّله إلى آخره بالمـاضِى دُونَ البـاقى فِرارًا من المجهول إلى المحقَّق ، وهو مذهَبُ الفُقَهاء لأنه لا يُعْرفُ هل الشهر تامٌّ أو ناقِصٌ . قال النحاس : ورأيتُ علىَّ بنَ سليمان يختاره . قال فى "ذخيرة الكُتّاب" : وهو أثبتُ وحُجَّتُه أقوىٰ . ثم لا شكَّ أنَّ من يرىٰ التاريخ باليوم يجوّز لستةَ عشَر يومًا خَلَا أو مضىٰ من شهركذا، وكذا فيما بعْده.

المذهب الثانى — أن يؤرِّخ بمـا بَقِىَ من الشهر . وللمؤرِّخين فيه طريقان :

الطريق الأوّل — أن يجْزم بالتاريخ بالبـاقى فيكتب لأربع عشرة ليـلةً بقيت من شهركذا ، ثم لثلاثَ عشرةَ ليلةً بقِيَتْ ، وهكذا إلى الليلة الأخيرة من الشهر ؛ فيكتب لليلةٍ بقِيَتْ، وهو مذهبُ الكُتّاب . قال النحاس : ورأيت بعض العلمـاء وأهـل النظر يصوّبونه ، لأنهم إنمـا يكتُبون ذلك علىٰ أن الشهر تامٌّ، وقد عُرِف معناه وأن كاتبَــه وقارئه إنمـا يُرِيد إذا كان الشهرُ تامًّا فلا يحتـاج إلى التلفُّظ به . قال محمدُ بن عمرَ المدائنى : واَحتجُّوا لذلك بأن مُعاويةَ بنَ أبى سُفْيانَ رضى الله عنه : حين كَتَب عن النبىّ صـلّى الله عليه وسـلم لاَبْن الحَضْرمىّ كتب فى آخر الكتاب :

«وكَتَبَ معاويةُ بنُ ابى سُفْيان لثلاثِ ليالٍ بَقِينَ من ذى القَعْدة بعد فتح مكةَ سنةَ ثمانٍ» ثم قرأه عثمانُ بنُ عفّان رضى الله عنه والناسُ حَوْلَه . قال النحاس : وقد وقع مثلُ ذلك فى كلام النُّبوّة . فقد ورد فى الحديث أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم قال فى ليلة القدر : "ٱلتمِسُوهَا فى العَشْرِ الأَوَاخِرِ لسابعةٍ تَبْقىٰ أو لخامسةٍ تَبْقىٰ" . وهذا الحديث الذى ٱستشهد به النحاسُ ثابتٌ فى الصحيح فلا نِزاعَ فى العمل به .

الطريق الثانى — أن يُعلِّق التاريخَ بالباقى علىٰ شَرْط . فيكتبُ لأربعَ عشرةَ إن بَقِيَتْ ، أو لأربعَ عشرةَ ليـلة إنْ بَقِيَتْ ، وعلىٰ ذلك فى البـاقى ، فِراراً من إطلاق التاريخ بمـا لا يُعْـلَم تمـامُه أو نقصه وتعليقا له علىٰ حُكْم التمـام ؛ وكأنه يقول : لأربعَ عشرةَ ليـلةً بَقِيَتْ من الشهر إن كان تمـامًا . ومن يرىٰ التاريخ بالأيام يجوّز لأربعةَ عشرَ يوما تَبْقى من شهر كذا ، وكذا فى الجميع .

الحـالة السادســـة

(أن تَقَع الكتابةُ فى الليلة الأخيرةِ من الشهر أو فى اليوم الأخير منه)

فإن كان فى الليلة الأخيرةِ منه كُتِب «لآخِرِ ليلةٍ من شهر كذا ، أو فى سَلْخ شهرِ كذا ، أو فى ٱنسِلاخه» . وإن كان فى اليوم الآخِرِ منه كُتِب «لآخِرِ يومٍ من شهر كذا ، أو فى سَـلْخه أو ٱنسِلاخه أيضا» . ولم يختلفوا هنا فى جواز التاريخ باليوم . قال ٱبن حاجب النعمان : وذلك أن الشهر يبتدئ بابتداء اللّيـالى وينقضى بانقضاء النهـار . وذكر صاحب "مَوَادّ البيان" أن الذى كان كُتّاب مصر يستعملُونه بالديار المِصْرية أن يُجْعل شهرٌ ثلاثين يوما وشهرٌ تسـعةً وعشرين ، وهذا جُنُوح منهم إلىٰ الاعتبار النُّجومىّ ، ولا مُعوَّل علىٰ ذلك فى الشريعة .

قلت : وكُتَّاب زماننا قد أهملوا النظرَ فى ذلك جُملةً وعوّلوا علىٰ التاريخ بالأيّام، واقفين عند حَدِّ اليوم الذى ينتهِى إليه العَدَدُ من الشهر عند الكتابة فيكتبون فى اليوم الأوّل : كُتِب فى مستَهَلِّ شهر كذا ، ثم فى ثانى شهر كذا أو ثالثه إلىٰ العشر؛ ثم فى حادِى عَشَره وثانِى عشره إلىٰ العشرين ، ثم فى العشرين من شهر كذا ، أو الحادى والعشرين، والثانى والعشرين إلىٰ التاسع والعشرين . وفى اليوم الأخير من الشهر يكتبون فى سَلْخ شهرِ كذا لا يَعْرِفُون غير ذلك .

ثم مما يُستَحْسَن فى التاريخ أنه إذا وقعتِ الكتابةُ فى يوم مشهور ـ كأيام المواسم ـ أُرِّخ به، مع قطع النظر عن عدد ما مضىٰ من الشهر أو بَقِىَ منه . فيكتب فى اليوم الأوّل من شَوّال «كُتِب فى يوم عيد الفطر» وفى تاسع ذى الحِجّة «كُتِب فى يومِ عرفةَ» وفى عاشره «كُتِب فى يومِ عيدِ النَّحْر، أو فى يوم عيدِ الأضحىٰ» وفى حادى عشره «كُتِب فى يوم القَرّ» ـ بفتح القاف، سمى بذلك لأن الناس يَسْتقِرُّون فيه بِمنًى ، وفى ثانى عشره «كُتِب فى يوم النَّفْر الأوّل» لأن الحجيج يَنْفِرُون فيه من مِنًى، وفى ثالث عشره «كُتِب فى يوم النَّفْر الثانى» .

الاعتبار الثانى

(أن يؤرّخ بجملة من أيام الشهر)

فإن أَرَّخ بعَشْرٍ من الشهر، بناه علىٰ التأنيث : فيكتب «كُتِب فى العَشْر الأُولىٰ، او فى العَشْر الأُوَل ـ بضم الهمزة وفتح الواو جمع أوّلة[1] . أو كتب فى العَشْر الوُسْطىٰ أوفى العَشْر الوُسَط ـ بضم الواو وفتح السين جمع وُسْطىٰ، أوكتب فى العَشْر الأُخْرىٰ

(١) لعل الصواب "جمع أولىٰ" .

اوفى العشر الأُخَر ـ بضم الهمزة وفتح الخاء جمع آخِرةٍ . قال الشيخ أثيرُالدين ابوحيّان : ولا يُكتَب العَشْر الأوّلُ ولا الأوسطُ ولا الآخِرُ . وقال بعض النحويين يُكتَب «وكتب فى العَشْر الآخرةِ أوالأواخِر» ولايُكتَب الأُخْرى ولاالأُخَر: لئلايلتبس بالآخِر بمعنى الثانى أو الأُخَر بمعنى الثوانى . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ أيام الشهر أن العرب تسمّى ليالِىَ الشهر كُلَّ ثلاث منها باسمٍ ، وقد تقدّم ذكْرُ أسمائها هُناكَ . فإذا وقعت الكتابةُ فى ثلاثٍ منها ، كالغُرَر: وهى الثلاث الأولىٰ من الشهر ، والدَّآدِى : وهى الثلاثُ الأخيرةُ منه ، كان للكاتب أن يؤرِّخ بها كما يؤرِّخ بعشرٍ من الأعشار الثلاثِ ، بل الثلاثُ أقربُ لمعرفةِ التاريخ من العشر . وقد أشار إلىٰ ذلك الشيخُ أثير الدين فى "شرح التسهيل" فقال : وإن أرَّخ بالثلاث الأخيرةِ من الشهر كَتَب الدَّآدِى .

وإذا كان فى السَّـنَة أيام مشهورةٌ ، أُرِّخ[1] بها كالأيام المعلومات : وهى العشرُ الأُوَل من ذى الحِجّة ، والأيامِ المعدُوداتِ : وهى أيامُ التشريق علىٰ ماتقدّم ذكرهُ فى موضعه ، كان للكاتب أن يؤرِّخ بها .

الاعتبار الثـالث

(أن يؤرِّخ بأجْزاء اليوم أو الليـلة)

وأكثرُ ما يحتاج الكاتبُ إلىٰ ذلك فى تاريخ بَطَائق الحَمَام ، وقد سبق فى الكلام علىٰ الأيام أنّ كلّ واحدٍ من الليـل والنهـار آثنتا عَشْرة ساعةً زمانيّة ، تطولُ بطُول أحدهما وتقصُر بقِصَره ، ولكلِّ ساعةٍ منها آسمٌ يخُصُّها ، كالشُّروق : وهو أوّلُ ساعاتِ النهار ، والغُروب : وهو آخر ساعاته ، والشَّفَق : وهو أوّل ساعاتِ الليلِ ، والصَّباح وهو آخر ساعاته . فينبغى للكاتب إذا كتب بِطاقةً من بَطَائق الحمام أن يكتب

---

(١) عبارة الضوء ص ١٠٤ "ولا نزاع فى أنه يجوز التاريخ بالأيام المشهورة فى السنة كالأيام المعلومات الخ" وهى أوضح .

الساعةَ التى كُتِبت فيها من ساعات النهار ، أما ساعاتُ الليل فلا يتأتّى فيها ذلك ، لأن الحمام لا يُسَرَّحُ فى الليـل ، اللهم إلا أن تَدْعُوَ الضرورة إلى التاريخ بساعةٍ من ساعات الليل فى بعض المكاتَبات فيؤرّخ بها .

قلت : وهذا الترتيب قد تركه كُتّاب زماننا ، وصاروا يؤرِّخون بالساعات المشهورة عندهم ، كالأُولى من النهار ، أو الثانيـةِ ، أو وقْتِ الظهر ، أو وقتِ العَصْر ، ونحو ذلك .

الضـــــرب الثـانى
(التـاريخ العَجَمىّ)

ومَدَارُه الأيام دُونَ الليالى ، لأن سَنَتَهم مع آختلافها فى الشهور ومَبَادئها ومَقَاطِعها شمسيّةٌ ، والشمسُ محلُّ ظهورها النهـارُ دُونَ الليـل ، فلذلك أرّخُوا بالأيام . قال أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" : قال أحمدُ بن يحيىٰ البَلَاذُرِىّ : حضرتُ مجلسَ المتوكّل ، وإبراهيمُ بنُ العبّاس يقرأ الكتابَ الذى أنشأه فى تأخير النَّوْرُوز ، والمتوكّل يتعجّب من حُسْن عِبَارته ولُطْف معَانِيـه والجمـاعةُ تشهَدُ له بذلك ، فدخَلَتْنِى نَفَاسةٌ ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين فى هـذا الكتاب خطأ ! فأعادوا النظر ، وقالوا : ما نراه فمـا هو ؟ ـ قلت : أرّخ السـنةَ الفارسيّةَ بالليـالِى ، والعجَمُ تؤرِّخ بالأيام ، واليومُ عندهم أربعٌ وعشرون ساعةً تشتَمِل على الليل والنهـار ، وهو جزْءٌ من ثلاثين جُزْءا من الشهر ، والعربُ تؤرِّخ بالليـالى ، لأن سِنِيهم وشهورَهم قمريّةٌ ، وآبتداءُ الهلال بالليل ـ قال : فشهدوا بِصحّة ماقلته ، وآعترف به إبراهيمُ . وقال : ليس هذا من عِلْمى .

قلت : وأكثرُ ما يُحتـاج إلىٰ ذلك فى تحويل السِّنينَ ونَقْل النيْروز عند دَوَران السـنين ، كما فى كِتَاب إبراهيمَ بنِ العبـاس المقدّم ذكره ، وكذلك فى كتابة الُمدَن فسيأتى أنه يَجْمُعُ فيها بين التاريخ العَربىّ والعَجَمىّ جميعًا ، ويجب فيه تقديم العَرَبىّ علىٰ العَجَمىّ ، مثل أن يكْتُب «كُتِب لعَشْر خلَوْنَ من المحرّم سنة ثمانمائة ، موافقًا للعاشر من تُوتٍ من شُهور القِبْط» أو العاشرِ من تَشْرين الأوّلِ من شُهور السريان ، أو العاشر من ينير من شهور الروم ، أو العاشر من أفرودين ماه ، من شهور الفُرْس ونحو ذلك .

الجمـــلة السابعة

(فى تقييـد التـاريخ بالســنة)

قد علمتَ أن فائدةَ التاريخ إنمـا تتحقّقُ بذكر السنة بعد اليوم والشَّهْر ، وإلا فلا يُعْلَم من أىّ السنين . فإذا كتب يوم كذا من شهر كذا كَتَب بعد ذلك ، سنةَ كذا ، سـواء كان التاريخُ عَرَبيا أو عَجَميًّا ، أو مُرَكَّبا منهما ، مثل أن يكتب سنةَ كذا من الهجرة الموافِقِ لكذا من سِنِي الرُّوم أو سِنِي الفُرْس .

ثم للكاتب فى كتابة تاريخ السنة مصطلحانِ .

المصطلح الأوّل — أن يكتُب «سنةَ كذا» فيحتاج إلىٰ حَذْف الهاء من العَدَد ، علىٰ قاعدة حَذْفها من عَدَد المؤنّث ، مثل أن يكتب سنة ستٍّ وثمانمائة ونحو ذلك ، وعلىٰ هذا اصطلح كُتَّاب الديار المِصْرية وبلادِ المَشْرق .

المصطلح الثانى — أن يكتب «عامَ كذا» فيحتاج إلىٰ إثبات الهاء فى العدد علىٰ قاعدة إثباتها فى عدد المذكَّر ، مثل أن يكتب «عام ستّةٍ وثمـانمائة» وعلىٰ نحو ذلك

يجرى كُتّاب الغرب غالبا ، لما يقال : إن العام يختص بالخصب والسنة تختص بالمحل على ما تقدّم ذِكْره فى الكلام على السِّنين فيما يحتاج إليه الكاتبُ فى المقالة الأُولى .

الجملة الثامنة

(فى معرفة بعض التواريخ من بعض)

قد ذكر فى " موادّ البيان " أن من جملة أدب الكاتب العلمَ بتواريخ سِنِى العالَم وآستخراج بعضها من بعض فى كل وقتٍ من أوقات اليوم الذى هو فيه من كل شهرٍ وسنة من سِنِى الأمم . وقد تقدّم أيضا أن المستعمل من التواريخ فى زماننا بين الأمم أربعةُ تواريخَ، بعضها أقدَمُ من بعض .

أوّلها — تاريخُ غَلَبة الإسكَنْدَر . وهو التاريخ الذى تُؤرّخ به السُّرْيان والرومُ والفَرَنْجة ومَنْ فى معناهم إلى الآنَ، وهو بعدَ الطُّوفان فيما حرّره الشيخُ علاء الدين ابن الشاطر فى " زيجه " بثلاثة آلافٍ وسَبْعمائةٍ وخمس وثلاثين سنةً وثلثمائةٍ وعشرين يوما .

الثانى — التاريخ من مَلْك دقلطيانوس . وهو الذى يؤرّخ به القِبْط إلى الآن، وربما عبّروا عنه بتاريخ الشُّهَداء، إشارة إلى تسميتهم الذين قتلهم دقلطيانوس من القبط شُهَداءَ، وهو بعد غَلَبة الإسكندر بخمسمائةٍ وأربع وتسعين سنة وثلثمائة واثنين وثلاثين يومًا .

الثالث — التاريخ من الهجرة،وعليه تاريخُ الإسلام. وهى بعد مَلْك دقلطيانوس بثلثمائة وستّ وثلاثين سنة وثلثمائة وأحدٍ وعشرين يومًا .

الرابع — التاريخُ من هلاك يَزْدَجِرْد آخر ملوك الفُرْس . وقد تقدّم أنه بعد الهِجْرة بعشرِ سنينَ وثمـانيةٍ وسبعين يومًا .

فأما التاريخ السُّرْيانىّ والرومىّ وهو الذى مبدؤه من غَلَبة الإسكندر فقد تقدّم أن شُهور السُّرْيانيين آثنا عَشَر شهرا ، وهى : تشرينُ الأوّلُ — تشرين الثـانى — كانونُ الأوّلِ — كانون الثانى — شُبَاط — أَذَار — نَيْسانُ — أيَّار — حَزِيرانُ — تَمُّوز — آب — أيْلُول . منها سبعةُ أشهر كلُّ شهر منها أحدٌ وثلاثون يوما ، وهى : تَشْرين الأوّلُ ، وكانون الأوّلُ ، وكانونُ الثانى ، وأذارُ ، وأيَّار ، وتَمُّوز ، وآبٌ ، وأربعةُ أشهر كل شهر منهـا ثلاثون يوما ، وهى : تشرينُ الثانى ، ونَيْسانُ ، وحَزِيرانُ ، وأيلولُ . ومنها واحدٌ ثمـانية وعشرون يوما : وهو شُبَاط ، فتكون أيامُ سِنِيه ثلثمائةٍ وخمسةً وستين يوما ، ويُضاف إليها ربعُ يوم مراعاةً للسنة الشمسيَّة ، فتصير ثلثمائة وخمسةً وستين يوما وربُعَ يوم ينقصُ جزءًا يسيرا . ومن أجْل ذلك يَعُـدّون ثلاثَ سـنينَ بسائطَ يكونُ[1] شُبَاطُ فيها تسعةً وعشرين يوما : لإضافة رُبع اليوم فى السنين الأربع إليه ، وتكون السنة فيها ثلثمائةٍ وستةً وستين يوما .

وقد تقدّم أيضا أن شهور الســنة الرُّومية تُضاهى شهورَ السنة السُّرْيانية فى عَدَد الأيام ، بل هى هى ، إلا أن الرُّوم يُسمُّون أشهرَهم بأسماءٍ غير أسماء شُهور السُّرْيان ، ويكون أوّلُ شهورهم موافقًا لكانون الثانى ، وهو الشهرُ الرابعُ من شهور السُّرْيان ، ويكون آخرُ شهورهم موافقًا لكانون الأوّلِ .

---

(١) كذا فى الاصول ويظهر أن فيه سقطا من الناسخ والاصل "يعدون ثلاث سنين بسائط" وسنة كبيسة يكون الخ كما يؤخذ من نظيره فى التاريخ القبطى تأمل .

وأسماء شهورهم : ينَيّر، فبْراير، مارس، ابريل، مايه، يونيه، يوليه، أغشت، شتنبر، أكتوبر، نونبر، دجنبر . ولا فرق فى شيءٍ منها سوىٰ آختلافِ الأسماء وآبتداء رأس السنة، وحينئذ فيكون الكلُّ فيها فى التاريخ واحدا .



وأما التاريخ القِبْطىّ : وهو الذى مبدؤه من مَلْك دقلطيانُوس، فقد تقدّم أن شهور السنة القِبْطية آثنا عشَرَ شهرًا . وهى : توت، بابه، هتور، كيهك، طوبه، أمشير، برمهات، برموده، بشنس، بـؤونه، أبيب، مسرىٰ . وكل شهر منها ثلاثون يومًا من غير آختلاف، ثم بعد مسرىٰ خمسة أيام يسمُّونها أيام النسىء، فتكون أيامُ سنَتِهم ثلثمائةٍ وخمسةً وستين يوما، وتزيد بعد ذلك رُبُعَ يوم فى كل سنة كما فى التاريخ الرومىّ، وقد آصطلحوا علىٰ أن يعُدّوا منها ثلاثَ سنين بسائطَ، كلُّ سنة منها ثلثمائة وخمسةٌ وستون يوما لا زيادةَ فيها، والرابعة كبيسةٌ تكون أيامُ النسىء فيها ستةَ أيام وزيادةَ رُبُع يوم، وتصير أيامُ تلك السنة ثلثمائة وستة وستين يوما، علىٰ نحو ما تقدّم فى السُّرْيانىّ والرومىّ .



وأما التاريخ العربىّ : وهو الذى مبدؤه الهجرة، فقد تقدّم فى الكلام علىٰ الشهور فى المقالة الأولىٰ أن شهور سنة العرب آثنا عشَرَ شهراً . وهى : المحرّم، صَفَرٌ، ربيع الأوّلُ، ربيعُ الآخِر، جُمَادىٰ الأولىٰ، جُمَادىٰ الآخِرة، رجبٌ، شعبانُ، رمضانُ، شوّالٌ، ذو القَعْدة، ذو الحِجّة . وأنها قمرية مَدَارُها رؤية الهلال، إلا أن المنجِّمين آعتمدوا فيها علىٰ الحِسَاب دُونَ الرؤية لتصحيح حساب التواريخ ونحوها، وجعلوا فيها شهرا تامًّا عدَدُه ثلاثون يوما، وشهرا ناقصا عدَدُه تسعةٌ وعشرون يوما، علىٰ ترتيب شهور السنة ؛ فالمحرّم عندهم تامٌّ، وصفَرٌ ناقص، وربيعٌ الأوّل تامٌّ،

وربيعٌ الآخِرُ ناقِصٌ، وجُمادىٰ الأولىٰ تامٌّ، وجمادىٰ الآخِرَةُ ناقص، ورجب تام، وشعبانُ ناقص، ورمضانُ تام، وشوّالٌ ناقصٌ، وذُو القَعْدة تامٌّ، وذوالحِجّة ناقص .
فيكون من السنة ستة أشهر تامة وستة أشهر ناقصة، وتكون السنة حينئذ ثلثمائة يوم وأربعةً وخمسين يوما، ويلحَقُها بعد ذلك كسرٌ فى كل سنة، وهو خُمُس يوم وسُدُس يوم، فتصير السنةُ ثلثمائة يوم وأربعة وخمسين يوما وخُمُس يوم وسُدُسَ[(١)] يوم مفترقة فى ثلاثين سنة، ويجعلون الكَبِيسةَ سنةً بعدَ سنة ثم سنةً بعد سنتين، ثم سنةً بعد سنة، وعلىٰ هذا الترتيب إلىٰ آخر الثلاثين، فتكون الكبائسُ هى: الثانيةَ، والخامسةَ، والسابعةَ والعاشرةَ، والثالثةَ عشرةَ، والخامسةَ عشرةَ، والثامنةَ عشرةَ، والحاديةَ والعشرين، والرابعةَ والعشرينَ، والسادسةَ والعشرين، والتاسعةَ والعشرين . فتكون كل سنةٍ منها ثلثمائة وخمسةً وخمسين يوما، ويجعلُ الزائدُ فيها فى ذى الحجة، فيكون فيها ثلاثين يوما وباقى سنى الثلاثين بسائطُ، كلُّ سنة منها ثلثمائة وأربعةٌ وخمسون يوما، وذو الحجة فيها تسعةٌ وعشرون يوما، بناء علىٰ الأصل فى أن يكون شهرٌ تامًّا وشهرٌ ناقصا .



وأما التاريخ الفارسىّ : وهو الذى مبدؤه من هلاك يَزْدَجِرْد، فقد تقدّم فى الكلام علىٰ الشهور أن سِنِي الفُرْس اثنا عَشَرَ شهرا، كلُّ شهر منها ثلاثون يوما . وهى : افرودين ماه، أرديهشتماه، حرداماه، تيرماه، ترداماه، شهريرماه، مهرماه، أبان ماه،

(١) كذا فى الأصول وعبارة الضوء ص ١٥٦ "ويجتمع من هذا الخمس والسدس يوم فى كل ثلاث سنين فتصير السنة ثلثمائة وخمسة وخمسين يوما ويبقى من ذلك بعد اليوم الذى اجتمع شىء فيجتمع منه ومن خمس اليوم وسدسه فى السنة السادسة يوم واحد وكذلك إلىٰ أن يبقى الكسر أحد عشر يوما عند تمام ثلاثين سنة وتسمى تلك السنين كبائس العرب" وهى أوضح .

أدرماه، ذى ماه، بهمن ماه، اسفندارماه . وبين أبان ماه وأدرماه خمسةُ أيام تسمّى المسترقَة بمثابة أيام النسىء فى آخر سنة القِبْط ؛ وبمقتضىٰ ذلك تكون سنتُهم ثلثمائة وخمسةً وستين يوما ، وليس فيها زيادةٌ ولا نقصٌ . فلا بدّ من معرفة هذه الأصول لاستخراج تواريخ بعض السنين المذكورةِ من بعض .

ثم مما يجب تعرّفه بعد ذلك أن تَعْلَمَ أن التاريخ السُّرْيانىّ والرومىّ سِنُونُه سُرْيانية أو رومية علىٰ ماتقدّم ، فيعتبر فيها مايعتبر فى السنين السُّريانية والروميّة من عدد الأيام والكبائس ، والتاريخ القِبْطىّ سِنُونُه قبطية فيعتبر فيها مايعتبر فى السنينِ القبطيّة من الأيام والكبائس ، والتاريخَ العربىّ سِنُونُه عربية فيكون علىٰ ما تقدّم فى السِّنين العربية من عدد الأيام والكبائس، والتاريخ الفارسىّ سِنُونُه فارسيةٌ فيعتبر فيها مايعتبر فى السنين الفارسية من عدد الأيام ، ولا كَبِيسةَ فيها .

إذا علمت ذلك فإذا أردت استِخْراجَ بعض هذه التواريخ من بعضٍ، فانظر التاريخَ المعلومَ عندها عندك، كالتاريخ العربىّ مَثَلا عند الإسلاميين فاجعل السنين التامّةَ من التاريخ المعلومِ أيّاما ، وزِدْ عليها مامضىٰ من السنة المكسورةِ من الشهور والأيام إلىٰ اليوم الذى تُرِيد أن تعلم موافَقَته لمثله من التاريخ المجهول ، ثم آنظر : فإن كان التاريخ المعلومُ أقدمَ من التاريخ المجهول، فانْقُصْ من أيام التاريخ المعلومِ ما بين التاريخين من الأيام فما بَقِىَ فهو أيامُ التاريخ المجهول . وإن كان التاريخ المجهولُ اقدمَ ، فزد ما بين التاريخين من الأيام فما بَقِىَ فهو أيامُ التاريخ المعلوم ، فما بلغ فهو أيامُ التاريخ المجهول . فإذا علمت أيامَ التاريخ المجهول بزيادةِ مابين التاريخين علىٰ أيام التاريخ المعلوم أو نُقْصانِها منه علىٰ ما تقدّم، فاجعل ما حصل معك من أيام التاريخ المجهول الذى تُرِيدُ آستخراجَه ، فما كان فهو السِّنُون التامّةُ

للتاريخ الذى تريد آستخراجه ، فإن بَقِىَ شىءٌ من الأيام بعد السنين التامة، فخذ منها لكل شهر عددَ أيامه، ومابقى من الأيام دُونَ شهر فهو الماضى من أيام الشهر الذى يَلِى ذلك .

مثـال ذلك إذا أردت ان تستخرج التاريخ السُّرْيانىّ أو الرومىّ الموافقَ لآخِرِ سـنة ثمـانمائة من الهجرة، فقد تقدّم لك أن التاريخ السريانىّ والرومىّ مبدؤه من غَلَبة الإسكندر علىٰ الفُرْس ، وهو قبل الهِجْرة بِتِسْعِمائة سـنةٍ وآثنتين وثلاثين سنة ومائتين وسبعةٍ وثمـانين يوما[1]، وذلك ثلثمائة ألف يوم وأربعون ألف يوم وسـبعمائة يوم ، فاحفظ ذلك ، ثم آبْسُطِ المـاضِىَ من سِنِى الهجرة وهو ثمانمـائة سنة أياما ، بأن تضرب الثمـانمائة فى عشرة آلاف وستمـائة وأحد وثلاثين يوما ، وهى بسـط السنة العربية مِن حين كسرها الزائد علىٰ أيامها، وهو خمس يوم وسدس يوم، يكون ثمـانية آلاف ألف وخمسمائة ألف وأربعة آلاف وثمـانمائة ؛ فاقســمه علىٰ ثلاثين وهى مخرج الكسر الذى هو الخمس والسدس ، يخرج بالقسمة مائتـا ألف وثلاثة وثمانون ألفا وأربعمائة وثلاثة وتسعون، وهو عدد أيام الثمـانمائة سنة ؛ فأضفه علىٰ ما بين غلبة الإسـكندر والهجرة من الأيام ، وهو ثلثمائة ألف وأربعون ألفـا وسبعمائة يوم، يكون الجميعُ ستّمائة ألف وأربعةً وعشرين ألفا ومائةً وثلاثةً وتسعين، فاجعل تلك الأيامَ سنين سُرْيانية، بأن تضربَ تلك الأيامَ فى أربعة، يحصُل منهـا ألفا ألف وأربعمائة ألف وستةٌ وتسعون ألفا وسبْعُمائة وآثنان وسبعون يوما؛ فآقسمه علىٰ ألف وأربعمائةٍ وأحد وستين ، يخرج بالقســمة ألْفٌ وسبعُمائة وثمـانية ، وهى سنونَ تامّة؛ ويفضل بعد ذلك ألفٌ وثلثمائة وأربعة وثمانون، فاقسمها علىٰ أربعة،

(١) الذى تقدم له "ومائتين وتسعين يوما" .

يخرج ثلثمائة وستة وأربعون يوما ، يكون ذلك أحد عشر شهرا ، من أوّل تشرين الأوّل وأحد عشر يوما من الشهر الثانى عشر من الشهور السُّرْيانيــة وهو أيلول ؛ فيكون آخر يوم من سنة ثمانمائة هجرية موافقًا لليوم الحادى عشر من أيلول سنة ألف وسبعمائة وتسع من السريانية .

وإن أردت أن تستخرج التاريخ القبطىّ لآخر سنةِ ثمانمائة، فقد تقدّم أن التاريخ القبطىّ ابتداؤه من ملْك دقلطيانوس علىٰ القِبْط ، وهو قبـل الهجرة بثلثمائة وسبع وثلاثين سـنة وثلثمائةٍ وعشرين يوما ، وجملة أيامه مائةُ ألفِ يوم وثلاثةٌ وعشرون ألفَ يوم وأربعُمائةِ يوم وتسعةُ أيام ، فأضِفْ أيام المـاضى من سنى الهجرة : وهو مائتا ألف وثلاثة وثمـانون ألفا وأربعمائة وثلاثة وتسعون علىٰ ماتقدّم فى التاريخ السريانىّ [علىٰ ماقبل الهجرة](١) وهو مائة ألف وثلاثة وعشرون ألفا وأربعمائة وتسعة أيام ، يكون المجموعُ أربعَمائةِ ألفِ وستةَ آلاف وتسعَمائة يوم ويومين ؛ فاجعله سنين قبطية ، بأن تضرب ذلك فى أربعة عدد مَخْرَج كسر السنة القبطية ، وهو الربع الزائد علىٰ الخمسة وستين ، يكون ألف ألف وستمائة ألف وسبعة وعشرين ألفا وستمائة وثمـانية ؛ فاقسـمه علىٰ ألف وأربعمائة وأحد وستين ، يخرج بالقسمة ألف ومائة وأربعة عشر ، وهو عدد السـنين القبطية التـامة ، ويبقىٰ بعـد ذلك أربعةٌ وخمسون ؛ فاقسـمه علىٰ الأربعة المذكورة يخرج بالقسمة أربعـة عشَرَ ، وهى أيام من الشهر الأوّل من السـنة القبطية الناقصة ، فيكون آخر يوم من سـنة ثمـانمـائة للهجرة موافقا لرابع عشر شهر توت سـنة ألف ومائة وخمس عشرة من السنين القبطية .

---

(١) الزيادة لازمة لتوضيح المقام وهى مرادة للؤلف .

وإن أردت أن تستخرج التاريخ الفارسىّ لآخر سنة الثمانمائة المذكورة ، فقد تقدّم أن ابتداء التاريخ الفارسىّ بعد الهجرة بعشر سنين وثمانين يوما ، وجملةُ أيامه ثلاثةُ آلاف يوم وستُّمائةِ يوم وأربعةٌ وعشرون يوما ؛ فأسقطها من الحاصل من أيام النّسِىء[1] الماضى من الهجرة إلى آخر الثمانمائة ، يكون الباقى بعد ذلك مائتَىْ ألفٍ وتسعةً وسبعين ألفا وثمانمائة وتسعةً وستين يوما ؛ فاقسمها على ثلثمائة وخمسة وستين ، يخرُجْ لك سبعُمائة وستةٌ وستون سنة ، وهو عدد السنين الفارسية التامة ؛ ويَفْضُل بعد ذلك مائتان وتسعةٌ وسبعون يوما ، فخذْ لكل شهر عددَ أيامه : وهو ثلاثون يوما ويبقى تسعةُ أيام ، منها خمسةُ أيام فى نظير الخمسةِ الأيام الزائدة فى آخر أبان ماه المعروفة بالمُسْتَرَقة ، يبقى أربعةُ أيام من شهر ذى ماه : وهو الشهر العاشر من شهورهم ، فيكون آخرُ يوم من ثمانمائة من الهجرة موافقًا لليوم الرابع من ذى ماه من شهور الفُرْس سنةَ سبعمائة وسبع وستين .

فلو فُرِض أنه مضى من سنة إحدى وثمانمائة ستةُ أشهر مثلا ، فاجعل الأشهرَ شهراً تامًّا وشهرا ناقصا على ماتقدّم ، تكون أيامُها مائةً وسبعة وسبعين يوما فأضفها على أيام الثمانمائة ، وافعل فيها ما تقدّم ذكره ، لايتغير العمل فى شىء من ذلك .

مثال ذلك : إذا أردت استخراج التاريخ السُّرْيانىّ فى آخر جمادى الآخرةِ سنة إحدى وثمانمائة ، فأضف مائة وسبعة وسبعين : وهى أيام ستة أشهر على أيام الثمانمائة ، وهى مائتا ألف وثلاثةٌ وثمانون ألفا وأربعُمائة وثلاثةٌ وتسعون ، يكون المجموع مائتَىْ ألف وثلاثةً وثمانين ألفا وستّمائة وستين يوما ، فأضف إليه ما بين الهجرة والتاريخ السُّرْيانىّ : وهو ثلثمائة ألف وأربعون ألفا وسبعمائة ، يحصل

(١) كذا فى الاصول ولعله السنين الماضية من الهجرة .

من ذلك ستمائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا وثلثمائة وسبعون ؛ فاضربه فى أربعة يخرُجْ لك ألف وستُّمائة وتسعة ، ويفْضُل من الأيام مائةٌ وثمانية وخمسون يوما ، تكون سابع أدار من شهور السريان، فيكون آخر يوم من جمادى الآخرة سنة إحدى وثمانمائة موافقًا للسابع من شهر أدار سنة ألف وسبعمائة وعشر من سِنِى السريان .

قلت : وفى كُتُب الزِّيجات وغيرها طُرُق مختلفةٌ لاستخراج التواريخ ، وجَدَاولُ موضوعةٌ لايحتملها هذا الكتاب فليراجعها من آحتاج إلى زيادة على ذلك .

الجمـــــلة الثـامنة

(فى موْضِع كتابة التاريخ من الكِتاب، وصورة وَضْعه فى الكتابة)

أمّا موضِعُه من الكتاب، فقال محمدُ بن عمرَ المدائنى فى كتاب " القلم والدّواة " : رَسْمُوا تاريخَ الكتب فى آخرها ، وجعلته العامّة فى صُـدُورها " والتحقيق فى ذلك ماذكره صاحبُ " موادّ البيان " وغيره أن الكُتُب التى تؤرّخ على ضربين :

الضرب الأوّل — الكتب السلطانية، ولهـا حالان :

الحـالة الأولى — أن يكون الكتابُ فى أمر تتشوّفُ النُّفُوس إلى معرفة اليوم الذى وقع ذلك الأمرُ فيه : كالحوادث العِظَام، والفُتُوحات والمواسم ونحوِها، فيؤرّخ الكتابُ فى صَدْره ، مثل أن يكتب فى صدر الكتاب «كتابُ أمير المؤمنين إليك ، أو كتابنا إليك يوم كذا من سنة كذا» كما كان يُكْتَب فى الزمن المتقدّم فى مثل ذلك .

الحـالة الثانية — أن يكون الكتاب فى أمر لاتتشوّفُ النفوس إلى معرفة اليوم الذى يقع ذلك الأمرُ فيه ، فيؤرّخ الكتاب فى آخره .

الضرب الثانى — كُتُب الأتبـاع إلى الرؤساء .

والرسم فيها أن تُؤرَّخ فى صدورها . قال فى "موادّ البيان" : وذلك مثل أن يقال : كتب العبدُ من مَقَرّ خدمته يوم كذا .

قلت : والذى ٱستقرّ عليــه حال كُتّاب الزمان كتابةُ التاريخ فى آخر الكتاب بكل حال ، سواءٌ كانـــ المكتوبُ ولايةً أو مكاتبـــةً أو غيرذلك ؛ ولعلّ الولايات وما فى معناها لم يقع الاختلافُ فى كتابتهـــا فى آخر المكتوب فى زمن من الأزمان .

⁂

وأمّا صورةُ وضع التاريخ فى الكتابة ، فقد ٱصطلح الكُتّاب علىٰ أن جَعَلُوا التاريخ بعد كتابة إن شاء الله تعـــالىٰ فى سطرين : فيكتبون « كُتِب فى كذا من شهر كذا » فى سطرٍ ، ثم يكتبون « سنة كذا » فى سطر تحته ؛ وفى الكُتُب عن قُضاة القضاة يجعل كُتّابهم جميعَ التاريخ فى سطر واحد .

الطَّرَف الثـــالث

(فى المستَنَدات ، وفيه جملتانـــ)

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى صورة ما يُكتَب ، وهو علىٰ ضربين)

الضربُ الأوّلُ

(ان يُضافَ إلىٰ مَرْسوم السلطان ، وله خمسُ حالات)

الحالة الأولىٰ — أن يكون بتلقّى كاتب السرّ ، إما بما يأمُر به السلطانُ عند قراءته القصةَ عليه ، أو بمـــا يكتُبُه كاتب السر ويُمْضيه من نَفْسه ، كما فى خلاص الحُقُوق ونحوها ؛ فيكتب فيه «حَسَب المرسوم الشريف» فى سطرٍ واحد لا غير .

الحالة الثانية — أن يكون بتلقّ كاتب السرّ أو أحد من كُتّاب الدَّسْت بدار العدل، عند جلوس السلطان فى المواكب بالإيوان وقراءةِ كاتب السرّ وكُتّاب الدَّسْت قِصَصَ المظالم ونحوها عليه . فيكتب فيه « حسب المرسوم الشريف من دار العدل الشريف » سطرين أحدهما تحت الآخر، ويكون فى السطر الأوّل « حسب المرسوم الشريف » والباقى فى السطر الثانى .

الحالة الثالثة — أن يكون برسالة الدَّوَادَار . فيكتب فيه « حسب المرسوم الشريف » سطرا واحدا، ثم يكتب تحته « برسالة الجناب العالى الأميرىّ الدَّوَادار، الفلانىّ » باللقب المضاف إلى المَلِكِ كالناصِرِىّ ونحوه « ضاعفَ اللهُ تعالى نعمتَه » ويكون آخر السطر الأوّل «الأميرىّ الفلانىّ» .

الحالة الرابعة — أن يكون من ديوان الخاص . فيكتُب فيه «حَسَب المرسوم الشريف من ديوان الخاص الشريف» ويكون « حَسَب المرسوم الشريف » سطرا، وباقى الكلام سطرا .

الحالة الخامسة — أن يكون بخط السلطان بظاهر قِصّةٍ . فيكتب « حَسَب المرسوم الشريف بالخَطِّ الشريف» سطرين، ويكون «حَسَب المرسوم الشريف» سطرا على ما تقدّم، وما بعده سطرا .

قلت : ومما يجب التنبُّه له أنّ لفظ حَسَب الواقع فى المستَنَدات منقولُ اللغة فيه بفتح السين كما تقول : فعلتُ ذلك حَسَب أمرك، ولا يجوز تسكينها بحال كما أطبق عليه علماءُ اللغة، إلا ما حكاه الجوهرىّ فى "صِحَاحه" من جواز تَسْكينها فى ضرورة الشعر، على أن جُلّ كُتّاب الزمان يَغْلَطُون فى ذلك فلا ينْطِقُون بها إلا ساكنةَ السين، وربما ضَبَطُوه كذلك فى الكتابة .

الضرب الثـانى

(أن يجعل مستنده الإشارة ، وله ثلاث حالات)

الحالة الأولى — أن يكون بإشارة النائب الكافل . فيكتب «بالإشارة العاليـة [الأميرية الكبيرية الكافلية ، كافل الممالك الشريفة الإسلامية ، أعلاها الله تعالى! » سطرين ، ويكون آخر السطر الأوّل الكافلية الفلانية .

الحـالة الثانية — أن يكون بإشارة الوزير . فيكتب «بالإشارة العالية الوزيرية الفلانية ، مدبّر الممـالك الشريفة أعلاها الله تعالى! » سطرين ، ويكون آخر السطر الأوّل الوزيرية الفلانية .

الحالة الثالثة — أن يكون باشارة الإستدّار . فيكتب « بالإشارة العالية الأميريّة الكبيرية الفلانية ، إستدّار العالية ، أعلاها الله تعالى! » سطرين ، ويكون آخر السطر الأول الكبيرية الفلانية . وقد تقدّم فى الكلام على الألقاب ما جرى عليه الكُتّاب فى لفظ إستدّار من التحريف ، واستعملوه بلفظ إستادار ، أو استاد الدار ، وتجب موافقتهم عليه وإن كان خطأً جَرْيا على المصطلح .

الجمـــلة الثانية

(فى موضـــع كـتابة المستَنَد)

وقد اصطلح الكُتّاب على أن يُكتَب المستنَدُ فى الغالب بَعْـدَ التاريخ ، ويكون الظرفُ أو الجارّ والمجرور فيه متعلّقا من التاريخ بلفظ كتِب ، وكأنه يقول : كُتب فى تاريخ كذا ، حَسَبَ الأمر الشريف ، أو بالإشارة الفلانية . وربما كتب بحاشية المكتوب فى المراسـيم الصِّـغار التى تُكْتَب على ظهور القِصَص ونحوها ، وكذلك

أوراق الطّريق؛ وموضع كتابته يقابل بين السطرين الأوّلين آخذا من جهة الأسفل إلى جهة الأعلى بحيث يكون آخر كتابة المستند مسامتاً للسطر الأوّل ، فإن كان «حَسَب المرسوم الشريف» فقط، كتبه سطرا واحدا، وإن كان «من دار العَدْل» كتب «حَسَب المرسوم الشريف» سطرا، ومن «دار العدل الشريف» سطرا تحته، وكذلك إن كان «من ديوان الخاص» كما يُكْتَب فى أسفل الكتاب . وإن كان برسالة الدوادار، فقد جرت العادة أن يكتب «حَسَب المرسوم الشريف» فى أسفل الكتاب تحت التاريخ سطرا واحدا، ويكتب «برسالة الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الفلانىّ، الدّوادار، الفُلانىّ ضاعف الله تعالى نعْمَته !» بالهامش فى المحل المتقدّم سطرين كما كان يُكْتَب بآخر الكتاب . وإن كان المستَنَد الإشارة كتب جميعه بحاشية الكتاب فى المحل المقدّم ذكره سطرين على ماتقدّم بيانُه .

الطــــرف الرابع
(فى الحمدلة فى آخر الكتاب، وفيه جملتان)

الجمــــلة الأولى
(فى الاصـــل فى كتابتهـا)

والأصلُ فى ذلك أنّ الله سبحانه كما جعل الحمدَ مفْتاحا للأمور تيمّنا بالافتتاح به، جعله ختامًا لها تيمّنا بالاختتام به قال تعالى : ﴿وقُضِىَ بيْنَهُمْ بِالحَقّ وقِيلَ الحَمْدُ لِله رَبِّ العالَمِينَ﴾ وقال جلّتْ قدرتُه : ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللّهُمّ وتَحِيّتُهُمْ فِيها سَلَامٌ وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لِله رَبِّ العالَمِينَ﴾ . وكان النبىُّ صلّى الله عليه وسلم إذا رجع من السفر قال : "آيِبُونَ تائِبُونَ لِرَبّنا حامِدُونَ" . قال السهيلىّ : ومن ثَمّ سُمّى النبىُّ صلّى الله عليه وسلم (أحمد) إشارةً إلى أنه خاتَمُ الأنبياء وآخِرُ المرسلين .

ولـما كان الأمرُ كذلك ، آصطلح الكُتّاب على آختتام الكُتُب بالحمـد تبرّكا . قال آبن شيث فى "معالم الكتابة" : ولا يُختَم بالحمدُ لله فىالتواقيع فى المَظالم، وربما خُتِم بها فى تواقيع الإطلاقات . وقد آصطلح كُتّاب الزمان على حذفها من آخر ما لا تُكتَب فى أوّله البسملةُ : كالتواقيع الصِّغار ونحوها ، على ما سيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالى. وكأنهم يُشيرون بذلك إلى أنَّ مثل ذلك لايُهتَمّ بشأنه ، فكما حذفوا البســملةَ من أوّلـها حذفوا الحمدلَةَ من آخرها إشارةً إلى عدم الأهتمام بها كما حُذِفت من أوّل الكلام الذى لايُهتَمّ به لأجل ذلك على ماتقدّم بيانُهُ .

الجمــــــلة الثانية

(فى بيان ما يُكتَب وصورةِ وضعه فى الكتابة)

أمّا ما يُكتَب ، فقد آصطلحُوا على أن يكْتُبوا فى حَمْدَلة آخر الكتابِ « الحمدُ لله وحده » وربمـا كتَبوا : «الحمدُ للهِ ربِّ العالمين» . على أنهم لو أطبقوا على كتابتها لكان أَوْلى . فقد ذكر النووىّ فى كتابه "الأذكار" أنها أفضــلُ صيغ الحمد ومن أجل ذلك آفتُتِحتْ بها فاتحةُ الكتاب التى هى أمُّ القرءان .

⁂

وأما وضعها فى الكتابة، فقد آصطلحُوا على أنْ جعلوها بعد كتابة المستَنَد عن يَمْنة الدَّرْج ، على بُعْد قدر ما بين إن شاء الله تعالى والسطر الآخِرِ من المكتوب . قال فى "معالم الكتابة" وقد تحتمل الخروج عن سَمْت السُّطور .

الطـــرف الخامس
(فى الصـــلاة علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وســـلم فى آخر الكتاب، وما يلتحق بذلك ، وفيـــه جملتان)

الجمـــلة الأولىٰ
(فى أصل إثباتها فى آخر الكُتُب)

والأصلُ فى ذلك مع ماتقدّم فى الكلام علىٰ الصلاة علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم فى أوّل الكُتُب فى الكلام علىٰ الفَوَاتح أنه كما ذُكرتْ فى أوائل الكُتُب تبرّكا ، كذلك ذُكرتْ فى آخرها تبرّكًا . وقد قال تعالىٰ فى حقّه صلّى الله عليــه وسـلم : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ فإن معناه ما ذُكِرْتُ إلا ذُكِرْتَ مَعِى ، ولما ٱخْتُتِمَتِ الكتبُ بالحمدُ لله ، ناسب أن يُقْرن الحمدُ بالصلاةِ علىٰ النبىّ صلّى الله عليــه وسـلم جمعًا بين ذِكْره وذِكْر الله تعالىٰ . وقد ذكر ٱبن هشام فى " سـيرته " : أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم كتب فى آخِرِ عَهْـده لعَمْرو بن حَزْم حِينَ وجّهَه إلىٰ اليمن «صلّى اللهُ علىٰ محمد» .

ثم الكلامُ فى الجمع بين الصلاة والسـلام، والصلاة علىٰ الآل والصَّحْب بعـده صلّى الله عليه وسـلم فى آخِرِ الكتاب علىٰ مامَرّ فى الصلاة عليه صلّى الله عليه وسـلم فى أوّل[1] الكتاب .

قلت : فلو كُتِبَ كتابٌ لسلطانٍ أو غيره من المسلمين إلىٰ أحد من أهل الكُفْر، فهل يؤتىٰ بالصلاة علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم كما يُؤتىٰ بها فى الكتاب إلىٰ المسـلم

(١) فى الاصول "آخر" وهو خطأ من الناسخ، وعبارة الضوء علىٰ مامر فى الفواتح، وهى أظهر .

إرغاما للكافر بالصلاة على النبيّ صلّى الله عليه وسلم، أو لا يُؤتى بها صيانةً لاسمه صلّى الله عليه وسلم عن حُصُوله فى يدِ كافرٍ ، كما يمنع من السَّفَر بالمصحف إلى بلاد الكُفْر ؟ لم أر مَنْ تعرّض له ، والظاهر أنه يُؤتى بها إرغامًا للكافر، ومواجهةً له بما يَكْرَه .

وقد حكى أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" : أن عبدَ المَلِك بنَ مَرْوان، حينَ أحدثَ كتابةَ سورةِ الإخلاص وذِكْر النبيّ صلّى الله عليه وسلم على الدّنانير والدّراهم، كَتبَ إليه ملكُ الروم : إنكم قد أحدَثْتم فى طَوَاميركم شيئًا من ذكر نَبِيّكم، فاتْرُكُوه وإلا أتاكم فى دَنانيرنا ذكْرُ ماتكْرَهون؛ فعَظُم ذلك فى صَدْر عبدالملك، فأرسل إلى خالدِ بن يزيدَ بنِ معاويةَ يستشيرُه فى ذلك، وكان أديبًا عالِمًا فقال له خالدٌ : فَرّخْ رَوْعَك[1] ياأمير المؤمنين، حَرّمْ دنانيرَهم واضْرِب للناس سِكَكا فيها ذكْرُ الله تعالى وذكْرُ رسوله صلّى الله عليه وسلم ولا تُعْفِهم ممـا يكْرَهُون فى الطّوامير، فَفَعل .

الجملة الثانية

(فى بيان ما يُكْتَب فى التصلية فى آخر الكُتُب، وصورةِ وضعه فى الكتابة)

أما صورةُ مايكتب، فقد اصطلح الكُتّاب على أن يكتُبوا فى التصلية فى آخر الكتاب بعد الحمدُ لله وحده ما صورته « وصلَوَاتُه على سيدنا محمد وآلِه وصَحْبه وسلامُه » . وهى صيغة مستحْسَنة للإتيان بالصلاة فيها بصيغة الجَمْع ، والجَمْع بين الصلاةِ والسلام، وإتباع الصلاة والسلام عليه صلّى الله عليه وسلم بالصلاةِ والسلام على الآلِ والصّحْب . وربما أتى بعضُ الكُتّاب بالصلاة بلفظ الإفراد ، فيكتب وصَلَاتُه .

---

(١) أى أذهب فزعك ورعبك، ووقع فى الأصول فرج بالجيم وهو تصحيف .

وٱعلم أن الصلاة يجوز كتابتها بالألف على هذه الصورة "الصَّلَاة" ويجوز كتابتها بالواو على هـذه الصورة "الصَّلوة" إلا أن محلّ ذلك ما إذا لم تُضَـف إلى ضمير نحوُ صلاته وصلاتك . فإن أُضِيفَتْ إلى الضمير تعيَّنتْ كتابتها بالألف دُونَ الواو ، وربمـا غَلِط فيها بعضُ الكُتَّاب فكتبها بالواو .

* * *

وأما موضعها فى الكتابة ، فقد ٱصطلَحوا على أن يَكْتُبُوا ذلك تِلْوَ الحمـدُ لله وحده ، يفصل بياض بينهما لتكون الحمدلةُ فى أوّل السطر ، والتصلية فى آخره .

الطرف السـادس

(فى الحَسْبَلة فى آخِرِ الكتاب ، وفيه جملتان)

الجمــــلة الأولى

(فى أصل كتابتها)

والأصل فى ذلك مادلّ عليـه قولُه تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قد جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمـانًا وقالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيل فانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ﴾ فجعل قولَهم : حسبُنا الله ونعم الوكيل سببًا لحُسْن المنقلَب والصَّوْن عن السوء . وقد قيل : مَنْ قال حسْبُنا الله ونعمَ الوكيل لم يَخِبْ فى قَصْده .

الجمــــلة الثـانية

(فى بيان ما يُكْتَب فى ذلك، وكيفيّة وضعه فى الكتابة)

أما مايكتب، فقد ٱصطلح الكُتَّاب على أن يكتُبُوا «حَسْبُنا اللهُ ونعم الوكيل» بلفظ الجمع، على أن المتكلم يتكلّم بلسانه ولسانِ غيره من الأُمّة، لا أنّ الجمعَ للتعظيم : لأنه

ليس بلائق بالمَقَام . وكان بعض الكُتَّاب يَسْتَحِبُّ أن يكتب «حَسْبِيَ الله» بلفظ الوحدة فِرارًا من اللَّبْس فى لفظ الجمع بين التَّعْظيم والجمع الحقيقىّ . وقد أشار فى "صناعة الكُتَّاب" إلىٰ بعض ذلك . قال ابن شيث فى "معالم الكتابة" : وقد يتأدّب الأدنىٰ مع الأعلىٰ ، فيأتى بالآية علىٰ نصها فيقول : ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ﴾ فِرارًا من نُون الجمع التى هى للعَظَمة . قال : وقد يقال فى مكانها : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلىٰ اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ثم قال : فأما الأعلىٰ إذا كَتَب للأدنىٰ فلا يخرج عن « حَسْبُنَا الله ونعم الوكيلُ » . ثم بعض الكُتَّاب قـد يكتُب مع الحَسْـبَلة واوا بأن يكتُب : وَحَسْـبُنا الله ونعم الوكيل ، ولا معنىٰ للواو هنـا ، إذ لا عِلاقـةَ بين الحَسْـبلة وما قبلَهـا حتّىٰ يسوغَ العَطْفُ عليـه ، فالواجب حذفها كما نبه عليه الشيخُ جمـال الدين بن هشام فى "وَرَقاته فى الوِراقة" .

⁂

وأما موضع وضعها فى الكتابة ، فقد اصطلحُوا علىٰ أن يكتُبوها سطرًا واحدًا بعد سطر الحَمْدَلة والتصلية ، ويكون بينهما فى البُعْد قدرُ ما بين إن شاء الله تعـالىٰ وبين السـطر الآخرِ من البياض . قال ابن شيث : وموضعُها ثلثُ السطر من الجـانب الأيمنِ إلىٰ حيثُ ينتَهِى .

واعلم أن الكُتَّاب قد اصطلَحوا علىٰ أن يكتُبوا تحت الحَسْبَلَة صورةَ حاء لطيفة منكبة علىٰ هذه الصورة "حر" ولا معنىٰ لها ، إذ هى فى الأصل إشارة إلىٰ الحَسْبلة نفسِها ، وكأنَّ بعض الكُتَّاب كان يكتفِى بها عن الحَسْبلة ، ثم التبس ذلك علىٰ بعض الكُتَّاب فأثبتها مع الحَسْـبَلة علىٰ ظَنِّ أنّ فيها قدرًا زائدًا عليهـا ، ويحتمل أنها إنمـا وُضعتْ فى الأصل لسدّ البياضِ كما يُكتَب بعضُ الدّوائر لسَـدّ البياض أو الفَصْل بين الكلامين وغير ذلك .

الطـــرف السابع
(فى اللّواحق ، وفيـــه جملتان)

الجمـلة الأُولىٰ
(فى التتريب ، ويتعلّق به أمران)

الأمر الأوّل
(فى النّـــدب إلىٰ التتريب)

لا نِزاعَ فى أن تَتْرِيب الكتاب بعد الفَرَاغ منه بإلقاء الرَّمْل ونحوه عليه مطلوبٌ، وفيه معنيان :

المعنىٰ الأوّل — التبرُّكُ طلبًا لُنجْح القَصْد ؛ فقد روىٰ محمد بنُ عمر المدائنى فى كتاب "القلم والدواة" بسنده عن إسماعيلَ بن محمدِ بن وهبٍ عن هشامِ بن خالد وهو أبومَرْوان الأزدىّ، عن بَقِيّةَ بن الوليد، عن عطاءٍ، عن ٱبن جُرَيج، عن ٱبن عباس عن النبىّ صلّى الله عليه وسلم أنه قال : "تَرِّبُوا الكتابَ ونَحُّوه من أسفَلِه فإنه أعظَمُ للبَرَكة وأنْجَحُ للحاجةِ" . وفى حديث "إذا كتَبَ أحدُكُمْ كتابًا فليُتَرِّبْهُ فإنّه مُبارَكٌ وهو أنْجَحُ لحاجته" .

ومن كلام أمير المؤمنين عمرَ بن الخطّاب رضى الله عنه : تَرِّبوا[1] الكتاب تَنْجَحُوا . ويؤيدُ ذلك ما رُوِىَ أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم كتب كتابَيْنِ إلىٰ أهل قريتَيْنِ فتَرَّب أحَدُهما ولم يُتَرِّب الآخَر ، فأسْلَمَتِ القريةُ التى تُرِّب كتابها . وهذا المعنىٰ موجود فى المكاتَبات والوِلَايات وغيرهما لطلب البركة والنَّجاح فى جميع ذلك .

(١) رواية كتب اللغة "أتربوا الكتاب" .

وقد حُكِى ان أبادُهْمان مَرِض مَرَضا أشفىٰ فيه، فأوصىٰ وأملىٰ وصِيَّته علىٰ آبنه، فكتبها وأتْرَبَهــا فقال : نَعَمْ تَرِّبْها فإنه أنْجَحُ للحاجة . ولا فرقَ فى ذلك بين أن يكون المكتوبُ قد جَفَّ أم لا : لأن القصد إنمــا هو النُّجْح والبركة .

المعنىٰ الثانى — التجفيفُ لمــا كتبه بطَرْح التُّراب عليــه كى لايَنْمَحِىَ بما يُصيبه قبل الجَفَاف، وهــذا المعنىٰ أضعفُ من الأوّل، ومقتضاه أنه إذا جفَّ الكتّاب لا يُتَرَّب، وعليه عملُ كُتّاب الزمان . ومن هنا يَضَعُون الترابَ علىٰ آخر الكتّاب من حيثُ إنه أقربُ عهــدًا بالكتابة فيحتــاجُ إلىٰ التجفيف، بخلاف أوّل الكتّاب فإنه يكون قد جَفَّ عند نِهاية الكتّاب غالبًا، لاسيَّما فى الزمن الحارّ، أومع طول الكتّاب وآمتداد زمن كتابتــه . علىٰ أن صاحب "موادّ البيان" وغيرَه من قُدَماء الكُتّاب قد صرَّحُوا بأنه يستَحَبُّ وضع التُّراب أوّلا علىٰ البَسْملة، ثم يُمِرُّه الكاتبُ منهــا علىٰ سائر المكتوب ليُعَمَّ الكتّابَ بركةُ البســملة . ولقائل أن يقول إن التتريب من آخر الكتّاب إلىٰ أعلاه لا يخلُو أيضا من بركة، لُملامسة التراب أوّلًا الحمدلةَ والصلاةَ علىٰ النبيّ صلّىٰ الله عليه وســلم والحَسْبَلَة . وربمــا بَلَغ بالتراب من أســفل الكتّاب إلىٰ البسملة ثم أعاده فيجمع فيــه بين البَركتين .

الأمر الثــانى

(فيما يُتَرَّب به الكتّابُ)

وقد آصطلح كُتّاب الزمان علىٰ التتريب بالرَّمْــل الأحمر . أما تخصيصهم التتريبَ بالرمل فلأنه لا غُبارَ فيه يَعْلَق بالكتّاب فيُذْهِبُ بَهْجة الوَرَق . وأما آختيارُهم الأحمرَ دُونَ غيره فلأنه أبْهَجُ إذا لَصِق بالكتّاب . قالَ محمد بن عمر المدائنىّ : وكَرِهوا ونَهَوْا

عن تراب الحيطان، وماَلُوا إلىٰ النُّشَارة والأُشْنان . قال : وبلغنا أن بعض الأئمة من أهل العلم كان يُتَرِّب الحديثَ بالصَّنْدل ويقول : لا أطْرَحُ علىٰ حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلم الترابَ . وكان حَيْوةُ بن شُرَيْح يخرج إلىٰ الصَّحْراء فيأخُذ الطِّينَ الأسودَ فيدُقُّه ويَنْخُله فيُتَرِّب به . وقد صَرَّح الرافعيّ وغيره من أصحابنا الشافعيّة أنه يَحْرُم التتريب من جِدَار الغير، ومعناه ظاهرٌ لما فيه من الاغتصاب والاعتداء. وقد سبق فى المقالة الأولىٰ فى الكلام علىٰ الخط ذكرُ أنواع الرمل، وأن من أحسنه رملًا يُؤْتَىٰ بِهِ من صَحْراء مارِدِينَ ، فيه شُذُورٌ صُفْرٌ كشُذُور الذهب ، يلقىٰ فى الرمل الأحمر فيُتَرَّب به الأمراء والوُزَراء ومَنْ فى معناهم .

الجملة الثانيـــــــــة

(فى نظر الكاتب فى الكتاب وتأمُّله بعد الفَرَاغ منه)

قد نَصُّوا علىٰ أنه إذا فَرَغ الكاتب من كتابة الكتاب ينبغى له أن يتأمَّلَه من أوّله إلىٰ آخره ويَتَتَبَّع ألفاظه ويتأمَّلَ معانيَه ويُصْلِح منها ماعَلَّه وَهِم فيه الفِكرُ أوسبَق إليه القلمُ : ليَسْلَمَ من قَدْح القـادح وطَعْن الطاعن . وقد تقـدّم فى مقدّمة الكتاب أن صاحبَ الديوان لا يكتَفِى بنظر الكاتب فى ذلك ، بل يَكِلُه إلىٰ نظر كاتبٍ كاملٍ يَنْصِبُه لذلك، ثم يتأمَّلُه هو بنفسه بعد ذلك ليتنقَّح الكتابُ ويتهذَّب .

المقـالة الرابعـــة

فى المكاتبـات ، وفيهـا بابان

البـاب الأوّل

(فى أمورٍ كُلّية فى المكاتبَات، وفيه فصلان)

الفصـــــل الأوّل

(فى مقـــدّمات المكاتبـات ، وفيـــه ثلاثةُ أطراف)

الطـــرف الأوّل

(فى أصول يعتَمِدها الكاتبُ فى المكاتبات)

ويتعلّق المقصود منها بعشرة أصول (١) :

الأصـــل الأوّل

(أن يأتى الكاتبُ فى أوّل المكاتبَـــة بحُسْـــن الافتتاح المطلوبِ فى سائر أنواع الكلام : من نَثْر ونَظْم ممـا يوجب التحسين : ليكون داعيةً لاستماع مابعده، على ماتقدّم بيانُه فى الكلام على علوم البلاغة فى المقالة الأُولى)

ويرجعُ حسنُ الافتتاح فى المكاتبات إلى معنيين .

المعنى الأوّل — أن يكون الحُسْن فيه راجعًا إلى المبتدإ به ، إما بالافتتاح بالحمدلله كما فى بعض المكاتبات : لأن النُّفوس تتشوّفُ إلى الثناء على الله تعالى، أو بالسلام الذى جعله الشارع مفتَتَح الخطاب أو نحو ذلك . وإما بالافتتاح بما فيه تعظيم المكتوب

(١) المعدود اثنا عشر كما ستقف عليه .

إليه : من تقبيل الأرض أو اليد أو الدعاء له أو غير ذلك ، فإنّ أمر المكاتبات مبنىّ علىٰ التملّق وآستجلاب الخواطر وتألُّف القلوب ، إلىٰ غير ذلك مما يجرى هذا المَجرىٰ ، علىٰ ما يقتضيه آصطلاحُ كلِّ زمن فى الآبتدا آت .

المعنى الثانى — أن يكون الحُسْنُ فيه راجعا إلىٰ مايوجب التحسينَ : من سُهُولة اللفظ ، وصِحّة السبك ، ووُضُوح المعنىٰ ، وتجنُّب الحَشْو ، وغير ذلك من مُوجِبات التحسين ؛ كما كتب الأستاذ أبو الفضــل بنُ العميد عن رُكْن الدولة بن بُوَيه ، إلىٰ مَنْ عصىٰ عليه ، مفتتِحا كتابه بقوله : " كتابى إليكَ ، وأنا متردّد بين طَمَعٍ فيك وإياسٍ منك ، وإقبالٍ عليــك وإعراضٍ عنك ؛ فإنك تُدِلُّ بسالِف خِدَمٍ أيسَرُها يُوجب رِعايه ، ويقتضى محافظةً وعِنَايه ؛ ثم تشْفَعُها بحادثِ غُلُول وخيانة ، وتُتْبِعها بآلِف خلاف ومعصية ، أدنىٰ ذلك يُحْبِط أعمالك ، ويُسْقِط كل ما يُرْعىٰ لك " .

وكما كتب أبو حفص بن برد الأندلسىّ عن مَلِكه إلىٰ مَنْ عصىٰ عليه ثم عاد إلىٰ الطاعة كتابا آفتتحه بقوله : " أما بعــدُ فإن الغلَبَة لنا والظُّهورَ عليك جلَبَاك إلينا علىٰ قَدَمِك ، دُونَ عهْدٍ ولا عَقْــد يمنعانِ من إراقة دَمِك ؛ ولكِنَّالمـا وهب اللهُ لنا من الإشراف علىٰ سرائر الرِّياســه ، والحِفْظ لشَرَائع السِّياســه ؛ تأمَّلْنا مَنْ ساس جِهتَكَ قَبلَنا ، فوجَدْنا يَدَ سياسته خَرْقاء ، وعينَ خِدامته عَوْراء ، وقدَمَ مُداراته شَلّاء : لأنه مالَ عن ترغيبك فلم تَرْجُه ، وعن ترهيبك فلم تَخْشَــه ؛ فأدّتك حالُجتك إلىٰ طِلَاب المَطَاعم الدَّنيّــه ، وقلّةُ مَهَابتك إلىٰ التَّهالُكِ علىٰ المَعَاصى الوَبيّه " ونحو ذلك من الآفتتاحات البَهِجة ، والآبتداآتِ الرائقة ، ممــا ستقف علىٰ الكثير منــه فى خلال هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ .

الأصـــــل الثـانى

(أن يأتِىَ فى ٱبتـــداء المكاتبة ببراعة الاستهلال المطلوبةِ فى كلّ فنٍّ من فنون الكلام)

بأن يأتِى فى صَدْر المكاتبة بمـا يدُلُّ علىٰ عَجُزها . فإن كان الكتّابُ بفَتْح ، أتىٰ فى أوّله بما يدُلُّ علىٰ التهنئة . أو بتَعْزِيَة ، أتىٰ فى أوّله بما يدُلُّ علىٰ التَّعْزِية . أو فى غير ذلك من المعانى ، أتىٰ فى أوّله بمـا يدلُّ عليه : ليُعْلَم من مبدإ الكتّاب ما المرادُ منه . كما يحكىٰ أن عمرو بن مَسْعَدَة كاتبَ المأمون أمر كاتبــه أن يكتُبَ إلىٰ الخليفة كتّابا يعرِّفه فيه أن بقرةً ولدَتْ عِجْلا وجْهُه وجهُ إنسان ، فكتب : "أمّا بعدَ حمدِ الله خالقِ الأنَام ، فى بُطُون الأنعام" . وفُضلاء الكُتّاب وأئمّتهم يعتَنُون بذلك كلَّ الاعتناء ، ويرَوْن تَرْكَه إخلالا بالصنعة ، وتَقْصا فى الكتّابة ، حتّى إن الوزير ضياءَ الدين بنَ الأثير فى المَثَل الســائر قد عاب أبا إسحاق الصابى علىٰ جلَالة قَدْره فى الكتّابة ، واعترافه له بالتقدّم فى الصناعة ، بكتّابٍ كتبه بفَتْح بغدادَ وهزيمة التُّرك فقال فى أوّله :

"الحمدُ لله ربِّ العالمين ، الملِكِ الحقِّ المُبِين ، الوحيدِ الفَرِيد ، العَلِىِّ المَجِيد ، الذى لا يُوصَف إلا بسَلْب الصِّفات ، ولا يُنْعَت إلا برَفْع النُّعوت ، الأزَلىِّ بلا ٱبتداء ، الأبدىِّ بلا ٱنتهاء ، القديم لا منذ أمدٍ محدود ، الدائم لا إلىٰ أجَلٍ مَعْدود ، الفاعل لا مِنْ مادّةٍ ٱمْتَــدّها ، الصانِــع لا بآلة ٱستَعْمَلها ، الذى لا تُدْرِكُه الأعين بألحاظها ، ولا تَحُدُّه الألْسُن بألفاظها ، ولا تُخْلِقُه العُصور بمُرُورها ، ولا تُهْرِمه الدُّهورُ بكُرُورها ، ولا تُجارِيه أقدامُ النُّظَراء والأشكال ، ولا تُزاحِمــه مناكبُ القُرَناء والأمثال ، بل هو الصَّمَد الذى لا كُفْء له ، والفَرْد الذى لا تَوْءَم معه ، والحىُّ الذى لا تَخْتَرِمُه المَنُون ، والقَيُّوم الذى لا تشْغَله الشُّــؤون ، والقدير الذى لا تَــؤُودُه المُعْضِلات ، والخبيرُ الذى

لا تُغْنيه المُشْكلات" ثم قال : إن هـذه التحميدةَ لا تُناسب الكتابَ الذى افتتحه بها، ولكنها تصْلُح أن تُوضَع فى صدر مُصَنَّف من مصَنَّفات أصول الدين : ككتاب " الشامل " للجُوينى، أو كتاب "الاقتصاد" للغزالىّ، وما جرىٰ مَجْراهما . فأما أن تُوضَع فى أوّل كتابٍ فَتْح فلا .

وٱعلم أن براعة الاستهلال فى المكاتَبات قد تَقَع مع الابتـداء بالتحميد ، كما فى كتاب عَمْرو بن مَسْعدة المتقدّم ذكْرُه، وكما كتب أبو إسحاق الصابى عن الطائع إلىٰ بعض وُلَاة الأطراف ، عِنْد زَوال الوَحْشة بينه وبين الأُمَراء ، ووُقُوع الصُّلْح والاتفاق : "أمّا بعدُ فالحمدُ لله ناظم الشَّمْلِ، بعد شَتَاته ، وواصلِ الحَبْلِ، بعد بَتَاته ؛ وجابِرِ الوَهْن إذا انْثَلَمْ ، وكاشِفِ الخَطْب إذا أَظْلَمْ" .

وقد تَقَع مع الابتداء بالتقبيل : كما كتبت إلىٰ بعض الرُّؤساء بثَغْر الإسكندرية ، مُلَوِّحا إلىٰ التعبير عنـه بالثَّغْر ، وعن الرِّيح التى تَهُبُّ عليه من جانب البحر بالمَلْثَم ، وعن مُستَنْزَه من مستَنْزَهاته بالرمل، وعن المَساكن التى به بالقُصُور مع قُرْبه من البحر، ومُناسَبة ذكر النَّسيم بالثَّغر بمـا صُورتُه : "يُقَبِّل أرضَ ثَغر قَدْرَقَّ مَلْثمُه ، وراق مَبْسِمُه ؛ بانًا لشُـكْر يعتَرِفُ الرَّمْلُ بالقُصُور عن حَدِّه ، وتَقِف أمواجُ البَحْر المحيطِ دُونَ عَدّه" .

وقد تقع مع الابتـداء بالدعاء ، وتكون براعةُ الاستهلال فى الدعاء المعطوف علىٰ المبتدَإ به : بأن يكون الدُّعاء مناسـبًا للحالة المكتوب فيهـا ، كما نبَّه عليه صاحب "المَثَل السائر" وغيْرُه، وسيأتى الكلام علىٰ أمثلةِ ذلك فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) عبارة الضوء " ويلوح بذكر مستنزه لهم علىٰ البحر يسمى بالرمل ومساكن لهم فى ذاك المستنزه تسمى القصور" وهى أوضح .

ثم من المكاتبات ما يعسر معه الإتيانُ ببراعة الاستهلال(١) فيما يلى ذلك من الكلام فى مقـدّمة المكاتبة قبـل الخوض فى المقصود ولا يُهملها جملة . على أن الشيخ شهاب الدين محمودا الحلبىّ رحمه الله قد ذكر فى كتابه "حسن التوسل" أنه إن عسُر عليه براعةُ الاستهلال، أتى بما يُقاربُ المعنى . وبكل حال فإذا أتى ببراعة استهلالٍ فى أوّل مكاتبته استصحبها إلى الفراغ من الخُطْبة إن كان الكتاب مفتتحا بخُطْبة ، وإلا استصحبها إلى الفَرَاغ من مقدّمة الكتاب الآتى بيانُها .

الأصـــل الثـالث

(أنْ يأتِىَ فى المكاتبة المشتملةِ على المَقَاصد الجليلةِ بمقدّمة يُصَدِّر بها تأسيسا لمـا يأتى به فى مكاتبته)

مثلُ أن يأتى فى صُـدُور كُتُب الحَثّ على الجهـاد بذكر افتراضه على الأُمّة ، وما وعد اللهُ تعـالى به من نَصْر أوليائه ، وخِذْلان أعدائه ، وإعزاز الموحّدين ، وقَمْع المُلْحِدين . وفى صُـدُور كُتُب الفَتْح بإنجـازِ وَعْد الله الذى وعدَهُ أهلَ الطاعة من النّصْر والظَّفَر ، وإظهـار دِينِه على الدِّين كُلّه . وفى صُدُور كُتُب جِبَاية الخَرَاج ، يُصَدِّر بحاجة قيام المُلْك وأُسِّ السلطنة إلى الاستعانة بما يُستَخْرَج من حقوق السلطان فى عَمارة الثُّغور ، وتحصين الأعمال ، وتَقْوِية الرِّجال ، ونحو ذلك ممـا يجرى على هذا النمط ممـا سيأتى بيانه فى مقاصد المكاتبات فى الكلام على الابتـداآت والجوابات فيما بعدُ إن شاء اللهُ تعالى .

فقد قيل : إنه لا يحسُن بالكاتب أن يُخْلِىَ كلامه ـ وإن كان وَجيزًا ـ من مُقدّمة يفتتحُـه بهـا وإن وقعت فى حرفين أو ثلاثة ، ليُوَفِّىَ التأليفَ حقّـــه . قال

(١) لعله الاستهلال فى البداءة فيأتى بها فيما يلى ذلك ... الخ كما هو ظاهر من بقية الكلام .

فى " موادّ البيان " : وعلىٰ هذا السبيل جرتْ سنّةُ الكُتّاب فى جميع الكُتُب : كالفُتُوح ، والتّهانى ، والتّعازِى ، والتّهادِى ، والآستِخْبار ، والآستِبْطاء ، والإحماد ، والإذمام ، وغيرها : ليكون ذلك بِسَاطا لما يُريد القولَ فيه ، وحُجّةً يستَظْهِر بها السلطان ؛ لأن كلّ كلام لابُدّ له من فَرْش يُفْرَش قبله : ليكون منه بمنزلة الأساس من البُنْيان .

قال : ويُرْجَع فى هذه المقدّمات إلىٰ معرفة الكاتب ما يستحقّه كلُّ نوع من أنواع الكلام من المقدّمات التى تُشاكلُها . ثم قال : والطريق إلىٰ إصابة المَرْمىٰ فى هذه المقدّمات أن تُجْعَلَ مشتملةً علىٰ ما بَعْدَها من المَقاصد والأغراض ، وأن يُوضَع للأمر الخاصّ مقدّمةٌ خاصّة ، وللأمر العامّ مقدّمةٌ عامّة ، ولا يُطوّل فى موضع الاقتصار ، ولا يُقَصّر فى مَوضِع الإيجاز ، ولا يجعلَ أغراضها بعيدَة المأْخَذ ، مُعتاصةً علىٰ المتصَفّح . وذلك أن الكاتب رُبّما قصد إظهارَ القُدْرة علىٰ الكلام والتّصرّف فى وجوه المَنْطق ، فخرج إلىٰ الإملال والإضْجار الذى تتَبَرّم منه النُّفُوس ، ولا سيما نُفوس الملوك وذَوِى الأخطار الجليلة .

أما الأمور التى لاتشتمل علىٰ المَقَاصد الجليلة : كرِقاع التُّحَف والهَدايا ونحوهما ، فقد ذكر فى " موادّ البيان " أنه لايُجعل لها مقدّمةٌ تكون أمامها فإن ذلك غيرُ جائز ولا واقع مَوْقِعَه . قال : ألا ترىٰ أنهم آستحسَنُوا قولَ بعضهم فى صَدْر رُقْعة مقترنة بتُحْفَة فى يومِ مِهْرَجان أو نحوه : «هذا يومٌ جَرَتْ فيه العاده ، بأن تُهْدَى فيه العَبِيدُ إلىٰ الساده » وآستظْرَفوا الكاتبَ لإيجازه وتقريب المأْخَذ .

الأصـــــل الرابع

(أن يَعْرِفَ الفرقَ بين الألفاظ المســـتعملة فى المكاتبات فيضَعَهـا فى مواضـــعها)

قال فى "ذخيرة الكُتّاب" : يجب علىٰ الكاتب الرئيس أن يَعْرِفَ مرتبةَ الألفاظ ومواقعها : ليرتّبهـا ويفرق بينها فرقا يَقِفُه علىٰ الواجب وينتهى به إلىٰ الصواب ، فيخاطب كُلًّا فى مكاتبته بمـا يستحِقُّه من الخطاب ؛ فإنه قبيحٌ به أن يكونَ خطابهُ أوّلًا خطابَ الرئيس للرءوس ، ويُتْبِـعَ ذلك بخطاب المَرْءوس للرئيس ، أو يَبْـدأَ بخطاب المرءوس للرئيس ثم يتبعه بخطاب الرّئيس للرءوس .

قال : ومتىٰ ٱستمرّ الكاتب علىٰ هذه المخـالفةِ من الألفاظ والمناقَضـةِ ، نقَصَت المعانى، ورَذُلت الألفاظ، وسقَطت المقاصدُ، وكان الكاتب قد أخَلّ من الصّناعة بمُعْظَمِها، وترك من البلاغة غايةَ مُحْكَمِها . بل يجب أن يبدأ بخطاب رئيس أو نظيرٍ أو مرءوسٍ، ويكون ما يتخلل مكاتبتَـه من الألفاظ علىٰ ٱتساق إلىٰ آخرها وٱطّرادٍ من غير مخالفة بينها ولا مُضادّةٍ ولا مناقَضةٍ .

فمن ذلك الفرقُ بين أصدَرْنا هذه المكاتبة أو أصدرناها ، وبين أُصْدِرت، وبين صَدَرت . فأصدرناها أعلىٰ بالنسبة إلىٰ المكتوبِ إليه : للتصريح فيها بالضمير العائد علىٰ الرئيس التى صدَرت المكاتبةُ عنه ، إذ الشيءُ يَشْرُف بشرف متعلّقه . ويلى ذلك فى الرتبة أُصْدِرتْ، لاقتضائها إصـدارا فى الجملة ، والإصدارُ لا بُدّ له من مُصْدِر ، وذلك المُصْـدِر هو الرئيس الصادرةُ عنـه فى الحقيقة . وإنمـا كانتْ دونَ الأُولىٰ للتصريح بالضمير هناك دون هنا . ودُونَ ذلك فى الرتبـة صدَرتْ : لاقتضاء الحال صُدورَها بنفسها دُونَ دِلالةٍ علىٰ المُصْدِرِ أصلا .

ومن ذلك الفرقُ بين «ونبدى لعلمه» وبين «ونوضّح لعلمه» : فنبدى لعلمه أعلىٰ بالنسبة إلىٰ المكتوب إليه : لأن الإبداء يرجع فى المعنىٰ إلىٰ إظهار شىء خَفِىّ ، والإيضاح يَرْجِع إلىٰ بيانِ مُشْكِل ، وحصولُ الإشكال المحتاج إلىٰ الإيضاح ربما دلّ علىٰ بُعْد فَهْم المخاطَب عن المقصود ، بخلاف إظهار الخَفِىّ فإنه لايَنْتهِى إلىٰ هـذا الحدّ .

ومن ذلك الفَرقُ بين « علمه الكريم » وبين « علمه المبارك » فالكريم أعلىٰ من المبارك ، لأن فى الكريم عراقةَ أصل وشرفٍ قد تُوجَد فى المبارك وقد تَتَخلف عنه .

ومن ذلك الفرق بين « ومَرْسُومنا لفلان بكذا » وبين « والمَرْسُوم له بكذا » : فرسومنا أعلىٰ بالنسبة إلىٰ المكتوب عنه لاشتماله علىٰ نون الجمع المقتضية للتعظيم ، ولذلك آختصّت بالملوك دُونَ غيرهم ؛ بخلاف والمَرسُوم له بكذا فإنه عارٍ عن ذلك .

ومن ذلك الفرقُ بين «والمَسْئول» وبين « والمستَمَدّ » : فإن المسئول أعلىٰ بالنسبة إلىٰ المكتوب اليه[1] ، فإن المسئول يتضمّن نوعَ ذِلّةٍ بخلاف الاستمداد فإنه لا يستلزم ذلك .

ومن ذلك الفرق بين « بلغنا » وبين « أُنْهِىَ إلىٰ علمنا » وبين « آتصل بنا » : فاتصل بنا أعلىٰ من أُنْهِى إلىٰ علمنا ، لما فى معنىٰ الاتصال من الالصُوق ، بخلاف الإنهاء ؛ وأُنْهِىَ إلىٰ علمنا أعلىٰ من بلغنا : لأن البلوغ قد يكون علىٰ لسانِ آحاد النـاس .

(١) فى الاصول « عنه » والتصحيح من الضوء .

ومن ذلك الفرق بين « أنهىٰ فلان كذا » وبين « عرّفنا كذا » : فعرّفنا أعلىٰ بالنسبة إلىٰ رافع الخَبَر ، لأن فى التعريف مَزِيّةَ قُربٍ من الرئيس ، بخلاف الإنهاء فإنه لا يقتضِى ذلك .

ومن ذلك الفرق بين « وردت مكاتبتُه » وبين « وردَتْ علينا مكاتبته » : فوردت علينا أعلىٰ بالنسبة إلىٰ صاحب المكاتبة الواردة : لتخصيصها بالوُرُود علىٰ الرئيس بخلاف الوُرُود المطلق .

ومن ذلك الفرق بين « عُرِضَتْ علينا مكاتبتُك » وبين « وَقَفْنا علىٰ مكاتبتك » فوقفنا أعلىٰ بالنسبة إلىٰ صاحب المكاتبة : لأن الوقوف عليها يكون بنفسه ، والعرض يكون من غيره .

ومن ذلك الفرق بين «وشكَرْتُ الله تَعالىٰ علىٰ سلامته» وبين «وتَوَالىٰ شُكْرِى للهِ تعالىٰ» : فتوالىٰ شُكْرِى أعلىٰ بالنسبة إلىٰ المكتوب إليه : لما فيه من معنىٰ التكرار ومَزِيد الشكر المَعْذُوق بالاحتفال .

ومن ذلك الفرق بين «ورَغِبْت إلىٰ الله تعالىٰ» وبين «وضَرَعْت إلىٰ الله تعالىٰ» : فضَرَعْت أعلىٰ من رَغِبْت : لما فى الضَّرَاعة من مزيد التأكيد فى الطَّلَب ، بخلاف الرَّغْبة فإنها لاتبلُغُ هذا المَبْلَغ .

ومن ذلك الفرق بين «وقابلْتُ أمْرَه بالطاعة» وبين «وامتثَلْتُ أمره بالطاعة» : فامتثَلْتُ أمْرَه أعلىٰ من قابلت أمْرَه ، لما فى الامتثال من معنىٰ الإذعان والانقيادِ ، بخلاف المُقابلَة .

ومن ذلك الفرق بين «وشَفَعْت له» وبين «وسألْتُ فيه»: فالسؤال أعلىٰ فى حق المسئول من الشّفاعة : لمـا (١) فى الشفاعة من رِفْعة المقام المؤدّى إلىٰ قبُول الشفاعة.

ومن ذلك الفرقُ بين « وخاطبتُ فلانا فى أمره » وبين « وتحدّثتُ فى أمره » : فتحدّثت أشدّ فى تواضع المتكلّم من خاطبت ، لأن الخطابَ من الألفاظ الخاصة التى لايتعاطاها كُلُّ أحد بخلاف التحدُّث .

ومن ذلك الفرق بين « تشْرِيفِى بكذا » وبين « إسعاف بكذا » [وبين « إتحاف بكذا »] (٢) فالإسعاف أعلىٰ رتبةً من التشريف لمـا فيه من دَعْوىٰ الحاجة والفاقة إلىٰ المطلوبِ ، بخلافَ التشريف ؛ وإتحافِى دون تشرِيفِى لأن الإتحاف قد لايقتضى تشريفا .

ومن ذلك الفرق بين قوله: «نزل عِنْده» وبين قوله : «نزل بساحَتِه» : فالساحة أعلىٰ لمـا فيها من معنىٰ الفُسْحَة والاتّساع .

ومن ذلك الفرقُ بين «فيُحيط علمُه بذلك وبين فيَعْلَمَ ذلك» : فيُحيط علمه أعلىٰ من يَعْلَمَ ذلك : لأن فى قوله فيُحيط عِلمُه بذلك نِسبته إلىٰ سَعةِ العلم : لمـا فيه من معنىٰ الإحاطة بخلاف فيَعْلم ذلك .

---

(١) عبارة الضوء "لمـا فى السؤال من معنى الذلة وما فى الشفاعة من معنى الشرف" وهى أوضح .

(٢) الزيادة من الضوء وهى ساقطة من قلم الناسخ بدليل بقية الكلام .

الأصـــل الخــامس

(أن يعرِفَ مواقع الدُّعاء فى المكاتبات ، فيدْعُو بكل دُعاءٍ فى موضعه)

ويتعلق النظر فيه بســـتة أوجه

الأوّل — أن يَعْرِف مراتب الدُّعاء لِيُوقِعها فى مواقعها ، ويُورِدَها فى مَوَارِدها، ويتأتَّى ذلك فى عدّة أدعية .

(منها) الدُّعاء بإطالة البَقَاء ، والدُّعاء بإطالة العُمُر : فالدعاء بإطالة البقاء أرفعُ من الدُّعاء بإطالة العُمُر . وذلك أن البقاءَ لا يَدُلُّ علىٰ مُدّة تنقضى لأنه ضِدُّ الفَنَاء ، والعُمُر يدلُّ علىٰ مدّة تنقضى؛ ولذلك يُوصَفُ الله تعالىٰ بالبقاء ولا يوصف بالعُمُر . قال فى "موادِّ البيان" : ومن هنا جُعِـل الدعاءُ بإطالة البقــاء أوّلَ مَرَاتب الدعاء وخُصّ بالخلفاء، وجُعِـل مايليه لمن دُونَهم . ويتلوه الدعاء بالمَدّ فى العُمُر، فيكون دُونَ الدعاء بالإطالة ، لأن الوصــفَ بطُول الزمان أبلغُ من الوصف بالمَــدِّ فيه من حيث إن المدّ قابلٌ للـدّة الطويلة والمدّةِ القصــيرة ؛ ولذلك صارت مرتبةُ الطُّول أقربَ إلىٰ مرتبة البقاء من مرتبة المَدّ .

(ومنها) الدعاء بدَوامِ النِّعمة، والدعاء بمُضَاعفتها : فالدعاء بالمضاعفة أعلىٰ : لأن الدوامَ غايتُه آستصحابُ ماهو عليه، والمضاعفةُ مقتضيةٌ للزيادة علىٰ ذلك .

(ومنها) الدعاء بعِزِّ الأنصــار، وبعِزِّ النَّصْر، وبعِزِّ النُّصْرة . وقد آصطلح كُتَّاب الزمان علىٰ أن جعـلوا أعلاها الدعاءَ بعز الأنصار، لأن عِزَّ أنصاره عِزٌّ له بالضرورة مع ما فيــه من تعظيم القَدْر ورِفْعــة الشأن ؛ إذ الأنصارُ لا تكون إلا لمِلكٍ عظيم أو أميرٍ كبــير . والدعاء بعِزِّ النصر أعلىٰ من الدعاء بعزِّ النُّصْرة : لمـا فى الأوّل من

معنى التــذكير وهو أرفعُ رتبــةً من التأنيث . على أنه لو جُعِل الدعاء بعز النصر أعلى من الدعاء بعز الأنصــار ، لكان له وجه : لمــا فى عزِ النصر من الغَنــاء عن عِزِّ الأنصار .

(ومنها) الدُّعاء بعِزِّ الأحكام ، والدعاء بتأييــد الأحكام : فالدعاء بعِزِّ الأحكام أعلى : لأن المراد بالتأييد التقويةُ ، فقد تُوجَدُ القوة ولا عِزَّمعها .

و ينبغى للكاتب أن يحترِزَ فى تنزيل كلِّ أحدٍ من المكتوب إليهم منزلته فى الدعاء ، فلا ينقصُ أحدا عن حقِّه ، ولا يزيدُه فوق حقِّه ، فقد قال فى " موادِّ البيان " : إن الملوك تَسْمَح ببَدَراتِ المــال ولا تسمح بالدَّعْوة الواحدة .

الثــانى — أن يَعْرِفَ ما يناسبُ كلَّ واحد من أرباب المَنَاصِبِ الجليــلة من الدعاء فيخُصُّه به .

فيأتى بالدعاء فى المكاتَبَة للملوك بإطالة البقاءِ ، ودَوَامِ الســلطان ، وخُلُود المُلْك ، وما أشبه ذلك .

و يأتى فى المكاتبــة إلى الأُمَراء بالدعاء بعِزِّ الأنصــار ، وعِزِّ النَّصْر ، ومُضَاعفة النِّعمة ، ومُدَاومتها وماشاكل ذلك . على أن ٱبن شيث قد ذكر فى "معالم الكتابة" : أن الدعاء بعِزِّ النَّصر ومُضَاعفة الاقتدار كان فى الدولة الأيوبية مما يختصُّ بالسلطان دُونَ غيره .

و يأتى فى المكاتبات للوزراء من أرباب الأقلام ومَنْ فى معناهم بالدعاء بسُبُوغ النَّعْماء ، وتخليدِ السَّعادة ، ودَوامِ المَجْد ، وما يضاهى ذلك .

ويأتى فى المكاتبــات للقُضاة والحُكَّام بالدعاء بعزِّ الأحكام ، وتأييــد الأحكام وما يُطابِق ذلك .

ويأتى فى المكاتبة إلىٰ التُّجّار بالدعاء بمزيد الإقبال، وخُلُود السعادة وشبه ذلك .

ويأتى فى المكاتبة فى الإخوانيّات ومكاتبات النُّظَراء من الدعاء بما يقتضيه الحال بينهم من الوُدّ والإدْلال ، بحسَب ما يراه الكاتبُ ويؤدّى إليه ٱجتهادُه . قال فى "موادّ البيان" : وقد كانوا يختارون فى الدعاء للأُدَباء أبقاكَ الله، وأكرمكَ الله . وفى الدعاء للابن والحُرْمة أبقاك الله وأمتع بك .

✦✦✦

أمّا أهل الكُفْر فقد ٱصطلحُوا علىٰ الدعاء لهم بطول البقاء وما فى معناه . أمّا جواز اصل الدعاء لهم فلما رُوِى أنّ النبىّ صلّى الله عليه وسلم ٱستَسْقىٰ فسَقَاه يهُودِىّ ، فقال له : جَمَّلك الله ، فما رُؤى الشيبُ فى وَجْهه حتّى مات ، فدلّ علىٰ جواز الدعاء للكافر بما لا ضَرَر فيه علىٰ المسلمين ما لم تنضم إليه قُوّة ونحو ذلك، بل ربما كان فى طُول بقائِهِ حمْلُ جزية أوغنيمةٌ أو ثوابُ جِهادٍ ونحو ذلك . وقد حكىٰ أبو جعفر النحاسُ فى "صناعة الكُتّاب" : أن الشافعىّ رضى الله عنه قال لنصرانىّ : أعزّك الله ! فعُوتِبَ فى ذلك ، فقال (١) ... ...

وٱعلم أنه يجب مع ذلك أن يعرف مرتبةَ المكتوب إليه من الدعاء ، فيدعو بعزّ الأنصار لواحدٍ، ويدعو بعزّ النصر لمن دُونَه : لأن عزّ الأنصار مستلزم لعزّ النصر، علىٰ أنه لو قيل : إن عزّ النصر أعلىٰ لكونه دعاءً لنفس الشىء بخلاف الدعاء بعز الأنصار فإنه دعاءٌ لشىء خارجىّ لكان له وجه . ويدعو بعز النُّصْرة لمن دون مَنْ يُدْعىٰ له بعز النصر، لأن النصر مذكّر ورتبةُ التذكير أعلىٰ من رتبة التأنيث .

(١) بياض فى الاصول بقدر كلمتين ولم يورده فى الضوء ولعل الشافعىّ ٱستدل بالحديث السابق .

ويدعو بدَوَام النعمة لواحد ويدعُو بمضاعفة النِّعمة لمن دُونه[1] ، لأن الصيغة تقتضى مَزيدا على القدر الحاصل ، بخلاف الدَّوَام فإنه يقتضى آستصحاب القدر الحاصل فقط ، وعلى هذا النهج . قال فى "معالم الكتابة" : ولا يُكْتَب عن السلطان إلى أحدٍ ممن فى ممالكه بلا زَالَ ، ولا بَرِح ، بل يختصُّ ذلك بمَلِكٍ مثله . قال : ولاحرجَ فى الكتابة بذلك عن السلطان إلى وَلَده إذا كان نائبًا عنه فى المُلْك . قال : وكذلك لايدعُو الأعلى للأدنى بلَا زالَ ، ولا بَرِح .

قلت : والذى آستقرّ عليه الحالُ الكتابةُ عن السلطان بذلك لأكابر النُّوّاب ، ويكتب به أكابر الدّولة بعضهم إلى بعض .

الثالث — أن يعرف مايناسب كلَّ حالة من حالات المكاتبات ، فيأتى لكل حالةٍ بما يناسبُها من الدُّعاء . قال فى "موادِّ البيَان" : ينبغى أن تكون الأدعيةُ دالّةً على مقاصد الكُتّاب : فإن كان فى الهَنَاء كان بما راجَتْ معرفَتُه ، وإن كان فى العَزَاء كانَتْ مشتقّةً من وَصْفه ، وكذلك سائرفُنون المكاتَبات ، فإنه متى خرجَ الدعاءُ عن المناسبة وبايَنَ المقصودَ ، خرج عن جادَّة الصناعة وتوجَّه اللومُ على الكاتب ، لاسيَّما إذا أتى بما يُضادُّ المراد . كما حكى أبو هلال العسكرى فى "الصناعتين" أن بعضهم كتب إلى محبوبته : عَصَمنا اللهُ وإيّاكِ ممّا يُكْرَه . فكتبَتْ إليه : ياغَليظَ الطَّبْع ! إن آستُجيبَ لكَ لم نلتقِ أبدًا .

ويختلف الحالُ فى ذلك باختلاف حال المكاتبات : فتارةً تكونُ باعتبار الشىء المكتوب بسبَبِه ، كما يكتب فى معنى البِشارة بجلوس المَلِك على تخت المُلْك : لازال أمْرُه ! وأمتعه من البشائر بما يَتوضَّح على جَبِينِ الصَّباح بِشْرُه ، وما يترجَّح على مِيزان الكَوَاكب قَدْرُه ، وما ينْفَسِح من أوقات أمنٍ لايختلف فيها زيدُه وعَمْرُه .

(١) صوابه "لمن فوقه" كما هو مقتضى التعليل بعد وكما يؤخذ من عبارة الضوء ص ٤٢٣ .

وكما يُكْتَب فى البشرىٰ بفتح : ولا زالتْ آياتُ النصرِ تُتْلىٰ عليـه من صُحُف البشائر، ونفائسُ الظَّفَر تُجْلىٰ علىٰ سِرّه فى أسْعَد طائر، وفواتحُ الفَتْح تُزْهىٰ به الأسِرّةُ وتَزْهو بنُوره المنَابِر .

وكما يُكْتَب فى التهنئة بعافيـة : ولا بَرِح فى بُرْد الصحة رافلا ... ...(1) بعزْمِه وحَزْمه كافلا، والإقبالُ لجنابه العالِى بالهَنَاء بعافيته وَاصِلا .

وتارة تكون بأعتبار حال المكتوبِ إليه التى هو بصَدَدها .

كما يكتب لمن خرج إلىٰ الغَزْوِ : وحفَّه بلُطْفِه فلا يَخِيب ، وهَيَّأله النصرَ والفَتْح القَرِيب، وجعـل علىٰ يَدَيْه دَمَار الكُفَّار حتّى لا يبقىٰ لهم بشِـدّة بأسه من السلامة نَصيب .

وكما يكتب إلىٰ مَنْ خرج إلىٰ الصَّـيْد : وأمتَعه بصُـيُوده ، وجعل الأقدارَ من جُنُوده ، وأراه من مَصَارع أعدائه بسُيوفِه ورِماحِه ما يراه من مَصَارع صَيْده بِبُزَاته وفُهُوده .

وكما يُكْتَب لمن خرج فى سَفَر : وقضىٰ بقُرْب رَجْعته، وجعله كالهلَال فى مَسِيره سَبَبُ رِفعته ، وسكّن بقُدُومه أشواقَ أوليائه وأهلِ محبّتِه .

وكما يُكْتَب لمن خرج لتخضير البلاد : وألْبَس البلادَ بقُدُومه أخْضَرَ الأثوابِ ، وأحلَّهُ أشرفَ محلٍّ وأخْصَبَ جَنَاب .

وتارة تكون باعتبار وظيفة المكتوب إليه التى هو قائم بهـا .

كما يُكْتَب إلىٰ كافل المملكة : ولازالَتْ كِفَايةُ كَفَالته تزيدُ علىٰ الآمال ، وتَتَقرَّب إلىٰ الله تعالىٰ بصالح الأعمال، وتَكْفُل ما بين أقصىٰ الجنُوب وأقصىٰ الشَّمال .

(1) بياض فى الاصول بقدر كلمة ولعله ولا زال الزمان .

وكما يكتب إلى قاض : وفَصَل بين الخُصوم بأحكامه المُسدَّده، وأقضيَتِه التى بها قواعدُ الإسلام مُمَهَّده، وأبنيةُ الشرع المطهَّرِ وأركانُه مُشَيَّده .

وكما يكتب إلى متصوّف : وأعاد من بَرَكات تهجُّداته ، وأنار الليالىَ بصالح دَعَواتِه .

وتارة تكون باعتبار بلد المكتوب إليه وناحيته .

كما يكتب إلى نائب الشام : ولا زال النَّصْرُ حِلْيَةَ أيّامه وشَامةَ شامِه ، وغَمامة مايحلِّق على بلده المُخْصِب من غَمَامِه .

وكما يكتب إلى نائب حَلَب فى زمن الحروب : ولا زال يُعَدّ ليومٍ تَشِيب فيه الوِلْدان، ويُصَدّ دُونَه كلُّ مُحَارِب بين الشَّهْباء والمَيْدان ، ويَعُمُّ حَلَب من حلى أيامه مالا يُفْقَد معه إلا آسمُ ٱبن حَمْدان، ونحو ذلك مما ينخرط فى هذا السلك .

وتارة تكون باعتبار آسم المكتوب إليه أو لقبه .

كما يكتب إلى مَنْ لقبه سيفُ الدين : ولازال سيفُه فى رقاب أعدائه مُغْمَدا ، وحَدُّه يَذَرُ كلَّ مُلْحِد مُلْحَدا .

وكما يكتب إلى مَنْ لَقَبُه عِزّ الدين : ولا زال عزُّه دائما، والزمانُ فى خِدْمته قائما، وطَرْفُ الدهر عن مراقبة سعادته نائما .

وكما يكتب إلى مَنْ لقبه شمسُ الدين: ولا زالتْ شمسُ سعادته مُشْرِقه،وأغصان فضله بالعَوارف مُورِقَه ، وعيونُ طوارق الغِيَرِ عنه فى كلِّ زَمَن مُطْرِقه .

وكما يكتب إلى مَنْ لقبُه ناصر الدين : ونَصَر عزائمه، وشَكَرمكارِمَه ، ووَفَّر من الحسنات مَغَانِمَه . إلى غير ذلك من الأمور التى ستقف على الكثير منها فى الكلام على مقاصد المكاتبات إن شاء الله تعالى .

الرابع — ان يعرف مواضع الدعاء علىٰ المكتوب إليه، ومَن الذى يُصَرَّح بذلك فى المكاتبة إليه . قد ذكر ٱبنُ شيث فى "معالم الكتابة" أن الدُّعاء علىٰ الأعداء فى صُدُور الكُتُب كان من عوائد مكاتبة الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ . مثل : وقَصَم، وأذَلَّ، وقهر، وخضد . وكذلك المماثل والمقارب؛ فأما من الأعلىٰ إلىٰ الأدنىٰ فلم يكن ذلك معروفا عنـد المتقدّمين ، لاسيما إذا كان الكتّابُ عن السلطان . ثم قال : ولكن قد أُفْلِتَ الحبلُ فى ذلك الآن [إلىٰ أن] قال : ولا يقال للأدنىٰ غير كَبَتَ عدوّه ، أو ضدّه، أو حَسُوده خاصة .

ومنها (١) — أن يَعْرِف ما كرهه الكُتّاب من الدعاء فيتجنّبه. وهو علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل

(ما كَرِهُوه فى المكاتبة إلىٰ كل احد)

قال فى "موادّ البيان": كانت عادتُهم جاريةً ان يَتَجَنَّبُوا من الأدعية مالامَحْصولَ له، كقولهم : جَعلَنِى الله فِدَاكَ ، وقدّمَنِى إلىٰ السُّوء دُونَك : لما فى ذلك من التصنُّع والمَلَق الذى لا يرضاه السـلطان ، لأن نَفْس الداعى لا تَسْمَح باستجابته . ويؤيّد ما ذكره ما كتبَ به ٱبن عبدِ كان إلىٰ بعض أصدقائه : جُعِلْتُ فِدَاك علىٰ الصحة والحقيقة، لا علىٰ مَجْرىٰ المكاتبة ومَذْهب العادة . قال فى "موادّ البيان" : وإنما يحسُن ذلك من الخوَاصّ الذين يتحقّقون أن بقاءهم معدوقٌ ببقاء رؤسائهم ، وثباتَ نِعَمهم مقرونٌ بثَبَات أيام سلاطينهم ، لأنه يصـدر عن عقائدَ مستحْكمة مِنْ بَذْل الأنفُس دُونَهم . وما ذهب إليه من كراهة ذلك قد نقل فى "صناعة الكُتّاب" مثـله عن مالك بن أنس ، وٱحتجّ له بمـا رُوِى عن الزبير رضى الله عنـه أنه قال

(١) عدها فى الضوء مرتبة خامسة وهو أنسب .

للنبيّ صلّى الله عليه وسلم: «جُعِلْتُ فِدَاكَ ـ فقال له أما تركْتَ أَعْرابِيَّتَك بَعْدُ !» على أن بعضهم قد أجاز ذلك احتجاجًا بقوله صلّى الله عليه وسلم لسَعْد بن مالك يومَ أُحُد : «ارْمِ فِدَاكَ أبِي وأُمّي» وبما رُوِى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبيّ صلّى الله عليه وسلم قال له : «ألَا أُعَلِّمُكَ كَلِماتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنّ ؟ قال نَعَمْ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ !» ولم يُنْكِر عليه ، ونحو ذلك ؛ وفى معنى ذلك كلُّ ما يجرى هذا المجرى ونحوه .

الضـــرب الثـانى

(مايختصّ كراهتُه بالبعض دُونَ البعض، وهو نوعان)

النوع الأوّل ـ مايختص بالرجال، فمن ذلك ماذكره فى "موادّ البيان" : أنهم كانوا لا يَسْتَحْسِنون الدعاءَ بالإمْتـاع نحو أمْتَع اللهُ بِك وأمْتَعنِي اللهُ بكَ ، فى حق الإخوان . وممـا يُحكى فى ذلك أن محمدَ بنَ عبد الملك الزّيات، كتب إلى عبد الله ابن طاهر فى كتاب : وأمْتَعَ بك، فكتب إليه عبدُ الله بن طاهر :

أحُلْتَ عَمّا عَهِدْتُ مِنْ أدَبِكْ ؟ * أمْ نِلْتَ مُلْكًا فتِهْتَ فى كُتُبِـك ؟
أتْعبتَ كَفَّيْـكَ فى مُكاتَبتِي * حَسْبُك مما تَزِيدُ فى تَعَبِـكْ !
إنَّ جَفَاءً كتَابُ ذِى مِقَـةٍ * يَكونُ فى صَدْره، "وأمْتَعَ بِكْ" .

فأجابه محمدُ بنُ عبد الملك الزيّات معتذرا بقوله :

كيف أخُونُ الإخَاءَ يا أمَلِي ؟ * وكلُّ شىءٍ أنَالُ من سَبَبِكْ !
إنْ يَكُ جَهْلٌ أتاكَ مِنْ قِبَلِى، * فعُدْ بفَضْلٍ عَلَيَّ مِنَ أدَبِكْ .

على أن في كراهة الدعاء للإخوان بذلك نظرا فسيأتي في الكلام على ترتيب المكاتبات على سبيل الإجمال أن أمّ حَبِيبةَ بنتَ أبى سُفْيان زوجَ النبيّ صلّى الله عليه وسلم [قالت] : اللهم أمتِعْنِي بزَوْجي رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم وبأبي أبي سُفْيان، وبأخي مُعاويةَ — في حديث طويل يأتي ذكره هناك إن شاء الله تعالى .

أما الدعاء بالإمتاع للأتباع، فقد أجازه جماعةٌ من محقِّقي الكُتّاب، محتجّين على ذلك بأنّه صلّى الله عليه وسلم دَعَا لأبي اليَسَر : كَعْب بن عُبَيد(١) الله بقوله « اللَّهُمَّ أمتِعْنا بِهِ » . قال ٱبن عفير : فكان آخِرَ أهلِ بَدْرٍ وفاةً، مات سنةَ خمس وخمسين من الهجرة .

النوع الثاني — ما يختصّ بالنساء . فقد ذكر «أبو جَعْفر النحاس» أنه لا يقال في مكاتبتهنّ « وأدامَ كَرَامَتَكِ » ولا « وأتمّ نعمتَهُ عليْكِ » ولكن لَدَيْكِ، ولا «فَضْله عندك» ولا «وأدام سَعادَتَك» . أما منع الدعاء لهنّ بالكَرَامة، فلما حكى محمدُ بن عمر المدائني أن بعض عمال زُبَيْدَةَ كتب إليها كتاباً بسبب ضِيَاع لها فوقَّعتْ له على ظهر كتابه : أردت أن تَدْعُو لنا فدعَوْتَ علينا، فأصلِحْ خَطَأك في كتابِكَ وإلا صَرَفناك عن جميع أعمالك! . فأدركه القَلَق، وجعل يتصفَّح الكتابَ ويَعْرِضُه على الكُتّاب فلا يجدُ فيه شيئًا، إلى أن عَرَضَه على بعض أهل المعرفة فقال : إنما كرهت دُعاءَكَ في صدر كتابك بقولك : وأدام كَرَامَتك : لأنّ كرامة النساء دفنهنّ — قال : رسول الله صلّى الله عليه وسلم « دَفْنُ البَنَاتِ من المَكْرُمات » فغيَّر ذلك الحرفَ من كتابه وأعاده إليها فوقَّعت له على ظهره — أحسنْتَ ولا تعُدْ — . وأما كراهة وأتمّ نعمتَه عليك وإبدالُ ذلك بلفظ وأتم نعمتَه لَدَيْك، فكأنه لما يلْمَح فيه من ذكر العُلُوّ على النساء . وأما منع وأتمّ فضلَهُ عندكِ، أو وأتم سعادَتك فيحتاج إلى تأمل .

(١) الذى فى « خلاصة تهذيب الكمال فى أسماء الرجال » للخزرجى (كعب بن عمرو بن عباد بن عمرو) ونحوه فى تاج العروس مادة ى س ر .

الخامس — أن يتجنّب الخلافَ فى الدعاء فى فُصُول الكتاب، ولا يُوالىَ بين دَعْوتين منه [متفقتين] . فأما الخلاف فى الدعاء، فقال أبو جعفر النحاس : هو مثلُ أن يقول أطالَ اللهُ بقاء سَيِّدى — بلفظ الغَيْبة ، ثم يقول بعد ذلك : وبَلَّغك أَمَلَك — بلفظ الخطاب . وأما المُوالاة بين دَعْوتين ولا يأتى بهما متفقتين[1] ، فقال فى "موادّ البيان" : هو مثل حَرَس اللهُ الأمير أعَزّه الله، ثم يقول فى الفصل الذى بعده : أعَزّه الله تعالى، وما اشبه ذلك .

السادس — أن يتجنّب وُقُوعَ اللَّبْس فى الدعاء . فإذا ذُكِر الرئيسُ مع عدوّه مثلا ، لم يَدْعُ للرئيس حينئذ ، فإنه لو ذَهب يقول وقد كان من عَدُوّ سَيِّدى — أبقاهُ الله — كذا ، لاحتمل عودُ الدعاء إلى الرئيس وإلى عَدُوّه فيقع اللَّبْس . أما إذا ذُكِر الرئيسُ وحده كما إذا قال : وقد كنتُ عرّفتُ سيِّدى — أبقاه الله — كذا ، فإنه لا التباس .

الأصـــل السادس

(أن يَعْرِفَ ما يناسبُ المكتوبَ إليه من الألقاب فيُعْطِيَه حقَّه منها)

ويتعلقُ الغرضُ من ذلك بثلاثة أمور .

أحدها — أن يَعْرِف مايناسب من الألقاب الأصول — المتقدّمة الذكرِ فى المقالة الثالثة عند الكلام على الألقاب المصطلَح عليها بحسَب ذلك الزمان : كالمَقَام، والمقرّ، والجَنَاب، والمجلس — فى زماننا، فيعطىَ كلَّ أحد من المكتوب إليهم مايليق به من ذلك، فيجعل المَقَام لأكابر الملوك . والمَقرّ لمَنْ دُونَهم من الملوك، وللرُّتْبة العُلْيا

(١) عبارة الضوء ص ٢٦ ٤ هكذا "وأما موالاة دعوتين متفقتين فمثل أن يقول أعزه الله تعالى ثم يقول فى الفصل الذى بعده أعزه الله تعالى" وهى أوضح .

من أهل المملكة . والجَنَاب للرتبة الثالثة من الملوك والرُّتْبة الثانية من أهل الدَّوْلة . والمَجْلِس للرتبة الرابعة من الملوك والرتبــة الثالثة من أهل الدولة . ومَجْلِس الأمير لمن دُونَ ذلك من اهل الدولة على المصطلَح المستقِرّ عليه الحالُ .

الثــانى — أن يعرف ما يناسب كلّ لقب من الألقاب الأُصُــول من الألقاب والنُّعوت التابعة لذلك؛ فيُتْبع كلّ واحد من الأصول بمـا يناسبُه من الفروع .

الثالث — أن يَعْرِفَ مِقدارَ المكتوب إليه، فيُوَفِّيَه قِسْطَه من الألقاب فى الكَثْرة والقِلّة بحسَب مايَجْرِى عليه الاصطلاحُ . فقد ذكر فى "مَعَالم الكِتَابة" أن السلطان لايُكْثَر فى المكاتبة إليه من نُعُوته، بل يُقْتَصر على الأشياء التى تكون فيه : مثل العالم العــادل . اما غير ذلك فيقع باللقبين المشهورين : وهما نعتُه المفرَد، ونعته المضافُ الى الدِّين . وأنه فى الكتابة عن السلطان كُلّمـا زِيدَ فى النُّعوت كان أَمْيَز : لأنها على سبيل التشريف من السلطان، ويجعل المضاف الى الدين متوسِّطا بين الألقاب لا فى أوّلهـا .

الأصـــــــل السابع

(أن يُرَاعِىَ مقاصدَ المكاتَبَات ، فيأتى لكل مقْصِد بمـا يناسبه)

ومَدَار ذلك على أمرين :

الأمر الأوّل — أن يأتىَ مع كل كلمة بمـا يليق بهـا ، ويتخيَّر لكل لفظة مايشا كلُها . قال ابن عبد ربه : وليكن ماتَخْــتِمُ به فُصولَك فى موضع ذكر البَلْوى بمثــل : نسألُ الله رَفْعَ المَحْذور، وصَرْفَ المكروه، وأشباه ذلك . وفى موضع ذكر المُصيبة : إنّا لله وإنا إليه راجِعُون . وفى موضع ذِكْر النِّعمة ، الحمدُ لله خالصًا ،

والشُّكْرُ لله واجبًا ، وما شاكل ذٰلك . قال فى " موادّ البَيَان " : وإذا ذكَر البَلْوىٰ شفعها بالاستعانة بالله تعالىٰ والرُّجوع إليه فيها ، وردّ الأمر إلىٰ حَوْله وقوّته .
قال ابن عبد ربه : فإن هذه المواضعَ ممـا يتعيَّنُ علىٰ الكاتب أن يتفقّدها ويتحفَّظ فيها ، فإن الكاتب إنما يصير كاتبا بأن يَضَع كلَّ معنًى فى موضعه ، ويُعلِّق كلَّ لفظ علىٰ طِبْقه فى المعنىٰ .

ومما يلتحق بذلك أيضا أنه إذا ذُكِرَ الرئيس فى أثناء المكاتبة ، دعا له ، مثل أن يقول عند ذكر السلطان : خَلَّد الله مُلْكَه . وعند ذكر الأمير الكبير : عَزَّ نَصْرُه ، أو : أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَه . وعند ذكر الحاكم : أيَّد الله تعالىٰ أحكامَه ، وما أشبه ذلك ممـا يجرى هذا المَجْرىٰ .

الأمر الثـانى — أن يتخطَّى التصريحَ إلىٰ التلويح والإشارة إذا ألجأته الحال إلىٰ المكاتبة بما لا يجوز كَشْفُه وإظهارُه علىٰ صَرَاحته ، مما فى ذِكْره علىٰ نَصِّه هَتْكُ سِتْر، أو فى حكايته اطِّراحُ مَهَابة السلطان ، وإسماعُه مايلزم منه إخلالُ الأدَب فى حقه ؛ كما لو أطلق عدُوُّه لسانَه فيـه بلفظٍ قبيحٍ يَسُوءُه سماعُه . قال فى " موادّ البيان " : فيحتاج المنشئ إلىٰ استعمال التَّورِيَة فى هذه المواضع ، والتلَطُّف فى العبارة عن هذه المعـانى ، وإبرازها فى صورةٍ تقتضى تَوْفِيَةَ حقِّ السلطان فى التوقير والإجلال والإعظام ، والتنزيه عن المخاطبة بمـا لايجوزُ إمراره علىٰ سَمْعه ، وإيصالِ المعنىٰ إليه من غير خِيَانةٍ فى طىِّ ما لا غِنًى به عن علمه . قال : وهذا مما لايستقلُّ به إلا المبرِّزُ فى الصناعة ، المتصرِّف فى تأليف الكلام .

الأصـــــــل الثـامن

(أن يَعْرِف مقدارَ فهم كل طبقة من المخاطَبِين فى المكاتبات من اللسان فيخاطب كلَّ أحد بما يناسبُه من اللفظ ، وما يَصِل إليه فهمُه من الخطاب) .

قال أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الصناعتين" : أوّلُ ماينبَغِى أن تستعملَ فى كتابك مكاتبةُ كل فريق علىٰ مقدار طبقتهم فى الكلام وقُوّتهم فى المَنْطق . قال : والشاهد علىٰ ذلك أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم لمّـا أراد أن يكْتُب إلىٰ أهل فارس ، كتب اليهم بمـا يُمكِنُهم ترجمتُه فكتب اليهم : "مِنْ محمدٍ رسولِ اللهِ إلىٰ كِسْرىٰ أبْرَوِيزَ عظيمِ فارسَ ، سلامٌ علىٰ مَنِ آتَّبع الهُدىٰ وآمَنَ باللهِ ورَسُوله ، وأدْعُوك بدِعاية اللهِ فإنى أنا رسولُ اللهِ إلىٰ الناسِ كافَّةً ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ويَحِقَّ القَوْلُ علىٰ الكافرين﴾ فأسْلِمْ تَسْلَمْ ، وإن أبَيْتَ فإثْمُ المَجُوس عَلَيْكَ" فسهّل رسولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلم الألفاظَ غايةَ التسهيل حتّى لا يخفىٰ منها شىءٌ علىٰ مَنْ له أدنىٰ معرفةٍ بالعربيّة .

ولمـا أراد أن يكتُبَ إلىٰ قوم من العرب ، فَخَّم اللفظ لِمـا عَرَف من قُوّتهم علىٰ فَهْمه ، وعادَتِهم بسَماع مثله ، فكتب لوائلِ بن حُجْر الحَضْرمىّ : "من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ الأقْيـالِ العَبَاهِلَةِ من أهْلِ حَضْرَمَوْتَ بإقامةِ الصلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ : علىٰ التِّيعةِ الشاةُ ، والتِّيمةُ لصاحِبِها ، وفى السُّيُوب الخُمُس ، لا خِلَاطَ ولا وِرَاطَ ولا شِـنَاقَ ولا شِغَارَ ، ومن أجْبىٰ فقد أرْبىٰ ، وكُلُّ مُسْكِرٍ حرامٌ" .

وقد ذكر العَسْـكَرىّ أيضا فى باب الإطنـاب ما يحسُنُ أن يكون شاهدًا لذلك من القرءان الكريم ــ فقال : قد رأينا أنّ اللهَ تعالىٰ إذا خاطب العَربَ والأعْرابَ ، اخرج الكلامَ مَخْرَجَ الإشـارة والوَحْى كما فى قوله تعـالىٰ خطابًا لأهـل مـكّة

﴿إنَّ الذين تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا ولَوِ ٱجتَمَعُوا لَهُ وإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْـهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ والمَطْلُوبُ﴾ وقوله : ﴿إذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَـا خَلَقَ ولَعَـلَا بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ﴾ وقوله : ﴿أَوْ أَلْقَىٰ السَّـمْعَ وهُوَ شَهِيدٌ﴾ فى أشـباهٍ كثيرةٍ لذلك . وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حكىٰ عنهم ، جعل الكلامَ مَبْسوطا ، كما فى سورة طٰه وأشباهها ، حتّى إنه قَلَّما تجدُ قصّةً لبنى إسرائيل فى القرءان إلا مُطوّلةً مشروحةً ومُكرّرةً فى مواضعَ مُعادةً ، لبُعْد فَهْمِهِم ، وتأخّرِ معرفتِهِمْ .

قال فى "موادّ البيان" : فيجبُ علىٰ الكاتب أن يتنقّل فى ٱستعمال الألفاظ علىٰ حسَب ما تقتضيه رُتَبُ الخطاب والمخاطَبين ، وتُوجِبُه الأحوالُ المتغايرة ، والأوقات المختلفـةُ : ليكون كلامُه مُشاكلا لكلّ منهـا ، فإن أحكامَ الكلام تتغيّر بحـكم تغيُّر الأزمنة والأمكنة ومنازِل المخاطبين والمُكاتَبين .

قال : ولتَحرِّى الصّدْر الأوّل من الكُتّاب إيقاعَ المناسبة بين كُتبهم وبين الأشياء المتقدّمة الذكر ٱسـتعمل كُتّاب الدولة الأُمويّة من الألفاظ العربيةِ الفَحْلة ، والمتينة الجَزْلة ، ما لم تَسـتعمِلْ مثلَه الدولةُ العباسـيّة : لأن كُتّاب الدولة الأُمويّة قصدُوا ماشاكَلَ زمانَهُم الذى ٱستفاضَتْ فيـه علومُ العرب ولُغاتُهـا ، حتّى عُدّتْ فى جملة الفضائل التى يُتَابَرُ علىٰ ٱقتنائها ، والأمكنةَ التى نزلها ملوكُهُم من بلاد العرب ، والرجالَ الذين كانت الكُتُب تصْدُر إليهم ؛ وهم أهل الفَصَاحة واللَّسَن والخَطَابة والشّعر .

أما زمان بنى العباس ، فإن الهِمَمَ تقاصرتْ عمّا كانت مُقْبِلة علىٰ تطلُّبه فيما تقدّم من العلوم المقدّم ذكرُها ، وشُغِلتْ بغيرها من علوم الدين ؛ ونزل مُلُوكُهم ديارَ العراق وما يُجاوِرُها من بلاد فارِسَ ، وليس ٱستفاضةُ لغة العرب فيها كاستفاضتها فى أرض الحجاز والشام . ومن المعلوم أن القوم الذين كانوا يُكاتَبُون عنهم لا يُحاذُرون تلك الطبقة

فى الفَصَاحة والمعرفة بدلالا تِ الكلام؛ فانتقل كُتَّابها من اللفظ المَتِـين الجَزْل، إلىٰ اللفظ الرَّقيق السَّهل ؛ وكذلك انتقل متأخِّرو الكُتَّاب عن ألفاظ المتقدّمين إلىٰ ماهو أعذبُ منها وأخَفُّ، للمعنىٰ المتقدّم ذكره .

قال : وحينئذ ينبغى للكاتب أن يُراعِىَ هذه الأحوالَ، ويُوقِعَ المُشاكلة بين مايكْتُبه وبينها ، فإذا احتـاج إلىٰ إصدار كتابٍ إلىٰ ناحيـةٍ من النواحى ، فلينْظُرْ فى أحوال قاطنيها : فإن كانوا من الأُدباء البُلَغاء العارفين بنظم الكلام وتأليفه، فليُودِعْ كتابَهُ الألفاظَ الجَزْلة، التى إذا حُلِّيَتْ بهـا المعانى زادتْها فخامة فى القلوب، وجَلالةً فى الصُّـــدُور . وإن كانوا ممن لا يُفَرِّق بين خاص الكلام وعامِّه ، فليُضَمِّنْ كتابَهُ الألفاظَ التى يَتَساوىٰ سامعُوها فى إدراك معانيهـا ، فإنه متىٰ عَدَل عن ذلك ضاع كلامُه ، ولم يصِـلْ معنىٰ ماكتبَ فيه إلىٰ مَنْ كاتبه : لأن الكلام البليغَ إنمـا هو موضُوعٌ بإزاء أفهام البُلَغاء والفُصَـحاء . فأما العَوامُّ والحُشْوة : فإنمـا يَصِـل إلىٰ أفهامهم الكلامُ العاطلُ من حِلىٰ النَّظْم ، العـارى من كُسْوة التأليف ، فيجب علىٰ الكاتب أن يستعمل فى مخاطبة مَنْ هذه صورتُه أدْنىٰ رُتَب البلاغة وأقربَها من أفهام العامّة والأمم الأعجميّة إذا كتب إليهم .

ثم قال : فأما الكُتُب المعتدّة عن السلطان، فإنّ منها كُتُبَ الفتوحات والسلامات ونحوها، وهى محتملةٌ للألفاظ الفَصيحة الجَزْلة، والإطالةِ القاضيةِ بإشباع المعنىٰ ، ووصوله إلىٰ أفهام كافّة سامِعيه من الخاص والعـامّ . ومنها كُتُب الخراج وجِبَايته وأمورِ المعاملات والحِساب، وهى لا تحتمل اللفظَ الفصيح، ولاالكلامَ الوجيزَ لأنها مبنيّة علىٰ تمثيل مايُعْمَل عليه، وإفهام مَنْ لايصل المعنىٰ إلىٰ فهمه إلابالبَيَان الشافى

فى العبارة . ومنها مخاطبته السلطان عن نفسه ، فيجبُ فيها مخاطبته علىٰ قدر مكانه من الخِدْمة من الألفاظ المتوسِّطة ، ولايجوز أن يستعمل فيها الفصيحةَ التى لاتُحْتَمل من تابع فى حقِّ متبوع : لمـا فيه من تعـاطِى التفَاصُح علىٰ سـلطانه ، وهو غيرُ جائز فى أدب الملوك ؛ وكذلك لا يجوز فيه تعَاطِى الألفاظ المبتَـذَلة الدائرة بين السُّوقة ، لمـا فى ذلك من الوضع من السلطان بمقابلته إيَّاه بمـا لا يُشْبِه رُتْبَتَه .

وأما الكتب الإخوانِيَّـاتُ النافذة فى التَّهانى والتَّعازى ، فإنهـا تحتَمِل الألفاظَ الغريبةَ القويَّةَ الأخْذِ بمجامع القُلُوب ، الواقعةَ أحسن المواقع من النُّفُوس : لأنها مبنيَّة علىٰ تحسين اللفظ ، وتزيين النظم ؛ وإظهارُ البَلَاغة فيها مستحسنٌ واقعٌ مَوْقِعَه .

قلت : والذى تُراعىٰ الفصاحةُ والبلاغةُ فيه من المكاتبات عن الأبواب السلطانية فى زماننا مكاتَبَاتُ ملوك المَغْرب : كصاحب تُونُس ، وصاحب تِلِمْسانَ ، وصاحب فاس ، وصاحب غَرْناطة من الأندَلُس ، وكذلك القاناتُ العِظامُ من ملوك المَشْرِق ومَنْ يجرِى هذا المَجْرىٰ ، ممن تَشْتَمِل بلادُه علىٰ العلمـاء بالبلاغةِ وصِناعة الكِتابة . ويظهر ذلك بالاسـتِخْبار عن بلادهم ، وبالاطِّلاع علىٰ كُتُبهم الصادرة عن ملوكهم إلىٰ الأبواب السـلطانية . بخلاف مَنْ لاعِنايةَ له بذلك : كحُكَّام أصاغر البُـلْدان وأصحاب اللُّغات العجمية : من الرُّوم والفَرَنْج والسُّودان ومَنْ فى معناهم ؛ فإنه يجب خطابُهم بالألفاظ الواضحة ، إلا أن يكون فى بعض بلادهم مَنْ يتعاطىٰ البلاغةَ من الكُتَّاب ووردَتْ كتبُهم علىٰ نَهْجها فإنه ينبغى مكاتبتُهم علىٰ سَنَن البلغاء .

الاصـــــل التـاسع

(أن يُراعِىَ رتبـــةَ المكتوب عنـه والمكتوب إليـــه فى الخطاب ،
فيعبِّر عن كل واحدٍ منهـــما فى كلِّ مكاتبة بمـا يليق به ،
ويُخاطِب المكتوبَ إليه بمـا يقتضيه مَقامُه)

فأما المكتوب عنه، فيختلف الحالُ فيه باختلاف مَنْصِبه ورُتْبته .

فإن كان المكتوبُ عنه خليفةً، فقد جرتْ عادةُ مَنْ تقدّم من الكُتّاب بالتعبير عنه فى الكُتُب الصادرة عن أبواب الخلافة بأمير المؤمنين، مثل أن يقال : فَجَرىٰ أمرُ أمير المؤمنين فى كذا علىٰ كذا وكذا ، وأَوْعَزَ أمير المؤمنين إلىٰ فلان بكذا ، وٱقتضىٰ رأْىُ أمير المؤمنين كذا، وخرج أمرُ أمير المؤمنين بكذا، وتقدّمَ أمرُ أمير المؤمنين إلىٰ فلان بكذا ، وما شاكل ذلك . وربمـا عُبِّر عنه بالسلطان ، مثلُ أن يقال فى حَقِّ المخالفين : وحارَبُوا عساكِرَ السلطان ، أو وَمنعُوا خراجَ السلطان وما أشبه ذلك ، يريدون الخليفةَ، علىٰ ماستقِف عليه فى الكُتُب التى نُورِدها فى المكاتبات عن الخُلَفاء فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

وقال ٱبن شيث فى " معالم الكتابة " : ويُخاطَبُ بالمَوَاقف المقَدّسة الشريفة ، والعَتَبات العالية ، ومَقَرّ الرحمة ، ومَحلِّ الشرف. وذكر المَقَرّ الشِّهابىّ بن فضل الله فى " التعريف " نحوه . فقال : ويُخاطَب بالديوان العزيز، والمَقَـام الأشرف، والجانب الأعْلىٰ أو الشريف، وبأمير المؤمنين، مجرّدةً عن سيِّدنا ومولانا، ومَرّةً غير مجرّدة، مع مراعاة المناسبه، والتسديد والمقاربه . قال : وسبب الخطاب بالديوان العزيز الخُضْعانُ عن مخـاطبة الخليفة نفسِـه ، وتنزيلُ الخطاب منزلةَ مَنْ يخاطب

نفس الديوان ؛ والمعْنِيُّ به ديوانُ الإنشاء، إذ الكُتُب وأنواع المخاطبات إليه واردةٌ وعنـــه صادرةٌ .

وقد سـبق فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة نقلا عن ابن حاجب النعمان فى "ذخيرة الكتّاب" إنكارُ هذه الاستعارات والمخترَعات (١) ، وسيأتى فى المكاتبة إلى الخلفاء ذكْرُ ترتيبها إن شاء الله تعالى .

وإن كان المكتوب عنه مَلِكا ، فقد جرتِ العادةُ أن يعبَّر عنه بنون الجمع للتعظيم فيقال : فعَلْنا كذا، وأمَرْنا بكذا، واقتضتْ آراؤنا الشريفةُ كذا، وبرزَتْ مراسيمُنا بكذا، ومَرْسُومنا إلى فلان أن يتقدّم بكذا، أو يتقدّم أمره بكذا، وماأشبه ذلك . وذلك أن ملوكَ الغَـرْب كانوا يجْرُون على ذلك فى مخاطباتهـم ، فجرتِ الملوكُ على سَنَنِهم فى ذلك . وفى معنى الملوك فى ذلك سائرُ الرؤساء : من الأُمَراء، والوُزَراء، والعلماء، والكُتّاب، ونحوهم من ذوى الأقدار العلية، والأخطار الجليلة، والمراتب السنِيَّة فى الدِّين والدنيا ، ممَّنْ يصلُح أن يكون آمرا وناهيا، إذا كتبوا إلى أتباعهم ومأمُورِيهم، إذ كانت هذه النون مما يختَصُّ بذَوِى التعظيم دُونَ غيرهم . وشاهدُ ذلك من القرءان الكريم قوله تعالى : ﴿حَتَّى إذا حَضَرَ أحَدَهُم المَوْتُ قال رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ فدعاه دعاء المُفْرَد لعَدَم المشاركة له فى ذلك الاسم، وسأله سُؤالَ الجمع لمكان العَظَمة، إلى غير ذلك من الآيات الواردةِ مَوْرِدَ الاختصاص له كما فى قوله تعالى : ﴿ إنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرْضَ وَمَنْ عَلَيْها ﴾ وقوله : ﴿ إنَّا نَحْنُ نُحْيِي المَوْتَى ﴾ وقوله : ﴿نَحْن الوارِثُونَ﴾ وغير ذلك من الآيات . قال فى "معالم الكتابة" : وقد أخذ كُتّاب المغرب بهـذا مع وُلاة أمورِهم فى الجمع بالميم فخاطبوا الواحدَ مخاطبةَ الجمع مثـل : أنتم، وفعلتم، وأمَرْتم، وما أشبه ذلك .

(١) فى الاصول والخوارزمى وهو تعبير عرفى .

قلت : والأمرُ فى ذلك عندهم مستمرّ إلى الآنَ . قال ابن شيث : وهو غيرُ مأصُوّر به عند غيرهم .

وإن كان المكتوب عنه مَرْءُوسا بالنسبة إلى المكتوبِ إليه كالتابع ومَنْ فى معناه ، فقال فى " موادّ البيان " : ينبغى أن يَتَحفَّظ فى الكُتُب النافذة عنه من الإتيان بنُون العظمة وغيرها من الألفاظ التى فيها تعظيمُ شأنِ المكتوبِ عنه مثل أن يقول : أمرتُ بكذا ، أو نهيتُ عن كذا ، أو أوعَزْتُ بكذا ، أوتقدّمَ أمْرِى إلى فلان بكذا ، أو أنْهِى إلىّ كذا ، أو خرج أمْرِى بكذا ، وما فى معنى ذلك مما لايُخاطبُ به الأتباعُ رُؤساءَهم ، بل يعدل عن مثل هذه الألفاظ إلى مايؤدّى إلى معناها مما لاعظمة فيه ، مثل أن يقول : وجدْتُ صواب الرأى كذا ففعلْته ، ورأيت السياسةَ تقتضِى كذا فأمضيتُهُ ، وما أشبه ذلك ، إن كان عُرْفُ الكُتَّاب على الخطاب بالتاء ، وإلا قال : وجد المملوكُ صوابَ الرأى كذا ففعله ، ورأى السياسةَ تقتضى كذا فأمضاه ، وما يجرى هذا المَجْرى .



وأما المكتوب إليه ، فقال أبو هلال العسكرىّ فى كتابه " الصناعتين " : ينبغى أن يَعْرِف قدرَ المكتوب إليه من الرؤساء ، والنُّظَراء ، والعلماء ، والوُكَلاء : ليُفرِّق بين مَنْ يُكتب إليه «أنا أفعلُ كذا» ومَنْ يُكتب إليه «نحن نَفْعَل كذا» (فأنا) من كلام الأشباه والإخوان ، (ونحنُ) من كلام الملوك ؛ ويفرّق بين من يُكتب إليه «فإن رأيتَ أن تفعلَ كذا» وبين من يكتب إليه : (فرأْيَك) . قال فى "موادّ البيان" : وذلك ان قولهم فإن رأيتَ أن تفعَلَ كذا لفظُ النُّظَراء والمُساوِين ، بخلاف فَرَأْيَك ، فإنه لا يكتبه إلا جليلٌ معظّم : لتضمنها معنى الأمر والتقديرُ فَرَ أْيَك ، بخلاف فإن رأيت ، فإنه لا أمر فيه ، إذ يقال : فإن رأيت أن تفعل كذا فافعله . على أن الأخفش

قد أنكر هذا على الكُتّاب، لان أقل الناس يقول للسلطان : آنظُرْ فى أمرى، ولفظه لفظ الأمر ومعناه السؤال . وذكر مثله فى " صناعة الكُتّاب " عن النحويين . قال فى " موادّ البيان " : وحُجّة الكُتّاب أن المشافهةَ تحتمل مالا تحتمله المكاتبةُ ، لأن المشافهةَ حاضرٌ يحضُر الإنسانَ لايمكنه تقييدُه وترتيبه، والمكاتبة بخلاف ذلك، فلا عُذْرَ لصاحبها فى الإخلال بالأدَب . قال آبن شيث : وقد آصطلَحُوا على أن يُكْتَب فى أواخر الكتب : «وللآراءِ العاليةِ فضلُ السُمُوّ والقُدْرة إن شاء الله تعالى» . ودُونَ ذلك : «وللرأْى السامِى حكمه» ودونه : «والرأى أعلى» . ودونه : «والرأْى مُوَفّق» وموفّقا بالرفع والنصب . ودونه : «ورأْيُه» للمجلس : «ورأْيُها» للحَضْرة . قال : وربما قالوا : «فإن رأى مولانا أن يكون كذا وكذا امر به أو فعل» إلا أنها لاتقومُ مقامَ قوله : والرأى أعلى . فأما لمن دُونهُ فمحتمل . وذكر أنه كان مصطلَحُهم أن يقال فى آخر كُتُب السلطان : «فاعلَمْ ذلك وآعمَلْ به إن شاء الله تعالى» . وأن أعيان أصحاب الأقلام كانوا يكتبونه إلى مَنْ دُونَهم .

قلت : والذى آستقرّ عليه الحالُ أن يُكْتَب فى مثل ذلك : «وللآراءِ العاليةِ مزيدُ العُلُوّ» وأن تختم الكتابةُ للأكابر بمثل : «فنُحيط عِلْمَه بذلك» ولمن دونهم : «فنُحيط بذلك علما» وللأصاغر : «فليَعْلَمْ ذلك ويعتمدْه» ونحو ذلك . قال محمدُ آبنُ إبراهيم الشيبانىّ : إن آحتجتَ إلى مخاطبة المُلوك والوُزَراء والعلماء والكُتّاب والأُدَباء والخُطَباء وأوساطِ الناس وسُوقَتِهم ، نخاطِبْ كُلّا منهم على قَدْر أُبّهته وجَلَالته وعُلُوّه وآرتفاعه وفِطْنته وآنْتباهه . ولكل طَبَقة من هذه الطّبَقات معانٍ ومذاهبُ يجب عليك أن ترْعاها فى مُراسلتك إيّاهم فى كُتُبك ، وتزِنَ كلامَك فى مخاطبتهم بميزانه ، وتُعطِيَه قِسمته ، وتُوفِّيَه نصيبه ، فإنه متى أهملْتَ ذلك وأضعْتَه، لم آمنْ عليكَ أن تَعْدِل بهم عن طريقتهم ، وتسْلُكَ بهم غيرَ مَسْلَكِهم ،

وتُجرِى شُعاعَ بلاغتك فى غير مَجْراه ، وتَنْظِم جَوْهَرَ كلامك فى غير سِلْكه ، فلا تعتدّ بالمعنىٰ الجَزْل ما لم تَكْسُه لفظا مختلفا علىٰ قَدْر المكتوب إليه ؛ فإن إلباسَكَ المعنىٰ — وإن صح إذا أُشرِب — لفظا لم تَجْرِبه عادةُ المكتوب إليه تَهْجينٌ للمعنىٰ، وإخلالٌ بقَدْر المكتوب إليــه ، وظُلْمٌ يَلْحَقه ، ونقصٌ ممــا يجب له ؛ كما أن فى اتّباع مُتعارَفهم ، وما انتشرتْ به عادَتُهم ، وجَرَتْ به سُنّتهم، قَطْعاً لعُــذْرهم، وخُروجًا عن حَقّهم، وبُلُوغا إلىٰ غايةِ مُرَادِهم ، وإسقاطًا لحُجّةِ أدَبهم . قال ابنُ عبد ربه : فامتثِلْ هذه المذاهبَ وأجْرِ عليها القومَ[(٢)] .

قال فى "موادّ البيان" : وذلك أن المعانِىَ التى يُكْتَب فيهــا وإن كان كلٌّ منها جنسا بعينه : كالتهنئة والتَّعْزِية والاعتــذار والعِتَاب والاستِظْهار ونحو ذلك ، فإنه لا يجوز أن يخرُج المعنىٰ لكلِّ مخاطَب علىٰ صيغةٍ واحدةٍ من اللفظ ، بل ينبغى أن يخرُجَ فى الصيغة المشاكلةِ للمخاطَب، اللائقةِ بقَدْره ورُتْبته . ألا ترىٰ أنك لو خاطبت سلطاناً أو وزيراً بالتعزية عن مُصيبةٍ من مَصَائب الدنيا، لمــا جاز أن تَبْنِيَ الكلام علىٰ وَعْظه وتَبْصيره وإرشاده وتذكيره وحَضّه علىٰ الأخْذ بحظٍّ من الصبر ، ومجانَبة الجَزَع ، وتلَقّى الحــادثاتِ بالتسليم والرِّضا ؛ وإنمــا الصواب أن تبنِيَ الخطابَ علىٰ أنه أعلىٰ شانا ، وأرفَعُ مكانا ، وأصَحُّ حَزْما ، وأرجَحُ حِلْمــا ، من أن يُعَزّىٰ ؛ بخلاف المتأخّر فى الرتبة ، فإنه إنما يُعزّىٰ تنبيها وتذكيرا ، وهدايةً وتبصيرًا ، ويعرِّفُ الواجبَ فى تلقِّ السَّرَّاء بالشُّكْر ، والضَّرَّاء بالصبر ، ونحو ذلك .

وكذلك إذا كاتبت رئيسًا فى معنىٰ الاستزادةِ والشَّكْوىٰ ، لايجوز أن تأتى بمعناهما فى ألفاظهما الخاصّة ، بل يجب أن تَعْدِل عن [ألفاظ] الشكوىٰ إلىٰ ألفاظ الشُّكْر ،

---

(١) هذا الشرط غير موجود فى الضوء .

(٢) لم يذكر فى الضوء لفظ القوم .

وعن ألفاظ الاستزادة إلى ألفاظ الاستعطاف والسؤال فى النظر، لتكونَ قد رتَّبْتَ كلامَك فى رُتْبته، وأخرجتَ معناك مَخْرَج مَنْ يستدعِى الزيادةَ لا مَنْ يَشْكُو التقصير.

قال ابن شيث فى "معالم الكتابة" : ولا يخاطَبُ السلطانُ فى خلال الكتابة إليه بسيِّدنا مكان مَوْلانا، فإن سيدنا كأنها خُصِّصت بأرباب المراتب الدينية والدِّيوانية، ومَولانا تَخُصُّ السلطانَ وحده، وإن كان من نُعُوت السلطان السيِّد الأجلّ .

قال : على أن ذلك مخالف لمذهب المغاربة : فإنهم يعبِّرون عن وُلاة أمورهم بالسادة ، ويعبِّرون عن صاحب الأمر بسيِّدنا ؛ وكأن هذا كان فى زمانه ، وإلا فالمعروفُ عند أهل المغرب والأندلس الآنَ التعبيرُ عن السلطان بالمَوْلى، يقول أحدهم مولانا فلان . وأهلُ مصر الآنَ يُطْلِقون السادةَ على أولاد الملوك .

وكذلك لو وقع واقع للسلطان فنصحتَه لم يجز أن تُورِد ذلك مَوْرِدَ التنبيه على ما أغفله ، والإيقاظ لما أهمله ، والتعريف من الصواب لما جَهِله : لأن ذلك من القبيح الذى لا يحتملُه الرؤساء من الأتباع، ولكن تبنِى الخطابَ على أن السلطان أعلى وأجلُّ رأيا، وأصحُّ فِكْرا، وأكثرُ إحاطةً بصُدُور الأمور وأعجازِها، وأن آراء خَدَمِه جُزْء من رأيه ، وأنهم إنما يتفرَّسُون مَخايِلَ الإصابة بما وَقَفُوا عليه من سُلُوك مَذْهَبه، والتأدُّب بأدَبه، والارتياض بسياستِه، والتنقُّل فى خِدْمته، وإن مما يفرِضونه فى حكم الإشفاق والاهتمام، وما يُسْبِغ عليهم من الإنعام، المطالعةَ بما يجرى فى أوهامهم، ويحدُث فى أفكارهم ، من الأمور التى يتخيَّلون أن فى العمل بها مصلحةً للدولة ، وعمارةً للملكة ، ليتصَفَّحه بأصالة رأيه التى هى أوفَرُ وأثبَتُ . فإن استصوبه أمضاه ، وإن رأى خلافه ألغاه ، وكان الرأىُ الأعلى ما يراه ؛ إلى غير ذلك مما يجرى هذا المجرى .

قال ابن شيث فى "معـالم الكتابة" : ولا يقارِنُ الكاتبُ السـلطان فى تكرار المواضع التى يقع الألتباسُ فيها بين الكاتب والمكتوب إليه ، لأن هاءَ الضمير تعود عليهـما معا لمـا تقدّم من ذِكْرهما، وإن كان فى القرينة مايدُلّ علىٰ ذلك بعد الفكرة وإذا آبتدأ معهم بالملوك لايقال بعـد ذلك العَبْد ولا الخادم، وإن كان ذلك جائزا مع غير السلطان .

قال : ولا بأس بتكرار الإشارة إلىٰ السـلطان فى المواضع التى يَحْمِل فيها الأشتراكُ بينه وبين المكتوب إليه، مثل أن يقال: وكان قد ذَكَركذا وكذا، والضميرُ فى كان يصلُح لهما معا ، فلا بُدّ هُنا من ذكر الملوك، إن كان الألتباسُ من جهـة الكاتب ، أو مولانا إن كانت الإشارةُ إلىٰ السلطان .

الأصـــــل العـاشر

(أنــ يُراعِىَ مَوَاقع آيات القرءان والسّـجْع فى الكُتُب، وذكرِ أبيات الشعر فى المكاتبات)

أما آياتُ القرءان الكريم، فقد ذكر ابنُ شيث فى "معالم الكتابة" أنها فى صَدْر الكُتُب قد يذكرها الأدنىٰ للأعلىٰ فى معـنىٰ ما يَكْتُب به ، مثـل قوله تعـالىٰ : ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾ وقوله تعـالىٰ : ﴿وقالُوا الحمدُ لِلّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُور﴾ إلىٰ غير ذلك من الآيات المناسـبة للوقائع وإن كانتْ فى أثنـاء الكُتُب، فقد آستشهد بها جماعةٌ من الكُتّاب فى خلال كتبهم ممـا رأيتُه .

***

وأما السجع ، فقد ذكر ابن شيث : أنه لا يُفرَق فيه بين كتاب الأعلى للأدنى وبالعكس، وأنه بما يُكتَب عن السلطان أليق ؛ لكن قد ذكر بعض المتأخرين أن الكتابة بالسَّجع نقص فى حق المكتوب إليه، وقضيته أنه لا يُكتَب به إلا من الأعلى للأدنى ، إلا أنّ الذى جرى عليه مصطلح كُتّاب الزمان تخصيصُه ببعض الكُتُب دُونَ بعض من الجانبين .

***

وأما الشعرُ فيُورِدُه حيثُ يحسُن إيرادُه ، ويمنعُه حيثُ يحسُن منعُه ، فليس كلّ مكاتبة يحسُن فيها إيرادُ الشعر ، بل يختلفُ الحالُ فى ذلك بحسَب المكتُوب عنه والمكتوب إليه . فأما المكاتباتُ الصادرةُ عن الملوك والصادرةُ إليهم ، فقد ذكر فى "موادّ البيان" : أنه لا يُتمثَّل فيها بشيء من الشعر، إجلالًا لهم عن شَوْب العبارة عن عزائم اوامِرِهم ونَوَاهِيهم والأخبار المرفوعةِ إليهم، بما يُخالف نَمَطها ووضْعَها، ولأن الشعرَ صناعةٌ مغايرةٌ لصناعة الترَسُّل ، وإدخالُ بعض صنائع الكلام فى بعض غيرُ مستحْسَن .

قلت : الذى ذكره عبدُ الرحيم بنُ شيث فى كتابه "معالم الكتابة ومَوَاضع الإصابة" أنه [يُتَمَثَّل] بالشعر فى المكاتَبات الصادرةِ عن المُلُوك دُونَ غيرهم ،وهو معارِضٌ لما ذكره فى "موادّ البيان" . وكانه فى موادّ البيان يريد الكُتُب النافذةَ عن الملوك إلى مَنْ دُونهم، أو ممّنْ دُونَهم إليهم . أما الملوكُ والخُلَفاء إذا كتَبوا إلى مَنْ ضاهاهم فى أُبّهة المُلْك وقاربهم فى عُلُوّ الرتبة، فإنه لا يمتنع التمثُّلُ بأبيات الشعر فيها، تطريزًا للنثر بالنَّظْم، وجمعًا بين جنْسَى الكلام اللَّذَيْنِ هما خلاصة مقاصده.

وما زالت الخلفاءُ والملوكُ السالفــةُ يحَلُّون كُتُبهم الصادرةَ عنهم إلىٰ نُظَرائهم فى عُلُوّ الرتبة بالأبيات الرقيقة الألفاظِ ، البديعةِ المعانِى ، للاستشهاد علىٰ الوقائع المكتوب بسببها : كما كتبَ أميرُ المؤمنين "عثمانُ بنُ عفّان" رضى الله عنــه حين تمــالأَ عليه القومُ واجتمعوا علىٰ قتله إلىٰ علىّ بن أبى طالب كَرَّم الله وجهه !

فإنْ كُنتُ مَأْكُولًا ،فكُنْ خَيْرَ آكِلٍ * وإلَّا فأدْرِكْــنِى ولَمَّــا أُمَزَّقِ !

وكما كتب أمير المؤمنين علىُّ بن أبى طالب كَرَّم الله وجهه ! إلىٰ مُعاويةَ بنِ أبى سُــفْيان ، فى جوابِ كتابٍ له حين جرىٰ بينهما التنازُع فى الخلافة ، فقال فى أثناء كتابه : وزَعَمْت أنّى لكلِّ الخلفاء حَسَدْت ، وعلىٰ كلِّهم بَغَيْت ؛ فإن يَكُ ذلكَ كذلك فليسَتِ الجنايةُ عليك ، فيكُونَ العُذْرُ إليك :

* وتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُها *

وعلىٰ ذلك جرىٰ كثيرٌ من خلفاء الدولتين الأُموية والعبّاسية : كما حكىٰ العسكرىّ فى "الأوائل" أن أهــلَ حِمْص وثَبُوا بعاملهــا فأخرَجُوه ، ثم وثَبُوا بعــدَهُ بعاملٍ آخَرَ ؛ فأمر المتوكِّلُ إبراهيمَ بنَ العبــاس[1] أن يكتُب إليهــم كتابًا يحذِّرهم فيــه ويَختَصر ، فكتب .

أما بعــدُ ، فإنَّ أميرَ المؤمنين يَرىٰ مِنْ حقِّ الله تعــالىٰ عليــه فيما قَوَّم[2] به من أَوَد أو عَدَّل به من زَيْغ ، أو لَمَّ به من شَعَث ، ثلاثًا يقدِّم بعضَهن أمامَ بعضٍ : فأُولاهُنّ مايستظْهِر به من عِظَةٍ وحُجّة ، ثم مايَشْفَعُه به من تحذيرٍ وتنبيه ، ثم التى لاينفَع حَسْمَ الداء غيرُهــا :

أَنَاةٌ ، فإنْ لم تُغْنِ عَقَّب بعــدَها * وَعِيدٌ ، فإن لم يُجْدِ ، أَجدتْ عزائمُهْ !

---

(١) أى الصولى .

(٢) فى الأصول فى من يقوم به الخ . والتصحيح من "أدب اللغة" للشيخ أحمد السكندرى .

وممن كان يُكثِرُ التمثُّل بالشعر فى المكاتبات من خُلَفاء بنى العباس وتَصْدُر إليه المكاتبات كذلك «الناصرُ لدين الله» حتّى يُحكىٰ أن الملك الأفضل، علىّ ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب دِمَشْق حين تعصّب عليه أخوه الملكُ العزيز عثمانُ وعمُّه الملكُ العادل أبو بكر، كتبَ إلىٰ الناصر لدين الله يستجيشُه عليهما كتابًا يُشير فيه إلىٰ ما تَعتقِدهُ الشِّيعة من أن الحقَّ فى الخلافة كان لعلىّ، وأن أبا بَكْر وعثمانَ رضى الله عنهما تقدّما عليه، إذ كان الناصرُ يَميل إلىٰ التشيُّع، وكتب فيه:

مَوْلَاى! إنّ أبا بَكْرٍ وصاحِبَه * عُثمانَ قد غصَبَا بالسَّيْفِ حقَّ عَلِي!
فانظُرْ إلىٰ حَظِّ هذا الِاسْم كيفَ لِقِى * من الأَواخِرِ ما لَاقىٰ من الأُوَل!

فكتب إليه الناصرُ الجوابَ عن ذلك، وكتب فيه:

وافىٰ كتابُكَ يا ابنَ يُوسُفَ ناطِقًا * بالحقِّ يُخْبِرُ أنَّ أصلَكَ طاهِرُ!
غَصَبُوا عَلِيًّا حقَّهُ إذ لَمْ يَكُنْ * بَعْدَ النَّبِىِّ له بيثْرِبَ ناصِرُ!
فاصْبِرْ فإنَّ علىٰ الإلٰهِ حِسَابَهُمْ * وابْشِرْ فناصِرُكَ الإمامُ الناصِرُ!

وعلىٰ ذلك جرىٰ الملوكُ القائمون علىٰ خُلَفاء بنى العباس فى مكاتباتهم أيضا. كما كتب أبو إسحاق الصابى عن مُعِزّ الدولة بن بُوَيْه، إلىٰ عُدّة الدولة أبى تَغْلِبَ كتابا يذكُرله فيه خلافَ قريبين له، لم يُمكِنه مساعدةُ أحدهما علىٰ الآخر، واستشهد فيه بقول المتلمس:

وما كُنْتُ إلا مِثْلَ قاطِعِ كَفِّهِ * بكَفٍّ لَهُ أُخرىٰ فأصْبَحَ أجْذَما!
فلَمّا استقادَ الكَفُّ بالكَفِّ، لم يَجِدْ * لَهُ دَرَكًا فى أن تَبِينَا فأحْجَما.

وعلى هذا النّهج جرى الحالُ فى الدّولة الأيوبية بالديار المصرية . كما كتب القاضى الفاضل عن السلطان صلاح الدين "يوسُفَ بن أيّوب" إلى ديوان الخلافة ببغداد، عند قتل ابن رئيس الرُّؤساء وزير الخليفة كتابًا ليُسَلِّيَ الخليفةَ عنه ، وكان ممن اساء السيرةَ وأكثر الفتكَ ، متمثّلا بالبيتين المقولين فى أبى حَفْص الخَلّال : وزير أبى العَبّاس السَّفّاح ، وكان يُعرَفُ بوزير آلِ محمد .

إنَّ المَكَارِهَ قد تَسُرُّ، ورُبَّما * كان السُّرُورُ بما كَرِهْتَ جَدِيرا!

إنَّ الوَزِيرَ وَزِيرَ آلِ محمّــــد * أَوْدَى، فمَنْ يَشْنَاكَ كانَ وَزِيرَا.

وكما كتب القاضى «محيى الدين بن عبد الظاهر» عن «المنصور قلاوون» إلى صاحب اليمن فى جوابِ تَعْزِيَةٍ ارسلها إليه فى وَلَده الملكِ الصالح ، مع تعريضه فى أَمْرٍ له بأن الحروب مما يَشْغَل عن المصائب فى الأولاد، مستشهدا فيه بقوله :

إذا اعْتادَ الفَتَى خَوْضَ المَنَايَا، * فأهْوَنُ ما تَمُرُّ به الوُحُول!

وكما كتب صاحبُنا الشيخُ علاءُ الدين البيرى رحمه الله عن "الظاهر برقوق" صاحب الديار المصرية، جوابا لصاحب تُونُس من بلاد المغرب ، واستشهد فيه لبلاغة الكتابِ الواردِ عنه بقوله :

وَكَلامٍ كَدَمْعِ صَبٍّ غَــرِيبٍ * رَقَّ حَتَّى الهواءُ يَكْثُفُ عِنْدَهْ!

راقَ لَفْظا، ورَقَّ مَعْنًى، فأضحى * كُلُّ سِحْرٍ من البَلاغة عَبْدَه!

وعلى ذلك جرتْ ملوكُ المَغْرِب من بَنِي مَرِينٍ وغيرهم . كما كتب بعضُ كُتّاب السلطان أبى "الحَسَن المَرِينِيّ" عنه إلى السلطان الملك الناصر "محمد بن قلاوون" صاحبِ الديار المصرية كتابا يُخْبِرُه فى خِلَاله أنّ صاحب بِجَايَةَ خرج عن طاعته فغزاه، وأوقع به وبجُيوشه ماقَمَعه، مستشهدا فيه بقوله :

إنْ عادَتِ العَقْربُ ، عُدْنَا لها * وكانتِ النَّعْـلُ لهـا حاضِرَه !

إلىٰ غير ذلك من المكاتبات الملوكية التى لاتُحصىٰ كثرةً . بل ربمـا وقع التمثـل بالشِّعْر فى المكاتبات عن الخلفاء والملوك إلىٰ مَنْ دُونَهم وبالعكس. كما حكىٰ العسكرىّ فى "الأوائل" أن رافعًا رفع كتابا إلىٰ الرَّشيد، وكتب فى أسفله :

إذا جِئْتُ عارًا أو رَضِيتُ بِذِلَّةٍ ، * فنَفْسِى علىٰ نَفْسِى من الكَلْبِ أَهْوَنُ!

فكتب إليه الرشيد كتابًا وكتب فى أسفله :

ورَفْعُكَ نَفْسًا طالبًا فَوْقَ قَدْرِها * يَسُوقُ لَكَ الحَتْفَ المُعَجَّلَ والذُّلَّا

وبالجملة فمذاهبُ النـاس فى التمثُّل بالشِّـعر فى المكاتبـات الملوكيَّـة مختلفةٌ ، ومقاصدُهم متباينةٌ بحَسَب الأغراض ؛ ولذلك أورد الشـيخ جمالُ الدين بن نُباتةَ هـذه المسئلةَ فى جملة أسْئِلَته ، التى سأل عنها كُتَّابَ الإنشاء بدِمَشْق ، مخاطبًا بها الشيخَ شِهابَ الدين محمودًا الحَلَبىّ ، وهو يومئذ صاحب ديوان الإنشاء بها فقال : ومَنْ كَرِه الاستشهادَ فى مكاتبة الملوك بالأشعار؟ وكيف تَركها علىٰ مافيها من الآثار؟

أما المكاتَبات الإخوانيات الواقعـة بالتَّهانى ، والتَّعازِى ، والتَّزاوُر ، والتَّهـادِى ، والمُداعبة ، وسائرُ أنواع الرِّقاع فى فنونِ المكاتبات ، فقد قال فى "موادِّ البيان" إنه يجوز أن تُودَع أبياتَ الشعر علىٰ سبيل التمثُّل وعلىٰ سبيل الاختِراع ، محتجًّا بأن الصَّدْر الأوّل كانوا يَستعْمِلون ذلك فى هذه المواضع . وهذا الذى ذكره لاخفاءَ فيه ، وكُتُب الرسائل المدوّنة من كلام المتقدّمين والمتأخِّرين من كُتَّاب المَشْرق والمَغْرب شاهدةٌ بذلك ، ناطقةٌ باستعمال الشعر فى المكاتَبات ، وأثنائها ونِهاياتها ، مابين البَيت والبيتين فأكثَر ، حتّى القصائد الطِّوال . وأكثرُ مايقع من ذلك البيتُ المفرد والبيتان فمـا حَوْلَ ذلك . كما استشهد القاضى الفاضلُ فى بعض مكاتباته فى الشوق بقوله :

وِمنْ عَجَبِي أنّى أَحِنُّ إليهـمُ، * وأسألُ عنهم مَنْ أرىٰ وَهُمُ مَعِي!
وتَطْلُبُهـمْ عَيْنِي وهُمْ فِي سَوَادِهَا * ويَشْتاقُهُمْ قلبى وهُمْ بينَ أضْلُعِي!

وكما كتب أيضا لبعض إخوانه فى جوابِ كتاب :

وكَمْ قُلْتُ حقًّا: لَيْتَنِي كُنْتُ عِنْدَهُ! * وماقُلْتُ إجْلالًا له: لَيْتَـهُ عِنْدِى!

وكما كَتَب فى وَصْف كتابٍ وَرَد عليه مستشهدًا بقوله :

وحَسِبْتُه ــ والطَّرْفُ معقودٌ به ــ * وَجْهَ الحَبِيب بَدَا لوَجْهِ مُحِبِّـهِ!

وكما كَتَب فى كتاب تَعْزِية بصديقٍ مستشهدا فيه بقوله :

وذَاكَ الَّذِى لايَبْرَحُ الدَّهْرَ رُزْؤُه، * ولا ذِكْرُه ماأرْزَمَتْ أُمُّ حائلِ .

إلىٰ غير ذلك من المكاتبات التى لا يأخُذها حَصْر، ولا تدخُل تحت حدّ ، ممـا ستقف علىٰ الكثير منه فى الكلام علىٰ مقاصد المكاتَبات، إن شاء الله تعالىٰ .

الأصل الحادى عشر

(أنـ يأتى فى مكاتبتـه بحُسْنِ الاختتام)

ويرجع إلىٰ معنيين، كما فى حُسْن الافتتاح المقـدّم ذكره .

المعنىٰ الأول ــ أن يكون الحسنُ فيـه راجعا إلىٰ المعنىٰ المختتَم به : إما بمعاطاة الأدَبِ من المرءُوس إلىٰ الرئيس ونحو ذلك ، وإما بمـا يقتضىٰ التعزيرَ والتوقيرَ من الرئيس إلىٰ المرءوس، كالاختتام بالدعاء ونحو ذلك، مما يقع فى مصطلَح كل زمن .

المعنى الثانى ــ أن يكون الحسن فيه راجعا إلىٰ مايوجب التحسينَ من سُهولة اللفظ ، وحُسْن السَّبْك، ووُضُوح المعنىٰ، وتجنُّب الحَشْو، وغير ذلك من مُوجِبات

التحسين ؛ كما كتب الصاحبُ بنُ عبّاد فى آخر رسالة له : "لئن حَنِثْتُ فيما حَلَفْت ، فلا خَطَوْت لتحصيلِ مَجْد ، ولا نَهَضْت لاقتناء حَمْد ، ولا سَعَيْتُ إلى مَقَامِ فَخْر ، ولا حَرَصْت على عُلُوِّ ذِكْر" . قال أبو هلال العسكرى : فهذه اليمين ، لو سمعها عامرُ بن الظَّرِب ، لقال هى اليمين الغموسُ لا القسمُ باللاتِ والعُزّى ومناةَ الثالثةِ الأخرى ، ونحو ذلك مما يَجْرِى هذا المَجْرَى .

قلت : وآعتبارُ هذه الأصول [الأحد عشر](١) بعد ماتقدّم آعتبارُه فى الكلام على صنعة إنشاء الكلام وترتيبِه فى المقالة الأولى ، من أنه لايستعمِل فى كلامه ماأتَتْ به آياتُ القرءان الكريم : من الآختصارِ ، والحَذْف ، ومخاطبةِ الخاصّ بمخاطَبة العامّ ، ومخاطبـةِ العامّ بمخاطَبة الخاصّ ، ولا مايختَصُّ بالشِّعر : من صَرْف مالا ينصرفُ ، وحَذْف مالا يُحْذَف ، وقَصْر الممدُود ، ومَدّ المَقْصُور ، والتقديم والتأخيرِ ، والإضمار فى موضع الإظهار ، وتصغيرِ الآسم فى موضع التعظيم ، مثل دُوَيْهِيَة ، وما شاكل ذلك مما تقدّم التنبيهُ عليه فى موضعه ، فلا بدّ من آعتباره هنا .

الأصـــل الثـانى عشر

(أن يعرِفَ مقاديرَ قطع الورق ، وسَعَةَ الطُّرَّة والهامش ، وسَعةَ بيت العلامة ومقدارَ ما بين السُّــطور وما يُتْرَكُ فى آخر الكتاب)

أما مقدار قطع الورق ، فقد تقدّم فى المقالة الثالثة أنه يختَلِف باختلاف المكتوبِ إليهم عن السلطان ، فكلّما عظُم قدرُ المكتوب إليه ، عَظُم مقدار قَطْع الورق ، وربما رُوعِيَ فى ذلك قدرُ المكتوب عنه والمكتوبِ إليه جميعا .

---

(١) فى الاصل "العشرة" .

*
* *

وأما طولُ الطُّرَّة فى أعلىٰ الكتاب ، فقد ذكر فى " معالم الكتابة " أنها تُطَوَّل فيما إذا كان الكاتبُ من الأعلىٰ إلىٰ الأدنىٰ ، وتكون متوسطة من الأتباع ، وسيأتى أن المصطلح عليه فى زماننا أن المكاتبات الصادرة عن السلطان تكون الطرّة فيها ما بين ثلاثة أوصال إلىٰ وصلين ، ومن النوّاب ومن فى معناهم تكون وصلا واحدا .

*
* *

وأما مِقْدارُ سَعَة الهامش فقد سمِعتُ بعض فضلاء الكُتّاب يذكر أن الضابط فيه أن يكونَ ثلثَ عَرْض الدَّرْج المكتوب فيه .

*
* *

وأما بيتُ العَلَامة فقد تقدّم أنه يكون مقدارَ نحو شِبْر فى كُتُب السلطان ، أما فى غيره ــ حيث كانت العلامةُ تحت البسملة ــ فتكونُ نحوَ ثلاثة أصابعَ أو أربعةٍ .

*
* *

وأما سَعةُ ما بين السطور فقد تقدّم أنها تكون بمقدار نصف بيتِ العلامة . وذكر آبن شيث : أنها ثلاثةُ أصابعَ او أربعة .

*
* *

وأما [مايترك فى] آخر الكتاب فقد ذكر آبن شيث أنه لا يَتْرُك فى آخر المكاتبة شيئا .

*
* *

وأما الخطُّ فانه كلّما غَلُظ القلم وآتسعت السطور كان أنقصَ فى رُتْبة المكتوبِ إليه وقد ذكر فى " معالم الكتابة " أن الكتب الصادرة إلىٰ السلطان لا يكونُ بين سُطُورها أكثرُ من إصبعين .

الطّـــرَف الثـانى

(فى بيان مقادير المكاتبات وما يُناسبها من البَسْط والإيجاز،
وما يلائِمُ كلَّ مكاتبة منها من المعانى)

ولتَعلَمْ أن المكاتبات على ثلاثة أقسام :

القســم الأوّل

(مايُكتَب عن السـلطان أو مَنْ فى معناه من الرؤساء
إلى الأتباع . وهى على ضربين)

الضــرب الأوّل

(مايُعمَل فيــه على الإيجـاز والاختصار)

وقد آستحسنوا الإيجاز فى خمســة مواضع :

أحدها — أن يكون المكتوبُ عن السلطان فى اوقات الحُرُوب إلى نُوّاب المَلِك . قال فى "حُسْن التوسـل" : فيجب أن يتوخّى الإيجاز والألفاظَ البليغةَ الدالةَ على القصد، من غير تطويل ولا بَسْط يُضيع المقصِدَ ويَفْصِل الكلامَ بعضـه من بعض . ولا يَعمِد فى ذلك إلى تهويلٍ لأمر العدوّ يُضْعِف القلوبَ، ولا تهوينٍ لأمره بحيث يحصُل به الاغترار .

الثـانى — أن يكون ما يُكْتَبُ به عن السلطان خبرًا يريد التورية به عنه وسَتْرَ حقيقته ، كإعلامهم بالحوادث الحادثةِ على الملوك ، والنوائب المُلِمَّة بالدولة : من هزيمة جَيْش، أو تغييرِ رَسْم، أو إحداثه، أو تكليف الرعيَّة مالا يَسْهُل عليها تكليفُه

وما أشبه ذلك . قال فى "موادّ البيان" : فيجب أن يقصدَ فى ذلك إلىٰ الاختصار والإيجاز، ويَعْدِلَ عن استعمال الألفاظ الخاصَّة بالمعنىٰ إلىٰ غيرها مما يحتملُ التأويل، ولا تَنْفِرُ الأسماعُ عنه، ولا تُراعُ القلوبُ به ، من غير أن يحتمل كذبا صُرَاحا ؛ فإنه لاشىءَ أقبحَ بالسلطان، ولا أغْمَصَ لشأنه وقَدْره من أن يُضَمِّن كتابه ماينكشف للعامَّة بطلانُه . قال وينبغى للكاتب أن يتخلَّص من هذا الباب التخلُّص الجيِّد الذى يُزَيِّن به الأثَر، من غير تصريح بكَذِب، وأن يخرج الباطل فى صورة الحق ، ويعرِّض سلطانه فى ذلك للإحماد والتقريظ من حيث يستحقُّ التأنيب والإذمام فإن هذه سبيلُ البلاغة، وطريقةُ فضلاء الصِّناعة، لأن الأمر الظاهرَ الحَسَن المجمعَ علىٰ فضله لا يحتاج فى التعبير عن حُسْنه إلىٰ كدّ الخاطر، وإتعاب الفكْر، إذ الألْكَن لايَعْجِزُ عن التعبير عنه فَضْلا عن الَّلسِن ، وإنما الفضلُ فى تحسين ماليس بحَسَن، وتصحيح ماليس بصحيح، بضروبٍ من التمويه والتخييل، وإقامة المعاذير، والعِلَل المغَطِّية علىٰ الإساءة والتقصير، من حيثُ لا يلحَقُ كذبٌ صريحٌ ولا زُور مطلق . ولِضيق هذا المقام وصُعُوبة مُرْتقاه ، أورده الشيخ جمالُ الدين بنُ نُباتةَ فى جملة مسائله التى سأل عنها كُتَّابَ الإنشاء بدِمَشْقَ ــ فقال : وما الذى يُكْتَب عن المهزوم إلىٰ مَنْ هَزَمه ؟ .

الثالث ــ أن يكون المكتوب به عن السلطان أمرًا أو نهيا . قال فى "موادّ البيان" : فحكمها حكم التوقيعات الوجيزة الجامعةِ للمعانى، الجازمة بالأمر أو النهى . اللهم إلا أن يكون الأمر أو النهى مما يحتاجُ إلىٰ رُسُوم ومُثُل يُعْمَل عليها، فيحتاج إلىٰ الإطالة والتكرير بحسَب مايُؤْمَر به ويُنْهىٰ عنه دُونَ الحَذْف والإيجاز.

الرابع — أن تكون الكُتُب المكتوبة عن السلطان باستخراج الخَرَاج وجِبَاية الأموال وتَدْبِير الأعمال . قال فى "موادّ البيان" : فسبيلُها أن يَنُصّ فيها علىٰ ما رآه السلطان ودَبَّره ، ثم يَخْتِم بفصل مقصورٍ علىٰ التوكيد فى آمتثال أمْره وإنفاذه ، ولا يقتصر علىٰ ماتقدّم ، إيجابًا للحُجّة ، وتضييقا للعُذْر ، وحَسْما لأسباب الاِعْتِذار .

الخامس — أن يكون مايكتب به عن السلطان إحْمادًا أو إذْمامًا ، أو وَعْدا أو وعيدا أو آستِقْصارًا أو عَذْلا أو تَوْبيخا . قال فى " موادّ البيان " : فيجب أن يُشْبعَ الكلامَ ويمدّ القولَ ، بحسَب ما يقتضيه أمر المكتوب إليه : فى الإساءة والإحسان ، والاجتهاد والتقصير ، لينشرح صدر المشمِّر المُحْسِن ، ويَنْبسِطَ أملُه ورجاؤه ، ويرتدع المقصِّر المُسيء ، ويرتَجِع عما يُذَمّ منه ، ويتلافىٰ مافرّط فيه .

الضرب الثانى

(ما يُعمَل فيه علىٰ البَسْط والإطناب)

وقد آستحسنوا البَسْط فى موضعين :

أحدهما — أن يكون ما يَكْتُب به عن السلطان خبرًا يُريد تقريرَ صُورته فى نُفُوس العامة ، كالإخبار بالفُتُوحات المتجدّدة فى إعلاء الدِّين والسلطان . قال فى "موادّ البيان" : فيجب أن يُشْبِعَ القولَ فيها ، ويَبْنِيَ علىٰ الإسهاب والإطناب وتكثير الألفاظ المترادفة ، ليَعْرِفوا قدرَ النِّعمة الحادثة ، وتزيدَ بصائرُهم فى الطاعة ، ويَعْلُوَ موضعُ سلطانهم من عناية الله تعالىٰ به ، فتَقْوىٰ قلوب أوليائه ، وتضعُف قلوب أعدائه ؛ لأنه لو كتب كتابا فى فتح جليل لِيُقْرأَ فى المَحَافل والمَشَاهِد العامّة علىٰ رُءُوس

الأشهاد بين العامّة ومَنْ يراد تفخيمُ السلطان فى نفسه علىٰ صُورة الاختصار، لأوقع كلامَه فى غير رتبته ، ودَلَّ ذلك علىٰ جَهْله . وقد اوضح الشيخُ شهـابُ الدين محمود الحلبيّ رحمه الله هذا المقام فى كتابه "حُسْن التوسل" فقال : وإذا كَتَب فى التهانى بالفتوح فليس إلا بَسْط الكلام والإطناب فى شُكْرِ نعمة الله تعالىٰ، والتبرّى من الحول والقُوّة إلا به، ووَصْف ما أَعْطىٰ من النصر. وذِكْر ما مَنَح من الثبات، وتعظيم ما يَسَّر من الفتح، ثم وصف مابعد ذلك : من عَزْم، وإقدام ، وصَبْر، وجَلَد ، عن المَلِك وعن جيشه مما حَسُن وصفُه ولاقَ ذِكْرُه، وراقَ التوسُّع فيه، وعَذُب بَسْط الكلام معه . قال : ثم كُلَّمـا اتسع مجالُ الكلام فى ذكر الواقعة ووَصْفِها ، كان احسنَ وأدلَّ علىٰ السّلامة ، وأدْعىٰ لسُرور المكتوب إليه ، وأحسنَ لتوقُّع المِنّة عنـده ، واشهىٰ إلىٰ سمعه ، واشفىٰ لغليل شَوْقه إلىٰ مَعْرِفة الحال . قال : ولا بأس بتهويل أمْرِ العَدُوّ، ووصْف جَمْعه وإقدامه ، فإنَّ فى تصغير أمره تحقيرًا للظَّفَر به .

قال فى "موادّ البيان" : ولا يُحتَجُّ للإيجاز فى كُتُب الفُتُوح بمـا كتب به كاتبُ المهلَّب بن أبى صُفْرة إلىٰ الحَجّاج فى فتح الأزارقة، علىٰ ارتفاع خَطَره، وطُول زمانه، وعِظَم صِيتِه، من سُلُوكه فيه مَسْلَكَ الاختصار، حيث كَتَبَ فيه :

«الحمد لله الذى كفىٰ بالإسلام فَقْدَ ماسواه، وجعل الحمدَ متصلا بنَعْماه، وقضىٰ ان لا ينقَطِع المزيدُ من فَضْله ، حتّى ينقطعَ الشُّكر من خَلْقه . ثم إنّا كُنّا وعدُوّنا علىٰ حالين مختَلِفين ، نرىٰ منهم ما يسُرّنا أكثرَ ممـا يسُوءُنا ، ويَرَوْن منا ما يسُوءُهم أكثرَ مما يسُرّهم؛ فلم يزل ذلك دَأْبَنَا ودَأْبَهم : ينصُرنا اللهُ ويخذُلهم، ويُمَحِّصنا ويَمْحَقُهم؛ حتّى بلغ الكتابُ بنَادِيهِـمْ أجلَه . ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا والحمدُ لله رَبِّ العالَمين ﴾ » .

فإنه إنما حَسُن فى موضعه لمخاطبة السُّلْطان به، ولغرض كانت المكاتبةُ فيه .
قال : فإنْ كَتَب مثل هـذا الكتاب عن السلطان فى مثل هذا الفَتْح أو ما يقارِبُه ، لِيُورَدَ علىٰ العامّة ، ويُقَرّر فى نفوسهم به قَدْرُ النعمة ، لم يحسُنْ موقعُه ، وخرج عن شَرْط البلاغة بوضعه إيّاه فى غير موضعه، وذكر العسكرى نحو ذلك فى "الصناعتين".

ثم قال فى " حسن التوسل " : وإن كان المكتوبُ إليه مَلِكا صاحبَ مملكة بمفْرَده ، تعيَّن ان يكون البَسْـط أكثرَ، والإطنابُ والتهويلُ أبلغَ ، والشرحُ أتمَّ .
ثم قال : وإن ٱضْطُر أن يكْتُب مثـلَ ذلك إلىٰ ملكٍ غير مسلم لكنّه غيرُ محارِب ، فالحكم فى ذلك أن يذكُر من أسباب المودّة ما يقتضى المشاركةَ فى المَسَارّ، وأنّ أمر هـذا العدوّ مع كثرته أُخِذَ بأطْراف الأنامل ، وآلَ أمْرُه إلىٰ ما آل . ويُعَظِّم ذِكْرَ ما جرىٰ عليه من القَتْل والأسْر. ويقول : إن تلك عوائدُ نصرِ الله تعالىٰ لنا ، وٱنتقامه ممَّنْ عادانا ،

وإن كان المكتوبُ إليه متَّهما بممالأة العدوّ، كتب إليه بما يدل علىٰ التَّقْريع والتَّهكُّم والتهديدِ فى مَعْرِض الإخبار .

الثانى — أن يكون مايُكْتَب به عن السلطان فى أوقات حَرَكات العَدُوّ إلىٰ أهل الثُّغُور، يُعْلِمهم بالحركة للقاء عدوّهم . قال فى "حسن التوسل" : فيجب أن يُبْسَط القولُ فى وصف العزائم، وقُوّة الهِمَم ،وشِدّة الحَمِيَّة للدِّين، وكثرةِ العساكر والجُيُوش وسُرْعة الحركة ، وطَىِّ المَرَاحل، ومعاجَلة العَدُوّ، وتخْييلِ أسباب النَّصْر، والوُثوق بعوائد الله تعالىٰ فى الظَّفَر،وتقويةِ القلوب منهم،وبَسْط آمالهم، وحَثِّهم علىٰ التيقُّظ، وحفظ ما بأيديهم ، وما أشبه ذلك . ويُبْرِزُ ذلك فى أمْثَل كلام وأجَلّه وأمْكَنه ، وأقْرَبه من القُوّة والبَسَالة، وأبْعده من اللِّين والرِّقّة . ويُبالِغ فى وصف الإنابة إلىٰ الله تعالىٰ واستنزال نَصْره وتأييـده، والرُّجوع إليـه فى تَثْبِيت الأقدام، والاعتصام به

فى الصبر، والاستعانة به على العدوّ، والرغبة إليه فى خذلانهم وزلزلة أقدامهم وجعل الدائرة عليهم، دون التصريح ببطلان حركتهم، ورجاء تأخرهم، وانتظار العرضيّات فى ضعفهم، لما فى ذلك من إيهام الضعف عن لقائهم، واستشعار الوهم والخوف منهم .

القســـم الثانى

(مايكتب به عن الأتباع إلى السلطان والطّبقة العُليا من الرؤساء، وهو على ضربين)

الضرب الأوّل

(ما يُعمل فيـــه على الإيجاز والاختصار)

وقد استحبّوا الإيجاز فى ثلاثة مواضـــع :

أحدها — أن يكون مايكتب به من باب الشكر على نعمة يُسبغها سلطانه عليه، وعارفة يُسديها إليه . قال فى "موادّ البيان" : فسبيله أن لايبنيها على الإسهاب وتجاوز الحدّ، بل يبنيها على اللّفظ الوجيز، الجامع لمعانى الشكر، المشتمل على أساليب الاعتراف والاعتداد، فإن إطناب الأصاغر فى شكر الرؤساء داخل فى باب الإضجار والإبرام، ولا سيّما إذا رجعوا إلى خصوصيّة وتقدّم خدمة . وكذلك لا يُكثر من الثناء عليه، لأن ذلك من باب الملَق الذى لا يليق إلا بالأباعد الذين لم يتقـدّم لهم من المَوَاتّ والحُرَم مايدلّ على صحّة عقائدهم، ولم يُضِف عليهم من النِّعم مايوجب خُلوص نيّاتهم . أما إذا كان المُثنى أجنبيا متكسّبا بالتقريظ والثناء، فإنه لايقبح به الإيغال والإغراق فيهما . قال : وكذلك لاينبغي للخاصة الإكثارُ من الدعاء، وتكريرُه فى صُدور الكُتب

عند مايجرى ذكرُ الرئيس ، فإن فى ذلك مشقّةً وكُلفة يستثقلُها المُلوك . والحكم فيما يُستعمَل من ذلك فى الكُتُب شبيهٌ بما يُستَعْمَل شِفاهًا منه . ويَقبُحُ من خادم السلطان أن يَشْغَل سمعَه فى مخاطبته إيّاه بكثرة الدعاء وتكريره .

الثانى — أن يكون مايكتُب به التابعُ إلى السلطان ونحوه فى سؤالِ حُسْن النظر وشَكْوى للفقْر والخَصَاصة . قال : فى "موادِّ البيان": فيبنِي القولَ على الإيجاز ويمزُجُ الشكوى بالشُّكر والاعتداد بالآلاء ، والرغبةِ فى مُضاعفَة الإحسان والزيادةِ فى البرِّ، والإلحاق بالطَّبقة الرابعة فى إيلاء العوارف، فإن ذلك أعطفُ لقَلْب الرئيس، وأدْعى إلى بلوغ الغَرَض ، ولا يُكْثِر شكوى الحال ورثاثتَها ، واستيلاءَ الخَصَاصةِ والفقرِ عليه، فإن ذلك يجمَعُ إلى الإضجار والإبرام شِكايةَ الرئيس بسُوء حال مَرْءُوسه، وقلةِ ظُهُور نعمته عليه، وذلك ممايكرهه الرؤساء ويَذُمُّونه .

الثالث — أن يكون مايكتب به التابعُ إلى المتبوع من باب التَنصُّل والاعتذار عن شىءٍ قُرِف به عند رَئيسه . قال فى "موادِّ البيان" فسبيلُه أن يبنى كلامَهُ على الاختصار، ويعدِلَ عن الإسهاب والإطْناب ، ويقصدَ إلى النُّكت التى تُزِيل ماعَرَض عنده من الشُّبْهة فى أمره، وتمحُو المَوْجِدةَ السابقةَ إلى ضمير رئيسه ، ولا يُصَرِّحُ ببراءة الساحة عن الإساءةِ والتقصير، فإن ذلك مما يكرهُه الرؤساء من أتباعهم ، لأن عادَتَهم جاريةٌ بإيثار اعترافِ الخَدَم لهم بالتقصير والتَّفريط ، والإقرار بالمقروف به ليكونَ لهم فى العَفْو عند الإقرار موضعُ مِنّة مستأنَفَة تستَدْعى شُكرا، وعارفةٍ مستَجدَّة تقتضى نَشْرا . أما إذا أقام التابعُ الحجةَ على براءته مما قُرِف به ، فلا موضِعَ للإحسان إليه فى إقراره على منزلته والرضا عنه ، بل يكونُ ذلك قَدْرا واجبًا له، إن منعه إيّاه ظلمه وتعدّى عليه .

الضرب الثانى

(مايعمل فيه على البسط والإطناب)

وقد استحبّوا البَسْط هنا فى موضع واحد : وهو ما إذا كان ما يكتُبُ به التابعُ إلى السلطان واقعًا فى باب الإخبار بأحوال ماينظُر فيه من الأعمال ، وما يجرِى على يَدَيْه من المُهِمّات . قال فى "موادّ البيان" فسبيله أن يُوَفَّى حقَّه فى الشرح والبيان، ويَسْلُكَ فيــه طريقةً يجمَعُ فيها بين إيضاح الأغراض من غير هَذْر يُضْجِر ويُمِلُّ ، ولا اختصار يُقَصِّر ويُخِلُّ، وأن يقصد إلى استعمال الألفاظ السَّهْلة التى تَصل معانيها إلى الأفهام من غير كُلْفة، ويتجنبَ مايقع فيه تعقيدٌ وتَوْعِير أو إيهام، إلا أن يعرض له فى المكاتَبــة ما يحتاج إلى التَّورية والكناية كما تقــدّم فيما إذا أطلق عدوٌّ لســانه فى السلطان فإنه يحتاج إلى الكناية عنه على ما مرّ .

القســـم الثـالث

(ما يُكْتَب به إلى الأكفاء والنُّظَراء ، والطبقةِ الثانيةِ من الرؤساء)

قال فى "موادّ البيان" : وسبيلُ مكاتبتهم أن يؤتَى فيهــا باللفظ المساوِى للمعنى من غير إيجاز ولا إطناب : لأنها رتبةٌ متوســطة بين الرُّتبتين المتقدّمتين . ولا يخفى أن ما ذكره إنمــا هو عند الوقوف مع حقائق المكاتبات . أما الإخوانيّات المُطْلقة، فإنها تكون فى الطُّولِ والقِصَر بحسَب مابين الصديقين من المَوَدّة والقُرْب، وما يعلمُه كلُّ واحدٍ منهما من خُلُق الآخر، وما توجبه دالّتُه عليه .

وسيأتى فى مقاصد المكاتبات من أمثلةِ الأقسام الثلاثةِ مايُوضِّح مقاصدَها ويقرِّب مآخذَها إن شاء الله تعالى .

الطَّرَف الثـالثُ

(فى أمور تختص بالاجوبة ، وفيه جملتان)

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى بيانِ أىّ الأمرين من الابتداء والجواب أعلىٰ رتبةً وأبلغُ فى صناعة الكتابة)

وقد اختلف الكُتّاب فى ذلك : فذهب أكثرُ البلَغاء إلىٰ أن الكُتُب الجَوَابِيّـة أتعبُ مَطْلَبا وأصعب مُرْتقًى من الكتب الابتدائية ، وأن فيها تَظْهرُ مَهارةُ الكاتب وحِذْقه ، لاسيما إذا كان الخِطَاب محتمِلا(١) للاعتـذارِ والاعتلالِ عن امتثالِ الأوامر والنواهى ، والتّورِيةِ عن نُصوص الأحوال ، والإعراضِ عن ظَوَاهِرِها ، قائدًا إلىٰ استعمال المُغالَطة ، مُوجِبًا للانفصال عن الاحتجاج والإلزام ، ونحو ذلك مما يؤدّى إلىٰ الخلاص من المَكاره .

واحتجُّوا لترجيح ذلك بوجوه .

منها — أن المبتدئ مُحَكَّم فى كتابه ، يبتدئ بألفاظه كيف شاءَ ، ويَقْطَعها حيثُ يشاء ، ويتصرّفُ فى التقديم والتأخير ، والحَذْف والإثبات ، والإيجاز والإسْهاب ، ويَبْنِى علىٰ أساس يؤسسه لنفســه ؛ والمجيبُ ليس له تقديمٌ ولا تأخير ، وإنمـا هو تابعٌ لغرض المبتدئ ، وبانٍ علىٰ أساسه .

ومنها — أنّ المُجيبَ — إذا كان جوابه محتَمِلًا للإشباع والتوسّع — مُضْطَرٌّ إلىٰ اقتصاص ألفاظ المبتـدئ واتّباعها للإجابة عنهـا ، وذلك يؤدّى إلىٰ تصَفُّح كلام المبتدئ والمجيبِ ويَتّصل مابين الكلامين : لأن الكلامين يتقابلان فلا تَخْفىٰ رتبتهما والفاضلُ منهما من الرَّذْل ، وهذا مرفوعٌ عن المبتدئ .

(١) أى حاملا ومشتملا .

ومنها ـ أن تأليف الكلام وآنتظامَهُ وآتّساقَه وآلتئامه يَقْدِرُ منها المبتدئ على مالا يقدر عليـه المُجيب : لأن الجواب يُفَصِّــل أجزاء الكلام ويُبَدِّد نِظامه ويُقَسِّــمه أقساما ، لمكان الحاجةِ إلى آســتئناف القول من الفَصْــل بعد الفَصْــل بقول وأمّا كذا وأمّا كذا ، فظهور الصورة المستحســنةِ فى المتصــل أكثرُ من ظهورها فى المنفَصِــــل .

أما إذا كان الجوابُ مقتَضَبا مَبْنِيًّا علىٰ آمتثالِ مأمور ، أو آنتهاءٍ عن مَنْهِيٍّ عنــه ، فإنه سهل المَرَام ، قريبُ المتَنَاوَل : لأنه إنما يشتمل علىٰ ذكر وُصولِ الكتابِ والعمل بمـا فيــه .

وذهب صاحبُ "مَوَادّ البيــان" إلىٰ أن الآبتــداء والجواب فى ذلك علىٰ حدٍّ واحد ، وإن كان(١) الكاتبُ قد يُجيد فى الآبتداء ولايجيد فى الجواب وبالعكس ، محتجًّا لذلك بأن كُلًّا من المبتــدئ والمجيب متــاحٌ من جَوْدة الغريزة ، محتاجٌ من البلاغة والصِّــناعة إلىٰ ما يحتاج إليه الآخر : لأن الكاتب يكون تارةً مبتــدئا وتارةً مجيبا ، وليست الإجابةُ بصناعةٍ علىٰ حِيالها ، ولاالبِداية بصناعةٍ علىٰ حِيالها ، بل هما كالنوعين لجنس ، ولا مَنْعَ من أن يكون الكاتب ماهرًا فى نوعٍ دُونَ نوعٍ .

قال : والكاتبُ لايكونُ فى الأمر الأعَمّ كاتبًا عن نَفْسه وإنما يكونُ كاتبًا عن آمرٍ يأمُرُه بالكتابة فى أغراضه ويسلّمها إليه منثورةً ، فيحتاج إلىٰ نظمها وضَمّها وإبرازِها فى صورةٍ محيطةٍ بجميع تلك الأغراضِ من غير إخلالٍ بشىءٍ منها ؛ فعلىٰ المبتــدئ من المَشَقّة فى إيراد أغراض المكتوب عنــه فى الصُّورة الجــامعة لهــا مع نَظْمها

---

(١) الظاهر أن كان زائدة والأصل وأن الكاتب قد يجيد الخ كما يفيده المعنى وآخر العبارة .

فى سِلك البلاغة مثلُ ما علىٰ المجيب من المَشقّة فى توفِيَة فصول كتاب المبتدئ حقّها من الإجابة والتصرُّف علىٰ أوضاع ترتيبها ، بَلْ كلفةُ المجيب قريبة ، لأنه يستنبِط من نفس معانى كتاب المبتدِئ للمعانِى التى يُجيب بها : لأن الجواب لا يخلو من أن يكونَ يوافقُ الابتداءَ أو يناقضه : فإن وافقه فالأمر سَهْل ، وإن ناقضه فإن كل نقيض قائمٌ فى الوهم علىٰ مقابَلةِ نقيضه ، إلا أنه أتعَبُ علىٰ كل حال من الموافق ، ولا شكَّ أن الجواب بتجزئته قد خفَّ تحمُّله : إذ ليس من يجمَعُ خاطِرَه علىٰ الفصل الواحد حتّى يخرج عن جوابه كمن يجمع خاطِرَه علىٰ الكتاب كُلِّه . ثم قال : وليس القَصدُ مما ذكرناه مناقضةَ مَشايخ صناعتِنا[1] ، ولكن القصدُ تعريفُ الحق الذى يجب اعتقاده والعمل عليه .

الجملة الثانية

(فى بيان ترتيب الأجْوِبة)

واعلم أن للجواب حالتين :

الحالة الأولىٰ — أن يكون الجوابُ من الرئيس إلىٰ المرءوس عما كتب به الرئيس إليه ، فالذى ذكره فى "موادّ البيان" أن للرئيس أن يَبْنِي حكايةَ كتاب مَرْءُوسه إليه فى جوابه علىٰ الاختصار ، ويجمع معانِيَه فى ألفاظٍ وجيزةٍ ، محيطةٍ بما وراءها كأن يقول : وصل كتابُكَ فى معنىٰ كذا وفهِمْناه .

الحالة الثانية — أن يكون الجواب من المرءُوس إلىٰ الرئيس عما كتب به الرئيسُ إليه ، قال فى "موادّ البيان" : والواجب فى هذه الحالة أن يَحكِيَ فصولَ كتاب

---

(١) فى الاصول "مشاح هنا عبثا" وهو تصحيف فظيع من الناسخ والتصحيح من الضوء .

رئيسه علىٰ نَصّها ويَقُصّها علىٰ وَجْهها من غير إخلالٍ بشيءٍ منها ، إعظامًا لقـدر الرئيس وإجلالًا لخطابه. قال: وليس للمجيب إن مرّ فى كتاب الرئيس بلفظة واقعة فى غير موضعها أن يُبْدِلها بغيرها : لما فى ذلك من الإشارة إلىٰ أن هذا أصحّ من كتابِ رئيسه فى ألفاظِه ومعانيه . قال : ولا يجوز الخروجُ عن حكاية لفظِ رئيسه فى كتابه بحال ، اللهم إلا ان يكون الكتابُ الواردُ علىٰ المجيب فى معنىٰ الشكر والتقْريظ من رئيسه له والثناءِ عليه فى قيامه بالخِدْمة ، فإنه لايجوز أن يأتى به علىٰ نصه : لأنه يصير بذلك مادحًا نَفْسَه ، ومدحُ الإنسان نفسَه غيرُ سائغ ؛ ولا يجوز أن يُهْمِل ذكره جملةً لأنه يكون قد أخلّ بما يجبُ من شُكْرِه له علىٰ تشريف رُتْبته بإحماده له والثّناءِ عليه، بل الواجبُ أن يُوقِعَ تلك الصفةَ علىٰ جملةٍ تجعل نفْسَه بعضا منها، مثل أن يقول : «فأما ماوصفه من اعتداده بخادمِه فى جملة مَنْ نَهض بحقوق خِدْمته ، وقام بفَرْض طاعته، فأهْله لما يَرْفع الأقدار من إحمادِه وثَنَائه، ويُعْلِى الأخطارَ من شُكْره ودُعائه» وما يضاهى هذا من العبارة التى تشتمل علىٰ معانى ألفاظِ رئيســه، فإنه إذا قصـد هـذا السبيل فى حكايةِ كتابِ رئيسه فى هذا المعنىٰ ، فقد جمع بين البلاغة والإتيان علىٰ معانى ألفـاظ رئيســه والأدَبِ فى ترك التفخيم لنَفْسه بإضافته لهـا إلىٰ جملةِ الخاصّة دُونَ إيقاع المَدْح عليها فقط .

قلت : هذا هو الترتيب الذى يجب اعتمادُه فى الأجوبة، فلايجوز الخروج عنه إلىٰ غيره ؛ علىٰ أن كُتّاب زماننا قد اطّرَحُوا النظرَ فى ذلك جمـلةً، وصاروا يكتُبون الأجوبةَ بحسَب التشّهى : فمنهم مَنْ يحكِى الكتابَ الذى يقَع الجوابُ عنه بنصـه مطلقا، سواءٌ كان من رئيس أومرءوس وبالعكس، مع قَطْع النظر عما وراء ذلك. فتنبه لهذه الجملةِ فإنها دقيقةٌ جليلةٌ .

الفصل الثانى

من الباب الأوّل من المقالة الرابعة

(فى ذكر أصول المكاتبات وترتيبها، وبيان لواحقها ولوازمها . وفيه طرفان)

الطرف الأوّل

(فى ذكر أصولها وترتيبها . وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(فى المكاتبات إلى أهل الإسلام)

وٱعلم أن المكاتبات الدائرةَ بين المسلمين من صَدْر الإسلام وإلى زماننا لا يأخُذُها حدٌّ، ولا تدخُل تحت حَصْر .

والمشهور ٱستعماله منها فى دواوين الإنشاء على ٱختلاف الأزمان خمسةَ عشرَ أُسْلُوبا .

الأسلوب الأوّل

(أن تُفْتَتَح الكتبُ بلفظ «من فلان إلى فلان»)

قال أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" : وأوّل مَنْ كتب بذلك قُسُّ بنُ ساعدةَ الإيادىُّ ؛ وعلى ذلك كانتْ مكاتباتُ النبىّ صلّى الله عليه وسلم والسلفِ من الصحابة والتابعين رضوانُ الله عليهم . فكان النبىّ صلّى الله عليه وسلم يكتُب: "من محمدٍ رسولِ الله إلى فلان". ثم كتب أبو بكر الصدّيقُ رضى الله عنه فى خلافته : «من أبى بكرٍ خليفة رسول الله صلّى الله عليه وسلم» . ثم كتب عمرُ بعْدَه : «من عُمَرَ

آبن الخطاب خليفةِ خليفــةِ رسول الله صلّى الله عليه وسلم إلىٰ فلان» . فلما لُقِّب بأمير المؤمنين زاد فى ذلك لفظ «عبدِ الله» قبل عُمَر، ولقَب «أمير المؤمنين» بعده؛ فكان يكتب : «من عبدِ الله عمرَ أميرِ المؤمنين إلىٰ فلان» . ولم يزل الأمرُ علىٰ ذلك إلىٰ خلافة هارونَ الرشيد، فأمر أن يُزاد فى صُدُور الكتب بعدَ «فإنّى أحمَدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو، وأسأله أن يُصلِّيَ علىٰ جدّه (١) محمدٍ عبده ورسوله» . فجرىٰ الأمرُ علىٰ ذلك فى زمنه ومابعده . قال أبو هلال العسكرىّ فى "الأوائل" : وكان ذلك من أجَلِّ مَنَاقبه . قال صاحب "ذخيرة الكُتَّاب" : وكان الرشيدُ قد قال ليَحْيىٰ آبن خالد : إنى قد عزَمْت علىٰ أن يكونَ فى كُتُبِي : « من عبدِ الله هارونَ الإمامِ أميرِ المؤمنين عبدِ رسول الله صلّى الله عليه وسلم » ـــ فقال له يحيىٰ : قد عرفَ اللهُ نيّتك فى هــذا يا أمير المؤمنين ! [وأجْزَلَ] لك الأجْر، والتعبدُ إنما هو لله وحْدَه لا لغيره ـــ قال : فاكْتُبْ « من هارونَ مَوْلىٰ محمدٍ رسول الله» ـــ فقال : إن المَوْلىٰ ربما كان فى كلام العرَب آبنَ العَمِّ ، وجزىٰ الله أميرَ المؤمنين خيرًا عن هــذه النية وهذا الفِكْر .

الأُسْــــلوب الثــانى

(أن يُفتَتَح الكتابُ بلفظ « لفلان من فلان » أو « إلىٰ فلان من فلان »
وبقيةُ الصَّدْر، والتخلصُ بـ«أما بعد» أوغيرها، والاختتامُ بالسلام
وغيره علىٰ ماتقدّم فى الأسلوب الأوّل)

وقد آختلف العلماء فى جواز الابتداء فى المكاتبة باسم المكتوب إليه : فذهب جماعةٌ من العلماء إلىٰ جواز ذلك، محتجِّين بأن الصَّحابةَ رضى الله عنهم وبعضَ الملوك

---

(١) لعله جدى، وسقط لفظ جده من عبارة الضوء وهى أوضح وأصرح .

كانوا يكتبُون إلىٰ النبيّ صلّى الله عليـه وسلم كذلك . كما كتب إليـه خالدُ بنُ الوليد والنجاشيُّ والمقوْقس فى إحدىٰ الروايات، علىٰ ما سيأتى ذكره فى المكاتبـات إلىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

وقد رُوِى أن رسولَ الله صلّى الله عليـه وسلم قال : "إذا كَتَبَ أحدُكُم فليَبْدَأْ بنفسـه، إلّا إلىٰ والدٍ أو والدةٍ أو إمام يَخافُ عُقُوبتَـه" وعن نافع قال : كانت لابن عُمَرَ إلىٰ معاويةَ حاجةٌ ، فقال له ولده : ٱبْدأْ به فى الكتاب، فلم يزالوا به حتّى كتب : «بسم الله الرحمن الرحيم، إلىٰ معاويةَ من عبدالله بن عمر». وعن الأوزاعىّ أنه كان يكتب إلىٰ عُمَرَ بن عبـد العزيز فيبدأ به فلا يُنْكِر ذلك . وعن سـعيد بن عبد العزيز قال : كتب عمرُ (يعنى ٱبنَ عبد العزيز) إلىٰ الحَجّاج، فبدأ بالحَجّـاج قبل نفســه ــ فقيلَ له فى ذلك ــ فقـال : بدأتُ به لأحْقِنَ دَمَ رجل من المسـلمين . قال سـعيد : فحقَن له دَمَه . وعن بكر بن عبد الله أنه كتب إلىٰ عاملٍ فى حاجة ، فكتب : «بسم الله الرحمن الرحيم، إلىٰ فلانٍ من بكْر» ــ فقيل له أتبدأ باسمه فقال : وما علىّ أن أُرْضِىَ صاحبِى وتُقْضىٰ حاجةُ أخى المسلم ؟ قال فى "صناعة الكُتّاب" : وعلىٰ ذلك جرىٰ التعارُفُ فى المكاتبة إلىٰ الإمام .

وذهب قوم إلىٰ كراهة ذلك ، لأنه مأخوذٌ عن ملوك العَجَم . قال ميمون ٱبن مِهْران : كان العجم يبدءُون بملوكهم إذا كتَبُوا إليهم . وقد رُوِى عن العلاء ٱبن الحضرمىّ أنه كتبَ إلىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم فبدأ بنَفْسـه . وعن الربيع ٱبن أنَسٍ قال : ما كان أحدٌ أعظَمَ حرمـةً من رسول الله صلّى الله عليـه وسلم وكان أصحـابه يكتُبون إليـه يبدءُون بأنفسهم . وعلىٰ ذلك جرىٰ فى "نهـايةِ الأرب" فقال : كان أصحابُ رسول الله صلّى الله عليـه وسلم وأمراءُ جُيوشـه يكتُبون إليه

كما يكتُب إليهم : يبدءُون بأنفُسِهم . وعن ميمون بن مِهْرانَ أنه قال : كان آبن عُمَرَ إذا كتب إلىٰ أبيــه كتب « من عبــد الله بن عُمَرَ إلىٰ عُمَر بن الخطّاب » . وعن يحيىٰ بن ســعيد القَطّان قال : قلت لسُفْيانَ الثوري : اكتب إلىٰ امير المؤمنين يعني المهديَّ ، قال : إن كتبتُ إليه بدأتُ بنَفْسي ـ قلت : فلا تَكْتُبْ إليه إذَنْ . وهــذه الأقوال كلها جانحةٌ إلىٰ ترجيح بُدَاءة المكتوب عنــه بنفسه . قال ابو جعفر النحاس : وهذا عنــد أكثر الناس هو الإجماعُ الصحيح ؛ لأنه هو إجماع الصحابة رضي الله عنهم .

ولْتَعْلَمْ أن الذاهبين إلىٰ جواز الابتداء باسم المكتوب إليه اختلفوا : فذهب قومٌ إلىٰ أنه إنما يكتبُ « إلىٰ فلان من فلان » كما تقدّم في كتاب آبن عمرَ إلىٰ معاويةَ ، ولا يكتبُ « لفلان من فلان » . وآستشهد لذلك بمــا رُوِي عن آبن عمرَ رضي الله عنه أنه قال : يكتُب الرجلُ «من فلان إلىٰ فلان» ولا يكتب لفلان؛ وبمــا رُوِي عن هُشَيْم عن المُغيرة عن إبراهيم انه قال : كانوا يَكْرَهون أن يكتُبوا «بسم الله الرحمن الرحيم لفلان من فلان » لكن قد رُوِي أن رجلا كتب عند ابن عمر « بسم الله الرحمن الرحيم لفلان من فلان» فقــال آبن عمر : مَهْ ! فإن آسم الله هو له إذَنْ . ومقتضىٰ ذلك أن الكراهةَ إنمــا هي لإيهام ان البسملةَ للمكتوب إليه ، لا للابتداء باسم المكتوب إليه .

وذهبت طائفــة إلىٰ جواز أن يُكْتَب « لفلانٍ من فلان » واحتجَّ لذلك بمــا رُوِي عن مالك بن أَنَس عن عبــد الله بن دينار أن آبنَ عمر كتب إلىٰ عبــد الملك ابن مَرْوانَ : « بسم الله الرحمن الرحيم أما بعدُ لعبد الله عبد الملك امير المؤمنين من عبدالله بن عمر» وهو ظاهر ، فقد كانت مكاتبةُ خالدِ بن الوليد والنَّجاشيِّ والمقَوْقس

« لمحمد رسول الله » على ما سيأتى ذكره . وعلى ذلك كانت المكاتبة(١) للخلفاء : فكان يُكتب لعمرَ بن الخطاب رضى الله عنه من عُمّاله وغيرهم « لعبد الله عمر امير المؤمنين» وعلى ذلك جرى الحال فى المكاتبة إلى سائر الخُلَفاء بعدَه على ما ستقف عليه فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

الأُسْلُوب الثالث

(ان يفتتح الكتابُ بلفظ اما بعد)

وعليه ورد بعضُ المكاتبات الصادرةِ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وعن الخلفاء من الصحابة فمن بعدهم فى صدر الإسلام على ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

وكانوا بعد حُدُوث الدعاء فى المكاتبات يُتْبِعونها بالدعاء بطُول البقاء غالبا، فيقال : « أما بعدُ أطال الله بقاءَك» ونحو ذلك ؛ ثم أَضْربَ عنها بعضُ الكُتّاب بعد ذلك . قال أبو هلال العسكرىّ : فى كتابه "الصناعتين" : وكان الناس فيما مضى يستعملون فى أوائل فصول الرسائل « أما بعدُ » وقد تركها جماعةٌ من الكُتّاب فلا يكادون يستعملونها . قال : وأظنّهم ألمّوا بقول ابن القِرِّيّة ـ وقد سأله الحجاجُ عما يُنكِره من خَطَابته ـ فقال : إنك تُكثِر الرّدّ، وتشير باليَد، وتستعين بأمّا بعد. فتحامَوْها لهذه الجهة . ثم قال : فإن استعملتها اتّباعا للسلف ورغبةً فيما جاء فيها من التأويل أنها فصلُ الخطاب، فهو حَسَن ؛ وإن تركتها توخّيا لمطابقة أهل عصرك، وكراهةً للخروج عما أصّلوه لم تكن ضائرا . أما الآنَ فقد تُرِكَ الابتداءُ فى الكتب بأما بعد

---

(١) فى الاصل وعلى كل حال وهو سبق قلم كما هو ظاهر .

حتّى لا يكاد يُعوِّل عليها فى الابتداء كاتبٌ من كُتّاب الزمان ، ولا يَفتتح بها مكاتبة . نعم يؤتىٰ بهافى أثناء بعض المكاتَبات علىٰ ماسيأتى ذكره إن شاء الله تعالىٰ .

وقد تقــدّم الكلام علىٰ معناها وأوّلِ مَنْ قالهـا فى الكلام علىٰ الفواتح فى المقالة الثالثة ، وكُتّابُ المغاربة ربمـا افتتحوا مكاتباتِهم بلفظ وبعدُ .

الأســـــلوب الرابع

(أن تفتتح المكاتبةُ بخُطْبة مفتتَحة بالحمدُ لله)

وأصلُ هذه المكاتبة مختَلَسٌ من الأُسلوب الأوّل من قولهم : فإنّى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . ثم جاء عبدُ الحميـد بنُ يحيىٰ كاتبُ مَرْوانَ بن محمد : آخر خلفاءِ بنى أُميّــة ، وأطال التحميداتِ فى صُــدُور الكُتُب مع الإتيان بأما بعــدُ ، وتَبِعه الكُتّاب علىٰ ذلك ؛ ثم توسّعُوا فيــه حتّى كَرّروا الحمــدَ المرّاتِ فى الكتاب الواحد ، لاسيمـا فى أماكن النِّعم الحادثة ، كالفُتُوحات ونحوها ؛ ثم توسّع بعضُ الكُتّاب فى ذلك حتّى جعل الحمــدَ لله افتتاحا ، واستمرّ ذلك إلىٰ الآنَ . وعلىٰ ذلك بَعضُ المكاتبات السـلطانية فى زماننا ، علىٰ ماستقِف علىٰ ذلك جميعه فى مواضعه إن شاء الله تعالىٰ .

ولا خفاءَ فى أن الحمدَ أفضلُ الافتتاحات ، وأعلىٰ مراتِب الابتداآت ، وإن لم يقع الابتداء به فى صَدْر الإسلام ، فهو من المبتَدَعات المستحسَنَة . وحيث افتتحت المكاتبــةُ بالحمد لله كان التخَلُّص منها إلىٰ المقصود بأما بعدُ ؛ وربمـا وقع التخَلُّص بغير ذلك ، ويكون الاختتامُ فيها تارةً بالسلام ، وتارةً بالدّعاء ، وتارةً بغير ذلك . قال ابن شيث فى " معالم الكتابة " : والتحميدُ فى أوّلِ الكُتُب لايكونُ إلا فى الكُتُب

المكتوبة عن السلطان . قال : وغاية عظَمَة الكاتب أن يكرِّر التحميدَ ثانيةً وثالثةً في الكتاب، ثم يذكر الشهادتين والصلاةَ على النبيّ صلّى الله عليه وسلم .

قلت : والتكرار في الحمد يكون بحسَب مقدار النعمة المكتوب بسببها من فتح ونحوه .

الأســلوب الخامسُ

(أن تَفتَتِح الكتابَ بلفظ « كتابي إليك » أو « كتابُنا إليك من موضع كذا، أو في وقت كذا والأمر على كذا » وتشرح القضية، وتختِمَ المكاتبةَ « بكتابُنا إليك» بنحو قولك : «فإن رأيتَ أن تفعلَ كذا فعلت» والمكاتبةَ « بكتابي إليــك » بنحو قولك : «فرأيَك في كذا » وما يجري هــذا المجرى)

والأصلُ في هذه المكاتبــة أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسـلم كان يكتُبُ في بعض المكاتبات الصادرة عنه : « هذا كتابٌ من محمدٍ رسولِ الله إلى فلانٍ، أو إلى الجماعة الفلانيين » . فلما كان أيامُ بني بُوَيه في أثناء الدولة العباسية ، آستخرج كُتّابها من هذا المعنى الآبتــداءَ « بكتابي إليك » إذا كانت المكاتبةُ إلى النظير ومَنْ في معناه، والآبتداءَ « بكتابُنَا إليك » إذا كانت المكاتبةُ عمّن له رتبــةُ نونِ العظمة من الملوك ونحوهم ؛ وكانوا يُتبِعون ذلك بالدعاء بطُول البقاء نحو «كتابِي إليكَ أطال اللهُ بقاءك» أو « كتابُنا إليك أطالَ اللهُ بقاءَك » . وربـما عبر «بهذه الخِدْمةُ»(١) وما أشبه ذلك ؛ ويكون التخلُّص فيه إلى المقصِد بواو الحال، مثل أن يقال : « كتابي إليك والأمْرُ على كذا وكذا» ونحو ذلك ؛ وربما وقع التخلُّص بخلاف ذلك . ويكون الآختتام فيه

---

(١) أي عبر بدل كتابي اليك مثلا بقوله «هذه الخدمة إليك» كما يؤخذ مما يأتي في الاسلوب الحادي عشر

تارةً بالسلامِ وتارةً بالدعاء ، وتارةً بغير ذلك . وكُتَّاب المغرِب عدَلُوا عن لفظ الاسم فى كتابى إلىٰ لفظ الفعل . مثل أن يقال : «كتبنا إليك» او «كتبتُ إليكَ والأمرُ علىٰ كذا» او من موْضِع كذا» .

الاســـلوب السادس

(ان تقع المكاتبة بلفظ «كَتَب» بصيغة الفعل)

وهذه المكاتبة كان يُكْتَب بها عن الوزراء ومَنْ فى معناهم إلىٰ الخُلَفاء . فيكتب الوزير ونحوه : «كتَبَ عبدُ أمير المؤمنين» او «كتب العبدُ من مَحَلِّ خدمته بمكان كذا ، والأمر علىٰ كذا وكذا» . وعلىٰ نحوٍ من ذلك يجرِى كُتَّاب المغـاربة فى الكثير من كُتُبهم ، مثـل «إنا كتبْنا إليكم من محلِّ كذا» او «كتبتُ إليك من محـلِّ كذا» وما أشبه ذلك . وهذه فى الأصل مأخوذةٌ من الأُسْلوب الذى قبلُ .

الأسلوب السابع

(أن يقع الافتتاحُ بالدعاء)

والأصل فى ذلك ماحكاه ابو جعفر النحاسُ : ان معاويةَ بنَ أبى سفيانَ كتب إلىٰ امير المؤمنين علىّ بن ابى طالب رضى الله عنه عند جَرَيان الخلاف ووُقُوع الحَرْب بينهما : « أما بعـدُ عافانا اللهُ وإيَّاكَ من السُّوء » . ثم زاد الناس فى الدعاء بعـــد ذلك .

وقد اختُلِف فى جواز المكاتبة بالدُّعاء فى الجملة : فذهب ذاهبُونَ إلىٰ جواز ذلك كما يجوز الدُّعاء في غير المكاتَبة ، سواءٌ تضمن الدعاءُ معنىٰ الدوام والبقاء ام لا . وهو

الذى رجّحه محمدُ بن عمرَ المدائنىّ فى كتاب "القلم والدواة" وإليه يَميل كلامُ غيره أيضا، وحكاه النحاسُ عن أبى جَعْفرٍ احمدَ بن سلامة، وكلامه يَميل إلى ترجيحه. أما ما يتضمن معنى الدّوام والبقاء، فلما رُوِى أنّ النبىّ صلّى الله عليه وسلم قال لأبى اليَسَر كَعْب ٱبنِ عُلَيّة[1]: "اللهم أمْتِعْنا به" قال النحاس: وذلك دليلُ الجَوَاز، بل حُكى عن بعضهم أنّ الدعاء بطول البقاء أكْمَلُ الدعاء وأنْفَعه، لان كل نعمة لايُنْتفَع بها إلا مع طُول البَقاء. ثم قال: والمعنى فى الدُّعَاء فى المكاتبات التودُّد والتحبُّب، وقد أمر صلّى الله عليه وسلم المسلمين أن يكونُوا إخوانًا، ومن أُخُوّتهم وُدُّ بعضهم بعضا. وكذلك القولُ بما يؤكّد الأُخُوّة بينهم والمودّةَ من بعضهم لبعض، وإذا قال له ذلك، كان قد بلغ من قَلْبه نهايةَ مبلَغ مثله منه؛ ويكون مَنْ قال ذلك قد عَلِم من قَلْبه فى شأنه مايكونُ من قَلْب مثله. وقد قال الشيخ محيى الدين النووىّ: من قال لصاحبه — حِفْظا لمودّةٍ —: «أدامَ اللهُ لك النِّعَم» ونحو ذلك فلا بأس به.

واما ما لم يتضمن معنى الدوام والبقاء: كالعِزّ والكَرامة، فقد روى عن كعب ٱبن مالك رضى الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال: «مَنْ رأى مِنْكُم مَقْتَلَ حمزةَ؟ فقلتُ: أعَزّكَ اللهُ! أنا رأيتُه». وعن أنس بنِ مالك رضى الله عنه قال: دخل جريرُ بنُ عبدالله على النبىّ صلّى الله عليه وسلم، فَضَنّ الناسُ بمَجالسهم فلم يُوسِّع له أحدٌ، فرمى له رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم بُرْدَته وقال ٱجْلِسْ عليها ياجريرُ، فتلقّاها بوجْهه ونَحْرِه فقبّلَها ثم ردّها على ظَهْره، وقال: أكْرمَكَ اللهُ

(١) سبق فى صفحة ٢٩٢ من هذا الجزء كعب بن عبيد الله والذى فى "خلاصة تذهيب تهذيب الكمال" للخزرجى ص ٣٢١ أنه كعب بن عمرو بن عباد بن عمرو بن غزية بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة الانصارى السلمى بالفتح أبو اليسر بفتح التحتانية عقبىّ بدرىّ جليل. فلعل علية اسم أمه.

يارسول الله كما أكرمتني» فقد دعا له صلّى الله عليه وسلم كعبُ بنُ مالك بالعز، وجريرُ ابنُ عبد الله بالكرامة ولم يُنكِرْ ذلك على واحدٍ منهما .

وذهب آخرون إلى أنه لاتجوزُ المكاتبة بالدّعاء، سواء تضمّن معنى الدوام والبقاء أم لا : لأنه خلافُ ماوردَتْ به السنة وجرى عليه اصطِلاح السَّلَف .

وفَصَّل بعضُهم فقال : إن كان الدعاء مما لايتضمّن معنى الدوام والبقـاء نحو «أكرمَك اللهُ بطاعته» و «تولّاك بحِفْظه» و «أسعدك بمعرفته» و «أعزّكَ بنَصْره» جاز، لحديثى كَعْب بن مالك وجَرِير بن عبد الله المتقدّمين . وإن كان مما يتضمّن معنى الدوام والبَقَاء، نحو «أطال الله بقاءَك» و «نَسَأَ أجَلَك» و «أمْتَعَ بك» وما أشبه ذلك، لم تجز المكاتبةُ به .

وآحتَجّ لذلك بحديث عبـد الله بن مسعود رضى الله عنـه "أنَّ أُمّ حبيبةَ بنتَ أبي سُفيانَ، زوجَ النبيّ صلّى الله عليه وسلم قالت : اللهُمَّ أمْتِعْني بزَوْجي رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم وبأبِي أبِي سفيانَ وبأخِي مُعاويةَ ـ فقال لها رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم : لقد دعَوْتِ اللهَ لِآجالٍ مَضْروبةٍ، وأرْزاقٍ مقسومةٍ لايتقدّمُ منها شيءٌ قبلَ أجَلِه ولا يتأخر بعد أجَله ! ولو سألْتِ اللهَ أن يَقِيَك عَذابَ النار لكان خَيْرًا لك" وبما رُوِى أن الزُّبيرَ بنَ العوّام رضى الله عنه ! قال للنّبيّ صلّى الله عليه وسلم : « جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ » . فقال له النبيُّ صلّى الله عليه وسلم : « أما تَرَكْتَ أعْرابِيّتَكَ بَعْدُ؟ » فقد أنكر صلّى الله عليه وسلم على أمّ حبيبة والزبير الدعاءَ بما فيه طولُ البقاء؛ وإذا آمتنع ذلك فى مُطْلَق الدعاء، آمتنع فى المكاتَبة من بابِ أوْلى : لمخالفة طُرُقها التي وردت بها السنةُ . قال حَمّادُ بن سلمة : كانت مكاتبةُ المسـلمين « مِن فلانٍ إلى فلانٍ، أما بعـدُ سلامٌ عليك فإنى أحمدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلهَ إلا هو وأسألُه

أن يصلِّ على محمد عبده وآلِ محمد » حتى أحدث الزنادقةُ ـ لعنهم الله ـ هذه المكاتبةَ التى أوّلُهـا « أطال الله بقاءَكَ » .

وعن إسماعيل بن إسحاق أنّ أوّل من كتب « أطال اللهُ بقاءَك » الزنادقةُ . وقد قال الإمام الرافعىّ وغيرُه من أئمة أصحابنا الشافعية : إن الدعاء بالطَّلْبَقَة ـ وهى أطال الله بقاءك ـ لا أصلَ له فى الشرع . قال الشيخ محيى الدين النووىُّ : وقد نصّ السلفُ على كراهته . ونقل النحاسُ عن بعضهم : أنه آستحبَّ تقييدَه بالإضافة إلى شىء آخَر، مثل أن يكتب « أطـالَ اللهُ بقاءَك فى طاعته وكَرَامته» أو «أطال الله بقاءَك فى أَسَرّ عَيْش وأنْعَم بال» وما أشبه ذلك .

وآعلم أنّ الناس قد آختلفُوا فى صُورة الآبتداء بالدعاء : فالأوّلُون ـ لآبتداع الدُّعاء فى المكاتبَات ـ كانوا يفتتِحُون بطُول البَقَاء للخلفاء وغيرهم؛ ثم توسّعت الطبقةُ الثانيةُ من الكُتّاب فى المكاتبـة فافتتحُوا بالدعاء للخلفاء والمُلُوك بخلود المُلْك، ودوامِ الأيامِ، ودوامِ السُّلْطان وخلوده، وما فى معنى ذلك؛ ولمن دُونَهم بعد النَّصر والنُّصْرة والأنصار بدوام النِّعمة وخُلُود السّـعادة ومَدّ الظِّل وإسباغ الظِّلال، وغير ذلك مما يأتى ذكرُه فى الكلام على مصطَلَح كل طبقة فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

ثم للكُتّاب فى الخِطاب(1) بالدُّعاء مذهبان :

أحدهما ـ أن يقع الدعاءُ بلفظ الخِطَاب، نحو «أطالَ اللهُ بقاءَكَ، وأعزّكَ الله، وأكرمكَ اللهُ، وأدامَ كرامتَكَ وسَعادتَك» وما أشبه ذلك .

والثـانى ـ أن يقع بلفظ الدعاء للغائب مثل : « أطال اللهُ بقاءَ أمير المؤمنين» و«أطال الله بقاءَ سيِّدى» و«أطال اللهُ بقاء مَوْلانا» أو«أعزّ اللهُ أنصار المَقَام أو المَقَرّ»

(1) كذا فى الأصول ولعله فى الاتيان بالدعاء الخ .

أو « ضاعف اللهُ تعـالىٰ نعمةَ الجَنَاب» أو « أدام الله نعمةَ الجَنَاب أو المجلس » وما أشبه ذلك .

قال فى "صـناعة الكتّاب" : وهو أجلُّ الدعاء فيما آصطلَحُوا عليـه . قال : ورأيتُ علىَّ بن سليمان يُنْكِر ذلك ويقول : الدعاءُ للغائب جَهْل باللُّغة، ونحن ندعو الله عز وجل بالمخاطبة .

الأُسلُوب الثامن
(أن يُفْتتح الكتابُ بالسلام)

ويقع التخلُّص إلىٰ المقصود بلفظ « ونُبْدِى لعلْمه» أونحو ذلك، ويقع الآختتام فيه بالسـلام أيضا ؛ وهو منتزَع من قولهم فى صَدْر المكاتبة فى الأسلُوب الأوّل : سـلامٌ عليكَ فإنِّى أحمدُ إليك اللهَ ؛ تصرّف الكُتَّاب فيـه فجعلوا السـلامَ فى آبتداء المكاتبـة، وصاروا يبتدئونها بنحو سلامُ اللهِ ورحمتُـه وبركاتُه . وقد كانوا يبتدئُون المكاتبـة إلىٰ الخلفاء ببغداد فى الدولة الأيُّوبيـة بالديار المصرية بالسلام فى بعض الأحيان ؛ وعلىٰ ذلك آستقرّت المكاتبـةُ عن الخليفة الآنَ . وبه يُفْتَتح بعضُ المكاتبـات إلىٰ مشايخ الصُّوفيّـة ، علىٰ ما سيأتى فى الكلام عليـه فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ .

قال فى "صناعة الكُتَّاب" : وإنمـا قدّمُوا السلامَ علىٰ الرحمة لتصَرُّفه : لأنه من أسماء الله تعالىٰ أو جمعُ سلامة . قال فى "موادّ البيان" : أو آسمٌ للجَنّة كما فى قوله تعـالىٰ : ﴿ لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ثم عَقّب ذلك بأن قال : والسلام فى هذا الموضع من السَّلَامة ، وتقديمُ السلامة التى تكونُ فى الدنيا أولىٰ من تقـديم الرحمة التى تكون فى الآخرة .

الأســـلوب التاسع

(أن يُفتتح الكتابُ بيُقبِّـل الأرض)

ويتخلص إلى المقصود بلفظ « وينهى » ويقع الاختتام بـ«طالَع » أو « أنهى »
وهذه المكاتبةُ مما هو موجودٌ فى بعض مكاتَبات القاضى الفاضل، ولم أرها فيما قبله؛ وكأنهم لما آستعملُوا فى صُدُور المكاتبات إلى الخلفاء المكاتبةَ بيقبل الأرضَ والعَتَباتِ ونحو ذلك ، آستنبطُوا منه آبتداءَ مكاتبةٍ وجعلُوها لمكاتبة الرُّؤساء من السلطان ومَنْ فى معناه بالنِّسبة إلى المرءُوس . والأصلُ فى ذلك أن تحيَّةَ الملوك والرُّؤساء والأكابر فى الأمم الخالية كانت بالسُّجُود ، كما يُحيِّى المسلمون بعضُهم بعضا بالسلام . وقد قال قتادةُ فى قوله تعالى حكايةً عن إخْوة يوسفَ عليهم السلام : ﴿ وخَرُّوا لَهُ سُجَّدا ﴾ : كانت تحيَّـةُ الناس يومئذ سُجُودَ بعضهم لبعض. وعليه حُمِل قولُه تعالى : ﴿ وإذْ قُلْنَا للمَلَائِكَةِ آسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ على أحد التفاسير، وهو المرَجَّح عند الإمام فخْر الدين وغيره من المفسِّرين . قال الشيخ عمادُ الدين بنُ كثير رحمه الله فى تفسيره : وكان ذلك مَشْروعًا فى الأمم الماضية ولكنه نُسِخ فى مِلَّتنا . قال معاذٌ «يارسولَ الله ! إنِّى قَدِمت الشامَ فرأيتُهمْ يَسْجُدُون لِأَسَاقِفَتِهِمْ وعلمائِهم فأنْتَ يارسولَ الله أحقُّ أن يُسْجَدَ لك . فقال : [لا][1] لو كنت آمرًا بَشَرا أن يَسْجُدَ لبَشَرٍ لأَمَرْتُ المرأةَ أن تَسْجُدَ لبَعْلِها من عظم حَقِّه عَلَيْها» . وعن صُهَيْب : «أن مُعاذًا [لما][2] قَدِم من اليمن سَجَد للنبىّ صلَّى الله عليه وسلم فقال يامعاذُ [ماهذا ؟ قال][2] إن اليهودَ تَسْجُد لعُظَمائها وعُلَمائها، ورأيتُ النصارى تَسْجُد لقِسِّيسِيها وبَطَارِقَتِها، قلتُ ماهــذا ؟ قالوا تَحِيَّةُ الأنبياء ــ فقال عليه السلام : كَذَبُوا على أنْبِيائهم » .

---

(١) الزيادة عن تفسير آبن كثير .

(٢) الزيادة عن مفاتيح الغيب للفخر الرازى .

وعن سفيانَ الثورىّ عن سِمَاكِ بنِ هانئٍ قال : دخل الجَاثَلِيقُ على علىّ بن أبى طالب، فأراد أن يَسْجُدَ له، فقال له علىٌّ : أُسْجُدْ لله ولا تَسْجُدْ لِى .

فلما وردتْ شريعةُ الإسلام بنسخ التحيّة بالسجود وغلبَ ملوكُ العَجَم على الأقطار، آستصْحَبُوا ما كان عليه الأمرُ فى الأمم الخالية، وعَبّروا عنه بتَقْبِيل الأرض فِرارًا من آسم السُّجود ولورود الشريعةِ بالنهْىِ عنه ؛ وآستمر ذلك تحيةَ الملوك إلى الآنَ، فاستعار الكُتّاب ذلك ونقَلُوه من الفعل إلى اللّفْظ، فاستعملوه فى مكاتباتهم إلى الخُلَفاء والملوك ؛ ثم تَوسّعُوا فى ذلك فكاتَبُوا به كلَّ مَنْ له عَظَمة بالنسبة إلى المكتوب عنه، ورتّبوه مراتبَ على ماسيأتى بيانُه فى موضعه إن شاء الله تعالى . ولا خَفَاء فيما فى هذه المكاتَبة من الكَرَاهة .

الأسلوب العاشر

(أن يُفتَتَح الكتابُ بيقَبِّل اليد وما فى معناها من الباسِط والباسطةِ)

ويقع التخلُّص منه إلى المقصود بما يقَعُ به التخلصُ فى الأسلوب الذى قبله من الإنهاء ؛ ويُخْتَمُ بالدعاء ونحوه .

والأصلُ فى هذه المكاتبة أنّ يُقَبِّل اليدَ وما فى معناها مما يُؤْذن بالتعظيم، والتبجيل والتكريم، وعُلُوّ القدر وزيادة الرفعة، مع أنه ليس بممنوع فى الشّريعة . فقد ثبتَ فى الصحيحين فى حَديثِ الإفك : «أنه لما أنزلَ اللهُ تعالى بَرَاءَةَ أمّ المؤمنين عائشةَ رضى اللهُ عنها، قال لها أبُوها : قُومى إلى النّبىّ صلّى الله عليه وسلم فقَبِّلِى يَدَهُ» . ولم يكن الصدّيقُ رضى الله عنه لِيأْمُرَها بما هو ممنوعٌ فى الشريعة . وقد نَصّ الفقهاءُ

رحمهم الله على أنه يجوز تَقْبِيــلُ يَدِ العالم والرجُلِ الصالح ونحوهما، فاستعار الكُتّاب ذلك ونقلُوه من الفعل إلى الكتابة أيضا، كما فعلُوا فى تَقْبِيل الأرض، ورَتّبوه مراتبَ على ما سيأتى ذكرُه فى موضعه إن شاء اللهُ تعالى . على أنَّ بعض الكُتّاب قد جعــل يُقَبِّل القَدَم رتبــةً بين يُقَبِّل الأرضَ ويُقَبِّــل اليد وما فى معناها، وهو ظاهر لكنه لم يشتهر فى عُرْف الكُتّاب .

الأُسلوب الحادى عشر

(أن يُفْتَتح الكتابُ بلفظ « صدرتِ المكاتبةُ »)

ويتخلص فيهــا إلى المقصود بلفظ «وتُوضِّح لعلمه» أو «مُوضِّحة لِعلْمه» وما أشبه ذلك . ويقع الاختتامُ فيهــا بمثل « واللهُ الموفِّق» ونحوِ ذلك . وربمــا قيل فيها : «أصْدرَتْ هذه المكاتبةُ» أو «أصدرْناها» .

وأصل هذه المكاتبــة أنه كان يُكتَب فى الدَّوْلة السَّلْجُوقيَّة ببغداد، والدولة الأيوبيَّة بالديار المصرية « صدرت هذه الخدمة » أو « أُصْدِرَتْ هذه الخدمة » . وربمــا كتب « صدَرَتْ هذه الجملة » فعدل عنه كُتّاب الزمان بالديار المصرية ومن قارَبَهم إلى التعبير بقولهم : « صَدَرَتْ هذه المكاتَبةُ » . على أن كُتّاب الزمان بالديار المصرية إنمــا أخذُوها من صُدُور المكاتبات المفتَتَحة بالدعاء : مثل أعَزَّ الله أنصار المَقَرّ، حيث يقال فى تصديرها « أصْدَرْناها » ومثل «ضاعفَ اللهُ نعمةَ الجَنَاب» و «أدامَ اللهُ نعمةَ الجَنَاب أو المجلس» وما أشبه ذلك ، حيث يقال فى تصديرها : « صدرَتْ هذه المكاتبةُ » فجعلوا الصُّدُور ابتداء .

الأُسلُوب الثانى عشر

(أن يفتتح الكتاب بلفظ « هذه المكاتبـــة »)

ويتخلص منهـا إلىٰ المقصُود بنحو ما وقع التخَلُّص به فى الأُسْـلوب الذى قبله، ويقع الاختتامُ بمثل ما وقع به اختتامُه .

وهذه المكاتبـةُ مأخوذةٌ فى الأصـل من ابتدائهم فى الأُسْلوب الخامس بلفظ : « كتابِى إليك » وما فى معناه ، علىٰ أنَّ كُتَّاب الزمان إنما أخذُوا ذلك من المكاتبة التى قبلها، فجعلوا بعضَ الصَّدْر فيها ابتداءً، كما جعلوا جميعَ الصَّـدْر ابتداءً فى الأُسلوب الذى قبلهـا .

الأسلوب الثالث عشر

(أن يفتتـــح الكتاب بالإعلام)

كما يكتُب كُتَّاب الزمان : « يعلَمُ فلانٌ أنَّ الأمر كذا وكذا » والاختتامُ فيها بمثل الأسلوبين اللَّذين قبلها ولا تخلُّص فيها، لأن الافتتاحَ فيها موَصِّل إلىٰ المقصود . علىٰ أن الصواب إثباتُ اللام فى أوّلها، بأن يقال : «لِيَعْلَمْ فلان» لأن لام الأمر لايجوز حذفها علىٰ ماتقرَّر فى آخر المقـالة الثالثـة . وعلىٰ ذلك كتب غازانُ أحدُ ملوك بنى جنكزخان ببغداد وما معها إلىٰ الملك النـاصر « محمد بن قلاوون » صاحبِ الديار المصرية،وكُتِب الجوابُ عن الملك الناصر إليه كذلك،علىٰ ماسيأتى ذكرُه فى موضعه إن شاء الله تعـالىٰ .

الاسلوب الرابع عشر
(أن يفتتح الكُتّابُ بلفظ « يخــدُم »)

مثل « يخْدُم الجنابَ » أو « يخدُمُ المجلس » وما أشبه ذلك . ويكون التخلُّص منها بمثل : « ويُنْهِى » أو « ويُبْدِى » ونحو ذلك ؛ ويقع الآختتام فيها بالدعاء .

وهذه المكاتبةُ كانت مستعملةً فى مكاتبات الفاضل بِقلّة ، وتداولها الكُتّاب بعدَ ذلك إلىٰ أن صارت مستعملةً بين الكُتّاب فى المكاتبات الدائرةِ بين أهل الدَّوْلة فى زماننا ؛ ثم رُفِضَتْ بعد ذلك وتركتْ حتّى لم يستعملها منهم إلا القليلُ النادرُ .

الأسلوب الخامس عشر
(أن يُفْتتح الكتابُ بلفظ الخِلَافة أو المَقَام الذى شأنُهُ كذا ، أو الإمارة التى شأنُهـا كذا)

مثل : « خلافة فلان » أو « مَقَام فلان » أو « إمَارَة فلان » وما أشبه ذلك . ثم يقع التخلُّصُ فى ذلك بمثـل : « معظِّم مقامها يَخُصها بسلامٍ صِفتُه كذا ويبدى لعلمها كذا » وما أشـبه ذلك . ويقع الآختتام فيهـا بالسلام ؛ وهـذا الأسلوب ممـا آختص به كُتّاب المغرب لا سيما المتأخّرون منهم ، علىٰ ما سيأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : ووراء هـذه الأساليب أساليبُ أُخرىٰ لكُتّاب أهـل الشّرق والغَرْب بالديار المصرية فى الأزمنة المتقدّمة ، لا يأخُذُها حصر ، ولا تدخُل تحتَ حَدّ ، وأكثر ماتكون فى الإخوانيات ، وسيأتى ذكرُ الكثير من أنواعها فى مواضعه فيما بعدُ إن شاء الله تعـالىٰ .

الجمـــلة الثـانية
(فى المكاتبَات إلىٰ أهل الكُفر ، وللكُتّاب فيه أُسْلوبانِ)

الأُسْلوب الأوّل
(أنْ تُفتَتح المكاتبـةُ بلفظِ «من فلانٍ إلىٰ فلان»)

وعلىٰ ذلك كتب النبيّ صلّى الله عليه وسـلم إلىٰ أهل الكُفر ، وكان يكتُب فى مكاتباته صلّى الله عليه وسـلم : «السلامُ علىٰ مَنِ ٱتّبَعَ الهُدىٰ» بدل «والسلام» ويتخلّص فيها بأمّا بعدُ تارةً ، وبغيرها أُخرىٰ ؛ وعلىٰ ذلك جرىٰ الخلفاءُ من الصحابة رضى الله عنهم ، وخلفاءُ بنى أُمَيّة ، وخلفاءُ بنى العَبّاس ببغداد ، ومَنْ شاركهم فى الأمر من ملوك بنى بُوَيْه وبنى سَلْجُوق ومَنْ فى معناهم . وتُختَتَم هـذه المكاتبة تارةً بلفظ «والسلامُ علىٰ مَنِ ٱتّبع الهدىٰ» إن لم يذكر السلامُ فى الأوّل ، وتارة بغير ذلك .

الأسلوب الثـانى
(أنْ تُفتَتح المكاتبـــةُ بالدعاء)

كما يكتُبُ كُتّاب الزمان «أطـال الله بقاء الحَضْرة الفلانية : حضرة المَلِك الفُلَانى» أو « أطال اللهُ بقاءَ الملِكِ الفلانى » وما أشبه ذلك . وقد تقدّم الخلافُ فى أصل جواز المكاتَبة بالدُّعاء ، وما قيل فى الدعاء بطُول البقاء وما فى معناه : من الكراهة ، وأن جماعةً من العلماء والكُتّاب أجازُوه .

فإن قيل : علىٰ تقدير جواز ذلك فى حَقّ المسلم ، فكيف يجوزُ فى حَقّ الكافر . فالجواب أنه قد ورد « أنّ النبيَّ صـلّى الله عليه وسـلم ٱستَسْقىٰ فسقاه يهودِىٌّ ،

فقال له : جَمَّلك اللهُ، فما رُؤِىَ الشَّيْبُ فى وَجْهه حتّى مات» فقد دعا صلّى الله عليه وسلم ليُهودىٍّ بالجَمَال ، وقد لا يكون فى طول بقائه علىٰ الإسلام ضَرَرٌ، بل قد يكون فيه نَفْع، كحَمْل جِزْية ونحوه، وإنما يُمنَعُ الدعاء له بالعِزّ والنَّصر وما فى معنىٰ ذلك .

تنبيه — اعلم أن الأجوبةَ قد تُفْتَتَح بمـا تُفْتَتح به الآبتـداءاتُ من الأساليب المتقدّمة ، ثم يُؤتىٰ بالأجوبة فى أثنائها مثل أن يقال : « وقد وصل كتَابُ المَجْلس أو الجَنَاب» أو «وردتْ مكاتبتُه» أو «عُرِضَتْ مكاتبتُه علىٰ أمير المؤمنين، أو علىٰ المَسَامع الشريفةِ» وما أشـبه ذلك . وقد يُجْعَل الجوابُ آبتداءً ، فيُفْتَتَح الكتّاب بنحو : «عُرِضَتْ مكاتبتك علىٰ أميرالمؤمنين» مثلا كما كان يكتب فى الزمن المتقدِّم، أو «عُرِضت المكاتبةُ الواصلةُ من جهة المَجْلِس أو الجنـاب الفلانى علىٰ المَسَامع الشريفة» أو « وردتْ مكاتبتُه » أو « وصلَتْ مكاتَبَتُه » ونحو ذلك ، ويؤتىٰ علىٰ ما تضمّنته المكاتبةُ وما آقتضاه الجوابُ عنه، ثم يؤتىٰ فى الآختتام بنظير ما يُؤْتىٰ به فى المكاتبة المبتَدَأة .

الطـــــرف الثـانى

(فى ذكر لواحق المكاتبات ولوازمها ، وفيه ستُّ جمل)

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى التَّرجمة عن المكتوب عنـــه)

أما التَّرجمة عن السلطان ، فقد ذكر آبن شيث أنَّ مصطلَح الدولة الأيوبيّة أنْ يَكْتُبَ لأرباب خِدْمته العلامة فإنها أليقُ به معهم . فإن أراد تمييزَ أحدٍ منهم، كتب له بخطه شيئا مكانَ العلامة؛ وأن ترجمته للفقهاء والقُضاة وذَوِى التنَسُّك «أخوه»

و « ولده » . وذكر أن الأحسن أن يقال فى «ولده» « محل ولده » لقوله تعالىٰ : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ أما «أخوه» فلا حَرَج عليه فيه : لقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وقوله : ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ وذكر أنه يتَرْجَم لهؤلاء من ولىّ الأمر أيضا : « المعتَرِف ببركَتِــه » و « المُتبرِّك بدعائه » و «المرْتَهِنُ بمودّته » . وذكر أن الفقهاء والقضاة وذَوِى التنسُّك يتَرْجُمون عن أنفُسِهم بـ«ـالخادم» ودُونَ ذلك «خادمُه» .

قال : وربمــا ترفَّعوا عن الترجمة بهــذه اللفظة مطلقا فقالوا : « الخادِمُ بالدُّعاء الصالح » أو « الخادِمُ بدُعائه » . قال : وأهل الوَرَع خاصةً يترجمون بـ«ـالفَقِير إلىٰ رحمةِ الله» . وربمــا رَاعَوْا المترجَمَ له مثل أن يكون ولىّ الأمر ، فيقول : « العبْدُ الفقير إلىٰ رحمة الله» ويعنى أنه عبــدُ الله ، ويحصُل بذلك المقصودُ من الأدب مع السلطان . ومنهم من يكتُب : «الدّاعى لدولته » و « المبتهِلُ بدعائهِ الصالِح لأيّامه» و «المواظِب علىٰ خِدْمته بالدعاء» وأمثال ذلك . قال : وأكثر الناس يرىٰ الترجمةَ لولده ، فإن ترجم له لم يسم آسمه لأنه ليس له والدان ، ولا أقل من أن يكون بينه وبيــن من يكتب بوالده غير الأب هذا الفرقُ ، فأما أنْ يقول : «والدُه فلانُ بن فلانٍ» بحيث يذكر آسمَ أبيه فقبيحٌ . ثم قد كانُوا فى الزمن الأوّل يكتفُون بذكر آسم المكتوب عنه فى صَدْر الكتاب وعُنْوانه ، نحو : « من فلانٍ إلىٰ فلان » ثم أحدث الكُتَّاب فى أيام بنى بُوَيْه وما بعدها تراجمَ رتَّبوها ، بعضُها أرفعُ من بعض .

وقد ذكر فى "ذخيرة الكُتَّاب" لذلك مراتبَ فى الصُّــدُور والعُنْوان بعضُها أعلىٰ من بعض ، فجعــل أعلاها بالنســبة إلىٰ المكتوب عنــه أن يُكْتَب آسمُه ، ودونه « صديقُه » ودونه « مُحِبُّه » ودُونَه « شاكِرُه » ودُونَه «المُعْتَدّ به » ودونه «أخُوه» ودُونَه « وَلِيُّه » ودونه « عَبْده » ودونه « خادِمُه » ودُونَه « عبدُه وخادمُه » ودونه

«العبدُ» ودونه «العبدُ الخادمُ» ودُونَه «الصَّنيعةُ» ودونه «مملُوكُه» ودونه «المملوكُ» ودونه «المملوك الصَّنيعةُ» . وهو الأعلىٰ بالنسبة إلىٰ المكتوب إليه . ثم قال : ويتفرّع من هذه الأصول فروعٌ كثيرة لاتحصر ممـا يختاره الكُتّاب ويقترِحُونه ويَبْتكِرونه ، ويكاتبون به أصـدقاءَهم وأوِدّاءهم حسبَ ما تقتضيه مَوَدّاتُهم وتُوجِبُه مصافاتهم : كصَفِيِّ مَوَدّته ، والمفْتَخِر بمحبته ، والمعتَمِد علىٰ أُخُوّته ، وعَبْدِ مودّته ، وخادم مجْده ، وشاكرِ أيَادِيه ، وحامد تفَضُّله ، والمعتدّ بتَطَوُّله وما يجرى هذا المَجْرىٰ ممـا هو أوسعُ من أن يُجْمَع وأكثرُ من أن يُحْصَر ؛ ولكنه أكثرُ ما يكون بين النُّظَراء والأقران .

ورَتّب عبدُ الرحيم بن شيث فى "معالم الكتّابة" ترتيباً آخَرَ : فذكر أن الترجمة إلىٰ ديوان الخلافة من ذَوِى الولايات كلِّهم « العَبْد » ومن الملوك كُلِّهم «الخادِم» وأن الترجمة إلىٰ الملوك من الأجناد كُلِّهم «المملُوك» مع النسبة إلىٰ أشهر ألقاب الملك : كالناصِرى للناصر ، والعـادِلِىّ للعادل ، وما جَرىٰ مَجْرىٰ ذلك . ودُونَ المـملوك فى الخضوع : «عبدُه ، وخادمُه» ودونه «العبد» مُفْرَدة . ودُونَه «مملوكه» ودُونَه «العَبدُ الخادم» لأن الثانى كأنه ناسخٌ للأوّل ؛ ودُونَه «الخادِم» ودونه «عَبْدُه» ودونه «خادِمُه» ودونه «عبْدُه وأخُوه» ودونه «أخُوه» ودونه «شاكِرُ تفَضُّـلِه» ودونه «شاكر إحْسانِه» ودونه «شاكِرُ مودّته» ودونه «وَلِيُّه وصفِيُّه» ودونه «محبُّه ووادّه وشاكره» . ودونه الأسم ، ودُونَه العَلَامَةُ .

ثم قال : أما «أصغر المماليك» وما يجرى مجراها ، فلا يليق من الأجانب . ورأيت فى دُستُورٍ صغير فى المكاتبات يعزىٰ للمقر الشِّهابىّ بن فضـل الله ، أن أكبر الآداب فى أسم المكتوب عنه بالنسبة إلىٰ المكتوب اليه «المملوك» ثم «المملوكُ الرِّقّ» ثم «المملوك الأصْغَر» ثم «المملوك المُحبّ» ثم «المملوك الدّاعى» ثم «مملوكُه ومحبه» ثم «الخادم»

ثم «خادمه» ثم «أخوه» ثم «محبّــه» ثم «شاكره» ثم «الفقيرُ إلىٰ الله تعـالىٰ» .
ولا يخفىٰ مافى بعض هـذه التراجم من التخالُف بين ماذكره وما تقدّم ذكره عن "ذخيرة الكُتَّاب".

والذى ٱستقرّ عليه الحـالُ فى زماننا فى ترجمة العَلَامة بالقـلم الشريف السلطانى «أخوه» ثم «والده» ثم الأسمُ؛ وفى حق غيره «المملوك» ثم الأسم . وربمـا كتب بعضهم «العَبْد» بدل الأسم تواضُعا . علىٰ أنهم قد ٱختلفوا فى جواز التَّرجمة بالعَبد والمملوك : فذهب بعضُهم إلىٰ منع ذلك، محتجًّا بما رُوِى أن النبىّ صلىّ الله عليه وسلم قال : " لا يقُولَنّ أحدُكُمْ عَبْـدِى ولا أَمَتِى ، كُلُّكم عَبِيدُ اللهِ وكلُّ نِسائكم إماءُ الله ولٰكنْ غُلامِى وجارِيَتِى " . والذى عليه العملُ جوازُ ذلك ٱحتجاجًا بقوله تعالىٰ : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلىٰ شَىْءٍ ﴾ والأستدلال به لا يخلو من نزاع؛ وقُضاة القضاة يكتُبون «الدّاعِى» .

الجمـــلة الثانية
(فى العُنْوان، وفيه ســبْعُ لغات)

حكاها صـاحبُ "ذخيرة الكُتَّاب" . وٱقتصر فى "صناعة الكُتَّاب" علىٰ ذكر بعضها : إحداها عُنْوان ـ بضم العين وواو بعد النون . والثانية عُنْيان ـ بضم العين وياء تحتية بعد النّون . والثالثة عِنْيان ـ بكسر العين . والرابعة عُلْوان ـ بضم العين ولام بدل النون . والخامسة عَلْوان ـ بفتحها . والسادسـة عِلْوان ـ بكسرها . والسابعةُ عِلْيـان بالكسر مع إبدال الواو ياء ؛ ويجمع عُنْوانٌ علىٰ عَنَاوِينَ ، وعُلْوان علىٰ عَلَاوِينَ . ويقال : عَنْوَنْت الكِتَابَ عَنْوَنةً وعَلْوَنْتُه عَلْوَنة، وعَنَّنْته بنونين الأولىٰ

منهما مشدّدة تَعْنِينا، وعَنَّيته بنون مشدّدة بعدها ياء تَعْنِيَةً، وعَنَوْته أعْنُوه عَنْوا بفتح العين وسكون النون، وعُنُوّا بضمهما وتشديد الواو .

وآختلف فى آشتقاقه : فمن قال عُنْوان، جعله مأخوذًا من العُنْوان بمعنىٰ الأثر، لأن عُنْوانَ الكتاب [أثر بيان](١) ممن هو وإلىٰ مَنْ هو . قال النحاس : وأكثر الكُتّاب لا يعرف غير هذا ؛ وآحتجُّوا لذلك بقول الشاعر يذكُر قتلَ أمير المؤمنين «عثمانَ بن عفّان» رضى الله عنه :

ضَحُّوا بِأَشْمَطَ عُنْوانُ السُّجُود به * يُقَطِّع الليلَ تَسْبِيحًا وقُرْءانا

وزعم بعضُهم أن العُنْوان مأخوذ من قول العرب : عَنَتِ الأرضُ تَعْنُو إذا أخرجت النباتَ، وأعناها المَطرُ إذا أظهَر نباتَها . قال النحاسُ : فيكون عنوانٌ علىٰ هذا فُعلانا ينصرف فى النَّكرة ولاينْصَرِف فى المعرفة . وقيل هو مأخوذٌ من عَنَّ يعِنُّ، إذا عَرَض وبدا . قال النحاس : فعلىٰ هذا ينصرفُ فى النَّكرة والمعرفة لأنه فُعْلَال .

ومن قال : عُلْوان، أبدل من النون لاما، كما فى صَيْدَلانِى وصَيْدَنانِىّ؛ فيكون الآشتقاق واحدا . وقيل عُلْوان مشتَقٌّ من العَلانِيَة، لأنه خطٌّ ظاهرٌ علىٰ الكتاب .

ومن قال : عُنْيان وعِنْيان، جعله من عَنَيت فلانا بكذا إذا قصدته . قال فى "موادّ البيان" : والعُنْوان كالعَلامة، وهو دالٌّ علىٰ مَرْتَبَة المكتوبِ إليه من المكتوبِ عنه، والأصلُ فيه الإخبار عن آسمهما(٢) حتّىٰ لايكونَ الكتابُ مجهولا، والمراد أنه يكتب فيه «من فُلان إلىٰ فلانٍ» أو «لِفُلان من فلان» قال : ولم يزالوا يكاتبُون بأسمائهم إلىٰ أن وَلِيَ عمرُ بن الخطّاب رضى الله عنه الخلافةَ ولُقِّب بأمير المؤمنين،

(١) الزيادة من الضوء للؤلف ص ٤٤١ .

(٢) عبارة الضوء والمعنى فيه وهو مراده بما هنا .

فكتب : « مِن عَبْد الله أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطاب » . ثم وقع الأصطلاحُ على العَنْونة للرُّؤساء والنُّظراء والمرءُوسين والأتباع بالأسماء؛ ثم تغيّر هذا الرسمُ أيضا .

وكان المأمونُ يكتُب فى أوّل عنوانات كُتُبه : بسم الله الرحمن الرحيم ، فكانت تكتَبُ قبل آسم المكتوبِ إليــه والمكتوبِ عنه . وقد ذكر أبو جعفرٍ النحاسُ أن ذلك بقيَ إلى زمانه ، وكان بعد الثلثمائة . قال فى "مواد البيانــ" : ثم بطل بعد ذلك . قال : والأصـلُ فيه أن يُبتدأ باسم المكتوب عنــه ثم باسم المكتوب إليه وهو الترتيبُ الذى تشهَدُ به العقولُ : لأن نُفوذَ الكتاب من المكتوب عنه إلى المكتوب إليه كنشْءِ الشيءِ وخروجه من آبتداء إلى نهاية . فابتداؤُه من المكتوب عنه ، وآنتهاؤه إلى المكتوب إليه؛ ولفظ « من» يتقـدّم لفظَ «إلى» بالطبع : لأن حرف «من» ينبئ عن مَنْشإ الشيء ، و«إلى» حرف يُخْبِر عن النهاية التى عندها قرارُ الشيء، والإبتدا آت فى الأشياء قبلَ النِّهايات .

قال : وعلى هذا كانتْ كتبَ رسول الله صلّى الله عليه وسلم ومَنْ سلف من الأمم الماضية ، ثم عَرَض للناس رأْيٌ فى تغيير هذا الرَّسْم إلى غيره ، ففرّقوا بين مراتب المكاتَبين من الرؤساء والعظماء والخَدَم والأتباع بتقديم آسمِ المكتوبِ إليه إذا قصدُوا إعظامَــه وإجلالَه وتأخير آسم المكتوبِ عنــه ، ورأَوْا أنه الصوابُ الصحيحُ . على أن كُتَّاب زماننا يقتصرون فى أكثر عُنْواناتهم على ذكر المكتوب إليه دونـ المكتوب عنــه ولا يذكُرون المكتوبَ عنه إلا فى مكاتَباتٍ خاصّة قليـلةٍ . قال فى "صناعة الكُتّاب" : ولا يتكنّى المكتوبُ عنه على نظيره ، بل يتسمّى له ولمن فوقه ، ثم يقول : المَعْروف بأبى فلان . وإن كانت كنيتُه أشهَر من آسمــه وآسم

أبيه ، جاز أن يكتب كنيته[١] بغير ألف ويجريها مجرى الاسم . قال النحاس : وإن كان الكتابُ إلى اثنين أحدُهما أكبرُ من الآخر، فيقدّم الأكبر، وكذلك لو كان إلى ثلاثة . قال أبو جعفر النحاس : وقد استحسن جماعةٌ أن يصغّر اسمُ المكتوب عنه على عنوانات الكُتُب، ورأوا أن ذلك تواضعٌ . وماذكره هو المستعملُ فى المكاتبات الجارى عليه حكمُ الدواوين إلى زماننا . والأصلُ فى ذلك ماذكره النحاسُ أن الحجاجَ ابنَ يوسفَ كتب إلى عبد الملك بن مَرْوانَ وهو خليفةٌ فى طُومار : « لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين » ثم كتب فى طُرّته بقلمٍ ضئيل : من الحجّاج بن يوسُفَ ، فجرى الكُتّاب على أسلوبه فيما بعدُ .

قال فى " معالم الكتابة " : ولا يكثر النعوتَ ولا الدّعاء على العنوان للسلطان ولا للكبراء ، أما من الأعلى إلى الأدنى فحَسَنٌ[٢] . وقد تقدّم فى مقدّمة الكتاب أن صاحب ديوان الإنشاء هو الذى يُعَنْوِن الكُتُبَ السلطانية ، وأنها كانت لاتُعَنْوَنُ قبل كتابة السلطان عليها علامته ؛ والذى استقرّ عليه الحالُ فى كُتُب السلطان وما فى معناها من المشتملة على الألقاب أن تُكتبَ الالقابُ فى العُنْوان ، ويُدْعى فيها بدعوة واحدة وهى المفتتَحُ بها المكاتبة .

---

(١) عبارة الضوء « جاز أن يكتب كنيته ويجريها ... ... الخ » وهى واضحة ولكن قد ورد فى مسالك الأبصار فى كتاب اقطاع النبى صلى الله عليه وسلم إلى تميم الدارى وذكره المؤلف فيما تقدم أن الكنية فيه بغير ألف ونص على ذلك ، فلعل مراده أن الكنية فى هذه الكتب تكتب بغير ألف فيقال فى أبى بكر بو بكر .

(٢) لأن ذلك يؤذن بتشريف المكتوب إليه كما تقدم .

الجمـــلة الثـالثة

(فى طىّ الكتاب وخَتْمـــه)

أما طَيُّـه فمعروف ، وهو أن يُلَفّ بعضُه على بعض لَفّا خاصّا . والطَّىّ فى اللغة خلافُ النَّشر، ويقال : طوى الكتّاب يَطْوِيه طَيّـا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى السَّماءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾. والترتيب فى ذلك أن تكون الكتابة إلى داخل الكتَاب : لأن المقصودَ صَوْنُ المكتوبِ فيه .

ثم للناس فى صورة الطىّ طريقتان :

الطريقةُ الأولى ـ أن يكون لفُّه مُدَوَّرا كأُنْبوبة الرُّمْح، وهى طريقة كُتَّاب الشرق من قديم الزمان وإلى الآنَ .

والطريقة الثانية ـ أن يكون طيُّه مبسوطا فى قَدْر عَرْض أربعةِ أصابعَ مطبوقة، وعلى ذلك كان الحال جاريا فى الدولة الأيُّوبية بالديار المصريّة. فقد ذكر عبدالرحيم آبْنُ شـيث من كُتّاب دولتهم : أن طىّ الكُتُب السـلطانية يكونُ عَرْضَ أربعةِ أصابع، وكذلك من العِلْيَـة إلى مَنْ دُونَهم، أما الكتّابُ من الأدنى إلى الأعْلى فلا يُتَجاوَزُ به عَرْض إصبعين، وهذا ظاهر فى أن الطّىّ يكون عَريضا لامُدَوّرا، وهى طريقة أهل المَغْرب والرُّوم والفَرَنْج .

* * *

وأما ختمه، فالخَتْم مصدر خَتَم، يقال : خَتَم الكتّابَ يَخْتِمُه خَتْما، ومعناه الطَّبْع، ومنه قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ والمراد شَـدُّ رأس الكتاب والطبْعُ عليه بالخاتَم، حتّى لايطّلِـعَ أحدٌ على مافى باطنه حتّى يفُضّه المكتوبُ إليه، على ماسيأتى ذكره إن شاء الله تعالى . وهو أمر مطلوبٌ مُرَغّب فيه. فمن كلام عمرَ

رضى الله عنه : «طِينَةٌ خيرٌ من ظِنَّة» يعنى أنَّ ختْم الكتّاب بطينةٍ خيرٌ من ظِنَّة تقع فى الكتّاب بالنظر فيه أو زيادةٍ أو نقص، والظِّنَّة التُّهمة . ومن كلام غيره : «اخْتِمْ تَسْلَمْ» . ومن كلام غيره : « إن طَيَّنْتَ وإلا وقَعْتَ » يعنى إن طَيَّنْتَ الكتّاب وإلا وقَعْتَ فى المحذور . ويقال : إن فى خَتْم الكتّاب تعظيماً للمكتوب إليه . قال بزرجمهر أحدِ ملوكِ الفُرْس : مَنْ لم يَخْتِم كتابًا فقد آستخَفَّ بصاحبه ، وجُهِّل فى رَأْيه . وقد قيل : إن أوّلَ من خَتَم الكتّابَ سليمانُ عليه السلام ؛ وقد فُسِّر قوله تعالىٰ حكايةً عن بِلْقِيس : ﴿ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ بأنه مختومٌ . وعلىٰ نَهْجه فى ذلك جرتْ ملوكُ العَجَم . قال فى "موادّ البيان" : ولم تزل كتبُ العرب منشورةً حتّى كتب عمرُو بن هندٍ الصحيفةَ إلىٰ المتلمِّس، فقرأها ولم يُوصِّلْها، فختمت العربُ الكتبَ من حينئذ . وقد ورد فى الحديث « أن النبيَّ صلّى الله عليه وسلم أرادَ أنْ يَكْتُبَ إلىٰ بعضِ العَجَم فقيلَ له يارسول الله إنهم لايقرءُون كتابًا غيرَ مختومٍ، فأمر أن يُتَّخذَ له خاتمٌ حديد، فوضَعه فى إصبعه، فأتاه جبريلُ عليه السلام فقال له انْبِذْه منْ إصْبَعِك، فنَبَذه وأمر أنْ يُتَّخَذَ له خاتمٌ نُحاس فوضَعَه فى إصْبَعِه فأتاه جبريلُ عليه السلام فقال انْبِذْه من إصْبَعِك فنَبَذَه، ثم أمر أن يُتَّخذ له خاتمٌ، فاتُّخذ له خاتمٌ من فضة فختَم بِه، وكتب إلىٰ من أراد أن يكتُبَ من الأعاجم؛ ونُقِش عليه «محمّدٌ رسولُ الله» ثلاثةُ أسطر؛ وكان الخاتَم فى يَد رسول الله صلّى الله عليه وسلم حتّى قبضَهُ الله تعالىٰ؛ ثم تختّم به أبو بَكْر رضى الله عنه حتّى قُبِض ؛ ثم تختّم به عمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه حتّى قُتِل؛ ثم تختّم به عثمانُ رضى الله عنه، فبينما هو ذاتَ يومٍ علىٰ بِئْر أَرِيس[1] من بِئار المدينة، إذ عبَثَ بالخاتَم فسقَط من يَده، فنزح كلَّ ما كان فى البِئر

(١) قال " فى إرشاد السارى" شرح صحيح البخارى ج ٨ ص ٣٦٢ لاينصرف علىٰ الأصح . ونقل صاحب "تاج العروس" عن آبن مالك جواز صرفه . وقال آبن فارس الهمزة والراء والسين ليست عربية .

من المـاء فلم يُوجَدْ ؛ فلما يَئِسَ منـه أمر أن يُصاغَ له خاتمٌ مثلُه وينقش عليه «محمدٌ رسولُ الله» ففُعِل ذلك وتختّم به . هكذا أورده صاحب "ذخيرة الكتّاب" وبعضه فى الصحيح . وقيل : إن نقش الخاتم الذى آتخذه كان « آمنتُ بالّذِى خَلَق فَسوّى» . وقيل : كان نَقْشه «لتَصْبِرَنّ أو لتَنْدَمَنّ» .

ثم كان لكلٍّ من الخلفاء بعد عثمانَ رضى الله عنـه خاتمٌ يختِمُ به ، عليه نقشٌ مخصوصٌ : فكان نقشُ خاتمَ أميرِالمؤمنـين علىِّ بن أبى طالب رضى الله عنه "المُلْكُ لله الواحدِ القهّار" ونقش خاتم آبنه الحَسَن "لا إلهَ إلا اللهُ الملكُ الحقُّ المُبِين" ونقش خاتَم معاويةَ بنِ أبى سفيان "لكلِّ عَمَلٍ ثَوَابٌ" وقيـل : "لا قُوّةَ إلّا بالله" ونقش خاتَم يزيدَبن معاوية "رَبُّنا اللهُ" ونقش خاتم معاويةَ بن يزيدَ "الدُّنْيا غُرُور" ونقش خاتم مَرْوانَ بن الحكم "اللهُ ثِقَتِي ورَجائى" ونقش خاتم عبدالملك بن مَرْوانَ، "آمنْتُ بالله مُخْلِصا" ونقش خاتم الوليد بن عبدالملك "ياوليدُ إنّكَ ميّت ومحاسَبٌ!" ونقش خاتم عمرَ بنِ عبد العزيز "عمرُ بنُ عبد العزيز يُؤْمِنُ بالله" ونقش خاتم يزيد بن عبد الملك "قِنِى السّيِّئاتِ ياعَزِيزُ" ونقش خاتم هِشَام بن عبـد الملك "الحُكْمُ للحَكَم الحكيم" ونقش خاتم الوليد بن يزيد "يا وليدُ آحذرِ الموتَ" ونقش خاتم يزيد بن الوليد "يا يزيدُ قُمْ بالحَق" ونقش خاتم إبراهيم بن الوليد "توكّلْتُ على الحىّ القيُّوم" ونقش خاتم مروان بن محمد "آذكُرِ اللهَ يا غافلُ" .

وكان نقشُ خاتم السّفّاح : أوّلِ خُلفاء بنى العبّاس "اللهُ ثقةُ عبدِالله" ونقشُ خاتم المهدىّ[1] "حَسْـبِىَ اللهُ" ونقش خاتم الرّشـيد "العظمةُ والقُدْرةُ لله" . وقيـل : "كُنْ من الله على حَذَر" ونقش خاتم الأمين "محمدٌ واثقٌ بالله" ونقش خاتم المأمون

(١) لم يذكر نقش خاتمى المنصور والهادى .

"سَلِ اللهَ يُعْطِيك" ونقش خاتم المعتصم "اللهُ ثقةُ أبى إسحاق بن الرشيد و به يُؤمِن" ونقشُ خاتَم الواثق "اللهُ ثِقةُ الواثِق" ونقش خاتم المتوكّل "علىٰ الحَيّ ٱتّكالى" ونقش خاتم المنتصِر "يُؤْتىٰ الحَذَرُ من مأْمَنِه" ونقش خاتم المستعين "فى الاعتبار غَنَاء عن الاختبار" ونقش خاتم المعتز "الحمـدُ لله ربِّ كلِّ شىء وخالِقِ كلِّ شىء" ونقش خاتم المهتدى "من تعدّى الحقَّ ضاقَتْ مَذَاهِبُه" ونقش خاتم المعتمد "السَّعيد من وُعِظَ بغيره" ونقش خاتم المعتضد "الاضْطرار يُزِيل الإِخْتِيار" ونقش خاتم المكتفى "باللهِ عَلِيُّ بنُ أحمدَ يَثِق" ونقش خاتَم المقْتَدِر بالله "الحمدُ للهِ الذى ليس كمثله شىءٌ وهو خالقُ كل شىءٍ" ونقش خاتم القاهر "محمَّدٌ رسولُ الله صلّى الله عليه وسـلم" ونقش خاتم المتّقى "المتّقى لله" كلقبه للخلافة، ونقش خاتم المستَكْفِى "المستَكْفِى باللهِ يَثِق" ولم أقف علىٰ نقش خاتم أحد من الخلفاء غير هؤلاء .

وٱعلم أنه كان للختم فى أيام الخُلَفاء ديوانٌ مفْرَد يعبَّر عنـه بديوان الخاتم . وقد ٱختلِف فى أوّل من ٱتّخذ ديوان الخاتَم : فروىٰ محمدُ بن عمر المـدائنى فى كتاب "القلم والدواة" بسنده إلىٰ ٱبن عمرَ رضى الله عنه أنه قال : لم يكُنْ أبو بكر ولا عمرُ يلْبَسُون(١) خواتِمَ ولا يَطْبَعون كتابا ، حتّى كتب زيادُ بنُ أبى سـفيان إلىٰ عمر بن الخطاب رضى الله عنـه : إنك تكتُبُ إلينا بأشياءَ ليستْ لهـا طوابِعُ ، فاتّخذَ عند ذلك عمرُ طابَعًا يطبَع به ، وخزم الكتّاب ولم يكن قبـلُ يُخْزَم .

ومقتضىٰ ذلك أن يكون أوّلُ من ٱتخذ الخَتْمَ عمرَ بن الخطاب رضى الله عنـه، ويكون لبسُه خاتمَ النبىّ صلّى الله عليه وسلم لغير الخَتْم . وذكر الطبرىّ فى تاريخه : أن أوّل مَنِ ٱتخذ ذلك معاويةُ بنُ أبى سفيان فى خلافته، وذلك أنه أمر لعمرو بن

(١) استعمل صيغة الجمع للتعظيم أو أراد به ما فوق الواحد .

الزبير بمـائة ألف من عنـد زياد، ففتح الكتّابَ وجعل المـائة مائتين ؛ فلما رفع زيادٌ حسابَه أنكر ذلك معاويةُ، وطلب عَمْرا لحبسه حتّى قضاها عنه أخوه عبدُ الله آبن الزُّبَيْر وآتخـذ معاويةُ حينئذ ديوانَ الختم ، وخَزَم الكتّاب ولم يكن قبل يُخْزَم .
قال القاضى «ولىُّ الدين بن خَلْدون» فى تاريخه : وديوان الخَتْم عبارةٌ عن الكُتّاب القائمين على إنفاذ كُتُب السـلطان . قال : وهذا الخـاتم خاصٌّ بديوان الرسائل ، وكان ذلك للوزير فى أيام الدولة العباسية . ويشهد لذلك قولُ الرشيد ليحيىٰ بن خالد لمـا أراد أن يستَوْزِر جعفرًا ، ويستبدل به من الفَضْل أخيه : إنى أحوّل الخاتم من يمينى إلىٰ شمَالى ، فكنىٰ بالخاتم عن الوزارة ، لآنضمام ديوان الرسائل إلىٰ الوزير إذْ ذاك . ثم آختلف العُرْفُ بعد ذلك ، فصار ليس إليه الرسائل فى الدولة .

ثم للختم ثلاثُ صُـــوَر :

الصورة الأُولىٰ — أن يُلصَق رأس الكتاب بنوع من أنواع اللِّصاق ، كالكَثِيراء المُذَافة بالمـاء ، والنَّشا المطبُوخ ونحو ذلك . وهـذا هو المستعملُ بالديار المصرية وبلاد المشرق من قـديم الزمان وهلُمَّ جَرًّا إلىٰ زماننا ؛ والمسـتعْمَل بالدواوين هو النَّشا دونَ غيره ، لنَصَاعة بَيَاضه وشدّة لِصَاقه . قال فى "مواد البيان" : ويجب أن يكون اللِّصاقُ خفيفا كالدُّهن لئلا يتكَرَّس ويكْثُف فى جانب الورق . وقد كانت عادتهم فى بلاد المشرق أيامَ الخلفاء أن يُخْتَم بخاتم الخليفة ، بأن يُغْمس فى طين معدّ لذلك أحمرَ الصبغ ، ويختم به علىٰ طرفِ اللِّصاق ، ليقوم مَقامَ علامة الخليفة . وكان هذا الطين يجلب إليهم من سِيرافَ من بلاد فارس ، وكأنّه مخصوصٌ بها ؛ وعلىٰ نهج الخلفاء جرىٰ الملوكُ حينئذ . والذى آستقرّ عليه الحالُ الآنَ بالديار المصرية ونحوها من البلاد الشرقية الآقتصارُ علىٰ مجرّد اللِّصاق آكتفاء بمـا فيه من الضـبط وظهور

فَضَّه إن فُضّ . وهذه المسئلة مما سأله الشيخُ جمال الدين بن نُباتة كُتّاب ديوان الإنشاء بدِمَشْقَ مخاطبا به للشيخ جمال الدين محمود الحلبي ـ فقال : ومَنْ ختم الكتاب بالطين ورَبَطه ؟ ومن غَيّر الطين إلى النّشا وضَبَطه ؟ . وقد سبق الكلامُ فى النّشا وسائر أنواع اللّصاق فى الكلام على آلات الدواة فى المقالة الأولىٰ .

الصورة الثانيــة ـــ أن يُخْزَم الكتابُ من وَسَطه بالأشــفار حتّى تنفُذَ فى بعض طَيّات الكتاب ثم تخرج من وجه الورق أيضا ، ويدخل فيه دَسْرة[1] من الورق كالسَّيْر الصغير ويُقَطّ طَرَف الدسرة ؛ ثم يُلْصَق على ذلك بشَمَع أحمر ؛ ثم يختم عليه بخاتم يظْهَر نقشُه فيه ، ويسمّى هذا النوع من الختم الخَزْم ـ بالخاء والزاى المعجمتين ـ أخذا من خَزْم البعير ، وهو أن يُثْقَب أنفهُ ويجعَل فيه خيط أونحوُه . ولعل هذه الطريقةَ من الختم هى التى كان عليها الحالُ حين أُحْدث الختمُ فى صَدْر الإسلام ، ويدل علىٰ ذلك قول ابن عُمَر رضى الله عنه فى رواية الطبرىّ[2] المتقدّمة : وخَزَم الكتاب ولم يكُنْ قبلُ يُخْزَم . وعلىٰ هذا الآن أهلُ المغرب والرُّوم والفَرَنج ومَنْ فى معناهم .

الصورة الثالثــة ـــ أن يلَفّ على الكتاب بعــد طَيّه قُصَاصةٌ من الورق كالسَّيْر فى عرض رأس الخِنصِر ، وتلف على الكتاب ثم يُلْصق رأسُها ؛ ويكون ذلك فى الرِّقاع الصغيرة المتردِّدة بين الإخوان ؛ وتسمّى القُصاصة التى يُلْصَق بها سَحَاءة ـ بفتح السين وبالمدّ ، وتقال بكسر السين أيضا ، وربما قيل سِحَايَة ؛ ويقال فيه : سَحَوتُ الكتاب

(١) مراد المؤلف بالدسرة الدسار أى المسمار أو الخيط من الليف وجارى العامة فى تعبيرهم عنه بالدسرة .

(٢) الذى تقدم عن الطبرى أن أول من اتخذ الختم والخزم معاوية وأما رواية ابن عمر التى تفيد أن أول من اتخذ الختم والخزم عمر فقد رواها محمد بن عمر المدائنى ففى الكلام سهو واشتباه .

أسْحُوه سَحْوا ، وسَحَّيته بالتشديد أُسَحِّيه تَسْحِيَة فهو مَسْحوٌ ومَسْحِيٌّ ومُسَحًّى؛ والأمر من سحوتُ الكتاب أُسْحُ، ومن سَحَّيته بالتشديد سَحِّ، وأصله من السَّحْو وهو القَشْر. يقال : سحوتُ اللحمَ عن العَظْم إذا قشرته .

الجمـــــلة الرابعة

(فى حَمْـــل الكتاب وتأديتِـــه)

وهو من جملة الأمانات الداخلة فى عموم قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلىٰ أَهْلِهَا﴾. وقد رُوِى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : من أعْظَم الأمانةِ أداءُ الكتابِ إلىٰ أهْـله . قال محمد بن عمر المدائنى : حملُ الكتاب أمانةٌ ، وتركُ إيصاله خِيانة . وقد رُوِى أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم قال : "مَنْ بَلَّغ كتابَ غازٍ فى سبيلِ اللهِ إلىٰ أهْلِهِ أو كتابَ أهله إليه، كانَ له بكُلِّ حرفٍ عِتْقُ رقبَةٍ وأعطاه اللهُ كتابَهُ بيمينِهِ وكتب له براءةً من النار" . وقد نطق القرءان الكريم بتأدية الهُدْهُد كتابَ سليمان عليه السلام إلىٰ بِلْقِيسَ، حيث قال حكايةً عن سليمان: ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ إلىٰ أن قال : ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ إِنِّى أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ .

وقد وردت الأحاديث بأن النبىّ صلّى الله عليـه وسلم كان يبعث كُتُبَهُ مع رُسُله إلىٰ الملوك : فبعثَ عبـدَ الله بنَ حُذافَـة إلىٰ كِسرىٰ أبرويز ملكِ الفرس؛ وبعث دِحْيـةَ الكلبىَّ إلىٰ قَيْصَر ملك الروم؛ وبعث حاطبَ بنَ أبى بلتَعَـةَ إلىٰ المُقَوْقِس صاحب مصر؛ وبعث عمرو بنَ أُمَيَّةَ الضَّمْرِىّ إلىٰ الضَّحَّاك[1] ملك الحبشة؛ وبعث شُجاعَ بنَ وهْب الأسدىَّ إلىٰ الحارث بن أبى شمر الغسَّانى؛ وبعث سَليطَ بنَ عمرو

---

(١) فى الضوء "النجاشى" .

إلى هَوْذَةَ بن علىّ صاحب اليمامة ؛ وبعث العَلَاء بن الحَضْرمىّ إلى المنذر بن ساوى ملك البحرَيْن؛ وبعث عمرو بنَ العاص إلى عبدٍ(١) وجَيْفَرٍ ٱبنَى الجُلَنْدى ملِكَىْ عُمَانَ . قال ٱبن الجوزىّ : وبعث جرير بنَ عبد الله البجلىَّ إلى ذى الكَلَاع الحِميَرىّ .

وٱعلم أنه يجب أن يكون حاملُ الكتاب المؤدّى له عن الملك ونحوه وافرَ العقل، شديدَ الشَّكيمة فى الجواب، طَلْق اللسان فى المُحاوَرة، فإنه لسانُ مَلِكه، وتَرْجمانُ مُرْسله ، وربما سأله المكتوبُ إليه عن شىءٍ أو أورد عليه ٱعتراضًا فيكون بصدد إجابته. وقد قيل : إنه يُستَدَلُّ على عقل الرجل بكتابِه ورسولِه. ومن غريب ما يُرْوَى فى ذلك ما ذكره ٱبنُ عبد الحَكَم : أن النبىَّ صلّى الله عليه وسلم لما بعث حاطِبَ ٱبنَ أبى بَلْتَعَةَ إلى المقَوْقِس صاحب مِصْر، وبلّغه كتابَ النبىّ صلّى الله عليه وسلم ، قال له : مامنَعه أن يَدْعُوَ علَىّ فيُسَلَّطَ عَلَىّ ؟ ـ قال له حاطبٌ : مامنع عيسى أن يَدْعُوَ على من أبى عليه أن يَفْعَل ويَفْعل ؟ فوجِمَ ساعةً ثم ٱستعادها ، فأعادها عليه حاطبٌ ، فسكت . ويُرْوَى : أنه حين سأله عن أمْر النبىّ صلّى الله عليه وسلم فى حَرْب قومه ، وذكر له أنَّ الحَربَ تكونُ بينهم سِجَالا : تارةً له وتارةً عليه ، قال له المقوقس : النَّبِىُّ يُغْلَب ! فقال له حاطب : فالإلٰهُ يُصْلَب ! ـ يشير بذلك إلى ماتزعُمه النصارى من أن المسيح عليه السلام صُلِب مع دعواهم فيه أنه إلٰهٌ .

وذكر السُّهَيلىّ أن دحيةَ الكَلْبىّ حين دخل على قَيْصَرَ بكتاب النبىّ صلّى الله عليه وسلم، قال له دحية : هل تَعْلَمُ أكان المسيحُ يُصَلِّى ؟ قال نعم، قال : فإنّى أدعوك إلى مَنْ كان المسيحُ يُصَلِّى له ، وأدعوك إلى من دبَّر خلقَ السمواتِ والأرضِ والمسيحُ فى بطن أمه . فألزمه من صلاة المسيح أنه عبدٌ لله تعالى، وضمّن ذلك بيتًا من أبيات له فقال :

---

(١) كذا فى "المواهب اللدنية" أيضا . والذى فى القاموس عبد الله .

فقرّرتُه بصَلاة المَسيح ، * وكانتْ من الجَوْهَرِ الأحمرِ!

ويُحكىٰ أن بعضَ ملوكِ الرُّوم كتب إلىٰ خليفةِ زمانه يَطْلُب منه مَنْ يناظر علماءَ النّصرانية عنده فإن قَطَعهم أسلموا؛ فوجَّه إليه بالقاضىٰ أبى بَكْر بن الطَّيِّب المالكىّ، وكان من أئمة علماء زمانه؛ فلما حضر المجلسَ وآجتمع لَدَيْه علماءُ النصارىٰ، قال له بعضهم : إنَّ معتَقَدكم أنَّ الأنبياءَ عليهم السلام معصومون فى الفِرَاش ، وقد رُمِيتْ عائشةُ بما رُمِيَتْ به : فإن كان مارُمِيتْ به حَقًّا، كان ناقضًا لأصلكم الذى أصَّلتموه فى عِصْمة الأنبياء فى الفِرَاش ، وإن كان غيرحقٍّ كان مؤثِّرًا فى إيمان مَنْ وَقَع منه . فقال القاضى أبو بكر : امرأتانِ حَصِيلتان رُمِيَتا بالفِرْية ، إحداهما لها زوجٌ ولاوَلَد لها، والأخرىٰ لها ولَدٌ ولا زَوْجَ لها - يشير بالأولىٰ إلىٰ عائشةَ رضى الله عنها، وبالثانية إلىٰ مريمَ عليها السلام، فسجدُوا له علىٰ عادة تحيَّتهم فى ذلك، إلىٰ غير ذلك من الوقائع التى لاتُحصىٰ كثرةً .

فإذا كان الرسول متمكِّنا من عقله ، عالما بما يأتى وما يَذَر، كفىٰ مَلِكَه مَئُونة غيبته، وأجاب عن كل مايُسْأل عنه؛ وإذا كان بخلاف ذلك آنعكست القضيّة، ورجع علىٰ مُرْسِله بالوَبَال . ثم إن آقتضىٰ رأْىُ الملك زيادةً فى الرسالة علىٰ الرسول الواحد فعل: ليتعاوَنَا علىٰ مافيه المصلحةُ، ويتشاورا فيما يفعلان، فقد ذكر السهَيْلىّ : أن جَبْرًا مولىٰ أبى ذَرٍّ الغفارى[1] كان رسولا مع حاطب بن أبى بلتعة إلىٰ المقَوْقِس . وإن اقتضىٰ الحالُ إرسالَ أكثرَ من آثنين أيضا فعل ؛ فقد ذكر آبن الجوزى أن أبا بكر الصدِّيقَ رضى الله عنه فى خلافته بعثَ إلىٰ قَيْصرَ ثلاثةَ رُسُل ، وهم : هشام آبن العاص، ونُعَيم بن عبد الله، ورجل آخر .

(١) فى شرح المواهب اللدنية ج ٣ ص٣٩٨ عن السهيلى مانصه "مولى أبى رهم الغفارى وهو وهم فالذى فى الاستيعاب والاصابة وغيرهما أن جبرا كان من القبط وأنه رسول المقوقس بمارية اليه صلى الله عليه وسلم".

ومما يجب التنبيه عليه أنه يحرُمُ علىٰ حامل الكتاب النظرُ فيه ، والاطّلاع على ماتضمّنه . قال محمد بن عمر المدائني : في فَضّ الكتاب إثمٌ وسوءُ أدب ، وساق بسنده إلىٰ معاذ بن جَبَل رضيالله عنه أنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: "من اطّلع في كتابِ أخيه بغيرِ إذْنِه، أطْلَعه طَلْعةً في النارِ" .

الجملة الخامسة

(في فَضّ الكتاب وقراءته)

أما فَضُّه فالمراد فَكُّ خَتْمه وفتحُه ،والفَضُّ في أصل اللغة الكَسْر والتفريق ؛ ومن الأوّل ماثبت في الصحيح من قول القائلة لابنِ عَمّها في قصّة الثلاثة الذين دَعَوا اللهَ بأحبِّ أعمالهم : « اتّقِ اللهَ ولا تَفُضَّ الخاتَم إلا بحقّه » تريد إزالة بَكارتها . ومن الثاني ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاتُنفِقُوا علىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا﴾ . وقد تقدّم في الكلام علىٰ ترتيب المملكة في المقالة الثانية أن الرسول أو البَريديّ الواصلَ إلىٰ باب السلطان يقدّمُه الدّوادارُ إلىٰ السلطان ، ثم يتناولُ الكتابَ منه ويَمْسَحُ به وجه مَنْ حضر علىٰ يده ، ثم يَدْفَعُه إلىٰ السلطان فيَفُضُّ خِتامَه ، ثم يتناولُه الدّوادارُ من السلطان ويدْفَعه إلىٰ كاتب السر ، فيقرؤه علىٰ السلطان .

واعلم أن لفض الكتاب حالتين :

الحالة الأولىٰ ــ أن يكون مختومًا باللِّصاق بالنّشا علىٰ طريقة المَشارقة وأهل الديار المصرية ، فيشقّ ظاهره على القُرْب من محلّ اللِّصاق بسِكّين ثم يفتح .

الحالة الثانية ــ أن يكون مخزومًا مسمّرا بدَسْرة من الورق علىٰ عادة المغاربة ومَنْ جرىٰ مَجْراهم ، فيرفع الختمُ الملْصَقُ عليه من الشَّمع ، وتُقْلَع الدّسْرة ويفتح الكتاب .

* * *

وأما قراءة الكُتُب فإنه يجب أن يكون مَنْ يقرأ الكتبَ على الملوك ومَنْ في معناهم ماهرًا في القراءة، فَصِيحَ اللسان في النُّطق، رقيقَ حاشية اللِّسان في حسن الإيراد، قويّ المَلَكة في استخراج الخطوط المختلفة، سريعَ الفَهْم في إدراك المعاني الخفيّة؛ وأن تكون قراءتُه على رئيسه ـ من سلطان أو غيره ـ بحسَبِ ما يُؤْثِر ملكُه أو أميرُه سماعَه من السُّرعة والبُطْء، وأن يكون ذلك بصوتٍ غيرِ خَفِيّ بحيث يعسُر سماعُه، ولا مرتفع بحيثُ يُعَدُّ صاحبُه خارجا عن أدب المخاطبة للأكابر؛ وأن يُقرِّب لمن يقرأ عليه فهمَ المقاصد التي اعتاصَتْ عليه إذا سأله عنها، أو غلب على ظنه أنها لم تَصِل إلى فَهْمه، بحسن إيراد، وتلطيف عبارة يحسُن موقِعُها في النفوس ويجمُلُ وَقْعُها في الأذهان .

الجملة السادسة

(في كراهة طَرْح الكتاب بعد تخزيقه : وهو فَضُّه، وحِفظِه بعد ذلك في الإضبارة)

أما كراهةُ طَرْحه فقد قال محمد بن عمر المدائني في كتاب "القلم والدواة": كَرِهوا تَخْزيق الرسائل ورمْيَها في الطُّرُق والمَزَابل، خوفا على اسم الله تعالى أن يُداسَ، أو تلحَقَه النجاسةُ والأدْناس . قال : وفي رَفْع ما طُرِح من الكتاب أعظمُ الرغائب وأجلُّ الثواب؛ وساق بسنده إلى أمير المؤمنين عليّ بنِ أبي طالب كرّم الله وجهه أنه قال : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم : "ما منْ كتابٍ يُلْقَى بِبُقْعةٍ من الأرض فيه

اسمٌ من أسماءِ اللهِ إلّا بعثَ الله إليه سبعينَ ألْفَ مَلَكٍ يحُفّونه بأجْنحَتِهِمْ ويُقَدِّسُونَه، حتّى يبعثَ اللهُ إليه وَلِيًّا من أوْلِيَائِهِ فيَرْفَعَهُ مِنَ الأرْضِ . ومَنْ رفعَ كتابًا من الأرض فيه اسْمٌ من أسماء الله تعالىٰ، رفع اللهُ اسْمَهُ فى عِلِّيِّين وخَفَّف عن والِدَيْهِ العذابَ وإنْ كانَا مُشْرِكَيْنِ" . ويروىٰ : "مَنْ رَفَع قِرْطاسًا من الأرض فيه مكتُوبٌ «بسم الله الرحمن الرحيم» إجْلالًا له أن يُدَاسَ، أدخَلَهُ اللهُ الجنةَ وشَفَّعه فى عِشْرِينَ من أهْلِ بيتِهِ كُلُّهُمْ قد وجَبَ له النارُ" .

⁂

وأما حفظُه فى الإضبارة فهو أمر مطلوب؛ والإضبارةُ عبارةٌ عن ورقةٍ تُلَفُّ علىٰ جملة من الكتب قد جُمِعتْ فى داخلها ويُلْصَق طَرَفها بالنَّشا . والقاعدة فيها أن تُلْوىٰ الكسرة من أسفلها ، وإن طال بعضها فى طَيِّه وقَصُر بعض جعل التفاوت فى الطُّول والقِصَر من أعلاها . قال فى "صناعة الكُتَّاب" : ومعناها الجمع ، لأنها يُجْمَع بعضُها إلىٰ بعض . ومنه قيل : تَضَبَّر القومُ إذا تجمَّعوا ، ورجل مضَبَّر الخَلْق أى مجتمِعُه، وناقة مضَبَّرة ومَضْبُورة، وضَبَر الفرسُ إذا جمع قوائمَه ووَثَب . ويقال للإضْبارة أيضا إضامةٌ[1] بكسر الهمزة وتشديد الميم لضم بعضها إلىٰ بعض ، والمعنىٰ فيها صيانةُ الكتُب وحفظُها عن الضَّياع . وقد جرتْ عادةُ كُتَّاب ديوان الإنشاء بالديار المصرية أن يجعلَ لكل شهر إضبارةٌ تجمع فيها الكتبُ الواردةُ علىٰ أبواب السلطان من أهل المملكة وغيرهم ، ويُكْتَب عليها « شهر كذا » . وقد سبق القول فى مقدّمة الكتاب أن الديوان كان له فى زمن الفاطميين كاتبٌ يكتُبُ الكتب

(١) كذا فى الاصول والضوء والذى فى أمهات اللغة بهذا المعنى فى مادة ض م م « إضمامة » أى بكسر الهمزة وتخفيف الميمين بينهما ألف فتنبه .

الواصلةَ ويبسُط عليها جرائدَ ، كما يكتبُ الكتبَ الصادرة عن الأبواب السلطانية ويبْسُط عليها جرائد ، وأن ذلك بطل فى زماننا وصار الأمرُ قاصرًا فيها علىٰ حفظ الكتب فى الإضْبارات ، متىٰ آحتِيجَ إلىٰ الكَشْف عن كتاب منها ، أُخِذ بالحَدْس أنه ورد فى السنة الفلانية ، وتُكْشَف إضباراتها واحدةً بعد واحدة حتّى يقع العُثورُ عليه ، ولا خفاءَ فيما فى ذلك من المشَقّة ، بخلاف ما إذا كان لها جرائد مبسوطة ، فإنه يسهُلُ الكشف منها ، ويستدلُّ بتاريخه علىٰ إضبارته فتُخْرَج ويقع الكشْفُ منها ، ولكن أُهْمِل ذلك فى جملةِ ما أُهمِل .

الباب الثاني
من المقالة الرابعة

(في مصطلحات المكاتبات الدائرة بين كُتّاب أهل الشرق والغرب
والديار المصرية في كل زمن من صدر الإسلام
وهلم جرًّا إلى زماننا، وفيه ستة فصول)

الفصل الأوّل

(في الكُتُب الصادرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم، وفيه ثلاثةُ أطراف)

الطرف الأوّل

(في ذكر ترتيب كُتُبه صلّى الله عليه وسلم في الرسائل على سبيل الإجمال)

كان صلّى الله عليه وسلم يفتتح أكثر كُتُبه بلفظ «من محمد رسول الله إلى فلان» وربما افتتحها بلفظ «أما بعد» وربما افتتحها بلفظ «هذا كتابٌ» وربما افتتحها بلفظ "سلم أنت" .

وكان يصرِّح في الغالب باسم المكتوب إليه في أوّل المكاتبات، وربما اكتفى بشهرته[1]. فإن كان المكتوبُ إليه مَلِكًا كتب بعد ذكره اسمه «عَظِيم القوم الفلانيين» وربما كتب «مَلِك القوم الفلانيين» وربما كتب «صاحِب مَملكة كذا» .

وكان يعبِّر عن نفسه صلّى الله عليه وسلم في أثناء كُتُبه بلفظ الإفراد. مثل: «أنا» و «لِي» و «جاءنِي» و «وفد عليّ». وما أشبه ذلك ، وربما أتى بلفظ الجمع مثل «بلغنا» و «جاءنا» ونحو ذلك .

---

(١) أي بما اشتهر به كالقيصر ونحوه .

وكان يخاطبُ المكتوبَ إليه عند الإفراد بكاف الخطاب ، مثل : «لك» و « عليك » وتاء المخاطب ، مثل : « أنتَ قلتَ كذا وفعلتَ كذا » . وعند التثنية بلفظها مثل : «أنتما» و «لكما» و «عليكما» . وعند الجمع بلفظه ، مثل : « أنتم » و « لكم » و «عليكم» وما أشبه ذلك .

وكان يأتى فى صدور كُتُبه بالسلام . فيقول فى خطاب المسلم « سلامٌ عليك » وربما قال : « السلامُ علىٰ مَنْ آمنَ بالله ورسولِه » وفى خطاب الكافر : «سلامٌ علىٰ من ٱتَّبَع الهُدىٰ » وربما أسقَط السلامَ من صَدْر الكتاب .

وكان يأتى فى صدور الكتب بالتحميد بعد السلام . فيقول : «فإنِّى أحمدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلَّا هو» وربما تركه ، وقد يأتى بعد التحميد بالتشهُّد وقد لا يأتى به .

وكان يتخلَّص من صدر الكتاب إلىٰ المقصود تارةً بأما بعدُ وتارة بغيرها .

وكان يختِمُ كُتُبه بالسلام تارة ، فيقول فى خطاب المسلم : «والسَّلامُ عليك ورحمة الله وبركاتُه» وربما ٱقتصر علىٰ السلام . ويقول فى خطاب الكافر : «والسلامُ علىٰ من ٱتَّبع الهُدىٰ» وربما أسقَط السلامَ من آخرِ كُتُبه .

⁂

أما عنونةُ كتبه صلّى الله عليه وسلم ، فلم أقِف فيها علىٰ نَصٍّ صريح ، والذى يظهر أنه صلّى الله عليه وسلم كان يُعَنْوِن كُتُبَه بلفظ : «من محمد رسول الله إلىٰ فلان» . علىٰ نحو ما فى الصَّدر ، وتكون كتابته « من محمد رسول الله » عن يمين الكتاب ، و « إلىٰ فلان » عن يساره ، وعليه يدلُّ ما تقدّم من كلام صاحب "موادّ البيان" فى الأصل الثانى عشر من أصول المكاتبات حيثُ ذكر فى الكلام علىٰ العُنْوان أن الأصل أن يُبتَدأ باسم المكتوب عنه ويثَنّى باسم المكتوب إليه ، ثم قال : وعلىٰ هذا كانتْ كُتُب رسول الله صلّى الله عليه وسلم .

الطـــرف الثـانى

(فى كتبه صلّى الله عليه وسـلم إلىٰ أهل الإســلام ،
وهو علىٰ ثلاثةِ أساليبَ)

الأُسْـــلُوب الأوّل

(أن يفتتح الكتابُ بلفظِ «من محمد رسول الله إلىٰ فلان»)

فمن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ خالدِ بنِ الوليدِ، فى جوابِ كتابِهِ إليه صلّى الله عليه وسلم بإسلامِ بنى الحارث وهو علىٰ ماذكره ابن إسحاقَ فى سيرته :

"من محمدٍ رسولِ اللهِ إلىٰ خالدِ بنِ الوليدِ :

سـلامٌ عليك، فإنّى أحمـدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلّا هو . أما بعـدُ فإنَّ كتابَكَ جاءنِى مَعَ رسُولِك ، يُخْبِرنِى أنَّ بَنِى الحارث قد أسْلَمُوا قَبْـلَ أن تُقاتِلَهُمْ ، وأجابُوا إلىٰ مادَعَوْتَهم إليه من الإسلامِ، وشَهِدُوا أن لا إلٰهَ إلّا الله،وأن محمدا عبدُه ورسولُه ، وأنْ قَدْ هَدَاهُمُ اللهُ بهُـداه، فبَشِّرْهم وأنْذِرْهم،وأقبِلْ ولْيُقْبِلْ معَكَ وَفْدُهُمْ، والسلامُ عليك ورحمةُ اللهِ وبركاتُه" .

⁂

ومن ذلك كتابهُ صلّى الله عليه وسلم إلىٰ المنذرِ بنِ ساوىٰ ملكِ البَحْرَيْنِ من جهة الفُرْس ، فى جواب كتابِهِ إليـه صلّى الله عليه وسلم . ونسختُه علىٰ ما ذكره السُّهَيْلِىّ فى "الروض الأُنف" :

"من محمد رسولِ الله إلىٰ المُنْذِر بن سَاوىٰ .

سلامٌ عليْكَ ، فإنّى أحمدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلّا هُو ، وأشهَدُ أنْ لا إلٰهَ إلّا اللهُ وأن محمّدًا عبْدُه ورسولُه . أما بعدُ فإنّى أُذَكِّرُكَ اللهَ عزّ وجلّ ، فإنه من ينْصَحْ فإنما ينْصَحُ لنفْسه ، وإنه مَنْ يُطِعْ رُسُلِي ويَتّبِـعْ أمرَهُم فقـد أطاعنى ، ومَنْ نَصَحَ لهم فقد نَصَحَ لِى ، وإنَّ رُسُلِي قد أثْنَوْا عليكَ خيرًا ، وإنى قد شَفَّعتك فى قومك فاتْرُكْ للسلِمِينَ ماأسلَمُوا عليه ، وعَفَوْتُ عن أهل الذُّنُوب فاقبَلْ لهم ، وإنك مَهْمَا تُصْلِـحْ فلن نَعزِلَكَ ، ومن أقام علىٰ مجُوسِيّته فعَلَيْه الجِزْيَةُ" .

⁂

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسـلم إلىٰ فَرْوَةَ بن عمرو الجُذَامىّ . ونسخته علىٰ ماذكره ابن الجوزى فى "كتاب الوفاء" .

" من محمد رسول الله إلىٰ فَرْوةَ بن عَمْرو .

أما بعــدُ ، فقد قَدِم علينا رسُولُك ، وبَلّغ ما أَرسَلْتَ به ، وخَبّر عمّا قِبَلَكُمْ خيرًا ، وأتانا بإسلامِك وأنّ اللهَ هَدَاكَ بهُدَاه " .

⁂

ومن ذلك كتابه صلىٰ الله عليه وسلم إلىٰ طِهْفَةَ النّهْدى وقومِه . ونسختهُ فيما حكاه ابن الأثير فى " المثل السائر" :

"من محمد رسول اللهِ إلىٰ بَنى نَهْدٍ .

السلامُ علىٰ مَنْ آمنَ باللهِ ورسُوله . لَكُمْ يابَنى نَهْدٍ فى الوَظِيفَة الفَرِيضَـةُ ، ولكم الفارضُ[1] والفَرِيش ، وذُو العِنَان الرَّكُوبُ والفَلُوّ الضَّبِيس ، لايُمْنَعُ سَرْحُكم ، ولايُعْضَدُ

(١) يروى بالفاء وبالعين فأما بالفاء فيكون المراد بها المريضة وأما بالعين فهى التى أصابها آفة أو كسر اهـ من شرح الزرقانى للمواهب ج ٤ ص ١٩٢ .

طَلْحُكم ، ولا يُحبَس دَرُّكم مالم تُضمِرُو الإماق ، وتأكُلوا الرِّباق . مَنْ أقرّ [بما فى هذا الكتاب] (١) فله [من رسول الله] (١) الوفاءُ بالعَهْد والذِّمّة ، ومن أبىٰ فعَلَيه الرِّبْوةُ " .

وهذا الكتابُ ممايحتاج إلىٰ شرح غَريبه ليُفْهَم . «فالوظيفة» النِّصابُ فى الزكاة وأصلُه الشيء الراتِبُ . «والفَرِيضة» الهَرِمة المُسِنّة ، والمراد أنها لا تؤخَذُ منهم فى الزكاة بل تكون لهم . «والفَرِيش» بالفاء والشين المعجمة ما آنبسط من النبات وفَرَش علىٰ وجه الأرض ولم يَقُم علىٰ ساقٍ ، وقد يُطْلَق علىٰ الفَرَس إذا حُمِل عليها بعد النِّتاج أيضا . «وذوالعِنان الرَّكُوب» الفرسُ الذَّلُول ، «والفَلُو» المُهْر الصغير وقيل الفَطِيم من جميع أولاد الحافر . «والضَّبِيس» بالضاد المعجمة والباء الموحدة والسين المهملة العَسِر الصَّعْبُ الذى لم يُرَض . «والسَّرح» السارحة وهى المَوَاشى ، والمعنىٰ أنها لاتُمنَعُ من المَرْعىٰ . والعَضْد القَطْع . والطلْح شجرٌ عِظام من شجر العِضاه . والدَّرُّ اللبن ، والمراد ذوات الدَّرّ من المواشى ، أراد أنها لاتحشر إلىٰ المُصَدِّق وتُمْنَعُ المرعىٰ إلىٰ أن تجتمع الماشيةُ ثم تُعَدّ لما فى ذلك من الإضرار . و «الإمَاقُ» مخفَّف ، من أماق الرجلُ إذا صار ذا مَأَقة وهى الحَمِيَّة والأَنفَة ، وقيل مأخوذ من المُوقِ وهو الحُمْق ، والمراد إضمار النَّكْث والغَدْر أو إضمار الكُفْر . و «الرِّباق» بالراء المهملة والباء الموحدة والقاف جمع رِبْقة ، وهى فى الأصل آسمٌ لعُرْوة تجعل فى الحَبْل وتكون فى عُنُق البهيمة أو يَدِها تُمْسِكها ، والمراد هنا نَقْضُ العهد وآستعار الأكلَ لذلك ، لأن البهيمة إذا أكلتِ الرِّبقةَ خلَصَتْ من الشدّ . و «الرِّبْوة» بكسر الراء الزيادة ، والمرادهنا الزيادة فى الفريضة الواجبة عليه كالعقوبة له .

(١) الزيادة من « المثل السائر » . وورواية "الشفا" كما فى الأصل .

⁂

ومن ذلك كتابه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ أُكَيدِر دُومةَ فيما ذكره أبو عُبَيدة، وهو :

" من محمد رسولِ الله لِأُكَيْدِر دُومةَ حينَ أجابَ إلىٰ الإســلام ، وخَلَع الأَنْدَادَ والأَصْنام، مع خالِد بنِ الوليد سيفِ الله فى دُومة الجَنْدل وأكنافها : إنَّ لنا الضاحِيَةَ من الضَّحْل والبَوْرَ والمَعَامِيَ وأغْفالَ الأرضِ والحَلْقةَ والسِّلاحَ والحافِرَ والحِصْن . ولكم الضَّامِنةُ من النَّخْل، والمَعِينُ من المَعْمُور، لاتُعْدَلُ سارِحَتُكم، ولاتُعدّ فارِدَتُكُم، ولا يُحْظَر عليكم النباتُ، تُقِيمُون الصلاةَ لوَقْتِها، وتُؤْتُونَ الزكاةَ بحَقِّها ، عليكم بذلك عهدُ الله والميثاقُ" .

وهذا الكتاب أيضا ممـا يُحتاجُ إلىٰ معرفة غَرِيبِه : فالأنْدادُ جمعُ نِدٍّ بكسر النون وهو ضدّ الشيء الذى يخالِفُه فى أموره، ويُنادُّه أى يخالفه، والمراد ما كانوا يتخذونَه آلهةً من دُونِ الله تعالىٰ . والأصنام جمع صَنَم : وهو ما اتُّخِذ إلهًا من دون الله، وقيل : ما كان له جسمٌ أو صــورةٌ، فإن لم يكن له جسمٌ ولا صورةٌ فهو وَثَنٌ . والأكناف بالنون جمع كَنَف بالتحريك وهو الجانبُ والناحية . والضاحِيَة بالضاد المعجمة والحاء المهملة الناحيةُ البارزةُ التى لاحائلَ دُونَها، والمراد هنـا أطراف الأرض؛ والضَّحْل بفتح الضاد المعجمة وسكون الحاء المهملة القليلُ من المـاء ، وقيل المـاء القريب من المكان، وبالتحريك مكان الضَّحْل . والبَوْر الأرض التى لم تُزْرَع، وهو بالفتح مصدرٌ وصف به، وبالضم جمع بَوَار : وهو الأرضُ الخرابُ التى لم تُزْرَع . والمَعَامِيَ المجهولةُ من الأرض التى ليس فيها أثرُ عِمـارةٍ ، واحدها مَعْمًى . وأغفالُ الأرض بالغين المعجمــة والفاء الأرضُ التى ليس فيها أثرٌ يعرَف كأنها مغفول عنها . والحَلْقة بسكون اللام السِّلاح عامًّا ، وقيل الدُّروع خاصًّا ، والسلاح ما أُعِدّ للحرب من آلة

الحديد مما يُقاتَل به ، والسَّيف وحده يسمَّى سلاحا . والضامنة من النخل بالضاد المعجمة والنون ما كان داخلا فى العِمَارة من النخيل وتضمَّنته أمصارهُم وقُراهم ، وقيل سميت ضامنــةً لأن أربابها ضَمِنُوا عِمارتَها وحِفْظها ، فهى ذات ضَمانٍ كعِيشةٍ راضية بمعنىٰ ذاتِ رِضًا . والمَعِين من المعمور المـاءُ الذى يَنْبُعُ من العين فى العامر من الأرض . وقوله : لا تُعْـدَل سارحتُكم بالذال المعجمة[1]، أى لا تُصْرَف ماشيتكم وتمـالُ عن الرَّعْى ولا تمنَعُ . وقوله : ولا تُعـدّ فاردتُكم أى لا تُضَمُّ إلىٰ غيرها وتُحشَر إلىٰ الصدقة حتّى تعدّ مع غيرها وتحسب . والفاردة الزائدة علىٰ الفريضة . وقوله : ولا يُحْظَر عليكم النَّبات بالظـاء المعجمة ، أى لا تُمنعون من الزَّرْع والمَرْعىٰ حيث شئتم ، والحَظْر المنعُ .

* * *

ومن ذلك كتابه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ وائل بن حُجْر وأهل حَضْرموتَ ، وهو:

"من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ الأقْيال العَبَاهلَة من أهل حَضْرموتَ ، بإقامة الصَّلاة ، وإيتاء الزكاة . علىٰ التِّيعة الشاةُ ، والتِّيمةُ لصاحبِها ، وفى السُّيوب الخُمُس ، لا خِلَاطَ ولا وِرَاطَ ولا شِنَاقَ ولا شِغَار ، ومَنْ أجْبىٰ فقد أرْبىٰ ، وكلُّ مُسْكِرٍ حَرامٌ" .

وذكر القاضى عياضٌ فى "الشِّـفاء" أن كتابه لهم : « إلىٰ الأقيـال العَبَاهلَة ، والأرْواع المَشَابِيب . وفى التِّيعة شاةٌ ، لا مُقوَّرة الألْياط ، ولا ضِنَاكَ ، وأنْطُوا الثَّبَجة ، وفى السُّيُوب الخُمُس ، ومَنْ زَنىٰ مِمْ بِكْرٍ فاصْقَعُوه مائةً واسْتَوْفِضُوه عامًا ، ومَنْ زنىٰ مِمْ ثَيِّبٍ فضَرِّجُوه بالأضاميم ، ولا تَوْصِيمَ فى الدِّين ، ولا غُمَّةَ فى فرائِض الله تعـالىٰ ، وكل مُسْكِرٍ حرامٌ ، ووائل بنُ حُجْر يترَفَّل علىٰ الأقْيال» .

---

(١) صوابه بالدال المهملة كما يفيده المعنى وقد أورده صاحب اللسان ج ١٣ — فى مادة ع د ل بالدال المهملة فانظره .

وهـذا الكتاب فى معنىٰ ماتقدّم من الاحتياج إلىٰ شرح غريبه . الأقيال بالقاف والياء المثناة تحتُ جمعُ قَيْل : وهو الملِك . والعَبَاهلة الذين أُقِرُّوا علىٰ مُلْكِهم لايُزالُون عنه ؛ وحَضرموتَ بلدةٌ فى اليمن فى أقصاها ، وقيـل هى أحَدُ مَخَالِيفها . والتِّيعة بالمثناة من فوقُ ثم المثناةِ من تحتُ والعينِ المهملة آسمٌ لأدنىٰ ماتجب فيه الزكاةُ من الحيوان : كالخَمْس من الإبل والأربعينَ من الغَنَم . قال آبن الأثير : وكأنهـا الجملةُ التى للسُّعاة عليها سبيلٌ من تاعَ يَتِيعُ إذا ذهب إليه . والتِّيمةُ بالكسر الشاةُ الزائدة علىٰ الأربعـين حتّى تبلغَ الفريضةَ الأُخرىٰ ، وقيـل هى الشاة التى تكون لصاحبها فى مَنْزِله يَحْلُبهـا وليستْ بسائمةٍ ، وهى بمعنىٰ الدَّاجِن . والسُّيُوب الرِّكاز أخْذا من السَّيْب وهو العطاء ، قاله أبو عبيدة ؛ وقيل هى عروق الذهب والفِضّة التى تَسِيبُ فى المعدن بمعنى تتلوّن وتظهر . وقال الزمخشرىّ : هى جمع سَيْب ، يريدُ به المـالَ المدفونَ فى الجاهلية أو المعدنَ لأنه من فضل الله تعالىٰ لمن أصابه . والخِلَاط بالكسر مصدر خالط ، يقال : خالَطَه يُخالِطُه خِلاطا ومخالطةً ، والمراد أن يَخْلِطَ الرجلُ إبلَه بإبل غيره أو بقرَه أو غَنَمَه ليمنع حَقَّ الله تعالىٰ منها ، ويَبْخَس المصَدِّق فيما يجبُ له . والوِرَاط بالكسر أيضا أن تُجعـل الغَنَمَ فى وَهْدة من الأرض لتَخْفىٰ علىٰ المَصـدِّق ، مأخوذٌ [من الوَرْطة] وهى الهُوّة من الأرض . والشِّناق بكسر الشين المُشَارَكة فى الشَّنَق بفتح النون : وهو ما بين الفريضتين من كلّ ماتجب فيـه الزكاةُ ، وهو مازاد من الإبل علىٰ الخَمْس إلىٰ التِّسع ، وما زاد علىٰ العَشْر إلىٰ أربعَ عشرةَ ، والمراد أن لاتؤخذ الزيادةُ علىٰ الفريضة . قال آبن الأثير : ويجوز أن يكونَ معناه المُشَارَكة فى الشَّنَق والشَّنَقين ، وهو بمعنى الخِلَاط المتقدّم ذكره ، لكن حملُهُ علىٰ الأوّل أولىٰ ، لتعدّد المعنىٰ . والشِّغار بكسر الشين وبالغين المعجمة نِكاحٌ معروف فى الجاهليـة ، وهو أن يُزوِّج الرجل آبنتَه أو أُخْتَـه علىٰ أن يُزوِّجَه بنته أو أخته ، ويكون بُضْعُ كلٍّ

منهما صـداقًا للأخرىٰ . والأرواعُ جمع رائع : وهم الحسانُ الوجوهِ من الناس . وقيل : الذين يَرُوعونَ الناس أى يُفْزِعُونهم بشِدّة الهَيْبة . قال آبن الأثير : والأوّل أوجهُ . وقوله : ومن أَجبىٰ هو بالجيم والباء الموحدة : وهو بيع الزَّرْع قبـل بُدُوّ صَلَاحه . وقيـل هو أن يُغَيِّبَ إبلَه عن المُصَـدِّق أخْذا من أجبأته إذا واريته . وقيل هو أن يبيع من الرجل سِلْعةً بثمن معلوم إلىٰ أجل معلوم ثم يشْتَرِيَها منه بالنقد بأقَلّ من الثمن الذى باعها به؛ ومعنىٰ أربىٰ وقع فى الربا. والمَشَايِيبُ السادةُ الرءوسُ الزُّهْرُ الألوان الحِسَانُ المَنَاظِر، واحدها مَشْبُوب . والمُقْوَرّة الألْيـاط المسترْخية الجُلُود لِهُزَالها والاقورار الاسترخاءُ فى الجلود . والألْياط جمعُ لِيط : وهو قشر العُود، شُـبِّه به الجلدُ لالتزاقه باللحم . والضِّنَاك بالكسر الكثيرُ اللحم، ويقال الذكر والأنثىٰ فيـه سواء، والمراد أنه لا تُؤخَذ المُفْرِطة فى السِّمَن كما لاتؤخذ الهزيلة . وقوله : وأَنْطُوا هو بلغة أهل اليمن بمعنىٰ أعطوا، خاطبهم صلّى الله عليه وسلم بلغتهم . والثَّبَجة بثـاء مثلثة بعدها باء موحدة ثم جيم هى الوَسَـط من المـال التى ليست من خِياره ولاَرُذَالته، أخْذًا من ثَبَجة الناقة وهو مابين الكاهل إلىٰ الظهر . وقوله مِمْ بِكرٍ جرىٰ فيه علىٰ لغة أهل اليمن حيث يُبْدِلونَ لام التعريف ميما . قال آبن الأثير : وعلىٰ هذا فتكون راء بكرٍ مكسورةً من غيرتنوين لأن أصله من البكر، فلما أُبْدلت الألف واللام ميما بقيت الحركةُ بحالها، ويكون قد آستُعْمِل البكر موضع الأبكار . قال : والأشبه أن تكون بكرٌ منوّنةً، وقد أُبْدلت نونُ مِنْ ميما، لأن النون الساكنة إذا كان بعدها باء قلبت فى اللفظ ميمـا نحو عَنْبر ومِنْبر، ويكون التقـدير ومَنْ زنىٰ من بكرٍ . وقوله فاصْقَعُوه هو بالصاد المهملة والقاف أى آضرِبُوه، وأصل الصَّقْع الضرب علىٰ الرأس، وقيل الضربُ ببطن الكف . وقوله : وآستَوْفضوه هو بالفاء والضاد المعجمة أى آنْفُوه، أخذا من قولهم : استوفضت الإبلُ إذا تفرّقت [فى رَعْيها] وقوله : فضَرِّجوه ـ

بالضـاد المعجمة والجـيم أى أَدْمُوه بالضرب، ويطلق الضَّرج على الشّق أيضـا .
والأضاميم بالضاد المعجمة الحجارة واحدها إضمامةٌ، والمراد آرجُمُوه بالحجارة. والتوصيم بالصاد المهملة الفَتْرة والتّوانى، أى لا تَفْتُروا فى إقامة الحدود ولا تَتَوانَوْا فيها . وقوله : ولا غُمَّة فى فرائض الله ـ أصل الغُمَّة السَّتْر، أى لا تُستَرُ فرائضُ الله ولا تُخْفَى، بل تُظْهَر ويُجْهَر بهـا وتُعْلَن . وقوله : يترَفَّل ـ أى يَسُودُ ويترأَّس ، آستعارة من تَرْفيل الثوب وهو إسباغُه وإرساله؛ والأَقْيال الملوكُ وقد تقدّم الكلامُ عليه .

الأُسْـــلوب الثـانى

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ « هذا كتاب » ويُذْكر المقصد فيما بعد، وهو قليـــل الوقوع فى المكاتبات)

ومن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم لقَبيلة هَمْدانَ من اليمن، فيما ذكره آبنُ هشام وهو: "هذا كتابٌ من محمدٍ رسولِ الله لِمخْلاف خارِف وأهل جِناب الهَضْب وحِقَاف الرِّمل ، مع وافِدِها ذى المِشْعار(1) ، لمـالكِ(2) بنِ نَمَط ولِمَنْ أسلم من قومِه، على أنّ لهم فِرَاعَها ووِهَاطَها [وعَزازَها] ماأقامُوا الصلاةَ وآتَوُا الزكاةَ، يأكلُون عِلَافَها، ويَرْعَوْن عافِيَها ، لكُمْ بذلك عهدُ اللهِ وذِمامُ رسولِه ، وشاهِدُكم المهاجِرُون والأنصارُ" .

وذكر القاضى عياضٌ فى "الشفاء" أن فى كتابه إليهم : "إنّ لكم فِرَاعَها ووِهَاطَها وعَزَازَها، تأكلُون عِلَافَها وتَرْعَوْنَ عَفَاءها(3) ، لنا مِنْ دِفْئِهِمْ وصِرَامِهِم ما سَلَّمُوا بالمِيثاق

---

(1) كذا فى الامهات اللغوية أيضـا وفى شرح الزرقانى على المواهب ج ٤ ص ٣٩ أنه ذو المشـعار بالمعجمتين أو المهملتين .

(2) فى المواهب مالكُ بدون لام الجر وأعربه الشارح بدلا ممـا قبله .

(3) ضبطه صاحب اللسان بالقصر وضبطه الزرقانى وملا على قارى بالمد .

والأمانةِ، ولهم من الصَّدَقة الثِّلْب والنابُ والفَصِيلُ والفارِضُ والداجِنُ والكَبْشُ الحَوَرِىّ، وعليهم فيها الصَّالِغ والقَارِحُ" .

وهذا من نسبة ما تقدّم مما يحتاج إلى شرح غريبه : فالفِرَاع[1] بالكسر جمع فَرْعة، وهو ما آرتفع من الأرض . والوِهاط جمع وَهْطة : وهى ما آطمأنّ من الأرض ؛ والعِلَاف بالكسر ـ جمع عَلَف بِكَبَل وجِبَال، والمراد ما تعتلفه الدوابُّ من نبات الأرض؛ والعَزَاز ـ ماصَلُب من الأرض وآشتدّ وخَشُن، ويكون ذلك فى أطرافها؛ والعَفَاء العافِى ـ وهو ما ليس لأحد فيه ملكٌ ، من قولهم : عَفَا الأَثَرُ إذا دَرَس، والدِّفء ـ نِتَاج الإبل وما يُنْتَفَع به منها ، سمّى دِفئًا لأنه يتّخذ من أوبارها ما يُستَدْفأ به ، والمراد هنا الإبل والغَنَمُ . والصِّرام ـ النخل ، وأصله قَطْع الثمرة ؛ والثِّلْب من ذكور الإبل ـ الذى هَرِم وتكسّرت أسنانه . والناب ـ المُسِنّة من إناثها . والفَصِيل من أولاد الإبل ـ الذى فُصِل عن أمه من الرِّضاع . والفارض ـ المسنُّ من الإبل، والمراد أنه لا يُؤْخَذ منهم فى الزكاة . والداجنُ ـ الشاة التى يعلِفُها الناس فى منازلهم؛ والكَبْش الحَوَرِىّ منسوب إلى الحَوَر وهى جلود تُتَّخذ من جلود الضأن، وقيل : هو مادُبِـغ من الجلود بغير القَرَظ . والصالغُ بالصاد المهملة والغين المعجمة : وهو من البقر والغنم الذى كَمُل وآنتهى، ويكون ذلك فى السنة السادسة، ويقال : بالسين بدل الصاد . والقارِحُ الفرس الذى دخل فى السنة الخامسة .

---

(١) فى الأصول بالفتح وهو سبق قلم .

الأســـــلوب الثـالث

(أن تفتتَح المكاتبةُ بلفظ « سَلْمٌ أنت »)

فمن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ المنْذِر بن ساوىٰ . وهو فيما ذكره أبو عبيد في "كتاب الأموال" : « سَلْمٌ أنتَ، فإنّى أحمدُ إليكَ الله الذى لا إلٰهَ إلا هو .

أمّا بعدُ، فإنَّ مَنْ صلّى صلاتَنَا وآستقبَلَ قِبلَتَنـا وأكَلَ ذَبِيحتَنا ، فذلك المُسْلِمِ له ذِمّةُ اللهِ وذِمّةُ الرسـول ؛ فَمَنْ أَحَبَّ ذلك من المجُوس فإنّه آمِنٌ ، ومَنْ أبىٰ فإنَّ عليه الجزيَةَ» .

الطـــــرف الثـالث

(فى كُتُبه صلّى الله عليه وسـلم إلىٰ أهل الكُفْر للدّعاية إلىٰ الإســـلام، وهـــو علىٰ ثـــلاثةِ أساليبَ)

الأُسْلوب الأوّلُ

(أن يُفْتتح الكتابُ بلفظ « من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ فلان» كما فى الأُسْلوب الأوّل من كُتُبه إلىٰ أهل الإسلام)

فمن ذلك كتابُه صـلّى الله عليـه وسلم إلىٰ هِرَقْلَ : وهو قَيْصَر ، وقيـل نائبُه بالشـام .

وهو علىٰ ما ثبت فى الصحيحين . « من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ هِرَقْلَ عظيم الرُّوم، سلامٌ علىٰ مَن آتّبع الهُدىٰ .

أما بعدُ، فإنّى أدْعُوكَ بِدعايَةِ الإسْلامِ، أسْلِمْ تَسْلَمْ، أسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أجْرَكَ مرّتينِ، فإن تَوَلَّيْتَ فإنَّ عليْكَ إثْمَ الأرِيسِيِّينَ، ويـأهْلَ الكتابِ تعالَوْا إلىٰ كلِمةٍ سَـواءٍ بيْنَنا وبيْنكُم ألّا نعبُـدَ إلّا اللهَ ولا نُشْرِكَ بِهِ شيْئًا ولا يتّخِذَ بعضُنا بعْضًا أرْبابًا مِنْ دُونِ اللهِ فإنْ تَوَلَّوْا فقُولُوا اشْهَدُوا بِأنّا مُسْلِمُونَ .

وذكر أبو عبيد فى "كتاب الأموال" : أنّ كتابَه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ هِرَقْلَ كان فيـــه .

"من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ صاحب الروم، إنّى أدْعُوكَ إلى الإسْلامِ: فإنْ أسْلَمْتَ فلَكَ ما لِلْمُسْلِمِينَ وعلَيْكَ ماعلَيْهِمْ، وإن لم تَدْخُلْ فى الإسلام فأعْطِ الجِزْيةَ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ يقول : قاتِلُوا الّذِينَ لايُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ولا يُحَرِّمُونَ ماحَرَّمَ اللهُ ورَسُولُهُ ولايَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ حتّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ وإلا فلا تَحُلْ بين الفَلّاحين وبين الإسلامِ أن يَدْخُلوا فيه أو يُعْطُوا الجِزْيةَ" .

قال أبو عبيد : وأراد بالفلّاحين أهـلَ مملكتِه ، لأن العَجَم عنـد العَرَب كُلَّهم فلّاحون لأنهم أهلُ زرعٍ وحَرْثٍ .

وفى مسند البَزّار أنه صلّى الله عليه وسـلم كتب إليه : « من محمدٍ رسولِ اللهِ إلىٰ قَيْصَر صاحب الرُّوم » .

⁂

ومن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ كِسْرىٰ أبْرَوِيزَ[1] : ملك الفرس فيما ذكره ابْنُ الجوزىّ ، وهو :

---

(١) بفتح الواو وكسرها ويقال له أبرواز ومعناه بالعربية المظفر ــ اهـ الزرقانى على المواهب ج٣ ص٣٨٩ .

"من محمدٍ رسولِ اللهِ إلىٰ كِسْرىٰ عظيمِ فارِس .

سلامٌ علىٰ مَنِ اتَّبَعَ الهُدىٰ وآمن باللهِ ورَسُولِه ، وأدْعُوك بِدعايةِ اللهِ عزَّ وجلَّ فإنّي أنا رَسُولُ اللهِ إلىٰ الناس كافَّةً ، لِأُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَياً ويحِقَّ القولُ علىٰ الكافِرين ، وأسْلِمْ تَسْلَمْ فإنْ تَوَلَّيْتَ فإنَّ إثْمَ المجُوسِ عَلَيْكَ" .

⁂

ومن ذلك كتابه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ المُقَوْقِسِ صاحب مِصْرَ . وهو فيما ذكره ابن عبد الحَكَم .

"من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ المُقَوْقِسِ(1) عظيمِ القِبْط ، سلامٌ علىٰ مَنِ اتبعَ الهُدىٰ .

أما بعــدُ ، فإني أدْعُوكَ بِدعايةِ الإسلامِ ، فأسْلِمْ تَسْلَمْ ، وأسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أجْرَكَ مَرَّتينِ ، فإن تَوَلَّيتَ فعلَيْكَ إثْمُ القِبْطِ . يٰأهْلَ الكتَابِ تَعَالَوْا إلىٰ كَلِمةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ ألَّا نَعْبُدَ إلَّا اللهَ ولا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضًا أرْبابًا مِنْ دُونِ اللهِ فإن تَوَلَّوْا فقُولُوا اشْهَدُوا بأنَّا مُسْلِمُونَ" .

وذكر الواقديُّ أن كتابَهُ إليه كان بخطِّ أبي بكرٍ الصدّيقِ رضى اللهُ عنه ، وأنَّ فيه

"من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ صاحب مصر .

أما بعــدُ ، فإنَّ اللهَ أرسلَني رسولاً وأنْزلَ عَلَيّ قُرْءانًا ، وأمَرَنِي بالإعْذارِ والإنْذارِ ومُقاتَلَةِ الكُفَّار حَتّى يَدِينُوا بِدِيني ويَدْخُلَ الناسُ في مِلّتي ، وقد دعَوْتُك إلىٰ الإقْرارِ بوَحْدانِيّتِه ، فإن فعَلْتَ سَعِدْتَ ، وإن أبَيْتَ شَقِيتَ ، والسَّلامُ" .

---

(1) اسمه جريج بن مينا بن قرقوب كما ذكره الزرقاني علىٰ المواهب ج ٣ ص ٣٩٧ .

*
* *

ومن ذلك كتابه صلّى الله عليه وسلم إلى النّجاشيّ : مَلِك الحَبَشَة . وهو فيما ذكره ابن إسحاق :

" من محمد رسول الله إلى النجاشيّ مَلِك الحبَشة ، إني أحمَدُ إليكَ اللهَ الملكَ القُدُّوسَ السَّلامَ المُؤمِنَ المُهَيْمِنَ ،وأشهدُ أن عيسى ٱبنُ مريمَ البتولِ الطّيّبةِ الحَصينةِ ، حمَلتْهُ من رُوحِه ونَفْخِه ، كما خَلَقَ آدمَ بيَدِه . وإنّي أدْعُوك إلى الله وحْدَه لاشَريكَ لَهُ ، وأن تَتْبعَني وتُؤمِنَ بالّذي جاءني ، فإنّي رسولُ الله ، وإنّي أدْعُوكَ وجُنُودَكَ إلى الله عزّ وجلّ ، وقد بَلّغتُ ونَصَحتُ ، فاقبلُوا نُصْحِي . وقد بعَثتُ إليكُمْ ٱبنَ عَمّي جَعْفَرًا ومعه نَفَرٌ من المُسْلِمِينَ ، والسلامُ على مَنِ ٱتّبع الهُدَى " .

*
* *

ومن ذلك كتابه صلّى الله عليه وسلم إلى هَوْذَة[1] بن عليّ : صاحب اليمامة ، وكان نصرانيًّا . وهو فيما ذكره السهيليّ .

" من محمد رسولِ الله الى هَوْذَة بن عليّ .

سلامٌ على مَنِ ٱتّبعَ الهُدَى . وٱعلَمْ أنّ دِيني سيَظْهَرُ إلى مُنْتَهَى الخُفِّ والحافِرِ ، فأسْلِمْ تَسْلَمْ ، وأجْعَل لكَ ماتَحتَ يدَيْكَ " .

*
* *

ومن ذلك كتابه صلّى الله عليه وسلم إلى نَصارى نَجْرانَ . وهو فيما ذكره صاحب " الهَدْي المحمّديّ " .

---

(١) هو بفتح الهاء كما في الصحاح ونقل الدميريّ ضمها والواو ساكنة على كل حال .

بسم الله الرحمن الرحيم ، إلٰه إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ .

أما بعدُ ، فإنّى أدْعُوكم إلىٰ عبادة الله من عبادة العباد ، وأدْعوكم إلىٰ ولاية الله منْ ولاية العباد ؛ فإن أبيتُمْ فالجزيةُ ؛ فإن أبيتم فقد آذنْتكُمْ بحرب الإسلام[1] .

ومن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ جَيْفَرٍ وعَبْدٍ ابْنَىْ الجُلَنْدىٰ مَلِكَىْ عُمَانَ .

وهو : « من محمدٍ رسولِ اللهِ إلىٰ جَيْفَرٍ وعَبْدٍ ابنَيِ الجُلَنْدىٰ ، سلامٌ علىٰ مَنِ اتّبع الهــدىٰ .

أما بعدُ، فإنّى أدْعُوكُما بدعايةِ الإسْلامِ، أَسْلِمَا تَسْلَمَا، فإنّى رسولُ اللهِ إلىٰ الناسِ كافّةً لِأُنْذِرَ مَنْ كان حَيًّا ويَحِقَّ القولُ علىٰ الكافرِينَ ، وإنّكُما إنْ أقررْتُمَا بالإسلامِ ولّيتكُمَا، وإن أبَيْتُما أن تُقِرّا بالإسلامِ فإنّ مُلْكَكُمَا زائلٌ عنكُما، وخَيْلِى تَحُلُّ بِسَاحَتِكُمَا، وتَظْهَرُ نُبُوّتِى فى مُلْكِكُمَا . وكتب أُبَىُّ بنُ كَعْب » .

وفى رواية ذكرها أبو عبيد فى "كتاب الأموال" أنه كتب إليهما .

" من محمدٍ رسولِ اللهِ لعبادِ اللهِ أسيد بن مُلُوك عُمَان ، وأسيد عُمَان : مَنْ كان منهم بالبَحْرَيْن، إنهم إنْ آمنُوا وأقامُوا الصــلاةَ وآتَوُا الزكاةَ وأطاعُوا اللهَ ورسُولَهُ وأَعْطَوْا حَقَّ النبىِّ صلّى الله عليــه وسـلم ونَسَكُوا نُسُكَ المُسْلِمِين ؛ فإنّهم آمِنُونَ ، وإنّ لهمْ ما أسْلَمُوا عليه ، غيْرَ أنّ مالَ بيت النارِ ثُنْيَا للهِ ورَسولِهِ ، وإنّ عُشُورَ التّمْرِ صـدقةٌ ، ونِصْفَ عُشُورِ الحَبِّ ، وإنّ للْمُسْلِمِينَ نَصْرَهُمْ ونُصْحَهُمْ ، وإنّ لهُمْ علىٰ المُسْلِمِين مِثْلَ ذلك ، وإنّ لَهُمْ أرْحاءً يَطْحَنُونَ بها" .

(١) كذا فى الاصول وفى "مفتاح الأفكار" بحرب والسلام .

قال أبو عبيد : وبعضُهم يَرْويه لِعبادِ الله الأسبيين اسْمًا اعجميا نسبَهُمْ إليه . قال : وإنما سُمُّوا بذلك لأنهم نُسِبُوا إلىٰ عبادة فَرَس ، وهو بالفارسية أسب فنُسبوا إليه ، وهم قومٌ من الفُرْس وفى رِوَاية من العرب .

⁂

ومن ذلك كتابُه صلَّى الله عليه وسلم إلىٰ مُسَيْلِمةَ الكَذَّاب فى جوابِ كتابِهِ إليه صلَّى الله عليه وسلم : أنه إنْ جَعَل لَهُ الأمْرَ بعده آمَنَ به .

وهو : « من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ مُسَيْلِمة الكَذَّاب : السلامُ علىٰ من ٱتَّبَع ٱلْهُدىٰ أما بعدُ، فإنَّ الأرضَ لله يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ والعاقِبَةُ للمُتَّقِين .

———

الأسلوب الثانى

(أن يُفتَتَح الكتابُ بلفظ « أما بعدُ » وهو أقلُّ وقُوعا ممـا قبله)

فمن ذلك كتابُه صلَّى الله عليه وسلم إلىٰ أهل نَجْرانَ ، ودينُهم النصرانيةُ .

وهو فيما ذكره ٱبن الجَوْزىّ .

«بسم الله الرحمن الرحيم ، إلٰهِ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعْقُوبَ .

أما بعدُ : فإنِّى أدْعُوكُم إلىٰ عبادةِ الله مِنْ عِبَـادةِ العِبَاد ، وأدْعُوكُمْ إلىٰ وِلَايةِ الله مِنْ وِلَايةِ العِبَاد ، فإن أبَيْتُمْ فالجزية ، فإن أبيتم فقد آذَنْتُكُمْ بحرْبِ الإسلام»(1) .

———

(1) كذا فى الأصول والمناسب لمـا تقدم له فى اختتام الكتب مافى "مفتاح الأفكار" وهى "بحرب والسلام" .

الأســـــلُوبُ الثـالث

(أن يُفْتَتح الكتَابُ بلفظ « هذا كتاب »)

فمن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم معَ رِفاعةَ بنِ زيد إلىٰ قومه . وهو فيما ذكره ابن إسحاق .

« هذا كتابٌ من محمدٍ رسولِ الله لرِفاعةَ بنِ زيْدٍ ، إنى بعثتُه إلىٰ قوْمِه عامّةً ومَنْ دَخَلَ فِيهِمْ ، يَدْعُوهُمْ إلىٰ اللهِ وإلىٰ رَسُولِه ، فمَنْ أقبلَ منهم ففِى حِزْبِ اللهِ وحِزْبِ رسولِه ، ومَنْ أدْبَرَ فلَهُ أمانُ شَهْرَيْن » .

قلت : وقد كتبَ صلّى الله عليه وسلم إلىٰ جماعةٍ غير مَنْ تقدّم ، لم أقِفْ علىٰ صورة ما كَتَب إليهم ، كجَبَلَةَ بن الأيْهَم الغسّانىّ ، وذِى الكَلَاع الحِمْيَرِىّ وغيرهم ، وستأتى كُتُبُهُ صلّى الله عليه وسلم فى معنىٰ الولَايات والإقطاعات والهُدَن والأمانات فى مواضِعها إن شاء الله تعالىٰ .

الفصـــل الثـانى

من الباب الثـانى من المقـالة الرابعة

(فى الكُتُب الصادرة عن الخلفـاء ، وهى على قسمين)

القســـم الأوّل

(المكاتباتُ إلى أهل الإسلام، وفيه تسعة أطراف)

الطّـــرَف الأوّل

(فى الكُتُب الصادرة عن الخلفاء من الصحابة رضى الله عنهم، وفيه جملتان)

الجمـــلة الأولى

(فى المكاتبات الصادرة عن أبى بكرٍ الصدّيق رضى الله عنه)

وكانت تُفْتتح بلفظ: «مِنْ أبى بكر خليفةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم إلى فلان» وباقى الكتاب من نِسْبة كُتُب النبىّ صلى الله عليه وسلم من التصدير بالسّلام والتّحميد، والتّخلّص بأما بعدُ، والاختتامِ بالسلام وما يَجْرِى هذا المَجْرَى، مع لزوم الخِطَاب بالكاف وتاء المخاطب للواحد، وبالتثنية للاثنين، والجمع للجماعة . وعَنْوَنَتُها «من أبى بكرٍ خليفةِ رسول الله» فى الجانب الأيْمن ثم «إلى فلان الفلانى» فى الجانب الأيْسَر على مايقتضيه الترتيب المتقدّم .

وهذه نسخةُ كتابه رضى الله عنه إلى أهل الرِّدّة حين ٱرتدُّوا عن الإسلام بعد وفاة النبىّ صلّى الله عليه وسلم .

وهو علىٰ ما ذكره صاحب "نهاية الأرب"

"من أبى بكرٍ خليفةِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم إلىٰ مَنْ بلغه كتابى هذا من عامَّة وخاصَّة ، أقام علىٰ الإسْلام أو رجَعَ عنه :

سلامٌ علىٰ مَنِ اتَّبع الهدىٰ ، ولم يَرْجِع بعدَالهُدىٰ إلىٰ الضَّلالة والعَمىٰ ؛ فإنِّى أحمدُ إليكُمُ اللهَ الذى لاإلٰهَ إلا هو ، وأشهدُ أن لاإلٰهَ إلا اللهُ وحْدَه لاشريكَ له وأنَّ محمدًا عبدُه ورسوله ، وأقرّ بمـا جاء بِهِ [وأُكَفِّر مَنْ أبىٰ وأُجاهِدُه][1] .

أما بعدُ ، فإن اللهَ أرسلَ محمدًا بالحقِّ مِنْ عِنْده إلىٰ خَلْقه بَشيرًا ونَذيرًا ، وداعيًا إلىٰ الله بإذْنِهِ وسراجًا مُنيرًا ، ليُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا ويَحِقَّ القولُ علىٰ الكافِرين ، يَهْدى اللهُ لِلْحَقِّ مَنْ أجابَ إليه ، وضَرب رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم بإذْنِهِ من أدبَرَعنه حتَّى صار إلىٰ الإسلامِ طَوْعا وكَرْها ؛ ثم تُوفِّى رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم ؛ وقد نَفَّذَ لأمْرِ الله ، ونَصَح لأُمَّتهِ ، وقَضَىٰ الَّذى عليه ؛ وكان اللهُ قد بيَّن له ذٰلكَ ولأهل الإسلام فى الكتاب الذى أنزله ، فقال : ﴿إنَّكَ مَيِّتٌ وإنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ وقال : ﴿وَمَا جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أفإنْ مِتَّ فَهُم الخَالِدُونَ﴾ وقال للمؤمنين : ﴿وَمَا محمدٌ إلارَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْـلِهِ الرُّسُلُ أفإنْ مَاتَ أوْ قُتِلَ انْقلبْتُمْ علىٰ أعْقابِكُمْ ومَنْ يَنْقَلِبْ عَلىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ فَمَنْ كان يَعْبُد محمدًا فإنَّ محمدًا قَدْ ماتَ ، ومَنْ كان يَعْبُـد اللهَ وحْدَه لاشَرِيكَ لَهُ فإنَّ اللهَ بالمِرْصادِ ، حَىٌّ قَيُّومٌ لايَمُـوتُ ولا تأْخُذُه سِـنَةٌ ولَا نَوْم ، حافِظٌ لِأَمْرِه ، منْتقِمٌ مِنْ عَدُوّه بحِزْبه ، وإنِّى أُوصيكُمْ بتقْوىٰ الله وحَظِّكم ونَصيبِكُم مِنَ اللهِ ، وما جاء بِهِ نَبِيُّكُمْ ، وأنْ تَهْتَدُوا بهَدْيِه ، وأنْ تَعْتَصِمُوا بِدِين اللهِ ، فإنَّ مَنْ لم يَهْدِ اللهُ ضَلَّ ، وكُلّ مَنْ لم يُعافِه مُبْتَلىً ، وكُلُّ من لم يَنْصُره مَخْذُول .

(١) الزيادة عن العبر (بقية ج ٢ ص ٧٠) .

فمَنْ هـداه الله كان مَهْديًّا ، ومَنْ أضلّه كان ضالًّا : ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ ولم يُقْبَل منه فى الدنيا عملٌ حتّى يُقِرّ به ، ولم يُقْبَل له فى الآخرة صَرْفٌ ولا عَدْل .

وقد بلغني رجُوعُ مَنْ رجع منكم عن دِينه بعد أنْ أقرّ بالإسلام وعَمِل به ، اغترارًا بالله وجَهالةً بأمره ، وإجابةً للشّيْطان ، وقال الله جل ثناؤه : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ . وقال جلّ ذكره : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وإنّى أنفذْتُ إليكم فُلانًا فى جَيْش من المُهاجِرين والأنصارِ والتابعين بإحْسانٍ ، وأمرتُه أن لا يُقاتِلَ أحدًا ولا يَقْتُلَه حتّى يَدْعُوَه إلىٰ داعيــة الله ؛ فمَن استجاب له وأقرّ وكَفّ وعَمِل صالحًا ، قَبِلَ منه وأعانَه عليه ؛ ومَنْ أبىٰ أمَرْتُه أن يُقاتِلَه علىٰ ذلك ، ولا يُبْقِيَ علىٰ أحدٍ منهم قَدَرَ عليه ، وأن يُحرّقهم بالنّيران ، ويقتّلهم كلَّ قِتْلة ، ويَسْبيَ النساءَ والذّرارِيّ ، ولا يَقْبلَ من أحدٍ إلا الإسلام ؛ فمن آمَنَ[(١)] فهو خَيْرٌ له ، ومَنْ تَرَكَه فلَنْ يُعجِزَ اللهَ . وقد أمَرتُ رسولِي أنْ يقرأ كتابِي فى كُلّ مَجْمَعٍ لكم ، والداعيةُ الأذانُ ، فإنْ أذَّن المسلمونَ فأذّنوا ، كُفّوا عنهــم ، وإن لم يُؤَذّنوا [عاجلوهم ، وإن أذّنوا][(٢)] سَلُوهُمْ ماعليهم ، فإنْ أبَوْا عاجِلُوهم ، وإن أقرّوا قَبِلَ منهم وحَمَلَهُمْ علىٰ ما يَنْبغِي لهمْ .

---

(١) فى العبر بقية ج ٢ ص ٧٠ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٢٦ "فمن اتبعه" .

(٢) الزيادة من رواية الطبرى ج ٣ ص ٢٢٦ .

الجمـــلة الثـانية

(فى المكاتبات الصادرة عن بقيّة الخلفاء من الصحابة رضوانُ الله عليهم)

وهى علىٰ أسلوبين :

الأســـلوب الأوّل

(أن يُفتتَح الكتابُ بلفظ «من فلان إلىٰ فلان»)

يقال إن أمير المؤمنين عمرَ بنَ الخطاب رضى الله عنه لمـا صارتِ الخلافةُ إليـه بعدَ أبى بكر، كان يكتُب فى كُتُبه : «من عُمَرَ بنِ الخطاب خليفةِ خليفةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم إلىٰ فلانٍ» فلما تلقّب بأمير المؤمنين علىٰ ما تقدّم فى المقالة الثالثة، أثبتَ هذا اللّقب فى كُتُبه، وزاد فى ٱبتدائها لفظَ «عبْدِ الله» قبلَ ٱسمِه، ليكون ٱسمُه نعتاً له (١)، فكان يكتب : «من عبدِ الله عمرَ بن الخطاب أميرِ المؤمنيـــن إلىٰ فلان» وباقى الكتاب علىٰ ما مَرّ فى كُتُب النبىّ صلّى الله عليه وسلم والصدّيق بعـده فى التصدير والتعبير عن نَفْسه بلفظ الإفراد، مثل أنا ولى وعلىّ، وعن المكتوب له بكاف الخطاب : مثـل لكَ وعليكَ، وتاء المخاطب : مثل قلتَ وفعلتَ ؛ وتبعه الخلفاء علىٰ ذلك . وعَنْوَنَتُها «من عبدِ الله فلانٍ أمير المؤمنين» فى الجانب الأيمن، ثم «إلىٰ فلان الفلانى» فى الجانب الأيسر كما تقدّم ترتيبه .

فمن ذلك ما كتب به أميرُ المؤمنين عمرُ رضى الله عنه إلىٰ عَمْرو بن العاص وهو يومئـذ أميرُ مصرَ، وهو :

---

(١) لعله "تبعا له" .

« من عبدِ الله عمرَ أميرِ المؤمنين إلىٰ عَمْرو بن العاص : سلامٌ عليك .

أمّا بعدُ، فقد بلَغني أنّه فشَتْ لك فاشيةٌ من خَيْلٍ وإبِلٍ وبقَرٍ وعَبِيدٍ، وعَهْدِى بكَ قبلَ ذلكَ ولا مالَ لَكَ ، فاكتُبْ إلَىَّ من أينَ أصْلُ هذا المـالِ » .

✤

ومن ذلك ما كتب به معاويةُ بنُ أبى سـفيان فى خلافته إلىٰ آبنه يزِيدَ ، وقد بلغه مقارفتُهُ اللذاتِ ، وآنهماكُه علىٰ الشّهوات ، وهو :

« من معاويةَ بن أبى سُفْيانَ أميرِ المؤمنين إلىٰ يزيدَ بن مُعاويةَ .

أمّا بعدُ ، فقد أدّتْ ألسِـنَةُ التصريحِ إلىٰ أُذُنِ العنايةِ بِكَ ما فَجَعَ الأَمَلَ فيـك ، وباعدَ الرَّجاءَ منـك إذْ ملأْتَ العيونَ بَهجةً ، والقُلوبَ هَيْبةً ، وترامَتْ إليك آمالُ الرّاغبين ، وهِمَمُ المتنافِسين ، وشَخَتْ بك فِتْيانُ قُرَيْش وكُهُول أهلِكَ ، فما يَسُوغُ لهم ذِكْرُك إلا علىٰ الحِرَّة المُهَوَّعة ، والكَظْ الجَشْءِ ، اقتحمتَ البوائق ، وانقدت للمَعَايِر ، وآعتَضْتَها من سُمُوّ الفضل ، ورفيعِ القَدْر ، فلَيْتَكَ يزيدُ إذ كنت لم تكُنْ . سَرَرْتَ يافِعًا ناشئًا ! وأثْكلْتَ كَهْلا ضالِعًا ، فواحَزَناه عَلَيْكَ يزيدُ ! وياحَرَّصـدرَ المُثْكَلِ بك ! ما أشْمتَ فِتْيانَ بنى هاشِم ! وأذَلَّ فِتْيانَ بنى عبدِ شمس ! عِنْدَ تَفَاوُضِ المَفَاخرِ ودِرَاسة المَنَاقِب ! فَمَنْ لصلاحِ ما أفسَدْتَ ، ورَتْقِ ما افْتَتَقْت ؟ هَيْهاتَ خَمَشت الدُّرْبةُ وجْهَ التصَبُّرِ بك ، وأبَتِ الجنايةُ إلا تحَـدُّرًا علىٰ الألْسُن ، وحلاوةً علىٰ المَنَاطِق ، ما أرْبَحَ فائدةً نالُوها ، وفُرصةً آنتهزُوها ! ، آنتَبِهْ يَزِيدُ للفظَه ، وشاوِرِ الفِكْرَه ، ولا تكُنْ إلىٰ سَمْعِك أسرَعَ من معنـاها إلىٰ عَقْلِك . وآعلم أنّ الذى وَطّاك وسوسة الشّـيْطان ، وزَخْرفة السُّلْطان ، ممـا حَسُن عندك قُبْحُه ، وآحْلَوْلىٰ عندك مُرُّه ، أمْرٌ شَرَكَكَ فيه

السّواد ونافسَكَهُ الأعْبُـد، لا لأُثْرة تدَّعيها أو حَبَتْها لك الإمْرة، وأضعتَ بهـا من قَدْرك، فأمكنْتَ بها من نَفْسك، فكأنك شانِئُ نَفْسك، فمن لهذا كله ؟ .

اِعلم يا يَزِيدُ أنك طَرِيدُ الموتِ وأسِـيرُ الحَياة ، بلَغنِي أنك اتخَـذْت المَصانِـعَ والمَجالِسَ للمَلاَهِي والمَزَامِيرِ كما قال تعالىٰ : ﴿أتبْنُونَ بكُلِّ رِيعٍ آيَةً تعبثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِـعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ وأجْهرْتَ الفاحِشَةَ حتّى اتخَذْتَ سريرَتَها عندك جَهْرا .

اِعلم يا يزيدُ أن أوّلَ ماسَلَبَكَهُ السُّكْرُ معرفةُ مَواطن الشُّكر لله علىٰ نِعَمه المتظاهرة، وآلائِه المُتواترة، وهي الجُرْحة العُظمىٰ، والفَجْعةُ الكُبْرىٰ : تركُ الصَّلَوات المفروضات في أوقاتهـا ، وهو من أعظم ما يُحْدِث من آفاتها، ثم استِحْسانُ العُيوب، ورُكُوب الذُّنوب، و إظهارُ العَوْرة، و إباحةُ السِّرّ . فلا تأمَنْ نفسَـك علىٰ سِرّك ، ولا تَعْقد علىٰ فعلك . فمـا خيرُ لذةٍ تُعقِبُ الندَم، وتُعَفِّي الكَرَم؟ وقد توقَّف أميرُ المؤمنين بين شَطْرَيْن من أمرك ، لمـا يتوقَّعُه من غَلَبة الآفة واستهلاكِ الشَّهوة . فكن الحاكمَ علىٰ نفسك، واجعل المحكوم عليه ذِهْنَكَ تَرْشُدْ إن شاء الله تعالىٰ . وليَبْلُغْ أميرَ المؤمنين ما يردُّ شارِدًا من نومه، فقد أصبح نُصْبَ الاعتزالِ من كل مُؤَانِس، ودُرَأَةَ[1] الألسن الشامتة ، وفَّقَك الله فأحسن .

الأسـلوب الثـانى

(أن يُفتَتح الكتابُ بلفظ «أمّا بعد»)

وهو علىٰ ما تقدّم خلا الابتداءَ والتصـديرَ بالسلام والتحميد ، ويكون الافتتاح فيه بالمَقْصد، كما كتب أمير المؤمنين عثمانُ بن عَفَّانَ إلىٰ عليّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه حين خرج عليّ إلىٰ اليَنْبُع واختلف الناسُ علىٰ عثمان .

---

(١) لعله دريئة وهى الحلقة التى يتعلم عليها الطعن .

أما بعدُ، فقد بلغ السَّيلُ الزُّبىٰ [وجاوز][1] الحِزَامُ الطُّبْيَيْن، وطَمِع فىّ كُلُّ من كان يضعف [عن الدفع][1] عن نفسه، ولم يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّب ، فأقبِلْ إلىّ صديقًا كُنتَ أو عدُوًا :

فإنْ كُنتُ مَأْكُولًا ،فكُنْ خَيْرَ آكِلٍ * وإلا فأدْرِكْنِي ولَمَّا أُمَزَّق

الطـــرف الثـانى

(فى الكُتُب الصادرة عن خلفاء بنى أُمَيّة)

وهى علىٰ ماتقـدّم من الكُتُب عن الخلفاء من الصحابة فى التصدير والتعبير، إلا أنه يعـبَّر عن الخليفة بأمير المؤمنين، وربمـا عُبِّر عنه بلفظ الإفراد . مثل : فعلْتُ وأفعَلُ وما أشـبه ذلك، أما الخطاب للمكتوب له فبكاف الخطاب وتاء المخاطَب، مثل: إنكَ أنتَ قلتَ كذا، وفعلتَ كذا، وماأشبه ذلك . وعنوانُها : «من عبد الله فلانٍ أمير المؤمنين» فى الجانب الأيمن، ثم «إلىٰ فلانٍ الفلانىّ» فى الجانب الأيسر.

ثم هى علىٰ أسلوبين :

الأســـلوب الأوّل

(أن يفتَتح الكتابُ بلفظ «من عبدِ الله فلانٍ أمير المؤمنين إلىٰ فلان»)

كما كتب عبد الملك بنُ مَرْوان إلىٰ الحجّاج بن يوسفَ ـ وقد بلغه تعرّضُه لأنَسِ ابن مالك رضى الله عنه ـ «بسم الله الرحمن الرحيم من عبدِالله عبدالملك بنِ مروانَ أمير المؤمنين إلىٰ الحجّاج ابن يوســف

---

(١) الزيادة عن الضوء .

أما بعدُ، فإنّكْ عبدٌ علَتْ[1] بك الأُمورُ فطغيْتَ، وعلوتَ فيها حتّى جُزْتَ حدَّ قَدْرِك، وعَدَوْتَ طَوْرَك. وآيْمُ الله لأَغْمِزَنَّك كبعض غَمَزاتِ اللُّيوثِ الثَّعالبَ! ولَأَرْكُضَنَّك رَكْضَـةً تدخُل منهـا فى وَجْعَاءِ أُمِّك، اذْكُرْ مكاسبَ آبائك فى الطائف، إذ كانوا يَنْقُلُون الحجارةَ علىٰ أعناقِهم، ويَحْفِرُون الآبارَ والمناهرَ بأيديهم! قد نَسِيتَ ما كنتَ عليـه أنت وآباؤُك من الدَّناءة واللُّؤم والضَّراعة. وقد بلغ أميرَ المؤمنين آستطالةٌ منك علىٰ أنسِ بنِ مالك جُرْأَةً منك علىٰ أميرِ المؤمنين، وغِرَّةً بمعرفةِ غِيَرِه ونَقِماته وسَطَواته علىٰ من خالف سبيله، وعَمَدَ إلىٰ غير مَحَجَّتِه، ونزل عنـد سُخْطته، وأظنُّك أردتَ أن تَرُوزَه بها فتعلم ما عنـده من التغيير والتنكير فيها، فإن سُوِّغْتَها مضيتَ قُدُما، وإن غَصِصْتَ بها ولَّيت دُبُرًا أيُّها[2] العبدُ الأخفَشُ العينين، الأَصَكُّ الرجلين، الممسوحُ الجاعِرَتين، ولن يَخْفَىٰ عن أميرِ المؤمنين نَبَؤُك، ولكلِّ نَبَإٍ مستقَرٌّ وسَوفَ تعلمُون.

الأســـــلوب الثـانى

(أن يفتتح الكتاب بلفظ «أما بعد» ويقع الشروعُ منه فى المَقْصَد)

كما كتب يزيدُ بن معاوية إلىٰ أهل المدينة النبويّة ـ علىٰ ساكنها أفضل الصلاة والسلام، والتحية والإكرام ـ وقد بلغه خلافُهم عليه.

"أما بعدُ، فإنَّ الله لا يُغَيِّر ما بِقَوْم حتّى يُغَيِّروا ما بأنفُسِهم، وإذا أراد اللهُ بقوم سُـوءًا فلا مَرَدَّ له وما لَهُم مِنْ دُونِه مِنْ والٍ. إنّى والله قد لبِسْتُكم فأَخْلَقْتُكم! ورفَعْتُكم علىٰ رأسى، ثم علىٰ عينى، ثم علىٰ فَمِى، ثم علىٰ بَطْنِى، وآيْمُ الله لئِنْ وضَعْتُكم

---

(١) فى مفتاح الافكار ص ١٨١ "طمت" وهى أقرب الى المعنى وفيه فى آخر الكتاب زيادة فراجعه.

(٢) فى "مفتاح الأفكار" فعليك لعنة الله من عبد أخفش الخ.

تحتَ قدَمِي لأطأنّكم وطأةً أُقِلّ بها عدَدَكُمْ ، وأترُكُكم بها أحاديثَ تُنْسَخ منها أخبارُكم كأخبارِ عادٍ وثَمُودَ" .

وكما كتب عمرُ بنُ عبد العزيز إلى عَدِىّ بن أرطاةَ، وهوعامله على بعض النّواحى .

"أما بعدُ، فإذا أمكنتك القُدْرةُ على المخلوق، فاذكر قُدرةَ الخالق عليك ! واعلم أنّ مالَكَ عند الله مثلُ ما للرعيّة عندك" .

وكما كتب يزيدُ بنُ الوليد المعروفُ بالناقص إلى مَرْوان بن محمد — وقد بلغه عنه تلكُّؤٌ فى بيْعته — .

"أما بعدُ، فإنّى أراكَ تُقَدِّمُ رِجْلا وتُؤخّر أُخرى، فإذا أتاك كتابِى فاعتَمِدْ على أيِّهما شئتَ والسلام" .

قلت : ولم يزل الأمرُ فى المكاتبات فى الدولة الأُمويّة جاريا على سَنَن السَّلَف، إلى أن وَلِىَ الوليدُ بنُ عبدالملك، فجوّد القَراطيسَ، وجلَّل الخُطُوط، وفخّم المكاتباتِ؛ وتبعه مَنْ بعده من الخلفاء على ذلك ، إلا عُمَرَبن عبد العزيز، ويزيدَ بنَ الوليد المقدّم ذكره، فإنهما جريَا فى ذلك على طريقة السلَف ؛ ثم جرى الأمرُ بعدهما على ماسنّه الوليدُ بن عبد الملك ، إلى أن صار الأمرُ إلى مَرْوانَ بن محمد آخرِ خلفائهم، وكتب له عبدُالحميد بن يحيى — وكان من اللَّسَن والبلاغة على ما اشتهر ذكره — فأطال الكُتُبَ وأطنبَ فيها ، حيثُ اقتضى الحالُ تطويلَها والإطنابَ فيها ، حتّى يقال : إنه كتب كتابًا عن الخليفة جاء وِقْرَ جملٍ، واستمرّ ذلك فيما بعده .

الطـــــرف الثـالث

(فى الكتب الصـادرة عن خلفـاء بنى العبّـاس ببغـــدادَ
ووُلَاة العهدِ بالخلافة، وفيه ثلاثُ جمل)

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى بيان ترتيب كُتُبهم فى الرسائل علىٰ سبيل الإجمال)

كانوا يفتتحون أكثَرَ كُتُبهــم بلفظ « من فلانٍ إلىٰ فلانٍ » وتارةً بـ«أما بعــد » وربمــا آفتتحُوها بغــير ذلك ؛ فأما آفتتاحُها بلفظ من فلان إلىٰ فلان فكان يُكتَب عنهم فى أوّل دَوْلتهم كما كان يُكتَب عن خلفاء بنى أُميَّــة ، وهو «من عبد الله فلان أمير المؤمنين، ســلامٌ عليك، فإن أمير المؤمنين يحمَــدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو» ثم يتخلّص إلىٰ المقصود بلفظ أما بعــد . إلا أنهــم زادُوا بعد آسم الخليفــة لفظ « الإمام الفلانى » بلقب الخلافة ، فكان يقال : « من عبد الله الإمام الفلانى أمير المؤمنين » فلما صارت الخلافةُ إلىٰ الرشيد زاد بعد التحميد « ويسأله أن يصلِّىَ علىٰ محمد عبده ورسوله صلّى الله عليه وسلم » فلمــا وُلِّىَ آبنُه الأمين آكتفىٰ فى كتبه وتبعه مَنْ بعده من الخلفاء علىٰ ذلك .

وقد آختُلِف فى تقديم الآسم والكُنْية واللّقَب ، والذى رَتّبــه أبو جعفر النحاس فى "صناعة الكُتّاب" تقديمُ الآسم علىٰ الكُنْية وتقديمُ الكُنْية علىٰ اللقب . مثــل أن يقال : « من عبــد الله فلانٍ أبى فلانٍ الإمام الفلانى أمير المؤمنين » ثم قال : وهذه المكاتبة هى التى آصطُلح عليها فى الأمور السلطانية التى تُنْشَأ بهــا الكتُب من الدواويــن ، إلا أن بعض العلمــاء قد خالفهم فى هذا ، وقال : الأولىٰ أن يُبْدأ

باللقب، مثل أن يقال «من الراضى» أو «المتوكل» وما أشبه ذلك، كما قال الله جل وعز: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ﴾ وذلك لأن اللقب لايشاركه فيه غيره، فكان أولى أن يُبْدَأ به .

وترتيب المكاتبة على ماذكره فى "صناعة الكتّاب" أن يَكْتُب : «من عبد الله فلانٍ أبى فلان الإمامِ الفلانى أميرالمؤمنين، سلامٌ عليك؛ فإن أميرالمؤمنين يحمَدُ إليك اللهَ الذى لاإلٰهَ إلاهو، ويسْألُه أن يصَلِّى على محمد عبده ورسوله» . ثم يَفْصِل ببياض يسير، ويكتب «أما بعدُ فإن كذا وكذا» ؛ ثم يأتِى على المعنى ، فإذا فرغ من ذلك وأراد أن يأمر بأمر، فصل ببياض يسير، ثم يكتب : «وقد أمر أميرُالمؤمنين بكذا ورأى أن يُكْتَب إليك بكذا» ، فيؤمر بامتثال ما أمر به والعمل بحسَبِه ؛ ثم يفصل ببياض ويكتب : فاعلَمْ ذلك من رأْى أميرالمؤمنين، واْعمَلْ به، إن شاء الله تعالى. «وكتب فلان بن فلان» باسم الوزير واسم أبيــه ، يوم كذا ، من شهر كذا ، من سنة كذا . وقد يكتب فى أواخر المكاتبة بعــد اْستيفاء المَقْصِــد : « هذه مناجاةُ أمير المؤمنين لك » أو « هذه مفاوَضةُ أمير المؤمنين لك » .

ويقال : فى السـلام على أعلى الطبقات من المكتوب إليهم « والسـلامُ عليك ورحمة الله » وربمـا قيل : « ورحمة الله وبركاتُه » .

***

وأما افتتاحها بلفظ أما بعد، فغالبُ مايقع فى الكتب المطْلَقة : كالبُشْرى بالفتوح وغيرها، ثم تارة يعقِّب البعديةَ بالحمدُ لله، إما مرةً أو أكثر، وغالب مايكون ثلاث، وتارة يعقِّب بغير الحمد .

* * *

وأما الافتتاح بغـير هذين الافتتاحين، فتارةً يكونُ بالدعاء، وتارةً يكون بغيره ، ويكون التعبير عن الخليفـة فى كتبه الصـادرة عنه « بأمير المؤمنين » علىٰ ما تقدّم فى خلافة بنى أُمَيَّة .

ثم إن كان المكتوبُ إليه معيّنا، فالذى كان عليه الحال فى أوّل دولتهم أن يُكْتَب إليه باسمه؛ ثم لمـا تغلب بنو بُوَيْه علىٰ الخلفاء وغَلَبُوا عليهم، وعلت كلمتُهم فى الدولة وتلقّبوا بفلان الدَّوْلة وفلان المِلّة، فكان يُكْتَب إليهـم بذلك فى الكتب إليهـم ؛ ثم لمـا كانت الدولة السَّلْجوقيّـةُ فى أواخر الدولة العباسية ببغـداد، آستعملوا كثرةَ الألقاب للكتوب إليــه عن الخليفةِ فى صَدْر المكاتبـة . قال فى "موادّ البيان" : ولا يخاطبُ أحدٌ عن الخليفة إلا بالكاف . وقد يخاطِبُ الإمام وزيرَه فى المكاتبة الخاصةِ بما يَرْفَعهُ فيه عن خطاب المكاتبة العامّة الديوانية، ويتصرّف فى ذلك ويُزاد ويُنْقَص علىٰ حسب لَطَافة محل الوزير ومنزلته من الفضل والجلالة .

قال فى " ذخيرة الكتّاب " : ويكون الدعاءُ من الخليفـة لمن يكاتبـه علىٰ قدر موْضِعه من خِدْمته ومحلِّه عنده؛ وقد تقدّم أن أعلىٰ الدعاء كان عندهم بإطالة البقاء؛ ولذلك كان يُدْعىٰ لملوك بنى بويه فمن بعدهم بلفظ : «أطال الله بقاءك» وقد تقدّم فى المقـالة الثالثة فى الكلام علىٰ مقادير قَطْع الورق ومايناسب كلَّ قَطْع من الأقلام أنه إن كانت المكاتبةُ عن الخليفة ترك الكاتبُ من رأس الدَّرْج قدر ذراع بياضا؛ ثم يكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» ثم يكتب فى سطر ثانٍ يلاصقها ويخرج يسيرا، من عبد الله إلىٰ آخر التصـدير الذى يليه أمّا بعـد، وأن التصدير يكون فى سطرين

بينهما فضاءٌ قدرَ شبر، لا يزيد عن ذلك ولا ينقُص؛ ثم يترك بعـد هذين السطرين فضاءً بنصـف ما بين الأوّلين فيما ذكره فى "موادّ البيـان" : وبقـدره فيما ذكره فى "ذخيرة الكتّاب" ثم يقول : أما بعد، ويأتى على المكاتبة إلى آخرها على هذا النحو .

أما عَنْونةُ كتبهم، فكانت فى أوّل دولتهم : «من عبد الله فلانٍ الإمامِ الفلانىّ أمير المؤمنين» فى الجانب الأيمن، وفى الجانب الأيسر «إلى فلانِ بنِ فلان» . ثم زاد المأمونُ فى أوّل عُنْواناته «بسم الله الرحمن الرحيم» . ولما تكنّى الأمينُ فى كتبه بعد ذلك زيدت الكُنْية فى العنوان، فكان يكتب فى الجـانب الأيمن «بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله فلان أبى فلان الإمام الفلانى» وفى الجانب الأيسر، «إلى فلان ابن فلان» . وقد تقدّم فى الكلام على ترتيب المكاتبات أن البسملة بقيت فى العَنْونة إلى زمن النحّاس فى خلافة الراضى، وأن صاحب "موادّ البيان" ذكر أنها بطلت منه بعد ذلك .

قال النحاس : فإن كان المكتوبُ إليه مَن مَوَالِى بنى هاشم، نُسِب إلى ذلك، وإن لم يكن ينسب إليهم تُرِك .

الجمـــلة الثـانية
(فى الكُتُب العامّة ، وهى على أُسلوبين)

الأســلوب الأوّل
(أن يفتتح الكتّابُ بلفظ «من فلان إلى فلان»)

بأن يكتب «من عبد الله فلانٍ أبى فلان الإمام الفلانىّ أمير المؤمنين» إلى آخر المكاتبة على ما تقدّم ترتيبه .

وهذه نسخة كتاب من ذلك كتب به أبو إسحـاقَ الصابى عن الطائع لله إلىٰ صَمْصام الدولة بن عَضُد الدولة بن بويه بسبب كردويه، الخارج عن الطاعة، وليس فيه تكنية للخليفة وهو .

من عبد الله « عبـد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين » إلىٰ صَمْصام الدولة وشمس المِلّة أبى كاليجار بن عَضُد الدولة وتاج المِلّة مولىٰ أمير المؤمنين .

سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يَحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ، ويسأله أن يصلِّى علىٰ محمد عبده ورسوله صلّى الله عليه وسلم .

أما بعـدُ ـ أطالَ الله بقاءكَ ـ فإن أمير المؤمنين وإن كان قد بَوّأكَ المنزلة العُلْيا ، وأنالك من أُثرته الغايةَ القُصْوىٰ ، وجعل لك ما كان لأبيك عضدِ الدولة وتاج الملة رحمةُ الله عليـه من القَدْر والمَحلّ ، والموضع الأرْفع الأجلّ ، فإنه يُوجِب لك عنـد بَذْلِك أثَرًا يكون لك فى الخِدْمه ، ومقامَ حمد تقومه فى حماية البيضة ، إنعامًا يظاهره ، وإكراما يتابعه ويُواتره . والله يؤيِّدك من توفيقه وتسديده ، ويُمِدّك بمعونته وتأييده ، ويَخير لأمير المؤمنين فيما رأيه مستمِرّ عليه من مَزِيدك وتمكينك ، والإبقاء بك وتعظيمك ، وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكَّلُ وإليه يُنِيبُ .

وقد عرفتَ ـ أدام الله عزَّك ـ ما كان من أمر كردويه كافِرِ نعمة أمير المؤمنين ونعمتِك ، وجاحدِ صَنِيعته وصنيعتِك ، فى الوَثْبة التى وثبها ، والكبيرة التى ٱرتكبها ، وتقريره أن ينتهز الفُرْصة التى لم يُمكِّنْه الله منها ، بل كان من وراء [ذلك] دفعُه وردُّه عنها ، ومعاجلتُك إيّاه الحربَ التى أصلاه اللهُ نارَها ، وقنَّعه عارَها وشَنَارها ، حتّى ٱنهزم والأوغادَ الذين شَرِكُوه فى إثارة الفِتْنـة علىٰ أقبح أحوال الذِّلة والقِـلّة ، بعدَ القتل الذَّرِيع ، والإثخانِ الوَجِيع ، فالحمد لله علىٰ هـذه النعمة التى جَلّ موقِعُها ، وبانَ علىٰ

الخاصّة والعامّة أثرها، ولَزِم أميرَ المؤمنين خُصوصا والمسلمين عموما نَشْرُها، والحديثُ بها، وهو المسئُول إقامتَها وإدامتَها برحمته .

وقد رأىٰ أمير المؤمنين أن يُجازِيَك عن هذا الفتح العظيم، والمقام المَجيد الكريم، بخِلَع تامّة، ودابّتين ومركبين ذهباً من مَرَاكبه، وسَيْف وطَوْق وسِوار مرصّع، فتلقّ ذلك بالشكر عليه، والاعتداد بنعمته فيه، وٱلبَس خِلَع أمير المؤمنين وتكرِمتَه، وسِرْ من بابه علىٰ حملاته، وأظْهِر ماحَبَاك به لأهل حضرته، ليُعِزّ الله بذلك وليّه ووليّك، ويُذِلّ عدوّه وعَدُوّك، إن شاء الله تعالىٰ، والسلامُ عليك ورحمة الله وبركاته .

(وكتب أحمدُ بن محمد لثمان إن بَقِينَ من شهر ربيع الأوّل سنة خمس وسبعين وثلثمائة)

أطال الله بقاءَك، وأدام عِزّك، وأحسنَ حِفْظك وحياطَتك، وأمتَع أميرَ المؤمنين بك، وبالنعمة فيكَ وعِندَك .

*

وهذه نسخةُ كتابٍ آخَرَ من ذلك أيضا، كُتِب به عن المقتفِي لأمر الله إلىٰ السلطان مسعودِ بن محمد بن مَلِكْشاه السلجوقيّ في تعزيةٍ بولدٍ مات له؛ وفيه تكنية الخليفة وتقديم الكُنْية علىٰ الآسم وكثرةُ الألقاب للمكتوب إليه وهو .

" من عبد الله أبي عبد الله محمد المقتفِي لأمر الله أمير المؤمنين، إلىٰ شاهنشاه المعظّم مولىٰ الأمم، مالكِ رِقاب العرب والعجَم، جلالِ دين الله، ظَهِيرِ عِبَاد الله، حافظ بلاد الله، مُعِينِ خليفة الله، غِيَاثِ الدنيا والدِّين، ناصرِ الإسلام والمسلمين، محيي الدولة القاهره، مُعِزّ الملة الزاهره، عماد الملة الباهره، أبي الفتح « مسعود آبن محمد ملكشاه» قسيم أمير المؤمنين .

سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يحمَدُ إليــكَ اللهَ الذى لاإله إلا هو، ويسأله أن يصَلِّيَ علىٰ محمد عبده ورسوله ويُسَلِّمَ تسليماً .

أما بعدُ، أطال الله بقاءَك! وأدام عِزَّك وتأييدَك وسعادتَك ونعمتَك، وأحسَنَ حِفْظك وكَلَاءتك ورِعايَتَك؛ وأمتعَ أمير المؤمنيــن بكَ، وبالنعمةِ الجليلةِ والمَوْهِبةِ الجزيلة والمِنْحة النَّفيسةِ فيك وعندك، ولا أخلاه منك! ، فإن أولىٰ من آدَّرع للحوادث جُنَّــة الاِصْطِبار، ونَظَر أحوالَ الدنيا فى تقلُّبها بعينِ الاِعتبار، ورجَع إلىٰ الله تعــالىٰ فى قَدَره وقضائه ، وسَلَّم لأمره الذى لارادّ له فى آمْتِحانه وآبتلائه . وعرفَ أنَّ له سبحانه فى كلِّ ما يُجْرِيه علىٰ عباده حِكمَةً باطنــه، ومصلحةً كامنه ؛ من خيرٍ عاجل ينشُره، وثوابٍ آجل يُؤَخِّره لهم إلىٰ يوم الجزاء ويدَّخِره ؛ وفائدةٍ هو أدرىٰ بها وأعْلم، وفعلُه فيها أتقنُ وأحكَم ؛ مَنْ خَصَّه بمــا خصَّك الله به من الدين الراجح ، والخُلُق الصالح، والمعتَقَــد الواضح ؛ والنِّعم التى جادكَ فى كلِّ يومٍ مُقَــامِ سَحَابُها، وآتسعَتْ بين يديك عند مَضَايق الأمور رِحابُهــا ، وأنِسَتْ إذا آستوحشَتْ من العاجزين عن آرتباطها بالشُّكر صِحابُها؛ والمناقبِ التى فَرَعْتَ بها صَهَواتِ المجد، وتملَّكْت رِقَّ الثناء والحمد؛ وعلوتَ فيها عن المُساجِل والمُطاوِل، وبَعُدَ ماحضر لك منها عن أن تنالَه يدُ القــائم المُحاوِل . وتأدَّى إلىٰ حضرة أمير المؤمنين ــ أمتعه الله ببقائك ، ودافَعَ له عن حوبائك[(١)] ــ نبأُ الحــادثة بسَليلك الذى آختار الله له كريمَ جِوَاره، فأحبَّ له الاِنتقالَ إلىٰ محــلِّ الفَوز ومَداره ، فوَجَدَ لذلك وُجُوما موفَّرا ، وهمًّا للسُّكون منفِّرا ؛ وتوزُّعا تقتضيه المشاركةُ لك فيما ساويته(؟) والمساهمةُ الحاصلةُ فى كل ماحَلَا من الأمور وأمَرّ، وأمَر عند ورود هذا الخبر بالتَصَدِّى للعزَاء، وإعلان مايُعْلَنُ عن مقاسمتك فى الضَّرَّاء ــ دفعها الله عنك ــ والسَّرَّاء ؛ ونَدَب جمْعا من الخَدَم المُطيفين بشريف سُدَّته ،

(١) الحوباء النفس أنظر القاموس .

المختصين بعزيز خدمتــه ؛ بتعزّ يتصوّنه لباس التعزيه ، ويستدْنى بتقمّصه عازب التسليه ؛ إبانةً عن آنصراف الهِمَم الإماميّة إليك فيا خصّ وعمّ من حالك ، وآستجلابه لك دَواعِيَ المَسَارّ فى حَلّك وتَرْحالك ؛ وكونِ الأفكار الشريفة موكّلةً بكل ماحمىٰ من الروائع قلْبَــك ، وأعذَبَ شِرْبك ؛ وأنت حقيقٌ بمعرفة هــذه الحال من طويّته لك ونيته ، ورأيه فيك وشفقته ، ورعاية مَصْلحتِك منه بعين كاليه ، ورُجوعِه من المحافظة فى حَقِّك إلىٰ أُلفة بالصّفاء حاليه ؛ وتلَقِّى الرَّزِيَّة التى أرادها اللهُ وقضاها ، وأنفذ مشيئته فيها وأمضاها ؛ بالصبرِ المأمورِ به والاحتساب ، والتسليم الموعود عليه بجزيل الثّواب ؛ علما أن الأقدار لا تُغالَب ، وغريمَها لا يُطالَب ؛ وان الله تعالىٰ إذْ قال لنبيه صلّى الله عليه وسـلم ــ وهو سيد البشر ــ ﴿ إنَّك ميتٌ وإنّهم ميّتُون ﴾ فلا سبيلَ لأحدٍ من خَلْقــه إلىٰ البقاء ، ولا وَجْهَ للخُلود فى دار الفَنَاء ؛ ولا دافعَ لحكمه جلّتْ عظمتُه فيا قدّره من الآجال ، وسبق فى عِلْمه من الرّوائع فى دار الابتــلاء والأوجال ؛ وما يزال التطلّعُ واقعا إلىٰ وصــول جوابك الدالّ علىٰ السُّلْوة التى هى الأليقُ بك ، والأدْعىٰ إلىٰ حصول بُغْيتِك من قَضاء اللهِ وأدبك ؛ لتحُطّ الأنَسةُ مع وصــوله فى رِحالها ، وتُؤْذِنَ لِصرْف الغُمُوم الجاريةِ لأجلك بارتحالها .

هذه مناجاةُ أميرالمؤمنين لك ، أدام الله تأييدك ! وأمتع بك ! إن شاء الله تعالىٰ ، والسلام عليك ورحمة الله .

الأُسْــــلوب الثـانى

(أن يكون الاِفتتاحُ بلفظ «أما بعـــد» وهو علىٰ نوعيـــن)

النـــــوع الأوّل

(أن يَعقب البعديةَ «الحمدُ لله» ؛ وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(أن يتعدّد الحمد فى أوّل الكتاب)

ويكون ذلك فى الكتب المؤْذِنة بحصول نعمةٍ ظاهرة : كالفتوح ونحوها . ويقع التعدُّد فيها بحسَب ما تقتضيه النعمةُ ؛ وغالبَ ما يكون ثلاث مرات ، وربمـا وقع التحميدُ فى أوّل الكتاب وآخره .

وهذه نسخة كتابٍ من هذا النوع كُتِب بهـا عن المعتصم إلىٰ ملوك الآفاق من المسلمين عند قبض الأَفْشِين علىٰ بابَك ملك الروم ، وهى :

أما بعدُ، فالحمدُ لله الذى جعل العاقبةَ لِدينه ، والعِصْمة لأوليائه ، والعِزَّ لمن نصره ، والفَلْج لمن أطاعه ، والحقَّ لمن عَرَف حقَّـه ؛ وجعل دائرَةَ السَّوء علىٰ من عصاه وصَدَف عنه ، ورَغِب عن رُبُوبيته ، وٱبتغىٰ إلٰها غيره . لاإلٰهَ إلا هو وحده لاشريكَ له . يحمدُه أميرالمؤمنين حمدَ مَنْ لايعبُد غيْرَه ، ولا يتوكَّلُ إلا عليه ، ولايفوِّض أمْرَه إلا إليه ؛ ولا يرجُو الخيرَ إلا من عنـده ، والمزيدَ إلا من سَعَة فضله ؛ ولا يستعين فى أحواله كلِّها إلا به . ويسألُه أن يصـلِّ علىٰ محمد عبده ورســوله ، وصَفْوته من عباده ، الذى ٱرتضاه لنبوّته ، وٱبتعثه بوحْيِــه وٱختصَّــه بكرامته ؛ فأرســله بالحق شاهدا ومبَشِّرا ونَذيرا ، وداعيًا إلىٰ الله بإذْنِهِ وسِرَاجا مُنيرا . والحمد لله الذى توجه

لأمير المؤمنين بصنعه، فيسّر له أمْره، وصَدَق له ظنّه، وأنجح له طَلِبته، وأنفذ له حيلته، وبلّغ له محبّته، وأدرك المسلمون بثأرهم علىٰ يده، وقتل عدوّهم، وأسكن رَوْعتهم، ورحِم فاقتَهم، وآنس وَحْشتهم، فأصبحوا آمنين مطمئنّين مقيمين فى ديارهم، متمكّنين فى أوطانهم، بعد القتْل والخوف والتشريد وطُول العنَاء، وتتابُع البَلاء، منّاً من الله عزّ وجلّ علىٰ أمير المؤمنين بما خصّه به، وصُنعًا له فيما وفّقه لطلبه، وكرامةً زادها فيما أجرىٰ علىٰ يده؛ فالحمدُ لله كثيراً كما هو أهلُه، ونرْغَبُ إلىٰ الله فى تمام نِعَمِه ودوام صُنْعه، وسَعةِ ماعنده بمَنّه ولُطْفه؛ ولا يعلمُ أمير المؤمنين ـ مع كَثْرة أعداءِ المسلمين وتكنّفهم إيّاه من أقْطاره، والضغائن التى فى قلوبهم علىٰ أهله، وما يترصّدونه من العداوة، وينْطوُون عليه من المُكايَدة، إذ كان هو الظاهرَ عليهم، والآخِذَ منهم ـ عدُوًّا كان أعظم بليّةً، ولا أجلّ خَطْبا، ولا أشدّ كَلَبا، ولا أبلغ مُكايدة، ولا أرمىٰ بمكروه، من هؤلاء الكَفَرة الذين يغزوهم المسلمون، فيستعلُون عليهم، ويَضَعُون أيديَهُم حيثُ شاءوا منهم، ولا يقبلُون لهم صُلْحا، ولا يَميلُون معهم إلىٰ مُوادَعَة؛ وإن كان لهم علىٰ طُول الأيّام وتصرُّف الحالات وبعض ما لا يزال يكون من فَتَرات وُلاةِ الثُّغور أدنىٰ دَوْلة من دَوْلات الظَّفَر وخُلْسة من خُلَس الحرب، كان بما لهُم من خوف العاقبة فى ذلك مُنَغّصا لما تعجّلُوا من سروره، وما يتوقعون من الدوائر بعدُ، مُكدِّرا لما وصل إليهم من فَرْحةٍ.

فأما اللعين بابك وكَفَرتُه، فإنهم كانوا يَغْزُون أكثر مما يُغْزَوْن، وينالُون أكثَرَ مما يُنَالُ منهم؛ ومنهم المنحَرِفون عن المُوادَعة، المتوحّشُون عن المراسَلَة؛ ومَنْ أُديلوا من تُتابُع الدول، ولم يخافوا عاقبةً تُدْرِكهم، ولا دائرةً تَدُور عليهم. وكان مما وطّأ ذلك ومكّنه لهم أنهم قومٌ ٱبتدؤا أمرهم علىٰ حال تشاغُل السلطان، وتتابُع من الفتن، وٱضطرابٍ من الحبل، فاستقبلوا أمرهم بِعزّة من أنفسهم، وضَعْف

وآستثارة ممّن باراهم ، فأجْلَوْا مَنْ حولهم لتخلُص البـلادُ لهم ؛ ثم أخربُوا البـلادَ ليعزّ مطلبُهم، وتَشْـتدّ المـُونة وتعظُمَ الكُلْفة ، ويَقوَوْا فى ذات أيديهم؛ فلم يَتوافَ إليهم قُوّاد السلطان إلا وقد توافتْ إليهم القُوّة من كل جانب، فآسـتفحل أمرُهم، وعظُمت شوكتُهـم ، وآشتدّت ضَروراتُهـم وآستجمع لهم كيْدُهم ، وكثُر عددهم وآعْتِـدادهم ، وتمكّنت الهيبةُ فى صدور النـاس منهم، وتحقّق فى نفوسهم أن كلّ مايَعِدُهم الكافرُ ويُمنّيهم أخْذٌ باليـد . وكان الذى بقى عندهم منـه كالذى مضىٰ، وبدون هٰذا مايخْتدَعُ الأريب ويُستَنْزَل العاقل ويعتَقَل الفَطِن، فكيف بمن لافِكرةَ له، ولا رويّة عنده ؟

هذا مع كل مايقوم فى قلوبهم من حَسَد أهل النِّعم، ومنافستهم علىٰ مافى أيديهم، وتقطُّعِهم حسراتٍ فى إثر ماخُصُّوا به ، وأنهم إن لايكونُوا يَرَوْنَ أنفُسهم أحقّ بذلك ، فإنهم يَرَوْن أنّهم فيه سَواء .

ولم يزل أمير المؤمنين قبل أن تُفضىَ إليه الخلافةُ مادّا عُنُقه، موجِّها هِمّته إلىٰ أن يُولّيَه اللهُ أمْرَ هٰؤلاء الكَفَرة ويملّكه حربهم، ويجعله المقارع لهم عن دِينه، والمُناجِز لهم عن حَقّه، فلم يكن يَألُو فى ذلك حِرْصا وطَلَبا وآحتيالا ؛ فكان أمير المؤمنـين رضى الله عنـه يأبىٰ ذلك لضَنّه به ، وصِيانَتِه بقربه، مع الأمر الذى أعدّه الله له وآثره به ؛ ورأىٰ أن شيئا لايَفِى بقِوام الدين وصَلَاح الأمر .

فلمـا أفضىٰ الله إلىٰ أمير المؤمنين بخلافتـه وأطلق الأمْرَ فى يده ، لم يكن شىءٌ أحبَّ إليه ولا آخَذَ بقلبه مـن المعاجَلَة للكافر وكَفَرته ، فأعزه الله وأعانه الله ، فلله الحمدُ علىٰ ذلك وتيَسُّره ، فأعدّ من أمواله أخْطَرَها ، ومن قُوّاد جيشـه أعلَمَهم بالحرب وأنهضَهم بالمُعْضلات، ومن أوليائه وأبناء دَعْوته ودَعْوة آبائه ـ صلوات الله

عليهم ـ أحسَنهم طاعة ، وأشَدَّهم نِكاية ، وأكثَرَهم عُدّة . ثم أتبع الأموال بالأموال، والرِّجالَ بالرجال ، من خاصّة مواليه وعَدَد غِلْمانه، وقبل ذلك ما آتكل عليه من صُنْع الله جَلَّ وعَزَّ ، ووجه إليه من رِعْيته . فكيْفَ رأىٰ الكافرُ اللعينُ وأصحابُه الملاعين؟ ألم يُكْذِبِ اللهُ ظنونَهم، ويَشْفِ صُدورَ أوليائه منهم؟ يقتُلونهم كيف شاءُوا فى كل موطن ومعتَرَك ، مادامتْ عند أنفُسهم مُقاومةٌ .

فلما ذَلُّوا وقَلُّوا وكَرِهوا الموت، صاروا لايترَاءَوْن إلا فى رُءوس الجبال ومَضايِق الطُّرُق وخَلْفَ الأودِيَةِ ومن وراء الأنهار، وحيثُ لاتنالهم الخيلُ ، حصنا للطاولة وآنتظارًا للدوائر، فكادهم اللهُ عند ذلك وهو خيرُ الكائدين، وآستدْرَجهم حتّى جمعهم إلىٰ حِصْنهم معتصِمين فيه عند أنفسهم، فجعلوا آعتصامهم لحَيْنٍ لهم ،وصُنْعٍ لأوليائه وإحاطةٍ منه به تبارك وتعالىٰ ، بجمعهم وحصرهم لكىْ لاتبقىٰ منهم بقيّةٌ ولا تُرْجىٰ لهم عاقبة، ولا يكونَ الدينُ إلا لله، ولا العاقبةُ إلا لأوليائه، ولا التعْسُ والنَّكْس إلا لمن خَذَله .

فلما حصرهم الله وحبسهم عليهم ودانَتْهم مصارعُهم ، سلَّطهم الله عليهم كَيد واحدة، يختطِفُونهم بسُيوفهم ، وينتظمونَهم برِمَاحهم ، فلا يجدون مَلْجأ ولا مَهْرَبا؛ ثم أمكنَهم من أهاليهم وأولادهم ونِسائهم وحُرَمهم وصيَّروا الدار دارَهم والمحلة محِلَّتهم، والأموال قَسْما بينهم ، والأهلَ إماءً وعبيدا . وفوقَ ذلك كلّه ما فَعَل بهؤلاء وأعطاهم من الرحمة والثواب ، وما أعَدَّ لأولئك من الخِزْى والعِقاب؛ وصار الكافر بابك لا فيمن قتل فسَلِم من ذُلِّ الغَلَبة ، ولا فيمن نَجَا فعاين فى الحياة بعض العِوَض ، ولا فيمن أُصِيب، فيشتغل بنَفْسه عن المصيبة بما سواه، لكنه سبحانه وتعالىٰ أطلقه وسَدّ مذاهبه ، وتركه مُلدَّدا بين الذُّل والخَوْف ، والغُصّة والحَسْرة ، حتّى إذا ذاق

طعمَ ذلكَ كلِّه وفَهِـمه، وعرف مَوْقِع المصيبة، وظَنَّ مع ذلك كلِّه أنه علىٰ طريق من النجاة، فأضرب الله وجهه، وأعمىٰ بصره، وسدّ سبيلَه، وأخذ بسمعه وبصره، وحازه إلىٰ مَنْ لايَرِقُّ له، ولا يَرثِى لمَصْرَعه؛ فأمتثل ما أَمَرَ به الأَفْشِين (حيدر بن طاوس) مولىٰ أمير المؤمنين فى أمْره؛ فبثَّ له الحبائلَ، ووضَع عليه الأرصادَ، ونَصَب له الأشراكَ حتّٰى أظفره اللهُ به أسيرا ذليلا مُوثَقا فى الحـديد، يراه فى تلك الحالة مَنْ كان يراه رَبًّا، ويرىٰ الدائرةَ عليه مَنْ كان يظُنُّ أنها ستكون له. فالحمدُ لله الذى أعزَّ دينَه، وأظهر حُجّته، ونَصَر أولياءه وأهلك أعداءَه، حمدًا يُقْضَى به الحقُّ، وتَتِمُّ به النِّعمة، وتتصـل به الزيادةُ. والحمدُ لله الذى فتح علىٰ أمير المؤمنين وحقَّق ظنَّه، وأنجح سعْيَه، وحازله أجْرَهذا الفتح وذُخْره وشَرَفه، وجعله خالصا لتمـامه وكماله بأكمل الصنع وأحْسـنِ الكِفاية، ولم يربوسًا فيه مايُقْذِى عينَه، ولا خَلَا من سُرور يراه، وبِشارةٍ تتجدَّد له عنه، فـا يدرى أميرُ المؤمنين مامُتِّع فيه من الأمل، أو ماخُتِم له من الظفر؛ فالحمدُ لله أوّلا! والحمد لله آخرًا! والحمد لله علىٰ عطاياه التى لاتُحْصىٰ، ونِعَمه التى لاتُنْسىٰ، إن شاء الله تعالىٰ.

⁂

وهذه نسخة كتاب من هذا الضرب، كتب به أبو سعيد العلاءُ بن مُوصَلَايَا عن القائم بالله، إلىٰ عَضُد الدولة «ألْب أرسلان» إلىٰ مسعود بن محمود صاحب غَزْنَةَ من أوائل بلاد الهند، بالبِشارة بالنَّصْر علىٰ البَسَاسِيرى وهو.

أما بعدُ، فالحمد لله مُنِـيرِ الحق ومُبْدِيه، ومُبِيرِ الباطل ومُرْدِيه؛ الكافِلِ بإعزاز حِزْبه، وإذلال حَرْبه، المؤيِّد فى نُصْرة دينـه خِضْبَ الدَّهْر بعـد إمحاله وجَدْبه، الناظم شَمْلَ الشرع بعد شَتاته وتفرُّقه، الحاسم داعِىَ الفَسَاد بعد آستيلائه وتطرُّقه، ذى المشيئة النافذة المـاضيه، والعزّة الكاملة الوافرة والعَظَمة الظاهرة البـاديَة،

والبراهين الرائعة الرائقه، والدلائل الشاهدة بواحدانيّتــه الناطقه ؛ حمدًا لا آنتهـاءَ لأمَده، ولا إحصاءَ لعَدَده . والحمدُ لله الذى آختص محمدا صلّى الله عليه وسلم برسالته وحَبَاه ، وأولاه من كرامته ما حازله به الفضــلَ وحَوَاه ؛ وبعثه على حينِ فَتْرة من الرُّسُل ، وخلاء من واضح السُّبُل ؛ فجاهد بمن أطاعه مَنْ عَصَاه، وبلّغ فى الإرشاد أقصى غايته ومَدَاهَ ؛ ولم يَزَلْ مُبــدِياً أعلامَ الإعجاز ، ومُلْحِقا الهوادىَ بالأعْجــاز ؛ إلى أن دخل النــاسُ فى الدين أفواجا ، وسلكُوا فى نُصرته جَدَدا واضحًا ومِنْهاجا ؛ وغدَتْ أنوارُ الشرع ضاحكةَ المَبَاسم ، وآثارُ الشِّرك واهيةَ الدعائم ؛ ومناهلُ الهدى عَذْبةً صافيه . فصــلّى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه المنتخَبين وخُلَفـائه الأئمةِ الراشدين، وسلّم تسليما . والحمد لله الذى أصار إلى أميرالمؤمنين من تُراثِ النبوّة ما آستوجبه وآستحقَّه ، وأنار لدَيْه من مطالع الجَلَال ما تملك به الفخْرَ وآســترقَّه ؛ ومنحه من حُسْن التمكين والإظْفار ، وإجراء الأقضية على مُراده والأقدار ؛ ماردَّ صَرْفَ الدهر عن حَوْزته مفْلُولَ الحَدّ ، ومَدّ باعَ مجـده إلى أقصى الغايةْ والحَدّ ؛ وحمى سَرْبَ إمامته من دَواعى الخوف والحَذَر ، ووقى مَشْرب خلافته من عَوَادِى الرَّنْق والكَدَر؛ وجعل معالم العَدْل فى أيامه مُشْرِقة الأوضاح والحُجُول، مفْترّةَ النواجذ عن الكمال الضافى الأهــدابِ والذُّيول ؛ مُؤْذِنةً باستقرار أمداد السعاده، وآستمرار الأحوال على أفضــل الرَّسْم والعاده ؛ وهو يســتَديمه من لطيف الصُّنْع وجميــله ، ووافى الطَّوْل وجَزِيله ؛ مايَزِيدُ آراءه سَدَادا ورشادا ، وأَرُومةَ عِزِّه آتِّساعا وآمتدادا ، ومجارىَ الأمور لديه آتساقًا على المراد واطّرادا ؛ وماتوفيقُ أميرالمؤمنين إلا بالله عليه يتوكّلُ وإليه يُنيب ! .

ومعلومٌ ما آعتمده شاهنشاه المعظّم بعد مَسِيره إلى العراق، فى الجيوش التى يضيق بها الفَضَاء ، ويَجْرى على مرادها القَضَاء؛ قاصدًا تلبيةَ الدعوة، وخاضدًا شوكَ كلّ

مَنْ سدّ عن الدين[1] أسباب المَضَرة والمعرّة ؛ ومعتمِدًا ماحمىٰ حَوْزَةَ أمير المؤمنين من الشوائب المعترِضه ، وحوىٰ أقسامَ الفَخَار فى اتباع شروط الخدمة الملتزَمة المفترَضه ؛ من المبادرة للَكْم اللعين البَسَاسيرىّ ولَفيفه المَخَاذيل ، مدّرِعا من الاعتضاد بالله تعالىٰ أقوىٰ الجُنَن وأسبغَ السّرابيل ، ليطَهّر الأرضَ من دَنَس كُفْرهم ، ويُوفِّرا الجَدّ فى قَصْم حدّهم وحَسْم كَيْدهم ؛ فأطلّ علىٰ بلاد الشام متطلّبًا من أنجاه حُذُرَه إلىٰ الإمعان فى الهَرَب ، وقَطْع كلّ أَخِيّة وسبَبْ ؛ ومعتزما الائْتمامَ إلىٰ مصر لانتزاعها وبقيةِ الأعمال ، من أيدى أحلاف الغَوَاية والضّــلال ، وقرّب الأمرَ فيا حاولهُ من ذلك ورامــه ؛ اعتمادُه فيه صنوفَ التجلّد وأقسامه ؛ فاعترضه من عِصْيان إبراهيم اينال وعقوقه ، وخروجه عن زُمْرة أبناء الطاعة ومُرُوقه ؛ بإفساد اللّعين إيّاه ، وإحالته بمكره عن مَنَاهج هُدَاه ، ما أحوجه إلىٰ ترك ماهو بصَــدَده واللّحاق بأثره حِذَارا من استفحال خَطْبه ، وبِدارا إلىٰ فَلّ حَدّه وغَرْبه ؛ فعــاد ذلك بتجمّع الأعداء واحتشادهم ، وســلوكهم المحجّةَ التى خُصُّوا فيها بعدم توفيقهم ورَشَادهم ، وإقدامِهم علىٰ فضل الإمامة المكرمة بالمحاربه ، واطّراحهم فى منابَذَتِهــا حكْمَ الاحتشام والمراقبــه ؛ ووقُوع التظافُر علىٰ المجاهَرة بخلافها ، والتظاهرُ بشِعار أشياع الغَوَاية وأحْلافها ؛ جرأةً علىٰ الله تعــالىٰ واستِنزالًا لعقابه ، واطّراحا لمــا توجبه الجنايةُ العُظْمىٰ من توقُّع العذاب وارتقابه ؛ وادّراعا لَملَابس الخِزْى فى الدنيا والآخره ، واتباعًا لداعى الضّلالة المُغْوِية فى البــدء والخــاتمة ؛ فاقتضىٰ حكْمُ الاستظهار الانتقالَ من دار الخلافة ــ بمدينة الســلام ــ إلىٰ (حَدِيثة عانَه) لمــا هى عليه من امتناع الجانب وشِــدّة الحَصَانه ؛ إلىٰ أن أسفر خَطْب شاهنشاه رُكن الدين ــ أمتع الله به ــ عن إدراك المَطَالب ، وتيسّر المَصَاعب ؛ فعــاد بنُصْرة الدولة العباســيّة الإمامية القــائمّية مســتنفِدًا فى ذلك أقسامَ الوُسْــع

(١) لعله وخاضدا شوك كل من صد عن الدين وأولاه أسباب الخ .

والاجتهاد، ومستنجدا بمعونة الله تعالى على إبادة الكفر بصنوف القراع والجهاد؛ ولم يزل ساعيا فى إزالة العار، وانتزاع المغتصب وارتجاع المستعار؛ إلى أن صدق الله تعالى الأمل وحققه، وأصفى منهل العز من كل ما شابه ورنّقه؛ وأطلع شمس الحق بعد غروبها، ومنّ بخضد شوكة الباطل وفلّ غروبها.

وعاد أمير المؤمنين إلى دار ملكه ومقرّ مجده فى يوم كذا ضافيةً على راياته جلابيبُ النصر والظفر، جاريةً على إرادته تصاريفُ القضاء والقدر، بيمن نقيبة شاهنشاه الذى أدّى فى الطاعة الفرض الواجب، وتمسّك من المشايعة بأفضل ما تضمّ عليه الرواجب؛ وغدا للدولة عضدًا موفيًا على الأمثال، فى دفعه عن الإسلام وذبّه، ومتقمّصا للجلال، بحسن إخلاصه فى حالتى بعده وقربه؛ وما زالت ثقةُ أمير المؤمنين مستحكمةً بالله تعالى عند ما ألمّ به من تلك الحال، ودهم من الخطب المحتفّ به سطوةُ الاشتداد والاستفحال؛ فى إجرائه على ما ألفه من النصر والإعزاز، وإظهار آلائه فى تأييده والإعجاز؛ إذ لم يكن ما عراه استعادةً للحقّ المسلّم اليه، والموهبة التى ضفت جلابيبها عليه؛ بل جعل اللهُ ذاك إلى امتحان صبره سبيلا، وعلى وفور أجره دليلا، وبإبادة كل ناعق فى الفتنة كفيلا؛ لتزداد أنوارُ علاه نضارة وحسنا، وأعلامُ جلاله سعادةً ويمنا، ورباعُ عزّه سكونا وأمنا؛ لطفًا منه جلّت آلاؤه فى ذلك ومنًّا. وتلا هذه النعمةَ التى جدّدت عهودَ الشرع وافيةَ النضارة، وأزالت عن الدين مفاسدَه العارضةَ ومضاره، ما سهّله الله وهنّاه، وأجزل به صنيعه الجزيلَ وأسناه؛ من ظفر السرايا التى توردها لاصطلام اللعناء واجتياحهم، وحسم فسادهم وهدم عراصهم؛ وإخماد ما أضرموه من نار الشرك وشبّوه، وإبطال ما أحدثوه من رسم الجور وسنّوه؛ وأفضى الحالُ إلى النصر على الأعداء من كل جانب، وقهر كلّ منحرف عن الرشاد ومجانب، وحلولِ التأييد على الرايات المنصورةِ العباسيّة التى لم تزل مكنوفةً

علىٰ صَرْف الدهرِ أشياعُها وأنصارُها ؛ وإجلاءِ الحروب عن قتل اللعين البَساسيرى وأخْذِ راسه، وتكذيبِ ظنّه فى آحترازه من طوارق الغِيَرِ وآحتراسه، وإراحة الأرض وأهلِها من دَنَسه وعُدْوانه ؛ وكون من ضامّه من طَبَقات العرب والأكراد والأتراك البغداديين والعَوامِّ بين قتيلٍ مُرَمَّلٍ(١) بدَمه ، وأسيرٍ تلقّى المنونَ بغُصة أسَفه وندَمه ، وصَريعٍ فى بقيّةٍ من ذَمائه(٢)، وهاربٍ والطلبُ واقعٌ من ورائه. فأنجز اللهُ وعدَه فى هذا المـارق ، والعبدِ الآبق؛ الذى غرّه إمهالُ الله تعـالىٰ إيّاه فنسِىَ عواقبَ الإهمال فى الغَوايه ، والإمهالِ فى الطُّغيان إلىٰ أقصى الحدّ والغايه؛ وحمـلَ رأسه إلىٰ الباب العزيز فتقدّم بالتّطواف به فى جانبَىْ مدينة السـلام وشَهْرِه، إبانةً عن حاله وإيضاحا لجليّة أمْرِه ؛ وكُفِىَ ما يوجبـه إقدامُه علىٰ العظائم التى علِمَ الله تعـالىٰ سُوءَ مصيرها ومآلِها، وحُرِم الرُّشْد فى التمسُّك والتشبُّث بأذيالها؛ وتلك عاقبـةُ من بغىٰ وآعتدىٰ، وأتَّزَر بالغَدْر وآرتدىٰ ، وأمعن فى الضَّلّة وآعتدىٰ . والجِدُّ واقع من بعدُ فى المسـير للاحتواء علىٰ بلاد المخالفين الدانيـةِ والقاصيه، والأخذِ مع مشيئة الله تعالىٰ بنواصى كل فئةٍ طاغيةٍ عاصيه .

فالحمد لله علىٰ هذه المِنْحة التى بشّرت الإسلامَ بجَبْر كَسْره، وأنقذتِ الهُـدىٰ من ضِيق الكُفْر وأسْره ؛ وأبدتْ نجومَ العَدْل بعـد أن أفلَتْ وغارَتْ ، وأردَتْ شيعةَ الباطل بعدَ أن آعتدت علىٰ الحقّ وأغارَتْ ؛ وهو المسـْول صِلتَها بأمْدادٍ لها تَقْضى إذ ذاك سائرَ الأغراض وبلوغها ، وتقضى بكمال رائق الآلاء وسُبُوغها .

---

(١) أى بالراء المهملة بمعنى ملطخ قال الشاعر :

ان بنىّ رمـلونى بالدم * شنشنة أعرفها من أخزم

(٢) الذماء بالذال المعجمة والمدّ بقية النفس .

اقتضى مكانُك ـ أمتع الله بك ـ من رأى أمير المؤمنين الذى وطّأ لك معاقد العزِّ وهضابَه ، وكمّل لديك دواعىَ الفخر وأسبابَه ؛ ونحلك من إيجابه الذى وصلت به إلى ذِروة العلاء ، وصُلت على الأمثال والنُّظَراء ، إشعارك بما جدّده الله تعالى من هذه النعمة التى غدَت السُّعود بها جمّة المَناهل ، سامية المراتب والمنازل ؛ لتأخُذ من حظّه بها ، والشكرِ لله تعالى على ما تفضّل به فيها بالقِسم الأوفى ؛ كفاء ما يُوجبه وَلاؤك الذى امتطَيْتَ به كاهلَ المجد ، واصطفيت به كاملَ السعد ، وكونَك لدولة أمير المؤمنين شِهابَها المُشرِق فى الحَنادس ، وصَفيَّها الرافلَ من إخلاص مُشايَعتها فى أنفر الحُلَل والملابس ؛ والله تعالى لا يُخْليك ، من كل ما تستدرُّ به أَخلافَ(١) معاليك ؛ ولا يَعْدَمُ أميرُ المؤمنين منك الولىَّ الحميدَ السِّيره ، الرشيدَ العقيدةِ والسَّريره ، الشَّديدَ الشاكلةِ والوَتيره .

هذه مناجاة أمير المؤمنين لك ، أجراك فيها على ما عوّدك من التجمُّل والإكرام ، وحَبَاك فيها بما هو مبَشِّر لك بالسعادة الوافية الأصنافِ والأقسام ؛ فتلقَّها بالجَذَل والاستبشار ، وواصِلْ شُكْرَ الله تعالى على ما تضمَّنته من حسن مَجارِى الأقضية والأقدار ؛ وطالِعْ حضرةَ أمير المؤمنين بأنبائك ، وتابِعْ إنهاءَ ما يُتشوَّف نحوه من تِلقائك ؛ إن شاء الله تعالى .

الضـــرب الثـــانى

(أن يتخذ التحميد فى أوّل الكتاب ، وهو أقلّ وقُوعا من الضرب الذى قبله)

وهذه نسخةُ كتاب من ذلك ، كتب به أبو إسحاق الصابى عن « المطيع لله » إلى بعضِ وُلاة الأطراف ، عند طاعة عبد الملك بن نوح أحدِ ملوك بنى ساسانَ ، وهى :

---

(١) فى الأصول أعلام وهو تصحيف .

أما بعـد ، فالحمد لله الولىّ بالاستحماد ، المستحقّ لكُنْه الإعتباد ، القديرِ على تأليفِ الأجساد ، البصيرِ بسُبُل خفَايا الأحْقاد ، ذى الحكمةِ فى تبْـديل الضِّغْن والسَّخيمة ذِمَّه ، والمُنابذةِ عِصْمه ، والقطيعةِ وُصْله ، والشَّحناءخُلَّه ، والحَرَج فَرْجه ، والشَّعَث نَضارةً وبَهْجَه . الذى جعل الصُّلْح فتحًا هَنيًّا ، والسِّلْم مَنْجًا بَهِيًّا ، والمُوادَعَةَ مَنًّـا جَزِيلا ، والإرعاءَ أمْنًا جميلا ؛ والإقالةَ حَرَما لايضلُّ هداه ، ولا تُحَـلُّ قُواه ؛ ولا تَخِيب عواقِبُه ، ولا تخفىٰ مآثِره ومناقِبُه ؛ رأفةً منه بالخلق ، وصيانةً لأهل الحَقِّ ؛ وإمهالًا فى العَهْد ، ورُخصةً فى الاختصار دُونَ الحدّ ؛ ليُقرِّب فَيْئةَ المتأمل ، ويُسَهِّل رَجْعةَ المتحصل ؛ وتُسرع رفاهيةُ المستَبْصِر ، ويخفَّ اجتهادُ المزاوِل المشَمِّر ؛ وقد قال الله عزّ وجلّ ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ وهو المسئول عِمارةَ الإسلام بالسَّلامه ، والأنامِ بالاستقامه ؛ والسلطانِ بالطاعه ، والمُلْكِ بِبُخُوع[1] الجماعه ؛ حتَّى لاتزالَ الفتنةُ مَهِيضةَ الجَنَاح ، مَرِيشةَ الاجتياح ؛ قَليلةَ الشَّباة ، قليلةَ الأدَوات ؛ فتكونَ النفوسُ واحده ، والأيْدى مُترافده ؛ والمَودّاتُ صافيه ، والمآرِبُ مُتكافية متضاهيه ، فى الشكر الذى يُذادُ به عن النُّفوس ، ويحمىٰ به حريمُ الدِّين ؛ ويُرْجىٰ معه التأييد ، ويُبتغى بوَسيلته المَزيد ، فقد قال الله ـ وقوله الحق ـ : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ والله سميع مجيب . وحَسْبُ أمير المؤمنين اللهُ ونِعْم الوكيلُ !

وقد علمت ماأفْرَط من نوح بن نصر فى السَّهو ، وتَقَحَّم منـه فى الهَفْو ؛ الذى ألهاه عن التقوىٰ ، وأنساه شِيمةَ الرُّقبىٰ ، فعَدَل عن سَنَن القَصْد ، وزاغَ عنه علىٰ عَمْد ؛ وحال عن آدابِ آبائه رحمهم الله وهم القُـدْوه ، وسَجَاياهم وبهمُ الأُسْـوه ، وما كان ينتمِى به من الوَلاء ، ويَعْتَزى إليه من الوفاء ؛ وصار أدنىٰ معنًى ممن يحسُدُه علىٰ كَرَم الأصـل ، وينافسه فى شَرَف المحل ؛ ويُدْخِل علىٰ عقـله مُدَّخَل النصيحة ، ويَطَّلع

(١) أى انقيادها يقال بخع لى بالحق بخوعا انقاد وبذله .

بظاهرها على آرائه الصريحة ؛ وكلُّ ذلك إلحادٌ فى أمير المؤمنين وعُهْدته ، ومُرُوق عن أزِمَّته ، وعقوقٌ بالبرية يَشْقىٰ به الباقى ، ولن يَشْقىٰ به النازحُ الماضى . فإن أمير المؤمنين مازال واعيًا لأوامر سَلَفه ، عارفا بمآثِرِ خَلَفه ؛ متجافيًا لأُولئك عما ابتدعه ، متنوّيا لهذا التّجاوُزَ عمّا صنعه ؛ فقد كان نُمِىَ إلىٰ أمير المؤمنين أن عبدَ الملك ابنَ نوح مولىٰ أمير المؤمنين سليمُ السَّريره ، سَديدُ البصيره ؛ يُرْجَع إلىٰ رأيه وتَدْبيره ، ولم يَجِدْ وشمكير بن زنار ، عاجله بالبوار ؛ مَساغًا إلىٰ خَتْله ، ولا آحتيالا فى لَيِّه وفَتْله ؛ وكان لعبد الملك ركن الدولة بن مالك مولىٰ أمير المؤمنين ظَهيرَ صِدْق ، إن وَسِنَ أيقظه ، وإن مادأيّده ؛ خَلَّةٌ فَضْل فَطرهُ اللهُ عليها ، وغريزة تمييز أحسن اللهُ إليه فيها ؛ فإنه لو قال أمير المؤمنين : إنه لامثلَ له آستحقَّ هذا الوصف . ولأَمِنَ أمير المؤمنين فيه الخُلْفَ . ترك لِباسَ أبيه فنزعه ، وآعتاض منه وخَلَعه ؛ وتَنَصَّل مما كان منه منتَهِكا ، فعاد عليه محتَنِكا ؛ وأتىٰ الأمرَ من طريقه ، ولجأ فيه إلىٰ فريقه ؛ رُكْن الدولة أبى علىّ مولىٰ أمير المؤمنين ، أحسنَ الله وِلايته ، ومُعِزّ الدولة أبى الحسين تولّى اللهُ معونته ، وآستصلحهما ، وكفى ، وآستخلصهما ، وغنى ؛ وراسل فى الإنابة وإن لم يكن حائدا ، والآستقالة وإن لم يكن جانيا ؛ فما ترك ركن الدولة ومعز الدولة — كلاهما الله — إكبارَقَدْره ، وإجلالَ أمْره ؛ والقيامَ بخلاصه ، والنطقَ عن أمير المؤمنين بلسان مشاركته ؛ وإذكار أمير المؤمنين بما لم يَنْسَه من تلك الوثائق ، التى صدر بها كتابه ، والعلائق ، التى وَشَّح بها خطّابه ؛ إلىٰ أن أجلَّ أبامحمد نوحا وترحم عليه ، وقَبِل عبدَ الملك وأحسنَ إليه ؛ وواصل رُسُله ، وآستمع رسائله ؛ وقلّده خُراسانَ ونواحيَها ، وسائرَ الأعمال الجارية فيها ، وعَهِد إليه فى ذلك عَهْدا ومَيَّزه باللواء ، والخِلَع والحِباء ؛ بعد أن كنّاه بلسانه ، ووفّاه حُدودَ إحسانه ؛ وألحقه فى ذلك بآبائه ، ولم يُقَصِّر فيه بشَأْوِه . وكتابُ أمير المؤمنين هذا وقد آطّردت الحالُ وآستوثقَتْ ، وآمتزجت الأهواء

وآتفقتْ ؛ وخلا المشرقُ من الاضـطراب الذى طال أمدُه ، ولم يكد يُرىٰ أثرُه ؛ وصارتِ العساكر الدانية والنائيةُ فَوْضىٰ لاتمتاز ، ولا تنفرِد وتنحاز ، وذلك صنعُ الله لأمير المؤمنـين فى جَمْع الشَّتَات ، وتلافى الهَنَات ، ولَمِّ خَلَل التَّخاذُل ، ومُداواة نَغَل الدَّخائل ؛ لتتِمَّ الكلمةُ فى وِلَايتـه ، وتَعُمَّ النِّعَمُ فى طاعته ، ولا يكونَ للشيطان سبيلٌ علىٰ شيعته ، ولا طريقٌ إلىٰ مَكيدةِ أبناء دَعْوته ، والله ذو الفضل العظيم .

فاحمدِالله علىٰ هذا النبإ الذى تطوّع به المِقْدار ، والخبرِ الذى دلَّتْ عليه الأخبار ، من الفتح الذى لم يُنَغِّصْه تَعَب ، ولم يكدِّره عَناء ولا نَصَب ؛ فإنه تأتّى سَهْلا ، وأتىٰ رِسْلا ، وآبتَدأ عَفْوا ، وآنتهىٰ خالصا صَفْوا ؛ فقد قَمَع الله به العَنَـده ، وجمع بتهيئه العَبَده ، وآذنَ عُقْباه بالسعاده ، وبَشَّرفى سِيماه باتصال المـاده ؛ وأنزل أبا الفوارس عبـدَ الملِك بنَ نُوح مولىٰ أمير المؤمنين منزلةَ من رآه أمير المؤمنـين أهلا للوديعه ، وآمنه علىٰ الصَّنيعه ؛ ورتَّبه مرتبة المسبحة ، وآستحفظ الله حسنَ الموْهِبة به ، وما قد تجدّد بين أبى الفوارس وبينهما من الاتحاد ، المتولد عن الاغتباط والاعتداد ؛ فقلّ من شاقَّهما فلم يندَم ، وتمرّد عليهما فلم يُكْلَم ؛ وتمسك بهما فلم يَسْـعَد ، وآرتبع أكنافهما فلم يوعد ؛ وأجب عن هذا الكتاب بوصولِه إليك ، ومَوْقِع متضَمَّنه لَدَيْك ؛ وما يُحدِثه لك من الجَذَل ، وآنفساح الأمل ؛ موفّقا إن شاء الله تعالىٰ .

النـــــوع الثـانى

(أن لايَعقُب البعديةَ تحميدٌ ، بل يقع الشروع عقبها فى المقصود)

وهذه نسخة كتاب من ذلك ، كَتَب به أبو إسحاق الصابى عن الطائع لله إلىٰ من بصُحَار وسَـوادِها ، وجبال عُمَان وأعمالهـا ، وحاضرتها و باديتها ، بالأمر بالاجتماع علىٰ الطاعة ، وهى :

أما بعدُ، فإنَّ أمير المؤمنين للذى حَمَّله اللهُ من أعباء الإمامة، وأهَّله له من شَرَف الخلافة؛ وآستَوْدعه من الأمانة فى حِيَاطة المسلمين، والآجتهاد لهم فى مصالح الدنيا والدِّين؛ يرىٰ أن يُرَاعِىَ مَنْ بَعُدَ منهم ونأىٰ، كما يُرَاعِى من قَرُب ودَنَا؛ وأن يلاحظ جماعَتَهم بالعين الكالِيَه، ويطلُبهم بالعين الوافيه؛ ويتصَفَّح ظواهرَ أمورهم، وبواطنَ دواخلهم؛ فيحمَدَ مَنْ سلك نَهْج السلامه، ويُرشِدَ من عَدَل عن الآستقامه؛ ويَنْظِم شَمْل الجماعة علىٰ الأُلْفة التى أمر اللهُ بها وحضَّ عليها، ويزيلهم عن الفُرْقة التى ذمَّها ونهىٰ عنها؛ إذ يقول جلَّ من قائل: ﴿وأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ولا تَنَازَعُوا فتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾: ﴿وآعتَصِمُوا بحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا ولا تَفَرَّقُوا﴾ فلا يزالُ أمير المؤمنين يُعَرِّفهم ما آفترض اللهُ عليهم من طاعة الأئمة وأُولِى الأمر الذين لاعِصمةَ لمخالِفِهم، ولا ذِمَّةَ لمُعانِدِهم؛ ولا عُذْر لمُسْلم ولا معاهَد نأىٰ بجانبه عنهم، وضَلَّ بوَجْهه عن سبيلهم؛ إذ كان الإمامُ حجةَ الله علىٰ خلقه، وخليفتَه فى أرضه؛ وكانت الطاعةُ واجبةً له ولمن قلَّده أزِمَّة أموره، وآستنابه فى حَمْل الأعباء عنه؛ فمن آنس منه الهِدايةَ أحمده، ومن أنْكَر منه الغَوَاية أرشدَه بالوعظ ما آكتَفىٰ به، أو بالبَسْط إن أحوج إليه. وإن أمير المؤمنين يسأل اللهَ أن يوفِّقه للرأى السَّديد، ويُمِدّه بالصُّنْع والتأييد؛ ويتولّاه بالمَعُونة علىٰ كلِّ مالَمّ الشعَث، وسَدَّ الخَلَل، وقَوَّم الأوَدَ وعَدَل المَيْلَ؛ وأحسَنَ العائدَةَ علىٰ المسلمين جميعا فى شَرْق الأرض وغَرْبها، وسَهْلها وحَزْنها؛ إنه بذلك جدير، وعليه قدير؛ وماتوفيقُ أميرالمؤمنين إلا بالله عليه يتوكَّل وإليه يُنيب.

وقد علمتم أن أمير المؤمنين أحسن إلىٰ الرعيَّة بما كان فوّضه إلىٰ عَضُد الدولة وتاج المِلَّة ــ رحمةُ الله عليه ــ من سياستهم باديًا، ثم أحسَنَ باستخلاف عَديله وسَليله صَمْصَام الدولة وشمس الملة ثانِيًا؛ إذ كان خِيرةَ أمير المؤمنين وصَفْوتَه، وحُسَامه ومِجَنَّه؛ والمُورِد المُصْدِر عنه بالعَهْدين المستَمِرَّين: من أميرالمؤمنين بالنص عليه، ومن

الوالد رحمه الله بالوَصِيَّة إليه . وإن هذه العقودَ المؤكَّده، والعهود المشدَّده، موجبة علىٰ الكافَّة طاعةَ مَنْ حصَلَتْ له ، أواستقرت بوثائقها فى يَده؛ إذ لايصحُّ من حاكم حُكْم، ولا من عاقدٍ عَقْد، ولا من والٍ إقامةُ حدّ ، ولا من مسلمٍ تأديةُ فرض حتّى يكون ذلك مبنيًّا علىٰ هذا الأصل،ومُدَارا علىٰ هذا القُطْب، وإن كان خارج عنهما وراض بخلافهما، خرج من دينه، أَثِم بربه، بَرِئَ من عِصْمته؛ وأنتم من بين الرعية فقد خصصتم سالفًا بحُسْن النظر لكم،وعُرِفت الطاعةُ الحسنةُ منكم؛فتقابلت النعمةُ والشُّكر، تقابُلًا طابَ به الذِّكر، وآنتظم به الأمر؛ ثم حدَثت الهفوةُ المعترِضة قُبَيلُ، فكان أمير المؤمنين مُوجِبا للعاقبــة المُوجَبة علىٰ الجاهل المُوضِع فى الفِتْنه، والمُعاتَبة المُمِضَّة علىٰ الحكيم منكم القاعد عن النُّصْره؛ إلىٰ أن وردَتْ كُتُب أستادهرمز بن الحسن،حاجب صَمْصام الدولة، باستمراركم علىٰ كلمةٍ سواء،فى نُصْرة الأولياء، والمحاماة دُونَهم، ومُدافعةِ الأعداء والمُراماة لهم؛فوقع ذلك من أمير المؤمنين أحسنَ مواقِعه، ونَزَل لديه ألطفَ منازِله، وأوجبَ لكم به رضاه المقترنَ برضا الله سبحانه، الموجِبَ للقربة والزُّلفىٰ عنــده؛ وأميرُ المؤمنين يأمركم بالدوام علىٰ ما أنتم، والثباتِ علىٰ ما آستأنفتُم؛ والمبـادرةِ إلىٰ كلّ ما يأمركم به فلان الوالى عليكم من صَمْصام الدولة بالآستخلاف والتفويض، ومن أمير المؤمنين، بالإمضاء لـما أمضاه، والرضا بمـا يرضاه، فاعلموا ذلك من رأى أمير المؤمنين وأمره، وآنتَهُوا فيه إلىٰ حدّه ورَسْمه؛ وكُونُوا لفلان الوالى خير رَعِيّــة، يكُنْ لكم خَيْرَ راع؛ فقد أُمِرَ فيكم بحُسْن السِّيرة، وإجمـال المعاملة، وتخفيف الوطأة، ورَفْع المئُونة؛ وجعل إليه عقابُ المُسِيء، وثوابُ المحسن، ومسالمــةُ المسالم، ومحاربةُ المُحـارب، وأمان المسـتأمن، وإقالةُ المستقيل، وحملُ الجماعة علىٰ سواء السبيل، إن شاء الله تعالىٰ .

الجملة الثالثة

(فى الكتب الخاصة مما يصدر عن الخلفاء ، وهى على ضربين)

الضرب الأوّل

(مايكتب عن الخلفاء إلى وزرائهم)

قال فى "صناعة الكتّاب" : ويكاتَبُ الإمامُ الوزيرَ أو مَنْ حلّ محله «أمتعني الله بك وبدوام النِّعمة عندى بك، وبقاءِ المَوْهِبَة لى فيك» وما جرى هذا المجرى .

وذكر فى "ذخيرة الكتّاب" : أن الدعاء للوزير « أمتعنا الله بك وبدَوام النِّعْمة لنا فيك وتجديدِ المَوْهِبة عندنا بك » . ثم قال : ودعا "المكتفى بالله" للقاسم بن عبد الله لما أمر بتكنيته ، وكان الكتّاب بخطه « أمتعنى اللهُ بكَ وبالنعمة فيك » ووقّع المستنصر إلى وزيره أحمد بن الخَصِيب « مدّ اللهُ فى عُمُرك » . وهو قريب مما ذكره فى "صناعة الكتّاب" فى ذلك كله . والذى رأيته فى مكاتبات العلاء ابن مُوصَلَايَا عن «القائم بأمر الله» التصديرُ بما فيه تعظيم الوزير وتقريظُه، من غير ضابط فى الابتداء، والدعاءُ فى أثناء ذلك بالحياطة ثم التوصل إلى المقصد .

وهذه نسخة كتاب كتب به العلاء بن مُوصَلَايَا عن القائم إلى وزيره :

لَمَّا خص الله تعالى الدولةَ القاهرة العبّاسية بامتداد الرُّواق ، فى العز واتساع النطاق، وأجرى لها الأقدارَ بما يجمع شملَ الحق ويمنعُ من نَفَاق النِّفاق، وأفرد أيّامَها بالبهاء المُنير الأعلام ، والانتهاء فى قوّة الأمر إلى ما يُتَأدّى فى طاعتها بين اليَقَظات والأحلام ، وجعل الزمان واقفًا عند حدّها فى النقض والإبرام ، ومتصرِّفا على حكمها فى كل ما حاوَلَ من حالٍ ورام، ومكّن لها فى الأرض حتّى أذلّتْ نواصىَ الأعداء قَهْرا

وقَسْرا، وحَسَرتْ عن قِنَاع القُدْرة علىٰ ردّ الطامعين فى إدراك مَدَاها ظُلّعا حَسْرىٰ؛ فإن الله تعالىٰ لم يُخْلِها كلَّ وقتٍ من قائلٍ فى نُصْرتها فاعل، وقائم بإقامة حِشْمتها من كل حافٍ من الأنام وناعِل؛ وراغب فىِ الذَّبّ عن حَوْزتها سِرّا وجَهْرا، وخاطب من خِدْمتها ما يُرْجىٰ أن يكون رضا الله فى المُقابَلة عنه أغلىٰ مَهْرا ؛ وناهج جَدَد الرُّشد فى المناضلة عنها بسيْفه وقلَمه ، وفارجٍ للكُرَب الحادثة فيها بنُطْقِ فيه وسَعْى قَدَمه .

وقد منح اللهُ أيام أمير المؤمنين ـ من كَوْنِكَ الولىَّ بمواصلة المَقامات الغُرّ فيها، والخَلِيّ من كل ما يُبايِن صِحّةَ الموالاةِ ويُنافيها ؛ والضَّمِينَ لما عاد عليها بٱستقامة النظام، والضَّنِين بما يُوجِدُ للغيْرِ الطريقَ إلىٰ وُصول الحَتْف إليها والاهتِضام؛ والمتجرّدَ فى إمداد عزها بالإحصاف والإمرار ، والمتفرّد بإعداد أقسام المناضلة دُونَها فى الإعلانِ والإسرار؛ والباذلَ وُسْعَه فيما تَنىْ إليها أعنّةَ السعد ولَوَاها، والخاذلَ كلَّ مستنجِدٍ بها فيما يخالف محبتها وهواها ؛ ما[(1)] أوفىٰ علىٰ المألوف فى أمثالها من قبْل ، وصار لك به علىٰ كل مَنْ سلفك من الأعضاءِ التقدُّم والفَضْل ؛ فهى ـ بآثارك الحميدة فيها، وإكبارِك الجِدَّ فى تشييد مَبَانيها ؛ وكونِك كافيًا أمر المحاماة من ورائها، كافًّا عنها ما يُخْشىٰ من حُدُوث أسباب الفَسَاد وٱعترائها ـ مَنيعةُ الجانب مَريعةُ الجَنَاب ، سَرِيعةٌ فيها السُّعود إلىٰ ما يلبِّى نِداءَها بأحسن التلبية والجَوَاب .

ثم إنه وإن كانت زُلْفَك إلىٰ حضرة أمير المؤمنين باديةَ الحُجول والغُرَر، غيرَ محتاجة إلىٰ إقامة الدليل عليها بما ٱتَّضح من أمرها وٱشتَهر، فإن فلانا يُعيد جلاءها دائما فى أبهىٰ المَلَابس وأنضرها، ويُجِيد الجِدّ فى الدِّلالة علىٰ تقابل مَخْبَرها فى الجمال ومَنْظَرها ؛ ويَكْشِف من صَفَاء السرائر فيها والبواطن ، وما يَطّلع عليه منها فى كل المحال والمواطن؛ ما يُسْهِب فى وصفه ويُعْجِب سماعُ ذكره ويُطْرِب .

---

(١) هذا هو المفعول الثانى لمنح .

وفى هذه النَّوبة عاد، وقد زاد، علىٰ المعهود من شُكرك وجازَه، وأبان عن صِلَته بالوعد فى ضمان النُّجح منك نَجازه، وأوجب علىٰ نفسه أن لا يَقِف عند حدّ فيما يؤدّى إلىٰ نَشْر مَحامِدك فى الأرض، وطَىِّ الجَوانح لكَ علىٰ الإخلاص الصادق المَحْض .

ولمـا مثَلَ بحضرة أمير المؤمنين علىٰ رَسْمه الذى وَسَم بالجمـال جَبينَه، وآبتسم ثغرُ التوفيق فيه عمَّا أصبح النُّجح أليفَ سَعْيه وقَرِينَه، وبحسَبِ فَوْزه من شَرَف الحُظْوة برتبةٍ لم ينَلْها أحَدُ الأقران له فى الزمان، وفَوْته شَأْوَ أبناء جِنْسه يوم المِضْمار والرِّهان، كِفاءَ ما يستوجبه بغَلَاء قيمته فى الكمال، والغَنَاء به فى كل مَقام أمِن حدُّ مَضائه فيه الكَلَال، أشار بذِكْر مَقاصدك التى حُزْتَ بها من غَنائم الحَمْد الصَّفَايا، وشادَ مبانِىَ محامِدك بفَضْل الإبانَة عن السرائر والخَفَايا، وتابعَ الثَّناء علىٰ كلٍّ من أفعـالك التى أمسىٰ هلالُك فيها مُقْمِرا، ووَضَح فيها كَوْنُك بشُروط الإخلاص مُحِبًّا مُضْمِرا، وشَرَح من توفُّرك علىٰ كلِّ قُرْبة غرّاءَ تُغْرِى الألسنةَ بحمدك، وتُنْبِئُ عن حُسْن مقْصِدك برفع عِمَاد الحق وعَمْـدك، ما قامتْ عليه الأدلّةْ، وآستقامتْ به علىٰ سَنَن الرُّشْد الأهواءُ المُضِـلّةْ، وبيَّن من إمضائك كلَّ عزم فى تهيئة القُرُبات إلىٰ حضرة أمير المؤمنـين حالا فحالا، وإبطائك خُطا الجِـدّ فيما يُراد بزُلَفك البالغـة أقصىٰ الغايات لديْه سابقا وآتّصـالا، ما يُضَاهى المظنون فى تلك العقيـدة التى طالمَـا أُلفِيَتْ فى نُصْرة الدولة القاهرة صافية المَوْرِد والمَنْهل، حاليةً من الحُسْن بكل حالٍ آتضح فيها ما ألْهىٰ عن غيرها من الوصف وأذهَـلْ، فقُوبلتْ بمـا تستحقُّه من إحمادٍ أُشيع وأُذيع، وآتُّبِـع فيه الواجبُ وأُطِيع، وتضاعَفَ الآعتدادُ بأفعالك التى أعْنَتَ بالعُونِ منها فى الجَمَال والأبكار، وأعذْتَ بهـا الأمورَ فى الصَّلاح إلىٰ ما يؤمِّنُ إيضاحُه الجحدَ والإنكار. وَمَنْ أحقُّ منـك بكلِّ فِعالٍ تُضىء منصابيحُ الخير فيه، وينْتَشِرُ جميـلُ الذِّكر من مَطَاويه، وأنت للدولة الولىّ الأمين! ، وبحفظ نظامِ كلِّ أمرٍ يختَصُّ بها الكَفيلُ

الضَّمين؟ ومن أَوْلىٰ منك بكلِّ حمْدٍ يَفِدُ إليك إمدادُه أرسالا، وتَجِدُ منه ضالَّةً نَشَدتْ مثلَها آمالُ سواك فآبتْ بالخَيْبة عِجالًا؟ فَلَكَ من الحقوق مالا يُنْسىٰ، ومايَلْزَمُ أن يُرْعىٰ فى كل مُصْبَح ومُمْسىٰ. فأحسنَ اللهُ جزاءَك عن كونِك فى دولته ذَابًّا عن المجد حاميا .

فأما ماتَجدَّد فى معنىٰ الأعمال علىٰ الوصف الذى قضىٰ بزوال الخُلْف وآنحسامه، وآقتضىٰ رأيُك إجراءَ الأمر علىٰ ما آستُصْوب من آتِّساقه وآنتظامه ؛ فقد وَقَفْت عليه، وأُجِيزَ ما أشرتَ إليـه ؛ فأعواضُ الدنيا تَهُون وتَسْهُل فى ضِمْن ما يُلْحَظ من آعتناقك أحكامَ مشايعةِ الدولة التى تُمْتَ بأعبائهـا فى كل أَوَان ، وغَدتْ آثارُك فيها باقيةَ الذِّكْر والأجْرِ علىٰ تَقَضِّى الأزمان ؛ فأنت المرغوبُ فى الثناء ولايةً وإن شانَتْ الأحوال، والمُخْلِص الذى لاعِوَضَ عنه فى كلِّ مَقَام ومَقَال ؛ فقد أحاط العلمُ بتفصيل ذلك وجُمْلته ، وتحقّق أن الخِيرة فى كل ما تُشِير إلىٰ سلوك طَرِيقه وجَدَده ؛ ولذلك أُجِيب فلان إلىٰ الحضور والمستخْدَمون معه، وأُذِن فى المقابلة بالقوانين القديمة والباقى والجرائد ، والموافقة علىٰ ما رأيتَــه فى البَوَادى والعَوَائد ؛ والتنزُّه عن كل ماشَذَّ عن المحجة المؤكَّدة بتوفيقك وتوفُّر الموجود لهذه السَّنَة فيه عليــه ، وحَسْم موادِّ آستزادته فى كلِّ ما تمسَّك به وأشار إليه؛ والثِّقةُ من بعدُ مستحْكِمةٌ بتوَفُّرِك علىٰ ما يُرادِف إليك إمدادَ الحمد، وتجديدك كل قُرْبة تنضَمُّ إلىٰ سوابقها المتجاوزةِ حَدَّ الإحصاء والعدّ .

فأما ما تضمَّنْته إشارتُك فى حقِّ الستر الرفيــع ، فهل الصَّلاحُ إلا من نَتائِجِ أقوالك ؟ ، وهل مَساعِيك إلا موقوفة علىٰ الخير وأفعالُك ؟ ، وهل المُوافقةُ إلا لك فى جميع آرائك وأبحاثك ، وبحكم آبتــدائك لاَستقامة النِّظام فيما قَرُب وبَعُــد ، والسُّكونِ إلىٰ إسـعافك فى كلِّ أمرٍ يَحْدُث ويَتَجدّد ؛ ويبعثُ علىٰ مايُعِيــدُ رَوْنَق الحِشْمة من الوَهَن ، ويهز طاعتَــك فى كل أمْرٍ يُحَقِّق التقــدير فيهــا والظَّنّ ، فإذا

تُصُفِّحت حقوقُ الوكلاء المُجتباة وُجِدت موفَّرة على ٱقتناء الأجر، مصروفةً فى وُجُوه البِرِّ التى هى أنفعُ الذُّخر فى غد . وهل الأعواضُ إلا عند مَنْ يظُنُّ الدنيا بعينها قيمة تنافس ، وهل مَصيرها إلا إلى ٱنقضاء ولو أسْعفَت بالرغائب والنفائس ، غير أن الأحوال إذا كُشِف مستورُها أثبتَ مايقتضِى إسبالَ سِتْر الإشفاق ، والبواطِنَ متى أُعرِب عنها أَشْمَتَ ذاك كلَّ مُجانِب للدولة من أهل النِّفاق ؛ وأنت المعتَمَدُ لتدبير ما يصونُ حِشمةَ الدولة عن البِذْلة والخَلَل، والمرجوعُ إليه فى تحسين الأمر فيما وقع الآجتهادُ فيه حتّى تيسَّر قدره وتَسَهَّل ؛ ولهذا تفصيلٌ قد أُوعِز إلى فلان بٱستقصاء شرحه، و إطلاعِك على حقيقة الأمر وفَصِّه ؛ فكن بحيثُ الظنُّ فيك، تجِدْ زَنْدَ جمالك بذلك أورى، وتجبْ لك به صُنُوف الشُّكْر طورا ؛ إن شاء الله تعالى .

الضَّــــرب الثــانى

(مايكتب عن الخلفاء إلى وزراء الملوك)

وهى مما يؤتى فى صدرها بحرف النداء غالبًا ، كما كُتِب عن المسترشد إلى معِزّالدين الفضل بن محمود ، وزير مُعِز الدين سنجر بن ملكشاه .

مَقَامُك يامعِزَّ الدين ــ أحسَنَ الله حِياطتك وكَمَّل مَوْهِبَتَه عندك ــ فى خدمة الدار العزيزةِ التى مازِلْتَ لجُهْدِك فيها باذِلًا، وفى جلابيب المُناصحة رافِلا؛ لا يقْبِضَنَّك أن تُواصِل حالًا لحالا بأنبائك ، وتستديمَ ماخُصِصْتَ به من شَرِيف الآداب المُوفِيَة بك على أكفائك . وعُرِض بحضرة أميرالمؤمنين ماورد منك دالًّا على طاعتك المعهوده، ومُوالاتك الرائقة المَشْهوده ،وٱستمرارِك على الجَدَدوالمَهْيَع فيماحازالمَراضِى

الشريفة الإماميّة لك ، وحَقّق فى الفوز بجميل الآراء أمَلَك . وناطقًا بحـال فلان المـارق عن الدين، المجاهر بمعصية الله تعـالىٰ فى مخالفة أمير المؤمنين، وما ٱقتضاه الرأىُ المعزّىّ بحُسْن سِفَارتك، وسَداد مَقْصدك فى الطاعة وصَفَاء نيتك. وأحاط عِلْما بمضمونه الذى لاريبَ أنه ثمرةُ مناصحتك، ونتيجةُ سعيك المضاهى نَصيحةَ عَقِيدتك؛ ومَنْ أولىٰ منك بهذه الحال ؟ وأنت الحُوّل القُلّب، ذو الحُنْكة المجرَّب، الذى تفرّد فى الأَنَام بكماله، وقَصّر أكفاؤُه عن دَرْك شأْوِه فى الخير ومِثَاله ؛ ومازِلْتَ حديثًا وقديمًا موسوما، بهذه المَزِيّة مَرْقُوما ؛ وبغير شكٍّ أنك تُراعى مابدأْتَ به، وتُعَضّد مَقَالكَ فى موارده بمـا تعمدُه فى مصادره ، وتَحْـرُس ما قدّمته من الأحتياط بتحرِّيك فى أواخره، وتُمْضى العزيمةَ لإتمـام ماشرعتَ فيه، كِفاءَ ما يُوجِبه دينك ويقتضيه؛ جَرْيا علىٰ وَتِيرتك فيا قضىٰ للأحوال بالأنتظام والأتّسـاق، وآذنَ لشمس الصّلاح بالإضاءة والإشراق .

وبعدُ فقد عرفتَ ماتكرّر إليك فى أمر هذه الطائفة الخبيثة، المكاشفة بمذهب الإلحاد ، المبـارِزة بسوء الأعتقاد ؛ بعثًا علىٰ جِهادها ، وكَفِّ ضَرَرها عن الإسلام وفَسَادها ؛ ورَفْع سِتْر المراقبـة عنها، والأنتقامِ لله ولرسولِه منهـا ؛ وما يُقْنَع من همة معزّ الدولة والدين ـ أمتع الله ببقائه ـ ومِنْ وافر عَقْلِك ودينِك، وصِدْق يقينك؛ إلا بإرهاف العَزِيمة فى مُكاشَفَتِها، وخوض الغِمَار فى محاربتها؛ والقَصْد لمضايقة من ٱعتَصَم منها بالقِلَاع، وقَتْل كلّ من يُظْفَر به فى سائر البِقاع؛ حميّةً وٱمتعاضًا للدين، وأَنَفا ممـا ٱسـتولىٰ عليه بها من الضرر المُبِين؛ فكُنْ من وراء الحُبّ لمعزّ الدنيـا والدين علىٰ تَيَقُّنك هـذا المثال ، والأذّكار بمـا تَفُوز به مع الأمتثال له فى المـآل ، وٱنهَضْ فى تنفيذ ما يأمرُك به فى هٰذا الباب نَهضةَ من آثَر رضا الله وأراده، وبذَل فى صلاح مَعاده ٱجتهادَه ؛ فإن الله سبحانه لايرضىٰ منكما للانتصار لدينه بالتقصير،

وأميرُ المؤمنين أمركما بالجدّ فيه والتشمير، وقد شرَّفك بتُحَفَة أمر بحملها إليكَ من بين يدَىْ سُدّته، وأعرب بهـا عن مكانك من حَضْرته ؛ إنافةً علىٰ الأمثال بقَدْرك ، وإضفاءً لملابس فَخْرك؛ فاعرِفْ بمكان النعمة فى ذلك، واسْلُكْ فى القيام بشكْرها أوضَحَ المسالك؛ وأدِم المواصلةَ بمطالعتك، وقدِّم التوقُّع من إجابتك، تفُزْ من المراضى الشريفة بالحظ الأسنىٰ ، ويجتمعْ لك منها الاسمُ والمعنىٰ ، إن شاء الله تعالىٰ .

الطـــــرف الرابع

(فى الكتب الصادرة عن خلفاء بنى العباس فى الديار المصرية بعـــد مصير الخلافـــة إليها)

وهى علىٰ ثلاثة أساليب :

الأسلوب الأوّل

(أن يُفْتتح الكتابُ بلفظ «من فلان إلىٰ فلان»)

والحكم فيهـا علىٰ ما كان الأمرُ عليـه فى خلافتهم ببغداد ، إلا أنه زاد فيه لفظ « ووَلِيّه » بعد لفظ « عبد الله » فى أوّل الكتاب فيقال فى افتتاحه : «من عبد الله ووَلِيّه أبى فلانٍ فلان الإمام الفلانى» . ثم يقال :أما بعدَ حمد الله، ويؤتىٰ علىٰ آخر الخطبة، ثم يتخلّص منها ويختمُ بالأمر بامتثال ما أُمِر به . ويقال بعد ذلك : موفّقا إن شاء الله تعالىٰ . والخطاب فيه بالكاف، وربما افتُتح الكتاب بآية من القرءان الكريم مناسبةٍ للمعنىٰ .

وهذه نسخةُ كتابٍ كُتِب به عن الإمام المستكفِى بالله "أبى الربيع سـليمان ابن الحاكم بأمر الله أحمد" إلىٰ الملك المؤيّد هِزَبْرالدين داود ابن الملك المظفّر صـلاح

الدين يوســف بن رسول فى الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » فى ســنة سبع وسبعمائة ، حين منع صاحبُ اليمن الهديَّةَ ، التى جرتِ العادةُ بإرسالها إلىٰ الأبواب الشريفة بالديار المصرية ، مفتتحا بآية من القرءان ، وهو :

﴿ يٰأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ .

من عبد الله ووَلِيِّه أبى الربيع سليمان .

أما بعدَ حمدِ الله مانحِ القلوب السليمةِ هُدَاها ، ومُرْشِدِ العقُول إلىٰ أمرِ مَعَادِها ومَبْدَاها ؛ ومُوَفِّق من آختاره إلىٰ مَحَجَّةِ صوابٍ لا يَضِــلُّ سالكُها ، ولا تُظْلِمُ عند إخلافِ الأُمورِ العِظامِ مَسَالِكُها ؛ ومُلْهِمِ من آصطفاه لاقتفاءِ آثارِ السُّــنَنِ النبوِيَّه ، والعملِ بمُوجِبات القواعد الشرعِيَّه ؛ والانتظامِ فى سِلْك من طَوَّقَتْه الخلافةُ عُقودَها ، وأفاضتْ علىٰ سُــدَّتِه الجليلةِ بُرودَها ؛ وملَّكتْه أقاصِىَ البــلاد ، وأناطتْ بأحكامه السديدةِ أمورَ العباد ؛ وسارتْ تحتَ خَوافِقِ أعلامه أعلامُ الملُوك الأكاسره ، وشُيِّدتْ بأحكامه مَناجِحُ الدُّنيا ومَصالِحُ الآخِره ، وتبختَر كُلُّ مِنْبرٍ من ذِكْره فى ثَوْبٍ من السيادة مُعْلَم ، وتهلَّلتْ من ألقابه الشريفةِ أساريرُ كلِّ دينارٍ ودِرْهم .

يَحْمَده أميرُالمؤمنين علىٰ أن جعلَ أمُورَ الخلافة ببنِى العبَّاس مَنُوطه ، وجعلها كلمةً باقيةً فى عَقِبه إلىٰ يوم القيامة مَحُوطه ؛ ويصَــلِّى علىٰ آبن عمه محمدٍ الذى أخمــدَ اللهُ بمَبْعَثِه ماثَار من الفِتَن ، وأطفأ برسالته ما آضطرم مِنْ نار الإحَنْ ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه الذين حَمَوْا حِمىٰ الخلافة وذادُوا عن مواردِها ، وعمَدُوا إلىٰ تمهيد المَعالم الدينيَّة فأقامُوها علىٰ قواعِدِها ؛ صلاةً دائمةَ الغُدوّ والرَّواح ، متصلًا أوَّلُها بطُرَّة الليل وآخِرُها بجبين الصَّباح .

هذا و إنّ الدين الذى فرض الله على الكافّة الانضمام الى شعْبه، وأطْلَع فيه شموس هدايةٍ تُشرِق من مَشْرِقه ولاتَغرُب فى غَرْبه؛ جعل الله حكمه بأمرنا منُوطا، وفى سلْك أحكامنا مَخْروطا؛ وقلّدنا من أمر الخلافة المعظّمة سيفًا طال نِجَادُه، وكَثُر أعوانه وأنجادُه؛ وفوّض إلينا أمْرَ الممالك الإسلاميّة و إلى حَرَمنا تُجْبىٰ ثمراتُها، ويُرفَع إلى ديواننا العزيز نَفْيُها و إثباتُها؛ يَخْلف الأسدَ إن مضىٰ فى غابِه شِبْلُه، ويُلْفىٰ فى الخُبْر والخَبَر مِثْلُه .

ولما أفاض اللهُ علينا حُلّة الخلافه، وجعل محلّنا الشريفَ محلّ الرحمة والرافه؛ وأقعدَنا علىٰ سُدّةِ خلافةٍ طالمَا أشرقَتْ بالخلائف من آبائنا، وابتهجَتْ بالسادة الغَطَاريف من أسلافنا؛ وألبَسنا خِلْعةً هى من سَوَاد السُّؤدَد مصبوغه، ومن سَواد العُيون وسُوَيْداوات القلوب مَصُوغه؛ وأمضيْنَا علىٰ سُدَّتنا الشريفة أمْرَ الخاصّ والعامّ، وقلّدْنا كلّ إقليم من عَمَلِنا[1] مَن يُصْلِح سياسَتَها على الدّوام، واستكفَيْنا بالكُفَاة من عُمّالنا علىٰ أعمالنا، واتخذنا مِصْرَ دارَ مُقامنا وبها سُدّة مَقَامنا، لِمَا كانتْ فى هذا العصر قُبّةَ الإسلام، وفِيئةَ الإمام وثانيةَ دار السلام؛ تعيّن[2] علينا أن نتصَفّح جرائدَ عُمّالنا، ونتأمّلَ نِظامَ أعمالنا؛ مكانًا فمكانًا، وزمانًا فزمانا؛ فتصفّحناها فوجدْنا قُطْر اليمن خاليًا من وِلايَتِنا فى هذا الزمن؛ عرّفنَا هذا الأمْرَ مَن اتخذْناه للمالك الإسلامية عَيْنا وقَلْبا، وصَدْرا ولُبّا؛ وفوّضْنا إليه أمْرَ الممالك الإسلامية فقام فيها مَقاماً أقعد الأضْداد، وأحسَنَ فى ترتيب ممالكها نهايةَ الإصدَار وغايةَ الإيراد، وهو السُّلْطان الأجلّ، السيدُ الملك الناصر المبجّل؛ لازالتْ أسبابُ المصالح علىٰ يديْه جاريه، وسَحابةُ الإحسان من أُفُق راحتِه سارِيه؛ فلم يُعِد جوابا لما ذكرناه، ولاعُذْرا عمّا أبديناه، إلا بتجهيز شرْذِمة من جَحَافِله المشهوره، وتعيين أُناس من فوارسه المذكوره؛

(١) لعله أعمالنا (٢) جواب ولما أفاض .

يقتحمون الأهوال، ولا يعبئون بتغيرات الأحوال ؛ يرون الموت مغنما إن صادفوه، وشبا المرهف مكسبا إن صافحوه ؛ لا يشربون سوى المدام[1] مدامه ، ولا يلبسون غير الترائك عمامه ؛ ولا يعرفون طربا إلا ما أصدره صليل الحسام من غنا ، ولا يتزلون قفرا إلا وتبت ساعة نزولهم من قنا . ولما وثقنا منه بإنفاذهم راجعنا رأينا الشريف، فاقتضى أن يكاتب من بسط يده فى ممالكها ، واحتاط على جميع مسالكها ؛ واتخذ أهلها خولا ، وأبدى فى خلال ديارها من عدم سياسته خللا . برز مرسومنا الشريف النبوى أن يكاتب من قعد على تخت مملكتها ، وتصرف فى جميع أمور دولتها ؛ وطولع بأنه ولد السلطان الملك المظفر يوسف بن عمر الذى له شبهة تمسك بأذيال المواقف المستعصمية وهو مستصحب الحال على زعمه ؛ أوما علم الفرق بين الأحياء والأموات ؟ أو ما تحقق الحال التى بين النفى والإثبات ؟ ، أصدرناها إلى الرحاب التعزيه ، والمعالم اليمنية تشعر من تولى عنها فاستبد ، وتولى كبره فلم يعرج على أحد ؛ أن أمر اليمن ما برحت نوابنا تحكم فيه بالآية الصحيحه ، والتفويضات التى هى غير جريحه ؛ وما زالت تحمل إلى بيت المال المعمور وما تمشى به الجمال مشيا وئيدا ، وتقذفه بطون الجوارى إلى ظهور اليعملات وليدا ، ويطالعنا بأمر مصالحه ومفاسده ، وبحال دياره ومعاهده ؛ ولك أسوة بوالدك فلان ، هلا اقتفيت ما سنه من آثاره ، ونقلت ما دونته أيدى الزمن من أخباره .

واتصل بمواقفنا الشريفة أمور صدرت منك .

منها ــ وهى العظمى التى ترتب عليها ما ترتب ــ قطع الميرة عن البيت الحرام ؛ وقد علمت أنه واد غير ذى زرع ، ولا يحل لأحد أن يتطرق إليه بمنع .

(١) المدام المطر الدائم .

ومنها ــ انصبابُك إلىٰ تفريغ مال بيت المال فى شِراء لَهْوِ الحديث، ونَقْض العُهُود القديمة بمـا تُبْديه من حَدِيث .

ومنها ــ تعطيلُ أجياد المَنَابِر من عُقُود آسمنا، وخُلوُّ تلك الأماكن من أمور عَقَدنا وحَلّنا؛ ولو أوضحنا لك ما آتصل بنا من أمرك لطال، ولا تَّسعتْ فيه دائرةُ المَقَال؛ رَسْمنا بهـا والسيفُ يَوَدّ لو سَبَق القَلَمَ حدُّه ، والعَلَمُ المنصورُ يودُّ لو فات العلم وآهتزّ بتلك الرَّوابِى قَدُّه؛ والكتائب المنصورةُ تختار لو بدَرَتْ عُنوانَ الكِتاب، وأهلُ العزم والحَزْم يودُّون إليكَ إعمالَ الرِّكاب، والجَوارِى المنشآت قد تكوّنَتْ من ليلٍ ونَهار، وبرزَتْ كصُوَر الأفيِـلة لكنَّها علىٰ وجه المـاءِ كالأطيار ؛ وما عمدنا إلىٰ مكاتبتك إلّا للإنذار ، ولا آحتَجْنا إلىٰ مخاطبتك إلا للإعذار؛ فأقلِـع عمّـا أنت بصدَده من الخُيَلاء والإعجاب، وآنتَظِمْ فى سِلْك من آستخلَفْناه فأخذ بيمينه ماأُعْطِىَ من كتاب؛ وصُنْ بالطاعة مَنْ زعمتَ أنهم مُقيمون تحتَ لِواءِ عَلَمك، ومنتظمونَ فى سِلْك أوامِرِ كَلِمك ، وداخلون تحت طاعةِ قَلَمِك ؛ فلَسْنا نَشُنُّ الغارات علىٰ مَنْ نطق بالشهادتين لسانُه وقلْبُه ، وآمتثل أوامِرَ الله المطاعةَ عقْلُه ولُبُّه ؛ ودانَ بمـا يجبُ من الدِّيانه ، وتقلَّد عقودَ الصَّلاح وآلتحفَ مَطارِفَ الأمانه ؛ ولَسْنا ممن يأمر بتجريد سَيفٍ إلا علىٰ من عَلِمْنا أنه خرج عن طاعتنا، ورفَضَ كتابَ الله ونَزَع عن مبايعتنا . فأصدرنا مرسومَنا هذا إليه نَقُصُّ عليـه من أنباء حِلْمنا ما أطال مدّة دَوْلته ، وشـيَّد قواعِدَ صَوْلته؛ ونستدْعى منه رسولًا إلىٰ مَوَاقفنا الشريفه، ورِحاب ممالكنا المُنيفه؛ لينوبَ عنــه فى قَبُول الولاية مَنابَ نفسه ، وليَجْنِ بعد ذلك ثِمـارَ شفقاتنا إن غَرَس شَجرَ طاعتها ــ ومن سَعادة المرء أن يَجْنِىَ ثِمَار غَرْسه ــ بعد أن يُصْحِبه من ذخائر الأموال ما كَثُر قيمةً وخَفَّ حَمْلا، وتعالىٰ رتبة وحَسُن مِثْلا ؛ وآشْرُطْ علىٰ نفسك فى كل سنة قطيعةً ترفَعُها إلىٰ بيت المال . وإيَّاك ثم إيَّاك ! أن تكون علىٰ هذا الأمر ممن مال؛

ورتِّبْ جيشًا مقيمًا تحتَ عَلَم السلطان الأجلّ الملك الناصرِ للقَاء العدُوّ المخذول التَّتَار، ألحقَ الله أوّلهم بالهلاك وآخِرَهم بالبَوَار . وقد علمتَ تفاصيلَ أحوالهم المشهورَه ، وتواريخَ سِيَرهم المَنْكُوره ؛ فاحْرِص على أن يَخُصَّك من هــذا المَشْرَب السائغ أوفَرُ نصيب ، وأن تكون ممن جَهَّز جيشا فى سبيل الله فرمىٰ بسَهْم فله أجْرُكان مُصيبا أو [غير] مُصيب ؛ ليَعودَ رسولُك من دار الخلافة بتقاليدها وتشارِيفِها حاملًا أهِلَّةَ أعلامنا المنصوره، شاكرا بِرَّ مَوَاقِفنا المَبْروره؛ وإن أبىٰ حالُك إلا أن ٱستَمْرَيت علىٰ غَيِّك، وٱستَوْبَيْتَ مَرْعىٰ بَغْيِك؛ فقد منعناك التصرُّفَ فى البلاد، والنظرَ فى أحكام العِبَاد، حتّى تطأَ خيلُنا العِتاقُ مشمَخرّاتِ حُصونك، وتعجِّل حينئذ ساعةُ مَنُونك؛ وما عَلَّمناك غير ماعلمه قَلْبُك، ولا فَهَّمناكَ غيرَ ماحدســه لُبُّــك؛ ولا تكُنْ كالصغير يزيدُه كثرةُ التحريك نَوْما ، ولا ممن غرّه الإمهالُ يوما فيوْما . أعلمناك ذلك فاعْمَلْ بمقتضاه، موفَّقا إن شاء الله تعالىٰ .

الأُسْــــلُوب الثـانى

(أن يُفتتح الكتّابُ بخطبة إما مصدّرةً بآية من القرءان الكريم أو دُونِها)

كما كُتِب عن الإمام الحاكم بأمر الله أبى العباس « أحمد ٱبن المستكفى بالله أبى الربيع سليمان» إلىٰ السلطان الملك الناصر: أحمد ٱبن الملك الناصر محمد بن قلاوون، وهو بالكَرَك، يستَدْعى حُضورَه إلىٰ قلعة الجبل بالقاهرة المحروسة لتقليد السلطنة الشريفة، بعــدَ خَلْع أخيه المِلك الأشرفِ كُجُك ٱبن النـاصر محمد، وإمساك الأمير قُوصون ومَنْ معه من الأمراء .

وقد ذكر صاحب "الدرّ الملتقَط" أنه كتبه فى قَطْع البغدادىّ الكامل بين يدى الأمير قطلوبغـا الفَخْرىّ كافِل السلطنة الشريفة . وهذه نسخته :

﴿ألم تَرَوْا أنَّ اللهَ سخَّرَ لَكُمْ ما فِى السَّمٰواتِ ومَا فِى الأرضِ وأسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرةً وباطِنَةً ومِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ولَا هُدًى ولا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ .

فالحمـدُ لله الذى أسـبغَ نِعمَه الظاهرةَ والبـاطنه، وألَّف قلوبَ أوليائه المتفقةَ والمُتباينَه، وأخذ بنواصِى أعدائه المُراجَعةِ والبائنه، وأعلىٰ جَدَّهذه الدولةِ القاهره، وأطْلَعَ فى أسِنَّة العَوالى نُجومَها الزاهره، وحَرَّكَ لها العزائمَ فملَكَتْ والأمورُ ـ بحمد الله ـ ساكنه، والبلاد ـ والمنةُ لله ـ آمنه، والرَّعايا فى مكانها قاطنه، والسيوفُ فى أغمادها مثـلُ النِّيران فى قلوب حُسَّادها كامِنه . وأقام أهلَ الطاعة بالفرض، وآستوفىٰ بهم القَرْض، وقالوا الحمدُ لله الذى صَدَقَنَا وعْدَهُ وأورَثَنا الأرضَ ؛ وأعَزَّ أنصار المَقامِ الشريف العـالى وأعَزَّ نَصْره، وأعدّ لعَـدُوِّه حَصْره ؛ وأتىٰ بدولتـه الغراء تَسمُو شُموسها، وتُثْمِر غروسُها؛ وتَظْهَر فى حُلَل الصباح المشرقِ عَرُوسها، وتجىءُ منه بخير راعٍ للرعية يسوسها؛ وبشَّره بالمُلْك والدَّوام، وسرَّه بمـا آجتمعَ له من طاعة الأنام، وأقدمه علىٰ كُرْسِىّ مُلْكه تُظِلُّه الغَمام، وأراه يومَ أعدائه وكان لا يُظَنُّ أن يُرىٰ فى المَنَام ؛ ولا يزال مؤيِّدَ الهِمَم، مؤكِّد الذِّمم، مجدِّدَ البَيْعة علىٰ رِقاب الأُمَم ؛ ولا بَرِحَتْ أيامُه المقبلةُ مُقبِلةً بالنِّعَم، خُضْرَ الأكناف علىٰ رَغْم مَنْ كاد وغَيْظ من رَغِم ؛ ولا فَتِئَتْ عهودُ سَلَفه الشريفةُ تُنْشأ له كما كانت، ورعاياه تَدِين له بمـا دانَتْ، وجنودُه تُفَدِّيه من النفوس بأعَزِّ ما ذَخَرت وما صانَتْ ؛ وسعادةُ سلطانه تَكْشِفُ الغُمَم، وتَنْشُر الذِّمم، وتُعيد إلىٰ أُنُوف أهـل الأَنَفَة الشَّمَم، وتحفَظُ ما بَقِىَ لأوليائه من بَيـاض الوجُوه وسَوَاد اللِّمَم .

سَطَّرها وأصـدرها وقد حُقِّقت بعوائد الله الظُّنونـ، وصَـدَّقت الخواطرَ العُيون ؛ وأنْجَزَ اللهُ وعْدَه، وأتَمَّ سـعدَه ؛ وجَمع علىٰ مَقامه الكريم قلوبَ أوليائه ،

وفَرَّق فِرَقَ عَدُوِّه وأبَاتَهُ بدَائِه ؛ ووَطَّد لُرقِيِّه المَنَابِر، ورَجَّل لترقِّيــه العساكر، وهَيَّأ لمَقَاتِل أعدائه فى أَيْدِى أوليــائه السُّــيوفَ البَوَاتِر. وأُخِذ قُوصونُ وأُمْسِك، ونُهِب مالُه وآستُهْلِك ؛ وهُدِمتْ أبنيتُه ، وهُدَّتْ أفْنِيتُه ؛ وخُرِّبتْ دِيارُه ، وقُلِعتْ آثارُه ؛ وأُخْلِيتْ خزائنُه ، وأُخْرِجت من بُطون الأرض دفائِنُه ، وما مانَعت عنه تلك الربائب التى ظَنَّها قَساوِر ، ولا ناضَلَتْ تلك القِسِىُّ التى طبَعَها أَسَاوِر ؛ ولا أغنىٰ عنه ذلك المَــالُ الذى ذهَبْ ، ولا ذلك الجوهرُ الذى كان عَرَضا لمن نَهَب . وأُعِيد إلىٰ المَهْد ذلك الطفلُ الذى أكل الدُّنيا باسمِــه ، وقهر أبناءها بحُكْمه ؛ ومَوَّه به علىٰ النــاس ، وأخْلىٰ له الغابَ وماخرج من الكِنَاس ؛ وغالَبَ به الغَلَب حتّىٰ وَطِئ الرِّقاب ، وداس الأعقاب ؛ وخادَعَ ودَلَّه الشيطانُ بغُرُوره ، ودلَّس عليه عاقبةَ أُمُوره ؛ فاعتدّ بعَتاده ، وآعتَزَّ بقِياده ، وآعتَزَّ بأنَّ الأرضَ له وماعَلِم أنَّ الأرضَ لله يُورِثُها مَنْ يشاءُ مِنْ عِبَاده ؛ فأُمسِك ومعه رُءُوس أشياعه ، وحَصِرت بالخوف نُفُوسُ أتباعه ـ ومنهم الطنبغا .

وقد أحاط العلمُ الشريفُ بكيفيــة وُصُوله وحقيقةِ الخبر ، وما قاساه فى طريقه من العِبَر ، وداس عليه حتى وصل من وَخْزِ الإِبَرْ ؛ وكذلك من جاء معه ، وخَلَّف وراءه الحَقَّ وتبعه ، بعدَ الهزيمة التى ألجأهم إليها خوفُ العساكر المنصورةِ التى قعــدت لهم علىٰ الطريق ، وأخذت عليهم بمَدَارج أنفاسهم فى فَمِ المَضِيق ؛ وعُبِّئت لهم صُفُوف الرجال ، وأُعِدّت لهم حُتُوف الآجال ؛ وحيّرتْهم فى سَــعة الفِجَاج ، وأرتْهم بوارِقَ الموت فى سُحُب العَجَاج ؛ ثم لم يصلُوا إلا وهم أشْلاءٌ ممزَّقه ، وأعضاءٌ مفرَّقه ؛ قد قَنِي تخشُّهم الظهر ، وقَنِيَ بيومهم الدَّهْر ؛ وساقَتْهم سعادةُ سلطان المقام العالى إلىٰ شَقَاوتهم وهم رُقُود ، وعُبِّئت لهم الخيل والخِلَع إلا أنهــا مَلابِسُ الذُّلِّ وهى القيود ؛ فأُخِذُوا جميعا هم ومَنْ كانوا علىٰ مُوالاتِه ، وفارقوا الجماعةَ لمُواتاتِه ؛ وحُمِلوا إلىٰ الحَبْس النائى المكان ؛ وأُودِعوا أحياءً فى مُلْحَدِه الا أنهم كالأموات ، وقد نالوا المَقْصــد إلا أنهم

ماأَمِنوا الفَوات؛ ووُكّل بحفظهم إلى أن يُشَرِّف سريرُ المُلْك بقعود مَقامه وعُقُود أيّامه الحَوَالى، وسعود زمانه الذى لايحتم بالنجوم إلا خدم الليالى .

وهذا النصرُ إنما تهيّأتْ ــ ولله الحمد ــ أسبابُه، وهذا الفتح إنما فُتِحتْ بمشيئة الله أبوابُه؛ بمِنّة الله ونِيّة المقام العالى لا بمِنّةِ أحد، ولا بمُنّة بأْس من أقدر، ولا يَأْس من حجر؛ وما قضىٰ الله به من سعادة هذه الأيام، ومضىٰ به القَدَرُ السابقُ وعلىٰ الله التمام؛ و بمظَافَرة الجناب الكريم السَّيفىّ، قطلوبغا الفخرىّ الساقى الناصرىّ، أدام الله نُصرته لهــذه العصابة المؤيَّدة . و بمَضاء عزائمه التى ماوَنَتْ، وقضاء قواضــبه التى ماآنثنَتْ؛ و بموازَرة من التَفّ عليه من أكابر الأمراء، وبما أجمعوا عليه من مُظافَرة الآراء؛ ونزولهم علىٰ النية لايضرُّهم مَنْ خَذَلهم ، ولا يهيئُهُــمْ من بذلهم؛ ولا يبالُون بعساكر دمشق المقيمةِ علىٰ حلب ومن مال إليهم، وتمالأ معهم عليهم؛ ومَن آنضاف إليهم من جنود البلاد، وجيوش العِناد؛ ولا لَوَاهُم ما كان يبعث إليهم ذلك الخائن من وعيده، ولا وَلّاهم ما كاد يخْطَف أبصارَهم من تهديده ؛ ولا بالَوا بما ألّب عليهم من جُنْدُ الشام من كلّ أوْب ، وصبَّ عليهم سُيوله من كل صوب؛ وخادعهُم بالرسائل التى ما تزيدهم عليه إلا إباء ، ولا تُشكِّكُهم أن السيفَ أصدقُ منه إنْباءً، حتّى ولّى لا تنفَعُه الخِدَع ، ولا تنصُره البِدَع ؛ فما أسعدَتْه تلك الجموعُ التى جمعها، ولا أجابَتْه تلك الجنودُ التى سارَعليها إلىٰ مكّن أجلِه ، ولا وَقَتْ تلك السيوفُ التى لم يظهرله من بَوَارقها إلا حمرةُ الخجَــل ؛ حتى أُخذ مع طاغيته بل طاغُوته بمصرَ ذلك الأخْذَ الوَبِيل، وقُذِف به إلىٰ مَهْوىٰ هَلَكة سَيْل ذلك السبيل ؛ وقام مَنْ بالديار المصرية قيامَ رجلٍ واحد، وتظافَرُوا علىٰ إزالة ذلك الكافرِ النِّعمة الجاحد؛ ولم يبق من الأمراء إلا مَنْ بذل الجُهْــد، وجمع قلوبَ الرعية والجُنْد ؛ وفعــل فى الخدمة الشريفة مالم يكُنْ منه بُدّ، حتّى حُمِد الأمر وحُمد الجَمْر، وتواترت الكتبُ بمــا عمّتْ به البُشرىٰ

من إقامة البَيْعة باسْمه الكريم ، وأنه لم يبقَ إلا من أعطىٰ اليمينَ وأعطى اليَمينَ ، وأتمَّ الحلِفَ إتماما لا يُقدِّر معه ثمين ؛ وأقيمت له السِّكّةُ والخُطبة فرُفِع علىٰ المنابر آسمه وتهلل به وجُوه النُّقـود ، وظَهَر علىٰ أسارير الوُجود ؛ وضُرِبت البشـائر ، ونَمت المَسَّراتِ السَّرائر ، وتشوّقتْ أولياءُ هذه الدولة القاهرة أدام الله سلطانها إلىٰ حضور مَلِكها ، وسُفُور الصَّباح لإذهاب ماأبقَتْه عقابيلُ تِلك الليلة من حَلَكها . والمقام العالى ما يزداد عِلْما ، ولا يُزادَ عَزْما ، وهو أدرىٰ بما فى التأخير ، وبما فى بُعْده من الضرر الكبير ؛ ومثله لا يُعلَّم ، ومنه يُتَعلَّم ؛ فهو أعلمُ بمـا يجب من مسابقة قُدُومه للبشير ، وما سيعنّ من معاجلته لامتطاء جواديه ظهر الجمال وبَطْن السَّرير ؛ فاللهَ اللهَ ! فى تعجيل حِفْظ هذا السَّوام المشَرَّد ، وضَمِّ هذا الشَّمْل المشتَّت ونَظْم هذا العِقْد المبَدَّد ؛ وجَمْع كلمة الإسلام التى طالما افترقَتْ ، وانتجاع عارِض هذه النعمة التى أبرقَتْ ؛ وسرعةِ المسير فإنَّ صبيحة اليوم المبارك الذى يُعْرَف من أوّله قد أشرقَتْ ؛ فمـا بَقِيَ مابه يُقْتَـدَر ، ولا سِوىٰ مَقْدَمه السعيد يُنْتظَرْ .

وقد كتبناها ويَدُنا ممدودة لمبايَعته ، وقلوبُ الخلق كلُّها مستعدّة لمتابَعته ؛ وكرسىّ المُلْك قد أُزْلِف له مقـعَدُه ، ومؤمِّل الظَّفَر قد أُنْجِـزَ له موعِدُه ؛ والدهرُ مطاوِعُه والزمانُ مُسْـعِدُه ، وطوائف أوليـائه ليوم لقائه تُرْصِـدُه ؛ والعهد له قد كُتِب ، ولواء المُلْك عليــه قد نُصِب ؛ والمنبرُ بآسمه عليه قد خُطِب ، والدينارُ والدرهم هذا وهذا له قد ضُرِبْ ؛ ولم يبقَ إلا أن يَقْتَرِب ، وترىٰ العيونُ منه ما تَرْتَقِب ؛ ويجلسَ علىٰ السَّرير ، ويُزْمِعَ المبشِّر ويعزِم علىٰ المَسِير ؛ وتُزَيِّن الأقاليم ، ويبيِّن لتسيير شِهابه ما كان يُقْرَأُ له فى التَّقاويم ؛ لازال جَيْبُ مُلْكه علىٰ الأقطار مَزْرورا ، وذيل فَخَاره علىٰ السماء مجرُورا ؛ وحبلُ وَلِيِّه متَّصِلا وقلبُه مسرورا ، ومقدمه يحوز له من إرث آبائه نِعَمًا جمة ومُلْكا كَبِيرا ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الأســـلوب الثـالث

(ما آســـتقرّ عليــه الحـال فى زمانـا إلى خلافة الإمام
المتوكل على الله خليفـــة العصر)

وهو أن تفتتح المكاتبةُ بالسلام، ويؤتى فى ألقاب المكتوب إليه بما يُكتب من الألقاب عن السلطان على ماسيأتى ذكره فى المكاتبات السلطانيات فى الباب الثانى من هذه المقالة، إن شاء الله تعالى .

مثال ذلك : أن تكون المكاتبةُ إلى نائب الشأم مثـلا، فالذى يكتَبُ إليه عن السلطان : «أعزَّ اللهُ تعالى أنصار المَقرّ الكريم العالى» إلى آخر الألقاب الآتى ذكرها هناك؛ ويكتب عن الخليفة « سـلامُ الله تعالى ورحمته وبركاته يخُصُّ المقرّ الكريم العالى » إلى آخر الألقاب .

قلت : ولو سلكوا سبيلَ الخلفـاء السابقين فى المكاتبات الصادرةِ عنهم : من الأبتداء بلفظ «من عبدالله ووليِّه أبى فلان فلان الإمام الفلانى أميرالمؤمنين إلى فلان على ما تقدّم» وأتوا فى ألقاب المكتوب إليه بالألقاب المستعْمَلة فى [ذلك] الزمان فى المكاتبات الســلطانية : مثل أن يُكتب عن الإمام المتوكّل على الله محمد خليفة العصر إلى نائب الشام « من عبد الله ووليِّه أبى عبد الله محمدٍ الإمامِ المتوكّل على الله أمير المؤمنين ، إلى المَقرّ الكريم العالى الأميرىّ الكبيرىّ » إلى آخر الألقاب المقدّم بيانها فى المقالة الثالثة . ثم يقال : «وسلامٌ على المَقرّ الكريم، فإن أمير المؤمنين يحمَدُ إليه اللهَ الذى لا إلَهَ إلا هو ويسألهُ أن يصَلِّى على محمد عبـده ورسولِه صلَّى الله عليه وسلم» . ثم يقال : أمّا بعد، فإنَّ كذا وكذا، ويؤتى على المقْصد ويُختَم بالدعاء وغيره لكان أذهَبَ مع الصواب، وأوفق لمكاتبةِ الخُلَفاء السابقين، وأقربَ إلى آقتفاء سبيلهم .

الطـــــرف الخامس
(فى الكُتُب الصادرة عن الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية، وفيه ثلاث جمـــل)

الجمـــــــلة الأولىٰ
(فى الكُتُب الصادرة عنهم علىٰ سبيل الإجمال)

وقد ذكر صاحب "موادّ البيان" وكان من كبار دولتهم فى المكاتبات الصادرة عنهم نحو المكاتبات الصادرة عن خلفاء بنى العَبَّاس ببغدادَ، فقـال : وإن كانت المكاتبـةُ من الخليفة فينبغى للكاتب أن يفضل من الدرج قدر ذراع ثم يسـتفتح بسم الله الرحمن الرحيم فى سـطر أوّل : لأنها أوْلىٰ ما يُستفْتَح به، ثم يكتب فى سطر ثانٍ يلاصقها ويخرِّج يسيرًا «من عبد الله ووليه فلانٍ بن فلان إلىٰ فلان» ويبدأ بذكر نَعْتِه إن كان الإمام شَرَّفه بنعت: «سلامٌ عليك فإنَّ أمير المؤمنين يحمدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ويسألُه أن يصَلِّىَ علىٰ محمدٍ خاتم النبيين وسيِّد المرسلين وعلىٰ آله الأئمة المهديِّين ويُسلِّم تسليما». ويكون هذا التصدير فى سطرين، يجعل بينهما فضاء قيسَ شِبْر، ولا يزيده عن ذلك ولا ينقصه فيخرجه عن حَدِّه؛ ثم يترك بعد هذين السطرين فضاءً نصفَ الذى بينهما. ثم يقول: أمّا بعدُ، ويقتصّ المعانى معنًى معنًى، فإن كان أمرا أمر به الإمام قال بعد آنقضاء الكلام : وأمر أمير المؤمنـين بكذا . ثم يقول بعد فصلٍ أوسع من الفصل الأوّل «فاعلَمْ ذلك من أمير المؤمنين ورسمه وآعمَلْ عليه بحَسَبه» . ويقول للخاطبين من الطبقة العالية : والسلامُ عليك ورحمةُ الله، ويفرد بالسلام مَنْ دونها .

وقد كانت العادة جارية أن يقـال فى آخر الكتب النافذة عن الإمام «وكتب فلانُ بن فلانـ» باسم الوزير وآسم أبيـه؛ ثم بطل هذا الرسم فى الدولة العَلَوِيَّة

ولا يكتب أحدٌ بالتصدير إلا الإمامُ وولىُّ عهده . وهذه المكاتبة عامّةٌ للناس جميعا فى الأمور السلطانية التى تُنشأ فيها الكتُب من الدواوين، ولا يخاطَبُ أحد عن الخليفة إلا بالكاف .

الجملة الثانية

(فى الكُتُب العامة؛ وهى على أسلوبين)

الأسلوب الأوّل

(أن يفتتح الكتابُ بلفظ : «من عبد الله ووليه أبى فلان فلان الإمام الفلانى» على ما تقدّم ترتيبه)

وعلى هذا الأسلوب كان الحالُ فى ٱبتداء دولتهم وإلى أوساطها .

وهذه نسخة كتابٍ كتب به الإمامُ العزيزُ بالله نِزارٌ الفاطمىّ إلى عامله بمصر يبشّره بالفتح حين خرج إلى قتال القَرْمَطىّ بالشام فى سنة سبع وستين وثلثمائة، مما أورده المسبِّحىّ فى تاريخه :

من عبدِ الله ووليِّه نِزارٍ أبى المنصور العزيزِ بالله أميرِ المؤمنينَ، إلى حُسَينِ بن القاسم .

سلامٌ عليك، فإن أمير المؤمنين يحمَدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلَهَ إلا هو، ويسأله أن يصَلِّىَ على جدّه محمدٍ نبيه ورسوله صلّى الله عليه، وعلى الأئمة من عِتْرته الأبرار، الطاهرين المطهرين وسلّم تسليما .

أما بعدُ، فالحمدُ لله الملكِ العظيم، العليم الحليم، ذى الطَّوْل الكريم، والمَنِّ الجَسيم، والعِزِّ المَديد، والمحال الشّديد، ولىِّ الحقِّ ونصيره، وماحق الباطل ومُبيره، المتكفّل بالنصر والتمكين، والتأييد والتحصين، لأوليائه المتقين، وخلفائه المصطفَيْنَ الذابِّين

عن دينه ، والقائمين بحقّه ، والدالين علىٰ توحيده ، الحاكم بإعلاء كلمتهم ، وإفلاج حُجَجهم وظهورهم علىٰ أعدائه المشاقّين له ، الضالّين عن سبيله ، المُلْحدين فى آياته ، الجاحدين نعمه ، المتّزل رِجْزه ، وقوارع بأســه علىٰ من عصاه لخـادّه ، وصَدَّ عنه فنادّه ، القاضى بالعَوَاقب الحُسْنىٰ والفوز والنعماء لمن أسـلم وجهه له وتوكل عليـه فى أمره ، وفوّض إليـه حُكْمه ، كلُّ ذلك فضلًا منـه وعَدْلا ، وقضاءً فصلا ، وهو الحَكَم العَـدْل الذى لا يَظْـلِمُ النـاسَ شَيْئا ولكِنَّ النـاسَ أنْفُسَهُمْ يَظْلِمُون . فتبارك اللهُ الغالبُ علىٰ أمره الفردُ فى مُلْكه ، سبحانه وتعالىٰ عُلُوّا كبيرا . والحمـد لله الذى آبتعثَ عبدَه المصطفىٰ ، وأمينَهُ المرتضىٰ ، من أكرمِ سِنْخ ونَبْعة ، وأظهر مِلّتَه وشرعه فى أفضل دَهْر وعَصْر ، وأنزل عليه كتابا من وحيه حكيماً غيرَ ذى عِوَج قَيِّمًا بديع النظام ، داخلًا فى الأفهام ، خارجا عن جميع الكَلَام ، ليس كسَجْع الكُهّان ، ولا كتحبير ذوى اللسن والبيان ، وقد تفرّقت بالأمم أهواؤُهم ، وتوزّعَتْهم آراؤهم ، فضَـلّت أحلامُهم وعَمِيتْ أفهامُهم وآستحوذ عليهمُ الشيطان ، فعبَـدُوا الأصنام والأوثان ، جَهْلا بعبادة الرحمن ، فدعاهم إلىٰ الاقرار بإلٰهِهم ، وعرّفهم وحدانية ربّهم وكان حريصًا علىٰ إرشادهم ، جادًّا فى الآجتهاد ، هاجرًا للدّعة والمِهَاد ، صابرا علىٰ تكذيب المُشْركين ، وتَفْنيد المُلْحِدين ، ينصَحُ لهم فيستكبرون ، ويَهْديهم فيَضلُّون ، ويحذّرهم فيستَهْزِئون ، حتّى ظهر دينُ الله فسَمَا ، وطُمِس الكفرُ فانمحق وعَفَا ، وعمّتْ بركتُه ، وفُضِّلت علىٰ الأمم أمّتُه ، وعلَتْ علىٰ الملل مِلّتُه ، صلىّ الله عليه أفضلَ صلاة المصلّين ، وزاده شرفًا فى العالمين إلىٰ يوم الدين .

والحمد لله الذى حَبَا أمير المؤمنين وآنتخبه لخلافته ، وجعله صَفِيّه من خلقه وأمينَه علىٰ عبادِه وهاديًا إلىٰ سبيله ، قائمًـا بحقه ، مُقْسِطا فى أرضه ، ذَابًّا عن دينه ، مُحْييا ما أماته أهلُ الكُفْر من أحكامه ، وأيّدهبنصره ، وأمدّه بقُوّته ، وتكفّل له بالنُّجح

فى مَسْعاه ، والظَّفر بمُبْتغاه، ونَيْل طَلِبَتِـه فيما أمّه وآرتآه . وحَكَم بكَبْت كلِّ عدوٍّ له وخِزْيهم ، وإذلالهم ومَحْقِهم وخَذْلهم ، وإيهان كَيْـدِهم ؛ وضَرَبَ الذِّلّة عليهم حيث كانوا وأين كانُوا ؛ فلا يَنْعِق ناعقٌ منهـم بِطِلَال، أو يَسْعىٰ بِفسْق وخَبال؛ أو يُدْفع إلىٰ آفتراء علىٰ الله أو مُروقٍ عن دينـه أو إذهابِ ما فرض الله عز وجل من طاعةٍ إلا آصطلَمَهُ وأخزاه، وأ كَبَّه لوجْهِه وأرْداه، وقضىٰ عليه بالشِّقْوة فى دُنياه،وعذابِ الآخرةِ فى أُخْراه .

والحمد لله الذى مَنَح فأجمل، وأعطىٰ فأجزل؛ من نِعَمه السابغه، وآلائِه المتتابعه؛ التى لا يُوازيها شُكر، ولا يُدْرِكُ كُنْهَهَا ذ كر؛ حمـدًا يُوجب منه المَزِيد، و يستَدْعِى المِنَنَ والتَّجْديد ؛ وإليـه يرغَبُ أمير المؤمنين خاضعا ويسألُه راغبا حُسْنَ العَوْنِ علىٰ ما بَلَّغَ رِضْوانه،وآمترىٰ فضله وإحسانَه. وتقدّم أمير المؤمنين إليك بمـا هيّأه اللهُ من وُصُوله إلىٰ مدينـة الرملة علىٰ أجمل صُنْع وألطف كِفاية ، وأتمّ أمن ، وأكمل عِزٍّ وأوْطَد حال، وأحسنِ آنتظام، وأبسَطِ يد، وأظهر قُدْرة، وأشمل هَيْبة؛ وبما أولىٰ الله أمير المؤمنـين فى حَلّه وظَعْنه ، وآرتحاله وثَوَائِه : من نِعَمه العميمه ، ومَوَاهِبه الجَسِيمه؛ ومِنَحه الجليله ، ومِنَنِه الجَزِيله ؛ وانه مما يستغْرِق الحمدَ والشُّكْر، ويفوتُ الإحصاء والنَّشْر،وذكر أمير المؤمنين أمراللعين التركىّ وهَرَبه من بين يديه ، وأنه لم يَلْوِ علىٰ شىء إلىٰ أن بلغ طَبَرِيّةَ للذى تَداخلَه من الفَرَق، وآستولىٰ عليـه من القَلَق؛ ولِمَا سكَنَ قَلْبَهُ من الرُّعْب، وحشاه من الرَّهْب؛ بقصْد أمير المؤمنين إيّاه وإغْذاذه السيرَ فى طلبه ومواصَلتِه الأسْباب ، ومتابَعته الإدْآب . ووصَفَ أميرُ المؤمنين ما عليه عَزْمُهُ فى تَتَبُّعه وآقتفاء أثره، والحلول بعَقْوته[(١)] حيثُ قَصَـد وحَلّ، لِثقَته بالله ربِّه، وتوكُّلِه عليه، وتفويضه إليـه . ولم يَزَلْ جلّ وعز يُولِى أميرَ المؤمنين ــ بعد نُفُوذ

(١) العقوة ما حول الدار والمحلة، انظر القاموس، ووقع فى الأصول بالفاء بدل القاف وهو تصحيف .

كتابه — من عزّ يؤيده، وظفر يؤكّده، ونصر يوطّئه، وآلاء يجدّدها، ومواهب يتابعها، وعدوّ يذلّه، ومناوٍ يقلّه، وشاردٍ يصرفه إلى طاعته، ومارق يعيده إلى موالاته؛ إلى أن تمّ له من ذلك ماواصل به حمد الله عليه، وتهيّأ له ما تواتر شكره له جل وعزّ فيه وكان مع ذلك مواصلًا إلى اللعين الإعذار، ومتابعًا الإنذار، ومحذّرا له ما يحذر، ومستدعيه إلى ما يختار ويؤثر، وممنّيا له مما يمنّى به مثله من العفو عنه، وتغمّد ما جرى منه؛ والإقالة لعثرته، والتجاوز عن هفوته؛ والامتنان عليه بما رغب فيه من تقليده ناحيةً من نواحي الشام، وإدرار الأرزاق عليه وعلى رجاله وأصحابه؛ وإيثاره بالفضل الجليل، واختصاصه بالطّول الجزيل . فما نجح فى الفاسق وعد، ولا نجع فيه وعظ، ولا وفّق إلى قبول حظ، ولا أصغى إلى قبول تذكره، ولا أناب إلى تبصره. وما زال جادًّا فى تهوّكه، متماديًا على تمهّكه، جاريًا على ضلالته، سالكا سبيل عمايته، مترددًا فى غوايته، متلدّدًا فى جهالته، مقدّرا أن بأس الله لا يرهقه، وسطوته لا تلحقه، ورجزه لا يمحقه، وذنوبه لا ترهقه، وأجرامه لا توبقه . وما زال اللعين فى خلال ذلك يبسط آمال العرب ويرجّيها، ويرغّبها ويمنّيها، بأقوالٍ كاذبه، وآمالٍ خائبه، ومواعيد باطله؛ حتّى أصغى أكثرها إلى غروره، وقبول إفكه وزوره؛ وأجابته طائفةٌ طاغيه، ووصلت إليه متتابعه؛ فتوفّر جمعه، وكثر عدده واشتدّ طمعه، وقوى أمله؛ وتمكن له باستدراج الله إيّاه وغضبه عليه أن يورّط عصبته ومن اختدعه بغيه واستفزّه معه جهله؛ ويوردهم جميعا ونفسه الزّلة موردًا لا صدر له، ولا علّل بعده؛ فخرج من طبريّة وحلّ بيسان، محلّ الخزي والهوان؛ فعندها انتهى إلى أمير المؤمنين خبره وهو يومئذ فى المنهل، الذى حصل فيه بعد رحيله من الرملة وهو الموضع المعروف بالطّواحين . فعند ما قرب استجرار الفاسق اللعين، واعتمد ما يعود بأطماعه، أقام فى الموضع أيامًا ناظرا فيما يحتاج إليه، متأهّبا

لما يُريده ، وكان ذلك هو السببَ الذى أطمعه . فبَعْـد ما طَمِع قاده الحَيْنُ الغالب، والقَدَر الجالب، وما أراد اللهُ عز وجلّ من آستدراجه إلىٰ موضع نَكَاله ، ومَنْهل وَبَاله ، ورحَلَ من بَيْسانَ رحيـلَ من آستعجَلَتْه البَلِيه ، وآستَدْعتْه الرَّزِيَّه ، فحلَّ بموضع يُعْرَف بكَفْر سَلَّام ، كافِرًا بحُدُود الإسلام ، متجرِّئا علىٰ الله محارِباً لنجل نبِيِّه عليه السلام ، وأقام بها متلدِّدا فى حَيْرته ، متردِّدًا فى سَكْرته ، ثم آستجرّه شُؤْمه ، وقاده حَيْنه ولُؤْمه ، إلىٰ أن رحَلَ فنزَل بكَفْر سَابَا البريد ، فأنباه آسْمُها بما حَلَّ به من السَّبْيِ المُبِيـد والخِزْى الشديد ، ثم لم يلْبَثْ أن ضَرَب مضاربَهُ المأكُوله ، ونصبَ أعلامَهُ المَخْذُوله ، وأقام صُفُوفه المَفْلُوله ، وأظهر آلةَ الحَرْب إقداما ، و[أخفىٰ] عن اللقـاء إحجـاما .

فأمر أميرُ المؤمنين بتزيين العساكر المنصورة والجيوش المظفَّرة وتَعْبِئتهـا علىٰ مراتبهـا ، وترتيبها علىٰ مَوَاكبهـا ، وتقـدّم إلىٰ قُوّادها أن لا يَمْشُوا إلا صَـفًّا ، ولا يَسِيرُوا إلا زَحْفا ، وعرّفهم أنه سيسيرُ بنَفْسه ، ويقصِدُ اللعينَ بموْكبه وجُمْهوره ومن معه من حُمَـاة رجاله ، وأنه لا يَثْنِيه عن الفاسق ثانٍ ولا يصْرِفُه عن الاقتحام صارِف ، فبَـدا من عزائمهم ، وشِدّةِ شكائمهم ، وخلوص بصائرِهم ، وسُـكُونِ أفئدتهم ، وثبات أقْدامِهم ، ما كانتْ به دلائلُ النصر واضحه ، وشواهدُ الفَلْج لائحه ، وعلاماتُ الفَتْح ظاهره ، وآياتُ النُّجْح باهره ، فَمَشَوْا علىٰ ما أُمِروا ، وساروا علىٰ ما سُـيِّروا ، فعند ما دَنَوْا من عدُوِّ الله أصابوه للجِلَاد مُعِـدّا ، وفى المحاربة مُجِدّا ، وآسـتخارُوا الله عز وجلّ وتدانَوْا للتّلاق ، والأخذِ بالنواصِى والأعْناق ، وقامتِ الحَرْبُ علىٰ ساق ، وتجرَّعَ منها أمَرَّ مَذَاق ، فآسـتطار شَرارُها ، وتأجّجتْ نارُها ، وآرتفع دُخَانها ، وعَظُم شأنُهـا ، والتزم الأقرانُ بالأقران ، وآشتدّ الضّرْبُ والطّعانِ ،

إلىٰ أن مشىٰ أمير المؤمنين بنَفْسه، وجُمْهور مَوْكبه؛ متوكّلا علىٰ الله، ماتًّا إليه بجدّه محمد صلىٰ الله عليه وسلم، متوسّلًا بتقدّم وَعْده، وسالف إنعامه عنْده، وقصدَ اللعينَ غيرَ متلَوِّم عن مصادمته، ولا معرِّج عن ملاحَمَتِه؛ فقوِيَتْ نفوسُ أوليائه وعَبِيــده، ومن آشتملت عليــه عساكِرُه المنصوره، وجيوشُه المظفَّره بمــا تبيّنُوه من إقدامه، وشاهَدُوه من آعْتزامه؛ وحملُوا علىٰ الفاسق وأحزابِه؛ وقذف اللهُ فى قلوبهم الرُّعْبَ فتزلزلت أقدامهم، وأرعِشَتْ أيديهم ونَخِبَتْ أفئدتُهم، وولَّوا الدُّبرَ منهزمين، ومَنَحُوا ظُهورَهم مُولّين؛ وآفترقوا ثلاثَ فِرَق: فرقةٌ قُتِلتْ فى المَعْركه، وصُرِعتْ فى المَلْحَمه؛ فاحتُزَّت رُءُوسهم، وفرقةٌ أحَسَّت وقْعَ السُّيوف وإرهاقَ الحُتُوف؛ فاستأمنَتْ تحتَ الذِّلَّة والصَّغَار، والغَلَبة والاقتدار، فُبُقِّيَتْ عليهم الأرواح، وحُقِنتْ منهــم الدِّماء. وفرقةٌ أُسِرَتْ أَسْرا، وقُيِّدتْ قَيْدا؛ وهرب التُّرْكِيُّ اللعين رئيسُ ضَلَالتهم، وعَمِيدُ كُفْرِهم؛ فى شُرَيْذمة من أصحابه، فظنَّ أن ذلك من بأس الله يُنْجِيه؛ ومن الأخْذ بكَظَمِه يُوقِيه، هيهاتَ! كما قال الله عز وجل: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهاتَ لمــا تُوعَدُون﴾: ﴿إنْ كَانَتْ إلا صَيْحةً واحِدَةً فإذَاهُمْ جَميعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ فاتّبعــه سَرَعانُ الخَيْل وخِفَافُ الرِّجال؛ مع مفرِّج بن دَغْفَل بن جراح، فأخذه قَبْضا وأتىٰ به قَوْدا أســيرًا من غير عَهْد، وذليلًا من غير عَقد؛ وآستولىٰ أهلُ العساكر المنصوره، والجُيوش المظفَّره؛ علىٰ مُناخه وسَــوَاده، وما كان فيه من مال وأثاثٍ وكُرَاع وقِناع[1]؛ وقليل وكثير، وجليلٍ وحقــير، فحازُوه وآتّسعُوا به، وأكثَرُوا من حمد الله، وآنصرفُوا إلىٰ مُعَسْكَرِهم سالمين، بالمَغْنَم والظَّفَر آمنين؛ لم يُكْلَمْ منهم أحدٌ، ولم يَنْقُص لهم عَدَد؛ وكان جملة ما أتوْا به معهم من رُءُوس الفَسَقة زائدًا علىٰ ألف رأس، ومن أسْراهم ثمانمائة أسير، غير من آستُؤْمِن وقت الإيقاع بهم، ولم يُفْلِت من الفَسَقة إلا من هَرَب

(١) القناع معانيه كثيرة ومنها السلاح وهو المراد هنا.

بحُشاشة نفسه مع مَنْ لاءم التركيّ اللعين، وصاحبُ عقده ومُورّطه فى هلاكه ، وقائدُه إلىٰ تقمّاته ، وسائقُه إلىٰ مُوبِقاته ؛ وهو كاتبه المعروف بابن الحمارة ، فلحق بطبريّة فقُتِل هو وجُلّ من كان معه وٱحتُزّ رأسه وأُتِيَ به ؛ فكمُلت النعمه ، وتمت الموهبه ؛ وتجدّدَ حمدُ أمير المؤمنين وٱتصل شُكْره ، لما أولاه من جليل عطائه ، وكريم حِبائه ، وسَنِيّ آلائه . وكان ما آتاه الله من عظيم آياته ، وأكبرِ شواهده ، وٱختصاص الله إيّاه وٱنتخابِه له ؛ فالحمدُ لله ! ثم الحمدُ لله ! ثم الحمد لله ربّ العالمين علىٰ عطائه الهَنِيّ ، وحِبائه السَّنِيّ ؛ وما أيّد أميرَ المؤمنين ، وأعزّ الدين ، وقمع المُشْرِكين ؛ اذ كان الفاسقُ اللعين ، التركيّ الغويّ المبين ؛ ثُلّةً من ثُلَلِهم وركنًا من أركانهم ، وحِزْبا من أحزابهم ، ووَثَنا من أوثانهم ، وطاغيةً من طواغيتهم ؛ ولم يكن لهم فى بلد المسلمين يدٌ تَصُدّ عنهم بأسَ غيرهم ، ولا عضدٌ يدفَعُون بها سواه . وأمير المؤمنين يرغبُ إلىٰ الله عز وجلّ أن يُوزِعه الشُّكرَ علىٰ ما أولاه ، ويُوجِده سبيلا إلىٰ بلوغ مُبْتغاه ؛ من إعزاز الملّة والدِّين ، وإحياء شريعة جَدّه سيد المرسلين ؛ ومجاهدة التُّرْك والمشركين ، وقَمْع الظالمين والقانطين والمارقين ؛ حتّى يكونَ الدينُ كُلّه لله ، ويَجمع القلوب علىٰ طاعته بإذْن الله .

أمر أميرُ المؤمنين بتعريفك ذلك ، وتلخيص الكتاب إليك ، لتقفَ عليه وتُذيعه ، وتُشَهِّره فيما قِبَلك ؛ وتحمدَ الله علىٰ ما منح أميرَ المؤمنين من النصر ، ومكّنه من الظّفَر . فاعلَمْه إن شاء الله تعالىٰ ؛ والسلامُ عليك ورحمة الله وبركاته . وكتب يوم الخميس لخمس ليالٍ بقين من المحرّم سنة سبع وستين وثلثمائة .

الأسلوب الثـانى

(أن يفتتح الكتاب بخُطْبة مفتَتَحة بالحمد لله)

وعليه كان الحال فى أواخر دولتهم . وعليه جرىٰ فى "موادّ البيان" فى الأمثلة التى ذكرها .

وهذه نسخةُ كتاب مما اورده فى "موادّ البيان" ببشارة بفتح، وهى :

الحمد لله مُديل الحقّ ومُنيره ، ومُذِلّ الباطل ومُبيره ، مؤيِّد الإسلام بباهر الإعجاز، وقصم وَعدِه (١) فى الإظهار بوَشِيك الإنجاز ؛ أحمدَ كلَّ دِينٍ وأعْلاه، ورفَضَ كلَّ شرع وآجتباه ، وجعله نُورَه اللامِع ، وظِلَّه الماتع ، وآبتَعَث به السراجَ المنيرَ، والبشيرَ النّذير، فأوضَحَ مناهجَه ، وبيّن مَدَارِجَه ، وأنارَ أعلامَه ، وفَصَّل أحكامه ، وسَنَّ حلالَه وحرامَه ، وبيّن خاصّه وعامّه ، ودعا إلىٰ الله بإذنه ، وحضّ علىٰ التمسُّك بعِصَم دِينه ، وشمّر فى نَصْره مجاهداً مَنْ نَدّعن سبيله ، وعَنَد عن دليله ، حتّى قَصَّد الأنصابَ والأصنام ، وأبطل المَيْسرَ والأزلام ، وكَشَف غياباتِ الإظلام ، وآنتعلَتْ خيلُ الله بقبائل (٢) الهام .

يحمَدُه أمير المؤمنين أن جعله من وُلَاة أمره ، ووَفّقه لاتِّباع سُنَّة رسولِه وآقتفاءِ أثَرِه ، وأعانه علىٰ تمكين الدِّين ، وتَوْهِين المُشْركين ، وشِفاءِ صُدُور المؤمنين ، وأنهضه بالمُرَاماة عن المِلّة ، والمُحاماة عن الحَوْزة ، وإعزاز أهلِ الإيمان ، وإذلالِ حِزْب الكُفْران . ويسألُه الصلاةَ علىٰ خِيرته المجتبىٰ ، وصَفْوته المنتضىٰ ، محمدٍ أفضل من ذَبّ

---

(١) كذا فى الأصول مضببا عليه بعلامة التوقف ولعله وتمم وعده الخ كما يفيده السجع .

(٢) قبائل الرأس أطباقه وفى الأصول "نبائل" بالنون وهو تصحيف يأباه المعنى .

وكالَحَ، وجاهَدَ ونالَحَ، وحمى الذّمار، وغزا الكُفّار. صلى الله عليه وعلى أخيه وآبن عمه علىّ بن أبى طالب سيفِه القاطع، ومِجَنّه الدافع : وسَهْمِه الصارِدْ، وناصِرِه العاضد؛ فارس الوقائع، ومَعْوس(؟) الجائع؛ مبيد الأقران، ومبدِّد الشُّجعان. وعلى الطّهرة من عِتْرته أئمة الأزمان، وخالصة الله من الإنس والجانّ. وإنّ أولى النِّعم بأن يُرْفَل فى لِباسها، ويتوصّل بالشُّكر إلى لَبَاثها، ويتهادى طَيِّبُ خبَرِها، ويُتفاوض بحُسْن أثَرِها؛ نعمةُ الله تعالى فى التوفيق لمجاهدة أهلِ الإلحاد والشِّرْك، وغزْوِ أولى الباطل والإفْك؛ والهجوم عليهم فى عُقْر دارهم، وآجتثاث أصلهم وهَدْم مَنارِهم؛ وآستنزالهم من معاقِلِهم، وتَشْرِيدهم عن مَنَازِلهم؛ وتغميض نواظِرِهم الشُّوس، وإلباسهم لِباسَ البُوس؛ لما فى ذلك من ظُهورِ التوحيد وعِزِّه، وخُمود الإلحاد وعزّه؛ وعلوّ ملّة المسلمين، وآنخفاض دولة المشركين؛ ووضُوح مَحَجَّة الحق وحُجَّته، وفُضُوح بُرهانِه وآيتِه.

وكتابُ أمير المؤمنين هذا إليك، وقد آنكفأ عن ديار الفَلاَنيين والمُشركين إلى دَسْت خلافته، ومَقَرِّ إمامته؛ بعد أن غَزَاهم بَرًّا وبحرا، وشرّدهم سَهْلا ووَعْرا، وجرّعهم من عواقب كُفرهم مُرًّا؛ وفرّق جمائعهم التى تُطَبِّق سُهُوبَ الفضاء خَيْلا ورَجْلا، وتَضِيقُ بها المَهامهُ حَزْنا وسَهْلا؛ ومزّق كتائبهم التى تُلْحِقُ الوِهادَ بالنِّجاد، وتختطف الأبصار ببوارق الأغماد؛ وسَبى الذّرارىّ والأطفال، وأسر البطاريقَ والأقيال؛ وآفتتح المَعَاقِلَ والأعمال، وحاز الأسْلابَ والأموال؛ وآستولى من الحُصُون على حِصْن كذا وحصن كذا. ومحا منها رُسُوم الشرك وعَفّاها، وأثبت سُنَنَ التوحيد بها وأمضاها. وغَنِم أولياءُ أمير المؤمنين ومتطوِّعةُ المسلمين من الغنائم ما أقرّ العيون، وحقّق الظُّنُون؛ وآنفصَلُوا وقد زادتْ بصائرهم نَفاذًا فى الدِّين، وسرائُرهم إخلاصًا فى طاعة أمير المؤمنين؛ بما أولاهم اللهُ من النَّصر والإظفار، والإعزاز والإظهار؛ ووَضَح للشركين بما أنزلَه عليهم

من الخِذْلان، وأنالهم إيَّاه من الهَوَان ؛ أنَّهم علىٰ مَضَلَّة من الغَيّ والعمىٰ، وبُعْد من الرُّشْد والهُدىٰ ؛ فضَرَعُوا إلىٰ أمير المؤمنين فى السِّلْم والموادَعه، وتحمَّلُوا بَذْلا بذَلُوه تَفادِيًا من الكِفَاح والمُقَارعه ؛ فأجابهم إلىٰ ذلك متوكِّلا علىٰ الله تعالىٰ، ومتمثِّلا بقوله تعالىٰ إذ يقول : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾. وعاقَدَ طاغيتَهم علىٰ كتاب هُدْنة كتبه له، وأقرّه فى يده، حُجَّةً مضمونة .

أشْعَرك أميرُ المؤمنين ذلك لتأخُذَ من هـذه النعمة بنَصيبِ مثلِك من المُخْلِصين، وتَعْرِف موقِعَ ما تفضَّل اللهُ تعالىٰ به علىٰ الإسلام والمسلمين ؛ فتُحْسِن ظَنَّك، وتَقِرّ عَيْنَك ؛ وتشْكُر الله تعـالىٰ شُكْر المسـتمِد من فضله، المعتدّ بطَوْله ؛ وتتلو كتابَ أمير المؤمنين، علىٰ كافَّة مَنْ قِبَلَك من المسلمين، ليعلَمُوا ما تولَّاهم الله به من نَصْره وتمكينه، وإذلال عدُوِّهم وتوْهِينه ؛ فاعلَمْ ذلك واْعمَلْ به .

الجمـــــلة الثـالثة

(فى الكُتُب الخاصَّة، كالمكاتبة إلىٰ الوزير ومَنْ فى معناه)

قال فى "موادِّ البيان" بعـد ذكر صُورةِ المكاتبات العامَّة عنهم : وقد يخاطِبُ الإمامُ وزيرَه فى المكاتبة الخاصَّة بما يَرفَعُه فيه عن خطاب المكاتبة العامَّة الدِّيوانيَّة، ويُتَصرَّفُ فى ذلك، ويزاد ويُنْقَص علىٰ حسَب لطافة محلِّ الوزير ومنزلته من الفَضْل والجَلَالة . قال : وليس لهذه المكاتبة الخاصة حدودٌ ينْتَهىٰ إليها، ولا قوانينُ يعتَمَدُ عليهـا، وطريقُها مستفيضة معلومة . وقد تقدّم فى المكاتبات الخاصة عن خلفاء بنى العَبَّاس أن مكاتبة الوزير «أمْتعنِى الله بك» فى أدعية أخرىٰ .

الطَّـــرَف السادس

(فى الكتب الصادرة عن خلفاء بنى أمية بالأندلُس)

ولم أقِفْ على شيء من المكاتبات الصادرة عنهم، وإن ظَفِرتُ بشيء منها بعــد ذلك ألحقته إن شاء الله تعالى.

الطـــرف السابع

(فى الكتب الصادرة عن الخلفاء الموَحِّدين، أتباع المهدىّ بن تُومَرْت المستمرّ بقاياهم الآنَ بتُونُسَ وسائر بلاد أفرِيقيَّة، وهى على أسلوبين)

الأسلوب الأوّل

(أن تُفتتحَ المكاتبة بلفظ «من فلان إلى فلان»).

وكان الرسم فيهــا أن يقال: «من أمير المؤمنين فلان» ويُدْعَى له بمــا يناسبه «إلى فلان» ويُدْعَى له بمــا يليق به؛ ثم يؤتَى بالسلام؛ ثم يؤتَى بالبعدية والتحميد والصلاةِ على النبىّ صلّى الله عليه وسلم، والترضيةِ عن الصحابة، ثم عن إمامهم المَهْــدِىّ؛ ثم يؤتَى على المَقْصود، ويُختَم بالسلام. والخطاب فيه بنُون الجمع عن الخليفة وميم الجمع عن المكتوب إليه.

كما كُتِب عن عبد المؤمن: خليفة المهدىّ إمامِهم إلى الشيخ أبى عبد الله محمد ابن سعد:

«من أمير المؤمنين أيدّه الله بنَصْره، وأمدّه بمَعُونته؛ إلى الشيخ أبى عبد الله محمد ابن سعد وفّقه الله، ويَسّره لمــا يرضاه، سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه.

أما بعدُ فالحمدُ لله الذى له الاقتدار والاختيار، ومنه العونُ لأوليائه والإقدار، وإليه يَرْجِع الأمر كلُّه فلا يمنعُ منه الاستبداد والاستئثار؛ والصلاةُ على محمد نبيّـه الذى ابتعثتْ بمَبْعثه الأضواءُ والأنوار، وعَمرتْ بدَعْوته الأنجادُ والأغوار، وخَصَم بحُجّته الكُفْرَ والكُفّار؛ وعلى آله وصحبه الذين هم الكِرامُ الأبرار، والمهاجرين والأنصار؛ والرِّضا عن الإمام المعصوم، المهدىّ المعلوم؛ القائم بأمر الله حين غَيّرتْه الأغيار، وتقدّم الامتعاض له والانتصار. وهذا كتابُنا ـ كتب الله لكم نَظَرًا يُريكم المَنْهَج، ويُلْفيكم الأبهجَ فالأبْهج؛ وآتاكم الله من نعمةِ الإيمان، وعصمةِ الانقياد له والإذعان، ما تجدون به اليقينَ والثلج ـ من حضرة مَرّاكُش حَرَسها الله تعالى؛ ولا استظهارَ إلا بقُوّته وحوله، ولا استكثارَ إلا من إحسانه وطَوْله.

ولما جعل اللهُ هذا الأمر العظيم رحمةً لخلقه، ومَطيّةً لرقيه وقرارةً لإقامة حَقّه؛ وحمّل حَمَلَتَه الدعاءَ إليه، والدلالةَ به عليه، والترغيبَ فى عظيم ما عنده ونَعيم مالَدَيْه؛ وجعل الإنذارَ والإعذارَ من فُصُوله المستَوْعبه، وأحكامه المرَتّبه؛ ومَنْجاته المخَلِّصة من الخطوب المُهْلِكة والأحوال المُعْطِبه ـ رأينا أن نُخاطبكم بكتابنا هـذا أخذًا بأمر الله تعالى لرسولِه فى المَضَاء إلى سبيله، والتحريضِ على اغتنام النجاءِ وتحْصيله، وإقامةِ الحُجّة فى تبليغ القولِ وتوصيله؛ فأجيبوا ـ رفعكم الله ـ داعىَ الله تَسْـعَدُوا، وتَمَسّكوا بأمر المهدىّ ـ رضى الله عنه ـ فى اتّباعِ سبيلِه تهتَدُوا؛ واصرِفُوا أعِنّـة العِنـاية إلى النظر فى المآل، والتفكّر فى نَوَاشئ التغيُّر والزوال، وتدبّروا مَجْرَى هذه الأمور وتصرُّفَ هـذه الأحوال؛ واعلموا أنه لا عِزّةَ إلا بإعزاز الله تعـالى فهو ذوالعِزّة والجلال، ولا يَغُرّنّكُم بالله الغَرُور، فالدُّنيا دار الغُرُور، وسوقُ المحَال؛ وليس لكم فى قَبُولِ النصيحه، وابتداءِ التوبة الصحيحه؛ والعملِ بثُبُوت الإيمان فى هذه العاجلة الفَسِيحه؛ إلّا ما تجِبُونه فى ذات الله تعـالى من الأَمَنة والدَّعَة، والكرامة

المتَّسعة والمكانة المرفَّعه، والتنعُّم بنعيم الراحة المتصلة والنفس الممتنعه ؛ فنحن لانُريد لكم ولسائر من نرجو إنابتَه، ونستدعى قبولَه وإجابته، إلا الصَّلاحَ الأعمَّ، والنجاحَ الأتمّ ؛ وتأملوا — سدَّدكم الله — مَنْ كان بتلك الجزيرة — حرسها الله — من أعيانها، وزعماء شانها ؛ هل تخلَّص منهم إلىٰ مايودُّه، وفاز بما يدَّخره ويُعِدّه، إلا من تمسَّك بهذه العُرْوة الوُثْقىٰ، وٱستبقىٰ لنفسه من هذا الخيْر الأدومَ الأبقىٰ، وتنعَّم بما لقِىَ من هـذا النعيم المُقيم ويَلْقىٰ . وأما مَنْ أخلَدَ إلىٰ الأرض وٱتَّبع هوَاه ، ورغِبَ بنَفْسه عن هذا الأمرِ العزيز إلىٰ ما سِواه ؛ فقد عُلِم بضرورتَى المشاهدة والاستفاضة سُوءُ منْقَلَبه ، وخَسارةُ مذهبه ومُطَّلَبه ، وتنقَّل منه حادثُ الانتقام أخسرَ ما تنقَّل به ؛ وحقٌّ عليكم — وفقكم الله ويسَّركم لما يرضاه — أن تُحْسِنوا الاختيار، وتصِلُوا الادِّكارَ والاعتبار، وتبْتَدِروا الابتدار ؛ وماحقٌّ مِن ٱنقطع إلىٰ هذا الأمر الموصول الواصل، وأزمع ماينالُه من خيره المَحُوز الحاصل ؛ أن ينالَهُ منكم شاغلٌ يشْغَله عن مقصوده، ويُحِيط به ما يَصْرِفه عن محبوبه ومَوْدُوده ؛ فقد كان منكم فى أمر أهل بلَنْسِيَةَ حينَ إعلانهم بكلمة التوحيد، وتعلُّقهم بهذا الأمر السعيد ما كان، ثم كان منكم فى عقب ذلك ما ٱعتمدتُمُوه فى أمر أهل لوُرْقَـة — وفَّقهم الله — حينَ ظهر ٱختصاصُهم ، وبان إخلاصُهم ؛ وليس لذلك وأمثاله عاقبةٌ تُحْمَد، فالخيرُ خيْرُ ما يُقْصَد ، والنجاة فيما يُنْزِحُ عن الشر ويُبْعِد ؛ وإنا لنرجو أن يُكَفَّكم عن ذلك وأشباهه إن شاء الله تعالىٰ نظرٌ موفَّق، ومتاعٌ محقَّق ، ويجذِبُكم إلىٰ مُوالاة هذه الطائفة المباركة جاذبٌ يُسْعِد، وسائق يُرْشِـد ؛ والله يمُنُّ عليكم بما يُنْجِيكم ، ويمكِّن لكم فى طاعته أسبابَ تأميلكم وترجِّيكم، بمَنِّه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وكتب فى السادسَ عشَرَ من جُمادىٰ الآخرة سنة ثمـان وأربعين وخمسمائة .

الأسلوب الثـانى

(أن تُفْتَتح المكاتبة بلفظ « أما بعـــد»)

والأمر فيه علىٰ نحو ما تقدّم فى الأُسلوب قبله بعد البعدية ، كما كتب أبوالميمون عن المستنصر بالله : أحدِ خلفائهم إلىٰ بعض نُوّابه ، وقد نقَض العهدَ علىٰ بعض المُهادِنين من النصارىٰ .

"أما بعدَ حمدِ الله الآمر بالوَفَاء بالعُهود ، والصلاةِ علىٰ سيدنا محمد المصطفىٰ الكريم سـيِّد الوُجود ، وعلىٰ آله وصحبه لُيوثِ البأس وغُيوث الجُود ؛ والرِّضا عن الإمام المعصوم، المَهْدِىّ المعلوم، الآتى بالنَّعْت الموجود، فى الزَّمن المحدود، وعن خلفائه الواصلين بأمْرِه إلىٰ التَّهائم والنُّجُود، والدعاءِ لسيدنا الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين بسَعْدٍ تذِلُّ له النواصِى، ويُمَهِّد الأقطار القواصى؛ فكتبناه ـ كتبكم الله ممَّن إذا همّ بأمر تدَبَّر عواقِبَه، وإذا عَزَم علىٰ رُكُوب غَرَرٍ ألفىٰ معاطِبَه ـ من فلانة كلاَ ها الله تعالىٰ . وقد بلغَنَا ما كان منكم من ٱكْتِساح النصارىٰ، والزيادة علىٰ ذلك باختطاف الأُسارىٰ؛ ونعوذُ بالله من شَهْوةٍ تغلِبُ عقلا، ونخوةٍ تُعقِب هَوَانا وذُلّا؛ وقد أخطأتُمْ فى فَعْلتكم الشَّنعاء من ثلاثة أوجه : أحدُها أنه خلافُ ما أمر الله تعالىٰ به من الوفاء بالعهد، والوقوفِ مع العَقْد؛ والثانى عصيانُ الأمر العزيزِ وفيه التغريرُ بالمُهَج، وتركُ السَّـعة للحَرَج ؛ والثالث أنكم تُثِيرون علىٰ أنفسكم من شَرِّ عدوّكم ـ قصمه الله ـ شَرَرا يسـتَعِر، وضَرَرا يَعْدَم فيه المنتصِر. فليتكم إذ تحلَّيتم بالعِصْيان، ورَضِيتم الغَدْر المحرّمَ فى سائر الأديان ؛ ثَبَتُّم للعدوّ إذا دَهَمكم ، ولقيتموه بالجانب القَوِىّ متىٰ زَحَمكم ؛ بل تتدَرَّعون له الفِرَار، وتترُكُونه فى مُخَلَّفيكم وما ٱختار؛ وقد جَرَّبتم مرّاتٍ أنكم لا تَرْزَءُونهم ذرّه، إلا رَزَءُوكم ألف بَدْره؛ ولا تُصيبونهم مَرّه، إلا أصابوكم ألف مَرّه؛ وإلىٰ متىٰ

تُنْهَوْن فلا تنتهون ؟ وحتّام تُنبَّهون فلا تَنْتَبِهون ؟ فاذا وافاكم كتابُنا هذا بحول الله وقوّته فأدُّوا مَنْ أسَرْتُم إلىٰ مأْمَنِه، ورُدّوا ما انتهبْتُم إلىٰ مَسْرَحه؛ ولا تُمْسِكوا من الأُسارىٰ بشَعْره، ولا من الماشية بوَبَره؛ ومَنْ سمِعْنا عنه -بعد وصول هذا الكتاب- أنه تعدّى هذا الرَّسْم، وخالف هذا الحُكْم؛ أنفذْنا عليه الواجب، وحكّمنا فيه المهنَّد القاضب؛ فلْتَسرِع من نومة الغَفْلة إفاقتُكم، ولا تُعرِّضوا من الشرّ لما تَعْجِزُ عنه طاقتُكم؛ ونحن متعرِّفون مايكون منكم من تأنٍّ أو بِدَار، ومقابلونَ لكم بما يصْدُر عنكم من إقرار وإنكار؛ وهو يُرْشِدكم بمنّه . والسلامُ عليكم ورحمة الله" .

قلت : ثم طرأ بعد ذلك الإكثارُ من ألقاب خلفائهم فى المكاتبات الصادرة عنهم، والمبالغةِ فى مدحهم، وإطرائهم علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ المكاتبات الواردة من ملوك الأقطار إلىٰ الأبواب السلطانية بالديار المصرية فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

الطَّرَف الثامن

(فى الأجوبة، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ما يُضاهِى الأجوبةَ فى الابتداء، وهو علىٰ أسلوبين)

الأسلوب الأوّل

(أن يُفْتتح الجوابُ بلفظ «من فلان إلىٰ فلان»)

مثل أن يكتب «من عبدالله ووليه أبى فلان فلان الإمام الفلانىّ أمير المؤمنين» إلىٰ آخر الصدر علىٰ ماتقدّم فى الابتداآت؛ ثم يقال : أما بعدُ، وينساق منه إلىٰ ذكر الكتاب الوارد وعَرْضه علىٰ الخليفة، وما اقتضَتْه آراء الخلافة فيه، ويُكمِّل

علىٰ نحو الآبتـداء . كما كتب عن المقتفي لأمر الله، إلىٰ غياث الدين مسـعود بن ملكشاه السَّلْجُوقي في جواب كتابه الوارد عليه، يخبره بأن بعض مَنْ كان خرج عن طاعته دخل فيها، وآنحاز إليه، وهو :

"من عبد الله أبي عبدالله محمد الإمام المقتفي لأمر الله أمير المؤمنـين ، إلىٰ فلان بألقـابه .

أما بعدُ ــ أطال الله بقاءك ــ فإن كتابك عُرِض بحضرة أمير المؤمنين مُعْرِبا عن أخبار سعادتك، وجَرْيِ الأمور علىٰ إرادتك؛ وبُلوغ الأغراض من الوِجْهة التي توجَّهْتَ إليها، والأطراف التي أشرقَتْ سعادتُك عليها؛ بميامن ما تثق به من الطاعة الإمامية وتُضْمِره ، وتعتَقِده من الإخلاص وتَسْتشعِره ؛ وأن رُكْنَ الدين محمدا ومن آنضَمَّ إلىٰ جملته وآنتظم في سِلْك موافقته لَمَّـا ظفِرُوا منك بِذِمام آطمأَنُّوا إليه وسكَنُوا، وأمانٍ وثِقُوا به وركَنُوا ، أبصروا الرُّشْـد فاتَّبعوه ، وآستجابوا الداعِيَ إذْ سَمِعُوه ؛ وأذعَنُوا لطاعتك مسْرِعين ، وآنقادُوا إلىٰ متابعتك مُهْطِعين؛ علىٰ آستقرارِ مَسِـيرهم تحتَ لوائك إلىٰ باب هَمَذان ليكون تقريرُ القواعد الجامعةِ للمصالح عند وُصُولهـا ، والتوفُّر علىٰ تحرّى ماتَقَرّ به الخواطرُ مع حُلُولها ؛ والآنفصالُ إلىٰ من يَفِدُ إلى الأبواب العزيزة مؤتنِسا بقُرْب الدار ، ومستَسْعِدا بالخـدمة الشريفة الإمامية المؤذنةِ ببُلُوغ الأوطار . ووقف عليه وعرف مضمونَه ؛ وجدّد ذلك لدَيْه من الآبتهاج، والآغتباط الواضِحِ المِنْهـاج ، ما تقتضيه ثقتُه بجانبك وآعتقادُه ، وتعويلُه علىٰ جميـل معتقَدِك وآعتمادُه ؛ وآعتضادُه من طاعتك بحبلٍ لا تَنْقُض الأيَّامُ مُبْرَمَه ، وسكُونُه من وَلَائك إلىٰ وَزَر لاتُرَوِّع المخاوِفُ حَرَمه ؛ وواصِلُ شكْرَ الله تعالىٰ علىٰ ماشهدتْ به هذه النعمةُ العميمه، والمَوْهِبةُ الجسيمه، من إجابة الأدعية التي مازالتْ جنودُها نحوَك مجهَّزه، ووعودُه ــ جلَّت عظمته ــ بقبول أمثالها منجَّزه ؛ وإمدادُك منها بأمدادٍ تسـتَدْعِي

لك النصرَ وتستنزله ، وتستكمِلُ الحظَّ من كلِّ خيرٍ وتستجزِله ؛ وتبلِّغُ الأملَ منك فيمن هو العُدّة للمُلِمّات ، والحامِي لتقريرِ الأُنْس من روائع الشَّتات ، ومَنْ ببقائه تُكَفُّ عن الامتداد أكُفُّ الخطوب ، وتُطْلَق وجوه المَسَارّ من عُقُل القطوب ؛ ويأبىٰ اللهُ العادلُ فى حكمه وحِكْمته ، الرءوفُ بعباده وخَليقته ؛ إلا إعلاءَ كلمةِ الحق بالهِمَم الإماميّه ، والإجراءَ علىٰ عوائدِ صنيعته الخَفيه ، الكافلةِ بصلاح العِباد والرعيّه ؛ وقد أُقيمت أسواقُ التهنئة بهذه البُشْرىٰ ، وأفادتْ جَذَلًا تتابع وفُودُه تَتْرىٰ ؛ لاسيّما مع الإشارة إلىٰ قُرْب الأَوْبة التى تُدْنِى كلَّ صلاح وتَجْلُبُه ، وتُزِيل كلَّ خَلَل أتعبَ القلوبَ وتُذْهِبُه . وإلىٰ البارى جلَّ اسمه الرغبةُ فى اختصاصك من عنايته بأحسنِ ما عهِدتَه وأجملِه ، وصلةِ آخرِ وقتِك فى نُجْح المساعى بأوّلِه ؛ وأن لا يُخْلِيَ الدار العزيزة من إخلاصك فى وَلَائها ، ورَغْبتك فى تحصيل مراضيها وشَريف آرائها .

هذه مناجاة أمير المؤمنين ـ أدام الله تأييدَك ـ ابتغىٰ اللهَ جَزاءَك فيها علىٰ عادة تكرِمته ، وأعربَ بها عن اعتقادِه فيكَ وطويّتـه ؛ ومكانِكَ الأثيل فى شريف حضرته ، وابتهاجِه بنعمةِ الله عندك وخِيرته ؛ فتأمَّلْها تأمُّلا يشاكل طاعَتَك الصافيةَ من الشَّوائبِ والأقذاء ، وتلقَّها بصِدْق الاعتماد عليها وحُسْن الإصغاء ؛ تَفُزْ بالإصابة قِداحُك ، ويُقرنْ بالتوفيق مَغْداك ومَرَاحُك ؛ إن شاء الله تعالىٰ ، والسلامُ عليك ورحمة الله وبركاته " .

***

وكما كتب بعض كُتّاب الفاطميين عن الحافظ لدين الله : أحدِ خلفائهم إلىٰ شمس الدولة أبى منصور محمد بن ظَهِير الدين بن نُورى بن طُغْتكِين ببَعْلَبَكَّ جوابا عن كتابه الوارد عنه علىٰ الخليفة ، ويذكر أنه حسّن لفخر الملك رواج ورُوده علىٰ الخليفة بالديار المصرية ، ويذكر نُصْرته علىٰ الفرنج بطَرابُلس ، وقتله القُومص ملكها .

«من عبدالله ووليّه عبد المجيد أبى الميمون الإمام الحافظ لدين الله أمير المؤمنين، إلى الأمير فلان .

أما بعـدُ، فإنه عُرِض بحضرة أمير المؤمنين كتابُك من يدفتاه ووزيره ، وصَفِيّه وظهيره، السيدِ الأجل الأفضلِ، الذى بَذَل نفْسَه فى نصرة الدين تُقًى ولَيّانا، وأوضح اللهُ للدولة الحـافظيّة بوِزارته حُجّةً وبرهانا ، وأسبغ النعمةَ علىٰ أهلها بأنْ جعله فيهم ناظرا ولهم سلطانا، ووفّقه فى حُسْن التدبير، والعمل بما يقضى بمصالح الصغيرِ والكبير، وبما أعاد المملكةَ إلىٰ أفضل ما كانتْ عليه من النَّضْرة والبَهْجه، ولم يَخْرُج المادحون لهـا إذا ٱختلَفُوا عن التحقيق وصِدْق اللّهْجه ؛ فقد ساوتْ سياستُه بين البعيد والقريب ، وأخذ كلٌّ منهما بأجزل حظٍّ وأوْفَر نصيب ؛ وسارتْ سِـيرتُه الفاضلة فى الآفاق مَسِـيرَ المَثَل ، وٱسـتوجب من خالِقه أجْرَ من جَمَع فى طاعته بين القول والعمَلْ . وشَفَع عَرْضه من وَصْفك وشُكْرك، والثناء عليك وإطابة ذِكْرك، وأنهىٰ ما أنتَ عليه من الولاء، وشُكْر الآلاء، بما يُضاهى ماذكرتَه فيه مما عُلِم عند تِلاوته، وأُصْغِى إليه عند قِراءته . وقد ٱسـتقرّ بحضرة أمير المؤمنين مكانُكَ من المُشايَعه ، وموقعُك من المُخالَصــه ، وكونُك من ولاء الدولة علىٰ قضـية كَسَبَتْكَ[(1)] شرَفًا تفيّأْتَ ظِلالَه، وأفاضتْ عليك مَلْبَسا جَرَرْت أذياله ، وسَمَتْ بك إلىٰ محلٍّ لا يُبـاهىٰ مَنْ بلغــه ولا يُطاوَلُ مَنْ ناله ؛ وكنتَ فى ذلك سالكا للمَنْهَج القويم، ومعتمدا ما أهلُ بيتِك عليه فى القديم ؛ لا جَرَم أنه عاد عليك من حُسْن رأى أمير المؤمنين بمـا تقْصُر عنه كلُّ أُمْنِيّــه، ويشهد لك بمخالصةٍ جمعتَ فيهـا بين عملٍ ونِيّه ؛ والله يضاعف

(١) فى المصباح فى مادة كسب "ويتعدّى بنفسه إلىٰ مفعول ثان فيقال كسبت زيدا مالا وعلما أى أنلته . قال ثعلب وكلهم يقول كسبك فلان خيرا إلا ٱبن الأعرابىّ فانه يقول أكسبك بالألف" .

أجرك على اعتصامك من طاعة أمير المؤمنين، بالحبل المتين، ويوزعك شكر ما منحك من الاستضاءة بنور الحق المبين .

فأما الأمير الأسفهسلار فخر الملك رواج وبعثك له على الوصول إلى الباب، وحضك إياه على التعلق من الخدمة بمحصد الأسباب؛ فما كان الإذن له فى ذلك إلا لأن كتابه وصل بملتمسه، وعرض فيه نفسه وبذل المناصحة والخدمه، ويسأل سؤال من يعرف قدر العارفة بالإجابة إليه وموقع النعمه؛ فأجيب إلى ذلك إسعافا له بمراده، وعملا برأى الدولة فيمن يرغب إلى التحيز إليها من أقطاره وبلاده؛ وإلا فلا حاجة لها إليه ولا إلى غيره، لأن الله تعالى ــ وله الحمد ــ وفر حظها من الأولياء والأشياع، والأنصار والأتباع؛ والعساكر والجيوش والأجناد والأنجاد، والأعوان الأقوياء الشداد؛ وعبيد الطاعة الذين يتبارون فى النصح ويتنافسون فى الاجتهاد والحرص، وسعة الأموال، وعمارة الأعمال، وجمع الرجال فى العزائم بين الأفعال والأقوال؛ ولو وصل المذكور لكانت المنة للدولة عليه، والحاجة له فى ذلك لا إليه، قال الله عز من قائل : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

وأما توجهه إلى طرابلس وظفره بقومصها وقتله إياه مع من بها، وعظيم أمره فيها؛ فالله تعالى يعز الإسلام وينشر لواءه، ويعلى مناره ويخذل أعداءه؛ وينصر عساكره وأجناده، ويبلغه فى أحزاب الكفر والضلال مراده؛ وهو عز وجل يمتعك من الولاء بما منحك، وينيلك فى دينك ودنياك أملك ومقترحك؛ فاعلم هذا واعمل به، إن شاء الله تعالى» .

الأســـلوب الثـانى

(أن يُفتتحَ الجواب بلفظ «أمّا بعد»)

كما كُتب عن المقتفى إلىٰ السلطان محمود بن محمد السَّلْجُوقىّ جواباً عن كتابه الوارد بإخباره باجتماعه مع عمِّه سنجر، ونسخته :

أما بعدُ فإنّ كتابك عُرِض بحضرة أمير المؤمنين ناطقًا بدَرْك الأوطار ، وحصول المَقَاصِد علىٰ الآثار ، وما أنهيته من الاجتماع بعزِّ الدنيـا والدِّين جمع اللهُ فى طاعته شَمْلكما! ووصل بالألفة والتوادُد حَبْلكما! ومن إكرام الوِفادة الذى أنت أهلُه ووليُّه، وحقيقٌ أن يَتْبع وَسْمِيَّه لَدَيْك وليُّـه[1]، والموافقةِ علىٰ كل حال آذنتْ ببُلُوغ الأغراض وتيسُّرِها، ونجاز المساعى علىٰ أتمِّ وفاق وتَقَرُّرِها، وانتظامِ الأمور علىٰ أجمل معتـاد وأكمل مُرَاد، وأحسن اتِّساق واطِّراد ، واستقرارِ القواعد علىٰ الوصف الجـامع أشْتاتَ الاتِّفاق ، الدالِّ علىٰ صِدق المحافظة بينكما وفَرْط الإشفاق ؛ محفوفاً بالسعادة التى لا تزال مآثِرُك فى الطاعة الإمامية تملِكُ قِيادَها ، وتُقَلِّدك علىٰ الاتصال نِجادَها ، فتهلَّلَتْ بهـذا النَّبإ المُبهج أسرّةُ البُشرىٰ ، وأصبح الجَذَلُ بمكانه أنعم عَرْفا وأذكىٰ نَشْرا ، وقامت لأجله فى عِرَاص الدار العزيزة مواسِم ، أضحتِ المَسَرَّة بهـا مُفْتَرَّة الثغور ضاحكةَ المَبَاسم ؛ وجديرٌ بمن كان له من الهِمَم الشريفة مَدَدٌ واف، ومُنْجِدٌ يدفَعُ فى صـدر كلِّ خَطْب مُواف؛ أن تكتنِفه الميَامنُ والسُّعود ، ويَصْدُقَ[2] فى كل مَرْمًى يَنْحوه من النُّجح الموعود ، وتنقادَ له المصاعبُ ذُلُلا ، ويَعودَ بيُمْن نَقِيبته كلُّ عافٍ من الصلاح جديدًا مُقتَبلا ؛ ولا ينفَكُّ صنعُ الله جلَّ اسمه لطيفـا ، وبِرُباعِه

---

(١) الولىّ علىٰ فعيل المطر بعد المطر وقد يخفف عن كراع أنظر اللسان ج ٢٠ مادة و ل ى .

(٢) لعله ويصادف ... ... النجح .

مُحدقا مُطيفا ، والتوفيقُ مصاحِبَه أنّى حلّ وثوىٰ ، أو ثنىٰ عنـانه إلىٰ وجه ولوىٰ ؛ والله يمتّع أميرَ المؤمنين منك بالعَضُد الذى يذُبّ عن دولته ويحامى ، ويناضِلُ دُونَها بجنود الإخلاص ويُرامى ؛ ولا يُخْليك من رعايته التى لا يزال يستقر فيها إليك ، ويَرْغَبُ إليه فى إسباغ لِباسها عليك ، حتّى تتسنّى لك المَطَالب معا ، ويَغْدُو الزمانُ فيما ينشأ متّبِعا .

هــذه مفاوضة أمير المؤمنـين إليك ، أدام الله تأييدك ، أجراك فيها علىٰ مألوف العاده ، وجدّد لك بهــا بُرودَ الفَخَار والسعاده ؛ فاجرِ علىٰ وتيرتك فى إتحاف حضرته بَطيّب أخبارك ، ومجارى الأمورِ فى إيرادِك وإصدارك ؛ تُهْدِ إليها ٱبتهاجًا وافرا ، وٱبتساما يَظَلُّ لثامُه عن حمد الله المسنَد بها سافِرا ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الضــــرب الثــانى

(أن يكون الافتتاحُ فى الجواب مصدّرا بما فيه معنىٰ وصولِ المكاتبة إلىٰ الخليفة)

فقــد جرتْ عادةُ المتقدّمين من الكُتّاب فى التعبير عن ذلك بلفظ «العَرْض علىٰ الخليفة» ويُؤتىٰ فيه علىٰ ماتضمنه الكتابُ المجابُ عنه، ثم يُختَم كما تُختَم الأبتداآت.

كما كتب العلاءُ بنُ مُوصَلَايَا عن القائم بأمر الله إلىٰ «أتسز» عنــد وُرود كتابه علىٰ أبواب الخلافة يتضمّن ٱنتظامَه فى سِلْك الطاعة وغلَبَتَه الأعداء، وهو :

عُرِضَ بحضرة أمير المؤمنين ما وَرَدَ منك دالًّا علىٰ تمسّكك من الطاعة الإمامية بمــا لا تزال تُجِدّ فيه مَلابِسَ التوفيق حالًا بعد حال ، وتَجِدُ به مَرائرَ السعد مُحْصَفة فى كل حَلٍّ وترْحال ، مُنْبِئًا عن توفُّرك علىٰ المَقَامات التى ٱنتقَمْت بهــا للهُدىٰ من الضَّلال، وٱستقَمْتَ فيها حتّى أجْلَتْ عن كلّ صَلاح ممتدِّ الظِّلال ؛ شاهدًا بما أنت

عليه من مُوالاة لا تألُو جُهْدا فى التزام شُروطها بادِئًا عائدا ، ولا تخلو فيها من حُسْن أثرٍ يكونُ لدعائم الصواب عامِدا ، وتُرىٰ فيه قاصدًا لاجتلاب الخير عائدا . ووقف عليه وقُوفَ من ٱرتضىٰ مايتوالىٰ من قُرُباتك التى لاتزال فى إعذابِ ورُودِها ساعيا . ولما يُفضِى إلىٰ إعشابِ مَرْعاها فى طلَبِ الحمد مُراعِيًا ؛ وآنتضىٰ منك للخدمة بتلك الأعمال حُسامًا باترا آجالَ بَقايَا الكُفْر هُناك ، ماضيًا فى كل ما يَقْضِى بانْفِساح مجالِ آمالك فى الدهرِ ومَبارِك ؛ وآعتدّ لك بمـا أنهاه عنك رسولُ أمير المؤمنين العائدُ من قبَلك ، وأوضحه من زُلَفك التى شَفَع قولَك فيها عملُك ؛ وطالع به الرسولُ الذى نَفَّذتَه معه لقَصْد بابه ، والمُنَابُ فى تأكيد دَواعِى النُّجْح وتمهيد أسبابه ؛ وحلّ كلُّ ذلك لدَيْه المحلَّ الذى ستجنِى ثمره كلّما يَطيبُ ويحلُو ، ويَسْلَمُ من كلّ الاستزادة[(١)] ويخلو ، ويعزُّ مهرُ الفوز به علىٰ غَيرِك ويَغْلُو ؛ وتأثّل لك من الرُّتبـة بحضرته ما يُدْنِى لك كلَّ مطلب إلىٰ مُرادِك آئل ، ويُدوِى قلبَ كلِّ منحَرِف عن وفائك مائل ؛ وصِرتَ من أعيان الخلَصاء الذين وَسَمت الهدىٰ أفعالَهُم بالحمـد ، وسَمَتْ بالطاعة آمالُهُم إلىٰ توقُّل هِضَاب المَجْد ؛ فما تَهُمُّ بك الغِيَرُ إلا وتنقطع دُونك أعناقُها ، وترجع فى جِلْباب الخَيْبة وحَيْصُها إليك وإعناقُها ؛ ولا تمتدّ نحوك يدُ ضِدّ إلا ردّها عنك جميلُ الآراء الشريفةِ فيك وغَلَّها ، وأوجبَ نَهْلَها عن موارد القُصورِ وعَلَّها ؛ وكيف لايكون ذاك ولك فى الطاعة كلُّ موقِف آغتذىٰ بِلبَان الحَمْد ، وآعتنىٰ باشتهاره بلوغُ المـدىٰ فى وَصْفه والحَدّ ؛ فأحسنَ اللهُ توفيقك فيما أنت بإزائه من إخمادِ لَهَب الباطل بتلك الشِّعاب ، وإجهادِ النَّفْس فى إحمـال المَتَاعِب وإذلال الصِّعاب ؛ وأمدّك بالعَوْن علىٰ ما بدأت له من جب ... ...[(٢)] فيما يليك ، وطَبِّ أدواءِ الفَساد فى نَوَاحِيك . ومع

(١) كذا فى الأصول ولعله من خلل الاستزادة وفى المختار والقاموس "آستزاده آستقصره" .

(٢) بياض فى الاصول بهذا المقدار ولعله من جب أصول العناد الخ .

مافُزْتَ به من هذه المِنْحة التى قد جاز قدرُها التقديرَ والظَّن، وجادَ لك الدهرُ فيها بما كان شَحَّ به على أمثالك وضَنّ ؛ فيجب أن تستَديمَها، وتُحَصِّن من النَّقَل أديمَها، بمزيدٍ من الخدمة تنتهز الفُرَصَ بالإسراع إليه والبِدَار، وتنتهج أقومَ الجُدَد[1] فى مقابلة الإيرادِ منه بالإصدار، وتُنْفِد وُسْعَك فى كل مسعًى ينثنى إليك عنانُ الثنـاء معه، وتُنْفق عُمُرَك فى كل أمرٍ يجمع لك مَرْأَى الرضـا عنك ومَسْمعَه ؛ لتجدَ من جَدْوى ذلك ماينظِمُ فى السعادة شَمْلَك، ويضْحَى به القِيادُ فيما يصدِّق أمَلَك أمْلَك ؛ وأن تُحمِد السيرةَ فى الرعايا الذين غَدَوْا تحت كَنَفك ، وتجعلَ الاشتمالَ على مصالحهم مُعْرِبا عن فَضْل شَغَفك بالخير وكَلَفك ؛ فإنهم ودائعُ الله تعالى يلزم أن تُحْمَى من ضَيَاع يتسلَّط عليها فى حال، وتُحيَا من درّ الإحسان بَرضاعٍ لايخطُر الفِطامُ عنه ببال ؛ فلا تقفَنَّ عند غاية فى إفاضةِ الفضل عليهم وإسباغِ ظلّه ، واعتمادهم بتخفيف ثِقْل الحَيْف عنهم أو إزالة كُلِّه ؛ ليكونوا فى أفياءِ الأمن راتعين، ولخَرْق كل مُلِمٍّ بحُسْن ملاحظتك راقعين ؛ فالذى يراه أميرُ المؤمنين فى فرضِـك حتّى يزداد باعُك طُولا ، ولا يترك لك على الزمان آقتراحا ولا سُولا ؛ يقتضى أن يُتْبِـع كلَّ سابقٍ إليك من الإحسان بلاحِق، ويُمْرِعَ جَناب النُّعمى لديْكَ عند ذَرّ كلِّ شارق . وكذلك يرى أن يجدِّد لك من تشريفه المنوِّرِ مطالِعَ الفجر، المنوِّه بالذِّكر فى الدهر، الذى لاتزال الهِمَمُ العالية تصبُو إلى الفوز به وتميل، وتقِفُ عند حدّ الرجاء والتأميل، ماأصحبَ رسولَكَ المشارَ إليه لتدَّرِع من خلاله ما الشَّرفُ الأكبرُ فى مَطَاوِيه، وتمتطِى من صَهْوة العِزّ فيه مايَبْعُد على النظراء إدراكُ مَرَامِيه . ويجب أن تتلقَّ مقدَمَ ذلك عليك بمـا يُنْبِئُ عن اقتران النعمة الغراء فيه، وإقمـار أهلَّة التوفيق عندك بما تَقْصِد فى المعنى وتنتحيه ؛ وإذا عاد رسولُك إلى باب أمير المؤمنين حسَبَ ما ذكرت ، أُصْـدِر على يده من ضُروب التشريفات ما يُقِرّ

(١) فى المصباح (الجدّة بالضم الطريق والجمع جدد مثل غرفة وغرف) .

فيك عُيونَ مَنْ يَوَدُّك ، ويقتر فى مَغَانيك كلّ سـعد يُورِى فيه زَنْدُك ؛ فاسكُنْ إلىٰ حِبائك بالمَزِيد من كلّ رُتْبة أَهَّلَت لهـا ، وكن بحيث الظَّنّ فيك تُوفِّر عليـك أقسامُ الحمد كُلُّها ؛ وثِق بمـترادف آلاءٍ ينضَمُّ لديك شَمْلُها ، ويُثْقِـلُ كلَّ كاهلٍ حملُهـا ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الطـــــرف التاسع

(فى الكُتُب الصادرة عن ولاة العهد بالخلافة)

لم أقِف علىٰ مكاتبـةٍ صريحةِ التصوير عن وُلَاة العهد ، غير أن الإمامَ أبا جعفرٍ النحاس فى " صناعة الكُتَّاب " بعد أن ذكر أن صورة المكاتبة عن الخليفة : «من عبد الله أبى فلانٍ فلانٍ الإمام الفلانى إلىٰ فلان » أَتْبَع ذلك بأن قال : وليس أحد من الرؤساء يُكاتَب عنه بالتصدير إلا الإمامَ ووليّ العهد ، ولم يزد علىٰ ذلك . وقد فسّر ٱبنُ حاجب النعمان فى " ذخيرة الكتّاب " التصديرَ بأن قال : يكتب « من عبد الله أبى فلان فلان» باسمه وكنيته ونَعْته . ويقال : أمير المؤمنين أبى فلان .

أما بعـدُ ، فإنّ أمير المؤمنين يحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو إلىٰ آخره ، علىٰ ما تقدّم بيانه .

وذكر النحاس فى الكلام علىٰ العُنْوان من الرئيس إلىٰ المرءوس أنه يُحْـذَف من الكتّاب عن ولىّ العهد لَفْظ الإمام ، ولفظ أمير المؤمنين ، ويقـال فيه : ولىّ العهد . وظاهر ذلك أن المكاتبـة عن ولىّ العهد مشابِهةٌ للمكاتبـة عن الخليفة ، وأن لفظ ولىّ العهد فى المكاتبة عنه يقومُ مَقام أمير المؤمنين فى المكاتبة عن الخليفة نفْسِه ؛ وحينئذ فيتجه أن تكون المكاتبة عنه «من عبدالله أبى فلانٍ فلانٍ المعتضدِ بالله مثلا ولىّ عهد المسـلمين . سـلامٌ عليك فإنى أحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو

وأسأله أن يصلّى على محمد عبده ورسوله صلّى الله عليه وسلم . أما بعدُ : فإن كذا وكذا» ويؤتى على المقصد إلى آخره . وعلى ذلك يدلّ كلام صاحب "ذخيرة الكتّاب" . فإنه قال بعد ذكر المكاتبة عن الخليفة : وكذلك المكاتبةُ عن ولىّ العهد . على أنّ المكاتبة عن ولىّ العهد قد بطلَتْ فى زماننا جملةً .

الطـــــرَف العـــاشر

(من المكاتبات عن الخلفاء المكاتباتُ إلى أهل الكفر)

وكان الرَّسْمُ فيها أن يُكْتَب «مِن فلان إلى فلان» . ويقعُ التخلُّص فيها إلى المقصود بـ«أما بعدُ» . ويختم الكتّابُ بلفظ «والسلامُ على من آتَّبع الهدى» .

فقد حكى أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" أنه كان على الروم مَلِكةٌ ، وكانتْ تُلاطِف الرشيدَ ولها ابنٌ صغير ، فلمّا نشأ فوضت الأمرَ إليه فعاث وأفسدَ ، فخافتْ أُمُّه على مُلْك الروم فقتَلَتْه ، فخرج عليها تقفورُ ملك الرُّوم فقتلها وآستولى على مُلْكها وكتب إلى الرشيد :

«أما بعدُ فإن هذه المرأةَ وضَعَتْك موضِع الشاه ، ووضعت نَفْسَها موضع الرُّخّ ، وينبغى أن تعلَمَ أنّى أنا الشاه وأنتَ الرُّخّ . فأدِّ إلىّ ما كانتِ المرأةُ تُؤدِّى إليك» .

فلما قرأ الكتّاب ، قال لكُتّابه أجيبُوا عنه ، فكَتَبُوا مالم يرتَضِه ، فكتب هو إليه :

«من عبدِالله هارونَ أميرِ المؤمنين ، إلى تقفورَ كَلْبِ الرُّوم . أما بعدُ فقد فهِمْتُ كتابك ، والجوابُ ماتراه لا ماتسمَعُه ، والسلام على من آتبع الهدى» .

ويقال : إنه كتب «الجوابُ ما تراه لا ما تسمعه ، وسيَعْلَمُ الكافِرُ لِمَنْ عُقْبى الدار» . ولا يخفى ما فى ذلك من البَلَاغة مع الإيجاز .

وكما كُتب عن الحافظ لدين‌الله : أحد خلفاء الفاطميين بمصر إلىٰ صاحب صِقِلِّيَّة وما معها من مُلُوك الفَرَنْج[١] :

«من عبدالله ووليّه عبدالمجيد أبى‌المَيْمُون الإمام الحافظ لدينِ الله أمير المؤمنين، إلىٰ المَلِك بجزيرة صِقِلِّيَّة، وأَنْكُورِيَةَ وأَنطالِيَـةَ وقِلَّوْرِيَةَ وسترلو وملف وما ٱنضاف إلىٰ ذلك، وفَّقه الله فى مقاصده! وأرشده إلىٰ العمل بطاعته فى مَصادِره ومَوارِدِه؛

سلامٌ علىٰ من ٱتَّبع الهـدىٰ، وأمير المؤمنين يحمَـدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ويسألُه أن يصلِّى علىٰ جدّه محمدٍ خاتَم النبيِّين، وسيدِ المرسلين، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الطاهرين، الأئمة المَهْديِّين، وسَلَّم تسليما .

أما بعدُ : فإنه عُرِض بحضرة أمير المؤمنين الكتابُ الواصل من جِهَتك، ففُضَّ ختامُه وٱجتُلِى، وقُرِئَ مضمونُه وتُلِى، ووقعتِ الإصـاخةُ إلىٰ فُصوله، وحصلت الإحاطة بجُمَله وتفاصيله، والإجابةُ تأتِى علىٰ أجمعه، ولاتُخِلُّ بشىء من مستوْدَعِه؛ أما ما ٱفتتحتَهُ به من حمدِ الله تعـالىٰ علىٰ نِعَمه، وتوسـيعِك القولَ فيما أولاكَ من إحسانه وكرمه، فإنَّ مواهب الله تعالىٰ ومِنَنَه التى جعل تَوالِيَهـا ٱختبار شُكْر العبـدِ وٱمتحانَهُ علىٰ أنه بخائنةِ الأَعْيُن وماتُخْفِى الصدورُ عليم، وهو القائلُ فيمَنْ أثنىٰ عليهم: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ ٱمْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوىٰ لَهُمْ مَغْفِرةٌ وأَجْرٌ عظِيمٌ﴾ لا يزالُ مُضاعِفَها ومُرادِفَها، ومُتْبِعا سالِفَها آنِفَها؛ وهو يُولِيهـا كُلًّا من عبيده بقَدْر منزلتـه عِنْده، ويخُصُّ أصـفياءه بأوفىٰ ممـا تمنَّاه الآملُ المُبالغ وودَّه؛ واللهُ تبارك وتعـالىٰ يمنح أميرَ المؤمنين، وآباءه الأئمةَ الراشدين، ماغدَتْ مستقدِماتُ الحمد والشكرِ عند لوازِمه مستأْخِره، إذ كان أفردَهُم دون الخليقـة بأن أعطاهم الدنيـا ثم أعطاهُم معها

(١) فى التعبير تساهل والغرض معلوم .

الآخره ؛ وآختصّهم من حِبَائه بما لا يُحصيه عدد، وخَوّلهم من آلائه بما لا يقُوم بشُكْره أحد .

وأما ماذكرتَه من آفتتاحك الجزيرةَ المعروفةَ بجرْبَة لما شرحته من عُدْوان أهلها، وعُدُولهم عن طُرُق الخيرات وسُبُلها ؛ وآجترائِهم فى الطُّغيان على أسباب لا يجوز التغافل عن مثلها ؛ وآستعمالهم الظُّلْمَ تمرُّدا، وتمـاديهم فى الغىّ تباهيا فى الباطل وغُلُوّا، يأسًا من الجزاء لمّا آستبْطـئُوه ، فإن من كانت هذه حالتُهُ حقيقٌ أن تكون الرحمة عنه نائيه ، وخليقٌ أن يأخذَه الله من مَأْمنه أخذةً رابيه ؛ كما أنه مَنْ كان من أهل السلامه ، وسالكًا سبيل الآستقامه ؛ ومُقْبِلا على صَلَاح شانه ، وغيرَ متعدّ للواجب فى سِرّه و إعلانه ؛ تعين أن نوفّر من الرعاية سَهْمَه، ونُجْزِل من العناية نَصيبه وقِسْمَه ؛ ويُؤمَّن مما يُقْلِقُه ويُزْعِجه ، ويُقْصَد بمـا يَسُره ويُبْهِجه ؛ ويُصان عن أن ينالَه مكروه ، ويُحمىٰ من أذًى يلُمُّ به ويعْروه .

وأما شُكْرك لوزيرك الأمير تأييــد الدولة وعَضُــدها عزّ الملك وفَخْرِه نظـام الرِّياسة ، أميرالأمراء، فإنّ من تهذَّبَ بتهذيبك، وتخلّق بأخلاقك وتأدَّب بتأديبك ؛ لا يُنْكَر منه إصابةُ المَرامى ، ولا يُستغْرَب عنده نُجْح المساعى ؛ وواجبٌ عليه أن لا يجعل قلبه إلا مثْوًى للنصائح ، وأن لا يزال عُمْره بين غادٍ فى المخالصة ورائح .

وأما المركب العروس ووصـول كتّاب وكيله ذاكرا ما آعتمده مقـدّمُ أُسْطولك من صَوْنه وحِمايته ، وحِفْظه ورِعَايته ؛ وإعادةِ ما كان أُخذ منه قبـل المعرفة بأنه جارٍ فى الديوان الخاص الحافظى ، ففعلٌ يَجْمُل عنك صَــدَره ، ويليقُ بك أن يُنْسَب إليك ذِكْرُه وخَبَرُه ، ويدلُّ على علم أصحابك برأيك وإحكام مُعاقَدة الموده ، ويُعرِب عن إيثارك إبرازَها كُلّما تقادم عهدُها فى مَلَابِس بهجة مستَجَدّه ؛ وهذا الفعلُ من

خلائقك الرضية غيرُ مستَبْدَع ، وقد ذَخَرْتَ منه عند أمير المؤمنين ماحصل فى أعز مقرٍّ وأكرمِ مستوْدع ؛ لاجَرَم أن أوامره خرجت إلىٰ مقدّمى أساطيله المظفَّرة بمـا يُجْنيك ثمرةَ ماغرسْـته ، ويُعلِي منار ثنائك الذى قرّرته علىٰ أقوىٰ أصلٍ وأسّسته ؛ وقد نفَذَتْ مراسِيمُه بإجرائك علىٰ غلاتك المستمرّة فى المسامحة بمـا وجب للديوان عمـا وصل برسْمك علىٰ مراكِبك ، وبرسم الأمير تأييد الدولة وزيرِك ، والرسـولين الواردين عن حق الوُرُود إلىٰ ثغر الإسكندرية حماه الله تعالىٰ ، ثم إلىٰ مصر حرسها الله وحَقِّ الصدور عنهما ، وكلُّ مايصل من جهتك فعلىٰ هذه القضية .

وأما شكرك علىٰ الأسرىٰ الذين أمر أمير المؤمنين بإطلاقهم إجابةً لرَغْبتك ، ورسم بتسْييرهم إليك محافظةً علىٰ مرادك وبُغْيتك ؛ فأوزَعنا شِعارُهم أنهم عُتقاءُ شفاعتك ، وأرِقّاء مِنّتك ؛ فذلك من الدلائلِ علىٰ ماينطوِى عليه من جميل الرأى وكريمِ النِّيه ، ومن الشواهد بأنه يُوجب لك مالا يُوجِبه لأحدٍ من ملوك النَّصْرانيه .

وأما سؤالُك الآنَ فى إطلاق مَن تجدّد أسْرُه ، وإنهاؤكَ أنَّ ذلك ممـا يُهِمُّك أمره ؛ فقد شفَّعك أمير المؤمنين بالإجابة إليه علىٰ ماأُلِف من كريم شِيمته ، وسيرَّ إليك مع رسولك مَنْ تضمَّن الثبتُ ذِكرَ عِدّته ، وقد علمتَ ماكان من أمر بهرامَ ووصوله إلىٰ الدولة الفاطمية خلّد الله ملكَها شريدًا طريدا ؛ قد نَبَتْ به أوطانُه ، وقذفَتْـه ديارُه ؛ لامالَ له ولا حال ، ولا عَشيرةَ ولا رِجَال ؛ فقبِلَتْه أحسَنَ قبول ، وبلغت به فى الإحسان ما يزيد علىٰ السُّول ؛ وغمَرتْه من الإنعام مايقصُر عن اقتراحه كلُّ أمل ، وجعلته فواضِلُهـا يقلِّب الطَّرْف بين الخَيل والخَوَل ؛ وكانت أمورُه كلَّ يوم فى نموّ وزياده ، وأحوالُه تُوفِى علىٰ البُغْية والإراده ، إلىٰ أن جرتْ نوبةٌ اقتضىٰ التدبيرُ فى وقتها أن عُدقتْ به الوزاره ، ونِيطت به السِّفاره ؛ فوسوس له خاطرُه ما زَخْرَفَه

البَطَر وزَيَّنه، وصوّره الشيطانُ وحَسَّنه؛ وأظهر ماظهَرتْ أماراتُه، ووضحت أدلَّتُه وعلاماتُه؛ فاستدعىٰ قبيلَه وأُسْرته، وجِنْسه وعَشِيرته؛ بمكاتبات منه سِرِّيَّه، وخطوط عُثِر عليها بالأرمنيه؛ فكانوا يَصِلُون أوّل أوّلَ، إلىٰ أن آجتمع منهم عشرون ألف رجُل من فارسٍ وراجِل، ومن جملتهم آبنا أخيه وغيرهما من أهله، فدلُّوه بالغُرور، وحَمَلُوه علىٰ ما قضىٰ بالآستيحاش منه والنُّفور؛ وقوَّوْا عزمَه فيما يؤدِّى إلىٰ آضطراب الأحوال وآختلال الأُمُور، فامتعض العساكرُ المنصورة ممّا أساءَ به سياسَتَهم، وأبوْا الصبرَ علىٰ ما غَيَّر به رسْمَهم وعادتَهم؛ فلما رأىٰ أمير المؤمنين ذلك آستعظم الحال فيه، وتيقَّنَ أن التغافُلَ عنه يَقْضِى بما يعْسُر آستدراكه وتَلافِيه؛ فكاتب وليِّه وصفِيِّه الذى رُبِّىَ فى حَجْر الخلافه، وسما به آستحقاقُه إلىٰ أعلىٰ دَرَج الإنافه؛ وحصلتْ له الرياسة باكتسابِه وآنتسابه، وغدا النظرُ فى أمور المملكة لا يصلُحُ لغيره ولا يَلِيق إلا به؛ السيدُ الأجلُّ الأفضل، وهو يومئذ والى الأعمال الغربية، وصدرتْ كتُب أمير المؤمنين تُشعِره بهذا الأمر الصَّعْب، وتستكشِفُ به ما عَرَا الدولةَ من هذا الخَطْب؛ فأجاب دُعاءه، ولَبَّى نِدَاءه؛ وقام قيامَ مثلِه ممن أجزل اللهُ حظَّه من الإيمان، وجعله جلَّ وعز حَسَنةَ هذا الزمان؛ وآختصَّه بِعناية قوِيَّه، وأمدّه بموادَّ عَلَوِيَّه؛ وأيّده باعانةٍ سَماوِيَّه، تخرُج عن الآستطاعة البشَرِيَّه؛ فجمع الناسَ وقام خطيبًا فيهم، وباعثًا لهم علىٰ مايُزْلِفُهم عندالله ويُحْظِيهم؛ وموضِّحًا لهم مايُخْشىٰ علىٰ الدولة من الأمر المُنْكَر، فاجتمَعُوا إليه كاجتماعهم يومَ المَحْشر؛ وغَصَّت النُّجودُ والأَغْوار، وآمتلأَتِ السُّهول والأوعار؛ وضاقَتِ الأرضُ علىٰ سَعَتها بالخَلائق، وآرتفعَتْ فى توجُّهِهم لطلب المذكور الأعذارُ والعوائق؛ ولم يبق فضاءٌ إلا وهو بهم شرِق، ولا أحدٌ إلا وهو منزَعِجٌ بقَصْده وعلىٰ تأخُّر ذلك قَلِق. وكان بَهْرامُ وأصحابُه بالإضافة إليهم كالشامة فى اللَّوْن البَسيط، وكالقَطْرة فى البحر المُحِيط؛

وساروا مع السيد الأجل الأفضل نحوه مسارعين ، وعلى الانقضاض عليهم متهافتين ؛ فلما شعر بذلك لم يبق له قرار ، ولاذ بالهرب والفرار ، يهجر المناهل ، ويطوى المراحل ؛ ويرى الشرود غنما ، ويعد السلامة حلما ؛ واستقرت وزارة أمير المؤمنين لهذا السيد الأجل الأفضل الذى لم تزل فيه راغبه ، وله خاطبه ؛ ونحو توليه إياها متطلعه ، وإلى نظره فيها مبادرة متسرعه ، ولم تنفك لزينة دستها مستبطئه ، وفى التلهف على تأخر ذلك معيدة مبديه ؛ فأحسن إلى الكافة قولا وفعلا ، وعمل فى حق الدولة ما لم يجعل له فى الوزراء شبها ولا فى الملوك العظماء مثلا ؛ وغدا للملة الحنيفية حجة وبرهانا ، وأولى الأولياء إعزازا وتكريما والأعداء إذلالا وإهوانا ؛ وصان الخلافة عن نفاذ حيله ، وتمام غيله ؛ ومخادعة ماكر ، ومخاتلة غادر ؛ فلذلك انتضاه أمير المؤمنين حساما باترا ماضى الغرار ، واجتباه هماما فى المصالح لا يطعم جفنه غير الغرار ؛ واصطفاه خليلا وظهيرا لتساوى باطنه وظاهره فى الصفاء ، واستخلصه لنفسه لمفاخره الجمة التى ليس بها من خفاء ، وانتظمت الأمور بكفالته فى سلك الوفاق ، وعمت الخيرات بوزارته عموم الشمس بأنوارها جميع الآفاق ؛ فسعدت بنظره الجدود ، وتظاهرت ببركاته الميامن والسعود ؛ وأصبح غصن المعالى بيمنه مورقا ، وعلى الملة من يمن آرائه تمائم من مس الحوادث ورقى ، فآثاره توفى على ضياء الصباح ، وعزماته تزرى بمضاء المهندة الصفاح ، ومآثره تفوت شأو الثناء وغاية الامتداح . فالله تعالى يحفظ النعمة على الخلافة الحافظيه ، ويوزع شكره على مسبوغها كافة البريه ؛ بكرمه وفضله ، ومنه وطوله .

ولما أمعن بهرام فى الهرب ، وجدت العساكر المنصورة وراءه فى الطلب ؛ وضاقت عليه المسالك ، وتيقن أنه فى كل وجهة يقصدها هالك ؛ عاد لمكارم الدولة .

وعواطفها ، وسأل أماناً على نفسه من متالفها ؛ فشملته الرحمه ، وكتب له الأمان فعاودته النعمه ؛ واختلط برجال العساكر المنصوره ، وصار حظه بعد أن كان مبخوسا من الحظوظ الموفوره .

وأما اعتذار الكاتب عما وجه إليه بأن من الكلام ما إذا نقل من لغة إلى لغة أخرى اضطرب مبناه فاختل معناه، ولا سيما إن غرس فيه لفظ ليس فى إحدى اللغتين سواه؛ فقد أبان فيما نسب إليه السهو فيه عن وضوح سببه، وقد قبل عذره ولم تفك يده عن التمسك به .

وأما ما سيرته إلى خزائن أمير المؤمنين تحفة وهديه ، وأبنت به عن همة بدواعى المجد مليه ؛ فإنه وصل وتسلم كل صنف منه متولى الخزائن المختصة به بعد عرضه على الثبت المعطوف كتابك عليه وموافقته، وقد أجرى رسولك فى إكرامه وملاحظته على أفضل ما يعتمد مع مثله بمنزلة من ورد من جهته، وعلى قدر من وصل برسالته؛ وقد سير أمير المؤمنين من أمراء دولته ، ووجوه المقدمين بحضرته؛ الأمير المؤتمن، المنصور، المنتخب، مجد الخلافة، تاج المعالى، فخر الملك، موالى الدولة وشجاعها، ذا النجابتين، خالصة أمير المؤمنين، أبا منصور جعفرا الحافظى رسولاً بهذه الإجابة، لما هو معروف من سداده ، وموصوف من مستوفق قصده ومستصوب اعتماده، وألقى إليه مايذكره ويشرحه، وعول عليه فيما يشافه به ويوضحه؛ وأصحبه من سجاياه وألطافه، ماتضمنه الثبت الواصل على يده، إبانة لمحلك عنده، وموقفك منه، ومكانك لديه. وأمير المؤمنين متطلع إلى ورود كتبك متضمنة من سار أنبائك وطيب أخبارك ما يسكن إلى معرفته، ويثق بعلم حقيقته؛ فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى .

الفصــــل الثـالث

من البـاب الثـانى من المقـالة الرابعة

(فى المكاتبات الصادرة عن الملوك ومَنْ فى معناهم ممـا الجارى عليه الحال فى زمانـا ، وهو على قسمين)

القســـم الأوّل

(المكاتَباتُ الصادرةُ عن الملوك إلى أهل الإسلام ، وفيه أطراف)

الطـــــرف الأوّل

(فى مكاتباتهم إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلم ، وفيه ثلاث جُمَل)

الجمـــلة الأولى

(فى ترتيب كتبهم إليه صلّى الله عليه وسـلم على سبيل الإجمـال)

كانتْ أُمَراء سَرَاياه صلّى الله عليه وسلم ومَنْ أسلم من الملوك تفتَتح المكاتبةَ إليه صلّى الله عليه وسلم باسمه صلّى الله عليه وسلم ، ويُثَنُّون بأنفُسِهم ، ويأتُون بالتحميد والسـلامِ عليه صلّى الله عليه وسـلم ، ويتخلَّصُون إلى المقصود بأما بعـدُ أو بغيرها ، ويختِمُون بالسلام . وملوكُ الكفر يبدءُون بأنفُسِهم ؛ وربمـا بدءوا باسمه صلّى الله عليه وسلم . وكان المكتوبُ عنه منهم يعبِّر عن نفسه بلفظ الإفراد . مثل : أنا ، ولى ، وقلت ، وفعلت . وربما عبّر بعضُ الملوك عن نفسه بنون الجمع . ثم إن كان المكتوب عنه مسـلما ، خاطبه صلّى الله عليه وسـلم بلفظ الرِّسالة والنُّبوّة مع كاف الخطاب وتاء المخاطب ؛ وإن كان كافرا ، خاطبه بالكاف والتاء المذكورتين ، وربمـا خاطبه باسمه . فإن كان المكتوب عنه مسلما ختم الكتابَ بالسلام عليه صلّى الله عليه وسلم .

أما عَنْونةُ هذه الكُتُب، فيظهر أنها إن ٱفتُتِحتْ باسمه صلّى الله عليه وسلم، وثُنّى باسم ٱلمكتوب إليه عُنْوِنَتْ كذلك، فيكتب فى الجانب الأيمن «لمحمدٍ رسول الله» أو نحو ذلك، وفى الجانب الأيسر «من فلان» وإن كانتْ ممن يفتَتح المكاتبةَ بٱسم نفسه عُنْوِنَتْ على العكس من ذلك .

الجملـــــة الثـانية
(فى صورة مكاتبتهم إليه صلّى الله عليه وسلم)

[وفيـــه أسلوبانـــ :

الأســــلوب الأوّل
(أن تفتتح المكاتبة باسم المكتوب اليه)[1]]

كما كتب خالدُ بنُ الوليد رضى الله عنه إليه صلّى الله عليه وسلم بإسلام بنى الحارث، بالكتاب الذى تقدّمت إجابتُه صلّى الله عليه وسلم عنه، وهو على ماذكره ابن هشام فى "السِّيرة" .

" لمحمدٍ النبىّ صلّى الله عليه وسلم رسول الله من خالدِ بنِ الوليد :

السلامُ عليك يا رسولَ الله ورحمةُ الله وبركاتُه ، فإنى أحمدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو. أما بعدُ يارسولالله صلّى الله عليك، فإنّك بعثتَنِى إلى بنى الحارثِ بنِ كَعْب، وأمرتَنِى إذا أتيتُهُم أن لّا أقاتِلَهم ثلاثةَ أيّام، وأن أدْعُوَهم إلى الإسلام، فإن أسلَمُوا قبِلْتُ منهم وعلَّمتهم مَعَالِمَ الإسلام ثلاثة أيام وكتابَ الله وسنّةَ نبيه ، وإن لم يُسْلِمُوا

---

(١) الزيادة ساقطة من الأصول وهى لازمة لانتظام الكلام واتساقه كما يظهر من الأسلوب الثانى الآتى.

قاتلتُهم . وإنى قدِمْت إليهم فدعَوْتُهم إلىٰ الإســلام ثلاثةَ أيَّام كما أمر رســولُ الله صلَّى الله عليه وســلم، وبعثتُ فيهم ركْباناً (١) : يابنى الحارثِ أسْلِموا تَسْلَمُوا . فأسلَمُوا ولم يُقاتِلوا وأنا مقيمٌ بين أَظْهُرِهم، آمُرُهم بما أمر اللهُ به، وأنهاهُمْ عمّا نهاهُمُ اللهُ عنه، وأُعلِّمُهم مَعالِمَ الإسلام وسنّةَ النبيّ حتّى يَكْتُبَ إلىّ رسولُالله صلَّى الله عليه وسلم. والسلامُ عليك يا رسولَ الله ورحمةُ الله وبركاتُه ! " .

⁂

وكما كتب النجاشىُّ ملِكُ الحَبَشة إليه صلَّى الله عليه وسلم فى جوابِ كتابه صلَّى الله عليه وسلم إليه .

ونسختُه علىٰ ما ذكره ابن إسحاقَ :

" إلىٰ محمدٍ رسولِ الله، من النجاشىّ أصحمةَ ،

سلامٌ عليك يا رسولَ الله ورحمةُ الله وبركاته، الذى لا إلٰهَ إلا هو، الذى هدانِى للإســـلام .

أما بعدُ، فقد بلغنى كتابُك يارسولَ الله ؛ فما ذكرتَ من أمر عيسى فورَبِّ السّماءِ والأرض إنّ عيسىٰ عليه الســلام ما يَزِيدُ علىٰ ما ذكرتَ ثُفْروقا ، إنه لكما قُلْتَ ، وقد عرَفْنا ما بعَثْتَ به إلينا ، وقَدِمَ ابنُ عمِّك وأصحابُه (وفى رواية : وقد قَرَّبْنــا ابنَ عمِّك وأصحابَهُ) وأشهدُ أنكَ رسولُ الله [صادقًا مصدَّقًا]، وقد بايَعتُك وبايعتُ ابنَ عمِّك، وأسلَمْتُ علىٰ يدَيْه لله ربِّ العالمين . وقد بعثْتُ إليك بابْنِى، وإن شئتَ

(١) فى "مفتاح الافكار" ص ٦٦ وبعثت فيهم ركبانا قالوا يابنى الحارث . والزيادة التى فى آخر الصحيفة منه .

أتيك [بنفسي][1] فعلت يارسولَ الله ، فإني أشهدُ أن ما تقولهُ حقٌّ ، والسلامُ عليك ورحمةُ الله وبركاتُه " .

⁂

وكما كتب المُقَوْقِس صاحب مصر إليه صلى الله عليه وسلم جوابَ كتابِه الواردِ عليه منه في روايةٍ ذكرها ابنُ عبد الحَكَم ، وهو :

" لمحمدِ بنِ عبدالله ، من المُقَوْقِس عظيم القِبْط . سلامٌ عليك .

أما بعدُ ، فقد قرأتُ كتابَكَ وفهمتُ ماذكرتَ فيه وماتَدْعُو إليه . وقد علمتُ أنَّ نبيا قد بَقِيَ وكنتُ أظُنُّ أنه يخرُج بالشام ، وقد أكرمتُ رسولَكَ وبعثتُ إليك بجاريتَيْنِ لهما مكانٌ في القبط عظيمٌ وكِسْوةٍ ، وأهديتُ إليك بغلةً لتركَبَها ، والسلامُ عليك " .

ولم يزد على هذا . وزاد غيرُه أنّ في أوّل الكتاب بسمِ الله الرحمن الرحيم . وذكر الواقديّ : أن في كتابه إليه :

باسمك اللّهم ، من المُقَوْقِس إلى محمدٍ .

أما بعد ، فقد بلَغَني كتابُك وفَهِمته وأنت تقولُ إن اللهَ أرسلَكَ رسولًا ، وفَضَّلك تفضيلا ، وأنزل عليك قُرْءانًا مُبِينا ؛ فكشَفْنا عن خبرك فوجَدْناك أقربَ داعٍ دَعَا إلى الله ، وأصدَقَ مَنْ تكلَّم بالصِّدْق ، ولولا أنِّي ملَكْتُ مُلْكا عظيما ، لكُنْتُ أوّلَ من آمَنَ بك ، لعِلْمِي أنك خاتَمُ النبيين وإمامُ المرسلين . والسلامُ عليك مِنِّي إلى يوم الدِّين .

---

(١) الزيادة من رواية المواهب ج ٣ ص ٣٩٥ وروايته أتيتك . قال شارحه : في موضع المفعول أي إتيانك .

الأســـــلوب الثـانى

(أن تفتتح المكاتبـــة باسم المكتوب عنه)

كما كتب مسيلمةُ الكذّابُ إليه صلّى الله عليه وسلم الكتابَ الذى تقدّمتْ إجابته صلّى الله عليه وسلم فى المكاتبات الصادرةِ عنه، وهو :

«من مُسَيْلِمةِ رسولِ الله إلىٰ محمد رسولِ الله .

أما بعدُ، فإنّى قد أُشْرِكتُ فى الأمر معَك، إنّ لنا نِصْفَ الأرضِ ولقريش نِصْفَ الأرض، ولٰكنّ قُرَيْشًا قومٌ يعتدُون» .

الجمـــــلة الثـالثـــة

(فى المكاتَبات التى كُتبت إليه قبلَ ظُهوره صلّى اللهُ عليه وسلم وبعد وَفاته)

أما الكُتُب التى كُتبتْ إليه صلّى الله عليه وسلم قبل ظُهوره، فقد حكى "صاحب الهنـاء الدائم بمولد أبى القاسم" أن تُبّعا الأوّلَ حين مَرّ بموضِع المدينة النبوِيّة ، علىٰ ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام والتحية والإكرام ، أخبَره مَنْ معه من عُلَماء أهل الكتاب أنّ هــذا الموضع مُهاجَرُ نبيّ يخرُج فى آخر الزمان، فعَمَر هناك مدينةً وأسكن فيها جماعةً من العلماء، وكتب إليه كتابًا فيه :

«أما بعدُ ، يامحمدُ فإنّى آمنتُ بِكَ وبَربِّكَ وربِّ كلّ شيء ، وبكتابه الذى يُنْزِله عليك وأنا علىٰ دِينِك وسُنَّتك . آمنتُ بربِّكَ وربِّ كلِّ شيء، وبكل ماجاء من رَبِّك من شَرَائع الإسلام والإيمان . وإنى قُلتُ ذلك، فإن أدركْتُكَ فَبِها ونِعْمَتْ، وإن لم

أُدْرِكْكَ فاشْفَعْ لِيَ يومَ القيامةِ ولا تَنْسَنِي ، فإني من أُمَّتك الأوّلين، وتابعتُك قبل مجيئك وقبل أن يُرْسِلَكَ اللهُ ، وأنا علىٰ مِلَّتك ومِلَّةِ أبيك إبراهيم » [1] .

وختم الكتابَ . ونقش عليه « لِلّٰهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ويومَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنُونَ بنصرِ الله » .

وكتب عنوانه : « إلىٰ محمد بن عبد الله خاتَمِ المرسلين ورسولِ رب العالمين صلّى الله عليه ، من تُبَّعٍ الأوّلِ حِمْيرَ، أمانةُ اللهِ فى يَدِ مَنْ وقع إليه أن يَدْفَعه إلىٰ صاحبِه » .

ودفَعه إلىٰ رئيس العلماء الذين رَتَّبهم بالمدينة ، فبقِيَ عنده وعند بَنِيه يتداولُونه واحدًا بعد واحدٍ ، حتّى هاجر النبيُّ صلّى الله عليه وسلم إلىٰ المدينة ، فلقيَه الذى صارَ الكتابُ إليه يومَئذٍ من بَنِي ذلك العالِمِ فى طريق المدينة ودفع إليه الكتابَ .

* * *

وأما الكُتُب التى تُكْتَب إليه صلّى الله عليه وسلم بعد وَفَاته ، فقد جرتْ عادةُ الأُمّة من الملوك وغيرهم بكتابة الرسائل إليه صلّى الله عليه وسلم بعدَ وفاتِه بالسلام والتحيّةِ والتوسُّل والتشفُّع به إلىٰ الله تعالىٰ فى المَقاصد الدُّنيويّة والأُخْرَويّة ، وتَسْييرِها إلىٰ تُرْبته صلّى الله عليه وسلم . وأكثرُ الناس معاطاةً لذلك أهلُ المغرب لِبُعْد بلادهم ، ونُزُوحِ أقطارهم .

ومن أحسنِ ما رأيتُ فى هذا المعنىٰ ما كَتب به ابنُ الخطيب وزيرُ ابن الأحمرِ بالأندلس، وصاحبُ ديوان إنشائه عن سُلْطانه يوسفَ بن فَرَج بن نصر :

إذا فاتَنِي ظِلُّ الحِمىٰ ونَعِيمُه ، * كَفَانِي وحَسْبِي أن يَهُبَّ نَسِيمُه !

(١) تقدم هذا الكتاب فى ج ٤ ص ٢٨٦ و ٢٨٧ من هذا المؤلف .

ويُقنِعُــني أنّي بِهِ متكيِّفٌ : * فزمزمهُ دمعي، وجسمي حطيمهُ!
يعودُ فؤادي ذِكْرُ مَنْ سَكَنَ الغضىٰ * فيُقعِــدُه فوقَ الغضىٰ ويُقيمُــه!
ولَمْ أرَ شيئًا كالنّسـيمِ إذا سرىٰ، * شفىٰ سـقَمَ القلبِ المشُوقِ سقيمُه!
نُعَلِّلُ بالتّــذكارِ نفسًا مَشُوقةً * نُديرُ عليها كأسَهُ ونديمُــهُ!
ومَا شــفَّني بالغَـوْرِ رَنْدٌ(١) ومَرْخُهُ، * ولا شاقني من وَحْشِ وَجْرَةَ رِيمُهُ،
ولا سَهرتْ عيْــني لبرْقِ ثَنِيَّــةٍ * من الثّغْرِ يبْــدُو مَوْهِنًا فأشيمُهُ.
بَــرَانِيَ شَــوْقٌ للنّــبِيِّ محمّدٍ * يَسُــومُ فؤادي برْحَهُ مايَسُــومُهُ!
ألَا يا رَسُــولَ اللهِ ناداكَ ضَارِعٌ * علىٰ البُعْــدِ محفُوظُ الودادِ سَليمُه
مَشُــوقٌ إذا ما اللّيْــلُ مَدَّ رِوَاقَهُ * تَهُــمُّ به تحتَ الظّلامِ هُمُــومُهُ
إذا ماحَديثٌ عنكَ جاءتْ به الصَّبا، * شجَاهُ من الشّـوقِ الحَديثِ قَديمُـه
أيَجْهَــرُ بالنّجوىٰ، وأنتَ سَميعُها! * ويَشْرَحُ ما يَخْفىٰ، وأنت عليمُــه!
وتُعْوِزُه السُّــقْيا، وأنت غيَــاثُه! * وتُتْلِفُه البَلوىٰ، وأنت رَحيمُــه!
بنُورِكَ نُورِ اللهِ قد أشْــرقَ الهُدىٰ * فأقْمَــارُه وَضّاحــةٌ ونجُومُــه!
بِكَ انْهَلَّ فضلُ اللهِ في الأرضِ ساكبًا * فأنْــوَاؤُه مُلْتفّــةٌ وغيُومُــه!
ومِنْ فَوْقِ أطبـاقِ السماءِ بك اقتدىٰ * خَليــلُ الذي أوطَاكَهَـا وكليمُه!
لكَ الخُلُقُ الأرضىٰ الّذي بانَ فَضْلُهُ * ومجْــدَ في الذِّكْرِ العَظِيمِ عظيمُه!
يَجِــلُّ مَدىٰ عَلياكَ عن مَدْحِ مادِحٍ * فمُوسِرُ دُرِّ القَــوْلِ فيك عَديمُــه!
وَلِي يا رَسُــولَ اللهِ فِيــكَ وِراثَةٌ! * ومَجْــدُكَ لايَنْسىٰ الذِّمامَ كريمُـه،

(١) في نفح الطيب ج ٤ ص ٥١٦، وريحانة الكتاب "قد" وهو الاوضح.

وعِنْـــدِى إلىٰ أنْصارِ دِينِكَ نِسْـبَةٌ * هِيَ الفَخْرُ لا يَخْشىٰ انتقالًا مُقِيمُه!
وكان بُودّى أنْ أَزُورَ مُبَــوءًا * بِكَ ٱفْتَخَرَتْ أَطْلَالُهُ ورُسُــومُه!
وقد يُجْهِـدُ الإنسانُ طِرْفَ ٱعْتِزامِهِ * ويُعُوِزُه من بَعْـدِ ذاكَ مَرُومُـه،
وعُذْرِىَ فى تَسْوِيفِ عَزْمِىَ ظاهِرٌ * إذا ضاقَ عُذْرُ العَــزْمِ عَمَّن يَلُومُهُ.
عَدَتْنِى بأقْصىٰ الغَرْبِ عن تُرْبِكَ العِدا ، * جَلالِقَــةُ الثَّغْرِ الغرِيبِ ورُومُـــه،
أُجاهِدُ منهــم فى سَبِيلِكَ أُمَّـــةً * هى البَحْرُ يَعْيِى أمْرُها مَنْ يَرُومُـه!
فلولا ٱعْتِنَـاءٌ منكَ يامَلْجأَ الـوَرىٰ! * لَرِيعَ حِمَـاهُ ، وٱسْتُبِيح حَرِيمُــه!
فلا تَقْطَعِ الحَبْلَ الذى قَدْ وَصَلْتَه ، * فَمَجْدُكَ مَوْفُورُ النَّـوالِ عَمِيمُـــه!
وأنتَ لنا الغَيْثُ الذى نَسْــتَدِرُّه، * وأنتَ لنا الظِّـلُّ الذى نَسْــتَدِيمُهُ!
ولَـمَّـا نَأَتْ دارِى وأعْــوَزَ مَطْمَعِى * وأقْلَقَــنِى شَــوْقٌ تُشَبُّ جَحِيمُه،
بَعَثْتُ بها جُهْــدَ المُقِـلِّ مُعَوِّلًا * علىٰ مَجْدِكَ الأَعْلىٰ الذى جَلَّ خِيمُه!
[وَكَلْتُ بها هَمِّى وصِـدْقَ قَرِيحَتِى * فساعَدَنِى هاءُ الرَّوِىِّ ومِيمُــه[1] !]
فلا تَنْسَنِى ياخَيْرَ مَنْ وَطِئَ الــثَّرىٰ * فمِثْـلُكَ لا يُنْسىٰ لَدَيْهِ خَدِيمُـــه!
عَلَيْــكَ صَـــلاةُ اللهِ ماذَرَّ شارِقٌ، * وما راقَ من وَجْهِ الصَّباحِ وَسِيمُه!

إلىٰ رسولِ الحقِّ، إلىٰ كافَّةِ الخَلْق، وغَمامِ الرحمةِ الصادقِ البَرْق، والحائزِ فى مَيْدانِ ٱصطفاءِ الرحمن قَصَبَ السَّبْق، خاتَمِ الأنبياء، وإمامِ ملائكةِ السماء، ومَنْ وجبَتْ له النبوّة وآدمُ بين الطِّين والمـاء، شفيعِ أربابِ الذُّنوب ، وطَبِيبِ أدواءِ القُـلُوب ، ووسيلةِ الخَلْق إلىٰ عَلّامِ الغُيوب، نبيِّ الهُدىٰ الذى طُهِّر قلبُه، وغُفِر ذَنْبُه، وخَتَم به

(١) الزيادة من نفح الطيب "ج ٤ ص ٥١٧" وكذا هو فى ريحانة الكتاب

الرسالةَ ربُّه، وجَرَىٰ فى النُّفوس مَجرىٰ الأنفاس حُبُّه؛ [الشَّفيع] (١) المشفَّع يومَ العَرْض، المحمودِ فى مَلَإِ السماء والأرض؛ صاحبِ اللِّواء المنشُور يومَ النُّشُور، والمؤتَمَنِ علىٰ سِرِّ الكتاب المَسْطُور، ومُخْرِجِ الناس من الظُّلُمات إلىٰ النُّور؛ المؤيَّدِ بكفايةِ الله وعِصْمته، الموفُورِ حظُّه من عِنايته وحُرْمته، الظِّلِّ الخَفَّاق علىٰ أُمَّته؛ مَنْ لو حازت الشمسُ بعضَ كماله ما عَدِمتْ إشْراقا، أو كان للآباءِ رحمةُ قلبِه ذابَتْ نفوسُهم إشفاقًا؛ فائدةِ الكونِ ومَعْناه، وسِرِّ الوُجود الذى بَهَرَ الوُجودَ سَناه، وصَفِيِّ حَضْرة القُدُس الذى لاينامُ قلبُه إذا نامَتْ عيناه؛ البشيرِ الذى سبقَتْ له البُشْرىٰ، ورأىٰ من آياتِ ربِّه الكُبْرىٰ، ونزل فيه سبحانَ الذى أسرىٰ؛ مَنِ الأنوارُ من عُنْصر نوره مستَمدّه، والآثار تَخْلُق وآثارُه مستَجِدّه؛ مَنْ طُوِيَ بِساطُ الوَحْى لفَقْده، وسُدّ بابُ الرسالةِ والنُّبوّة من بعـدِه، وأُوتِيَ جوامِعَ الكَلِم فوقَفَتِ البلغاءُ حَسْرىٰ دُونَ حدّه؛ الذى انتقـل فى الغُرَرِ الكريمة نُورُه، وأضاءتْ لميلاده مَصانِـعُ الشام وقُصُورُه، وطَفِقت الملائكةُ تُحَيِّيه وُفُودُها وتزورُه؛ وأخبرتِ الكتبُ المنزَّلة علىٰ الأنبياء بأسمائه وصِفَاته، وأُخِذ عهدُ الأنبيـاءِ به (٢) علىٰ مَنِ اتصلتْ بمَبْعَثِه منهم أيامُ حياته؛ المَفْزَعِ الأمنعِ يومَ الفَزَعِ الأكبر، والسندِ المعتَمَدِ عليه فى أهوال المَحْشَرْ. ذى المُعْجِزات التى أثبتها المشاهَدَةُ والحِسّ، وأقرّ بها الجنُّ والإنس: من جمادٍ يتكلَّم، وجِذْعٍ لفراقه يتألَّم؛ وقمرٍ له يَنْشَقّ، وشجرٍ يشهَدُ أنَّ ماجاء به هو الحَقّ؛ وشمسٍ بدعائه عن مَسيرِها تُحْبَس، وماء من بين أصابعه يَتَبجَّس؛ وغمام باستسقائه يَصُوب، وطُوًى بَصَق فى أُجَاجِها فأصبح ماؤُها وهو العَذْبُ المَشْرُوب. المخصوصِ بمنـاقب الكمال وكمالِ المناقبْ، المسمَّى بالحاشر العاقِبْ، ذى المَجْد البعيد المَرامى والمَرَاقِب؛ أكرمِ من

(١) الزيادة من نفح الطيب (ص ٥١٧، ج ٤) المطبوع بالمطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٢٧٩ هـ. وكذا هو فى الريحانة.

(٢) فى النفح "الإيمـان به" وكذا هو فى ريحانة الكتاب.

رُفعتْ إليه وسيلةُ المعترف المغـترب، ونجحَتْ لديه قربةُ البعيد والمُقْتَرِب ، سيد الرُّسُل محمد بنِ عبد الله بن عبد المطلِب؛ الذى فاز بطاعته المُحْسنون، وٱستَنْقذ بشفاعته المُذْنِبُون، وسَـعِدَ بأتّباعه الذين لاخوفٌ عليهم ولاهم يَحْزَنُون . صـلّى الله عليه وسلم مالَمَعَ بَرْق، وهَمَع وَدْق؛ وطلعتْ شمس، ونسخَ اليومُ أَمْس .

من عتيقِ شفاعته، وعبدِ طاعته؛ المعتصِمِ بسببه، المؤمن بالله ثم به ؛ المستشفى بذكره كلّمـا تألّم ، المفتتِح بالصلاةِ عليه كلّمـا تكلّم؛ الذى إن ذُكِر تمثّل طُلوعَه بين أصحابه وآله ، وإن هَبَّ النّسيمُ العاطرُ وجد فيه طِيبَ خِلَاله ؛ وإن سَمِـع الأذانَ تذكَّر صوتَ بِلَاله . وإن ذُكِرَ القرءان ٱستشعَرَ تردُّدَ جبريلَ بين مَعَاهده وحِلَاله ؛ [لاثِمِ تُرْبه ومؤمِّلِ قُرْبه ، ورهين طاعتـه وحُبِّه](1) المتوسِـلِ به إلىٰ رضا ربه ؛ « يوسفَ بن إسمـاعيل بن نصر» .

كتبته [إليك](1) يا رسولَ الله والدمعُ ماح، وخيلُ الوَجْد ذاتُ جِمَاح؛ عن شوقٍ يزداد كلّما نقص الصَّبْر، وٱنكسارٍ لا يُتاحُ له إلا بدُنُوِّ مَزَارِك الجَبْر؛ وكيف لا يَعْيَىٰ مَشُوقُك بالأمر ، ويُوطِئُ علىٰ كَبِـده الجمر ، وقد مطَلَتِ الأيامُ بالقُدُوم علىٰ تُرْبَتك المقدّسةِ اللَّحْد ، ووعَدتِ الآمالُ ودانَتْ بإخلاف الوَعْد ؛ وٱنصرفتِ الرِّفاقُ والعينُ بنُورِ ضَريحك ما ٱكتَحَلَتْ ، والركائبُ إليك ما رُحِلتْ ، والعزائم قالتْ وما فعلتْ ؛ والنَّواظر فى تلك المشاهد الكريمة لم تَسْرَحْ ، وطيورُ الآمالِ عن وُكُور العَجْز لم تَبْرَحْ ؛ فيالَهَـا من معاهِدَ فاز مَنْ حيَّاها ، ومشاهِدَ ما أعطَرَ ريّاها ؛ بلادٌ نِيطَتْ بها عليك التَّمائم ، وأشرقَتْ بنُورِك منها النُّجودُ والتَّهائم ؛ ونزل فى حُجُراتها عليك المَلَكْ ، وٱنجلىٰ بضياء فُرْقانك فيها الحَلَكْ ؛ مَدَارس الآياتِ والسُّوَر ، ومطالـعُ المُعْجزات السافرةِ

(١) الزيادة من نفح الطيب ص ٥١٨ ج ٤ وكذا هو فى الريحانة .

الغُرَر ؛ حيثُ قُضِيَت الفروض وحُتِمَتْ ، وٱفْتُتِحتْ سـورةُ الوحى وخُتِمَتْ ؛ وٱبتُـدِئتِ الملةُ الحنيفيّة وتُمِّمتْ ، ونُسِخت الآياتُ وأُحْكِمَتْ . أما والذى بعثَكَ بالحق هاديا ، وأطْلَعَك للخَلْق نُورا باديًا ؛ لايُطْفِئُ غُلَّتى إلا شربُك ، ولا يُسكِّن لَوْعتى إلا قُرْبُك ؛ فما أسـعدَ من أفاضَ من حرمِ الله إلىٰ حَرَمِـك ، وأصبَحَ بعـد أداء ما فرضْتَ عن الله ضيفَ كَرِمك ؛ وعَفَّر الخدّ فى مَعَاهدك ومعاهد أُسْرَتك ، وتردّد ما بين دارَىْ بِعْثتك وهِجْرتك !

وإنِّى لمَّا عاقَتْنى عن زيارتك العوائق وإن كانَ شُغْلى عنك بك ،وعَدَتْنِى الأعداءُ فيك عن وَصْلِ سبَبِى بسبَبِك ، وأصبحتُ مابين بحرٍ تتلاطَمُ أمواجه ، وعدوٍّ تتكاثَفُ أفواجُه ، ويحجبُ الشمسَ عند الظهيرة عَجَاجُه ؛ فى طائفةٍ من المؤمنين بك وطَّنُوا علىٰ الصَّبْر نفُوسَهم ، وجعلوا التوكُّل علىٰ الله وعليك لَبُوسَهم ؛ ورفعُوا إلىٰ مُصارختك رءُوسهم ، وٱستعْذَبُوا فى مَرْضاة الله تعالىٰ ومَرْضاتك بُوسهم ؛ يَطِيرونَ من هَيْعةٍ إلىٰ أُخرىٰ ، ويتلَفَّتون والمخاوفُ يُمْنىٰ ويُسْرىٰ ، ويقارِعُون ــ وهم الفئة القليـلةُ ــ جموعًا بجموع قيصَرَ وكِسْرىٰ ؛ لايبْلُغون من عدوٍّ كالذَّرِّ عند ٱنتشارِه ، مِعْشارَ مِعْشاره ؛ قد باعُوا من الله تعالىٰ الحياةَ الدُّنيا ، لأن تكونَ كلمةُ اللهِ تعالىٰ هى العُلْيا ؛ فيالَهُ من سِرْب مَرُوع ، وصريخ إلا عنك مَمْنُوع ، ودعاء إلىٰ الله وإليك مَرْفوع ؛ وصِبْيةٍ حُمْر الحَوَاصِل ، تخفِقُ فوق أوكارها أجنحةُ المَنَاصل ؛ والصليبُ قد تمطَّى ومدَّ ذِراعَيْه ، ورَفَعتِ الأطماعُ بِضَبْعَيْـه ؛ وقد حُجِبتْ بالقَتَام السَّماء ، وتلاطمتْ أمواجُ الحـديد والبأسِ الشديد فٱلتقىٰ المـاء ؛ ولم يبقَ إلا الذَّماء ، وعلىٰ ذلك فما ضَعُفت البصائر ولا ساءَتِ الظُّنُون ، وما وُعِد به الشهداءُ تعتقِـدُه القلوبُ حتّى تكادَ تَراه العُيُون ، إلىٰ أن نَلْقاك غدًا إن شاء الله تعالىٰ وقد أَبْلينَا العُـذْر ، وأرغَمْنا الكُفْر ، وأعملْنا فى سبيل الله وسبيلك البِيضَ والسُّمْر .

استنبت[1] رُقعتى هذه لتطيرَ إليك [من شوقى] بجناحٍ خافق، وتُسعَد من نيّتى التى تصحبُها برفيق موافق؛ فتؤدّى عن عَبْدك وتبلّغ، وتعفّر الخدّ فى تُربتك وتمرّغ؛ وتطيبُ بَريّا معاهدك الطاهرة وبيوتك، وتقفُ وقوفَ الخشوع والخضوع تُجاه تابوتك؛ وتقول بلسان التملّق، عند التشبّث بأسبابك والتعلّق، منكسرةَ الطَّرف، حذرا بَهرجُها من عدم الصَّرف : ياغياثَ الأمّه، وغمامَ الرحمه؛ ارحم غُربتى وانقطاعى، وتغمّد بطَوْلك قِصَرَ باعى، وقوِّ على هَيْبتك خَوَرَ طِباعى؛ فكم جُزتُ من لُجٍّ مَهول، وجُبتُ من حُزونٍ وسُهول؛ وقابِل بالقَبول نيـابَتى، وعجِّل بالرِّضا إجابَتى . ومعلومٌ من كمال تلك الشِّيَم ، وسجايا تِيك الدِّيَم ، أنْ لا تُخيِّبَ قصدَ مَنْ حطَّ بِفنائها، ولا يَظْمأَ واردٌ أكبَّ على إنائها .

اللهمَّ يامَنْ جعلتَه أوّلَ الأنبياءِ بالمعْنىٰ وآخرَهم بالصُّوره، وأعطيتَه لِواءَ الحمد يَسير آدمُ فمن دُونَه تحت ظِلالِه المنشوره؛ وملّكتَ أمته ما زُوِى له من زوايا البسيطة المعموره، وجعلْتنِي من أمّته المجبُولةِ علىٰ حُبِّه المَفْطُوره؛ وشوّقتنِي إلىٰ معاهِدِه المَبْروره، ومشاهِدِه المَزُوره ؛ ووكَلْتَ لسانى بالصلاة عليه ، وقلْبِي بالحَنين إليه ، ورَغّبتنى بالتمـاس ما لَدَيْه؛ فلا تَقْطعْ عنه أسبابى، ولا تَحْرِمْنى فى حُبِّه أجرَ ثوابى، وتدارَكْني بِشفاعته يَوْمَ أخْذِ كتابِي .

هذه يا رسولَ الله وسيلةُ مَنْ بَعُدتْ دارُه، وشَطَّ مَزارُه، ولم يُجعَل بيده آختيارُه؛ فإنْ لم يكُنْ للقَبول أهلًا فأنتَ للإغضاء والسَّماح أهْل، وإن كانتْ ألفاظُها وَعْرةً فجنابُك للقاصِدين سَهْل ؛ وإذا كان الحبُّ يُتوارَثُ كما أخبَرت، والعُروقُ تَدُسُّ حسَبَ ما إليه أشَرْت ؛ فَلِي بانتسابِي إلىٰ (سعدٍ) عميدِ أنصارِك مَزِيّه، ووَسيلةٌ أثِيرةٌ خَفِيّه ، وإن لم يكُنْ لى عملٌ ترتَضِيه فَلِي نيّه؛ فلا تَنْسَني ومَنْ بهذه الجزيرة المفتتحة بسيف

(١) جواب قوله ولما عاقنى فى أوّل الفقرة السابقة فى الصحيفة قبل .

كلمتك، على أيدي خِيَارِ أُمَّتك؛ فإنما نحنُ بها وديعةٌ تحتَ بعضِ أقْفالك، نعوذُ بوجه رَبِّك من إغْفالك؛ ونَستَنْشِق من رِيحِ عِنَايتك نَفْحه، ونَرْتقِبُ من نُورِ مُحيًّا قَبُولك لَمْحه ؛ نُدافِع بها عَدُوًّا طَغىٰ وبَغىٰ، وبَلَغ من مُضايَقتنا ما ٱبتغىٰ؛ فمواقفُ التمحيص قد أعيتْ مَنْ كَتَبَ وورَّخ، والبحرُ قد أصمَتَ من ٱستَصْرَخ؛ والطاغيةُ في العُدْوان مستَبْصِر، والعَدُوّ محلِّق والوَلِيّ مقَصِّر . وبجاهك نَدْفَع مالا نُطيق، وبعنايتك نُعالِجُ سقيمَ الدِّين فيُفيق؛ فلا تُفْرِدْنا ولاتُهْمِلْنا، ونادِ رَبَّك فينا : ربَّنا وَلَاتُحَمِّلْنا؛ وطوائفُ أمتك حيثُ كانُوا عنايةٌ منك تَكْفيهم، وربُّك يقول لك وقولُه الحَقُّ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيعذِّبَهم وأنْتَ فِيهِمْ﴾ .

والصلاةُ والسـلامُ عليكَ يا خيْرَ مَنْ طافَ وسَـعىٰ ، وأجاب داعِيًـا إذا دعَا ؛ وصـلّى الله علىٰ جميعِ أحزابِك وآلِك ، صـلاةً تليقُ بجَلَالك وتَحِقُّ لكمالك ؛ وعلىٰ ضَجِيعَيْك وصدِيقَيْك، وحبِيبَيْك ورفِيقَيْك : خليفتك في أمتك، وفارُوقِك المستخْلَف بعده علىٰ جِلّتـك ، وصِهْرِك ذى النُّورَيْن المخصوصِ ببِرِّك ونِحْلتـك ، وٱبنِ عمكَ سيفِكَ المسلولِ علىٰ حلتك، بدرِ سمائك ووالد أهِلَّتك؛ والسلامُ الكريم عليك وعليهم [كثيرا بثيرا] (١) ورحمة الله وبركاته .

من حضرة جزيرة الأنْدَلُس غَرْناطةَ صانها الله ووقاها ، ودفع عنها ببركتك كيـد عــداها .

---

(١) الزيادة عن "نفح الطيب" .

الطـــرف الثـانى

(فى المكاتبات الصادرة عن الأمراء من العمّال وأمراء السّرايا، إلى الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم، وفيه جملتان)

الجمـــلة الأولى

(فى ترتيب هذه المكاتبات على سبيل الإجمال)

كانت المكاتبةُ إليهـم تُفْتَتح تارةً بلفظ «من فلان إلى فلانٍ» ويؤتى فى الصدر بالسـلام والتحميدِ على نحو ما تقدّم فى المكاتبة عن الخلفاء . ويقع التخلّص إلى المقصود بـ«أما بعدُ» وتارةً يقع الافتتاحُ بـ«أما بعدُ» ويؤتى بالمقصود تِلْوَذلك؛ ويعبِّر المكتوبُ عنـه فيها عن نَفْسـه بلفظ الإفراد، وعن الخليفة بأمير المؤمنين، وتُختَمُ بالسلام على أمير المؤمنين .

الجمـــلة الثـانيـــة

(فى صُورة هذه المكاتبات، وهى على أسلوبَيْنِ كما تقدّمت الإشارةُ إليه)

الأسلوب الأوّل

(أن تُفْتَتَح المكاتبةُ بلفظ «لفلان من فلان»)

وكان الرسم فيها أن يُكْتَب : «لعبد الله فلانٍ أمير المؤمنين، سـلامٌ عليك فإنّى أحمَدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلهَ إلّا هو أما بعدُ فإنّ كذا» .

كما كتب عمرو بنُ العاص إلى أمير المؤمنين عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه فى جوابِ الكتاب منه إليه المقدّمِ ذكره فى المكاتبة عن الخلفاء من الصحابة، وهو:

«لعبدِالله عمرَ أميرِالمؤمنين، سلامٌ عليك فإنّى أحمدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلهَ إلاهو. أما بعدُ، فإنه أتانى كتابُ أمير المؤمنين يذكُر فيه فاشيةَ مالٍ فَشَالى، وانه يَعْرِفُنى قبلَ

ذلكَ ولا مالَ لِى، وإنى أَعْلِمُ أميرَ المؤمنين أنى ببلدٍ السعرُ فيه رَخِيص، وأنِّى أُعالِجُ من الزِّراعة مايُعالِجه الناسُ، وفى رِزْق أميرالمؤمنين سَعةٌ . ووالله لو رأيتُ خيانَتَك حلالًا ما خُنْتك ، فأَقصِرْ أيُّها الرجلُ فإنَّ لنا أحسابًا هى خيرٌ من العملِ لَكَ، إن رَجَعْنا إليها عِشْنا بها ! . ولعَمْرى إنَّ عِندك مَن لا يَذُمُّ معشيةً ولا تُذَمُّ له ، فإن كان ذلك فلم يَفْتَح قُفْلك ولم يَشْرَكْك فى عَمِلك ؟

الأســـــلوب الثـانى

(أن تفتَتح المكاتبةُ بلفظ «أما بعدُ» ويتوَصَّل منه إلىٰ المقصود)

كما كتب المغـيرةُ بنُ شُعْبَةَ إلىٰ معـاويةَ ــ وهو علىٰ بعض أعمالِه ــ يسـتَعْفيه عن العمل .

أما بعدُ، فقد كَبِرسِنِّى ورَقَّ عَظْمى واقترب أَجَلِى وسفَّهِنِى سُفَهاءُ قُرَيْش، فرأى أميرالمؤمنين فى عَمَله .

الطـــــرف الثـالث

(فى المكاتبات الصادرةِ عن الأمراء من العُمّال، وأمراء السَّرايَا أيضا إلىٰ خُلَفاء بنى أُمَيَّة ، وهى فى ترتيبها علىٰ ماتقدّمَ فى المكاتبات إلىٰ الخلفاء من الصحابة رِضىَ الله عنهم . وهى علىٰ أسلوبين)

الأســـــلوب الأوّل

(أن تُفْتَتح المكاتبةُ بلفظ «من فلانٍ إلىٰ فلان» علىٰ نحو ماتقدّم فى المكاتبة عنهم إلىٰ الخُلَفاء من الصحابة مع زيادة الدُّعاء بطُول البقاء)

كما كتب الحجاجُ بنُ يوسُفَ إلىٰ عبدِالمَلِك بنِ مَرْوانَ فى جوابِ كتابِه الواردِ عليه منه، فى توبيخِه له بسبَب تعرُّضه لأنَس بن مالك رضى الله عنه علىٰ ماتقدّم ذِكْرُه.

«لعبدالله عبدِالملك أمير المؤمنين، [أصلح الله][(1)] أميرَ المؤمنين وأبقاه، وسَهَّل حَظَّه وحاطه ولا عَدِمْناه؛ فقد وصلَني كتابُ أمير المؤمنين أطال الله بقاه، وجعلنى من كل مكروهٍ فِدَاه؛ يذكر شتْمى وتَوْبيخى بآبائى، وتَعْييرى بما كان قبلَ [نُزُول النِّعمة بى][(2)] من عند أمير المؤمنين أتمَّ الله نعمتَه عليه، وإحسانَهُ إليه. ويذكر أميرُ المؤمنين آستطالةً منى علىٰ أَنَس بن مالك، وأميرُ المؤمنين أحقُّ من أقال عَثْرتى، وعفا عن ذَنْبى وأمْهلَنِي ولم يُعْجِلْنى عند هَفْوتى؛ للَّذى جُبِل عليه من كريم طَبَائعه، وما قلَّده الله من أمور عِبَادِه؛ فرأْىَ أمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ فى تسكينِ رَوْعتى، وإفراج كُرْبَتِى؛ فقد مُلِئتُ رُعْبا وفَرَقا من سَطَواته، وفَجَآت نِقماته؛ وأميرُ المؤمنين ـ أقاله الله العَثَرات، وتجاوزَ له عن السيِّئات؛ وضاعَفَ له الحَسَنات، وأعلىٰ له الدَّرَجات ـ أحقُّ مَنْ صَفَح وعَفَا، وتغمَّد وأبقىٰ؛ ولم يُشْمِتْ بى عدوّا مُكِبًّا، ولا حَسُودا مُضِبًّا؛ ولم يُجرِّعْنى غُصَصا. والذى وصف أميرالمؤمنين من صَنِيعته إلىَّ، وتنويهه لى بما أسند إلىَّ من عمله، وأوطأنى من رِقَاب رعيته، فصادقٌ فيه مُجْزِىٌّ عليه بالشكر، والتوسُّل منِّى إليه بالوِلَايه، والتقرّبِ له بالكِفَايه؛ وقد خضَعْت عند كتاب أمير المؤمنين، فإن رأىٰ [أمير المؤمنين][(3)] ـ طَوَّقنى الله بشُكره، وأعاننى علىٰ تأدية حَقِّه، وبلَّغنى إلىٰ مافيه موافقةُ مَرْضاته، ومدّلى فى أجله ـ أن يأمر بالكتاب إلىَّ من رضاه، وسلامةِ صدره، ما يُؤَمِّننى به من سَفْك دَمِى، ويردُّ ماشَرِدَ من نومى، ويَطْمئِنُّ به قلبى فعل، فقد ورد

---

(1) فى الأصل "سلام علىٰ أمير الخ" والتصحيح عن مفتاح الافكار (ص ١٨٢).

(2) بياض بالاصول، والتصحيح عن مفتاح الأفكار. وفيه بعد لفظ أنس بن مالك مانصه.
"خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم جرأة على أمير المؤمنين وغرة بمعرفة غيره ونقماته وسطواته على من خالف سبيله وعمد إلى غير محبته ونزل عند سخطته، وأمير المؤمنين أصلحه الله من قرابته من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إمام الهدى وخاتم النبيين أحق الخ".

(3) الزياده عن مفتاح الافكار.

علىّ أمرٌ جليلٌ خَطْبه، عظيمٌ أمرُه، شديدٌ كَرْبه . أسأل الله أن لا يُسْخِط أمير المؤمنين علىّ، وأن يُنيلَه فى حزمه، وعزمه، وسِيَاسته، وفِرَاسته، ومَوَاليه، وحَشَمه، وعُمَّاله، وصَنائعه، مايحمَدُ به حسنُ رأيه، إنه ولىُّ أمير المؤمنين والذابُّ عن سلطانه، والصانعُ له فى أمره، والسلام .

الأســــــلوب الثـانى

(أن يُفْتَتح الكتاب بلفظ «أما بعد» ويُتَوصَّل منه إلىٰ المقصود)

كما كتب عبدُ الله بن عمرَ رضى الله عنهما إلىٰ عبد الملك بن مَرْوان فى خلافته :

أما بعدُ، لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين من عبد الله بن عمر . سلامٌ عليك فإنّى أحمدُ إليكَ الله الذى لا إلٰهَ إلا هو ، وأمرنى بالسمع والطاعةِ علىٰ كتاب الله وسُــنَّة نبيِّه فيما آستطَعْت .

الطَّـــــرَف الرابع

(فى المكاتبات الصادرة عن المُلُوك ومَنْ فى معناهم إلىٰ خلفاء بنى العباس ، وفيها جملتان)

الجمـــــلة الأُولىٰ

(فى المكاتبات العامَّة من الملوك إلىٰ الخُلَفاء، ولهـا حالتان)

الحـالة الأولىٰ

(ما كان الأمرُ عليه فى آبتداء دولة بنى العباس وأوساطها)

أما آبتداء دولتهم، فكان الأمرُ فيه علىٰ ماتقدّم فى مكاتبات العُمَّال ونحوهم إلىٰ خلفاء بنى أُميَّة ، وقد تقدّم تمثيله . إلا أنه زيد فيه فى صُــدُور المكاتبات سؤالُ الصلاة

علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم من حين رتّبه المأمون فى صُدور الكتب، وتكْنية الخليفة من حين أحدثه الأمينُ فى كُتُبه علىٰ ما تقدّم بيانه فى المكاتبات عن الخلفاء فيما سلف .

*
* *

وأما أوساط دولتهم من حين ظهور ملوك بنى بُوَيه وغلَبتِهم علىٰ الأمر ، فللكُتّاب فيه أسلُوبان :

الأسلوب الأوّل

(أن تفتتَح المكاتبة بلفظ «لفلان من فلان» وتُصدّرَ بالسلام والتحميد وسؤالِ الصلاة علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم، ويتخلص إلىٰ المقصود بأما بعد)

والرسمُ فيه علىٰ ماذكره قُدَامةُ فى كتاب الخَرَاج أن يُكْتَب : «لعبد الله فلان أبى فلان ــ باسمه وكنيته ونعته ــ أمير المؤمنين، سلامٌ علىٰ أمير المؤمنين، فإنّى أحمدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو وأسألُه أن يصَلّيَ علىٰ محمد عبدِه ورسوله صلّى الله عليه وسلم.

أما بعدُ، أطال اللهُ بقاءَ أمير المؤمنين وأدام عِزّه وتأييدَه وكرامتَه وحِراسَته، وأتم نِعمَتَه عليه ، وزاد فى إحسانِه إليه، وفَضْلِه عنده وجميلِ بلائه لَدَيه ، وجَزيلِ عطائه له» .

وزاد فى "صناعة الكُتّاب" : فى السلام «ورحمة الله وبركاته» . قال فى "صناعة الكتّاب" : ثم يقال : أما بعدُ فقد كان كذا وكذا ، حتّى يأتى علىٰ المعانى التى يَحْتاجُ إليها . وتكون المكاتبة : ــ وقد فعل عبد أمير المؤمنين كذا ــ فإن زادتْ حالهُ لم يقل عبد أمير المؤمنين ، فإذا بلغ إلىٰ الدعاء ترك فضاءً وكتب : أتمّ اللهُ علىٰ أمير المؤمنين نعمتَه وهنَاءه وكرامته ،وألبسه عَفْوَه وعافيتَه وأمْنه وسلامتَه :.والسلام علىٰ أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . وكُتب يوم كذا وكذا من شهر كذا من سنة كذا .

وقال الفضل بن سهل : يُدْعىٰ للخليفة :

أما بعدُ، أطال الله بقاءَ أمير المؤمنين، وأدام عِزّه وتأييدَه، وأتمّ نعمتَه وسعادتَه وتوفيقَه ؛ وزاد فى إحسانه إليه ومَوَاهِبِه له . ولا يكتب إليـه « وجعلنى فِدَاه » ويكون أوّل فصوله : أُخْبِر أميرَ المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ أن كذا وكذا. ثم يوالى الفصول بـ«أيّده الله وأدام عزه» . ونحو هذا .

وإن شِئْت كتبت : أما بعدُ أطال الله بقاءَ أمير المؤمنين، وأدام عِزّه وتأييـده وكرامَتَه، وأتمّ نعمتَه عليه، وزادَ فيها عنده وحاطَهُ وكفاه، وتولّىٰ له ما ولّاه .

وإن شئْتَ كتبت : أطال الله بقـاءَ أمير المؤمنين فى العِزّ والسّـلامة، وأدام كرامته فى السّـعادة والزِّيادة ؛ وأتمّ نعمته فى السُّـبُوغ والغِبْطة ، وأصلحه وأصلح علىٰ يدَيْه ونَصَره ؛ وكان له فى الأمور كلّها وليًّا وحافظا .

وإن شئت كتبتَ : أطال اللهُ بقـاءَ أمير المؤمنين فى أعَزّ العِزّ، وأدْوِم الكَرَامة والسُّرور والغِبْطة ، وأتمّ نِعَمَه فى عُلُوّ من الدرجة ، وشرفٍ من الفضـيلة ، ومُتابَعٍ من العائدة، ووهب له السلامةَ والعافيةَ فى الدنيا والآخرة .

والذى كانتْ عليه قاعدةُ ملوك بنى بُوَيه فَمَنْ بعـدهم إن كان الكتاب فى معنىٰ حدوثِ نعمةٍ من فتح ونحوه، أُتِى بعد ذلك بالتحميد مابينَ مرّةٍ واحدة إلىٰ ثلاث مرّاتٍ . ويعبِّر المكتوبُ عنه عن نفسه بلفظ الإفراد، وعن الخليفة بأمير المؤمنين، ويُخْتَمُ الكتابُ بالإنهاء وما فى معناه .

وهـذه نسخةُ كتابٍ كتب به أبو إسحاق الصـابى عن عز الدولة بن بُوَيه إلىٰ المُطيع لله عند فَتْحه الموصل، وهزيمة أبى تَغْلِبَ بن حَمْدانَ صاحب حَلَبَ فى سنة ثلاث وستين وثلثمائة ، وهى :

لعبدِ الله الفضلِ [الإمام][1] المطيع لله أميرِ المؤمنين، من عَبْده وصَنيعته عزِّ الدولة ٱبن مُعزِّ الدولة مَوْلىٰ أمير المؤمنين . سلامٌ علىٰ أمير المؤمنين ورحمة الله، فإنِّى أحمَدُ إلىٰ أمير المؤمنين اللهَ الذى لاإلٰهَ إلا هو، وأسألُه أن يصلِّىَ علىٰ محمد عبده ورسوله صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسَلَّم .

أما بعدُ ـ أطال اللهُ بقاءَ أمير المؤمنين وأدامَ له العِزَّ والتأييد، والتوفيق والتَّسْديد؛ والعُلُوَّ والقُدْره، والظُّهورَ والنُّصْره ـ فالحمدُ لله العلىِّ العَظيم، الأزَلىِّ القديم؛ المتفرِّد بالكِبْرياء والملَكُوت، المتوحِّدِ بالعَظَمة والجَبَرُوت؛ الذى لا تَحُدّه الصِّفات، ولاتَحُوزُه الجهات؛ ولا تَحْصُره قَرَارةُ مكان، ولايُغيِّره مُرورُ زمان؛ ولا تَمَثَّلُه العُيون بنواظِرِها، ولا تَخَيَّلُه القلوبُ بخَواطِرِها . فاطِرِ السموات وما تُظِلّ، وخالقِ الأرض وما تُقِلّ؛ الذى دلَّ بلطيف صَنْعته، علىٰ جليل حِكْمته؛ وبَيَّن بجَلِىِّ بُرْهانه، عن خَفِىِّ وِجْدَانه؛ وٱستغنىٰ بالقُدْرة عن الأعْوان، وٱستَعْلىٰ بالعِزَّة عن الأقْران . البعيدِ عن كلِّ مُعادِلٍ ومُضارِع، المُمْتنِع علىٰ كلِّ مُطاوِلٍ ومُقارِع؛ الدائم الذى لايَزُول ولايَحُول، العادلِ الذى لا يَظْلِم ولايَجُور؛ الكريم الذى لايَضِنُّ ولايَبْخَل، الحليم الذى لا يَعْجَل ولا يَجْهَل ؛ ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لاإلٰهَ إلا هو فَادْعُوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، مُنْزِلُ الرحمة علىٰ كلِّ وَلِىٍّ توكَّلَ عليه، وفوَّض إليه ؛ وٱئْتَمر لأوامره، وٱزْدَجر بزَوَاجِره، ومُحِلِّ النِّقْمة بكلِّ عدوٍّ صَدَّ عن سبيله وسَنَنه، وصَدَف عن فرائضه وسُنَنه، وحادّه فى مَكْسَب يده ومَسْعاة قَدَمه، وخائنة عينه وخافية صَدْره؛ وهو راتعٌ رَتْعة النَّعَم السائمه، فى أكْلاء النِّعم السابغه ؛ وجاهلٌ جَهْلَهَا بشُكْر آلائها ، ذاهلٌ ذُهولَهَا عن طُرُق ٱستِبْقائها؛ فلا يلبَثُ أن يُنْزَعَ سرابيلَها صاغِرا، ويَتَعرَّىٰ منها حاسِرا؛ ويحمل

(١) الزيادة من مختارات الصابى .

اللهُ كَيْدَه فى تَضْليل ، ويُورِدُه شَرَّ المَوْرِد الوبيل ؛ إنَّ اللهَ لايُصْلِحُ عَمَلَ المُفْسِدين ، ولا يَهْدِى كَيْدَ الخائنين .

والحمدُ لله الذى ٱصطفىٰ للنُّبوّة أحقَّ عباده بحَمْل أعبائها ، وٱرْتداءِ ردائها ؛ «محمدا» صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلَّم ، وعظَّم خَطَره وكَرَّم ؛ فصَدَع بالرسالَهْ ، وبالَغَ فى الدَّلالَهْ ؛ ودَعَا إلىٰ الهِدَايه ، ونجّى من الغَوَايه ؛ ونقَـلَ الناسَ عن طاعةِ الشيطان الرجيم ، إلىٰ طاعةِ الرحمن الرحيم ؛ وأعْلَقَهم بحبائل خالِقِهم ورازِقِهم ، وعِصْمةِ مُحْيِيهم ومُميتهم ؛ بعـدَ ٱنتحالِ الأكاذِيبِ والأَبَاطِيـل ، وٱستِشْعار المُحَـالات والأَضَالِيل ؛ والتَّهَوُّك فى الاعتقـاداتِ الذائدةِ عن النَّعيم ، السائقة إلىٰ العذابِ الأَليم ؛ فصلىٰ الله عليـه من ناطقٍ بالحق ، ومُنْقِذٍ للخَلْق ؛ وناصحٍ للربّ ، ومؤدٍّ للفرض ؛ صلاةً زاكية ناميه ، رائحة غَاديه ؛ تزيدُ علىٰ ٱختلاف الليل والنَّهار ، وتعاقُبِ الأَعْوام والأدوار .

والحمدُ لله الذى ٱنتجبَ أميرالمؤمنين [أطال الله بقاءه](1) من ذلك السِّنْخ الشريف ، والعُنْصر المُنِيف ؛ والعِتْرة الثابتِ أصلُها ، الممتدِّ ظِلُّها ، الطيِّبِ جَنَاها ، الممنوعِ حِمَاها ؛ وحازَله مواريثَ آبائه الطاهِرين ، صلواتُ الله عليهم أجمعين ؛ وٱختصّه من بينهم بتطاوُلِ أَمَدِ الخلافة وٱستحْصافِ حَبْلها فى يَدِه ؛ ووفَّقـه لإصابة الغَرَض من كل مَرْمًى يَرْمِيه ، ومَقْصِد يَنْتحِيه ؛ وهو ـ جل ثناؤه ـ الحقيقُ بإتمـام ذلك عليـه ، والزيادةِ فيـه لَدَيْه . وأحمده سبحانه حَمْـدًا أبتدِئه ثم أُعيده ، وأُكَرِّره وأستَزِيدُه ؛ علىٰ أنْ أهَّل رُكنَ الدولة أبا علىّ ، وعضُدَالدولة أبا شجاع مَوْلىٰ أميرالمؤمنين ، وأهّلَنى للأَثَرة عنـده التى بَذَذْنا فيها الأكْفاء ، وفُتْنا فيها القُرناء ؛ وتقطَّعتْ دُونها أنفـاسُ المُنَافِسين ، وتضَرّمتْ عليها أحشاءُ الحاسـدين . وأنْ أولانى فى كل مَغْزًى فى خدمة

(1) الزيادة من مختارات الصابى .

أمير المؤمنين أغزُوه، ومَنْحَى أنْحُوه ؛ وثَأي أرْأبُه، وشَعَث ألُمُّه ؛ وعدُوّ أرْغمه ، وزائغ أُقوِّمه ؛ أفضلَ ما أولاه عبادَه السليمةَ غُيُوبُهم ، النقيّةَ جُيُوبهم ؛ المأمونةَ ضمائرُهم ، المشحوذةَ بصائرُهم ؛ من تمكين يَدٍ، وتثبيتِ قدم؛ ونُصرةِ رايةٍ، وإعلاء كلمة ؛ وتقريبِ بُغْية، وإنالة أُمْنيّة؛ وكذلك يكون مَنْ إلىٰ [ولاء](١) أمير المؤمنين آعتزاؤه ، وبشِعاره آعتزازُه ؛ وعن زِنَاده قَدْحُه ، وفى طاعته كَدْحُه؛ والله ولىٌّ [بإدامة](١) ماخَوّلنيه من هذه المَنْقَبه ، وسوّغَنيه من هذه المَوْهِبه ؛ وأن يتوجّه أميرُ المؤمنين فى جميع خَدَمه الذابّين عن حَوْزَته، المنتَمين إلىٰ دعوته؛ بيُمْن الطائر، وسَعَادة الطالع؛ ونجَاح المَطْلَب، وإدراكِ الأَرَب؛ وفى أعدائه الغامطين لنِعْمته، الناقِضين مواثيقَ بيْعته؛ بإضْراع الخَدّ، وإتعاس الجَدّ؛ وإخْفاق الأَمَل، وإحباطِ العمل، بقدرته .

ولم يزل مولانا أمير المؤمنين [أطال الله بقاءه](١) يُنْكِر قديمًا من "فَضْل الله" بن ناصر الدولة أحوالا حقيقًا مثلُها بالإنكار، مستحقًّا من آرتكبها الإعراض ؛ وأنا أذهَبُ فى حِفْظ غَيْبه ، وإجمال مَحْضَره ؛ وتمحُّل حُجَجه وتلفيقِها ، وتأليف مَعَاذيره وتنميقِها؛ مَذْهبي الذى أعُمّ به كلَّ مَنْ جرىٰ مَجْراه من ناشئ فى دولته ، ومُغْتَذٍ بنعمته ؛ ومنتسِبٍ إلىٰ ولايته ، ومُشْتَهِرٍ بصنيعته ؛ وأقْدِر أنْ أستَصْلِحَه لأمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ وأُصْلِحَه لنَفْسه بالتوقيف علىٰ مَسَالك الرَّشاد ، ومَنَاهج السَّداد ؛ وهو يُرِيني أنْ قد قَبِل وآرْعَوىٰ، وأبْصَر وآهتدىٰ ؛ حتّى رَغِبْتُ إلىٰ أمير المؤمنين فيما شَفَّعنِي متفضّلا فيه ، من تَقليده أعمال أبيه ، والقَناعة منه فى الضّمان بمَيْسُور بَذْله ، وإيثاره به علىٰ مَنْ هو فوقَهُ من كُبَرَاء إخْوته وأهْله .

---

(١) الزيادة من المختارات .

فلمـا بَلَغ هذه الحال، أَلَظَّ بالمال، وخاسَ بالعَهْد، وطَرَّق لفَسْخ العقد، وأجرىٰ إلىَّ أمورا كرِهْتُها، ونَفِدَ الصبرُ منّى عليها؛ وخِفْت أن أستمرَّ علىٰ الإغضاء عنها والمسامحة فيهـا، فيَطَّلِـعَ اللهُ منى علىٰ إضاعة الاحتياط فى أمرٍ قلّدنى أميرُ المؤمنين زِمامَهُ، وضَمَّننى دَرَكَه، وإرخاءِ لَبَبِ رجلٍ قَبِـل فى الاعتماد عليـه رأْيِى، وعَوَّل فى أخْذِه بما يلزَمُه علىٰ نَظَرى واستيفائى ـ فتناولته بأطراف العَذْل مُلَوِّحا، ثُمَّ بأثباجه مُفْصِحا مُصَرِّحا.

ورَسَمْتُ لعبـد أمير المؤمنين النـاصح أبى طاهر أن يُجِدَّ به وبوُسطائه وسُفَرائه فى حال، ويَدْخُلَ عليه من طريق المَشُورة والرِّفق فى أُخرىٰ، ويتَنَقَّلَ معه بين الخُشُونة التى يَقْفُو فيها أثَرِى، واللِّين الذى لايجوز أن يُحِسَّـه منى، تقديراً لانثنائه، وزوال التوائه؛ ففعل ذلك علىٰ رَسْمه فى التأنِّى لكلِّ فاسد حتّىٰ يَصْـلُح، ولكلِّ آب حتّىٰ يَسْـمَح؛ ولم يَدَعِ التناهِيَ فى وَعْظه، والتَّمـادِيَ فى نُصْحه وتعريفـه سُوءَ عاقبـة اللَّجَاج، ومَغَبَّـةِ الإحْراج؛ وهو يزيدُ طمعًا فى الأموال وشَرَهًا، وعَمًى فى الرأْيِ وعَمَهـا؛ إلىٰ أنْ كاد أمْرُنا معه يَخْرُج عن حدِّ الانتظار، إلىٰ حَدِّ الرضا بالإضْرار؛ فاستأنفتُ ادِّراع الحَزْم، وامتطاءَ العَزْم؛ ونهضتُ إلىٰ أعمـال المَوْصِـل وعِنْدى أنه يُغْنِينِى عن الإتمـام، ويتلقّانى بالإعتـاب وينقـادُ إلىٰ المُـراد، ويتجَنَّبُ طُرُقَ العنَـاد.

فحين عَرَفَ خَبَرَ مَسيرِى، وجِدِّى فيه وتَشْميرِى؛ بَرَزَ بُرُوزَ المخالف المكاشِف، وتجرّد تَجرُّدَ المُواقِع المُواقِف؛ وهو مع ذلك إذا ازدَدْتُ منه قُرْبا، ازداد منِّى رُعْبا؛ وإذا دَلَفْتُ إليه ذراعا، نَكَص عَنِّى باعا.

وتوافَتْ إلىٰ حضرتى وجوهُ القبائل من عُقَيْل وشَيْبانَ وغيرهما فى الجمع الكَثِيف من صَعَاليكهما ، والعــددِ الكثيرِ من صَنادِيدِهما ، داخلينَ فى الطاعة ، متصرِّفين فى عَوَارِض الخِدْمة .

فلما شارَفتُ الحَدِيثةَ ، آنتقضَتْ عزائمُ صَبْرِه ، وتقوّضَتْ دعائمُ أمْرِه ، وبطلَتْ أمانِيُّه ووَساوِسُه ، وآضمحلّت خَوَاطرُه وهوَاجِسُه ، وآضطربَ عليه من ثِقاتِه وغِلْمانه مَنْ كان بهم يَعْتَضِد ، وعليهم يعتَمِد ، وبدءُوا بخِذْلانه والأخْذِ لنُفُوسهم ، ومُفارقته والطَّلبِ بحظوظهم ، وحصَل منهــم بحضرتى إلىٰ هذه الغــايةِ زُهاءُ خمسمائة رجل ذَوِى خَيْلٍ مختارةٍ ، وأسْلِحة شاكِيَة ، فصادفُوا عندى ما أمَّلُوا من فائضِ الإحسان ، وغامرِ الآمْتنان ، وذكَرُوا عمَّن وراءَهم من نُظَرائهم التنزِّىَ إلىٰ الآنجذاب ، والحِرصَ علىٰ الآستِئْمان ، وأنهم يَرِدُون ولا يتأخَّرون ، ويُبادِرُون ولا يتلوَّمُون .

ولمَّــا رأىٰ ذلك ، لم يملك نَفْسَه أنْ مضىٰ هاربًا علىٰ طريقِ سِــنْجار ، منكشفا عن هذه الدِّيار ، قانعًا من تلكَ الآمالِ الخائبه ، والظُّنون الكاذبه ، بسلامة حُشاشةٍ هى رَهينةُ غَيِّها ، وصريعةُ بَغْيِها .

وكان آنهزامُه بعد أنْ فعل الفِعْلَ السَّخِيف ، وكادَنَا الكَيْدَ الضَّعِيف ، بأن أغرقَ سُفُن المَوْصِــل وعربَها[1] ، وأحْرقَ جَسْرها وآستَذَمّ[2] إلىٰ أهلها ، وتزوَّدَ منهم اللعْنَ المُطِيفَ به أين يَمَّم ، الكائنَ معه حيثُ خَيَّم .

ودخَلْتها يومى هــذا ـ أيَّد اللهُ أميرَ المؤمنــين ـ دُخولَ الغــانم الظافر ، المستَعْلِى الظاهر ، فسَكَنت نُفُوسَ سُكَّانها ، وشَرَحتُ صُدورَ قُطَّانها ، وأعلمتُهُم ما أمَرَنى

(١) نوع من السفن الرواكد كان فى دجلة ولكنه عبر عنها فى القاموس بالعربات . أى فواحدها عربة بالتحريك .

(٢) أى فعل ما يذم عليه .

به أميرُ المؤمنين ـ [أدام اللهُ عزَّه] وأعلىٰ الله أمره ـ من تأنيس وحشتهم، ونَظْم أُلْفتهم، وضَمِّ نَشْرِهم، ولَمِّ شَعَثهم؛ وإجمالِ السِّيرة فيهم فى ضُروب معامَلاتهم وعُلَقهم، وصُنُوف متصرَّفاتهم ومَعايِشهم؛ فكَثُر منهم الثناءُ والدعاءُ؛ والله سامعٌ ما رفَعُوا، ومُجيبٌ ما سألوا .

وأجلَتْ حالُ هـذا الجاهلِ ـ أيَّد اللهُ أميرَ المؤمنين ـ عن أقبَح هزيمه، وأذلِّ هَضيمه، وأسْوإ رأى، وأنكَر آختيار؛ لأنه لم يَلْقَنى لقاءَ الباخِع بالطاعه، المعتـذِر من سالِف التفريط والإضاعه؛ ولا لِقاءَ المصَدِّق لدَعْواه فى الآستقلال بالمُقارَعه، المحقِّق لزَعْمه فى الثبات للمُدافَعـه؛ ولا كان فى هذين الأمرين بالبَرِّ التقىّ، ولا الفاجِر الغَوىّ، بل جمع بين نَقيصةِ شِقاقِه وغَدْره، وفَضيحة جُبْنه وخَوَره؛ متنكِّبًا للصَّلاح، عادِلًا عن الصَّواب؛ قد ذهَب عنـه الرَّشاد، وضُرِبتْ بيْنَه وبيْنَه الأَسْداد، وأنزله اللهُ منزلةَ مِثْلِه ممَّن أساء حِفْظ الوَديعـه، وجِوارَ الصَّنيعه؛ وآستَوْجَبَ نَزْعَهما منه وتحويلَهما عنه .

وتأمَّلْتُ ـ أيَّد الله مولانا أميرَ المؤمنين ـ أمْرَه بالتَّجْريب، وتصفَّحْتُهُ علىٰ التقليب؛ فإذا هو الرجلُ الذى أطاعَ أبُوه فيه هَوىٰ أمّه [1]، وعصىٰ دَواعِىَ رَأْيِه وحَزْمه؛ وقدَّمَهُ من وَلَدِه علىٰ مَنْ هو آنَسُ رُشْدا، وأكبرُ سِنًّا، وأثبت جأْشا، وأجرأُ جَنانا؛ وأشجَعُ قَلْبا، وأوسَعُ صَدْرا؛ وأجدَرُ بمَخايِل النَّجابه، وشمائل اللَّبابه .

فلما آجتمعَتْ له أسبابُ القُدْرة والثَّروه، وأمكنَتْه مَناهِزُ الغِرّة والفُرْصه، وثَب عليه وَثْبةَ السِّرْحان، فى ثُلَّة الضَّأن؛ وجَزاه جَزاءَ أمِّ عامرٍ لمُجيرها، إذ فَرَتْه بأنيابِهـا وأظافيرِها؛ وآجتمَع [هو] وأخوه من الأمّ، المرتضِع معـه لِبَانَ الإثم؛ المُكَنَّى

(١) هى فاطمة بنت أحمد الكردية وكانت مالكة أمر ناصر الدولة . من هامش مختارات الصابى المطبوعة .

أبا البركات ـ وليس بأب لهـا ، ولا حرِىٌّ بشىء منها ـ على أن نشزا عنه وعقّاه ، وقبضا عليه وأوثقاه ، وأقرّاه من قلعتهما بحيث تقرّ العُتاه (١) ، وتُعاقب الجُناه ؛ ثم أتبعا ذلك باستحلال دمه ، وإفاضة مُهجته ، غير راعيين فيه حقّ الأبُوّه ، ولاحانيين عليه حُنُوّ البُنُوّه ؛ ولا متذمّمين من الإقدام على مثله ممن تقدّمت عنـد سلطانه قدمُه ، وتوكّدت أواصرُه وعِصَمُه ؛ ولا راحمين له من ضَعف شيخوخته ، وذَهَل كبرته ؛ ولامُصْغيين إلى وصيّة الله إيّاهما به ، التى نصّها فى محكم كتابه ؛ وكرّرها فى آيه وبيناته إذ يقول : ﴿ٱشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ وإذ يقول : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ .

فبأىّ وجهٍ يلقى الله قاتلُ والدٍ حَدِب قد أُمِر أن لا ينهره ؟ وبأىّ لسانٍ ينطق يوم يُسأل عمـا آستجازه فيـه وفعله ؟ وتالله ! لو أن بمكانه عدوّا لهما قد قارضهما الذُّحول ، وقارعهما عن النُّفوس ؛ لقبُح بهما أن يلؤُما ذلك اللُّؤم عنـد الظَّفر به ، وأن يركبا تلك الخُطّة الشّـنعاء فى الأخذ بناصيته ؛ ولم يرضَ « فضـلُ الله » بمـا أتاه إليه حتّى آسـتوفى حُدودَ قطع الرِّحم ، بأن تتبّع أكابرَ إخوته السالكين خلافَ

---

(١) فى سـنة ست وخمسين وثلثمائة قبض أبو تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان على أبيه وحبسه فى قلعة وذلك لأنه كان قد بلغ من الكبر عتيا وساءت أخلاقه وضيق على أولاده وخالفهم فى أهوائهم فضجروا منـه وكان من جملة ما خالفهم فيه أنه عند وفاة معز الدولة وولاية ابنه بختيار عزموا على قصد العراق فنعهم قائلا ان معزالدولة قد خلف اولده من المـال ما يمكن معه من الظهور فاصبروا حتى يتفرق ماله فوثب عليه أبو تغلب ووضعه فى محبس فغضب بعض اخوته ووقع الخلاف بينهم وانتشر أمرهم . وكان ناصر الدولة يستنصر بابنه حمدان على أبى تغلب وأبى بركات فنقلاه الى قلعة كواشى وتوفى فى الاعتقال فى ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلثمائة اهـ من هامش المختارات المطبوعة .

سَبِيله ، المتبرِّئين إلىٰ الله من عظيم ما ٱكتَسَب ، ووَخيم ما ٱحتَقَب ؛ لَمَّا غَضِبوا لأبيهم ، وٱمتعَضُوا من المستَحِلّ فيه وفيهم : فقبض علىٰ محمدِ بن ناصر الدولة حيلةً وغيلة ، وغَدْرا ومَكيدة ؛ ونابَذَ حَمْدانَ بنَ ناصر الدولة مُنابذةً خار اللهُ له فيها ، بأن أصاره من فِنَاءِ أمير المؤمنين إلىٰ الجانب العزيز ، والحِرْز الحَرِيز ؛ وأن أجْرىٰ اللهُ علىٰ يده الحربَ الواقعةَ بينه وبين المَعْروف بكُنْيته أبي البَرَكات ، التى لَقَّاه الله فيها نَحْسه ، وأتلَف نَفْسه ؛ وصَرَعه بعُقُوقه وبَغْيه ، وقَنَّعه بعاره وخِزْيه ؛ وهو مع ذلك لا يتَّعِظ ، ولا يَنْزِع ولا يُقْلِعُ ولا يَزْدَجِر ؛ إصرارًا علىٰ الجَرائر التى اللهُ عنها حسيبُه ، وبها طليبُه ؛ والدُّنيا والآخرة مُرْصَدَتان له بالجزاء المحقُوق عليه ، والعقابِ المَسُوق إليه .

وأعظمُ من هذا كلِّه ـ أيد الله أمير المؤمنين ـ خَطْبا ، وأوْعَرُ مَسْلَكا ولَحْبا ، أنَّ من شرائطِ العَهْد الذى كان عُهِد إليه ، والعَقْد الذى عُقِد له ؛ والضَّمانِ المُخَفَّفِ مبْلَغُه عنه ، المأخوذِ عَفْوُه منه ؛ أن يَتَناهىٰ فى ضَبْط الثغور وجِهادِ الرُّوم وحِفْظ الأطراف ، ورَمِّ الأكْناف ؛ فما وَفىٰ بشيء من ذلك ، بل عدَلَ عنه إلىٰ الاستئثار بالأموال وٱقتطاعِها ، وإحرازِها فى مَكامِنِها وقِلَاعها ؛ والضَّنِّ بها دُونَ الإخراج فى وُجُوهها ، والوَضْع لها فى حُقُوقها ؛ وأنْ تراخىٰ فى أمرِ عِظَيم الرُّوم مُهْملا ، وٱطَّرَح الفِكْر فيه مُغْفِلا ؛ حتّىٰ هَجَم فى الديار ، وأثَّر الآثار ؛ ونَكَىٰ القلوب ، وأبْكىٰ العُيون ؛ وصَدَع الأكباد ، وأحَرَّ الصُّدور ؛ فما كان عنده فيه ما يكون عند المسلم القارئ لكتاب الله إذ يقول : ﴿إنَّ اللهَ ٱشْتَرىٰ مِنَ المُؤْمِنِينَ أنْفُسَهُمْ وأمْوالَهُمْ بِأنَّ لهم الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فى سَبِيلِ اللهِ فيَقْتُلُونَ ويُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْراةِ والإنْجِيلِ والقُرْءانِ ومَنْ أوْفىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وذٰلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ بل صَدَف عن ذِكْرِ الله لاهيا ، وعَدَل عن كِتابِه ساهيا ؛ وٱستفسَخَه ذلك البَيْعَ والعَقْد ، وتنجّزه الوَعيدَ لا الوَعْد ، ولاطَف طاغيــةَ الرُّوم وهاداه ، ومارَهُ وأعْطاه ؛ وصانَعه بمـال

المسلمين الذى يَلْزَمُه ــ إن سَلِم دينُه وصَحَّ يقينُه ــ أن يُنفِقَه فى مَرَابطهم، ويَذُبَّ به عن حَرِيمهم؛ لا أن يَعكِسَه عن جِهَته، ويَلْفِتَه عن وِجْهته؛ بالنَّقل إلى عَدُوِّهم، وإدْخال الوَهَن بذلك عليهم. وقادَ إليه من الخيل العِتاقِ ما هو الآنَ عونٌ للكُفْر على الإيمان، ونَجْدةٌ للطاغية على السُّلْطان؛ وكان فيما أتْحَفَه به الخمرُ التى حَظَر اللهُ عليه أن يَشرَبها ويَسْقِيَها، وتَعبَّده بأن يجتنبها ويَجْتَوِيها؛ وصُلْبانُ ذهبٍ صاغها لَهُ وتقرّبَ بها إليه تقرُّبًا قد باعدَه اللهُ فيه عن الإصابة والأصَاله، وأدْناه من الجَهالة والضَّلاله؛ حتّى كأنّهُ عاملٌ من عُمَّاله، أو بِطْريق من بَطَارقته.

فأمّا فشلُه عن مُكافحته، ولَهَجُه بمُلاطفته، فضدُّ الذى أمره الله به فى قوله تعالى: ﴿ يٰأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ ﴾.

وأما نَقْلُه ما نَقَل من الخيل من ديار المسلمين إلى ديار أعدائهم، فنقيضُ قوله عزّ وجلّ: ﴿وأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

وأما إهداؤه الخمرَ والصُّلْبان، فخلافٌ عليه تبارك اسمُه، إذ يقول: ﴿ إنَّمَا الخَمْرُ والمَيْسِرُ والأنْصَابُ والأزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

كلُّ ذلك عِنادًا لرب العالمين، وطَمْسًا لأعلام الدِّين؛ وضَنًّا بما يُحامِى عليه من ذلك الحُطَام، المجموعِ من الحَرَام، المثمَّر من الآثام؛ المقتَطَع من فَىْء الإسلام؛ وقد فعل الآنَ بى وبالعساكر التى مَعِى ومَنْ تَضُم من أولياء أمير المؤمنين الذين هُمْ إخوتُه وصَحْبُه ــ إن كان مؤمنا، وأنصاره وحزبه ــ إن كان مُوقِنا؛ من تَوْعِير المَسَالك وتَغْرِيق الدُّرُوب، وتَضْييق الأقوات، واستهلاك الأزواد؛ ليُوصِّل إلينا الضُّرّ، ويُلحِق بنا الجَهْد؛ فعلَ العَدُوّ المبين، المخالف فى الدِّين؛ فهل يجتمع

[في أحدٍ من المَسَاوِي ـ أيّد اللهُ أميرَ المؤمنين ـ ما اجتمع][1] في هذا النادّ العائد ، والشاذّ الشارد ؟ ، وهل يُطْمَع مِن مِثْله في حق يَقْضيه ، أو فَرْض يُؤَدِّيه ؛ أو عهد يَرْعاه ، أو ذِمام يحفَظُـه ؛ وهو لله عاص ، ولإمامه مخـالِفٌ ، ولِوالِدِه قاتِـل ، ولَرِحِمِه قاطِع ؟ كَلّا والله ! بل هو الحقيقُ بأن تُثْنَىٰ إليه الأعِنّه ، وتُشْرَعَ نحوَه الأسِنّه ؛ وتُنْصَب له الأرصاد ، وتُشْحَذ له السُّيوفُ الحِدَاد ؛ لِيَقْطع اللهُ بهـا دابِرَه ، ويَجُبّ غارِبَه ؛ ويَصْرَعه مَصْرَع الأثِيم المُلِيم ، المستحقِّ للعذاب الأليم ؛ أو يَفِيءَ إلىٰ الحق ، إفاءَة الداخِلِ فيه بعـدَ خُروجه ، العائِدِ إليه بعـد مُرُوقه ، التائِبِ المُنِيب ، النازِع المستَقيل ؛ فيكون حُكْمُه شبيهًا بحكم الراجع عن الرِّدّة ، المحمولِ علىٰ ظاهِرِ الشريعةِ ؛ واللهُ يهدِى مَنْ يشاءُ إلىٰ صراطٍ مستقيم .

فالحمـدُ لله الذى هدانا لمَراشدنا ، ووقَف بنا علىٰ السبيل المُنْجِية لنا ؛ والمَقَاصِد المُفْضِية إلىٰ رِضاه ، البعيدةِ من سَخَطه .

والحمـدُ لله الذى أعز أميرَ المؤمنين بالنصر ، وأعطاه لِواءَ القَهْر ؛ وجعلَ أولياءَه العالِين الظاهرين ، وأعداءه السافِلِين الهابطين ؛ وهَنّأه الله هذا الفتح ولا أخلاه من أشكالٍ له تَقْفُوه وتَتْبَعه ، وأمثالٍ تَتْلُوه وتَشْفَعه ؛ واصلًا فيها إلىٰ ماوصل فيه إليه من حِيازَتِه مُهَنّأً ؛ لم يُسْفَك فيه دَمٌ ، ولم يُنْتَهك محرم ، ولم يُنَلْ جَهْد ، ولم يَمْسَسْ نَصَب .

أنهيت إلىٰ أميرِ المؤمنين ذلك ، لِيُضِيفَ صُنعَ الله له فيه ، إلىٰ السالِفِ من عَوارِفِه عنـده وأيَادِيه ؛ وليجَدِّدَ من شكره جَلّ وعلا ما يكونُ داعيا إلىٰ الإدامة والمَزِيد ، مقتَضِيا للعَوْن والتأييد ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

[وكتب يوم الجمعة لتسع ليال خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وثلثمائة][2]

---

(١) الزيادة عن مختارات رسائل الصابي المطبوعة (ج ١ ص ٩١) وهي لازمة لانتظام الكلام .

(٢) الزيادة من مختارات رسائل الصابي .

الأســــلوب الثـانى

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ «كتابى للخليفة والحال على كذا وكذا» ويُدْعى للخليفة
بطول البقاء فى أثناء ذلك ، ويعبِّر الملِكُ المكتوب عنه عن نفسه
بلفظ الإفراد مع التصدير بالعُبودية، ويخاطَبُ الخليفة
بأمير المؤمنين ويُخْتَمُ بالدعاء ونحوه)

كما كتب أبو الفَرَج البَبَّغا عن السلطان أبى تَغْلِبَ بن ناصر الدَّولة أحدِ ملوك بنى حَمْـدان بحَلَب وما معها ، جواباً للكتاب الواردِ عليـه من الطائع أو المُطيع بالكُنْية والخِلَع ماصُورته :

«كتابى ــ أطالَ اللهُ بقاءَ أميرِ المؤمنين ــ وعبدُ أميرِ المؤمنين مستديمٌ بشكرِ الله تعالىٰ مَدَدَ النِّعم المتظاهرةِ عليـه ، والمِنَح المتنـاصِرةِ لدَيْه ؛ بجميـل رأيه أدامَ الله عُلُوَّه وتقديمَه ــ معترفٌ بمـا طَوَّقَتْه به السعادةُ من عَوَارِف تَشْريفه ؛ متمسِّكٌ من الطاعة بمـا أحَلَّه كَنَفَ إحسانه، متوصِّلٌ بالطَّرَف إلىٰ الاْستِزادة من طَوْله وامتنانِه .

والحمدُ لله ربِّ العالمين ، وصلَّى الله علىٰ سيد المرسلين، محمدٍ وآله الطاهرين .

ووصـل كتابُ أميرِ المؤمنين ــ أدامَ الله نَصْره ــ مشتمِلًا علىٰ فوائد الإرشـاد والتوقيف ، مقْترِنا بخصائص التَّكْرِمة والتشريف ؛ فاقتدَيْتُ من أوامره ــ أعلاها الله تعالىٰ ! ــ بأهْدىٰ دَلِيل، وسلَكْتُ فى شُكْر ما اعتمَدَنِى من إيثاره أوضَحَ سَبِيل؛ وبَرَزْت لسائر مَنِ اختارنى ــ أيده الله ــ لسياسته من الخـاصَّة والعامّة فى الحُلَل الحالِيَة بسِمَات تشريفه وإكرامه، متدَرِّعا ثَوْبَىْ هَدْيه وسكينَته، ومختالًا منهما بين كَنَفَىْ دفاعه ومَعُونته ؛ ومتقلِّدا عَضْـبَه الذى هَزَّ النصرُ غِرَارَه ، وأطلق المَضَاءُ شِفَارَه؛

وعاليًا علىٰ عُنُق الزمان، بامتطاءِ ما حَبَانى به من الحملان، مسترِقَّ النية بالرَّغْبة إليه، ومستَخْدِمَ النُّطْق بالثناء عليه، ومقتَصًّا أثرَ أسلافى فى خِدْمته وخِدْمة آبائه المؤمنين، من الخلفاء الراشِدين، صلواتُ الله عليهم أجمعين، وآقتفاءِ مَذْهَبهم فى الذَّب عن فِئة الخلافة والمُراماة دُونَ المِلَّة، والآجتهادِ فى طاعة الأئمة .

فالحمدُ لله الذى جعل صنائعَ أمير المؤمنين مستقرّةً عند مَنْ يرتبِطُها بعَلائق الشكر، ويَحْرُسها بالتوفُّر علىٰ ما أفاد الإحمادَ وجميلَ الذِّكر، وأدامَ علوَّ أمير المؤمنين! وأيدنا بعزِّ دولته، وبَسَط بالتمكين قُدرتَه، وحَرَس من الغِيَر سلطانَه، وقَرَن بنَفَاذ الأمر يَدَه ولسانَه، ولا أخْلاه من ولىٍّ ينشيه ويصْنَعه، وشكُورٍ يُعليه ويرفَعُه، وعَزْم يَحْمَدُ أثرَه ويرتَضيه، ورأيٍ بالتوفيق يُبْرِمه ويُمْضيه . ووفَّقنى من القيام بحقوق خِدْمته، والتمسُّك بفرائض طاعته، والمعرفةِ بمواقع آصطِناعه وتفضُّله، والآعتدادِ بمَنْح إنعامه وتَطَوُّله، لمـا يستَزِيدُنى من أيَاديه وآلائه، ويحرُسُ علىّ مَكَانى من جميـل آرائه، إنه جواد كريم .

وقد آذنتُ مَنْ بَعُـد وقَرُبَ برفع أمير المؤمنين ــ أدام اللهُ بَسْطته ــ ذِكْرِى عن تعريفِ الآسم بنباهة الكُنْية، وإصـدار ذلك إلىٰ الأسمـاع من شَريف عبارته، والإذنِ فيه لسائر مَنْ يذكُرنى بحَضْرته، زادَ اللهُ فى جلالتها . وتقدّمتُ بإثبات ذلك علىٰ عُنْوانات الكُتُب آمتثالًا لأمره، وأخْذا بإذنه، ووقُوفا عند رَسْمه، عارفًا قدْرَ النعمة والمَوْهِبة فيـه . وآعتددْتُ بمـا أعلمنيه أميرُ المؤمنين من نيابةِ فلان عبده وما توخّاه من محمود السِّفارة، وحُسْن الوَسَاطة، ووجدتُ ما يجمعُنى وإيَّاه من الإخلاص فى ولاء أمير المؤمنين أقربَ الأنْسـاب، وأوكَدَ الأسـباب، فى تأكُّد الأُلْفة، وتثبيت قواعِدِ الطاعة، واللهُ يحرُسُ أمير المؤمنين فى كافَّة رعيته، وخاصَّـة أوليائه وصَنائع دولته، من آختلاف الآراء، وتشذُّب الأهواء، ويُعيننى من النُّهوض

بمفترَضات أياديه ، وواجبات مايُسْديه إلىّ ويُوليه ؛ [على] ماقرَّب منه وإليـه ، وأزلَف عنده ولَدَيْه ، بمنه ومَشيئته ، وحَوْله وقُوّته .

* * *

الحالة الثانية — من مكاتبات الملوك إلى خُلَفاء بنى العباس ما كان عليـه الأمرُ فى آخر دولتهم ببَغْداد .

والحال فيه مختلف : فتارةً يفتَتح بالدعاء للدّيوان العزيز، وتارةً بالدعاء لمـا يعُود عليه ، وتارةً بالصلاة ، وتارةً بالسلام . وربمـا آفتُتحت المكاتبةُ بآية من القرءان الكريم مناسبة للحال .

قال المقرّ الشّهابىّ بنُ فضـل الله فى كتابه "التعريف" : والصـدرُ نحو العبد أو المملوك أو الخادم يُقَبِّل الأرضَ، أو العتباتِ، أو مواطِئ المواقف أو غير ذلك . ويخاطب الخليفة فى أثناء الكتاب بالدّيوان العزيز، وبالمَواقف المقدّسة أو المشَرّفة، والأبواب الشريفة، والباب العزيز، والمقام الأشرف، والجانب الأعلى أوالشريف، وبأمير المؤمنين مجرّدةً عن سيدنا ومولانا ، ومرةً غير مجرّدةٍ مع مراعاة المناسَبه والتسديد والمقاربه . ويختم الكتاب تارةً بالدعاء، وتارةً بطالَع أو أنهى أو غيرهما مما فيه معنى الإنهاء .

قال : وآختُلِف فيا يخاطِبُ به المكتوب عنه عن نَفْسه : فكتب صلاحُ الدين آبن أيوب «الخادِم» وكتب بَنُوه والعادل أخُوه «المملوك» وكتب الكاملُ بن العادل « العبد » وجرى على هذا آبنُه الصالح . وكتب الناصرُ بن العزيز «أقلّ المماليك» وكتب الناصر داود «أقلّ العبيد»؛ وكان علاء الدين خوارزم شاه يكتب «الخادم المِطْواع» وتبعه على ذلك آبنُه جلالُ الدين ، وكانت أمُّ جلال الدين تكتب « الأَمَةُ الداعية » . هذا على شَمَم أُنُوف الخوارزمية وعُلُوّ شأنهم .

وعنوان هـذه المكاتبات على ٱختلافها « الديوانُ العزيز، العـالى ، المَوْلوىّ، السـيدىّ، النبوىّ ، الإمامىّ ، الفلانى (بلقب الخلافة) أدامَ الله أيّامَه، أو خلد الله أيامه، أو أدام الله سلطانه » على مُناسبة ما فى صَدْر الكتاب .

ثم هو على ستة أساليب :

الأسـلوب الأوّل

(أن تفتتح المكاتبة بالدعاء للديوان العزيز)

قال فى "التعريف" : والمرادُ بالديوان ديوانُ الإنشاء، لأنّ المكاتباتِ عنه صادرةٌ وإليـه واردةٌ . قال : وسبب مخاطَبتهـم بالديوان الخُضْعان عن مخاطبـة الخليفة نَفْسِـه ، ويكون الدعاء للدِّيوان بمـا فيه معنى دوام العِزّ والسلطان و بَسْط الظِّلّ وما أشـبه ذلك . مثل : أدام الله أيامَ الديوان العزيز، أو أدام اللهُ سـلطان الديوان العزيز، أو خلّد اللهُ أيام الديوان العزيز، أو خلّد الله سلطان الديوان العزيز، وأدام الله ظِلّ الديوان العزيز، وخَلّد الله ظل الديوان العزيز، و بَسَط اللهُ ظلّ الديوان العزيز، وما أشبه ذلك .

وهذه نسخةُ كتابٍ كتب به القاضى الفاضلُ عن السلطانِ «صلاح الدين يوسف آبن أيوب» صاحب الديار المصرية ، إلى الناصر لدين الله الخليفةِ يومئذ ببغداد ، بفَتْح القُدُس وما معه ، وٱقتلاع ذلك من أيْدى الفَرَنْج وإعادته إلى ما كان عليـه من الإسلام، وهى :

«أدام اللهُ أيامَ الديوانِ العزيز النبوىّ الناصرىّ ، ولا زال مظَفَّرَ الجَدّ بكلّ جاحد ، [غَنِيَّ][1] التوفيقِ عن رَأْى كلّ رائد، موقوفَ المَسَاعى على ٱقتنـاء مُطْلَقات

(١) بياض فى الاصول والتصحيح من رسائل القاضى الفاضل الفتوغرافية .

المَحامد، مستَيقِظَ النَّصر والسيفُ فى جَفْنِه راقِد، واردَ الجُود والسحابُ علىٰ الأرض غيرُ وارِد، متعدِّدَ مَسَاعِى الفضل وإنْ كان لا يُلْقِى إلا بشُكرٍ واحد، [ماضِىَ حُكْمِ القول بعزم لا يمضِى إلا بنَسْل غوِىٍّ ورَيْش راشد] (١) ولا زالتْ غُيوثُ فضله [إلىٰ الأولياء] (١) أنواءً إلىٰ المَرَابع وأنوارًا إلىٰ المساجد، وبُعُوث رُعْبه إلىٰ الأعداء خَيْلًا إلىٰ المَرَاقِب وخَيَالا إلىٰ المَرَاقد.

كتب الخادمُ هذه الخدمةَ تِلْوَماصدَر عنه مما كان يَجْرِى مَجْرىٰ التَّباشير بصُبْح هذه الخِدْمه، والعُنْوانِ لكتَاب وصف هذه النعمه؛ فإنها بَحْرٌ للأقلام فيه سَبْحٌ طويل، ولُطْفُ الحق للشُّكْر فيه عِبءٌ ثَقِيل، وبُشرىٰ للخواطر فى شَرْحِها مآرِب، ويُسْرىٰ للأسرار فى إظهارها مَسَارِب؛ ولله فى إعادة شُكْره رِضًا، وللنعمة الراهنة به دوامٌ لايُقال معه هذا مَضىٰ. وقد صارت أمورُ الإسلام إلىٰ أحسن مَصَايِرها، وآستَتَبَّتْ عقائدُ أهلِه علىٰ بصائرها؛ وتقلَّص ظلُّ رجاء الكافِرِ المبْسُوط، وصَدَق اللهُ أهلَ دينه فلمَّا وقع الشرط حَصَل المشرُوط؛ وكان الدِّين غريبًا فهو الآنَ فى وَطَنه، والفوزُ معروضا فقد بُذلت الأنفسُ فى ثَمَنه؛ وأَمِرَ أمرُ الحق وكان مستضْعَفا، وأُهِلَ رَبْعُه وكان قد عِيفَ حين عَفَا؛ [وجاء أمرُ الله وأُنُوف أهـل الشرك راغمه] (١) فأدْلِجَت السيوفُ إلىٰ الآجال وهى نائمه، وصَـدَق وعدُ الله فى إظهار دينـه علىٰ كلِّ دين، وآستطارتْ له أنوارٌ أبانَتْ أن الصباح عندها حِيان الحين؛ وآستردّ المسلمونَ تُراثا كان عنهم آبِقا، وظَفِرُوا يقظةً بما لم يُصَدِّقوا أنهم يظْفَرون به طَيْفًا علىٰ النَّأى طارِقا؛ وآستقرّتْ علىٰ الأعلىٰ أقدامُهم، وخفَقَتْ علىٰ الأقصىٰ أعلامُهم، وتلاقَتْ علىٰ الصَّخْرة قُبَلُهم، وشُفِيتْ بها وإن كانت صخرةً كما تُشْفىٰ بالماء غُلَلُهم.

---

(١) الزيادة من رسائل الفاضل الفوتوغرافية المحفوظة بدار الكتب الخديوية نمرة ٢٢٩٤ أدب ص٣٥.

ولمـا قَدِم الدينُ عليها عرف منها سُوَيْداءَ قلبه ، وهَنَّا كفؤُها الحجرُ الأسودُ بِبَتِّ عِصْمتِها من الكافر بحَرْبه ؛ وكان الخادم لايَسْعىٰ سعْيَه إلا لهذه العُظمىٰ ، ولا يُقاسى تلك البُؤسىٰ إلا رجاءَ هذه النُّعمىٰ ؛ ولا يُنَاجز من ٱستَمْطَله فى حَرْبه ، ولا يُعاتِب بأطراف القَنَا من تمَادىٰ فى عَتْبه ؛ إلا لتكونَ الكلمةُ مجموعه ، والدعوةُ إلىٰ سامعها مَرْفُوعه ؛ فتكون كلمـةُ الله هى العُلْيا ، وليفوز بجوهر الآخرةِ لا بالعَرَض الأدْنىٰ من الدنيا ؛ وكانت الألسنةُ ربمـا سَلَقَتْه فأنضَجَ قُلوبَها بالاحتقار ، وكانتِ الخواطرُ رُبَّمـا غلَتْ عليـه مَرَاجِلُها فأطفأها بالاحتمال والاصْطِبار ؛ ومَنْ طلب خطيراً خاطَرْ ، ومَنْ رام صَفْقةً رابحة تجاسَرْ ، ومَنْ سَمَا لأنْ يُجَلِّيَ غَمْرةً غامَرْ ؛ وإلا فإنَّ القُعُود يُلِين تحت نُيُوب الأعداء المَعـاجِمَ فتعَضُّها ، ويُضْعِف فى أيديها مَهْـــر القوائم فتقُضُّها ؛ هـــذا إلىٰ كَوْنِ القعُود لايَقْضِى فرضَ الله فى الجِهاد ، ولا يُرْعىٰ به حقُّ الله فى العباد ؛ ولا يُوفىٰ به واجبُ التقليد الذى تطوقَهُ الخـادمُ من أئمـــةٍ قضَوْا بالحقِّ وبه كانُوا يَعْدِلُون ، وخلفاءُ الله كانُوا فى مثل هذا اليوم لله يَسْألون ؛ لاجَرَمَ أنهم أوْرَثُوا سُرورَهُمْ وسَريرهم خَلَفَهُم الأطْهر ، ونَجْلَهم الأكبر ؛ وبَقِيَّتهم الشَّريفه ، وطَلْعتهم المُنيفه ، وعُلْوانَ صحيفة فضلِهم لاعَدِم سوادَ العِلْم وبياضَ الصَّحِيفه ؛ فما غابُوا لمَـا حضَر ، [ولا غَضُّوا][1] لمَّـا نَظَر ، بل وصلَهم الأجرُ لمـا كان به موصولا ، وشاطروه العملَ لمـا كان عنه منقولاً ومنه مقبولا ؛ وخَلَص إليهم إلىٰ المضاجع ما ٱطمأنَّتْ بِه جُنُوبهـا [وإلىٰ الصفائح ماعَبِقَتْ به جُيُوبها][1] وفاز منها بذِكْر لايَزَالُ الليلُ به سَمِيرا ، والنهارُ به بَصيرا ؛ والشرقُ يهتَـدِى بأنْواره ، بل إن أبدىٰ نُورا من ذاته هتَف به الغَرْبُ بأنْ وارِهْ ؛ فإنَّه نور لاتُكِنُّه أغساق السُّدَف ، وذكر لاتُوارِيه أوراقُ الصُّحُف .

(١) الزيادة من رسائل الفاضل الفوتوغرافية المحفوظة بدار الكتب الخديوية نمرة ٢٢٩٤ أدب ص٣٥ . وهى لازمة كما لايخفى .

وكتابُ الخادم هذا وقد أظفَر الله بالعَدُوّ الذى تشظَّت قَناتُه شَقَقا ، وطارتْ فِرَقُه فَرَقا ، وفُلَّ سيفُه فصارَ عصا ، وصُدِعتْ حَصَاتُه وكان الأكثر عَدَدًا وحصا ، فكَلَّت حمَلاتُه وكانت قدرةُ الله تُصَرِّفُ فيه العِنَان بالعِيان ، عقوبةً من الله ليس لصاحب يَدٍ بها يَدَان ؛ وعَثَرتْ قدَمُه وكانت الأرض لها حَليفه ، وغُضَّت عينُه وكانتْ عُيونُ السيوف دونها كَسيفه ؛ ونام جَفْنُ سيفه وكانت يَقَظَتُه تُرِيق نُطَف الكرىٰ من الجُفُون ، وجُدِعتْ أُنُوفُ رِمَاحه وطالَمَا كانت شامخةً بالمُنىٰ أو راعِفَةً بالمَنُون ؛ وأضحتِ الأرضُ المقدّسةُ الطاهرةَ وكانت الطامثْ ، والربُّ المعبودُ الواحدَ وكان عنـدهم الثالثْ ؛ فبيوتُ الشِّرْك مَهْدُومه ، ونُيُوب الكُفْر مهْتُومه ؛ وطوائفُه الحاميه ، مجتمعةً علىٰ تسليم البلاد الحامِيَه ، وشُجعانُه المتوافيه ، مُذْعنةً ببذل المَطَامـع الوافيَه ؛ لا يَرَوْن فى ماء الحَديد لهم عُصْره ، ولا فى فِنَـاء الأفْنِيَةِ لهم نُصْره ؛ وقد ضُرِبَتْ عليهم الذِّلَّة والمَسْـكنه ، وبَدَّل اللهُ مكانَ السيئةِ الحَسَـنه ، ونَقَل بيتَ عبادته من أيدى أصحابِ المَشْأمة إلىٰ أيدى أصحاب المَيْمَنه .

وقد كان الخـادمُ لَقِيَهُـم اللِّقاءَ الأُولىٰ فأمدّه اللهُ بمداركته ، وأنْجَده بملائكته ؛ فكسرهُمْ كَسْرةً ما بعدها جَبْر ، وصَرَعهُـمْ صَرْعةً لا يَعِيش معها بمشيئة الله كُفْر ؛ وأسَرَ منهم من أُسِرَتْ به السَّـلاسِل ، وقَتَـل منهم من فَتَكتْ به المَنَاصِلُ ؛ وأجْلَتِ المعركةُ عن صَرْعىٰ من الخيل والسِّـلاح [والكُفّار ، وعن أنصاف خيـل فانه قتلَهم بالسـيوف الأفلاق والرِّماح الأكسار ، فنِيـلُوا بثار من السـلاح ونالُوه أيضا بثـار](1) ؛ فكم أهِـلَّةِ سيوف تقارضن الضِّرابَ بهـا حتّى عادتْ كالعَرَاجين ، وكَمْ أنْجُم رماحٍ تبـادلَتِ الطِّعانَ حتّى صارتْ كالمَطَامِين ؛ وكم فارسـيَّةٍ رَكَضَ عليها فارِسُها السَّهمَ إلىٰ اجلٍ فاختَلَسه ، وفَغَرتْ تلك القوسُ فاهَا فإذا فُوها قدنهش القِرْنَ

(١) الزيادة من رسائل القاضل الفتوغرافية .

علىٰ بُعْد المسافة فافترَسَه ؛ وكان اليومُ مشهودا ، وكانتِ الملائكةُ شُهودا ؛ وكان الكُفرُ مفقودا ، والإسلام مولودا ، وجعل اللهُ ضلوعَ الكُفَّار لنار جهنَّمَ وَقُودا ؛ وأُسِر الملكُ وبيدِه أوثقُ وثائقِه ، وآكدُ وَصْلِه بالدِّين وعلائقه : وهو صَليبُ الصَّلَبوت ، وقائدُ أهل الجَبَرُوت ؛ وما دُهِمُوا قطُّ بأمرٍ إلا وقام بين دهائهم يَبْسُط لهم باعَهْ ، ويحرِّضُهم وكان مدُّ اليدين فى هـذه الدَّفْعة وَدَاعه ؛ لا جَرَمَ أنهم تهـافَتَ علىٰ نارهم فَرَاشُهم ، وتجمَّعَ فى ظِلِّ ظَلامه خَشاشُهم ؛ فيقاتلون تحت ذلك الصَّـليب أصلَبَ قتال وأصـدَقَه ، ويَرَوْنه ميثاقاً يَبْنُون عليه أشدَّ عَقْدٍ وأوثَقَه ؛ ويَعُدّونه سُورا تَحْفِرُ حوافرُ الخيل خَنْدَقَه .

وفى هذا اليوم أُسِرتْ سَرَاتُهم ، وذهبَتْ دُهاتُهم ؛ ولم يُفْلِتْ معروفٌ إلا القَوْمص وكان لَعَنه الله مليًّا يومَ الظَّفَر بالقتال ، ويومَ الخِذْلان بالاْحتيال ؛ فنَجَا ولكن كَيْف ، وطار خَوْفا من أن يلحقه مِنْسَر الرُّمْح وجَناحُ السَّيْف ، ثم أخذه اللهُ بعد أيَّام بيـده ، وأهلَكه لَمْوعده ؛ فكان لِعدّتهم فَذَالك ، وآنتقَل من مَلَك الموتِ إلىٰ مالكْ .

وبعد الكَسْرةِ مرَّ الخادمُ علىٰ البِلَاد فطَوَاها بما نَشَر عليها من الراية العبَّاسيَّة السوداءِ صِبْغا ، البيضاءِ صُـنْعا ، الخافقةِ هى وقلوبُ أعدائها ، الغالبةِ هى [وعزائمُ أوليائها](1) المستضاءِ بأنوارها إذا فتح عَيْنَها البِشْر ، وأشارتْ بأنامل العَـذَبات إلىٰ وجه النَّصْر ؛ فافتتح بَلَد كذا وكذا وهـذه أمصارٌ ومُدُن ، وقد تسـمَّى البلاد بلادا وهى مَزارِعُ وفُدُن ؛ وكلُّ هذه ذواتُ مَعاقِلَ ومَعاقِر ، وبحارٍ وجَزَائر ، وجَوامِعَ ومَنابِر ، وجُمُوعٍ وعساكِر ؛ يتجاوزها الخادمُ بعد أن يُحْرِزَها ، ويتركُها وراءَه بعد أن يَنْتَهِزَها ؛ ويَحْصُدَ منها كُفْرا ويَزْرعَ إيمانا ، ويَحُطَّ من منائرجوامعِها صُلْبانا ويَرفَعَ أذانا ، ويُبَدِّلَ المَذَابِح

(١) الزيادة من رسائل الفاضل .

منابرٍ والكنائسَ مساجِد، ويُبوِّئَ بعد أهل الصُّلْبان أهلَ القرءان للذَّبِّ عن دينِ الله مَقاعِدْ؛ ويُقِرّ عينَه وعيونَ أهل الإسلام أن تَعَلَّق النصرُ منه ومن عسكره بجار ومَجْرور، وأن ظَفِر بكل سُورٍ ما كان يُخاف زِلزالُه وزِيالُه إلى يوم النَّفخ فى الصُّور. ولما لم يبقَ إلا القدسُ وقد اجتمع إليها كلُّ شريد منهم وطَريد، واعتصم بمَنَعَتِها كلُّ قريب منهم وبَعيد، وظَنُّوا أنّها من الله مانِعتُهم، وأن كنيستَها إلى الله شافعتُهم؛ فلما نازلها الخادمُ رأى بلدًا كبِلاد، وجمعًا كيوم التَّناد، وعزائمَ قد تألَّفتْ وتألَّبت (١) على الموت فنزلَتْ بعَرْصته، وهان عليها موردُ السيف وأن تموت بغُصَّته؛ فزاول البلدَ من جانب فإذا أودِيَةٌ عميقَه، ولُجَج وَعْرةٌ غَريقه، وسُورٌ قد انعطفَ عَطْف السِّوار، وأبْرِجةٌ قد نزلَتْ مكانَ الواسطةِ من عِقْد الدار؛ فعدل إلى جهةٍ أُخرى كان للطامع عليها مُعرَّج، وللخيل فيها متوَلَّج؛ فنزل عليها، وأحاط بها وقرُب منها؛ وضُربت خَيْمتُه بحيثُ ينالُه السِّلاحُ بأطْرافه، ويزاحمُه السُّور بأكتافه؛ وقابلها ثم قاتلها، ونَزَلها ثم نازَلها؛ وبرزَ إليها ثم بارَزَها، وحاجَزَها ثم ناجَزَها؛ فضمَّها ضَمَّةً ارتقبَ بعدها الفَتْح، وصَدَع أهلَها فإذا هم لايَصْبِرُون على عُبُودية الحدّ عن عتق الصَّفْح؛ فراسلُوه ببَذْل قَطِيعة إلى مُدَّه، وقصَدُوا نَظرةً من شِدّة وانتظارًا لنَجْدَه؛ فعرَفَهم فى لَحْن القَوْل، وأجابهم بلسان الطَّوْل؛ وقدَّم المَنْجنيقاتِ التى تتولَّى عُقوباتِ الحُصونِ عِصِيُّها وحبالُها، وأوتَرلهم قِسِيَّها التى تَضْرِب فلا تُفارِقها سهامُها ولا يُفارِقُ سِهامَها نِصالُها؛ فصافَحتِ السُّورَ بأكفافه فإذا سَهْمُها فى ثنايا شُرُفاتِها سِواك، وقدَّم النصرُ نَسْرا من المَنْجنيقِ يُخْلِد إخلادَه إلى الأرض ويَعْلُو عُلُوَّه إلى السِّماك؛ فشَجَّ مَرادِعَ أبراجها، وأسمعَ صَوتَ عَجيجِها، ورفع مُثار عَجاجِها، فأخلى السُّور من السِّيارَه، والحَربَ من النَّظّاره؛ فأمكن النَّقّاب، أن يُسْفِر للحرب النِّقاب، وأن يُعيدَ

(١) كذا فى الرسائل أيضا بغير ذكر جواب لما الأولى وهو مفهوم من المقام .

الحجرَ إلىٰ سيرته من التُّراب ؛ فتقدّم إلىٰ الصَّخر فمضغ سَرْدَه ، بأنيابِ معْوله ، وحَلَّ عَقْده ، بضَرْبِه الأخرقِ الدالِّ علىٰ لَطَافة أنْمُله ، وأسمعَ الصخرةَ الشريفةَ حَنينَه واستغاثته إلىٰ أن كادت ترق لمُقَبِّله ؛ وتبرَّأ بعضُ الحجارة من بعض ، وأخذ الخرابُ عليها مَوْثقا فلَنْ تَبرحَ الأرض ؛ وفُتِحَ فى السور بابٌ سَدَّ من نجاتهم أبوابا ، وأخذ نقْبٌ فى حجره قال عنده الكافر : يالَيْتَنِي كُنْت تُرابا ؛ فحينئـذ يئس الكُفَّارُ من أصحاب الدُّور ، كما يئس الكُفَّار من أصحاب القُبُور ، وجاء أمرُ الله وغَرَّهم باللهِ الغَرُور .

وفى الحال خرج طاغيةُ كُفرهم وزِمامُ أمرهم آبن بارزان سائلا أن يُؤخَذَ البَلَدُ بالسِّلْم لا بالعَنوه ، وبالأمان لا بالسَّطوه ؛ وألقىٰ بيده إلىٰ التَّهْلُكه ، وعَلَاه ذُلُّ المَلَكة بعد عِزِّ المَلَكه ؛ وطرح جَبِينَه فى التُّراب وكان حينًا لا يتعاطاه طارِح ، وبذل مَبْلَغًا من القَطِيعة لا يطمَحُ إليه طَرْفُ آملٍ طامح ؛ وقال : ها هنا أُسارىٰ مؤمنون يتجاوزُون الألوف وقد تعاقد الفَرَنْج علىٰ أنهـم إن هُجِمت عليهم الدار ، وحَمَّلت الحربُ علىٰ ظهورهم الأوزار ؛ بُدِئ بهـم فعُجِّلوا ، وثُنِّى بنساء الفَرَنْج وأطفالهم فقُتِّـلوا ، ثم آستقتَلُوا بعـد ذلك فلم يُقْتَل خَصْم إلا بعد أن يَنْتَصِف ، ولم يُسَلَّ سيفٌ من يدٍ إلا بعد أن تنقطِع أو ينقَصِف ؛ وأشار الأمراءُ بالأَخْذ بالمَيْسُور ، من البلد المأسُور ؛ فإنه إن أُخِذ حَرْبا فلا بدّ أن تقْتحِم الرجالُ الأنجاد ، وتبْذُل أنفُسَها فى آخرِ أمرٍ قد نِيل من أوّله المُرَاد . وكانت الجراحُ فى العساكرقد تقدّم منها ما آعتقل الفَتَكات ، واعتاقَ الحَرَكات ، فقُبِل منهـم المبذُولُ عن يدٍ وهم صاغِرُون ، وآنصرف أهلُ الحرب عن قُدْرة وهم ظاهرُون ، وملك الإسـلامُ خِطَّةً كان عهدُه بها دِمْنةَ سُكَّان ، فخَدَمها الكُفْرُ إلىٰ أن صارَتْ روضةَ جنـان ؛ لا جرَمَ أن الله أخرجهم منها وأهبطَهم ، وأرضىٰ أهل الحقّ

وأسخطهم، فإنّهم ـ خذلهم الله ـ حَمَوْها بالأسَل والصِّفاح [وبَنَوْها بالعَمَد والصُّفّاح](١) وأودَعُوا الكنائس بها وبيوتَ الديوية والاستبارية منها كلّ غريبة من الرُّخام الذى يَطّرِد ماؤُه، ولا يُطّرَد لألاؤه، قد لَطُف الحديدُ فى تجزيعه، وتفنّن فى توشيعه، إلىٰ أنْ صار الحديدُ، الذى فيه بأس شديدٌ، كالذهب الذى فيه نَعيم عَتيد، فما ترىٰ إلا مقاعدَ [للرياض لها من بياض الترخيم رَقْراق ، وعمدا كالأشجار لها من التنبيت أوراق](١) .

وأوزع الخادمُ بَرَدّ الأقصىٰ إلىٰ عَهْدِه المعهود ، وأقام له من الأئمة من يُوفّيه وِرْدَه الموُرود، وأُقيمت الخطبةُ يوم الجمعة رابعَ شهر شعبان ، فكادتِ السمواتُ يتفطّرنَ للسُّجُوم لا للوُجُوم، والكواكبُ يَنْتثِرْنَ للطّرَب لا للرُّجُوم، ورُفعَتْ إلىٰ الله كلمةُ التوحيد وكانتْ طرائقُها مسدُودَه، وظهرَتْ قُبورُ الأنبياء وكانتْ بِيَنْهم بالنّجاسات مَكْدُوده، وأُقيمت الخمسُ وكان التثليث يُقْعِدها [وجَهَرت الألسن بالله أكبر وكان سِحْرُ الكفر يَعْقِدُها](١) وجُهِر باسم أمير المؤمنين فى قُطْبه الأقرب من المِنْبر، فرُحّب به ترحيبَ مَن بُرّ بمن بَرّ، وخَفَق عَلَماه فى حِفافيه، فلو طار به سُرورا لطار بجناحيه .

وكتاب الخادم وهو مُجِدّ فى آستفتاح بقيّة الثُّغور، وآستِشْراح ما ضاق بتمادى الحَرْب من الصُّدُور، فإنّ قُوىٰ العساكر قد آستُنْفِدتْ مواردُها، وأيّامَ الشتاء قد مَرَدَتْ موارِدُها ، والبلاد المأخوذةُ المشارُ إليها قد جاستِ العساكرُ خلالَها، ونَهَبَتْ ذخائرَها وأكَلَتْ غِلالَها . فهى بلاد تُرْفِد ولا تُسْتَرْفَد، وتُجِمّ ولا تستنفَد ، ويُنْفَق عليها ولا يُنْفَق منها، وتُجهّز الأساطيل لبحرها، وتقام المَرابِط لبرّها، ويُدْأب فى عمارة أسوارها ومَرَمّات معاقلها ؛ وكلّ مشقّة فهى بالإضافة إلىٰ نعمة الفتح

(١) الزيادة من نسخة الرسائل الفتوغرافية .

مُحْتَمَلة، وأطاعَ الفَرَنْجَ فيما بعدَ ذلك مذَاهِبُها غيرُ مُرْجِئة ولا مُعتَزِله، فلن يَدّعُوا دَعوة يرجُو الخادم من الله أنها لاتسمَع، ولن تزولَ أيديهم من أطواق البلاد حتّى تُقْطَع.

وهذه البشائر لهـا تفاصيلُ لا تكادُ من غير الألسنة تتشَخَّص، ولا بمـا سوى المشافهة تتلَخَّص. فلذلك نَفَّـذنا لسانا شارحا، ومبَشِّرا صادحا، ينشُر الخـبر على سياقته، ويَعرِض جيشَ المَسَرة من طَليعته إلى ساقته.

الأســـلوب الثـانى

(أن يفْتَتَح الكُتَّاب بالدعاء لغير الديوان بما فيه تعظيمُ الخليفة)

كما كتب القاضى الفاضلُ عن الملك الناصر «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلى ديوان الخلافة ببغداد.

أسـعدَ اللهُ عظماءَ الأملاك بالانتِساب إلى الخدمة الشريفة النبوية، وأوزَعَهُم ما أمَرَهم به من طاعتها. وخَلَّد مُلْكَ الديوان العزيز النبوىّ مادامتِ الأفلاكُ قائمه، والنُّجومُ ناجمـه، ونَقَع بغَمَائمها[(1)] غُلَلَ الآمال الحـائمه، وفَسّر بمكارمها حُلُمَ الأمانىِّ الحـالمه، ورَتَق بتـدبيراتها المعصومةِ فُتوقَ النُّوَب المتعاظمه، وأظهر على أيدى أوليـائها معجزاتِ نَصْرِها، وصَرَّفَ الأيّامَ والليالىَ بين المَرْضِيَّينِ لله نهيِها وأمْرِها، وأودَعَ بركاتِ السماء والأرض بمُودَعها ومستقَرِّها.

المملوك ــ وان كان قد يسَّر اللهُ له مذ أُطْلِقت عذَبةُ لسانه خدمةَ الدولة العباسية، فتفسح فى وَسِيع مآثِرِها، وتخيَّر من بديع جواهرها، وامتاح من نَمير زواجِرِها. فإنه لايعتذرُ عن الحَصر الذى اعتراه فى وَصْف المنعَم عليه به من الخطاب الشريف،

(١) أى الخدمة النبوية والمراد بها الخلافة.

الذى لولا أنّ عِصْمة الموالاة تُثَبِّتُ فُؤادَه الخافق، وتُسَدِّدُ لسانَهُ الناطق، لما تعاطى وَصْفَ ما أعطاه من كتابه المرقوم، وسبَقَ إليه من سَحَابه المركوم، فإنه مما يَنْشُفُ عنه الأَمَلُ ناكصا وهو كَسِير، وينْقلب دُونَه البصرُ خاسِئًا وهو حَسِير، إلا أن الإنعامَ الشريف يَبْدأ الأولياءَ بمالو وَكَلَهم إلى أمانيهم لتهيَّبت أن تتعاطى حظيته، ولو فوّضه إلى راحتهم لنكَلَتْ عن أن ترقَّ نَصيَّته، ولا غَرْوَ للسَّحاب أن يُصافح قَطْرُه الثَّرى، والفَجْرِ أن يُشْرِق نورُه على عين الكَرى والسُّرى .

فالحمدُ لله الذى قرّبَ على المملوك مَنَال الآمال، وثبّت حَصاةَ فؤاده لما لاتستقلُّ بحمله صُمُّ الجبال . ويستنيبُ عن جهر الشُّكر بسِرِّ الأدْعيه، ويقتصر على ما يُفْضِى به إلى المحاريب وإن لم يُقَصِّر عما يَقُصُّه فى الأنديه ؛ ويُطالِعُ بأن مملوك الخدْمة وابن مملوكها أخذ الكتابَ بقُوّه، وشمّر لخدمة أشرف خلافةٍ لأشرف نُبُوّه، وتلقّاه تلَقِّىَ أبيه الأوّلِ الكلمات ؛ ورأى إطْلاعَ الله لأمير المؤمنين على ما فى ضميره من طاعته إحدى المعجزات والكرامات، وسَمِع المشافهة خاشِعا متصدّعا، واشْتَمل عليها بفهمه ساميا طَرْفُه متطلّعا .

ولقد أشبَه هذا الكتابُ الكريم بَيْعةً أُخذتْ عليه، مدّ إليها يَدَه آخذا بكلتا يدَيْه . والمملوكِ يرجو بل يتحقّق أن هذا العبدَ المشارَ إليه سَيُوفِى على سابقه من عبيد الدولة العباسية فى الزمان، ويكون بمشيئة الله أسبقَ منهم بالإحسان .

وقد صدرَتْ خِدْمتان من جهته وبعدهما تصْدُر الخِدَم، ولا يألو جُهْدا فى الخدمتين مباشرًا بيده السيفَ ومستنيبا عنها القَلَم . وله نُصْرةٌ باقيةٌ فى الولاء وهو غَنِىٌّ بها عن النصير، وسريرةٌ باديةٌ فى الطاعة هو إليها أسكَنُ منها إلى كل مُشير . يعود المملوك إلى ما لا يزال يفتتحُ به الصلوات المفروضة، ويختتِمُ به الختمات المعروضه :

من الدعاء الصالح الذى [وان] أغنىٰ الله وليّه عنه فقد أحوج ذَوِى العقائد السليمةِ إليه : لأنه مُزَكٍّ لأعمالهم، بل متمِّمٌ لإسلامهم، وكيف لايَدْعُون لمن يُدْعَون به يوم يُدْعىٰ كلُّ أناس بإمامهم، فيقول : ـ جمع اللهُ لأمير المؤمنين طاعةَ خلقه ! ، وأذلَّ رقابَ الباطل سيفُ حقه ! ، وجعل اللهُ ما هو قبضـتُه فى الأخرىٰ قبضةَ أمير المؤمنين فى الأولىٰ ! من الأرض التى هى موطوءة كالسـموات العُلىٰ ، وأدام نِعَمه علىٰ هذه الأمة بإمامته، وأظهر كرامة نبيِّه عليه السلام بمـا يُظاهره من كرامته ، وعَجَّل لمن لا يقومُ بفرض ولايته إقامة قيامَتِه ، وردّ بسُيُوفه التى لا تُردُّ ما الإسلام ممطولٌ به من ظُلامته ، وأقام به مَنَاهِج الدِّين لأهله ، وأظهرَه بمظاهرَته علىٰ الدِّين كلِّه ، حتّىٰ يلقىٰ اللهَ وما خَلَّف فى الدنيا كافرا ، ولا ضميرًا إلا بالتوحيـد عامرا ، ولا بَلَدًا إلا وقد بات الإسلام به آهلا وقد أصبح منه الكفرُ داثرًا، إن شاء الله تعالىٰ .

الأســـلوب الثـالث

(أن يبدأ بآية من كتاب الله تعالىٰ تناسب الحال)

كما كتب القاضى الفاضل ، عن السـلطان « صلاح الدين يوسف بن أيوب » إلىٰ الخليفة المستضىء ببغداد ببشرىٰ بفتح بلد من بلاد النُّوبة والنُّصْرةِ عليها :

﴿ ولقَدْ كتَبْنَا فى الزَّبُورِ مِنْ بَعْـدِ الذِّكْرِ أنَّ الأرْضَ يرِثُها عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ ﴾ : ﴿ سلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيم ﴾ : ﴿ فَرَوْحٌ ورَيْحَانٌ وجَنَّةُ نَعِيم ﴾ . وصـلاةٌ يتبعها تسليم، وكأْسٌ مِزَاجُها تَسْنِيم . وذِكْرٌ من الله سبحانه فى الملإ الأعلىٰ ورحمةُ الله وبركاته معلومةٌ من النشأة الأولىٰ علىٰ مولانا الإمام « المستضىء بالله » المسـتضاءِ بأنواره ، المسـتضاف بداره ، الداعى إلىٰ الحقِّ وإلىٰ طريقٍ مستقيم ، الراعى للخَلْق كما يَرْعَىٰ

النسيم النَّسِيم، العامّ فضلُهُ ، التامّ عدلُهُ ، المطروقِ مَوْرِدُ فِنائه ، المصدوقِ فى مَوْرِد ثنائه، المحقوقِ من كل وَلِىٍّ بولائه، ٱبنِ السادة الغُرّ، والقادة الزُّهر، والذّادة الخُمْس، والشادةِ للحق على الأُسّ، سُقاةِ الكَوْثرِ وزمزمَ والسَّحاب، وولاةِ الموْسم والموْقف والكِتَاب، والموصولِ الأنساب [يومَ] إذا نُفِخ فى الصور فلا أنسابَ، والصابِرُون علىٰ حساب أنفُسِهم فهم الذين يُؤْتَوْنَ أجْرَهم بغير حِسَاب .

مملوكُ العَتَباتِ الشريفةِ وعبْدُها، ومن ٱشتمل علىٰ خاطره وَلَاؤُها ووُدُّها، وكانت المشاهدةُ لأنوارِهِ العليـةِ التى يَوَدُّها، ومَنْ يَقْرُن بفرض الله سبحانه فَرْضها، ويُسابِقُ بطاعته إلىٰ جنةٍ وصفها الله تعالىٰ بقوله ﴿وجَنَّةٍ عَرْضُها﴾ : يَلْثُم وجهَ تُرابها، ويرىٰ علىٰ بُعْد دارِهَا الأنوارَ التى تُرىٰ بهـا، ويقِفُ لَدَيْها وقُوفَ الخاضع ، ويَضَع أثقالَ الآثام عن ظهره منها بأشرف المَوَاضع للواضع، ويُخْبِتُ إليها إخباتَ الطائع الطائع، ويرجو فضْلَها رجاءَ الطامح الطامع . ولولا أنَّ الكِتَابَ حجابٌ بينه وبينَ المَهَابة التى تحُولُ بين المرءِ وقلبِه، والجلالةِ التى هو فى تعظيمها علىٰ نُورٍ من رَبِّه، لكان خاطِرُه فى قَبْضة الهَلَع أسيرا، ولا نقَلَبَ إليه البصَرُ خاسِئًا حَسِيرا ، ولكنَّ قلَمَه قد تَشَاجَع، أن كانَ لسانهُ عن الإبانةِ قد رَاجَع . فيقول :

إنَّ اللهَ قد رَفَع مِلّةَ الإسلام علىٰ المِلَل، وكَفَل نَصْرَها وكفىٰ ما كَفَل، وحمىٰ مُلْكَها وحَمَل ، وجعل لها الأرضَ فى أيْدى المخالِفِين وَدَائع ، ومكَّن يَدَه من أعناقهم فهى إمَّا تَعْقِد الأغلال أو تَصُوغ الصَّـنائع ، والحقُّ بها قائمُ العَمُود ، والسيفُ الكِفَايةُ لازِمُ الغُمُود، والبشائرُ تُمَسِّك الصَّـباح وتُخَلِّقُ الدُّجىٰ، والخيلُ علىٰ طُول ما تشتَمِل الوَحَا تنتَعِل الوَجىٰ، والأيامُ زاهره، والآياتُ باهره، وعِزّةُ أوليائها قاهره، وذِلّةُ أعدائها ظاهره ، وعناياتُ الله لَدَيْها متواليَـةٌ متظاهره . إذا تغرَّب ٱسْمُها يوما عن

منبرٍ أُعيـد إلىٰ وَطَنه غَدا ، وإذا أُوقِدَتْ نارُ فتنةٍ فى معصيتها أُوقِدَتْ فى طاعتهـا نارُ هُدىٰ .

وقد كان النيـلُ قِدْما قَرِتْ عن الفُرات أبناؤه ، وتحصَّنت غُلَل المؤمنين عنـه فلم يتغلْغَل إليها ماؤُه ، وكادتِ السماءُ لاتُعينه بمطَرِها ، والأرضُ لا تُوشِّيه بزَهرِها ، والأعناق قد تقاصرَ دُون الراجين بدو معصهـا (١) ، والقلوبُ قد لاذَتْ بأستار الجدار معضها (١) ، والأوثانُ منْصو به ، والآيات مغصو به ، والتِّيجان بغير أكفائها من الهامات مَعْصُو به ، والّذين أديانا ، والمذَكَّرون بالآياتِ يَخِرُّون عليها صُمًّا وعُمْيانا ، والعادلُونَ بالله قد وَطَّنوا ألسِـنَةً وصَرَّحوا عقائدَ ، والمعتدون قد أضَلُّوا فعالا وضَلُّوا مَقَاصِد ، وكراسِيُّ خلافةِ اللهِ قد أُلْقِيَ عليها أجسادٌ كانت تَقْعُد منها مَقَاعِد ، ومنابِرُ كلماتِ الله قد كاد كَيْدُهم يأتِى بُنْيانها من القواعد ، وجَرَتْ علىٰ بُنُوة النُّبوة أشدُّ نَبْوه ، وقَصُرَت الأيدى فلاحَدٌّ سَوْط ولاحدٌّ سَطْوه ، ثم قَسَتْ قُلُوبٌ ﴿ فهى كالحِجارةِ أو أشَدُّ قَسْوه ﴾ وغَرَّت الأيّامُ وما وعدت ، وأوردتِ الهمَّ وما أصـدَرَتْ ، وطغىٰ طُوفان الطُّغيان ولاعاصِمْ ، وسَمَا بناءُ البُهْتان ولاهادم ، وضاقتِ الصُّدُور ، ورحَلَتْ بغَليلِها إلىٰ القُبور ، وظُنَّ أن طيَّ دولتهـم معدُوقٌ بالنُّشُور ؛ حتّى إذا جَلّاها اللهُ لوقْتِها ، وأنجزَ جموعَ الضَّلال إلىٰ ميعاد شَتِّها ، وأراهم آيةَ مَعْدِلته ﴿ وما نُرِيهم مِنْ آيةٍ إلّا هِيَ أكْبَرُ مِنْ أُخْتِها ﴾ ﴿ وجاء الحَقُّ وظَهَر أمْرُ اللهِ وهم كارِهُونَ ﴾ : ﴿ وحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وباطِلٌ مَا كانُوا يَعْمَلُون ﴾ .

كانت نعمةً مِنَ اللهِ يَمُنُّها علىٰ الملوك أنِ انتجَبه من بينِ أهلِ أرضه ، وانتخَبَه لإقامة ماأمات الباطلُ من فَرْضه ، ويَسَّره لمـا يَسَّره من نُصْرة الحق وأهلِه ، وبَشَّره

(١) كذا فى الاصول بهذا الرسم ولم نعثر على هذه الرسالة فى الرسائل .

بما بَشَّره من لواء النصر ومَدَّ من ظِلّه ، وألهمه الهِمَّةَ التى آفترعَ منها بكرا ، ومنحه النُّصرة فما يستطيع العدوُّ صَرْفا ولا نَصرا . مكّنه من صَيَاصِيهم فحَلَّها ، ومن دِمَائهم فطَلَّها ، ومن سيوفهم فقَلَّها ، ومن أقدامهم فاستزلّها ، ومن مَنابِرِ دُعَاتهم فعجَّل تَداعِيَها ، ومن أنفُسِ أعدائهم فأكثر نَاعِيَها ، وأبرزَ الذين كُتِبَ عليهم القتلُ إلىٰ مَضاجعهم ، ويَسَّر الذين كُتب لهم العفوُ إلىٰ مَنَافِعهم ، وتَزَحْزَحَت المُلْك من تِيجانِهـا ، وفَضح علىٰ يده و بلسانه ما زوّرته من أنسابها ، وحاسبَها فأظهر زَيْفَ حِسَابها ، ونقلها من ظهور أسرَّتها إلىٰ بُطُون تُرابها ، وعمَدَ إلىٰ أهـل دَعْوتها الذين بَسَقُوا بُسُوق النخل فأعلاهم علىٰ جُذُوعِها ، وحملتْ قلوبُهم فُوقَ الحقد فأخرجها من أكمام طُلُوعِها ، فهل تَرىٰ لهم من باقيه ، أوتَسْمَعُ لهم من لاغيه ، أو تَجِدُ إليهـم من صاحيه ، فأصبحُوا لا تُرىٰ إلا مساكِنُهم أو مساكِينُهم ، وحُصِدوا حَصْد الحشيش ثم لا تُخافُ سُيُوفهم ولا سكاكِينُهم ، وآستُنْزِلوا من عقاب اللُّوح ، وسُجِنوا فى الهَمِّ من طول مُداوَمة عِقاب الرُّوح ؛ ثم تداركُوا إلىٰ الدَّرْك ، وآشتركُوا فى الشِّرْك ، وأقفرتْ منهم عِراص ، وزَهِدَتْ فيهم خَوَاص ، وعُلِم أنْ ليس لله غالِبٌ ، وأن ليس يفُوتُه طالِب ، وأنَّ المُلكَ لله وحده ، وأن الويْلَ لمن تجاوز أمْره وحَدَّه .

وكان المملوكُ ممن عَطّل من أوثانهم ، وأبْطلَ من أديانهم ، فائرًا بحسـنة ينظُر إلىٰ حسناتِ خليلِ الله صلّى الله عليه وسلم فى كَيْده الأصنام وتكسيرها ، وتضليله عابِدِيها وتكفيرِها . وعمد المملوك إلىٰ المحاضر فجمعَها ، وإلىٰ المنـابر فرفعَها ، والجمعةِ فأطاع من شرَعها ، وأسماءِ صَحابة رسول الله صلّى الله عليـه وسلم فوصَلها باسمه وما قطَعها ، وعمومته رضوانُ الله عليهم فتلاها له وآتّبعها ؛ وأشاد باسم أمير المؤمنين لتكون الصلاةُ جامعه ، والذِّكرىٰ شاملةً والإمامةُ للجماعة شارعه ، والهدايةُ للضَّلالة صارعه ، فعادتْ للملَّة أعياد ، وآخضَرَّت للمنبر أعواد ، وأُنجِز للأُمة ميعاد .

وبعد ذلك تحاشدتْ أولياء الذاهبين وتنادَتْ، وتساعتْ نحو مستقرّ الملوك وتعادَتْ ﴿وإذْ زَيَّن لهمُ الشَّيْطانُ أعمالَهمْ وقال لا غالِبَ لكُمُ اليوْمَ من النَّاسِ وإنِّى جارٌ لكُمْ فلمَّا تراءتِ الفِئتانِ نَكَصَ علىٰ عَقِبَيْهِ وقال إنِّى بَرِىءٌ منكُمْ﴾ وكانوا حميّةً حاميةً من بنى حامٍ كالجراد أرْجُلا ، إلا أنَّ الله أصلاها بنيرانه ، وكالماء مَدًّا إلا أنَّ الله أغرقها بطُوفانه ، وكالنمل لونًا وطُرُقا إلا أنَّ الله حطَمها بسُلَيْمانه ، مع مَنِ انضمَّ إليهم من ألفافٍ وأطرافٍ، وأوشابٍ وأوباش : من جُنديٍّ كسَبَه سيفُه ذُلَّه ، وطرَده عن مواقف الكِرام ومجالِّ الخِزْى أحلَّه ، ومن أرمنيٍّ كانوا يفزَعون إلىٰ نُصْرة نَصرانيّته، ويعتمِدُون منه علىٰ ابن معموديّته ، ومن عامّيّ أجابهم لفَرْط عَماه وتفريط عامّيّته ؛ فملأ العيونَ سوادُهم الأعظَم ، ووراءهم بأسُ اللهِ الذى لا يُرَدّ عمن أجْرَم، فأمطرتهم السيوفُ مطرا كانوا غُثاءً لسيوله الجوارف ، وعصفَتْ بهم الأعنّةُ عَصْفا كانوا هَباءً لهُوجِه العواصِف ؛ ﴿فظلَّتْ أعناقُهم لها خاضعين﴾ وعُوتبت الأنفُس والأرؤس ﴿فقالَتا أتَيْنا طائعين﴾ . وظلَّتْ قِحافُ بنى حامٍ تحتَ غِرْبان الفَلاَ غِرْبانا ، وشُوهدتْ ظُلُماتٌ بعضُها فوق بعضٍ أفعالا وألوانا ؛ وصفَتْ مواردُ السلطان من القَذىٰ ، وطَفِئ ذلك الفَحْمُ فلا يجِدُ النِّفاقُ بعده ما تتعلّق به الجُذىٰ، وبلغت الغاياتُ فى كَشْف كلِّ أذىً ، لا بضَرْب بموعدٍ يقال فيه إذا .

وكاتب المملوكُ ، واسمُ أمير المؤمنين قد كُتب سطرُه علىٰ جبين النقدين ، وسُمِع لفظُه من فَم المنبرين بالبلدين ، ومدّ كلُّ منبر يدا بل يدَيْن؛ فحين سمع الناسُ قالوا حقًّا ماقاله ذو اليدَيْن، وصارت تلك الأسماءُ دَبْرَ الآذان ووراءَ الظُّهور ، وحصّلت المحبَّةُ العباسية سِرًّا من أسرار القلوب إذا حُصِّل ما فى الصُّدُور، والخلائقُ مبايِعة متابعة وافيةٌ بعهده متوافيَة ، داخلون فى الحق أفواجا ، سالكون منه شِرْعة ومنهاجا .

والحمد لله الذى جعل أميرَ المؤمنين إماما لخلقه، ووارثا لأرضه ولم يَذَرْ فوق الأرض منازعًا لحقِّه، ولا مناهبا لأرضه ، وأرتجع له الحقَّ الذى كان نادّا، وردّ عليه الأَمْر الذى لم يكن له غيرُ الله رادّا ، وبلّغ كلَّ مؤمن من إعلاء كلمة الإيمان به ما كان له وَادّا، وأَخَذَ بيد أنتقامه مَنْ كان عن سبيله صادّا ، والإسلام قد استنار كنشأته، والزمان قد استدار كهيئته ، والحقُّ قد قَرَّ فى نِصَابه ، والأمر قد فَرَّ عن صَوَابه . فقد وفىٰ اللهُ القَرَار له بضمانه ، وأخذ بيده ما روىٰ عن أبن عمه صلّى الله عليه وسلم وأصفىٰ من لسانه .

فالحمدُ لله الذى صدَقَه وعْدَه، وأورثه الأرضَ وحْده ، وجدّدَ عُلاه وأعلى جَدّه، وأسعد نجمَه وأنجمَ سَعْده، ووعده نُجْحه وأنجحَ وَعْده، وأورده وَصْفه وأصفىٰ وِرْدَه.

المملوك ينتظر الأمثلةَ ليتَمثَّلها ، والأمانةَ ليتحمّلَها ، والتقليداتِ المطاعةَ ليتلُوَها ، والتشريفاتِ الشريفةَ ليَجْلُوَها، والسوادَ ليَجْلِيَ الحَلَكَ عن ضمائر المُبْطِلين، والسيفَ الحالِيَ لحُكْمِه فى رقاب المُعَطِّلين، وللآراءِ الشريفةِ فَصْل برهانِها، وفضلُ سلطانها ، وأمرِها الذى لا يَحْرُج حين يخرج عن عزِّ الملة وتوطيدِ بُنْيانها ، وعَزْمها الذى يَرْفَع حين يُرْفَع ظُلمةَ أدخانها . إن شاء الله تعالىٰ .

الأسلوب الرابع

(أن يبتدأ الكتابُ بالصلاة)

كما كتب القاضى الفاضل، عن الملك الناصر "صلاح الدين يوسف بن أيوب" إلىٰ الخليفة ببغدادَ ، فى البُشرىٰ بفتح بلدٍ من بلاد النُّوبة أيضا ، وانهزام مَلِكها بعساكره .

صلواتُ الله التى أعدّها لأوليــائه وذَخَرها ، وتحيّاتُه التى قَذَف بِشُهُبِها شيــاطينَ أعدائه ودَحَرها ، وبركاتُه التى دَعَا بها كلّ موحّد فأجاب ، وانقشع بها غَمامُ الغَمّ وظَلام الظُّلْم فانجاب عن أنجاب ، وزكاتُه التى هى للؤمنين سَكَن ، وسلامهُ الذى لا يعترى المُوقنين فى ترديده حَصَرٌ ولا لَكَن ــ علىٰ مولانا عاقدِ ألْوِيةِ الإيمان ، وصاحبِ دَوْر الزمان ، وساحبِ ذَيْل الإحسان ، وغالبِ حِزْب الشيطان ؛ الذى زَلْزَلتْ إمامتُه قَدَمَ الباطل ، وحلّت خلافتُــه ترائبَ الدّهْرِ العاطل ، واقتضَتْ سيوفُهُ ديونَ الدِّين من كل غريمٍ ماطل ، وأمضتْ غَرْبَ كل عزم للحقِّ مفلول وأطلعت غاربَ نَجْم كلِّ هُدًى آفل ، وشفَعَتْ يقَظاتُ استغفاره إلىٰ غافرِ ذَنْبِ كلِّ غافل ؛ وعلىٰ آبائه الغايةِ والمَفْزَع ، والمَلاذ فى وقتِ الفَزَع ، والقائمين بحقوق الله إذْ قعَد الناس ، والحاكمين بعَــدْل الله إذ عُدِم القِسْطاس ، والمستَضِيئين بأنوار الإلهــام الموروثة من الوَحْى إذا عَجَز الاقتباس ، والصابرين فى البأساءِ والضَّرَّاء وحينَ البــاس ؛ خُزّانِ الحِكَم ، وحُفّاظها ، ومَعانى النِّعَم ، وألفاظها ، وأعلامِ العُــلُوم المنشورةِ إلىٰ يوم القيامه ، وكالِئِى الشُّروح المنتَشِرة من كلا سديد الإمامه[(1)] ؛ ومن لا ينفُذُ سهم عمَلٍ إلا إذا شُحِذَ بموالاتهم ، ولا يتألّقُ صبْحُ هدايةٍ إلا إذا استَصْبَح السارى بدلَالاتهم .

المملوك يقبِّل الأرضَ بمَطَالع الشّرَف ومنَازِله ، ومرابع المَجْد ومعاقِله ؛ ومجالس الجُود ، ومَحَالّ السجود ؛ ومختَلَف أنبــاء الرحمة المنزّله ، ومَرْسىٰ أطواد البسيطة المتزلزِله ؛ ومفْتَرّ مبــاسم الإمامه ، ومَجَرّ مساحِب الكرامه ؛ ومكانِ جُنُوح أجنحة الملائك ، ومشــتَجَرِ مناسك المناسك ، حيثُ يدخُلون من كل بابٍ مسلِّمين ، ويتبعُهُم ملوكُ الأرض مستسلمين ؛ ومَشَاهد الإسلام كيومِ أنزل فيه الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ــ وينعقِد علىٰ الوِلَاية فأما غيره فله قوله : قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ ؛ ويناجيها

(١) كذا فى الأصول مضببا عليه وفى الضوء "المنتشرة بيد الامامة" .

بلسان جليّ الإخلاص الصادقُ عقيدتَه، وأنشط الولاءُ السابقُ عقيلتَه ؛ وأرهف الإيمانُ الناصحُ مَضارِبَه، وفَسّح المعتَقَد الناصحُ مذاهِبَه ؛فأعربَ عن خاطرٍ لم يَخْطُرْ فيه لغيرِ الولاء خَطْره، وقلبٍ أعانه علىٰ وُرُود الولاء [أن] صفاء المصافاة فيه فِطْره ــ ويخبر أنه ماوَهَنَ عمّا أوجبَتْه الالآؤه ولا وَهىٰ، ولا ٱنثَنىٰ عزمُه عن أن يقِف حيث أظلّتْ سِدرةُ المنتهىٰ ، ووضَحتِ الآياتُ لأُولى النُّهىٰ . والله سبحانه يزيل عنه فى شَرَف المُثُول عوائقَ القَدَر ومَوانِعَه، ويكشِفُ له عن قِنَاع الأنوارِالتى ليست همّتُه بمـا دُونَ نظرها قانِعه ــ وكان توجّه منصورًا بجيش دعائِه ، قَبْل جيش لِوائه ؛ وبعسكر إقباله، قبل عَسكَرِ قِتَاله ، وبِنِصَال سُلْطانه، قبل نِصَال أجفانِه ؛ لاجَرَمَ أنّ كتائبَ الرُّعْب سارتْ أمامَ الكتائب،وقواضبَ الحَذَر غُمِّضتْ فى جُفُونها عيونُ القَوَاضب ــ وسار أولياءُ أمير المؤمنين الذين تجَمّعوا من كلّ أُمّه، وتداعَوْا بلسان النِّعمه ، وتصرّفُوا بيــد الخِدْمه، وصالوا بسَيْف العَزْمه ؛ متواخِيةً نِيّاتُهم فى الإقدام ، متآلفةً طَوِيّاتهم فى طاعة الإمام ؛ كالبُنْيان المرصوص ٱنتظاما ، وكالغاب المُشْجِر أعلاما ؛ وكالنّهار الماتــع حديدًا وهّاجا، وكالليل الشامل عَجَاجا عَجّاجا ؛ وكالنهر المتدافِع أصحابا، وكالمُشْط المطَّرِد ٱصطِحابا ؛ والأرض ترجل برَجْلهم لما ترفعُه الحوافِرُ من غيومها، والسماءُ تنْزِل نُزولَهم لمـا تضعه الذّوابِلُ من نُجُومها ؛ فمـا ٱنتشرتْ رياضُها المُزْهِره، وغياضُهـا المُشْجِره، إلا دلّت علىٰ أنّ السّحاب الذى سَقَاهم كريم، والإنعامَ الذى غَمَرهم عَظِيم ، والدُّنيا التى وَسِعتْهم من عزمتهم تظْعَنُ وتُقِيم .

ولـمـا عَلِم العدوّ أنّ الخَطْب المظنونَ قد صَرّح خِطَابُه، والأملَ المخدُوع قد صَفِر وِطَابُه ؛ راسل ورأىٰ سلّ السُّيوف يُغْمِده، وماكَرَ وماكَرَّ لعلمه أنّ الحَتْف يَعْمِده، وٱندفع هارِبا هائبا، وخَضَع كائبا كاذِبا ؛ فمضى الملوكُ قُدُما، وحَمّله ظُلْمَه وقد خاب مَنْ حَمَل ظُلْما ؛ وأجابه بأنه إن وَطِئ البِساطَ برِجْله وإلا وَطِئه برأســه، وإن قدم

علىٰ المملوك بأمله وإلا أقدمه بيأسه، وإن لم يُظهر أثرَ التوبة وإلا أقام عليه الحَدَّ بسَكرة الموت من كأسه؛ فلم يَخرُج من مُراوغة تحتها مُغاوَره، ومُكاسَرة وراءها مُكاشَره؛ فاستخار الله فى طَلَبه، وانتهز فيه فُرصةَ شَغْل قَلْبِه بريبه، ولم يَغُرّه ماأُمْلِي له فى البلاد من تَقلُّبه؛ وسار ولم يزَلْ مقتحما، وتقدّم أوّلَ العسكر محتَسِدما؛ وإذا الدار قد ترحّل أهلُها منها فبانُوا، وظعنُوا عن ساحتها فكأنّهم ما كانُوا؛ ولم يبقَ إلا مَواقِدُ نيرانٍ رحلَتْ قلوبهُم بِضرامها، وأثافِيُّ دُهمٌ أعجلَتِ المهابةُ ماردَ سَغَبهم عن طعامها؛ وغِرْبانُ بيْنٍ كأنها فى الديار ما قُطِع من رءوس بَنِي حامِها، وعَوافِي طير كانت تنتَظِر من أشلائهم فِطرَ صِيامها؛ وعادتِ الرسلُ المنفَّذة لاقتفاء آثارهم وأداءِ أخبارهم؛ ذاكِرَةً أنهم لَبِسُوا الليل حِدَادا علىٰ النعمةِ التى خُلِعت، وغسَلُوا بمـاء الصبح أطماع نفسٍ كانتْ قد تطلعت؛ وأنهم طلَعُوا الأوعارَ أوعالاً والعِقابَ عِقْبانا، وكانُوا لمَهابط الأوديةِ سُيُولا ولأعالِي الشَّجر قُضْبانا ــ فرأىٰ المملوك أن الكتّابَ فيهم قد بَلَغَ أجلَه، والعزمَ منهم قد نال أمَلَه، والفَتْك بهم قد أعمل مُنْصُلَه؛ وأن سـيوفَ عساكر أمير المؤمنين متنزِّهةٌ أنْ تُرِيق إلا دماءَ أكفائها من الأبطال، وأن تَلْقَ إلا وُجوهَ أنظارِها من الرجال؛ وأن المذكورين نَمْلٌ حَطَمه سليمانُ عليه السلام وجنودُه، ورَمْل أطاره العاصفُ الذى يَسْحَفُه(١) ويَقُوده ــ وأصدر هذه الخدمةَ والبلادُ من معَرّتهم عاريه، والكلمةُ بانخفاضهم غاليةٌ عاليه، ويدُ الله علىٰ أعدائه عاديه، وأنفُسُ المَخاذيل فى وَثَاق مَهَابته العالية عانيَه ــ فرأىٰ المملوك أن يُرتِّب بعده الأميرَ فلانا ليبْذُل الأمانات، لسُوقةِ أهلِ البلاد ومُزارِعيها، ويفصل المحاكَماتِ، بين مُتابعي السلطنة ومُطاوِعيها، ويُفَسِّح مجالَ الإحسان لمُعاوِدِى المواطن ومُراجِعيها؛ فيَعْمُر من البلاد ماقد شَغَر، ويُشْعِر بالأَمَنةِ مَنْ لاشَعَر؛ فإنّ مُقَام المملوك ومَنْ معه من عساكر تمنَعُ الشمسَ من مَطْلَعِها،

(١) هو بالفاء من قولهم سحفت الريح السحاب اذا ذهبت به والقاف فى الأصول تصحيف .

وتردّ جِرْية البحر عن موقِعِها ؛ ممـا يَضُرّ بالغـلال ويَنْسِفها ، ويُجْحِف بالرّعايا ويُعْسِفها .

فالحمـد لله الذى جعل النصرَ لائذًا بأعطاف ٱعتزامه ، وأنامِلَ الرُّعب السائرِ إلىٰ الأعداء محرّكةً عَذَباتِ أعلامه ، والعساكِرَ المناضلةَ بسلاح ولائه ، تُغْنِى بأسمـائها عن مُرْهَفَاتها ، والكتائب المقاتلةَ بشعارِ عَلَائه ، تقرأ كُتُبَ النَّصر من حُماتها .

الأســـلوب الخامس

(أن يبتـــدأ الكتاب بالســـلام)

كما كتب القاضى الفاضل عن السلطان "صلاح الدين" أيضا ، يعتذر له عن تأخُّر الكتب ، ويذكر له خبرَ صاحب قُسْطَنْطِينِيّة وصاحب صِقِلّيّة من ملوك النصرانية من الروم والفَرَنْج :

سلامُ الله الأطيب ، وبركاتُه التى يستدرُّها الحُضَّر والغُيَّب ، وزكواتُه التى ترفع أولياءه إلىٰ الدَّرَج ، ونعمُه التى لم تجعَلْ علىٰ أهل طاعتـه فى الدين من حَرَج ـ علىٰ مولانا سـيِّد الخلق ، وسادّ الخَرْق ، ومسدِّد أهـل الحق ؛ ولابِس الشِّعار الأطهر سَوَادا ، ومستحق الطاعة التى أسعد اللهُ من خصَّه بها بدءا ومَعَادا ، ومولىٰ الأُمَّة الذى تَشابَه يومُ نَدَاه وبأسِـه إن رَكَض جُوداً أو جوادا ؛ وواحدِ الدهر الذى لا يُثَنّىٰ ، وإليه القلوب تُثْنىٰ ؛ ولا يقبَلُ الله جمعًا لا يكون لولائه جمعَ سلامةٍ لا جمعَ تكسير ، ولا ٱستقبالَ قبلةٍ ممن لاتكون محبّتُه فى قلبه تُقِيم وٱسمُه فى عمله إلىٰ الله يَسير ؛ مولانا أمير المؤمنين ؛ وعلىٰ آبائه المالِئى الأرض عَدْلا ، الملَاءِ أهلا وفَضْلا ، والضاربين فَيْصَلا والقائلين فَصْلا ، ومن تقول الجنةُ لأهلها بهم أهْلا ؛ المخصوصين بالعناية الإلٰهيّـه ،

الحاكمين فكُلُّ أمةٍ بطاعتهم مأمورةٌ وعن معصيتِهم منهيّة ، والمشَرّ فى الأساريرعلىٰ أسِرَّة الشرف فكم ملاَتِ البَهْوَ مناظِرُهم البهيّة .

المملوك يخدُم الحرمَ الشريفَ باحترامه، والفِناءَ الكريم بإعظامه، والبساطَ المقبَّل بطُول آستلامه، والسِّتْرَ الذى أسبلَهُ اللهُ علىٰ العباد بتحيّته وسلَامِه ؛ ويُنْهِى أنه آخِرُ الخَدَمِ عن أن ينتظم الأوقاتَ المتجدِّده، ويقتضب الحالاتِ المتجرِّده؛ والرُّسُلِ عن أن تَتوارَدَ دراكا ، وتَتَوالىٰ وِشَاكا؛ والإنهاءات عن أن تَثْبُت بالمقاماتِ الشريفةِ النبويه ، ومجالس العرض العليه ؛ ما آنتهتْ إليــه الأقدار، وما أفضىٰ إليه من كثير المَنَاجح وقَليلِ الأعذار ؛ فإنَّ أدب الأمالى عن المطالعــة كالصوم لا يُفَضُّ ختامُه، ولا يُحَلُّ نظامه؛ إلا بُعَيدَ يَطْلُع هلالُهُ مبشِّرا، ويُبَثُّ خبره فى الآفاق معطَّرا ؛ فلو أن متكلِّفا أفطر قبل مَوْعِده، وورد الماءَ قبل مَوْرِده؛ لكان مُفْسِدا لعَقْده، ناكثا لعَهْده .

كذلك المملوك أمســكَ حين كانت الأخبــارُ بجانبه مشتَبِهه ، والحقائقُ لديه غيرَ متوَجِّهه ؛ فإنَّ طاغيَتَى الكفرِ بقُسْطَنْطِينِيَّةَ وصِقِلِّية كانا قد أوقَدا للحرب نارا، ورَفَعا لهاأوزارا ،وآتخذا لها أُسطُولا جاريا وعَسْكرا جَرَّارا ،وتبارَيَا ولم يَزِداللهُ الظالمين إلاتَبَارا ؛ وكتبا إلىٰ الفَرَنْج بعد آنهزامهم بالنَّجْدة والنُّصْره ،وتضمَّنا لهم الخروجَ والكَرَّه ،ويَصِفان ما آستعدَّا به بمـا لايعبَّر عنه إلا بالكَثْره ؛ وآستطارت الشَّناعةُ وتداولتها الألْسُن ، وخرجَتْ من الأفواه حتّى لقد كادت تدخُل فيما رأته الأعيُن ؛ وورد إلىٰ المملوك رسولٌ من طاغيــةِ القسطنطِينِيَّة وهو أقدمُ ملوك النصرانية قدَما ، وأكثرُهم مالاً متَمىٰ ؛ فعرض عليه مُوادَعةً يكون بها عسكره مُودَعا ، ويكونله بهــا مَفْزَعا ، له ولصاحب صِقِلِّيَّة الذى زعم أنه أصلٌ للشرِّ يكونُ الشرمنه مُفَرَّعا؛ فلم يَـنْ ولم يُجِبْ إلىٰ السِّلْم ، ولم يَزَعْه أن عسكره خذله الله مُبَارٌ فى البَرِّ وفى اليَمّ ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الأسـلوب السادس

(أن تُفتتح المكاتبةُ بخطبـة مفتَتَحة بالحمـدُ لله)

وذلك يختصُّ بالفتوح وغيره مما حدث فيه نعمة ، وربما بُدئت بآية من كتاب الله ، كما كتب العمادُ الأصـفَهانِيُّ عن السلطان " صلاح الدين يوسف بن أيوب " إلىٰ الناصر لدين الله ببغدادَ بفتح القُدس :

﴿ ولقَدْ كَتَبْنَـا فى الزَّبُور مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أنَّ الأرْضَ يَرِثُها عِبادِىَ الصَّالِحُونَ﴾ .

الحمدُلله علىٰ ما أنجزَ من هذا الوَعْد ، علىٰ نُصْرته لهذا الدِّينِ الحنيف من قَبْلُ ومن بَعْد ، وعلىٰ أن أجرىٰ هذه الحسـنةَ التى ما آشتَمَلَ علىٰ شِبْهِها كِرامُ الصَّحائف ، ولم يُجادَلْ عن مثلها فى المواقف ؛ فى الأيام الإمامية الناصرية زادها الله غُرَرا وأوضاحا ، ووالى البشائرَ فيها بالفُتُوح غُدُوًا ورَوَاحا ؛ ومكّن سُيوفَها فى كلِّ مازِق ، من كل كافر ومارِق ، ولا أخلاها من سِـيرةٍ سَرِيَّة تجمع بين مصلحة مخلوقٍ وطاعةِ خالق ، وأطال أيدى أوليائها لتحمِىَ بالحقيقة حِمىٰ الحقائق ، وأنجزها الحَقّ وقذَفَ به علىٰ الباطل الزاهِق ، وملّكها هوادِىَ المغارِب ومرامِىَ المشارق ؛ ولا زالت آراؤها فى الظُّلمات مَصَابِح ، وسُيوفُها للبلاد مَفَاتِح ، وأطرافُ أسنّتها لدماء الأعداء نَوازح .

والحمدُ لله الذى نَصَر سلطانَ الديوان العزيز وأيّده ، وأظفر جُندهُ الغالبَ وأنجده ، وجَلَا به جلابيبَ الظلماء وجدّد جُدُده ؛ وجعل بَعد عُسرٍ يُسْرا ، وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا ، وهوّن الأمرَ الذى ما كان الإسلام يستطيع عليه صَبْرا ، وخُوطِب الدينُ بقوله : ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرىٰ﴾ : فالأُولىٰ فى عَصْر النبىّ صلّى الله عليه وسلم والصّحابه ، والأخرىٰ هذه التى عَتَق فيها من رِقِّ الكآبه ؛ فهو قد أصبحَ حُرًّا فالزمانُ كهيئته آستدار ، والحقُّ بمُهْجَته قد آستَنَار ؛ والكُفْر قد رَدّما كان عنده من

المُستَعار ، وغُسل ثوبُ الليل بمـا فَجَّر الفَجْرُ من أنهار النَّهار ؛ وأتى اللهُ بنيانَ الكُفْر من القَوَاعد ، وشفىٰ غليلَ صُدورِ المؤمنين برقْراق ماء المَوْرِدات البَوَارِد . أنزل ملائكةً لم تظْهر للعُيون اللَّاحِظـه ، ولم تخْفَ عن القُلُوب الحـافظه ؛ عَزَّت سِيمـا الإسلام بسوِّمها ، وترادَفَ نَصْره بمُرْدَفِها ، وأُخذتِ القُرىٰ وهى ظالمةٌ فترَىٰ مُتْرَفيها كأنْ لم تُؤْوَ فيها ؛ فكَمْ أقدَمَ بها حَيْزوم ، ورَكَضَ فاتَّبعه سَحابُ عَجَاجٍ مَرْكوم ، وضَرَب فإذا ضَرْبه كتابُ جِراحٍ مَرْقوم ؛ وإلا فإنَّ الحروب إنما عُقِدت سِجَالا ، وإنما جمعتْ رِجَالا ، وإنمـا دَعتْ خِفَافا وثِقَالا ؛ فإما سـيوفٌ تقاتِلُ سُـيُوفا ، أوزُحُوف تقاتِلُ زُحُوفا ؛ فيكون حدُّ الحديدِ بيدٍ مُذَكَّرا وبيد مؤنَّثا ، ويكون السيفُ فى اليَدِ الموحَّدة يُغْنِى بالضربة الموَحَّدة وفى اليـد المثَلَّثة لا يُغْنِى بالضَّرب مثَلَّثا ؛ وذلك أنه فى فِئتيْنِ الْتقَتَا ، وعدُوَّتين لغـير مودَّة اعتنَقَتَا . وإن هذه النُّصْرة إن زُوِيت عن ملائكةِ الله جُحِدتْ كراماتُهم ، وإن زُوِيتْ عن البَشَر فقـد عُرِفتْ قبلها مقاماتُهم ؛ فمـا كان سيفٌ يتَيقَّظ من جَفْنه قبل أن ينَبِّهه الصَّريخ ، ولا كان ضَرْب يُطير الهامَ قبل ضَرْبٍ يراه الناظر ويَسْمعه المُصِيخ ، فكم قَرْيةٍ كأنَّهـا هِجرةُ الموت وبها التاريخ ، وكَمْ طَعْنةٍ تَخِرّ لها هِضَابُ الحديد ولهـا شَمَارِيخ .

والحمدُ لله الذى أعاد الإسـلام جديدًا ثَوْبُه ، بعد أن كان جَدِيدًا(١) حبْلُه ، مُبيضًّا نَصْرُه ، مُخْضَرًّا نَصْلُه ، متَّسِعا فَضْله ، مجتمِعا شَمْلُه . والخادم يشْرَحُ من نبإ هذا الفتح العظيم ، والنصرِ الكرِيم ؛ مايَشْرح صُدورَ المؤمنين ، ويمْنَحُ الحُبور لكافَّة المسلمين ؛ ويُكَرِّر البُشْرىٰ بمـا أنعم اللهُ به ــ من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر

(١) أى مقطوعا قال الشاعر .

أبى حبى لسلمى أن يبيـدا * وأمسى حبلها خلقا جديدا

فـا فى الأصل والضوء من الحاء المهملة اهمـال من الناسخ .

إلىٰ يوم الخميس منسَلَخه ـ وتلك سبعُ ليال وثمانيةُ أيّام حُسُوما سَخّرها الله علىٰ الكُفّار ﴿فترىٰ القَوْمَ فِيهَا صَرْعىٰ كأنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيةٍ﴾ ورايتُها إلىٰ الإسلامِ ضاحكةٌ كما كانت من الكُفر باكيه ؛ فيومَ الخميس الأوّل فُتِحتْ طبَريّةٌ وفاض رِيُّ النصر من بُحَيْرتها ، وقضَتْ علىٰ جَسْرها الفَرَنْجُ فقضَت نَحْبَها بِحَيْرتِها ؛ وفى يوم الجمعة والسبت كُسِر الفَرَنْجُ الكسرة التى مالهم بعدَها قائمه ، وأخذ اللهُ أعداءه بأيْدى أوليائه أَخْذ القُرىٰ وهى ظالمه . وفى يوم الخميس منسلَخ الشهر فُتِحت عكّا بالأمان ، ورُفِعت بها أعلام الإيمان ؛ وهى أُمُّ البِلاد ، وأختُ إرمَ ذاتِ العِماد ؛ وقد أصبحت كأنْ لم تَغْنَ بالكفر وكأنْ لم تفتقر من الإسلام .

وقد أصدر هذه المطالعةَ وصليبُ الصَّلَبُوت مَأْسُور ، وقلبُ ملكِ الكُفر الأسيرِ جيشهُ المكسورُ مكسور ؛ والحديدُ الكافرُ الذى كان فى الكفر يَضْرِب وجهَ الإسلام ، قد صار حديدا مُسْلِما يُفَرِّق خُطُواتِ الكُفْر عن الأقدام ؛ وأنصارُ الصليب وكِبَاره ، وكلُّ مَن المعموديةُ عُمدتُه والدَّيْر دارُه ؛ قد أحاطت به يدُ القبضه ، وأُخِذَ رَهْنا فلا تُقْبَل فيه القناطير المقنْطَرةُ من الذهب والفِضّه ؛ وطَبريّةُ قد رُفِعتْ أعلامُ الإسلام عليها ، ونَكَصتْ من عكّا مِلّةُ الكفر علىٰ عَقِبَيْها ، وعَمَرت إلىٰ أن شهِدَتْ يومَ الإسلام وهو خيرُ يومَيْها ؛ بل ليس من أيام الكُفْر يوم فيه خَيْر ، وقد غُسِل عن بلاد الإسلام بدماء الشِّرْك ما كان يتخلَّلُها فلا ضَرَر ولا ضَيْر ؛ وقد صارت البِيَعُ مساجِدَهم بها مَنْ آمنَ بالله واليومِ الآخِر ، وصارت المَذابحُ مواقفَ لخُطباء المَنَابر ، واهتزَّتْ أرضُها لوقوف المسلمين فيها وطالَما ارتجَّت لمَواقف الكافر ؛ والبأسُ الإمامىّ الناصرىُّ قد أمضىٰ مِشْكاتَهُ علىٰ يَدِ الخادم حتّى بالدَّنِيّ فى الكنائس ، وإن عِزّ أوّل الإسلام بحطِّ تاجِ فارس ، فكم حطَّتْ سيوفُهُ فى هذا اليوم من تاجِ فارس .

فأما القتلى والأسارى فإنها تزيد على ثلاثين ألفا .

وأما فُرسان الديوية والاستبارية فقــد أمضى الله حُكمه فيهم وقَطَع بهم سيوفَ نار الجحيم ، ووصَّل الراحلَ منهم إلى الشقاء المُقيم ؛ وفتَك بافرنس كافِر الكُفَّار ، ومشيِّد النار ، مَنْ يدُه فى الإسلام كما كانت يدُ الكليم ؛ وافترَّت النُّصْرة عن ثَغْرِ عَكَّا بحمد الله الذى يسَّر فتحَها ، وتسلَّمتها الملةُ الإسلامية بالأمان وعَرَفتْ فى هذه الصَّفْقة ربحَهَا .

وأما طبريَّةُ فافترتْهــا يدُ الحربِ فأنهرت الحربُ جُرحَها .

فالحمدُ لله حمدًا لا تُضْرَب عليه الحدود ، ولا تُزكَّى بأزكى منه العُقُود ؛ وكأنه بالبيت المقدّس وقد دَنا الأقصى من أقصاه ، وبَلَّغ الله فيه الأمَلَ الذى علم أنْ يُحْصِيَه وأحاط بأجَلِّه وأقصاه ؛ لكلِّ أجلٍ كِتَاب ، وأجلُ العــدوّ هذه الكتائب الجامعه ، ولكلِّ عملٍ ثواب ، وثواب مَنْ هدى لطاعته جناتُ نعيمه الواسعه ؛ والله المشكورُ على ما وهب ، والمسئُول فى إدامة ما استَيْقظ من جَدِّ الإسلام وَهَبّ .

وقد توجهَ من جانبه الأميرُ رشــيدُ الدين دام تأييده فى إهداء هذه البُشرى نيابةً عن الخادم ، ووصفِ ما يَسَّره الله لأوليائه من العزائم . والبلادُ والمَعاقل التى فُتحتْ هى : « طَبَرِيَّةُ ، عَكَّا ، الناصرَة ، صَفُّوريَّةُ ، قَيْسارِيَّة ، نابُلُس ، حَيْفا ، مَعْلَيَا ، الفزله ، الطُّور ، الشَّقِيف ، وقلاعٌ بين هذه كثيرة . والوَلَدُ المظَفَّر تقىُّ الدين بصُور وحِصْن تِبْنِين . والأخُ العادل سيفُ الدين نصره الله قد أوفت (؟) بالوصول مِنْ عنده مَنْ عِنْدَه من العساكر فينزل فى طريقه على غَزَّة وعَسْقلان ، ويجهِّز مراكبَ الأسطول المنصور ويُكْثِر عَدَدها ، ويَسيرُها إلى ثغر عكَّا المحروس ويَشْحَنها بالرجال ويُوفِّر سلاحها وعُدَدَها ؛ والنهوض إلى القدس فهذا أوانُ فتحه ولقد دامَ عليه ليلُ الضَّلال ، وقد آنَ أنْ يستقِرَّ فيه الهُدى مشكورَ الإحسان ، إن شاء الله تعالى .

الجملة الثانية

(فى المكاتبات الخاصّة، إلى خلفاء بنى العباس)

قال أبو جعفر النحّاس : وقد يكاتَبُ الإمام بغير تصدير إذا لم يكن ذلك فى شىء من الأمور التى سبيلُها أن تُنْشأ الكتبُ بها من الدواوين . كما كتب القاسمُ بن عبدِ الله إلى المكتفِى مهنّئا له بالخِلَافة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والسلامُ عليك يا أميرَ المؤمنين ورحمةُ الله وبركاتُه ، وأسألُ اللهَ أن يعظّم بركةَ هذا الأمر على أمير المؤمنين وعلى الأمّة كافّة .

قال : والمستعمَلُ فى هذا الوقت فى مكاتبة الوزير الإمامَ :

أطال اللهُ بقاءَ أمير المؤمنين! وأعزّه وأيّده، وأتمّ نعمتَه عليه، وأدام كرامتَه له .

ثم قال : وربما استُحسنَتْ مكاتبة المرءوس إلى الرئيس على غير ترتيب الكتّاب . كما كتب إبراهيم بن أبى يحيى إلى بعض الخلفاء يعزّيه :

أما بعدُ فإنّ أحقّ من عَرَف حقّ الله عليه فيما أَخَذ منه، مَنْ عَظَّم حقّ الله عليه فيما أبقاه لَهُ، واعلم أنّ أجر الصابرين فيما يُصابونَ أعظَمُ من النّعمة عليهم فيما يُعافَوْن فيه .

الطرف الخامس

(فى المكاتبات الصادرة إلى الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية)

قد ذكر فى "موادّ البيان" أن المستعمَل فى دولتهم أن يقال بعد البسملة : أفضَلُ صلواتِ الله وبركاتِه، وأشرفُ رِضْوانِه وتحيّاته، على مولانا وسيدنا الإمام الفلانى أمير المؤمنين ، وعلى آبائِه الطاهرين ، وأبنائِه الأكرمين — إن كان له أبناء — فإن لم

يكن له أبناء قيل مكان الأكرمين : المنتظرين . ثم يقال بعد فضاء واسع : كتب عبد المَوْقِف النبوىّ خَلَّد الله مُلْكَه ، من مَقَرّ خِدْمته بناحية كذا ، وأمورُ ما عُدِق به ورُدّ إلىٰ نَظَره منتظمةٌ بسعادة مولانا أمير المؤمنين ـ صلواتُ الله عليه وعلىٰ جدّه ـ والحمدُ لله رب العالمين ، وصلّى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله الطاهرين وسَلَّم تسليما . ثم يقال : العبد يُنْهِى كذا وكذا ينص الأغراض التى بُنِى الكتابُ علىٰ إنهائها وشَرْح حالها . قال : فإن كان الكتاب مبنيًّا علىٰ المُطالَعة ببعض الأخبار ، قيل فى آخره بعد فضاء يسير : "أنهىٰ العبدُ ذلك ليستقرّ علمُه بالمَوْقِف الأشرف" إن شاء الله تعالىٰ . وإن كانت مبنيًّا علىٰ الاستئمار فى بعض الأحوال ، قيل فى هذا الموضع : "ولمولانا أمير المؤمنين صلّى الله عليه الرأىُ العالى فى ذلك" إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة كتاب من هذا النمط فى جوابٍ عن كتابٍ ورد من الخليفة بالسؤال عن المكتوب عنه فى مَرَضه ، وهو :

صلواتُ الله الزاكِيَه ، وتحيّاتُه الذّكِيّة الذّاكِيه ؛ وسلامُه الذى يتنزّل علىٰ الرُّوح بالرَّوح ، ويُؤْذِن مِنْ رضَا الله بأشرفِ موهوبٍ وأكرمِ مَمْنُوح ؛ وبركاتُه التى فيها للمؤمنين سَكَن ، وبشفاعتها تُتَقَبَّل أعمال المؤمن بقَبُول حَسَن ـ علىٰ إمام الحقّ المنظور المغنى عن المنتظَر ، وحجّةِ الله التى أرسلها نذيرًا للبَشَر ؛ وخليفةِ الله الذى نزلَتْ بمدحه مرتّلاتُ السُّوَر ، قبل مرتَّبات السِّيَر ؛ وبعثه اللهُ بالنُّور الذى لا يُمكِّنُ الكافرُ من إطفائه ؛ وبرهانِ الله الذى لا يطمَعُ الجاحد فى إخفائه ؛ ونائبِ النبوّة ووارثِها ، ومُحيِي القلوبِ وباعِثِها ، ومفيضِ أسرار الأنوار ونافِثِها ؛ سيدنا ومولانا الإمام الفلانى : ولا زالتِ الأقدارُ له جُنُودا وجُدُودا ، والجديدانِ يَسُوقان إليه من أيّامهما ولياليهما إماءً وعَبِيدا ؛ وعلىٰ آبائه الذين سبقَتْ لهم من ربهم الحُسْنىٰ ، ورَغِبُوا عن عَرَض هذا الأدنىٰ ؛ ولاتهم وُلاتُهم علىٰ الحيان ، ولا يتمُّ للثقلين أن ينفذُوا ما لم يكونوا منهم

بسلطان ـ وعلى أبنائه وجوه الهدى البارزة من الأكنّه ، وأيدى النّدى والأعنّة والأسنّه .

كتب عبد الموقف النبوىّ خلّد الله ملكه من مقرّ خدمته بالمكان الفلانى ؛ وأمورُ ما عُلق به وردّ إلى نظره على أتمّ حالٍ وأكمله ، وأحسنِ نظام وأجمله ؛ بسعادة مولانا أمير المؤمنين ، صلواتُ الله عليه وعلى جدّه وآبائه الطاهرين . العبد يُنْهِى أنه لو أخذ فى شكر المِنَن التى تُرقّيه فى كل يوم لهضابٍ بعيدةِ المرتقى ، وتُورده جمّاتٍ قريبةَ المستقى ، وتوجبُ على لسانه أن يبذُل جُهدَ من ٱسترسل وعلى قلبه أن يبذُل جُهْد من ٱتقى ؛ لقصُر به الوصْف ، وأعياه من ورَق الجنّة الخَصْف ؛ وكيف يُجارى من يده ديمةُ الله بقلمه ، أو كيف ينزح بحرَ الجُود الذى يمدّه سبعةُ أبحر نعمه ، .

ولما ورد عليه التشريف بالسؤال الذى أحياه بنَسيم رَوْحه ، ونفخ فيه من رُوحه ؛ فوقع له ساجدا ، وثاب إلى السجود عائدا ؛ وبذَل مع ضَراعته الأبتهالَ جاهدا ، وأخلصَ فرْضَ الولاء معتقِدا ورفَعَ لِواءَ الحمد عاقدا ؛ وكُشِفَ عنه الضُّرّ ، وأُطْلِعت على وجهه النِّعمَ الغُرّ ، وتكافَتِ الأندادُ فى محل عَيْشه حلِيَ الحُلْو ومَرّ المُرّ ؛ وٱنتهى من الدعوات إلى ما ٱنتهى به المَرض ، وتقلل منه الجوْهَر الذى عُزِل به العرض ، وصافح بمُهجته السِّهامَ التى نفَذ بها الغرض ؛ وكاد يشاهِدُه مرتفعا به الضّنى والألم ، وفعلتْ أنواره فى ظلمته مالا تفعلُ الأنوار فى الظُّلَم ؛ ولم يَرِدْ قبله حُلْوُ الأوّل والآخر ، مأمونَ المَوَارِد والمَصَادر ، مضمونُ الشِّفاءِ فى الباطن والظاهر ، عادت القلوبُ على الأجسام بفَضْله ، وسَطتِ العافيةُ على الأسقام بفَضْله بل بفَضْله ؛ والله سبحانه يملّكه أعناق البِلاد ، كما أجرى على يديه أرزاقَ العباد ، إن شاء الله تعالى . وكتب فى يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا .

الطـــــرف السادس

(فى المكاتبـات الصادرة عن المـلوك ومَنْ فى معناهم إلىٰ خلفاء بنى أميـة بالأندلُس)

وكانت المكاتبـة إليهم بالأفتتاح بالدعاء بطول البقاء، مع الإطنـاب فى الإطراء فى شأن الخليفة ومدْحِه والثناءِ عليه والدعاءِ له ، والخطابُ فيه للخليفة بأمير المؤمنين منعوتاً بمولاى وسيدى ونحو ذلك ؛ والتعبيرُ عن المكتوب عنه بلفظ الوحدة من تاء المتكلم ونحوها . كما كتب أبو المطرِّف بن المثنّى من إنشائه عن المنصور إلىٰ هشـام آبن الحكم يخبِرُه بجرَيان الصُّلح بينه و بين الموفَّق، بعد ما كان بينهما من عَداوةٍ :

أطال اللهُ بقـاءَ أمير المؤمنين ! مولاىَ وسـيدى وسيد العالمين ، وآبن الائمـةِ الراشـدين ؛ عزيزًا سلطانُه ، مُنيرا زمانُه ، سامِيةً أعلامُه ، ماضيةً أحكامُه ، ظاهرًا علىٰ مَنْ ناواه ، قاهرا لمن عادَاه ؛ كما يُحِبُّ ـ أيد اللهُ أميرَ المؤمنين مولاىَ وسـيِّدى علىٰ أحسنِ ما يكونُ عليه .

العبـدُ المخلِص ، والمولىٰ المتخَصِّص ، الذى حَسُن مُضْـمَره ، وآسـتوىٰ سِرُّه وجَهْره ؛ ولاح آستبصاره وجِدّه ، وتنـاهىٰ سعيُه وجُهْـده ؛ فى مِضْمار الجرْى إلىٰ الطاعة ، وبَذَل إذعانَه وآنقيادَه ، وآستَعْبَد إمكانَه وإجهاده ؛ فيما يَفِى بتمكين الإمامة المهديَّه ، والخلافة المَرْضيَّه ، ويَشُدُّ مبانىَ المملكة المصدّقة لتباشير اليمن والبركه ؛ والله سبحانه ولىّ العون والتأييد ، والملىُّ بالتوفيق والتسديد ، لاربَّ غيره .

وبعد ـ أبقىٰ الله أمير المؤمنين ـ فإن كتابى إليه سَلَف مُعْرِبا عن النَّزْغة التى كانت بينى و بين الموفَّق مملوكه ، وقديما نَزَغ الشيطانُ بين المرء وصديقِه ، والأخِ وشقيقِه ؛ وضربَ ساعيا بالتَّشْتيت والتشغيب ، والتبعيد والتقريب ؛ بين الأبِ الحانِى الشفيق ،

والابن البَرّ الرفيق ؛ ثم يعودُ ذوو البصائر والنُّهىٰ ، وأولو الأحلام والحِجا ؛ إلىٰ ما هو للشَّحناء أذهَبْ ، وبالتجامل أولىٰ وأوجَبْ . وكتابى هـذا وقد نسخَ اللهُ بيننا آيةَ الافتراق ، بالاتصال والاتفاق ؛ ومحاسمةِ التبايُن والخلاف ، وبُدُوّ التآلُف والإنصاف ؛ وعادت النفوسُ إلىٰ صفائها ، وانطوَتْ علىٰ وَفَائها ؛ وخبَتْ نارُ الفتنه ، وامتدّ رُواقُ الهُدْنه ؛ وثبتَتِ الأسباب الراسخـة ، والأواصرُ العاطفة بأزِمَّة قلوبنا إلىٰ معَاهد الخُلَّة القديمه ، ومَوَاطن العِشْرة الكريمه ؛ والمعروفِ من الامتزاج فى كلِّ الأحوال والتشابُك وجِلاءِ الشك باليقين ، وقرَّتْ بالانتظام العيونُ ، وصرنا فى القيام بدَعْوة أمير المؤمنين مولانا وسيدنا رَضِيعَىْ لِبَان ، وشريكَىْ عِنَان ؛ وأليفَىْ تناصُر ، وحَليفَىْ تظَافُر ؛ فنحن عن قوسٍ واحدة فى نُصْرتها نرمى ، ومِنْ ورائها نَذُودُ جاهدِينَ ونَحْمى ؛ قد فُتْنا الجيادَ فى السَّبْق إلىٰ الطاعه ، وأحرزْنا قَصَب السبق فى المظاهرة والمشايعة ؛ فما نَفْتأ نسعىٰ فى تمهيدها ونَذْهب ، ولا ننفكُّ نَكْدحُ لهـا ونَنْصَب ؛ والله الكفيلُ بانجـادنا بعِزَّته وقُدرته ، وحولِه وقوّته ؛ لا إلٰهَ إلا هو .

وإن الذى عَقَده الله تعالىٰ لنا ، وحَسَمه من دواعى القطيعة عنَّا ، ما اطَّرد وتأتَّى ، وسَنَح وتَهيَّأ إلا بسعدِ طائرِ أمير المؤمنين سـيدنا ومولانا أعزه الله ، ويُمْنِ نقيبته ، فمن تمسَّـك بعُرْوته وعاذَ بعِصْمته ، فقد فاز قِدْحُه ، وتبَلَّج فى ظُلَمِ الأمور صُبْحه ؛ واسـتدلَّ بأوضح الدليل ، وعَرض بالرأى الأصيل ؛ واستنار بأضوإِ سراج ، وسلك علىٰ أقْصدِ مِنْهاج ؛ ولم يُزايِل الرَّشادُ آراءه ، وصاحبَ السَّدادُ أنحاءه . والله تقدّس اسمُه لا يزال يعرّفنا من سعادة الدعوة الزكية ما يُصْلِح به أحوالَنَا ، ويُفْسِح به آمالنا ، بمنّه .

ولمـا أتاحَ اللهُ من السِّلْم ما أتاحه ، وأزاح من المكْروه ما أزاحه ، لم أجد فى فُسحةٍ ولا غنًى ولا سعةٍ ؛ من إطلاع أمير المؤمنين مولاىَ وسـيدى من ذلك علىٰ الجَلِيَّه ،

وإعلامه بالصورة؛ فأنهضتُ إلى حضرته العالية ذا الوزارتين عبدَ الرحمن بنَ مطروح رسولى وعَبْـدى وخاصَّتِي مملوكَه لِيُنْهِيَ إليه الحـالَ على حقيقتها، ويُوفِّيَهَا بكُلِّيّتها؛ وأقْرُنُ به رسولَ الموفَّق، متحملًا مثل ما تحمَّلَه رسولى، ومتقلِّدًا كالذى تقلَّده؛ ولأمير المؤمنين مولاى وسـيدى الفضلُ العميم فى الإصغاء إليهما، والوَعْيِ عنهما، والسماع منهـما جميعَ ما يُورِدانه ويُوضِّحـانه، ويستَوْفِيانه ويشْرحَانه، والتطوُّل بالمراجعة فيه، بما يستوجبُه ويقتَضِيه، واصلًا لِعزِّمَتِه وأياديه؛ إن شاء الله تعالى.

الطـــــرف السابع

(فى المكاتبة الصادرةِ إلى خلفاء الموحِّدين بالمغرب، القائم بقاياهم الآنَ بتُونس وما معها من سائر بلاد أفريقِيَّـــة. وفيه ثلاثة أساليب)

الأســـــلوب الأوّل

(أن تُفْتَتَح المكاتبةُ بالدعاء، وهى على ضربين)

الضرب الأوّل

(أن تكون المكاتبةُ من مَلِكٍ آخر)

والرسم فيه أن تُفْتَتح بالدعاء المناسبِ للحال، ويعبِّر المكتوب عنه عن نفسه بنون الجمع ويخاطب المكتوب إليه بأمير المؤمنين. كما كتب القاضِى الفاضلُ عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن: أحد خلفائهم فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة، يستجيشه على الروم الفَرَنج القاصدين بلاد الشام والديار المصرية، وهو:

فتح اللهُ بحضرة سيدنا أمير المؤمنين ، وسيد العالمين ، وقسيم الدنيا والدِّين ؛ أبوابَ الميَامِن، وأسبابَ المحَاسِن؛ وأحلَّه من كفايته فى الحَرَم الآمن ، وأنجزه من نُصْرة الحق ما اللهُ له ضامن ، وأصلَحَ به كلَّ رأْى عليه الهوىٰ رائن ؛ ومكَّن له فى هذه البَسيطة بَسْطه ، وزاده بالعِلم غِبْطه ؛ حتّىٰ يكونَ للأنبيـاء بالعِلْم وللأرض بالعزم وارِثا، وحتّىٰ يُشَيِّد بحادثٍ قديما من مجده الذى لايزال بغَضّ الحديث حادثا.

كان من أوائل عَزْمنا وفواتح رأْينا عند وُرُودنا الديارَ المصريةَ مفاتحةُ دولة سيدنا، وأن نتيمَّن بمكاتبتها، ونتزيَّن بمخاطبتها؛ ونُنْهِضَ إليهـا أماثِلَ الأصحاب، ونستَسْقِىَ معرِفَتَها استسقاء السَّحاب؛ ونَنْتَجِعَها بالخواطر ونجعل الكُتُبَ رسُلَها، وأيدىَ الرسل سُبُلَها؛ ونُمْسِكَ طَرَفا من حَبْل الجهاد يكونُ بيد حضرة سيدنا العاليةِ طَرَفُه، ونَمْسَح غُرَّة سبقٍ وارثُها ووارثُ نُورها سلَفُه؛ ونتجاذبَ أعداء الله من الجانبين، لاسيما بعدَ أن نُبْنا عنه نِيابَتَيْنِ فى نَوْبَتَيْن : فالأولىٰ تطهيرُ الأرْضَيْنِ المصريَّة واليمنيَّة من ضلالة أغضَتْ عيونَ الأيَّام علىٰ قَذَاها ، وأنامَتْ عُيونَ الأنام بائعةً يقظَتَها بكَرَاها ؛ ونيابةٌ ثانية فى تطهير بيت المَقْدِس ممن كان يُعارِض برِجْسه تقديسَه، ويُزْعِج ببناء ضَلاله تأسيسه؛ وما كان إلا جَنَّةَ إسلام فَخَرج منها المسلمونَ خُروجَ أبيهم آدمَ من الجَنَّه، وأعقبهم فيها إبليسُ الكفرِ وما أجارته ممـا أعْقبه اللَّعْنه، وما كانتْ لنـا بذلك قوة بل لله القوه، ولا لنا علىٰ الخلق مِنّة بل لله المنَّه .

ولمـا حُطَّتْ لِدِين الكفرِ تِيجـان، وحُطِّمت لذويه صُلْبان؛ وأَخْرَسَ الناقُوسَ الأذانُ ، ونَسـخَ الإنجيلَ القرءانُ؛ وفُكَّتِ الصخرةُ من أَسْرها، وخَفَّ ماكان علىٰ قَلْب الحجر الأسود بخِفَّة ماكان علىٰ ظهرها؛ وذلك أن يَدَ الكفر غطَّتْهـا وغَمَرتْها . فلله الحمـدُ أنْ أحرمت الصـخرةُ بذلك البُنْيـان المُحيط ، وطَهَّرها ماطرٌ من دم

الكُفْر وما كان ليُطَهِّرها البحرُ المحيط ؛ فهُنـالكَ[(١)] غُلِب الشركُ وٱنقلب صاغرا ، واستجاشَ كافرٌ من أهله كافرا ؛ وٱستغْضَب أنفـاره النافِره ، وٱستصرخَ نَصْرانيّته المتناصره ؛ وتظاهَروا علينا و إن اللهَ مَوْلانا ، وطاروا إلينا زُرافاتٍ ووُحْدانا ؛ فلم يبق طاغيةٌ من طواغيهم ، ولا أُثْفِيَّة من أثافيهم ؛ إلا ألْجَم وأَسْرج ، وأجْلَبَ وأرهج ، وخَرج وأخرج ، وجاد بنَفْسه أو بولده ، وبعَدَده وبعُدَده ؛ وبذات صـدره وبذاتِ يَدِه ، وبكتائبه بَرّا ، وبمَرَاكبه بحرا ؛ وبالأقوات للخَيْل والرِّجال ، والأسلحةِ والجُنَن لليمين والشِّمال ؛ وبالنقدين علىٰ ٱختلاف صِنْفيهما فى الجمع ، وٱئتلاف وَصْفَيْهما فى النَّفْع ؛ وأنهضَ أبطالَ البـاطل ، من فارسٍ وراجِل ؛ ورامحٍ ونابِل ، وحافٍ وناعِل ، ومُواقف ومقاتِل ؛ كلٌّ خرج متطوِّعا ، وأَهْطعَ مُسْرِعا ، وأتىٰ متبرِّعا ، ودعا نفسه قبل أن يُستَدْعىٰ ، وسعىٰ إلىٰ حَتْفها قبل أن يُسْتَسْعىٰ ؛ حتّى ظننَّا [أنّ] فى البحر طريقًا يَبَسا ، وحتّى تيقَّنّا أن ماوراء البحر قد خَلَا وعسا ؛ وقلنا : كيف تَتْرك ، وقد علم أنه يُدْرَك ؛ وزادت هذه الحُشود المتوافيه ، وتجافَتْ عنها الهِمَمُ المتجافيه ؛ وكَثُرت إلىٰ أن خرجَتْ من سجن حَصْرها ، ومستقَرّ كُفْرها ، وبقيّة ثغْرها ــ وهو صور ــ فنازَلَتْ ثغرَ عَكَّا فى أسطولٍ مَلك بَحْره ، وجمع سَلَكَ برّه ــ فنهضنا إليه ، ونزَلْنا عليهم وعليه ؛ فضَرب مَعَنا مَصَافَّ قُتّلَتْ فيه فُرسانُه ، وجُدِّلَتْ شُجعانُه ، وخُذلت صُلْبانه ؛ وساوىٰ الضربُ بين حاسِرِ القوم ودارعهم ، وبَرَز الذين كُتِبَ عليهم القتْـلُ إلىٰ مَضَاجعهِمْ ؛ فهُنالك لاذُوا بالخَنادق يَحْفِرُونها ، وإلىٰ الستائر يَنْصِبُونها ؛ وأخْلَدُوا إلىٰ الأرض متثاقِلين ، وحَمَلُوا أنفُسَهم علىٰ الموت متحاملين ، وظاهَرُوا بين الخنادق ، وراوَحُوا بين المجانِق ؛ وكلمـا يُحِنُّ القتلُ من عددهم مائةً أوصلها البحر ممن يَصِل وراءه بألف ، وكُلَّما قلُّوا فى أعيننا فى زحف ، قد كَثُروا فيما يَليه من الزَّحْف ؛ ولو أن دُرْبة عسا كرنا فى البحر

(١) لعل هذا هو جواب الشرط أول الفقرة .

كدُرْبتها فى البر، لعَجَّل اللهُ منهم الانتصاف واستقلّ واحدُنا بالعشرة ومائتُنا بالألف؛ وقد اشتهر خروجُ ملوكِ الكُفّار فى الجمع الجَمّ، والعدد الدُّهْم، كأنَّهم إلىٰ نُصُبٍ يُوفِضُون، وعلىٰ نارٍ يُعرَضُون، ووصولهم علىٰ جهة القسطنطينية ـ يسر الله فتحها ـ علىٰ عزم الائتمام إلىٰ الشام فى مُنْسَلَخ الشتاء ومستهَلِّ الصيف، والعساكرُ الإسلاميةُ لهم تستقبِل، وإلىٰ حربهم تنتقل؛ فلا يُؤْمَن علىٰ ثغور المسلمين أن يتطرَّق العدُوُّ إليهم وإليها، ويفْرُغ لها ويتَسلَّط عليها؛ والله مِنْ وَرَائِهم مُحِيط. وإذا قُسمت القوةُ علىٰ تلقِّ القادم وتَوَقِّى المُقيم، فربَّما أضر بالإسلام انقسامُها، وثَلّمه والعياذُ بالله انْثِلامُها.

ولما مَخَض النظرُ زُبْدَه، وأعطىٰ الرأْىُ حقيقَةَ ما عنده؛ لم نَرَ لمُكاثَرة البحر إلا بحرًا من أساطيله المنصورة فإنّ عددَها واف، وشَطْرها كاف؛ ويمكنُه ـ أدام الله تمكينَه ـ أن يمُدّ الشامَ منه بعدَّ كَثِيف، وحَدٍّ رَهِيف، ويعهَدَ إلىٰ واليه أن يُقِيم إلىٰ أن يرْتَبِع ويَصِيف؛ ويمكنه أن يَكُفَّ شطرا لأُسْطول طاغية صِقِلّيَّة ليَحُصَّ جناحَ قُلوعه أن تَطير، ويَعْقِل عُبَابَ بحرِه أن يُغِير، ويعتقِلَه فى جزيرته، ويُجْرِى إليه قَبْل جَرِيرته؛ فيَذْهب سيدُنا وعقبُه بشَرَف ذِكْرٍ لا تُرَدُّ به المحامدُ علىٰ عَقِبها، ويُقيمَ علىٰ الكفر قيامةً يُطْلِعُ بها شمسَ النصر من مَغْرِبها؛ فإذا نَفَذ طريقُه وعلم الناس بمَوْفِدِه، أوْرَدُوا وأصدَرُوا فى مَوْرِده؛ وشخَص المسلمُ والكافرُ: هذا ينتظرُ بُشْرىٰ البِدَار، وهذا يستَطْلِع لمن تكونُ عُقْبىٰ الدار؛ وخاف وطْأةَ مَنْ يصِلُ من رجال الماء مَنْ وصلَ من رجال النار. ولو بَرَقَتْ عليهم بازقةٌ غربيَّةٌ لأغرقهم طُوفانُها، ولو طلعت عليهم جاريةٌ بحرِيّةٌ لنعَقَتْ فيهم بالشَّتات غِرْبانُها.

وما رأينا أهلًا لهذه العَزْمة إلا حضرةَ سيدنا أدام الله صِدْق محبة الخيْرِ فيه، إذ كان منحه عادة فى الرضىٰ به[1] وقُدرةً علىٰ الإجابه، ورَغْبةً فى الإنابه؛ ولايةً لأمر

(١) كذا فى الأصول ولم نعثر عليها فى رسائل القاضى الفاضل.

المسلمين، ورياســة للدُّنيا والدين ، وقياماً لسـلطان التوحيد القـائم بالموحِّدين ؛ وغَضَباً لله ولدينه ، وبَذْلا لمَذْخُوره فى الذبِّ عنــه دون ما عوده ؛ والآنَ فقد خَلَا الإسلام بملائكته، لمـا خَلَا الكفرُ بشياطينه ؛ وما أُجلت السوابقُ إلا لإطلاقها، ولا أُثِّلت الذخائرُ إلا لإنفاقها ؛ وقد آستشرف المسلمون طُلوعَها من جهته المحروسة جارا من الأساطيل تغشىٰ البِحار ، وليـالِىَ من المراكب تركَبُ من البحر النَّهار ؛ وإذا خفقَتْ قلُوعُها خَفَقت للقِلاع قُلوب ، وإذا تجافَتْ جُنوبُها عن المَوْج تجافَتْ من الملاعين جُنُوب ؛ فهى بين ثَغرِ كُفْر تعتَقِله وتحصُره ، وبين ثغر إسلام تُفَرِّج عنه وتنْصُره ، يكون بها مصائبُ عند المسلمين(؟) وتَظَل قلائدُ المشركين لغِرْبان بحره طَرَائِد ، ويمضى سيفُ الله الذى لايَعْدَم فى كل زمان فيُعلَمُ معه أن سيف الله خالد ؛ أعزَّ الله الإســلامَ بمـا يزيد حضرةُ ســيدنا من عِزِّها ، فيما مدّ عليهـا من ظلها ، وبمـا يُسْكِنُه من حِرْزها ، فيما يَبْسُط علىٰ الأعداء بهـا من بأسها ويُنْزِل بهـم من رجزها ، وبمـا يجرِّده من سيوفها التى تقطع فى الكفر قبل سَلِّها وهزها .

وقد أوفَدْناه علىٰ باب حضرة ســيدنا ، وهو الداعى المُسْمِع ، والمبَلِّغ المُقْنِـع ، والمجمع المستجمع ؛ علمناه أمرا يسرا ، وبوأناه الصدر فكان وجها ، وأودَعْناه السِّرّ فكان صَدْرا .

الضـــرب الثـانى

(أن تكون المكاتبةُ صادرةً عن بعض الأتبـاع)

والرسم فيه أن تُفتتح المكاتبةُ بالدعاء بطول البقاء ، مثل أن يكتُبَ أحد أتباعه إليه ؛ ويعبِّر المكتوبُ عنه عن نفسه بلفظ الإفراد ، وعن الخليفــة بأمير المؤمنين .
كما كتب أبو الميمون عن بعض أهل دولتهم إلىٰ بعض خُلَفَائهم جوابَ كتاب ورد بالكشف عن عامل ثغر شَقُورةَ .

«أطال الله بقاءَ أمير المؤمنين ، وناصرِ الدين والدنيا بفضله العَمِيم ؛ ولا برحتْ مصالحُ العبـاد بباله الكَرِيم جائلةً ماثلة ، وسـيرتُه الحميـدةُ لدانيهم وقاصيهم شاملةً كافلة ، ولا زالَ لله فى أرضه بالقِسْط قائمـا ، وعلىٰ ما ينفَعُ الناس محافِظًا دائمـا .

كتبتُه ـ أيَّد الله أمره ! صدْرَ جمادىٰ الأولىٰ ، سنةَ أربع وعشرين وخمسمائة ، بعد آمتثال ماحَدّه ، والآنتهاء إلىٰ ماوجبَ الآنتهاءُ عنده ؛ من أمر ثغر شَقُورةَ حرسه الله ! علىٰ ما أُنُصُّ مَنَاقِله ، وأَعْرِض مراتِبَه ومنازِلَه ؛ وذلك أن كتابه العزيز وافانى علىٰ يَدِ رجلٍ من أهلها فيه فصول رفعها ، وأحاديثُ سطَّرها وجمَعَها ؛ وآندرج الكتابُ المرفوعُ بذلك طَيَّه ، لينظُر إليه من آدَّعىٰ عليهم رفعه ، ويستَبِينَ حقيقتَه أو وَضْعه ؛ وبإبطاء هذا الرافع سبقَتْه الأنباء ، وآستقرت عند جمعها الأغراض والأنحاء ؛ فآجتمعُوا إلىٰ عاملهم فلانٍ وفقه الله ، وحضرهم حاكمُ الجهـة أبقاه الله ؛ وتَتَبَّعُوا تلك الوجوهَ بالردِّ لهـا ، والإنكار علىٰ القـائم بها ؛ وعقَـدُ وافى كل عقْد منها عَقْدا يناقِضُـه ، وآستظهروا بشهادات تنافيه وتعارِضُه ؛ وآندرجت العُقُود ، ثابتةً فى كتاب الحاكم علىٰ السبيل المعهود فى إثبـات العُقُود ؛ فثبتَت عندى لثبوتها عنده ، وخاطَبُونى مع ذلك متبَرِّين من هذا الرافع ، واضعين له فى عَقْله ودينه بأحَطِّ المواضع ؛ وصرَّحوا بآرتضائهم بسِيرة عاملهم وآغتباطهم بحمايته وسَـدَاد نَظَره ، وعلىٰ تَقِفَّة ذلك وصل هـذا الرافع بالكتاب العزيز وما آندرج طيَّه علىٰ ما قدّمت ذكره ؛ فاسـتأنفتُ النظر ، وأعدْتُ العمل ، وخاطبتُ الحاكم والأعيـان والكافَّةَ هنالك بما ورد فى أمرهم ؛ وأردفْتُ الكتاب المرفوعَ ليقِفُوا علىٰ نَصِّه ، وينظروا إلىٰ شَخْصِه ؛ فراجعُونى أنَّه لامَزِيد عندهم علىٰ ما قدّموه ، ولا خلافَ فيما تَقَلّدُوه وأحكموه ، وأحالوا علىٰ ما تَثْبُت به العُقود ، وهى من النـاس المقاطِعُ والحُدُود ؛ فآقتضىٰ النظرُ إعلامَ أمير المؤمنين وناصر الدين أعلىٰ الله أمره ، حسَبَ ما حدّه ، بمـا وقعَتْ عليه الحـال ، ليرتَفِـعَ الإشكال ،

ولا يتعلق بهذه الحِبةِ البال ؛ وقد أدرجتُ إلىٰ حضرته السامية الكتبَ المذكورةَ لتُعرَضَ عليها، وتستقرِ الحليَّةُ منها لديها؛ إن شاء الله .

وآندرجت العقودُ إلىٰ الفقيه فلان قاضي الحضرة وفقه الله، والله يشكُرُ لأمير المؤمنين وناصر الدين تحرِّيَه وآجتهادَه ، وتوفيقَه وسَدَاده ؛ ويُوالي مَنْ والاه ، ويكيد مَنْ عاداه . ولو كانت الحال بَشَقُورةَ علىٰ ماصوّره هذا الرافع لما آنطوت عنّي أسرارُها ، ولا [خفِيَتْ عَلَيّ] علىٰ البعد أخبارها ؛ وسفوف(1) إلىٰ فلانة بَيِّن ، وهو متشرِّع متديِّن ، وعَضْــدُه علىٰ ما هو بسبيله في ذلك الثغر متعيّن ؛ والله يُيسِّر الجميع إلىٰ ما يَقضي حقوق النعمه ، ويُقيم فروضَ الخدمه ؛ بعونه وقدرته ! .

الأســــلوب الثـانى

(أن تفتتح المكاتبةُ بألقاب الخليفة نفسه ثم يؤتىٰ بالصدر معبِّرا عن المكتوب عنه بالعبد . ومخاطبا للخليفة بميم الجمع للتعظيم ، ويختم الكتاب بالســلام . وهو علىٰ ضربيـن)

الضـــرب الأوّل

(أن يُوصَــف الخليفــة بالمَقـام).

كما كتب أبو الميمون أيضـا عن بعض أهل دولتهـم إلىٰ الناصر لدين الله أحد خلفائهم :

المَقَام الأعلىٰ ، المقــدّس ، المكرّم ، الإماميّ ، الطاهر ، الزكيّ ، مَقَام الخليفة المؤيَّد بنصر الله ، الإمامِ « النـاصرِ لدين الله » كَلأَ الله جَلاَلَهُمْ ، وفَيَّأَ ظلالَهُمْ ، وبَوّأَ وُفُود السُّعود ووجود الظهور والصُّعود مواطئهم المقدّسة وحِلاَلَهم .

---

(1) كذا في الأصول وعليه علامة توقف ولعله وتعفف وإلى فلانة الخ والمراد براءته مما نسب اليه .

عبدهم المتقلّب فى نعمتهم ، المتقرّب إلى الله عز وجل بالمناصحة فى خدمتهم ، المتسبّب إلى الزُّلفى عندهم بالتزام طاعتهم ، والاعتصام بعُصْبتهم ، فلان .

كتب عبدُ المقام الأعلى ، والنَّدِىّ الذى أُسِّس بنيانُه على تقوى من الله ورضوان واحتوى على الفضائل واستولى ، من موضع كذا حماه الله تعالى ؛ وجَنانُه لطاعتكم قُطْب ، ولسانُه بشكر نعمتكم رَطْب ؛ فبتلك رجاءُ الفَوْز ، وبها ابتغاءُ نَيْل الآمال والحَوْز ؛ وكيف لايطاوعه الجَنَان ، وشكر اللسان مستَمِدّ لإدرار الإحسان ؛ وللمَقَام الأسنى عَوَارِف ، لايتقلّص ظلُّها الوارف ، وقطراتٌ بالرحمة مسطَّراتٌ بمِدْرار سحابها الواكف ؛ وقد كانتْ للعبد سِهام ، فاضتْ عليه بها من النعمة رِهَام ؛ ثم جَزَر الماءُ باسترجاعها الآن ، وسُقِى العبدُ بانتزاعها كأسَ الحُزْن مَلآن ؛ وردت لك بهذه الجهة انقطاع المواساه ، وامتناع الألسن بالمكابدة لشَظَف العيش والمُقَاساه ؛ وإلى المقام الأعلى الأسنى نفْزَع حين نفْزَع ، ونَذْهب حين نَرجو ونرهب ، ونلجا فلا تؤخر طلباتُنا ولا تُرْجا ، وخدمةُ العبد هذه تنوبُ عنه فى تقبيل ذلك المقام الأسمى ، والتعرُّض لما عهد لديه من نفحات الرضى ، والتضرُّع فى إدرار ما جَزَر من تلك المِنّة ، وغَيْض من فَيْض تلك النعمى ؛ ويُنْهِى من رغبته فى بركة تلك الأدعيه ، التى هى للخيرات كالأوعيه ؛ ما يرجوه بشفاعة تأكُّد الامتنان ، ومجرَّد عوارف الرأفة والحَنَان ؛ إن شاء الله تعالى .

والرب تعالى يُبقِى المقامَ الأعلى والنصرُ له مظاهِر ، والخيرُ لديه متظاهِر ، والسعدُ لولِيِّه ناصر ، ولعدوّه قاهِر ، بحول الله تعالى وقوّته لا ربَّ غيره ، ولا خير إلا خَيْره ؛ والسلام .

الضـــــرب الثـانى

(أن يعـــبر عن الخليفة بالحضرة)

كما كتب أبو المَطَرِّف بن عميرة عن صاحب أرْغُون من الأندَلُس إلى المستنصر بالله أحد خلفائهم، يستأذِنُه فى وِفَادة صاحب أرغون من الأندَلُس أيضـا على أبواب الخلافة مُغاضِباً لأهل مملكته :

الحضرة الإماميّـة المنصورة الأعلام ، الناصرةُ للإسلام، المخصوصة من العدل والإحسان بمـا يجـلو نُورُه متراكم الإظلام ؛ حضرةُ سـيدنا ومولانا الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنـين ، أبى يعقوب آبن سادتنا الخلفاء الراشدين؛ وصَلَ الله لها إسعادَ القَدَر، وإنجاد النصْر والظَّفَر؛ ولا زال مَقَامُها الأعلىٰ سامِىَ النظر، مباركَ الوِرْد والصَّدَر ؛ ويَفِيض منـه الجودُ ، فيضَ المَطَر ، ويحيط به السُّعود ، إحاطة الهـالَة بالقَمَر .

نَشْأَةُ أيامها الغرّ، ورَبِيّ إنعامها المواظب على الحمد والشكر ، المشرَّف باستخدامها الذى هو نعم العون على التقوىٰ والبر ، عبدُها وآبن عبدها فلان .

سلامُ الله الطيبُ المبـارَك وتحيّاته ، تخص المقـام الأشرف الأعلىٰ ورحمةُ الله وبركاتُه . وبعـد فكتب العبدُ ـ كتب الله للمقام الأعلىٰ فتوحا يعُمّ جميع الأمصار، وسعودًا يَقْضِى بفَلِّ السُّمْر الطوال والبِيض القِصَار ـ من بَلَنْسِيَة ، وبركاتُه تظهر ظُهورَ النهار، وتَفِيض على البلاد والعِبَاد فيْضَ الأنهار، فالخلقُ من وارِدٍ فى سَلْسالها المَعِين، وراجٍ للذى منها وهو من رجائه على أوضَح مراتبِ اليقين؛ والله يبقى عِزَّ الإسـلام ببقائه ، ويعينُنا على آمتثال أوامره المبـاركة معشر عبيده وأرقائه ! بمنه .

وقد تقرر له من المقـام الكريم ـ أدام الله عُلُوّه ، وكَبَتَ عدوه، أمر بالسك (١) ـ وطال ماله فى البلاد الأرْغُونية من زَعامَةٍ فى شَأوِها بَرّز ، ولغايَتِها أحرز ؛ وكان قد كَفَل صاحب أرغون فى الزمان المتقـدّم كفالةً دار أمرُها عليـه ، وأُلْقِى زِمَامُها إليـه ؛ وتفرّد منها بعبْء وحَمْله ، وخُطّة بلغ منهـا أَمَلَه ؛ ثم إنه حطّ من رُتْبته ، وتأكدتِ المبالغـةُ فى نَكْبته ؛ لقضـيّة عرضَتْ له مع أهل أرْغُون، فلفظتـه تلك الجَنَبات، وأزعجه أمْرٌ لم يمكنه عليه الثّبات؛ ورأىٰ أن يلجأ بحاله إلىٰ المقام الباهر الأنوار، العزيزِ الجِوَار،فواصل هذا الموضع قبل مَقدَم العبد عليه، مقرِّرا مانَزَل به، ومستأذِنًا فى الوجه الذى تعرّض لطَلَبه؛ فأُذِنَ له فى مَقْصده، وآنصَرف عن التأهُّب للحركة من بلده؛ ثم لـما وصل العبدُ هذه الجهةَ وفَرَغ هو من شأنه أقبل متوجِّها إلىٰ الباب الكريم، ومتوسِّلا بأمله إلىٰ فَضْله العميم؛ والظاهرُ من حَنَقه علىٰ أهل أَرْغُون وشدّةِ عداوته لهم ، وما تأكّد من القطيعة بينه وبينهم ؛ أنه إن صادف وقْتَ فتنة معهم ووجد مايؤمِّله من إحسانِ الأمر العالى أيّده الله فيَنْتهِى من نِكَايتهم والإضرار بهم إلىٰ غايةٍ غريبةِ الآثار، مُفْضيةٍ به إلىٰ دَرْك الثـار؛ وكثيرٌ من زعماء أَرْغُونَ ورجالها أقاربُه وفُرْسانه ، وكلُّهم فى حَبْله حاطب ، ولإنجاده متىٰ أمكنه خاطِب؛ وللمقام الكريم أعلىٰ الرأى فيه أبقاه الله شافيا للعِلَل ؛ وكافِيًا طوارقَ الخطب الجَلَل ، مأمولا من ضروب الأمم وأصناف المِلَل ، وهو سبحانه يُديم سعادةَ جَدّه، ويخُصُّه من البقاء الذى يَسُرّ أهل الإيمـان ويُضَاعِف بَهجةَ الزمان بأطوله وأمـدّه ، والســـلام .

---

(١) كذا فى الأصول بالاهمال وعليه علامة التوقف ، ولم نهتد إليه .

الأســـلوب الثـالث

(أن تُفتتح المكاتبةُ بأوصاف الخلافة والثناء عليها، والخطابُ فيه بأمير المؤمنين وعن المكتوب عنه بنون الجمـــع)

وهذه المكاتبة من المكاتبات البديعة المُسْفِرة عن صُبْح البلاغة .

ونسختُها بعـد البسـملة على ما كتب به ٱبن الخطيب عن سلطانه ٱبن الأحمر صاحبِ الأندلُس إلى المستنصر بالله أبى إسحـاق إبراهيم خليفـةِ الموحِّدين يومئـذ بالأندلُس . والاستفتاحُ :

الخلافةُ التى ٱرتفع عن عقائد فَضْلها الأصيلِ القواعدِ الخِلاف ، واستقلَّتْ مَبَانِى فخرِها الشائِع وعِزِّها الذائع على ما أسَّسه الأسـلاف؛ ووجب لحَقِّها الجازم وفَرْضِها اللازم الاعتراف؛ووَسِعت الآملين لها الجوانبُ الرحيبةُ والأكناف،فامتزاجُنا بعَلَائها المُنِيف ، ووَلَائها الشريف ، كما ٱمتزج المـاءُ والسُّلاف؛ وتَنَاؤُنا على مجدها الكريم، وفضلِها العميم، كما تأرَّجت الرِّياضُ الأفواف [لَمَّا زارها الغَمَامُ الوكَّاف][1] ودُعاؤنا بطُول بقائها، وٱتِّصال علائِهـا، يَسْمُو به إلى قرع أبواب السموات العُلَا الاستشراف؛ وحِرْصُنا على تَوْفِيَة حقوقها العظيمه،وفواضِلِها العَمِيمه، لاتحصُره الحدودُ ولا تُدْرِكه الأوصاف؛وإن عَذَر فى التقصير،عن نَيْل ذلك المرام الكبير،الحقُّ والإنصاف. خلافةٌ وِجْهةُ تعظيمنا إذا توجَّهت الوجُوه، ومَنْ نُؤْثِره إذا هَمَّنا ما نرجُوه، ونُفَدِّيه ونُبَدِّيه إذا استُمْنِح المحبوب وٱستُدْفِع المكروه؛ السلطانِ [الخليفة][1] الجليل، الكبير، الشهير، الامام، الهمام، الأعلى، الأوحد، الأصْعَد، الأسعَد، الأسمى، الأعدل، الأفضل، الأسنى ، الأطهر، الأظهر، الأرضى، الأحفل، الأكمل، أمير المؤمنين أبى إسحاق

(١) الزيادة من كتاب " ريحانة الكتّاب " المخطوط المحفوظ بدار الكتب الخديوية تحت نمرة ٤ أدب ش .

آبن الخليفة الإمام البَطَل الهمام، عين الأعيان، وواحد الزمان، الكبير، الشهير، الظاهر، الظاهر، الأوحد، الأعلى، الحسيب، الأصيل، الأسمى، العادل، الحافل، الفاضل، المعظَّم، الموقَّر، الماجد، الكامل، الأرضى، المقدّس، أمير المؤمنين أبى يحيى أبى بكر، آبن السلطان الكبير، الجليل، الرفيع، الماجد، الظاهر، الطاهر، المعظَّم، الموقَّر، الأسمى، المقدّس، المرحوم أبى زكريا، آبن الخليفة الإمام، المجاهد الهمام [الكبير الشهير، الخطير، بطل الميدان، مَفْخَر الزمان، الطاهر الظاهر، الأمضى المقدّس الأرضى أمير المؤمنين أبى إسحاق آبن الخليفة] (1) الهمام الامام ذى الشهرة الجامحه، والمَفَاخر الواضحه، عَلَم الأعلام، فخر السُّيوف والأقلام، المعظَّم، الممجَّد، المقدّس، الأرضى، أمير المؤمنين، المستنصر بالله أبى عبد الله بن أبى زكريا آبن عبد الواحد بن أبى حفص أبقاه الله. ومَقامه مقامُ إبراهيم رِزْقا وأمانا، لا يخصُّ جَلْبُ الثمراتِ إليه وقْتا ولا يُعيِّن زمانا، وكان على مَنْ يتخطَّف الناسَ مِنْ حوله مؤيَّدا بالله مُعَانا. معظِّم قدره العالى على الأقدار، ومُقَابل داعى حقّه بالابتدار، المُثْنِى على مَعَاليه المخلَّدة الآثار، فى أصْونة النِّظام والنِّثار، ثَناءَ الروضة المِعْطار على الأمطار، الداعى إلى الله بطول بقائه فى عِصمةٍ منسدِلة الأستار، وعزَّةٍ ثابتة المَرْكَز مستقيمةِ المَدَار، وأن يختمَ له بعد بلوغ غايات الآجال ونهاياتِ الأعمار، بالزُّلفى وعُقْبى الدار.

سلامٌ كريمٌ كما حملَتْ نسمات الأسحار، أحاديثَ الأزهار، ورَوَتْ ثُغُورُ الأقاحىَ والبَهار، عن مسَلْسَلات الأنهار، وتجلّى على مِنَصّة الآشتهار، وَجْهُ عَرُوس النَّهار، [يخصُّ خلافتكم الكريمة النِّجار] (1) العزيزةَ الجار، ورحمة الله وبركاته.

أما بعدَ حمد الله الذى أخفى حكمَته البالغةَ عن أذهان البَشَر، فعجزَتْ عن قياسها، وجعل الأرواح كما ورد فى الخبر، أجنادًا مُجَنَّدة تَحِنُّ إلى أجناسها. مُنْجِد هذه

---

(1) الزيادة من "ريحانة الكتّاب".

الملة ، من أوليائه الجلة ، بمن يروض الآمال بعد شماسها ، وييسر الأغراض قبل التماسها ، ويعنى بتجديد المودات فى ذاته وابتغاء مرضاته على حين إخلاق لباسها، الملك الحق واصل الأسباب بحوله بعد انتكاث أمراسها ، ومغنى النفوس بطوله بعد إفلاسها ـ حمدا يدر أخلاف النعم بعد إبساسها، وينشر رمم الآمال من أرماسها، ويقدس النفوس بصفات ملائكة السموات بعد إبلاسها .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله سراج الهداية ونبراسها، عند اقتناء الأنوار واقتباسها ، مطهر الأرض من أوضارها وأدناسها ، ومصطفى الله من بين ناسها، وسيد الرسل الكرام ما بين شيثها وإلياسها ، الآتى مهيمنا على آثارها فى حين فترتها،ومن بعد نضرتها واستئناسها، مرغم الضراغم فى أخياسها،بعد افترارها وافتراسها، ومعفر أجرام الأصنام ومصمت أجراسها .

والرضا عن آله وأصحابه وعترته وأحزابه حماة شرعته البيضاء وحراسها ، وملقحى غراسها، ليوث الوغى عند احتدام مراسها ، ورهبان الرجاء تتكفل بمناجاة السميع العليم، فى وحشة الليل البهيم، بإيناسها، وتفاوح نواسم الأسحار عند الاستغفار بطيب أنفاسها .

والدعاء لخلافتكم العلية المستنصرية بالسعادة التى تشعشع أيدى العزة القعساء من أكواسها ، ولا زالت العصمة الإلهية كفيلة باحترامها واحتراسها ، وأنباء الفتوح ، المؤيدة بالملائكة والروح، ريحان جلاسها، وآيات المفاخر،التى ترك الأول للآخر، مكتتبة الأسطار بأطراسها ، وميادين الوجود مجالا لجياد جودها وباسها ، والعز والعدل منسوبين لقسطاطها وقسطاسها ، وصفيحة النصر العزيز تفيض كفها المؤيدة بالله على رياسها ، عند اهتياج أضدادها وشرة إنكاسها ، لالتهاب البلاد والتهاسها ، وهبوب رياح رياحها وتمرد مرداسها :

فإنا كتبناه إليكم - كتب الله لكم من كتائب نصره أمدادا تُذعِنُ أعناقُ الأنام، لطاعة ملكِكُم المنصورِ الأعلام، عند إحساسها، وآتاكم من آيات العنايات آيةً تَضرِب الصخرةَ الصَّماء ممن عصاها بعصاها فتُبادر بانبجاسها - من حمراء غَرناطةَ - حرسها الله - وأيامُ الإسلام، بعناية الملك العلّام، تحتفل وفودُ الملائكة الكرام لولائمها وأعراسِها، وطواعينُ الطِّعان، فى عدوّ الدِّين المُعان، تجدّد عهدُها بعامِ عِمْواسِها.

والحمدُ لله حَمْدا يُعيد شوارِدَ النِّعم، ويستدِرُّ مواهِبَ الجُود والكَرَم، ويؤمِّن من انتكاب الجُدود وانتكاسِها، ويلّيَ الآمال ومكاسها. وخلافتكُم هى المَثابةُ التى يُزْهى الوجودُ بمحاسن مَجْدها زُهوَّ الرِّياض بوَرْدِها وآسها، وتُستَمدُّ أضواءُ الفضائل من مِقْباسها، وتَرْوِى رُواةُ الإفادة والإجادة غريبَ الوِجادة عن ضُحَّاكها وعبّاسها، وإلى هذا أعلى الله معارِجَ قَدْرِكم وقد فَعل، وأنطق بحُجَج فَخْرِكم من احتفى وانتعل؛ فإنه وصلنا كتابُكم الذى حَسِبْناه على صنائع الله لنا تميمةً لاتَلْقَع بعدها عَين، وجعلناه على حُلَل مواهبِه قلادةً لايُحتاج معها زَيْن، ودعَوْناه من جَيْب الكِتابةِ آيةً بيضاءَ الكتابة لم يبق معها شكٌّ ولا مَيْن، وقرأنا منه وثيقةَ ودٍّ هُضم فيها عن غَرِيم الزمان دَيْن؛ ورأينا منه إنشاء، خدَم اليراعُ بين يديه وَشَّاء، واخترع بِهِمْيان عُقْدته مَشَّاء، وسئل عن معانيه الاختراعُ فقال: إنا أنشأناهنّ إنشاء، فأهلًا به من عربىّ أتى يصف السائح وألبانه(١)، ويُبين فبحُسْن الإبانة أدّى الأمانه، وسئل عن حَيِّه فانتمى إلى كِنانه؛ وأفصحَ وهو لا يَنْبِس، وتهلَّلَتْ قَسَماته وليلُ حِبْره يعْبِس؛ وكأنَّ خاتمه المُقفَل على صِوَانه، المُتحِفَ بباكر الوَرْد فى غير أوانِه، رُعُفَ مِنْ مسك عُنْوانه. ولله من قَلَم

(١) ضبب عليه فى الاصول بعلامة التوقف ولم نهتد الى تثقيفه.

دَبَّج تلك الحُلَل ، ونَقَع بمُجاج الدَّواة المستَمدَّة من عين الحيـاة الغُلَل ؛ فلقد تخارق في الجُود ، مُقتـدياً بالخلافة التي خُلِّد فخرُها في الوجود ؛ فجاد بسِر البَيَـان ولُبَابه ، وسَمح في سبيل الكَرَم حتّى بمـاء شَبَابه ؛ وجَمع لفرط بَشَاشته وفَهَامته ، بعد شهادة السيف بشَهامته ، فمشىٰ من التَّرحيب في الطِّرس الرَّحيب علىٰ أُمِّ هامتِه .

وأكرِمْ به من حكيم أفصحَ بمَلْغُوز الإكسير ، في اللفظ اليَسِـير ، وشرحَ بلسانِ الخبير ، سرَّ صناعةِ التدبير ؛ كأنما خدم المَلَكة الساحرةَ بتلك البلاد ، قبـل آشتجار الجِلَاد ، فآثرته بالطارف من سِحْرها والتِّلاد ؛ أو عثر بالمعلَّقه ، وتيك القديمة المطلَّقه ، بدفينةِ دار ، أو كنزٍ تحتَ جِدار ، أو ظَفِر لباني الحَنَايا ، قبل أن تَقْطع به عن أمَانيِّه المَنَايا ، ببديعَهْ ، أو خَلَف جرجيرَ الروم ، قبل منازلة القدوم ، علىٰ وَديعه ؛ أو أسْهَمه آبنُ أبي سَرْح ، في نَشَب للفَتْح وسَرْح ؛ أو حَـتَم له رَوْح بن حاتِم ببُلُوغ المَطْلَب ، أو غَلَب الحظوظَ بخدمة آل الأغلَب ؛ أو خَصَّه زيادةُ الله بمَزِيد ، أو شارَكَ الشِّيعةَ في أمرِ آبن أبي يَزِيد ؛ أو سار علىٰ مِنْهاج ، في مُناصَحَـة بني صِنْهاج ، وفَضَح بتخليد أمداحِهِم كلَّ هاج .

وأعْجِبْ به ! وقد عُزِّز منه مُثَنَّى البيان بثالث ، بخَلَب سحرَ الأسماع ، وآسترقاقَ الطباع بين مَثانى الإبداع ومَثالِث . كيف آقتدَرَ علىٰ هـذا المَجِيد ، وناصح مع التثليث مَقامَ التوحيـد ؛ نستغفرُ الله وليَّ العَوْن ، علىٰ الصَّمْت والصَّوْن ، فالقَلَم هو المُوَحِّد قبل الكَوْن ، والمتَّصِفُ من صِفَات الساده ، أُولِي العبـاده ، بضُمور الجسم وصُفْرة اللون ؛ إنمـا هي كرامةٌ فارُوقيّه ، وأثارةٌ من حديثِ سارِيَةَ وبَقِيّه ؛ سَـفَر وجْهُها في الأعقاب ، بعـد طُول الآنتقاب ، وتَداوُلِ الأحقاب ، ولسانٌ مُناب ، عن كريم جَنَاب ؛ وإصابةُ السَّهم لِسواه محسُوبه ، وإلىٰ الرامي الذي سَدَّده مَنْسوبه ؛ ولا تُنْكِر

على الغمام بارقه، ولا على المتحققين بمقام التوحيد كرامة خارقه، فما شاءه الفضل من غرائب برّ وجد، ومحاريب خُلُق كريم ركع الشكر فيها وسجد . حديقة بيان استثارت نواسم الإبداع من مهبّها ، واستزارت غمائم الطباع من مصبّها ، فآتت أكلها مرتين بإذن ربها؛ لا، بل كتيبة عزّ طاعنت بقنا الألفات سطورها ، فلا يرومها النقد ولا يطورها ، ونزعت عن قسيّ النونات خطوطها، واصطفّت من بياض الطرس وسواد النقس بلق تحوطها .

فما كأس المدير، على الغدير، بين الخورنق والسدير؛ تقامر بنرد الحباب ، عقول ذوى الألباب ، وتغرق كسرى فى العباب . وتهدى وهى الشمطاء نشاط الشباب، وقد أسرج ابن سريج وألجم ، وأفصح الغريض بعد ما جمجم ، وأعرب النائ الأعجم ؛ ووقّع معبد بالقضيب ، وشرعت فى حساب العقد بنان الكف الخضيب ؛ وكأن الأنامل فوق مثالث العود ومثانيه ، وعند إغراء الثقيل بثانيه ؛ وإجابة صدى الغناء بين مغانيه ؛ المراود تشرع فى الوشى ، أو العناكب تسرع فى المشى ؛ وما الخبر بنيل الرغائب ، أو قدوم الحبيب الغائب ؛ لا بل إشارة البشير ، بكم المشير على العشير ــ بأجلب للسرور ، من زائره المتلقى بالبرور ؛ وأدعى للحبور ، من سفيره المبهج للسفور؛ فلم نر مثله من كتيبة كتاب تجنب الجرد [تمرح][1] فى الأرسان، وتتشوّف مجالى ظهورها إلى عرائس الفرسان؛ وتهز معاطف الارتياح، من صهيلها الصراح، بالنغمات الحسان ، إذا وجدت الصريخ نازعت أثناء الأعنّه ، وكاثرت بأسنة آذانها مشرعة الأسنّة ، فإن ادعى الظليم أشكالها فهو ظالم ، أو نازعها الظبي هواديها وأكفالها فهو هاذ أو حالم ، وإن سئل عن عيوب الغرر والأوضاح ، قال مشيرا إلى وجوهها الصباح ، جلدة بين العين والأنف سالم ؛ من كل عبل الشوى ،

(١) الزيادة من "الريحانة" .

مُسابِقٍ للنجم إذا هوىٰ، سامى التَّليل، عَريض ما تحت الشَّليل، ممسوحةٍ أعطافه بمِنْديل النَّسيم البليل : من أحمرَ كالمُدَام، تُجلىٰ علىٰ النِّـدام غَقب الفِدَام، أُتْحِفَ لونُه بالوَرْد، فى زمن البَرْد، وحُيِّي أُفُق مُحيَّاه بكوكب السَّعْد، وتشوَّف الواصفون إلىٰ عدّ محاسِنه فأعيَتْ علىٰ العدّ، بحرٌ يساجل البحْرَ عند المَدّ، وريحٌ تبارى الرِّيحَ عند الشدّ، بالذِّراع الأشدّ، حكّمَ له مدير فَلَكِ الكَفَل باعتدال فَصْل القَدّ، وميَّزه قَدْرُه المميَّزُ يوم الاستباق، بقَصب السباق، عند اعتبار الحدّ؛ ووَلَّد مختطُّ غُرّته أشكال الجَمال، علىٰ الكَمَال، بين البياض والحُمْرة ونَقَاء الخَدّ، وحَفِظ روايةَ الخلْق الوجيه [عن جدّه الوجيه](١) ولا تُنْكَر الرواية علىٰ الحافظ بن الجدّ ــ وأشقرَ أبىٰ الخَلْق والوَجْهِ الطَّلْق أن يحقر كأنَّمـا صِيغَ من العَسْجد، وطُرِّف بالدُّرّ وأُنعل بالزَبَرْجَد، ووُسِمَ فى الحديث بسِمَة اليُمْن والبركة، واختصَّ بفَلْج الخِصام، عند اشتجار المعركَة، وانفرد بمُضاعَف السِّهام [المنكسرة علىٰ الهام](١) فى الفرائض المشـتَرَكة، واتصف فلَكُ كَفَله بحركَتَى الإرادة والطَّبْع من أصناف الحركة، أصغىٰ إلىٰ السماء بأُذُن المُلْهَم، وأعرب لسانُ الصَّهيل، عند التباس مَعانى الهَمْز والتسهيل، ببيان المُبْهَم؛ وفُتِنت العيونُ من ذَهَب جِسْمه، ولُجَيْنِ نَجْمِـه بحُبِّ الدينار والدِّرهم؛ فإن انقضَّ فرجمٌ أو ريحٌ لهـا هجيم، وإن اعترض فشَفَق لاحَ به للنَّجْم نَجْم ــ وأصفرَ قَيَّدَ الأوابِد الحُرّه، وأمسك المحاسنَ وأطلَقَ الغُرّه، وسُـئِل مَنْ أنتَ فى قُوّاد الكتائب، وأُولِى الأخبـار العجائب، فقال أنا المهلَّب بن أبى صُـفْره؛ نَرْجِس هـذه الألوانِ، فى رياض الأكوان، تحيا به وجوه الحرْبِ العَوَان، أغار بنَخْوة الصائل، علىٰ مُعَصْفَرات الأصائل فارتداها؛ وعَمَد إلىٰ خُيُوط شُعاع الشمس، عند جانحة الأمس، فألحم منها حُلَّته وأسْداها؛ واستعدَتْ عليه ملك المحَاسنِ فمـا أعداها، فهو أصيـلٌ تمسَّك بذَيْلِ الليـل عُرْفُه

(١) الزيادة من الريحانة .

وذَيْله ، وكوكَبٌ يُطْلِعُه من القَتَام ليلُه ، فيَحْسُده فَرْقَد الأفق وسُهَيْلُه — وأشهبَ تَغَشَّى من لَونِه مُضَاضه ، وتَسَرْبَل منه لأمَةً فَضْفَاضه ، قد ٱحتفل زَينُه ، لما رُقِم بالنِّبال لُجَيْنُه ، فهو الأشْمَط ، الذى حَقُّه لا يُغْمَط ، والذِّراع المُسَارع ، والأعزلُ الدَّارع ، وراقى الهِضَاب القارِع ، ومكتُوبُ الكتيبة البارع ، وأكْرِمْ بِه من مُرْتاضٍ سالك ، ومجتهِدٍ على غايات السابِقين الأوّلينَ مُتَهالِك ، وأشهبُ يَرْوِى من الخليقة ، ذى الشِّيَم المُنِيفة ، عن مالكٍ — وحُبَارِىٌّ كلَّما سابَق وبارى ، ٱستعار جَنَاحَ الحُبَارَى ؛ فإذا أُعْمِلت هذه الحِسْبه ، قيل من هنا جاءت النِّسبه ، طَرَد النِّمر ، لما عَظُم أمرُه وأمِر ، فنسخ وجُودَه بعَدَمِه ، وٱبتَزَّه الفَرْوةَ ثم لطَّخه بدمه ، وكأن مضاعفَ الوردِ نُثِر عليه من طبقه ، أو الفَلَك ، لما ذهب الحَلَك ، مُزِج فيه بياض صُبْحه بحمرة شَفَقه — وقِرْطاسىٌّ حقُّه لايجهلَ ، حتّى ماترقى العين فيه تَشْهَل ، إن نُزِع عنه جُلُّه ، فهو نجمٌ كلُّه ، ٱنفرد بمادّة الألوان ، قبل أن تَشُوبَها يَدُ الأكوان ، وتمزجَها أقلامُ المَلَوان ، يتقدّم منه الكتيبةَ المقْبِلة لواءٌ ناصع ، أو أبيضُ مماصع ، لَبِس وَقارَ المَشِيب ، فى رَيْعان العُمُر القَشِيب ، وأنصتَت الآذانُ من صَهِيله المُطِيل المُطِيب ، لما ٱرتدى بالبياض إلى نَغْمة الخطيب ، وإن تَعتَّب منه للتأخير المتعتِّب ، قلنا الواوُ لا تُرَتِّب ، ما بين حَلٍ وحُرِّه ، وبهرمانة ودُرِّه ، ويالله من ٱبتسامِ غُرِّه ، ووضوحِ يُمْنٍ فى طُرِّه ، وبهجةٍ للعين وقُرِّه ، وإن وَلِع الناس بامتداح القديم ، وخَصُّوا الحديث بفَرْيِ الأَدِيم ، وأوجب المتعصِّب ، وإن أبى المَنْصِب ، مرتبةَ التقديم ، وطَمَحَ إلى رُتْبة المخدوم طَرْفُ الخَدِيم ، وقُرِن المُثْرِى بالعَدِيم ، وبُخِس فى سُوق الحَسَد الكيل ، وَدجَى الليل ، وظهر فى فَلَك الإنصاف المَيْل ، لما تُلُوكِرَت الخيل ؛ فجِىء بالوَجيه والخَطَّار ، والذائد وذِى الخِمَار ، وداحِسٍ والسَّكْب ، والأبجَر وزاد الرَّكْب ، والجَمُوح واليَحْمُوم ، والكُمَيت ومكتوم ، والأغْوَج ونُحْلُوان ؛

ولاحِقٍ والغَضْبان ، وعفور (؟) والزَّعْفَران ، والمحبر ، واللّعاب ، والأغرّ والغُراب ، وشُـعْلة والعُقَاب ، والفَيَّـاض واليَعْبُوب [والمُـذْهَب واليعسوب ، والصَّموت والقطيب ، وهيدب والصبيب وأهلوب (١)] وهَـدَّاج ، والحَرُون وخَرَّاج ، وجَلْوىٰ ، والجناح والأحْوىٰ ، ومُجَاج والعَصَا ، والنَّعامه ، والبَلْقاء والحَمَامه ، وسَكَاب والجَرَاده ، وحَوْصاءُ ، والعَرَاده . فكم بين الشاهد والغائب ، والفُرُوض والرَّغائب ؛ وفَرْقُ ما بَيْنَ الأثَرِ والعِيان ، غَنِيٌّ عن البيان ؛ وشتَّانَ بين الصَّريح والمشْتَبِه ، ولله القائل في مثلها « خُذْ ما تَرَاه ودَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ به » والناسخ يختلِفُ به الحكم ، وشَرُّ الدوابِّ عند التفضيل بين هذه الدوابِّ الصُّمُّ البُكْم ؛ إلا ماركبه نَبِي ، أوكان له يوم الافتخار برهان خبي ؛ ومُفَضَّـل ما سَمِـع علىٰ ما رأىٰ غَبِي ، فلوأُنْصِفَتْ محـاسِنُها التي وصَـفْتُ لأُقْضِمَت حَبَّ القلوب عَلَفا ، وأُورِدَتْ ماءَ الشَّبِيبَةِ نُطَفا ، واتُّخِذَت لهـا من عُذُر الخُـدود المِلاح عُذُر مَوْشِيّه ، وعُلِّتْ بصَفيرِ ألحـان القِيَان كلَّ عشيه ؛ وأُنْعِلتْ بالأهِلَّة ، وغُطِّيت بالرِّياض بَدَلَ الأجِلَّة .

إلىٰ الرقيق ، الخليق بالحُسْـن الحَقِيق ، تسوقه إلىٰ مثوىٰ الرعاية روقة الفتيـان رعاته ويُهْـدِى عقيقُها من سَـبَجِه أشكالا تَشْهَد للمخترع سبحانَه بإحكام مخترعاته ، وقَفَتْ ناظِرَ الاستحسان لايَرِيم ، لَمَّـا بهره مَنْظَرُها الكريم ، وتخاملَ الظَّليم وتضاءَلَ الرِّيم ، وأخرسَ مقولَهُ اللسانَ وهو بملكات البيان الحفيظُ العليم ، وناب لسانُ الحال ، عن لسان المَقَال ، عند الاعتقال ، فقال يخاطبُ المقامَ الذى أطلعَتْ أزهارَها غمائمُ جوده [واقتضت اختيـارها بركةُ وجوده (١)] : لو علِمْنا أيُّها الملكُ الأصـيل ، الذى كَرُم منـه الإجمـال والتفصِـيل ؛ أنَّ الثناءَ يُوازِيها لكِلْنا لك بكَيْلِك ،

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب".

أو الشُّكْرُ يعادِلها ويُجازِيها لتعرّضنا بالوَشَــل إلىٰ نَيْل نَيْلك ، أو قلنا : هى التى أشار إليها مستَصْرِخ سلفك المستنصر بقوله : أدْرِك بخَيْلك ، حين شَرِق بدفعه الشَّرْق ، وٱنهزم الجمعُ وٱستولىٰ الفَرَق وٱتسع فيه والحكْمُ لله الخَرْق ؛ ورأىٰ أن مقامَ التوحيد بالمظاهَرة علىٰ التثليث ، وحِزْبه الخَبِيث ، هو الأولىٰ والأحَقّ . والآنَ قد أغنىٰ اللهُ بتلك النِّيَّه ، عن إنجاد الطِّوال الرُّدَينيه ، وبالدعاء من تلك المَثَابة الدينيه إلىٰ ربِّ البِنْيَه ، عن الأمْداد السَّنِيَّه ، والأجوادِ تخوض بحر الماء إلىٰ بحر المَنِيّه ، وعن الجُرْد العربية فى مَقَاوِد الليوث الأبيَّه . وجَدّد برَسْم هذه الهديَّه ، مَرَاسيمَ العهود الوُدِّيه ، والذِّمم الموحّديّه ، لتكون علامةً علىٰ الأصل ، ومكَذِّبة لدعوىٰ الوَقْف والفَصْل ، وإشعارا بالأُلْفة التى لاتزال ألِفُها ألفَ الوصل ، ولامُها حرامًا علىٰ النَّصْل .

وحضر بين يدينا رسولكم فلان فقرّر من فضلكم ، مالايُنْكِره مَنْ عَرَف علوّ مِقدارِكم ، وأصالةَ دارِكم ، وفَلَك إبدارِكم ، وقُطْب مَدَارِكم ؛ وأجْبناه عنه بجُهدِ ما كُنّا لنَقْنَع من جَناه المهتَصَر ، بالمقتَضَب المختصَر ، ولا نُقابِل طُولَ طَوْله بالقِصَر ، لولا طُروءُ الحَصَر .

وقد كان بين الأسلاف ــ رحمةُ الله عليهم ورضوانُه ــ وُدٌّ أُبْرِمتْ من أجْلِ الله مَعَاقِدُه ، ووُثِّرت لِلخُلُوص ، أبْجَلِيّ النصوص ، مضاجِعُه الفارّة ومَرَاقدُه ، وتعاهُدٌ بالجميل توجَّع لفقده فاقِدُه ؛ أبىٰ الله إلا أن يكون لكم الفضلُ فى تجديده ، والعطفُ بتوكيده ؛ فنحن الآنَ لا ندرى أىَّ مكارمكم نَتَذَكّر ، أو أىَّ فواضلكم نَشْرَح أو نَشْكر ، أمفاتحتُكم التى هى عندنا فى الحقيقة فَتْح ، أم هديّتكم وفى وصفها للأقلام سَبْح ، ولعدوّ الإسلام بحكْمة حكْمتها كَبْح ، إنما نكِلُ الشكرَ لمن يُوَفِّى جزاء الأعمال

البَرَّه، ولا يَخْس مثقالَ الذَّرة ولا أدنىٰ [من] مثقالِ الذّره، ذى الرحمة الثَّرَّه، والألطافِ المتصلة المستمرّه، لا إلٰهَ إلا هو.

وإن تَشَوّفتم إلىٰ الأحوال الراهنه، وأسباب الكُفْر الواهية بقدرة الله الواهنه؛ فنحن نُطْرفكم بطُرَفها، ونُطْلِعكم علىٰ سبيل الإجمال بطَرَفها؛ وهو أننا لَمَّا أعاد اللهُ من التمحيص، إلىٰ مثابة التخصيص، من بعــد المَرَام العويص؛ كَلّنا بتوفيق الله بَصَر البصيره، ووقّفنا علىٰ سبيله مساعِىَ الحياة القَصِيره؛ ورأينا كما نُقِل إلينا، وكُرِّر علىٰ مَنْ قَبْلنا وعلينا؛ أنَّ الدنيا ـ وإن غرّ الغَرُور، وأنام علىٰ سُرُر الغفلة السُّرور؛ فلم ينفع الخُطور علىٰ أجداث الأحباب والمُرُور ـ جَسْرٌ يُعْبَر، ومتاعٌ لا يُغْبَط من حُبِي به ولا يُحْبَر، إنمـا هو خبر يُخْبِر، وأن الحَسْرة بمقدارها علىٰ تركه تجبر؛ وأنَّ الأعمار أحلام، وأنَّ النــاس نِيَام؛ ورُبَّمـا رَحَل الراحل عن الخان، وقد جلَّله بالأذىٰ والدُّخَان؛ أو ترك به طِيبًا، وثناءً يقوم بعده للآتى خَطِيبا؛ فجعَلْنا العدل فى الأمور مِلَاكا، والتفقُّد للثُّغُور مِسْوَاكا؛ وضَجِيعَ المِهَاد، حديثَ الجِهاد، وأحكامَه مَنَاطَ الاجتهاد، وقولَهُ: ﴿ يأَيُّها الذين آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ علىٰ تجارةٍ ﴾ من حُجَج الاستشهاد، وبادرنا من الحُصون المُضاعة وجنــحُ التَّقِيَّة دامس، وساكِنُها بائس، والأعصمُ فى شَعَفَاتها من العِصْــمة يائس؛ فزيَّنَّا ببِيض الشُّرُفات، ثناياها، وأفعَمْنا بالعَذْب الفُرات، رَكَاياها؛ وغَشَّينا بالصَّفيح المُضاعَف أبوابها، واحتسَبْنا عند مُوَفِّى الأجور ثوابهــا، وبيَّضْنا بناصع الكِلْس أثوابها؛ فهى اليوم تُوهِم حِسَّ العِيان، أنها قِطَعٌ من بِيض العَنَان، تكاد تتناول قُرْصَ البــدر بالبَنَان، متكفِّلةٌ للمؤمن من فَزَع الدنيا والآخرةِ بالأَمَان؛ وأقْرَضْــنا اللهَ قَرْضا، وأوسَــعْنا مَدُوَّنةَ الجيش عَرْضا؛ وفرضْنا إنصافه مع الأهلة فرضا؛ واستنَدْنا منَ التوكُّل علىٰ الله الغنىّ الحميد إلىٰ ظِــلِّ لواء،

ونَبَذْنا إلىٰ الطاغية عهدَه علىٰ سَوَاء ؛ وقلنا : ربنا أنت العزيزُ وكلُّ جبّار لعزّك ذليل ، وحزبُك هو الكثير وما سواه قليل [أنت الكافى ، ووعدُك الوعدُ الوافى ، فأفض علينا مَوازِعَ الصابرين][1] واكتُبنا من الفائزين بحظوظ رِضاك الظافرين ، وثَبِّتْ أقدَامَنا وانصُرْنا علىٰ القوم الكافِرين .

فتحرّكنا أُولىٰ الحَركات ، وفاتحةَ مُصْحَف البركات ؛ فى خِفٍّ من الحُشُود ، واقتصارٍ علىٰ ما بحضرتنا من العساكر المظفَّرة والجُنود ؛ إلىٰ حصن آش البازى المُطل ، وركابِ العَدُوّ الضالّ المُضِل ، ومُهْدِى نَفَثات الصِّلّ ؛ علىٰ امتناعه وارتفاعه ، وسُمُوّ يفَاعه ؛ وما بَذَل العدوّ فيه من استعداده ، وتوفيرِ أسلحته وأزْوادِه ، وانتخاب أنجاده ؛ فصَلينا بنفسنا نارَهْ ، وزاحَمْنا عليه الشهداءَ نُصابِرُ أُوَارَه ؛ ونَلْقىٰ بالجوارح العزيزةِ سِهامَه المسمومه ، وجَلَامِدَه الملمومه ، وأحجارَه ؛ حتّى فَرَعْنا بحول مَنْ لاحولَ ولاقوّةَ إلا به أبراجَه المنيعةَ وأسواره ، وكفَفْنا عن العباد والبلادِ أضرارَهْ ، بعد أن استضَفْنا إليه حِصْنَ السهلة جارَه ؛ ورحَلْنا عنه بعد أن شحَنّاه رابطةً وحاميه ، وأزوادا ناميَه ؛ وعَمِلْنا بيدِنا فى رَمِّ ماثَلَمَ القِتال ، وبَقَر من بُطُون مسالحه الرجال ، واقتدينا بنبينا صلوات الله عليه وسلامه فى الخندق لمّا حَمىٰ ذلك المَجَال ، ووقع الارتجازُ المنقولُ خبرُه والارتجَال ، وما كان لِيَقِرّ للاسلام مع تَرْكه القَرار ، وقد كُتِب الجِوار ، وتداعى الدَّعَرَةُ وتعاوى الشِّرار .

وكنا أغزينا الجهةَ الغربية من المسلمين بمدينةَ بُرْغة التى سدّتْ بين القاعدتين : مَالَقةَ ورُنْدَةَ الطريقَ ، وألبستْ ذُلَّ الفِراق ذلك الفَرِيق ، ومنعتْهما أن يُسيغا الرِّيق ؛ فلا سبيلَ إلىٰ الإلمام ، لطَيْف المنام فى الأحلام ، ولا رِسالةَ إلا فى أجنحة

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

هَدىَ الحَمام ؛ فيسّر اللهُ فتحها ، وعجّل مَنْحَها ؛ بعد حَرب أنبتت فيها النُّحور ، وتزيّنت الحُور ؛ وتيسّر هذه الأمّ بناتٌ شهيره ، وبُقَع للزّرْع والضَّرْع خِيره ، فشُفِيَ الثّغر من بُوسه ، وتهلّل وجهُ الإسلام بتلك الناحية بعد عُبوسه .

ثم أعملنا الحركةَ إلىٰ مدينة الجزيرة علىٰ بُعْد المَدىٰ ، وتعلُّقها علىٰ بلاد العدَا ، وٱقتحامِ هَوْل الفَلَا وغَوْل الرَّدا ؛ مدينةٌ بنتها حمص فأوسعَت الدار ، وأغلت الشِّوار ، وراعتْ الآستكثار ، وبسَطتْ الاعتمار ؛ رَجّح إلينا قَصْدَها علىٰ البُعْد ، والطريقِ الجَعْد ، ما آسفت به المسلمين ، من استئصال طائفةٍ من أسراهم مَرُّوا بها آمنين ، وبطائرِها المشُوم مُتيمّنين ؛ قد أنهكَهُم الاعتقال ، والقُيود الثِّقال ؛ وأضرعَهم الإسار ، وجلّلهم الانكسار ؛ فجدّلوهم فى مصرعٍ واحد ، وتركوهم عِبْرةً للرائى والمشاهد ؛ وأهْدُوا بوَقيعتهم إلىٰ الإسلام ثُكْلَ الواحد ، وتِرَة المساجد ؛ فكبسناها كبسا ، وبَجَأناها بإلهامِ من لايضِلُّ ولايَنْسىٰ ؛ فصبّحتْها الخيل ، ثم تلاحق الرَّجْل كما جَنّ الليل ، وحاقَ بها الوَيْل ؛ فأُبيح منها الذِّمار ، وأخذها الدّمار ، ومُحِقتْ من مَصانِعها البيض الأهلّةُ وخُسِفَتِ الأقمار ، وشُفِيت من دِماء أهلها الضُّلوعُ الحِرَار ، وسلطَتْ علىٰ هيَاكِلها النار ، وٱستولىٰ علىٰ الآلاف العديدةِ من سَبْيها الإسَار ، وٱنتهىٰ إلىٰ إشبيلِيَة الثُّكلىٰ المَغار ، فجَلّل وجوهَ مَنْ بها من كِبَار النصرانية الصَّغار ، وٱستولَتِ الأيدى علىٰ مالا يَسَعُه الوصف ولا تقلُّه الأوقار .

وعُدْنا والأرضُ تموج سَبْيا ، لم تترُكْ بعِفرّين شِبْلا ولا بوَجْرَة ظَبْيا ؛ والعقائلُ حَسْرىٰ ، والعيونُ تَبْهَرها الصُّنع الأسرىٰ ، وصُبح السُّرىٰ قد حُمِد من بَعْد بُعْد المَسْرىٰ ، فسُبحانَ الذى أسْرىٰ . [ولسانُ الحميّة يُنادى ، فى تلك الكنائس المخرّبة والنوادى ، يالثّارات الأسرىٰ] (١) .

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

ولم يكن إلا أنْ نُفِّلت الأنفال ، ووُسِمَتْ بالأرضاخ الأغفال ، وتميزت الهَوادِى والأكفال ، وكان إلىٰ غزو مدينة جَيَّانَ الاحتفال ؛ قُدْنا إليها الجُرْدَ تُلاعِب الظِّلالَ نَشَاطا ، والأبطالَ تقتحِم الأخطار رِضًا بما عندَ اللهِ واْغتِبَاطا ، والمهنَّدَةَ الزُّرْق تَسبِق إلىٰ الرقاب اْستلالًا واختراطا ، والرُّدينيَّةَ السُّمْر تسترط حياة النفوس اْستراطا ، وأزحْنا العِللَ عمَّن أراد جِهادًا مُنْجِيا غُبارُه من دُخَان جهنَّمَ ورِباطًا ؛ ونادَيْنا الجهادَ الجهاد ، ياأمةَ الجهاد ، راية النبيّ الهاد ، الجَنَّة الجنة تحت ظلال السيوف الحِدَاد ؛ فهَزَّ النداءُ إلىٰ الله تعالىٰ كلَّ عامرٍ وغامر ، وأتْمرَ الجَمُّ من دعوة الحقِّ إلىٰ أمْرٍ آمر ، وأتىٰ النـاس من الفُجُوج العميقةِ رِجالًا وعلىٰ كلِّ ضَامِر ؛ وكاثرت الراياتُ أزهارَ البِطَاح لَوْنا وعَدًا ، وسَـدّتِ الحُشُود مسالكَ الطريقِ العريضةِ سَـدًّا ؛ ومدّ بَحْرُها الزاخِرُ مدًّا ، فلا يجد لها الناظرُ ولا المناظِر حَدًّا .

وهذه المدينةُ هى الأُمُّ الوَلُود ، والجنةُ التى فى النار لسُكَّانها من الكُفَّار الخُلُود ؛ وكرسىُّ المُلْك وجنبته الوسطىٰ من الممـالك باءَتْ بالمَزَايا العـديدة ونجَحَتْ ، وعند الوِزان بغيرِها من أمَّات البُلْدان رَجَحتْ ؛ غابُ الأُسُـود ، وجُحْر الحَيَّات السُّود ؛ ومَنْصِب التماثيل الهائله ، ومَعْلَق النواقيس الصائله .

وأدنَيْنا إليها المَرَاحِل ، وعَيَّنَّا لتُجَّار المحلات المستقلات منها الساحِل ؛ ولمـا أكْثَبْنَا جوارِها ، وكِدْنا نلْمَح نارَها ، تحرَّكنا ووِشاحُ الأُفُق المرقوم ، بزَهْر النجوم ، قد دار دائرُهُ ؛ والليلُ من خوف الصَّباح ، علىٰ سَرْحه المُستْباح ، قد شابت غَدَائره ، والنَّسر يُرَفْرِفُ باليمن طائرُه ، والسِّماك الرامح يثأر ثَغْر الإسـلام ثائرُه ؛ والنعائمُ راعدةُ فرائص الجسَد ، من خوف الأسَد ؛ والقوسُ يُرسِل سَهْم السعاده ، بوَتَر العاده ، إلىٰ أهداف النَّعمَ المُعَاده ؛ والجوزاء عابرةٌ نهرَ المَجَرَّه ، والزُّهَرة تَغارُ من الشِّعرىٰ العبُور بالضَّرَّه ؛

وعُطَارِدِ يُسْدِى فى حِيَل الحُروب علىٰ البَلَدِ المحروبِ ويُلْحِم ، ويناظر علىٰ أشكالها الهَندسيَّة فيُفْحِم ، والأحمر يَبْهَر ، والعَلَم الأبيضُ يَفْرى ويَنْهر ، والمشترى يُبْدِئُ فى فضل الجهاد ويُعِيد ، ويُزاحِم فى الحلقَات علىٰ ماللسعادة من الصفَات ويَزِيد ؛ وزُحَل علىٰ الطالع مترحل ، وعن العاشر مرتحل ، وفى زَلَق السُّقُوط وحل ، والبدرُ يُطَارِح حَجَر المَنْجنيق ، كيف يَهْوِى إلىٰ النِّيق ؛ ومطلَعُ الشمس يَرْقُب ، وجِدَار الأُفُق يكاد بالعُيون عنها يُنْقب .

ولَمّا فَشَا سِرُّ الصَّباح ، واهتزَّت أعطافُ الرايات لتحيَّات مبَشِّرات الرِّياح ، أطْلَلْنا عليها إطلالَ الأُسود علىٰ الفرائس ، والفُحُولِ علىٰ العرائس ؛ فنظرنا مَنْظَرا يَرُوع بأسًا ومَنَعه ، ويروقُ وَضْعا وصَنْعه ، تَلَفَّعت معاقِلُه الشمُّ للسَّحاب ببُرود ، ووردَتْ من غَدِير المُزْن فى بُرُود ، وأسرَعَتْ لاِختطاف أزهار النُّجوم والذراع بين النطاق مَعاصِمُ رُودٍ ؛ وبلدًا يُعيِي الماسِحَ والذارِع ، وينتظم المحانى والأجارِع ؛ فقلنا : اللهم نقِّله أيدى عبادك ، وأرِنَا فيه آيةً من آيات جِهادِك ؛ فنزلنا بساحتها العريضةِ المُتُون ، نُزولَ الغيث الهَتُون ؛ وتيَمَّنَّا من فَحْصها الأفْيَح بسورة التِّين والزيْتُون ، متربة من أمان الرحمان للبلد المَفْتُون ؛ وأعجَلْنَا الناسَ بحِميَّة نُفُوسهم النَّفيسه ، وسجِيَّة شجاعتهم البَئيسه ؛ عن أن نُبَوِّئَ للقتال المَقَاعد ، ونُدْنِىَ بإسماع شَهِيرِ النَّفير منهم الأباعد ؛ وقبل أن يلتقِىَ الخديمُ بالمخدوم ، ويركَعَ المَنْجنيقُ ركعَتَىِ القُدُوم ؛ فدفعوا مَنْ أصْحَرَ إليهم من الفُرْسان ، وسَبَق إلىٰ حَوْمة المِيدان ؛ حتّى أجْحَرُوهم فى البَلَد ، وسَلَبُوهم لباسَ الجَلَد ، فى مَوْقِف يُذْهِل الوالدَ عن الوَلَد ؛ صارتِ السِّهامُ فيه غَمَاما ، وطارَتْ كأسرابِ الحَمَام تَهْدِى حِمَاما ؛ وأضحَتِ القَنَا قِصَدا ، بعدَ أنْ كانتْ شِهابًا رَصَدا ؛ وماجَ بحرُ القَتَام بأمواج النُّصُول ، وأخذ الأرضَ الرَّجَفانُ لزَلْزَال الصِّياح الموصُول ؛ فلا ترىٰ إلا شهيدًا

تُظَلِّل مَصْرَعَه الحُور، وصريعًا تَقذِف به إلى الساحل أمواج تلك البُحُور، ونَواشِبَ تَنْأى بها الوُجوهُ الوجيهةُ عندَ الله والنُّحور ؛ فالمقْضَب ، قَوْدُه يُخْضَب ، والأسمر ؛ غُصْنه يستثمر ؛ والمِغفر ، حِمَاه يَخْفُر ؛ وظُهور القِسِيّ تُقْصَم ، وعِصَم الجُنَد الكوافر تُفْصَم ؛ ووَرَق اليَلَب ، فى المنقلب ، يَسْـقُط ، والبُتْر تكتب والسُّمْر تَنْقُط ؛ فاقتُحِم الرَّبَضُ الأعظمُ لِحِينه ، وأظهر اللهُ لعيون المُبْصِرين والمستَبْصِرين عِزَّةَ دينه ، وتبرّأ الشيطانُ من خَدِينه ؛ ونُهِب الكُفّار وخُذِلوا ، وبكُلِّ مَرْصَدٍ جُدِّلوا ؛ ثم دُخِل البلَدُ بعده غِلَابا ، وجُلِّل قَتْلًا واستلابا ؛ فلا تَسَـلْ ، إلا الظُّبَى والأَسَل ، عن قيام ساعته ، وهَوْلِ يومها وشَنَاعته ، وتخريبِ المَبَانى والمَبَانى ، وغِنَى الأيدى من خزائن تلك المَغَانى ، ونَقْلِ الوُجود الأوّل إلى الوُجُود الثانى ؛ وتَخارقَ السيفُ فجـاء بغير المعتاد ، ونَهِلت القنَا الرُّدَيْنِيّةُ من الدماء حتّى كادت تُورِق كالأغصان المُفْتَرَسة والأوتاد ؛ وهَمَتْ أفلاكُ القِسِيِّ وسَحَّت ، وأرنَّتْ حتّى بَحَّت ، ونَفِـدت موادُّها فشـحَّت بمـا ألَحَّت ؛ وسَدّت المسالكَ جُثَثُ القتلى فمنَعت العابر ، واستأصلَ اللهُ من عدوّه الشأفَةَ وقَطَع الدابِر ، وأُزْلِفَ الشهيدُ وأُحسِب الصابر ، وسبقَتْ رُسُلُ الفتح الذى لم يُسْمَع بمثله فى الزمن الغابِر ، تَنْقُل البُشْرى من أفواه المحابر ، إلى آذانِ المَنَابر .

أقمنا بهـا أيّاما نَعْقِر الأشجار ، ونستأصِـلُ بالتخْرِيب الوِجَار ، ولسانُ الانتقام ، من عَبَدةِ الأصنام ، يُنادِى يالَثَارات الإسكندرية تَشَفِّيا من الفُجّار ، ورَعْيًا لحقِّ الجـار ؛ وقفَلْنا وأجنحةُ الرايات ، برياح العِنَايات ، خافقـه ؛ وأوفاق التوفيق ، النـاشئة من خطوط الطريق ، موافقه ؛ وأسواقُ العِزِّ بالله نافقه ، وحملاء الرفق مصاحبة ــ والحمدُ لله ــ مرافِقه ؛ وقد ضاقَتْ ذُروعُ الجبال ، عن أعناق الصُّهْب السِّبال ، ورُفِعت على الأكفال ، رُدَفاءُ كرائم الأنفال ؛ وقُلِعَتْ من النواقيس أجرامُ

الجبال بالهِنْدام والاحتيال ؛ وهلك بمَهْلِك هذه الأمّ بناتٌ كُنّ يرتضعْن ثُديَّها الحوافل ويستوْثِرن حِجْرها الكافل ؛ شَمِل التخريبُ أسوارَها ، وعَجّلت النار بوارَها .

ثم تحرّكنا بعدها حركةَ الفتح ، وأرسلنا دِلاءَ الإدلال قبل المَتْح ، فبشّرت بالمَنْح ؛ وقصــدنا مدينةَ أُبّدَةَ وهى ثانيــة الجناحيْن ، وكُبْرىٰ الأختيْن ، ومساهِمةُ جَيّــانَ فى حِين الحيْن ؛ مدينة أخذَتْ عَرْض الفضاء الأخرق ، وتمشَّتْ فيه أرباضُها تمشّى الكتابة الجــامحة فى المُهْرق ؛ المشتمِلة علىٰ المَتَاجر والمَكَاسب ، والوضْع المُتناسب ، والفَلْج المُغْنِي رَيْعُــه عملَ الحاسب ، وكُوارة الدَّبْر اللّاسِب ، المتعــدّدة اليعَاسب ؛ فأناخ العَفَاءُ بربوعها العــامِره ، ودارتْ كُئُوس عُقَــار الحُتوف ، ببَنَان السيوف ، علىٰ متديّريها المعاقِرة ، وصَبّحتْها طــلائعُ الفاقرة ، وأُغرِيتْ ببُطُون أســوارها عُوجُ المَعَاول الباقره ؛ ودخلَتْ مدينَتَها عَنْوةُ الســيف ، فى أسرَعَ من خَطْرة الطّيْف ، ولا تسألْ عن الكَيْف ؛ فلم يبلُغ العَفَاءُ من مدينــةٍ حافله ، وعقيلةٍ فى حُلَل المحاسن رافله ؛ مابلغ من هــذه البائسةِ التى سجدَتْ لآلهِةِ النّيران ابراجُها ، وتضاءل بالرَّغَام مِعْراجُها ؛ وضــفَتْ علىٰ أعطافهــا ملابِسُ الخِــذْلان ، وأقفَرَ من كَنَاسِها كُنّاسُ الغِزْلان .

ثم تأهّبنا لغزو أُمّ القُرىٰ الكافره ، وخَزَائن المَزَاين الوافِره ، ورَبّة الشُّهرة السافره ؛ [والأنباء المسافره](١) قُرْطبةَ وما أدراك ماهيه ، ذاتُ الأرجاء الحالية الكاسِيَه ، والأطْوادِ الراسخة الراسِيَه ، والمَبَانِى المباهية والزهراء الزاهيه ، والمحاسنِ غير المُتناهيه ؛ حيثُ هالةُ بدر السماء ، قد آستدارَتْ من السُّور المَشِيدِ البِناء ؛ ونَهْرُ المَجَرّة من نَهْرها الفيّاض ، المسلول حُسامُه من غُمُود الغِيَاض ؛ قد لَصِق بهــا جارا ، وفلَكُ الدُّولاب المعتدِلُ

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب".

الانقلاب قد استقام مَدَارا، ورَجَّع الحنين اشتياقًا إلى الحبيب الأول وادّكارا؛ حيث الطَّوْدُ كالتاج، يزدان بِلُجَيْن العَذْب المُجَاج؛ فيُزْرِى بتاج كسرى ودارا؛ حيثُ قِسِيُّ الجُسُور المديره، كأنها عُوجُ المطيّ الغريره، تعبُرُ النهر قطارا؛ حيثُ آثارُ العامريّ المجاهد، تَعْبَقُ بين تلك المعاهِد، شَذَى مِعْطارا؛ حيثُ كرائمُ السَّحائب، تزورُ عرائس الرياض الحبائب، فتحمِلُ لها من الدُّرِّ نِثارا؛ حيثُ شَمولُ الشَّمال تُدارعلى الأدواح؛ بالغُدُوّ والرَّواح، فترى الغُصونَ سُكارى وما هى بسُكارى؛ حيثُ أيدى الافتتاح، تَفْتَضُّ من شقائق البِطاح، أبكارا؛ حيثُ ثُغورُ الأقاح الباسم، تقبِّلها بالسَّحَر زُوّار النَّواسم، فتَخْفِق قلوبُ النُّجوم الغَيارى؛ حيثُ المصلَّى العتيقُ قد رَحُب مجالا وطال مَنَارا، وأزرى ببَلَاط الوليد احتقارا؛ حيثُ الظُّهور المثارة بسلاح الفلاح تُجِبُّ عن مثل أسنمة المَهَارَا، والبطونُ كأنها لتَدْميث الغمائم بُطونُ العَذارى، والأدواحُ العالية تخترِقُ أعلامُها الهادِيةُ بالجَداول الحَبَارا؛ فما شئت من جوٍّ صَقيل، ومُعَرَّس للحُسْن ومَقيل، ومالِكٍ للعقل وعَقيل. وخمائلَ كَمْ فيها للبَلابل من قالٍ وقيل، وخَفيف يجاوَبُ بثَقِيل. وسنابِلَ تحكِي من فوقِ سُوقِها، وقُضُب بسُوقِها، الهمزاتِ فوق الألِفات، والعصافيرُ البديعةُ الصِّفات، فوقَ القُضُب المؤتلِفات، تميل بهُبوب الصَّبا والجَنُوب، مائلةَ الجُيوب بدُرَر الحُبوب. وبطاحٍ لاتعرِف عينَ المَحْل، فتطلُبُهُ بالذَّحْل، ولا تَصْرِف فى خدمة بيض قِباب الأزهار، عند افتتاح السَّوْسن والبَهَار، غيرَ العُبْدان من سُودان النَّخْل، وبحرِ الفلاحة الذى لا يُدْرَك ساحِلُه، ولا يَبْلُغُ الطَّيَّةَ البعيدةَ راحِلُه، إلى الوادى، وسَمَر النَّوادى، وقرارِ دُموع الغَوادى، المتجاسر على تَخَطِّيه، عند تَمَطِّيه، الجِسرُ العادى، والوطَن الذى ليس من عمروٍ ولا زيد،

والقَرَا الذى فى جوفه كلُّ صيد ، أقلَّ كرسيُّه خلافةَ الإسلام ، وأعار بالرُّصافة والجسر دَارَالسلام ، وماعسىٰ أن تُطْنِبَ فى وصفه ألسنةُ الأقلام ، أو تُعبِّر به عن ذلك الكمال فُنونُ الكلام .

فأعملنا إليها السُّرىٰ والسَّيْر ، وقُدْنا إليها الخيلَ وقد عَقَد اللهُ بنواصيها الخَيْر .

ولمـا وَقَفْنا بظاهرِها المُبهِت المُعْجِب ، واصطفَفْنا بخارجها المُنْبِت المُنْجِب ؛ والقلوبُ تلتمس الإعانةَ من مُنْعِمٍ مُجْزِل ، وتستَنْزِل مَدَدَ الملائكة من مُنْجِدٍ مُنْزِل ، والركائبُ واقفةٌ من خَلْفِنا بمعْزِل ، تتناشَدُ فى معاهد الإسلام : قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرىٰ حَبِيبٍ ومَنْزِل — برزمن حاميتها الحاميه ، ووَقُودِ النـار الحاميَه ، وبقيةِ السيف الوافرة علىٰ الحَصَاد الناميَه ، قِطعُ الغمائم الهاميه ، وأمواجُ البُحور الطاميَه ، واستجَنَّت بظلال أبطال المَجَال أعدادُ الرجال الناشبة والراميه ؛ وتصدَّى للنِّزال ، من صَناديدها الصُّهْب السِّبال ، أمثالُ الهِضَاب الراسيه ، تَجُنُّها جُنَنُ السَّوابغ الكاسيه ؛ وقواميسُها المُفَاديةُ للصُّلْبان يوم بُوسها بنُفُوسها المُوَاسيه ، وخنازيرُها التى عدَتْها عن قَبُول حُجَج الله ورسوله سُتور الظُّلَمَ الغاشيه ، وصُخُور القلوب القاسيه ؛ فكان بين الفريقين أمامَ جسْرها الذى فَرَق البحر ، وحَلِي بلُجَيْنه ولآلئ زَيْنه منها النَّحْر ، حربٌ لم تَنْسِج الأزمانُ علىٰ مِنوالها ، ولا أتتِ الأيَّامُ الحَبَالىٰ بمثل أجِنَّة أهوالها ؛ مَنْ قاسَها بالفِجَار أفْكَ وبَخَر ، أومثَّلها بحَفْر الهباءة خَرِف وهَجَر ، ومن شبَّهها بحَرْب داحِسٍ والغَبْراء فمـا عَرَف الخَبَر ، فليسأل مَنْ جرَّب وخَبَر ؛ ومن نظَّرها بيومِ شِعْب جَبَـلَه ، فهو ذُو بَلَه ؛ أو عادَلَها ببطن عاقِل ، فغيرُ عاقل ؛ أو احتجَّ بيومِ ذى قار ، فهو إلىٰ المعرفة ذو افتِقار ، أو ناضلَ بيوم الكَدِيد ، فسَهْمُه [غير السَّديد] (١) إنما كان مقاما غير مُعْتاد ،

---

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب".

ومَرْعى نُفوسٍ لم يَفِ بوصفه لسانُ مُرْتاد، وزَلْزالَ جبال أوتاد، ومَتْلَفَ مَذْخُور لسلطانِ الشيطان وعتاد، أُعْلِمَ فيه البطلُ الباسل، وتوردَّ الأبيضُ الباترُ وتأوَّدَ الأسمرُ العاسل، ودوَّمَ الجَلْمَدُ المتكاسل، وآنبعثَ من حَدَب الحَنِيَّة إلىٰ هَدَف الرَّمِية الناشرُ النَّاسِل، ورُوِيتْ لمرسَلَات السِّهام المَرَاسل؛ ثم أفضىٰ أمرُ الرِّماح إلى التَّشَاجُرِ والآرْتِباك، ونَشِبَت الأسِـنَّةُ فى الدُّروع نَشْبَ السَّمَك فى الشِّباك؛ ثم آختلط المَرْعىٰ بالهَمَل، وعُزِل الرُّدَينِيُّ عن العمل؛ وعادتِ السُّيوفُ من فوق المَفَارِق تِيجانا، بعد أن شُقَّتْ غُدُرَ السوابغ خُلْجانا؛ وآتَّحدَتْ جَداوِلُ الدُّروع فصارتْ بَحرا، وكان التعانُقُ فلا ترىٰ إلا نَحْرا يلازِمُ نَحْرا؛ عِنَاق وَدَاع، وموقِفَ شَمْلِ ذِى آنصِـداع، وإجابةَ منادٍ إلىٰ فراق الأبدِ وَدَاعْ؛ وآستكشَفتْ مآلَ الصبرِ الأنفُسُ الشَّفَّافه، وهبَّتْ بريح النصر الطلائعُ المبَشِّرة المَفَّافه؛ ثم أمدّ السيلُ ذلك العُباب، وصَقَل الآستِبْصارُ الألباب، وآستخلص العزمُ صَفْوةَ اللُّباب، وقال لسان النصر: آدْخُلُوا عليهمُ الباب؛ فأصبحَتْ طوائفُ الكُفَّار، حصائدَ مَنَاجِل الشِّفار، فَمفارِقُهم قد رَضِيتْ حُرُماتُها بالاعْفار، ورءُوسُهم مَخطوطة فى غيرِ مَعَالِمِ الآسـتغفار، وعلَتِ الراياتُ من فوق تلك الأبراج المستَطْرَفة والأسوار، ورَفْرَفَ علىٰ المدينة جَناحُ البَوَار، لولا الآنتهاءُ إلىٰ الحَدِّ والمِقْدار، والوقوفُ عند آختفاء سِرِّ المِقْدار.

ثم عبَرْنَا نهرها، وشدَدْنا بأيدى الله قَهْرها، وضيَّقْنا حَصْرَها، وأقمنَا بهـا أياما تَحُوم عقبانُ البُنُود علىٰ فرِيسَتها حِياما؛ وتَرْمِى الأرواحَ ببوارها، وتُسَلِّط النيرانَ علىٰ أقطارها، فلولا عائقُ المطـر، لحصَلْنا من فتح ذلك الوَطَن على الوَطَر؛ فرأينا أن نَرُوضَها بالآجتِثاث والآنْتِساف، ونُوالِىَ علىٰ زُرُوعهـا ورُبُوعها كَرَّاتِ رِياح الآعْتِساف؛ حتّى يتهَـيَّأَ للإسلام لَوْكُ طُعْمَتها، ويتهنَّأَ بفضـل الله إرثُ نِعمتها؛

ثم كانت عن موقفها الإفاضةُ من بعـد نحر النُّحُور، وقذف جمار الدَّمَار على العَدُوّ المَدْحُور، وتدافعت خلفنا السابقات المستقلّات تدافُعَ أمواجِ البُحور.

وبعد أن ألحَحْنا على جَنّاتها المُصحِره، وكُرومِها المشتجِره، إلحاحَ الغريم، وعوَّضناها المَنظَرَ الكريهَ من المَنظَر الكريم، وطاف عليها طائفٌ من ربّنا فأصبحت كالصَّريم، وأغرينا حِلَاق النار بجَمّ الجَحيم، ورأكمنا فى أجواف أجوائها غمائمَ الدُّخان، تُذكّر طِيبة البان، بيوم الغَميم؛ وأرسلنا رياحَ الغارات لا تذرُ من شىءٍ أتت عليه إلا جعلته كالرَّميم؛ واستقبلنا الوادىَ يهول مدّا، ويَروع سيفُه الصَّقيل حدّا، فيسّره اللهُ من بعد الإعواز، وانطلقت على الفُرضة [بتلك الفُرصة] (١) أيدى الانتهاز، وسألنا من ساعله أسدُ بنُ الفُرات فأفتى برُجحان الجواز فعمَّ الاكتساحُ والاستباحُ جميعَ الأحواز؛ فأُديلَ المَصون، وانتُهِبت القُرى وهُدِمت الحُصُون، واجتُثّت الأصولُ وحُطِّمت الغُصون؛ ولم نَرفع عنها إلى اليوم غارةً تُصافحها بالبُوس، وتُطْلِع عليها غُرَرَها الضاحكةَ باليوم العَبوس؛ فهى الآنَ مَجرى السوابق ومَجَرّ العوالى، على التوالى، والحسراتُ تتجدّدُ فى أطلالها البَوالى، وكأنّ بها قد صُرِعت، وإلى الدَّعوة المحمَّديّة قد أسرعت بقُدرة من لو أنزل القرآنَ على الجبال لخَشَعت من خشية الله وتصدَّعت، وعِزّةِ من أذعنت الجبابرةُ لعزّه وخَنَعت؛ وعُدْنا والبُنودُ لا يَعرِف اللفَّ نشرُها، والوجوهُ المجاهدةُ لا يخالِطُ التقطيبَ بِشرُها؛ والأيدى بالعُروة الوُثقى معتَلِقه، والألسُنُ بشُكر نِعَم الله مُنطلِقه، والسيوفُ فى مَضاجعِ الغُمود قَلِقه، وسرابيلُ الدُّروع خَلِقَه، والجيادُ من رَدّها إلى المَرابط والأَوَارِى ردَّ العَوارى حَنِقه، وبعَبَرات الغَيظ المكظومِ مختنِقه؛ تنظر إلينا نظَرِ العاتِب، وتَعودُ من ميادين المِراح والاختيالِ تحت حُلَل السِّلاح عَوْدَ

(١) الزيادة من "ريحانة الكتّاب".

الصِّبيان إلىٰ المكاتِب ؛ والطَّبْـل بلسان العزّ هادر ، والعَزم إلىٰ مُنادِى العَوْد الحميد مُبادِر،ووجودُ نوع الرِّماح،من بعد ذلك الكِفَاح،نادِر، والقاسمُ ترتّب بين يديه من السبي النَّوادِر،ووارِدُ مَنْهل الأُجور،غير المُحَلَّإ ولا المَهْجُور، صادر، ومُناظِرُ الفضل الآتِى عقبهُ أُخَيَّــه الثـانى علىٰ المطلوب المُواتِى مُصادِر ؛ واللهُ علىٰ تيسير الصِّعاب وتحويل المِنَنِ الرِّغاب قادِر؛ لا إلٰهَ إلا هو، فما أَجْمَلَ لنا صُنْعه الخفيّ! وأكرَمَ بنا لُطْفَه الحَفِيّ! اللهم لانُحْصِى ثناءً عليك ، ولا نَلْجأ مِنْك إلا إليك ، ولا نلْتمِس خيرَ الدُّنيا والآخرة إلا لَدَيْك ، فأعِدْ علينا عوائدَ نصرِك يامُبْدِئ يامُعِيد ، وأعِنَّا من وسائل شُكْرِك علىٰ مانَنال به المَزِيد ، ياحىُّ ياقيُّوم يافَعَّالا لِمـا يُرِيد .

وقارنَتْ رسالتَكم الميمونةُ منه لَدَيْنا حذَقُ فتح بعيدِ صِيتِه ، مشرِبٌ لِيتُه ، ونَحْو من فوقِ النُّجوم العوَاتِم مَبيتِه، عجِبْنا من تأتِّى أملِه الشارد، وقلنا البركةُ فى قُدوم الوارد، وهو أنَّ مِلكَ النَّصارىٰ لا طَفَنا بجملة من الحُصُون كانت من مملكةِ الإسـلام قد غُصِبت ، والتماثيلُ فيهـا بِبُيوتِ الله قد نُصِبت ؛ أدالَها اللهُ بمحاولَتِنا الطيِّبَ من الخبيث، والتوحيدَ من التَّثليث ؛ وعاد إليها الإسلامُ عَوْدَةَ الأبِ الغائب ، إلىٰ البَناتِ الحبائبِ ؛ يسأَلُ عن شُـُونها ، ويمسَحُ دُموعَ الرِّقّة عن جُفُونها ؛ وهى للرُّوم خُطَّة خَسْفٍ قلّما ارتكبُوها فيما نَعلمُ من العُهُود، ونادرةٌ من نَوادِر الوجود؛ والىٰ اللهُ علينا وعليكم عوارِفَ الجُود! ، وجعلنا فى محاريب الشُّكر من الرُّكَّع السُّجود! .

عرَّفناكم بجمَلاتِ أمورٍ تحتها تفسير، ويُمْنٌ من الله وتَيْسير، إذ استيفاءُ الجزئيّات عَسير، لِنَسُرَّكم بمـا منَح اللهُ دينكم، وتتوَّج بعزِّ المِلَّة الحنيفيَّة جَبِينَكم، ونخطُب بعده دعاءكم وتأمينكم ؛ فإنَّ دعاءَ المُؤْمِن لِأخيه بظَهْر الغَيْب سِلَاح ماض، وكفيلٌ بالمواهِب المسـُولة من المُنعِم الوهَّاب ميْفاض؛ وأنتمْ أوْلىٰ ماساهم فى بِرّ ، وعامَلَ اللهَ بخُلُوص

سِرّ ؛ وأين يذهب الفضل عن بَيْتِكم ، وهو صفة حَيِّكم وتُراث مَيْتِكم ؛ ولكم مَزِيّة القِدَم، ورسوخُ القَدَم؛ والخلافةُ مقرُّها إيوانُكم، وأصحابُ الإمام مالكٍ رضى الله عنه مستقَرُّها قَيْروانُكم ؛ وهجيرُ المنابر ذِكْرُ إمامكم ، والتوحيدُ أعلامُ أعلامكم ؛ والوقائع الشهيرةُ فى الكفر منسوبةٌ إلىٰ أيّامكم ، والصحابةُ الكرامُ فَتَحَة أوطانكم ، وسُلالةُ الفاروق عليه السلام وَشَائِجُ سُلْطانكم ، ونحن نستكثر من بركة خِطابِكم ، ووُصْلةِ جَنَابكم ، ولولا الأعذار لوَالَيْنا بالمتزيدات تعريفَ أبوابكم .

والله عز وجل يتولّىٰ عنا من شُكْركم المحتوم، ماقصَّر المكتوب منه عن المَكْتُوم؛ ويُبْقِيكم لإقامة الرُّسُوم ، ويُحِلُّ محبَّتَكم من القلوب محلَّ الأرواح من الجُسُوم ؛ وهو سبحانه يَصِل سَعْدَكم، ويَحْرُس مجْدَكم، ويوالى نِعمَه عندكم .

والسلامُ الكريم، الطَّيِّب البرُّ العميم ؛ يخصُّكم كثيرا أثيرا، ما أطلع الصبْحُ وجهًا مُنيرا ، بعد أن أرسل النسيمَ سَفِيرا ، وكان الوميضُ الباسم، لأكواس الغمائم ، علىٰ أزهار الكمائم مُدِيرا ؛ ورحمة الله وبركاته، إن شاء الله تعالىٰ .

الطـــرف الثـامن

(فى المكاتبات الصادرة عن الأمراء من العُمّال وأمراء السَّرايا فى صدر الإسلام إلىٰ مَنْ فى معناهم)

وكان الغالبُ فى مكاتباتهم الافتتاحَ بأما بعد والتعبيرَ عن المكتوب عنه بلفظ الوحدة ، وخطابَ المكتوب إليه بالكاف .

كما كتب الحجّاج بنُ يوسف إلىٰ المهلَّب بن أبى صُفْرة، وهو يومئذ نائبٌ عن الحجّاج علىٰ بعض الأعمال والحُروب .

أما بعدُ، فإنّك تتراخىٰ عن الحرب حتّى تأتيَك رُسُلى ويرجِعُون بعُذْرك، وذلك أنك تُمسك حتّى تبرأ الجِرَاح وتُنسى القتلىٰ ويَجِمّ النـاس، ولو كنتَ تلْقاهم بذلك الجـدّ لكان الداءُ قد حُسِم ، والقَرْن قد قُصِم ، ولعَمْرِى ما أنت والقَوْم سَـوَاء ، لأنَّ من ورائك رجالا ، وأَمامك أموالا ؛ وليس للقوم إلا ما معهم ، ولا يُدْرَكُ الوجيف بالدَّبيب ، ولا الظَّفَر بالتعذير .

وكما كتب المهلّب إلىٰ الحجّاج مجيباًله عن ذلك .

أما بعدُ ، فإنّى لم أُعْطِ رُسُلَك علىٰ قول الحقّ أجرا ، ولم أحتَجْ فيهم مع المشاهدة إلىٰ تَلْقِين . فذكرتَ أنى أُجِمّ القومَ ، ولا بدّ من راحة يستريحُ فيها الغالِب ويحتالُ المغلوب . وذكرت أن فى الجَمَام تُنْسىٰ القتلىٰ وتَبْرأ الجراح ، وهيهـات أن يُنْسىٰ مابيننا وبينهم، يأبىٰ ذلك قتلُ من لم يَجْنِ، وقروحٌ لم تعرق، ونحن والقومُ علىٰ حالة وهم يَرْقُبون منّا حالاتٍ، إن طَمِعوا حارَبُوا، وإن مَلُّوا وقفُوا، ونطلُبُ إذا هَرَبُوا، فإن تركْتَنى فالدّاء بإذن الله مَحْسوم ، وإن أعجَلْتنِى لم أُطِعْـك ولم أَعْص وجعلت وجْهِى إلىٰ بابِك، وأنا أعوذُ بالله من سَخَطه ومَقْتِ الناس .

الطـــــرف التـاسع

(فى المكاتباتِ الصادرة عن الملوك ومَنْ فى معناهم، إلىٰ الملوكِ ومَنْ فى معناهم، علىٰ ما كان عليه مصطلَحُ أهل المشرق، وهو علىٰ ثلاثة أضرب)

الضرب الأوّل

(أن تكون المكاتبةُ عن ملك إلىٰ غير مَلِك)

ورسمهم أن يفتتح الكتابُ بلفظ « كتابُنا إليـك فى يوم كذا ، ومن مكان كذا ، والأمر علىٰ كذا وكذا » ويذكر الحال التى عليها المكتوبُ عنه حينئذ أوالتى عليهـا

الخليفةُ إن كان المكتوب عنه من أتباع الخليفة ، أوالتى عليها المَلِك إن كان من أتباع الملك ونحو ذلك ؛ ويكون التعبيرُ فى هذه المكاتبة عن المكتوب عنه بنون الجمع ، والخطابُ للمكتوب إليــه بالكاف . ولا يقال فى المكتوب إليه فى هــذه الحالة : سيِّدى ومولاىَ ، ولا سيدنا ولا مولانا . وبذلك يكتب عن الملوك ومَنْ فى معناهم من سائر الرؤساء إلى المرءُوسين .

ثم هو على مرتبتين :

المرتبة الأُولى ــ أن يُراعىَ جانبُ المكتوبِ إليه فى الرِّفعة بعضَ المُراعاة .

كما كتب أبو إسحاق الصابى عن صَمْصام الدولة بن عضُد الدولة بن ركن الدولة آبن بُوَيه ، إلى الصاحب كافى الكُفَاة إسماعيل بن عَبَّاد وزير فخر الدولة ، فى الشفاعة فى شخص من بعض ألزامه :

كتابُنا ــ أدام الله تأييدَ الصاحب الجليل كافى الكُفَاة ــ وإن وَثِقْنا من المسئولين بالإيجاب والإجابه ، ومن المأمورين بالأمتثال والطاعه ؛ فإنا نُخُصُّ بكُتُبنا الصادرة عنا فى المآرب العارضــةِ لنا ٦ من خصتْ[1] من كلا الفريقين نهضَتُه إليها ، وظَهرتْ مثابرتُه عليها ؛ وإذا آنتهينا إليه ــ أدام الله عِزَّه ــ فى ذلك عُدِدنا مع ماقدّم الله عندنا من رتبته فى الطبقة الأولى ، ومُيِّزنا مع ماوَفَّر الله علينا من طاعته عن الطبقة الأخرى ؛ وأنِسْنا منه عادةً مشكورة فى آتبــاع محبوبنا ، والإســعاف بمطلوبنا ؛ ليَسْلَس لنــا إلى مخاطبته قيــادٌ يتقاعَسُ عمَّن سِواه ، وتَنْبَسِط منا فى مكاتبتــه أناملُ تتجعَّد عمن لايَجْرِى مَجْراه ؛ ولاسيما إذا كان ذلك فى مَكْرُمة يطيبُ ثناؤُها ، ومَنْقَبة يُشَادُ بناؤُها ؛ والله يَمُدّه ويمدُّنا فيه من طِيبِ السَّجايا ، وصالحِ العَطايا ؛ بما هو الولِىُّ به ، والحقيق بالشكر عليــــه .

(١) لعله حصحصت أو وضحت أو نحو ذلك .

وكتابُنا هذا ـ أدام اللهُ عزَّ الصاحب الجليل كافى الكُفَاة ـ مبنيٌّ على إذكاره بحقٍّ لنا رعَيْناه ، وذِمام من أجْله أوجَبْناه ؛ وذلك أسدُّ لإحكامه وألزمُ لإيجابه ، وأوكد لأسبابه ؛ وقد عَرَف مكان أبى منصور يزداها داربن المَرْزُبان من خِدْمتنا ، ومَوقِعَه فى جملتنا ، وتوفُّرَ حظِّه من جميـل رأينـا ، وخالِص آعتقادنا ؛ ومن أوْجهِ وسائله لدينا ، التى أوجبتْ له ذلك علينا ، أنا لانزال عده عليه (1) ، من الآعتداد باحسان الصاحب الجليـل كافى الكفاة إليه ، وإلىٰ أبيه من قبله ، والآعتراف بأنه أيده الله أبو عُذْرة صنعه ، والسابقُ إلىٰ الجذب بضَبْعه ؛ ولمن كان أقر له من ذلك معروفٌ لايُنْكر ، ودَخَل من الثناء عليه فى إجماع لايُخْرَق ؛ فقد بيَّن عن نفسه أنه ممن يُطيق حَمْل المِنَن ، ويُحْسِنُ مصاحبةَ النِّعم ؛ ويستحق أن تُقَرَّ عنده أسلافُها ، وتُدَرَّ عليه أخلافُها ؛ إذ لم يُذْهله الرُّبُوع فيهـا عن التحيد من اصطرافها وآنصرافها ، ولم يُلْهِه التوسُّطُ لها عن حياطة أطْرافها وأكافها ؛ ومَنْ لنا اليومَ بالشَّكور الذى لا يَغْمِط ، والذَّكور الذى لاينسىٰ ؟ والعليم بمـا يلزمه ، والقَـوُم بمـا يحِقُّ عليه . وأعْلَمنا حال قريبين له يقال لهما الفركان بن حرزاد ، ورستم بن يزد ؛ وأنهما تصرفافى بعض الخِدْمة تصرُّفا تزايَلاَ فيه عن نَهْج السَّـداد ، وسَنَن الرَّشاد ؛ وآقتضىٰ ذلك أن طُلِبا بالتقويم والتهذيب ، ووَبِخَا مَضيق القصاص والتأديب ؛ وأنه قد مضَتْ لهما فيه مدّةٌ طويلة فى مثلها ما صَلَح المعاقَب ، واكتفىٰ المعاقِب ؛ وسؤالَه لهما ، ومرادنا له فيهما ، شفاعةُ الصاحب الجليل كافى الكُفَاة إلىٰ مولانا الأمير السـيد شاهنشاه فخر الدولة فى أن يَسَعَهُما العفوُ ، ويدركهما العَطْفُ إما بآستخدام يتطوّقانِ به المِنَن ، ويأذَنُ لهما بانصراف إلىٰ الوطَنْ ؛ وقد آسـتظهرنا بكتَابٍ كتبناه فى أمرهمـا : هذا الكِتاب يشتمِلُ عليه ، حتّى إذا وجب أن يجعله الصاحبُ الجليـل كافى الكُفاة ذريعةً إلىٰ

(1) كذا فى الأصول ولعله أنه لايزال يعدّ ماعليه من الاعتداد الخ .

الغَرَض ، ومطيَّةً إلىٰ المقصد ، أمضىٰ فى ذلك رأيه ، وعقد عليه تدبيرَه . فإن رأىٰ الصاحب الجليل أن يتوصَّل فى هذا الأمر إلىٰ ما يُتَّسَا كل عادتَهُ عنـدنا فى الأمور الواردة عليـه فعل، وتوخَّى فى الجواب أن يكون متضمِّنا لذكر الفعل دون القول، والإنجاز دون الوعد، إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وكما كتب الصابى عن صَمْصام الدولة المقدّم ذكره، إلىٰ الصاحب بن عباد أيضا فى حالة أخرىٰ ، بسبب ردِّ إقطاع إلىٰ أبى جعفر محمد بن مسعود قرين كتاب إلىٰ فخر الدولة

كتَابُنا والسلامةُ لدينا راهنه ، وعادةُ الله لإقرارها ضامنه ، والحمدُ لله رب العالمين ، والصاحبُ الجليلُ كافى الكُفاة ــ أدام الله تأييده ــ يعلم أنه لم يزَلْ لمـالكنا أفنيةٌ تُقام بها أسواقُ المكارم، وتَحيَـا بها سُنَن المحامد ، وقد جعله الله بتفضُّله الحافظَ لجمال ذلك علينا ، والضارِبَ بسهمه فيه مَعَنا ، فالحمدُ لله علىٰ أن قَرَن الحظوظَ التى خَوَّلَنا ، والمنازِلَ التى نَوَّلَنا ، بالخلائقِ الخليقة بها ، الداعيةِ إلىٰ آستقرارها ، والطرائقِ المطَرِّقة إلىٰ ثَبَاتهـا واستمرارهـا ، وأنْ زانَ أيامَنَا هــذه الحاضره ، بآثار الصاحب كافى الكُفَاة أدام اللهُ عزه فيها النَّـاضِره ، ومساعيه الرَّشيدة ، وأفعالِه المستقيمه ، وأحاديثه الجميلة ، وإيَّاه نسأل أن يُجْرِيَنا وكلَّ ناصِحٍ علىٰ أفضلِ ما عَوَّدَنا وأحسنِ ما أولاه ومنحنا بقُدْرته .

وإذا كان مولانا الأميرُ السيدُ شاهنشاه فخر الدولة ، وفَلَك الأُمَّة ، بالمحلِّ الذى أهَّله الله له : من آستِعْذابِ الإحسان إلىٰ أوليائه ، وآفتراض الإفضال علىٰ نُصَحائه ، وكان الصاحبُ الجليلُ بالحال التى هو بهـا من القيام بمـا حمل به (١) المُناب فيه عنه ،

(١) فى الأصل « من القيام قد كمل له والمناب الخ » وهو تخليط من الناسخ .

فقد وجب أن تكونَ الرِّعاية لِذَوِى الحُرُمات مستحْكِمَةَ الأسباب ، ثابتةَ الأطْناب ، واضحةَ الأعلام ، ماضِـيةَ الأحكام ؛ ولا سيمـا فيمن تَعَلَّق مِنَّـا بالعناية ، وأخذ من ذِمامِنا بالوثيقة ؛ و « أبو جعفر محمد بن مسعود » أيده الله جامعٌ لِلَوَاتٍّ ، التى يستحِقُّ بها آجتماع العنايات ؛ سالِفًا صالحًا فى الخدمة ، وسابقةً متمكِّنة فى الجملة ؛ وآشتمالاً علىٰ كلِّ ما وجبت به الحقوق ، ولَزِمتْ به الرعايات . وذَكَر أنه كانتْ له بنواحى الجبـل تَسْويغاتٌ ومعايِشُ أنعم بها مولانا الأمير السـيد فخر الدولة عليـه فى حالٍ بعد حال ، وشَرَّفه بها فى مَقَام بعد مَقَام ؛ منها كذا وكذا ، وإذا جُمِـع الجميع كان قليلا فى جَنْب ما يُفيضه مولانا الأمير السيد شاهنشاه فخر الدولة ، وفلك الأمة علىٰ خَدَمه : من جليل عوارفه الجارِيةِ علىٰ يد الصاحب الجليل كافى الكُفَاة أدام الله تأييـده ، والواصلةِ إلىٰ مستحِقِّيها بلطيف توصُّله ، وجميل معتَقَده . وكان موقعه جليلًا عند أبى جعفر محمد بن مسعود أيده الله فى جنب ما يُصْلِـح من شأنه ، ويُقيم من جاهه ، ويرب من معايشه ، ويُلِمُّ من حاله . وقد كتبنا إلىٰ مولانا فى ذلك كتابا مجملا قَصرناه علىٰ الرَّغْبة إليه ، فى ردّ هذه المَعَايِش عليه ؛ وعوّلْنا علىٰ الصاحب الجليل فى إخراج أمره العالى بذلك له ، وإحكامِ المناشير والوثائِق بجميعه ، والتقدّم بمكاتَبة العُمّال والوُلاة بتقوية أيدى أصحابه ، فى آستيفاء ما يجب من الأسلاف والبَقَايا ، علىٰ الأَكَرةِ والمُزارعين ، والوكلاءِ والمعاملين ، وتأكيد الكُتُب بغاية ما تؤكّد به أمثالها ، ويبلغ به أبوجعفر مَحابّه كلَّها . فإن رأىٰ الصاحب الجليلُ أن يأتى فى ذلك كلّه مايجده ويعده ويَرْعاه ويحفَظُه ، جاريا علىٰ المألوف من مُثابَرته علىٰ ما عاد علينا وعليه معنا بطِيبِ الذِّكر والبِشر ، وثَناءِ اليوم والغد ، فقد أنفذنا بهذا الكتاب ركائب لنا دِلالةً علىٰ خصوص متضمّنه فى تعلقه بالاهتمام منا ، فعل إن شاء الله تعالىٰ .

الضرب الثـانى
(أن تكون المكاتبةُ من ملك إلىٰ ملك)

ورسْمهم فى ذلك أن يُفتَتح الكتابُ بلفظ : كتابِى والأمرُ علىٰ كذا وكذا ، ويُؤتىٰ بالتعبير عن المكتوب عنـه فى أثناء الكتاب بلفظ الإفراد دون الجمع ، وهنـا يفَخّم شأنُ المكتوب إليه ، فيعبَّرُ عنه بمولاى وسيدى ، ومولانا وسيدنا ، ونحو ذلك .

ثم هـــو علىٰ مراتب (١) :

المرتبـــــة الأولىٰ
(أن يكون المكتوب إليه مَلِكا أيضـا)

فيخاطبه علىٰ قدر مَقَامه بالسيادة أو غيرها مع الدعاء بمـا يناسبه : من طُول البقاء ونحوه؛ ثم تارة يَقَع التعرُّض فيها بذكر الطلب و برَفْع الحال التى هو عليها ، وتارة لا يقع التعرُّض إلىٰ ذلك ــ كما كتب أبو إسحاق الصابى عن عز الدولة ، بن مُعِز الدولة ، آبن بويه ، إلىٰ عضد الدولة بن بويه فى طَلَب الصُّلْح ، وقد جرىٰ بينهما آختلافٌ .

كتابى ــ أطال الله بقاءَ مولانا الملك الجليل المنصور عضـد الدولة ــ من العسكر بظاهر سُوق الأهواز ، ومولانا أمير المؤمنين مشمولٌ بالكفاية والتأييد ، مخصوصٌ بالعز والتمكين ؛ يجرِى علىٰ أفضلِ ماعوّد الله خُلفاءَه فى أرضه ، وأحِبَّاءَه فى رعاية خَلْقه ؛ من التكفُّل لهم بالإظهار والإداله ، وتولِّيهم بالإعلاء والإنافه ؛ وأنا مستظِلٌّ بكَنَف طاعتـه ، مستكِنٌّ فى حَرَم مشايعته ؛ شاكرٌ لله علىٰ بَلَائه ، مُثْنٍ عليه بآلائه ؛ راغبٌ

(١) لم يذكر فى الأصول غير الاولىٰ ويظهر أن التقسيم سهو فان المقسم هو الكتابة من ملك إلىٰ ملك وهو عين المرتبة الأولىٰ فتأمل .

إليه أن يَعْصِمَنى فى مولانا الملك الجليل المنصور وفى نَفْسى من كل مكروه ومستَهْجَن، ويُوفِّقَنى وإيّاه لكل مستَحَبّ ومستحْسَن ؛ ويُعيذَنا من المُقام على الفُرْقه، والزّوال عن سَنَن الأُلْفه؛ وهو المحمودُ ربُّ العالمين .

والحقوقُ بين مولانا الملك وبينى فيما قررتْه منا اللُّحمه، وأكّدته العِصْمه ؛ وأثّلته الأسلاف ، ونشأتْ عليه الأخلاف ؛ حقيقةٌ بأن لا تتسرّع إليها دواعى النّقْض، ولا تتمكّن منها مُلِمّات النَّسْخ ؛ ولا يَتِمّ للشيطان عليها مايحاوله بِنَزْغه ، ويتوصّلُ إليه بكيده ؛ وأن تتزاحَ العوارِضُ عنها ، وتَضْمَحِلَّ دُونَ التأثير فيها ؛ وأن نعتقد جميعا أنّ بتقارُضِنا رعايتَها ثباتَ النعم المتصلة بها ، فلا يستنكفُ مستنكِفٌ منّا أن يَخْفض جناحَه لأخيه ، ويَغُضَّ من جِماحه فى مقاربة ذويه ؛ إذ كان ذلك حاميًا له فى أهول الأحوال مِمّا هو أشدُّ خَفْضا، وأبلغُ رَضّا، وأسوأُ مَغَبَّة ، وأنكرُ عاقبة .

وقد علم مولانا الملك المنصور بالثاقب من تأمله ، والصحيح من تمييزه وتدبُّره ؛ أن دولتنا ـ حرسها الله ـ مبنيّةٌ علىٰ أُسّ الترافُد والتعاضُد، موضوعةٌ علىٰ قاعدة التوازُر والتظافُر ؛ وأن مشيَخَتنا وسادتَنا رضوانُ الله عليهم جعلوا الإئتلاف رِتاجًا بين الأعداء وبينَها ؛ ثم إن مِفْتاحَه هو الخلافُ المتطرّق لهم عليها ؛ ولو حدث التنافُر فى أيام رياسةِ أضعفِنا مُنّة ، وأوهَنِنا عُقْدة ؛ وأحْدَثِنا سِنّا ، وأقلِّنا حُنْكة ؛ لكان ذلك أقلّ فى التعجُّب من أن يَعْرِض فى رياسة أحْصَفِنا رأيا ، وأسَدِّنا تَدْبيرا ، وأوفانا حِلْما ، وأكملنا حَزْما . وقد تكررتْ ـ أيد الله مولانا ـ علىٰ ذاتِ بيننا قَوارِصُ آحتقَرْناها حتّى آمتلأ الإناءمن قَطْرها، وآستقَيْنا منها علىٰ العظيمة التى لاثَواءَ بعدها ؛ وما أعُودُ علىٰ نفسى بلَوْم فى آبتداء قبيح آبتدأته ، ولا بمَرْكب شَنيع رَكبته ولاحَقّ آطَّرحتُه ، ولا آستصلاحٍ تركْتُه ؛ ولا أدفَعُ مع ذلك أننى قابلتُ لما تضاعَفَ بالأقل

*

الأيسر ، وجازيت لما ترادف بالأدون الأنزر ؛ إلا أني ما آثرتُ كثيره ولا قليله ، ولا اخترتُ دقيقه ولا جليله ؛ لكنه لم يصلُح في السيرة — وقد أشفينا على التزاحف للحرب ، والتدالُف للطعن والضرب — أن أستعمل ما كنتُ عليه من توفية الحقوق ، وإقامة الرسوم ، فيراني الأولياءُ الذين بهم تُحمَى البيضه ، وتُحاط الحوزه ؛ متناقضَ الفعلين ، متنافِيَ المذهبَين ؛ وكنتُ في ذلك الفعل الذميم ، والرأي الذي ليس بمستقيم ؛ مقتديًا لا مبتدِيا ، ومُتَّبعا لا مبتَدِعا . ولو وقف بي مولانا الملك الجليل قبل أواخر الجفَاء ، وعطَف معي إلى أول شرائع الصَّفاء ؛ لكانت عَريكتي عليه ألين ، وطريقُه إلى ارتباط طاعتي وولائي أقصَد ؛ لكنه أيَّده الله أقام على ما لا يليق به من مجانبتي ومغالظتي ، وبثِّ الحبائل لي ودسِّ المكايد إليّ ، ومتابعته الجواسيس والكتب إلى الأولياء في عسكري الذين هم أولياؤه ، إن أنصف وعدل ، ونصحاؤه ، إن أحسن وأجمل .

وكان الأشبهُ بمولانا لو كنتُ الغالطَ عليه ، والباعثَ لهذه الأسباب إليه ، أن يَسُوسَني سياسةَ الحكيم ، ويستخلِصَني استخلاصَ الكريم ؛ إذ كُنّا لم نقدِّمه معشرَ أهلِ البيت علينا ، ونُوَلِّه أزمَّةَ أمورنا ؛ إلا ليأسُوَ جُروحَنا ، ويَجبُرَ كسورَنا ، ويتعهَّدَ مُتشيِّثنا ، ويستَميلَ نافِرَنا ؛ فأما أن يُحاولَ منا استباحةَ الحريم ، وإركابَ المركَبِ العظيم ؛ فكيف يجوزُ أن تدومَ على هذا طاعه ، أو تَصْلُحَ عليه جماعه ؛ أو يُغضِيَ عليه مُغضٍ ، أو يَصفَح عنه صافح ؟ . وكان من أشدِّ هذه الجفوة وأفظعها ، وأقساها وأغلظها ؛ أن عاد رسُولي من حضرته خاليًا من جواب بما كتبتُ إليه ، وما أعرف له أيده الله في ذلك عذرًا يبسُطه ، ولا سالك منه السبيل التي تشبهه ؛ وبالله جُهْدَ القسَم ومنتهاها ، وأجلِّها وأوفاها ؛ لقد سار مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، ونَسرتُ إلى هذا الموضع ، واعتقادُنا لا يجاوزُ حفظَ الحدود والأطراف ، وحياطةَ النهايات

والأكناف ؛ والأغلبُ علينا أنّ مولانا الملك – أدام الله تأييده – لا يتجاوز معى المعاتَبةَ اللطيفة ، والمخاطبةَ الجميلة ؛ والاستدعاءَ منّى لما يَسُوغ له أن يطلبه ولى أن أبذُله ، من تعفية السالف ، وإصلاح المستأنَف ، وتوفيَة للحق فى رُتْبة لا أضِنُّ بها عليه ، ولا أستكثر النّزولَ عنها له ؛ وتقريرِ أصلٍ بيننا يكونُ أيده الله به معْقِلا لى ومَوْئلا ، وأكون نائبًا له ومظَفَّرا – إلى أن بدأ الأصحابُ بالعَيْث فى هذه البلاد ؛ وألَحُّوا عليها بالغارات ، واعتمدُوها بالنِّكايات ؛ وكان هذا كالرَّشاش الذى يُؤْذِن بالانسكاب ، والوميض الذى يُوعِد بالاضطِرام – وأوجَبْت قبل المقابلة عليه والشُّروع فى مثله فى حقِّ مولانا الملك الجليل ، الذى لا أدَعُ أن أحفَظ منه ما دعانى إلى إضاعته ، وأتمَسَّكُ بما اضطَرَّنى إلى مفارقته ؛ أن أُقدِّم أمامَ الالتقاء على الحربِ التى هى سِجَال كما يعلمُ ، إبلاغَ نفسى عُذْرَها وإعطاء المَقَادة منها ؛ داعيا له إلى طاعة الخالق والإمام ، وصِلَةِ اللُّحَم والأرحام ، وحَقْن الدماء والمُهج ، وتسكين الدَّهْماء والرَّهَج ؛ وثَنْى العِنَان عن المَوْرِد الذى لا يَدْرِى وارده كيف يَصْدُر عنه ، ولا يَثِق بالسَّلامة منه ؛ وتعريفى ما يريده منِّى لأتبعَه ما لم يكن ثالِمًا لى ، وعائدا بالوَهَن علَىّ ؛ والله الشاهدُ على شهادةٍ قد علِمَ إخلاصى فيها ، وسماحةِ ضميرى بها ؛ وإننى أكرهُ أن أنال منه ، كما أكره أن ينَالَ منى ؛ وأتألَّمُ من أن أظْهَرَ عليه ، كما أتألَّمُ أن يَظهرَ علىّ ، وأُحِبُّ أن يَرْجِعَ عنى وأرجعَ عنه ؛ وقد التقَتْ قلوبُنا ، وتألَّف على الجميل شمْلُنا ؛ وطُرِفَتْ أعينُ الأعادِى عنا ، وانحسَمَتْ مطامعهم فينا ؛ فإن فعل ذلك فحقيقٌ به الفضل ، وهو لعَمْر الله له أهلٌ ؛ ولا عُذْرَ له فى أن لا يفعله ؛ وقد وَسَّع الله ماله ، ووفَّر حالَه ، وأغناه عمّا يلتمسه الصُّعْلوك ، ويُخاطِر له السُّبْروت ؛ وجعله فى جانب الغِنَى والثَّرْوة ، والحَزْم والحَيْطة ؛ وإن أبَى فكتابى هذا حجةٌ عندالله الذى نستَنْزِل منه المعونةَ وعند الناس الذين نلتَمِس منهم العَصَبِيَّة ؛ وقد أنفذت به إسفَنْدار بن خُسْرويه وإبراهيم

ٱبن كالى ، وهما ثِقَتاىَ وأمِيناىَ ، ليؤدِّيَاه ويُشافِهَاه عنِّى بمثـل متضمَّنه ونجْواه ؛ والله يُعيذنا فى مولانا الملك الجليل من أن يختارَ إلا أوْلىٰ الأمرين وأليَقهما بدِينِه ومُرُوءته ، وهو ولىُّ ما يراه فى الأمر بتعجيل الإجابة بمـا أعمَـلُ عليه ، وأنتهِى بالتدبير إليه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الضرب الثـالث
(أن تكون المكاتبة عمَّن دُونَ الملك إليـــه)

ورسمهم فيه أن يُبْتَدأ بلفظ كتابى ، والدعاءِ للمكتوب إليه بطول البقاء ونحو ذلك ، ويخاطب فى أوّل الكتاب بمولانا الملكِ السيـدِ الأجلّ ؛ وفى أثناء الكتاب بالسيد والملك ونحو ذلك ؛ ويعبر عن المكتوب عنه بلفظ الإفراد :

كما كتب أبو إسحـاقَ الصابى عن الأمير نصر خُوزه فيروز بن عَضُد الدولة إلىٰ ٱبن عمه شرفِ الدولة يذكر له حالَه مع أخيه صَمْصام الدولة .

كتابى ــ أطال اللهُ بقاءَ مولانا الملكِ السيد الأجلِّ ، شرفِ الدوله ، وزَيْنِ المِلَّه ، والسلامةُ لى شاملةٌ بمـا مدّه الله تعالىٰ علىّ من ظِلِّه الظليل ، ورأْيِه الحسنِ الجميل ؛ والحمدُ لله رب العالمين . وقد تأدّىٰ إلىٰ مولانا الملكِ السيد من أخبارى ما أستغْنِى به عن تطويلِ المُفَصَّل ، وأكتفِى به عن إجمال المُجْمَل ؛ وذلك أن أسفار بن كردويه وعبد العزيز بن برسف الكافرَيْن لنَعْماء الله ونعمة الملك السعيد عَضُـد الدولة أبينا رحمة الله عليه قَبْلنا ، الغامِطَيْنِ لمـا تظَاهَرَ عليهما من إحساننا وإفضالنا ؛ هجَمَا علينا بِخُدْعة تظافَرَا عليها ، وشُبْهة جذَبانى إليها ؛ وأبْرمَا كَذِباً من القول لم أظُنّهما يُقْدِمان

على مثله، ولا يتفوّهان باطّلابه؛ فأصغيتُ إليهما إصغاءَ الواثق بهما لا المنخدع لهما؛ فلما أنزلاني على حكمهما، وأوثقاني بحيث لا أستطيع مخالفتهما؛ ظهرتِ الحيله، ووضحتِ الغيله؛ وفاتني الاختيارُ، وغلبني المقدار؛ فجرى ما كانت عاقبتُهُ خذلانَ الله إيّاهما، وإزالَهُ بأسه ونقمته عليهما؛ وخلاصي بسلامة الصّدر، وانتضاح الغدر، من حبائلهما المنصوبه، وأشراكهما المبثوثه. ولما حصلتُ في كنف الملكِ السيد صمْصام الدولة أقالني العثره، وقبل منّي المعذره؛ وأحلّني من دراه وحماه بحيث لم أعدم عاده، ولا انقطعت عنّي ماده؛ وكانت الحال توجب مقامي فيها إلى أن تتعفّى آثارُ الفتنة التي أثارها ذانكما الخبيثان الجانيان.

ثم ورد فلان في الرسالة، وتمّم اللهُ على يده عقدَ الصلح والمسالمة؛ فأُخرجتُ عن الاحتجاب إلى الظّهور، وعن الاحتجار إلى البروز؛ وأُنزلتُ من الدار المعمورة في جانبٍ يصل إليّ منه سَيْب وصوله على العموم دون الخصوص، وعاملني الملكُ السيدُ صمْصام الدولة بما يليق بفضله متّبعا في ذلك مقاطعة السيف بينه وبيني؛ وطاعةَ مولانا الملك السيد الأجل شرف الدولة في أمري، وجدّد عندي من الإنعام والتوسعة والإيثار والتكرمة آخرا ما شفع تلك الشّفقة أوّلا؛ ولقيني فلان دفعات، وشافهني مرّات؛ وتحمّل عني إلى مولانا الملك موالاتي الشكر كثيرا، واعتدادًا طويلا عريضًا؛ ودعاءً اللهُ يسمعُ مرفوعه، ويجيب مسموعه؛ بمنّه وقدرته، وحوله وقوّته.

والآنَ فإذ قد جمعَ اللهُ الكلمه، ووكّد الألفةَ وحرس النّعمه؛ وحصّن الدولةَ وأخرج عنها مَنْ كان يَشُبُّ الفتنه، ويُسْدِي ويُنير في الفُرْقه؛ فإنّي واثقٌ بالله جل وعز وبما تترقّى الحالُ إليه في غاية محبوبي، ونهاية مطلوبي؛ وأقاصي ما تبلُغُه

أُمْنِيَّتِى ، وتسمُو إليه هِمَّتِى ، وتقتضيه أُخُوَّتِى وعِصمتى ؛ ولله المشيئة ، ومنه المعونة ؛ فإن رأى مولانا الملكُ السيد أنــ يَسْكُن إلىٰ سُكونى ، ويطمئن إلىٰ طُمأْنينتى ، ويُجرِىَ إلىٰ غاية فضله وطَوْله فى الأمر الذى أحسَنَ فيه وأجمل : ليشمَلَنَا إنعامُه ، ويتظاهر علينا آمتنانُه ؛ وأستوفِىَ بَقِيَّةَ حظِّى مِنــ ثمرة ذلك وعائدته ؛ وجَدْواه وفائدتِه ؛ ويأْمُرَ بتشريفِى بكتابه ، وتأهيلِى بجليــلِ خِطابه ؛ وتَصْرِيفِى بين أمره ونهيه ، فعل ، إن شاء الله تعالىٰ .

تم الجــزء السادس . يتلوه إن شاء الله تعالىٰ الجــزء السابع

وأوّله الطـــــرف العـاشر

(فى المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته علىٰ سيدنا محمد خاتم الأنبيــاء والمرسلين

وآله وصحبــه والتـابعين وســلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

